مُعجَم

أسمَاء ٱللهِ الحسْنَى

تـأليف

سيّد أحمَد محسّب مرسي

المكتبة الثقافية
بيروت

مُعجَم
أسماء ٱللهِ الحُسْنَىٰ

مُعجَم
أسماء الله الحُسنَى

تأليف

سيّد أحمد محتسب مرسي

المكتبة الثقافية
بيروت

الطبعة الاولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[1]، من عجيب الأمر أن تسد الأمور وتغلق الأبواب وكل طرقه يترصدها الصد والفشل أمام إنسان بعينه وهو لا يدري أنه بعناية الرحمن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وها أنا ذا الآن أعود إلى رحاب القرآن لعل الله يجزيني خيراً مما أسعى إليه بين يدي الناس من مال أو جاه أو سلطان.

لقد طوفت في القرآن وها هو الوقت والزمن قد أقبل لأكتب في موضوع الأسماء الحسنى وهي كما نعلم أجل الموضوعات التي طرقها القرآن حيث تتعلق بالمحكم والمتشابه وتتعلق بالرموز في فواتح السور وتتعلق بالتنزيل وتتعلق بالفقه القرآني وهي التي حملت الموضوعات في الله ذاتاً وموضوعاً.

لقد انفرد القرآن دون التوراة ودون الإنجيل بتنزيل أسماء الله وصفاته لنتبين مسألة الكشف عن الذات الإلهية والذات الربانية ولذلك فإننا نجد أن المعرفة في القرآن كله تبدو لنا أنها عقيدة خاصة لمحمد ﷺ في أمر ربه رغم أنها رسالة للناس كافة.

---

(١) سورة طه: الآيتان ٤٠ ـ ٤١.

لقد نزل القرآن منجماً وفي كل خطوة وفي كل أمر من أمور الدعوة كشف القرآن لرسول الله عن معرفة جديدة في الله وأطلق الأسماء وحدد الصفات ليتبين الناس مدى ما يمكن أن يكون الله سميعاً بصيراً أو عليماً حكيماً أو غفوراً رحيماً، ليكون من ذلك كمالات للإنسان ومجالات للعقل البشري لا يحدها موقف ولا يعجزها أمر، ولهذا رأينا ما من موقف تأزمت فيه الأمور أمام الدعوة حتى جاءها الحل من العليم الحكيم أو العليم الخبير أو السميع البصير لنعرف مدى الامكانات البشرية المودعة في باطن الإنسان وهو الذي يغفل عن ذلك ولهذا كانت التنزيلات بأسماء الله الحسنى شاهدة على هذا الأمر ولنا أن نتساءل لماذا وردت أسماء الله الحسنى فرادى ومثاني؟.

تلك المسألة إنما ترجع بجذورها إلى العقل الفردي كما تعين في محمد ﷺ والرسل وإلى العقل الكلي كما تعين في التاريخ إذ المهيمن أو الملك أو القدوس لا يعرف لها حدود في العقل إلا من قراءة التاريخ وكلياته وسنتبين في القصص الأممي والقصص القروي أن موضوعاً كموضوع الهيمنة قد فتح الباب أمام الفقه الرياضي الذي ورد شاملاً للسور القرآنية التي أفتتحت بالرموز وكونت القرآن المحكم وهو ما يعتبر مفتاح القرآن كله.

نتيجة لذلك وجدنا أسماء للذات الإلهية مثاني مثل السميع البصير ووجدنا أسماء رمزية مثل «ألم» لنتبين مدى التطور في المعرفة بالله وتشكيل تلك المعرفة بحسب مقتضيات الظروف والأحوال فنجدها في الحوادث اليومية والجزئيات مثاني لمشابهة العقل الفردي ونجدها في الحوادث التاريخية فرادى ونجدها في الفكر رموزاً وشفرات.

لقد تداولت التوراة والإنجيل الذات الإلهية والربانية وقدمت أعمال الرب وشعب الله المختار والإله المشخص في المسيحية حتى القيامة الخارقة ولكنها لم تقدم الله في ثوبه القرآني على التفصيل كما فعلت نظرية الأسماء الحسنى إذ نتبين أن الأسماء الزوجية مثل السميع البصير وغيرها مما ورد في

المثاني يفتح باب علم النفس الفردي والقدرات الروحية لدى الأفراد حتى كان محمد ﷺ مثلاًلذلك، ثم تقدم الأسماء الفردية مثل المهيمن وغيره علم التاريخ والقوميات والأمم وكيف هيمن الله على الحضارات الواحدة تلو الأخرى ثم جاءت الأسماء الرمزية مثل «ألم» لتقدم العلوم الفكرية والفقه والشريعة وأصول الاعتقاد والقضايا البنيوية التي تشابكت أصولها وظهرت واضحة في «ألم» «المر» «المص» «حم» «طسم» وكلها تشترك في مفهوم «ألم» وأنساقها البعيدة الغور في عشرات السور القرآنية الطوال.

إن إله موسى في التوراة غيره في الإنجيل ولذلك تصادمت الديانتان تصادماً عنيفاً ويكتشف القرآن أن الإله هو رب العالمين كما تتبدى ظواهره في الطبيعة ليجعل من موضوعات الألوهية موضوعات علمية وبذلك الاكتشاف جعل من نبوة محمد ﷺ آخر النبوات ومن لاهوت القرآن خاتمة المطاف في مشاكل أهل الأديان، وليس أدل على ذلك أنه جعل للآيات الطبيعية الهيمنة على ما ورد من آيات الفكر والدين ومشاكل أهل الكتاب والأديان حتى أخذت السورة القرآنية عناوينها من الشمس والقمر والليل والنهار والنمل والنحل.

إن الجهد الخارق الذي بذله الوحي لتوضيح معالم الذات وأسمائها الحسنى استغرق القرآن كله وما من آية من الآيات وما من سورة من السور وما ضمه كتاب من الكتب القرآنية إلا وجاءت نسبته إلى اسم من أسماء الله الحسنى لنتبين أن المعاني التي حملت الأسماء الحسنى فوق الوصف وفوق الحصر وفوق كل فقه حيث جعل القرآن أن الوجود الحق إنما هو وجود الله وأنه ما من مخلوق أو كائن إلا ويستمد نفخه من نفخات هذا الوجود.

يخطئ من يعتقد أن القرآن حصر أسماء الله الحسنى حيث يتبدى التطور في العلوم المعاصرة فتظهر لنا أسماء الله قد كانت في طي الوجود الأزلي مثل الله التكنولوجي أو الله الكيماوي أو الله الفضائي أو الله المبدع في كل نشاط وفي كل منحى للكمال والجمال إذ هو الحي القيوم.

﴿رب المشارق والمغارب﴾.

كم من آيـة من آيات الخلق والإبـداع أشرقت بنـور ربها وكم من علم وعالم داهمه الغروب والفناء وكم من أحداث التطور جاءت ثم أفلت وكم من نظرية من نظريات العلوم والمعرفة صـدقت حيناً من الـدهر ثم زوت واختفت وحل محلها الجديد الناهض؟.

لقد فتح القرآن باباً للمؤمنين بالله لم يغلق أبداً وفي كل يوم يظهر لهم الله باسم جديد من جليل أسمائه وبصفة من صفات الروح الذي يتبدى في الأمم والحضارات، وفي كل يوم يكتشف العلماء أنه لو كان البحر مداداً لكلمات الله لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلماته حتى قال القرآن والبحر يمده سبعة أبحر ما نفذ إبداع الله وكمالاته.

لقد تعاقبت الحضارات ويكتشف القرآن التبدي الإلهي في كل واحـدة بمميزاتها الخاصة ويقول «هيجل» إن الروح الذي يتبدى في العالم هـو الذي يحدد لنا مسار حركة التاريخ ويكتشف الإنسان أن المادة والروح وجهان لشيء واحد وكما يمكن ارساء الحضارة على قاعدة مادية كذلك يمكن ارساؤها على قاعدة روحية والشرط الوحيد لضمـان نجاح هـذا الأمر هـو مقتضيات السـلام والإخاء.

«المؤلف».

الباب الاول

الفصل الأول

الفقه الرمزي للأسماء

لقد نزل القرآن على قلب محمدﷺ لبيان العلاقة بينه وبين ربه حتى قالﷺ «أدبني ربي فأحسن تأديبي» ولذلك كان القرآن بالدرجة الأولى عبادة ربانية خالصة تقرب بها رب محمدﷺ إليه واتخذها محمد ﷺ وسيلة لمعرفة تلك الذات التي ملأت كل جوانحه حتى لا يكاد ينام الليل إلا قليلاً.

وشأن أي اتصال بين عالم الرب وعالم العبد قامت العقبات وبينها التنزيل في حينه مثل تعرض محمدﷺ لظاهرة النسيان وظاهرة التسرع وظاهرة الخلط وأخيراً ظاهرة ومشاكل تكرار القضايا ولهذا الجأ القرآن في كثير من القضايا إلى التكثيف والحمل وهو ما قامت به الأسماء الحسنى في الأسماء المزدوجة والأسماء المفردة والأسماء الرمزية.

تلك المعاني الكثيفة التي تحملها الأسماء جعلت من مشكلة الفقه مشكلة قرآنية كبرى حتى قال علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ما من آية في القرآن إلا ولها ظهر وبطن وما خفي عن العامة من آيات الكتاب الدفينة هو الذي أنبت في الأمة نبت الشيطان والفرق والطوائف واختلاف العقول في التفسير.

الملل والنحل والفرق والطوائف كلها جميعاً قد شابهت ما حدث لليهود من اختلافهم وتمزقهم في فهم التوراة حتى صارت الأمة اليهودية الواحدة أمماً وطوائف وجماعات ومثلها بكل أسف ما حدث للأمة الإسلامية وتنبأ به محمد ﷺ نفسه لأن المشكلة في منهج المعرفة مشكلة كبيرة بدت كأنها بلا حل.

تلك المشكلة مردها أساساً إلى اختلاف الناس في القدرات العقلية وهي مسألة قدر حتى يقول القرآن﴿**وما يزالونَ مختلفين**﴾وأنه يعتبر هذا الأمر وتلك المشكلة لعنة من لعنات إبليس ولهذا يقول ﴿**إلا من رحم ربك**﴾.

قابل التنزيل مشكلات كثيرة حتى قدم القرآن الحكم وقدم القرآن المتشابه وقدم القرآن المفصل وقدم القرآن المبين وقدم القرآن الحكيم وقدم القرآن العليم وقدم القرآن العظيم ليواجه مطالب المتلقي ومطالب المتعلم ومطالب المؤمن ومطالب المسلم ومطالب الكافرين حتى مطالب أهل الكتاب والأديان أيضاً.

لكن المسألة التي أرقته أشد الأرق هي كيفية تجنب الأمة ما حدث من الفرقة والاختلاف في شأن تفسير النصوص ولذلك قدم القرآن الأسماء الحسنى والتنزيل بها كي تكون مفتاحاً للفهم الذي لا يختلف عليه الناس، ولنضرب لذلك مثلاً إذ نجد أن كثيراً من الآيات قد ذيِّلت بالعليم الحكيم في سور مختلفات لنتبين من ذلك أنه يتحدث في القضايا العلمية فترجع الأمة بفتاويها إلى المختصين من العلماء في كل فرع من فروع المعرفة ومثل ذلك ما ذيلت به الآيات من السميع البصير لتتبين الأمة أنها قضية القدرات البشرية فترجع بفتواها إلى القادرين في الشؤون الإنسانية من علماء النفس والاجتماع وغيرهم، ومثل ذلك ما جاء من العليم الخبير لارجاع المسائل إلى العلماء والخبراء على طريق التطور والكمالات والتقدم حتى أن رسول الله نفسه قد استشار في غير مأزق دون حرج.

كيف يتحول هذا المفتاح القرآني إلى أداة معاصرة بين يدي الأمة؟.

تلك هي المشكلة التي أثارها أكثر من مرة الدكتور زكي نجيب محمود والذي قام بجهد كبير في الكتابة عن المعاصرة من خلال العلمانية وكان بودي لو كتب المعاصرة من خلال الفكر الديني لأنه كما نعلم آفة الأمة.

في نقد القرآن لأهل الكتاب والأديان يلفت النظر في كل موضع إلى مسألة تمزق أهل الدين الواحد ويندد بهذا الأمر ويشيح بوجهه عنه وهو يعلم أنها آفة الأمم ومقتل الحضارة والقوميات ولذلك بذل القرآن جهداً خارقاً في أحكام القرآن لتلافي هذا الأمر وشاهد ذلك أنه جعل أسماء الله الزوجية محكمة للآيات وصدر كل سورة محكم لما ورد فيها وجعل أسماء الله الفردية محكمة للموضوعات التاريخية وجعل الأسماء الرمزية محكمة للكتاب القرآني وضم تحت عنوانه العديد من السور مثل كتاب «ألم» الذي شمل «البقرة» و «آل عمران» و «العنكبوت» و «الروم» و «لقمان» و «السجدة» وهي السور القرآنية التي تداولت مشكلة الهيمنة وكيف اشتق القرآن من تلك الموضوعات اسماً جليلاً لله سبحانه وتعالى ألا وهو «المهيمن».

ومثل ذلك ما ورد في شأن كتاب «الر» وما اشتمل من السور لكي يجعل من تلك الأسماء مفاتيح ومراجع للباحثين في الموضوعات تجنباً لمشكلة الاختلافات والتمزق بل والتحريف مثلما فعل اليهود في التوراة وأن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي تضمن المحكم باللفظ والرمز والآية والكتاب المحكم.

ليست وظيفة المحكم ولا من شأنه اعطاء المعنى الواحد للآية أو الكتاب القرآني وإنما وظيفته التحديد من أجل الدقة تجنباً للتحريف والاختلاف والدس لذلك كانت الأسماء الحسنى هي المرجع الوحيد للدراسات الفقهية بل إنها هي بعينها الدعاء الحق الذي يجنب الإنسان الزلل.

لكن المسألة لم تقف عند هذا الحد حيث كان البون واسعاً بين مفهوم

العرب لتلك الأسماء ومفهوم القرآن لها حتى أنهم لم يفهموا دعـوة محمدﷺ لأن يكـون ربهم ومنهجهم هـو «الـرحمن» ومـا يستـوجب ذلـك من العــدل الاجتماعي والإنساني والعلميّ لمناحي الحياة فكانت قولتهم المشهورة ﴿**قَالُوا وَمَا الرَّحْمَـنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرنَا وَزَادَهُم نُفُـوراً**﴾[1] ولهذا الأمـر نزلت سـورة «الرحمن» شارحة ومبينة لمعنى هذا الاسم الجليل.

لقـد تدارك القـرآن بالمحكم المشكـلات التاريخيـة التي تعرضت لهـا الديانات اليهوديـة والمسيحية والتـوراة والإنجيل من قبـل ولكنه أضـاف على الفقـه القرآني الكثير مما يجب في شأن تفسير القرآن مما جعل المسألـة تطل برأسها عند فشل الفقهاء في الكشف عن منهج القـرآن ولذلـك كانت الفـرق والطوائف والملل والنحل نتيجة مباشرة لعجز الفقهاء عن إدراك وحدة المحكم ودقته وعدم معرفة وظيفة الأسماء الحسنى وقيمة التنزيل بعد كل آية وقيمة جمع السور القرآنية والتي بدأت بالرمز الواحد في وحدة فكرية يستطيع العقـل من خلالها تحديد الموضوعات والقضايا المطروحة.

في نقد القرآن للعقلية اليهوديـة في سورة «البقـرة» لبيان حـدود نظريـة العقل الخالص أوضح القرآن أن عقلية اليهود عقلية موروثة عن عقلية منحطة هي عقلية بني إسرائيل الذين لم يفهموا قيمة مـا نزل من التـوراة على موسى حتى أدانهم في غير موضع ومثل ذلـك ما ورد في سـورة «آل عمران» ونقـده للمسيحية واعتقاداتهم وأن ذلك كله قد أثار في القرآن حثَّ الناس على التدبر لما جاء في القرآن من القيم الروحية فكثرت ورود العبارات «لعلكم تعقلون أو لعلكم تذكرون أو لعلكم ترجعون» مما يثير نفس المشكلة التاريخية وأنها مشكلة الفقه ومشكلة قدرات العقل واختلاقاته.

ليست المسـألة مسـألة هينـة لأنها أخلفت في الأديـان الكفر والفسـوق

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٦٠.

والعصيان عند المكذبين وأخلفت عند المؤمنين التمزق والفتن وما يعانيه المجتمع الديني من ذلك يعكس آثاره على التقدم بالإحباط والفشل.

إن قضية القرآن قد ضاعت بين مختلف الطوائف والفرق والنحل والجماعات وأصبحت قضية دينية مع إصرار القرآن المحكم على جعلها قضية علمية حتى أنه استخدم المنطق الرياضي للتعبير عن القضايا ولذلك لاحظنا نقل القرآن للرمز «ألم» فجعله من محتوى «المص» و «المر» و «طسم» لتتبين دقة القرآن وعلمانيته وأنه هو المخترع الأول للكمبيوتر والمنطق الرياضي وغيره مما اعتمدت فيه المعلومة على الشفرة والرمز.

لقد جعل القرآن من الأنساق الفكرية والقضايا رموزاً حتى بدت السورة القرآنية وقد تحولت إلى معادلات رياضية عبر عنها القرآن بفواتح السور من جملة محكم القرآن فهل بعد ذلك إحكام أو دقة؟.

إن فكرة الكمبيوتر والذاكرة الشفرية هي عمل من عمل القرآن المحكم ولننظر كيف حملت «الم» معاني سورة «البقرة» و«آل عمران» و «العنكبوت» و «الروم» و«السجدة» ثم حملت معاني سورة «ص» بالاشتراك مع سورة «الأعراف» في «المص» ثم حملت معاني كتاب قرآني كامل هو كتاب «الر» بالاشتراك مع سورة «النمل» ثم اشتراك «طس» في معاني سورة «طه» وسورة «يس» ليجمعا في نسق رياضي مع ما سبق من كتب «الم» و «الر» و«طسم»، لكن التحليل هو الذي يكشف لنا عن تلك التراكيب، فلو فرضنا أن كتاب «طسم» كتاب مركب لتبينا أن عناصره هي «ط» و «س» و «م» وعناصر «ط» اشتقت من سورة «طه» وعناصر «س» هي من سورة «يس» وعناصر «م» هي من السور القرآنية التي حملت معاني «الم» ومشتملاتها وعلاقاتها لنتبين مراد القرآن من عملية التشفير الكبرى التي قام بها وأنه أراد أن يسهل على الباحث في تلك القضايا المشتركة وموضوعاتها المتفرعة وليضع يده على أمهات المناسبة والمسألة.

كل ذلك حملته الأسماء الحسنى مشفرة مثل «م» للدلالة على «مهيمن» ومثل «ر» للدلالة على «رحمن» ومثل «طه» للدلالة على «طاهر هادي» ومثـل «ص» للدلالـة على «صمد» ومثـل «حم» للدلالة على حي مهيمن، إلا دلالـة «يس»فإنها الوحيدة التي أشارت إلى«آيات وسنن»لأنها حملت مصدر المعرفة من جهة الطبيعة وكأن المعرفة قد قسمت بين الله وأسمائـه الحسنى والطبيعـة وآياتها وسننها.

لكننا نلحظ في عملية تحميـل المعاني والمـوضوعـات على أسماء الله الحسنى تقابلاً عجيباً إذ يفصل القرآن في الآيات ثم يحملها على اسم زوجي داخل السور ولكنه في الشفريات يعكس هذا الوضع إذ يحكم المـوضوع في صدر السورة ثم يفصل بعد ذلك وهذا وضع بجلاء تام في كتاب «الر» لنتبين أن وظيفة المثاني في الأسماء مثل السميع البصير أو الغفور الرحيم هي للتكثيف والتحميل ولكنها في الشفرة للتحديد حتى لا يضل الباحث طريقه إلى القضايا الكلية التي يريد أن يبحثها وكأن الشفرات مفاتيح القرآن المحكم.

ولنضرب لذلك مثلاً عندما يريد البـاحث أن يحدد مـوضوعـات الهيمنة التي وردت في القرآن فإن عليه البحث في كتاب «الم» و «المر» و «المـص» و«طسم» و «حم» حتى يستكمل موضوعات البحث وعناصره في القرآن كله.

لقد كان التشفير من أجل مساعدة الباحث وبذلك أخذ وظيفته من وظائف البيان القرآني لأنه بدون هذا المفتاح يستغلق القرآن على الفهم وهذا هو الذي جعل دراسة الأسماء الحسنى مطلباً ملحاً عند كل فقيه، ومن لم يدرك مفـاهيم تلك الأسماء فلن يستطيع أن يقوم بمهمته في اقتران الأسماء الحسنى بالقضايا والموضوعات داخل السور وداخل الكتب القرآنية والكشف عن المناسبة نتبين تحديدات المعاني للأسماء الحسنى وما يراد بها فإذا لم يعرف العربي معنى «الـرحمن» لا يستـطيـع أن يستفيـد من دراســة الأسمــاء الـحسنى فـي المجالات المعاصرة إلا إذا كانت المناسبة القرآنية حاضرة بين أيدينا، ولنضرب

مثلاً لذلك فما هي الوظيفة الفكرية التي يقوم بها اسم «الحي» و «القيوم» الذي وردت في سورة «البقرة» وآية الكرسي وهي نفسها قد وردت في صدر سورة «آل عمران».

لقد كانت المناسبة في آية الكرسي أن سلطان اليهود قد استشرى بحيث ذهب سلطان الله، والقرآن يقول لنا إن الله لم يترك العالم عبثاً وأنه هو وحده، هو الذي له الهيمنة على العالم وأن اليهود لا يصح أن يكون لهم من دون الله هذا السلطان لأن الله هو الحي على الحقيقة وأنه هو الذي يهب الحياة للناس وليس اليهود ومثل ذلك هو القيوم الذي يرعى ويقوم على شؤون الخلق وأن الاستفادة العصرية لمثل تلك الأسماء وهي أنه تقرير لمبدأ حرية الإنسان وأنه لا عنصرية ولا شعب الله المختار التي يدعيها اليهود وغيرهم وأن الديمقراطية المعاصرة والسلام العالمي والإخاء الإنساني كلها اشتقاقات من «الحي القيوم» وأن المناسبة قد كشفت عن السياسة العالمية التي يجب انتهاجها بالنسبة للأمم والشعوب ولذلك كانت الأمة الإسلامية تدين بالحي القيوم ولا تدين بها اليهودية أو المسيحية لأنها ديانات التعنصر والعنصرية.

هذا المبدأ الذي يشتقه القرآن من « الحي القيوم» هو رفض صريح لكل ظلم يقع على الإنسان ولذلك يقول القرآن ﴿**وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَن حَمَلَ ظُلْماً**﴾[1]، لنتبين مفاتيح تلك الأسماء وأن المناسبة التاريخية والموضوع والقضية الفكرية هي الوسيلة الوحيدة لفهم معاني تلك الأسماء ومحاملها الجليلة.

لقد حملت الأسماء التكثيف والتشفير والقضايا والمعاني بل إنها حملت لنا التاريخ وحركة الفلك عند نزول القرآن وقدمت لنا المثاليات والأحكام ومن الممكن بالدراسة والبحث أن نتبين وظائفها المعاصرة لأنها مثلما هو

---

(١) سورة طه: الآية ١١١.

بين أيدينا ما زالت قضاياها حية والصراع الدولي والهيمنة بين القوتين العظميين ومواقف العنصرية والطائفية وغيرها يدخل ضمن مضامين تلك الأسماء مثلما هو الحال في «الحي القيوم» مثلاً.

لا يكشف عن جلال القرآن والجهد الفكري العظيم فيه إلا تتبع الأنساق التي وردت في الفقه الرياضي الذي ورد في أسماء الله الحسنى الرمزية التي تصدّر السور المحكمة في التنزيل لأنها تشابه تماماً الأنساق الحديثة في الرياضيات والمنطق الرياضي وإمكان تحويل وتحميل القضايا الفكرية للرموز والحروف بدلاً من الآيات والسور كما هو الحال في «الم» الذي يحمل قضايا ومعاني السور الست التي كونته بل يزيد على ذلك تحميل معاني ما اشترك معه من الكتب الأخرى أمثال «الر» في «المر» و «المص» و «طسم» وفي كتاب ظهر فيه الرمزية «م» حتى يكاد نسق «م» يحمل عشرات السور القرآنية الطوال والتي تشكل أكثر من نصف القرآن كله لنتبين كما هو في الرياضيات ومسائلها المعقدة أن أنساق الرموز وعلاقاتها تكاد لا تنتهي كلما ظهرت علاقة جديدة.

هذا الامتداد الهائل في «الم» «المص» «المر» «طسم» «حم» وما شملها يبين لنا حقيقة الفكر القرآني وتراكيبه التي لا تنتهي أبداً إذ يحمل القرآن كل التحليلات التاريخية والاستقراءات الطبيعية والحوادث اليومية للأسماء الحسنى صريحة ورمزية لنتبين مدى ديناميكية الفكر القرآني وأنه لا يعجز أن يساير كل الظروف وكل الملابسات وكل الأزمان.

تتبدل المناسبات وتتبدل الأحداث وتتبدل القضايا وتتبدل الأزمنة وتتبدل الأماكن ورغم ذلك يظهر «المهيمن» في رمزه «الم» ليقول لنا إن الوجود الإلهي لا يحد بالزمان أو المكان أو الحوادث حتى لوغايرت،وأغرب ما قدم القرآن في هذا الشأن بل من أجل أعماله أنه حمل الأسماء الرمزية هذا النسق الفكري للرياضيات ثم كشف عن صدق هذا النسق في الطبيعة وكأنه يقول إن الأنساق الرياضية للفكر الرمزي لا يداهمها الكذب والدليل على ذلك هو ما تمثله

ظاهرة «الرعد» لمصداق في هذا الشأن إذ إن تلك الظاهرة في الطبيعة المادية تحمل الأنساق الرياضية والفكرية التي وردت في كتابي «الم» و «الر» وأظهرت أن «المر» لها ما يعضدها في الطبيعة عندما تحدث ظاهرة «الرعد» لتقول للإنسان إن الله هو المهمين وإنه هو الرحمن أيضاً.

إن علم الجبر وعلوم الرياضة ليست إلا أفكاراً قرآنية ومثلما يمكن التعبير عن القضايا بالكلمات والآيات والسور فإنه يمكن للقرآن التعبير عن المحمولات في تلك الوسائل بالرموز والمعادلات بل أن «المر» و «المص» و «طسم» و «حم» ما هي إلا معادلات قرآنية والاختلافات الوحيدة بين ما حققه القرآن وما حققه الجبر والرياضيات والكمبيوتر والشفرات أن الاستخدامات الحديثة لا تستعمل ذلك في الفكر وإنما تستعملها بأغراض تتطلبها الحياة العملية المعاصرة ولكن أساسها قرآني محض.

لقد كشف المنطق الرياضي والفقه الذي وردت معانيه في أسماء الله الحسنى الرمزية أن اللغات في العقل الإنساني ما هي إلا رمز للمعارف ومن الممكن الاستغناء عن الكلمة وعن الآية بل من الممكن الاستغناء عن السورة وتشفير ذلك وتحميله على الحروف والمعادلات.

ماذا يختلف عن النتائج التي تمثلها «س+ص» «و س+ ع» حتى تظهر العوامل المشتركة في النتيجة س ص ع أو غيرها كما هو في المعادلات القرآنية.

ليس الغرض من تحميل الأنساق والقضايا على المنطق الرياضي أن يستشكل القرآن في فهمه على الناس وإنما الغرض يوفي القرآن النسق الفكري امتداداته التي تحملها الأفكار البنيوية حتى لا يترك التنزيل صغيرة ولا كبيرة إلا وامتدت يده إليها بالتحليل كأنه يخدم بذلك قضية البيان حتى لا يكون هناك مدعاة أن هذا الفكر مبتور الأواصر والعلاقات ولذلك نجد أن بعض العلاقات

لو تتبعناها لوجدنا أنها شملت القرآن من أوله إلى آخره دون تخلف أو مماراة.

ليست الرموز التي وردت في فواتح السور مقصورة المعنى على أسماء الله الحسنى ولكنها استخدمت للتدليل على قضايا أخرى مثلما ورد في «يس» إذ استخدم القرآن «ي» للتدليل على الآيات ورمز «س» للتدليل على السنن ومثل ذلك في «ق» للتدليل على القلب «ق والقرآن المجيد» ومثل ذلك ما ورد في سورة «القلم» «ن والقلم وما يسطرون» للتدليل على «يونس» وغيره ما ورد في صدر سورة «مريم» لنتبين أنه يمكن التعبير عن كل المعاني والعلاقات بالرمز الرياضي حتى توفرت المعرفة الكافية بل حتى ما توفرت غزارة المعرفة وتراكمها كما هو في القرآن إذ يكفي الرمز في العقل الشفري حتى يثير بالتداعي الحر كل العلاقات الفكرية من حوله ولذلك رأينا في التفاصيل والقصص والأمثال والمتشابه تتكرر الموضوعات والقضايا إلا من زاوية معينة ولهذا نجد قصة نوح مثلاً ترد في مواضع مختلفة وهي نفس القصة إلا من جانب واحد يختلف عن غيره ليقوم بالمهمة المطلوبة.

لقد أدرك القرآن الخاصية الأساسية التي يعمل بها الإنسان وهي خاصية الرموز وأما كل العلاقات التي تدخل إليه من الممكن أن تتحول إلى رموز رياضية ولذلك لم تكن لغة الرياضيات ولا لغة الشفرات ولا لغة الكمبيوتر والذاكرة الآلية بعيدة عن لغة القرآن حيث بيّن القرآن في سورة «الشورى» تلك اللغة فجاءت في صدر السورة آيتان «حم١، عسق ٢/الشورى» لتحمل أنساق «الم» وأنساق «حم» أنساق «يس» وسورة «ق».

لكن الغريب حقاً هو التعبير عن الحمل في لغة هذا الكمبيوتر بالدمج مثلما دمج كلا من «الم» و «الر» في الرعد فجاءت «المر» ومثله في «المص» وبيانه في الآية الأولى من صدر السورة لكن التعبير عن الإضافة ظهر واضحاً في فصل «حم» عن «عسق» وجعل كلا منهما في صدر سورة «الشورى» آية

مستقلة «حم١، عسق ٢» لبيان فصل القضايا في تلك اللغة.

هذا الأمر يفتح الباب أمام لغة كمبيوتر القرآن للتعبير عنه بما يشبه الشفرة هكذا.

«الم - الر- المص - حم - طس - طسم - يس - طه - عسق - إلى آخره مما ورد من الرموز».

لنتبين أن القرآن صار في هذا الكمبيوتر شفرة ورمزاً ومنطقاً رياضياً وفقهاً اعتمد في أصوله على المحمولات والأنساق كي لا تغيب عن ذاكرته قضية من قضاياه حتى لتنزل سورة «الشورى» متضمنة قضية طوت في باطنها قضايا «حم» فيما نزل من المثاني السبع واختص به كل من العقل «ع» ومن السنن «س» ومن القلب «ق» ليكون ذلك فخر المجتمع المؤمن الذي اتخذ من مبدأ الشورى والديمقراطية منهجاً له.

حتى العمليات اللاشعورية فإن تلك اللغة المشفرة قد عبرت عنها إذ نجد أن «الم» منتشرة في الكمبيوتر القرآني من سورة البقرة حتى سور الحواميم السبعة وهي تختفي في تلك المساحات الشاسعة من طوال السور ثم تظهر فجأة في «طسم» وغيرها وكأن القرآن يقول لنا بتلك الصياغة إنه نسق واحد في وحدة فكرية واحدة وإن بدت لنا أنها مختلفة في مسميات السور وما يحتويه المتشابه من القصص والأمثال والبرهان وغيره.

لقد أشارت سورة «الرعد» إلى ما يمكن أن يقدمه الفكر الرياضي والرمزي وأنه يستطيع أن يشفر مضامين عشرات السور في مضمون سورة واحدة إذ جمعت معاني سورة«البقرة» «آل عمران» «العنكبوت» «لقمان» «السجدة» «يونس» «هود» «يوسف» «ابراهيم» وسورة «الحجر» هذا بخلاف الامتدادات من السور التي لم تحمل رموزاً والسور التي حملت رموزاً واعترضت سياق التنزيل بين «البقرة» و «الحجر».

تلك اليقظة القرآنية لم يكن من الممكن تحقيقها إلا عن طريق الكمبيوتر والذاكرة الرمزية إذ جعلت من القضايا حضوراً بين يدي الوحي والتنزيل وأمكن عن طريق هذا الأمر تدارك أمر ما يعتري العقل البشري من الضعف والغفلة ولذلك كان انتباه القرآن يقظة دائمة وحضوراً لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

مثل ذلك نراه اليوم في الكمبيوتر الذي تستخدمه العقول الآلية في عمليات إطلاق سفن الفضاء والصواريخ وأن الذاكرة تعمل بحضور دائم ويقظة وإنتباه فوري والإ حدث ما لا تحمد عقباه.

ولذلك ما أن يبدأ التنزيل في سورة مثل سورة «الشورى» مثلاً حتى يبدأ الكمبيوتر في إحضار الذاكرة الآلية «حم، عسق» ثم يبدأ الوحي والتنزيل فتصير بين يديه في لمحة خاطفة الذاكرة الآلية والشحن الرمزي والتفريغ الآلي والفقه الرياضي كل ذلك امتد في عشرات من السور الطوال والأحداث التي وقعت في عشرات السنين وما نزل منجماً لها من الآيات قد جعل القرآن ينزل بهذا الكمبيوتر للحفظ ثم للتذكير والمراجعة.

يجب أن نتبين أن أسرار القرآن الكبرى وخفايا الوحي قد أودعت هذا النظام الشفري العجيب وهو الذي مكن من تبويب القرآن وترتيبه على هذا النحو بحيث وضعت كل آية فيما يناسبها من السورة ووضعت السورة فيما يناسبها من الكتاب القرآني ومن ثم أمكن في النهاية وضع تلك الرموز وتلك الشفرات.

في نسق الفقه الرياضي لسورة «مريم» «كهيعص» تظهر تركيبات شفرات «طه» و «ص» «يس» ويضيف «ك» وتتحقق قدرة الله في أنه «كاف» عبده حتى لو كان الأمر إنجاباً بغير زواج لنتبين أن «طه» قد نزلت في شأن معاناة محمدﷺ و «ص» قد نزلت في شأن خزائن رحمة الله وأنه مؤيد الرسل والصالحين من

أمثال مريم ومثل ما ورد في «يس» من أن الله هو الذي يخلق الآيات والسنن وليست آية ولادة عيسى دون أب إلا من مثل هذا الخلق ولذلك كانت الرموز وسائل وحوامل كأنها لغة الجينات والكروموسوم كما في وسائل نقل الوراثة وأن ذلك ليس غريباً على فكر القرآن فالسورة قد ترث عدة سور وقد ترث عدة كتب قرآنية ولا يظهر من ذلك إلا شفرات الوراثة والجين والكروموسوم في الآية الرمزية في صدر السورة.

بل أننا نلحظ العجب العجاب في الفكر القرآني إذ يظل العلم مختفياً تماماً من سورة «البقرة» حتى يظهر فجأة بعد عشرات السور مثلما ظهر «الم» في «حم» بعد اختفائه في «طس» وغيرها لنتبين أنه لا يضيع شيء في ذاكرة الكمبيوتر القرآني أبداً.

اعتقد السلف أن الرموز في فواتح السور من أجل الإعجاز والتحدي والتعمية والمسألة كما وضحت ليست كذلك وإنما هي ضرورة من ضرورات التنزيل بل ضرورة لتنظيم عملية الوحي ذاتها وتبويب القرآن ووضع الآية في مكانها من السورة ووضع السورة في مكانها من الكتاب ووضع الكتاب في مكانه في القرآن كله لا يمكن تحقيقه على الوجه الأكمل إلا عن طريق هذا الأسلوب.

لو تتبعنا موضوعات الكتب أمثال «الم» و «الر» و «طسم» و «حم» وغيرها لتبين لنا أنها تحتوي على الموضوعات الكبرى للمعرفة بوجه عام إذ نتبين أن كتاب «الم» وموضوعه المهيمن والهيمنة قد تخصص في الموضوعات التاريخية بوجه خاص ولذلك رأيناه في سورة «البقرة» وسورة «آل عمران» يناقش مشاكل أهل الكتاب وأهل الأديان وعنصريات شعب الله المختار سواء كان ذلك في اليهودية أو المسيحية ثم تظهر عناصره مع باقي الكتب القرآنية كما في «المر» و«المص» بدرجات متفاوتة وأغراض أخرى.

ومثل ذلك كتاب «الر» وموضوعه الرحمن والرحمة وكتاب «طسم» وبيانه في موضوع منهج المعرفة والغريزة والنمل ومملكة الحشرات. وكل كتاب من تلك الكتب قد بين التنزيل أن له غرضاً من أغراض الدعوة ولذلك كان بعض الكتب يراد منها الحكمة أو يراد بها العلم أو يراد بها الهداية أو يراد بها التسرية عن الرسول وغير ذلك مما يتطلبه تقدم الفكر القرآني وتطوره.

الفصل الثاني

نسق «ألم» ومحمولاته
من معاني المهيمن والهيمنة:



القضايا ومحمولاتها:

- مسألة فساد اليهود وكفرهم.
- مسألة خلق الله للإنسان وكمالاته.
- مسألة إكرام الله لبني اسرائيل ثم نقضهم للمواثيق وعصيانهم وتمردهم.
- مسألة تكذيب اليهود وعدم إيمانهم بمحمد ﷺ لوراثة الطبع من بني اسرائيل أجدادهم.
- مسألة عنصرية اليهود وشعب الله المختار وما ترتب على ذلك من فسوقهم.
- مسألة نسخ القبلة وما بعدها وعداوة اليهود للمسلمين.
- مسألة انتساب اليهود إلى ابراهيم عليه السلام واستغلالهم لهذا النسب.
- مسألة تشكيك اليهود في شعائر الحج وغيرها واتخذه المسلمون من شعائر الله.

○ مسألة التشريعات الإسلامية الجديدة من الصيام وغيره.

○ مسألة الرسل وفضل كل منهم عند الله وسيطرة الله على العالم لبيان رفض العنصريات وسلطانها.

البراهين التي وردت في شأن الهيمنة وأن الله هو المهيمن على العالم «الم»:

○ برهان قصة الخلق وأن الله لم يخلق آدم إلا من أجل العلم والمعرفة ومن حصّلهما فله خلافة الله في الأرض.

○ برهان آية الكرسي وأن الله هو الحي على الحقيقة وأن الخلائق تستمد مقومات الحياة منه ومثل ذلك القيوم حيث يرعى العالم بعين لا تأخذها سنة ولا نوم وأن اليهود والعنصريين لا سلطان لهم على العالم ومن يعتقد أنه يمكن أن يحرز الهيمنة فقد ضل السبيل.

○ برهان كيفية تحقيق الهيمنة في دنيا الناس وورد ذلك في قصة الطاغية الذي اعتقد أنه السلطان يستطيع أن يحيي ويميت فبين القرآن أنها السنن وما أودع الله في الخلق من القوانين الطبيعية ومثل ذلك قصة إبراهيم والطير لبيان أن الله يحيي الخلائق ويقوم عليها بالرعاية، والربوبية ترعى كل خلق حتى الإنسان نفسه ولا فضل لليهود وغيرهم في رعاية الناس. ثم قصة عزير ومروره على أورشليم وقد دمرها الغزاة فبين القرآن أن أسباب الحياة من باطنها، واليوم في باطن حركة الحياة بمائة سنة مما يعده الإنسان ولذلك ستعمر أورشليم رغم الدمار والخراب.

○ عند نقد تاريخ اليهود وبيان أن عقليتهم عقلية موروثة فاسدة مثل أجدادهم وأنهم ليسوا أهلاً لحمل أمانة الأديان تحقق للقرآن هيمنته على الفكر والتاريخ وبيّن أن الله هو المهيمن الحق وهو الحي الحق وهو القيوم الحق

وأنه هو الذي يسيطر على حياة الناس وليس لطائفة ولا لملة ولا لدين من الأديان ولا لقوة ولا لسلطان أن يفرض على حركة التاريخ عقائده وأوهامه ولذلك بدأ القرآن يشرع للأمة الإسلامية وينسخ الشريعة اليهودية والمسيحية.

- إن الاعتقاد في هيمنة الأمة الإسلامية رغم فساد أمرها لهو من قبيل عمل اليهود والمسيحيين والعنصرية حيث شدد القرآن في سورة «البقرة» على العنصرية اليهودية ونقض مقولاتها من شعب الله المختار وغيره مما يعتقدون فيه من السيطرة والسلطان.
- يتميز نسق «المهيمن» في سورة «البقرة» بالتحليل الوافي لبيان أن العقلية اليهودية هي عقلية وراثية منحطة ولذلك أدانهم بعد التحليل بالسفه والغرور.
- أعطيت آية الكرسي والحي القيوم مفهوماً جديداً لخلافة آدم إذ بيّن التحليل أن تلك الخلافة لم تكن أبداً بديلاً لرعاية الله للعالم حيث كان اليهود يعتقدون أنهم ورثة الله في الأرض ولهم السيطرة والأمر بين الناس فبيّن القرآن أن خلافة الإنسان لله إنما هي من أجل استعمار الأرض وتنميتها وتبقى الهيمنة والولاية لله وحده.
- الحي القيوم في كل زمان وفي كل حضارة ولن توحد الأمة الخالدة التي تهيمن على شؤون العالم أبداً بل إن التاريخ دولة بين الحضارات وهذا المفهوم التاريخي لورود الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.
- هذان الأمران الخطيران لرفض القرآن للعنصريات ورفضه للهيمنة هما من مفاهيم العصر ولم يتبين العالم خطرهما إلا بعد الحروب الطاحنة إذ كانت الحربان العالميتان الأولى والثانية بسبب فرض الهيمنة والعنصرية قد رفضهما القرآن من ألف سنة ويزيد.
- حمل القرآن قضايا سورة «البقرة» كلها على نسق «الحي القيوم» ولذلك

استكمله بنزول سورة «آل عمران» في العنصرية المسيحية أيضاً ولذلك وردت مضامينه في صدر السورة ﴿أَلَـمْ * الله لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾(١).

- نرقب في سورة «البقرة» أن اليهود قد أقاموا عقائدهم العنصرية على مقولة شعب الله المختار وتاريخ بني إسرائيلْ وكرامتهم على الله ولذلك كان تشديد القرآن واضحاً لبيان فساد أمر بني إسرائيل مع موسى ولم يكونوا أهلاً لحمل أمانة السماء ومثل ذلك ما قام به القرآن من بيان فساد اعتقاد المسيحيين في الاصطفاء وأن الله قد خص آل عمران على العالمين حتى كان منهم زكريا ويحيى ومريم وعيسى وكان نتيجة ذلك اعتقادهم في العنصرية أيضاً ومن ثم راح القرآن يكشف للناس أن الله يصطفي من الملائكة ومن الناس يكون منهم رسلٌ بينه وبينهم لحمل الرسالات وليس لغرض فرض سلطانهم وهيمنتهم وقد يصطفي الله من أجل الرحمة كما فعل مع زكريا ومريم لإجابة ما أرقهم من تحقيق رغبة الإنجاب لديهما.

- لقد جرى نسق «الم» بين سورة «البقرة» وسورة «آل عمران» من خلال «الحي القيوم» ووضح في التحليل أن الهيمنة والعنصرية وشعب الله والاصطفاء هي العقائد المزيفة التي يعتقدها أهل الكتاب ولكن عظمة القرآن في التحليل قد بينت أن السبب والعلة لذلك ليسا في الدين وإنما في الغواية المادية وأن أهل الأديان والكتاب لا يدينون دين الحق أو الدين القيم وإنما يدينون بالمادية وعبادة المال والبنين وهي محرمات على أهل الأديان منذ نوح عليه السلام ﴿قَالَ نُوحُ رَبِّ إنَّهُمْ عَصَونِي واتَّبعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إلاَّ خَساراً﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١ ـ ٢.
(٢) سورة نوح: الآية ٢١.

- يوضح القرآن للناس أن ولاية الفاسقين من أهـل الأديان والكتـاب مردودة عليهم ،والديني الذي يعتقد بكرامته عند الله وهو يعبد المال والولد قـد ردت عقائده في نحره وكما خلع الله عن اليهود وعن المسيحيين وعن المسلمين سلطانهم لماديتهم كذلك يخلع الله عن كل سلطان متى كان هذا السلطان مادياً فاسقاً .

- في نسق «الم» المهمين في «البقرة» رفع القرآن وصاية أهل الأديان وألحق بآية الكرسي والحي القيوم آية ﴿لا إكراه في الدين﴾ وما زالت المجتمعات الدينية تعتقد في تلك الوصاية والأفضلية ولذلك كان القـرآن حريصـاً كل الحـرص على تعـدي المعيار عنـد الله من الدين والعقيدة إلى العمـل والإصلاح .

- لقـد كانت النتـائج التي أحـرزها الفكـر القرآني من مشـاكل أهـل الأديان والكتاب نتائج باهرة وعصرية بل خالدة حيث قدمت للناس لأول مرة الفكر العالمي في ثوبه الخالص حتى ولو لم يكن هذا الفكر واضح المعالم في عصر نزول القرآن حتى أن الآيات التي كانت تذكر «رب العالمين» لم يكن لها مفهوم عنـد هذا العصر ولكنها اليـوم أصبحت راية للعـالمية وأن رب محمدﷺ أصبح الآن هو رب العالم بما قدمـه من تلك العقائـد العالميـة الجليلة .



القضايا ومحمولاتها:

- مسألة ورود الحق في القرآن بشأن مقولات أهل الكتاب والعنصرية.
- مسألة نزول القرآن على أسلوب المحكم والمتشابه حيث نزلت التوراة والإنجيل بالمتشابه فقط وكان ذلك سبباً في التأويلات الخاطئة مما جعل اليهود والمسيحيين يعتقدون في العنصرية.
- مسألة كفر أهل الأديان والكتاب بسبب ماديتهم وغرورهم في الديانة.
- مسألة اصطفاء الله لنوح وابراهيم وآل عمران بسبب التقوى واستجابة الله لزكريا واستجابته لمريم لهذا السبب أيضًا.
- مسألة بيان ما حدث في حالة زكريا وإنجاب مريم لعيسى بسبب الإيمان والروحية وها هم أولئك أهل الكتاب والأديان قد كفروا بالروحية.
- الإيمان لا يستوجب ما ذهب إليه أهل الكتاب والأديان من اعتناق العنصرية وبكل الأسف فإن المجتمعات الدينية على رأس المجتمعات التي تمارس العنصرية وقليل ما هم الذين يؤمنون بالعالمية والإخاء الإنساني وأهل كل دين يكفّر بعضهم بعضاً حتى اليوم.
- مسألة ما بين اليهود والمسيحيين من نفس العقائد ولذلك حرّفت رسالة عيسى كما حرفت رسالة موسى من قبل وما نزل القرآن إلا بالعالمية والإخاء والمساواة بين الناس على الكافة.
- مسألة أهل الكتاب والأديان مسألة تاريخية ممتدة وأساس عقائدها في التعالي وحب السيطرة ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ**

اللهُ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * فإن تَوَلَّوا فَإنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالمُفْسِدِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالوا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ألَّا نَعْبُدَ إلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1] .

- مسألة مقولات أهل الكتاب وأعمالهم وفساد أمرهم حتى قال القرآن ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُؤْتِيَه اللهُ الكِتَابَ وَالْحُكم وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ للنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِن دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُم تَدْرُسُونَ﴾[2] .

- مسألة الانتماء وأن أهل الكتاب والأديان يفرضون على الناس سلطانهم بأنهم من أنساب الأنبياء ولذلك بيّن القرآن أنه ليس لليهود ولا للنصارى الحق في ذلك حيث كان ابراهيم هو أول من أقام بيتاً لله وهو في مكة وليس في بيت المقدس وحق السبق في الأديان كلها للحنفية وليس لليهودية ولم يكن إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً بل كان حنيفاً مسلماً خلت عقائده من العنصرية والكفر.

- مسألة الأمة الإسلامية وأنها يجب أن تكون الأمة الحاضنة للخير أيضاً، وللأمر بالمعروف في كل مكان وزمان وللنهي عن المنكر في كل مجتمع وأن هذا هو الفلاح المبين ﴿وَلْتَكُن مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلَى الْخَيْرِ وَيأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنهَونَ عَنِ المُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3] .

- مسألة أن الإيمان يبدأ خالصاً لوجه الله والروحية ثم تداهمه عقائد أهل الملة والتحريف والقول على الله بغير الحق حتى ينقلب أهل الأديان كفاراً بالله ورسالاته في الناس.

(١) سورة آل عمران: الآيات ٦٢ - ٦٣ - ٦٤.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٧٩.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

- مسألة اعتبار أهل الكتاب والأديان هي مسألة الكفر ووجوب مقاتلتهم أيضاً.

البراهين التي وردت في الهيمنة وأن الله هو المهيمن على العالم:

- بيان أن القصص الذي ورد في التوراة والإنجيل بشأن آل عمران وحوادث إنجاب زكريا ومريم هو قصص أُسيءَ تأويله بل إنه حُرِّف عن قصد.

- نزول المحكم في القرآن لتلافي التأويل الخاطىء وتلافي ما ظهر من التحريف في التوراة والإنجيل وهيمنة القرآن على ما قبله من الكتب السماوية.

- بيان أن القصص والأمثال وغيرها مما يحمل أوجهاً كثيرة للمعاني هو مدخل التأويلات الخاطئة وسوء الفهم عند العامة ولذلك حمل المحكم في القرآن من فواتح السور بالرموز قضاياه ومحمولاته ولذلك نتبين الفرق بين مفهوم قصة نوح في كتاب «الم» مثلاً ومفهومها في كتاب «المص» أو غيره حيث يتحدد الموضوع تحديداً دقيقاً.

- التحديدات في أسماء الله الحسنى سواء كانت في الأسماء الرمزية أو في الأسماء الثنائية، تقوم بوظيفة حمل الموضوع على القضايا ولذلك تتمايز الأسماء في كتاب «الم» عنها في كتاب «طس» أو «طسم» لأن القضية مختلفة.

- شرح القرآن الأسباب الباطنية والروحية في حادثة إنجاب زكريا ليحيى وإنجاب مريم لعيسى على غير العادة والمألوف لبيان رحمة الله بعباده المؤمنين في الإيمان نفسه فهل آمن اليهود والنصارى حتى يكون الفضل والاصطفاء لهم عند الله؟.

- أوضحت الآيات أن نصر الله للمسلمين وإمدادهم بجند السماء من

الملائكة وغيرهم هو من قبيل أنهم على الإيمان الحق وأن المبادئ التي يدينون بها هي مبادئ الإسلام والدين القيم ولولا ذلك ما نصرهم الله في بدر وهم أذلة مستضعفون في الأرض.

- إن مشكلة أهل الكتاب والأديان وضحت معالمها بحيث بيّن القرآن في تاريخ اليهود وتاريخ المسيحية أنها تقوم على القصص المختلق والمتشابه والخرافات والأساطير ولذلك أورد القرآن قصص زكريا ومريم لبيان أن تلك الحوادث الخاصة قد تحولت إلى عقائد عنصرية يدين الناس بها ويعتقدون أنها الاصطفاء بمعناه المتعالي والسيطرة والسلطان والحقيقة أن مسألة شعب الله المختار والاصطفاء عند النصارى لهما مفاهيم قرآنية أخرى لا شأن لها بالعنصرية والسيطرة.

- برهن القرآن أن تلك الحوادث الروحية شخصية بين الفرد وربه وهي من قبيل الآية ولا يصح أبداً أن تتحول تلك الحوادث إلى ديانات ومعتقدات يدس فيها الناس أهواءهم ورغباتهم وفرق كبير بين الرسالة والنبوة وبين الآية التي يظهرها الله لفرد من الناس بغية تثبيت إيمانه الشخصي.

- في نسق المهيمن في «البقرة» ركز القرآن على التحليل التاريخي ولكنه في نسق «آل عمران» ركز هجومه على أعمالهم الفاسدة من الربا وغيره لبيان أن ماضيهم أسود وحاضرهم أفسد وادعاءاتهم باطلة.

- إن المشكلة اليهودية والعنصرية قد تفجرت من الدين ولذلك قدم القرآن للناس الدين القيم والدين الخالص وكلها أفكار عالمية نتجت من الفهم الخاطئ للأديان وبكل الأسف لم تحقق الأمة الإسلامية التي شاء لها القرآن أن تضع تلك المبادئ موضع التنفيذ أية إيجابيات في هذا الشأن بل سارت على ما كان قبلها من عنصريات أيضاً.

- كشف القرآن عن خاصية فريدة للمجتمعات الدينية التي تحكمها العنصرية

إذ بيَّن أن تلك المجتمعات مجتمعات مغلقة ولذلك يقول القرآن إنه مهما قدم لهم من الآيات أو البراهين أو الحجة فلن يؤمنوا إذن أبداً وهذا هو حال كل مجتمع عنصري.

- كان الفضل للقرآن فيما أثاره حول اليهود والعنصرية والمسيحية فقد عين المشكلة الدينية إذ كانت تلك المشكلة غير واضحة المعالم ولذلك تبنَّى القرآن فكرة المجتمعات التي تعتمد على العلم والعلماء مكتفياً بها عن إرسال الرسل والأنبياء.

- كانت نتيجة اختلاف أهل الأديان أنه جعل المعيار الاجتماعي معياراً طبيعياً وأرجع كل قضاياه إلى الآيات الطبيعية التي ملأت القرآن كله مصاحبة للقضايا والموضوعات.

- كانت المعرفة في اليهودية والمسيحية تشتق عناصرها ومصادرها من العلوم اللاهوتية فجعل القرآن عناصر المعرفة ومصادرها من الغريزة كما بين في سورة «النحل» وسورة «النمل» ومن الآيات الطبيعية والسنن الكونية «البقرة» «يس» و «آل عمران» وغيرها.

- عندما أسقط القرآن سلطان أهل الكتاب فإنه أسقط معها سلطان الكهانة والأحبار والرهبان وفتح مجال المعرفة الدينية للعامة متى ما تسلحوا بالعلم ومصادره من الغريزة والسنن والآيات الطبيعية ولذلك رفع القرآن شأن العلماء ولو قرأنا سورة «الأنبياء» لتبين لنا هذا الأمر حيث أسيء استعمال النبوات عند أهل الأديان.

- أكد القرآن في الهيمنة أمر الطبيعة وجعل من الآيات والسنن سلطاناً للتاريخ وضابطاً للعقل وجعل الملك بيد الله يؤتيه من يشاء وأن كل ذلك قد فجرته المشكلة اليهودية وسلطان العنصرية وشعب الله المختار.

- عندما شكك القرآن في الاعتقادات فإنه فصل الدين عن مسألة الإيمان

وبذلك أباح لأول مرة نقد العقائد الدينية الموروثة فبين في نقده لعقائد أهل الكتاب والأديان أنها عقائد أسطورية وخرافات موروثة ليس لها صلة بالإيمان بالله ولا برسله ولا باليوم الآخر.

- كان لنزول القرآن على محمدﷺ وهو أمي ليس من أهل الكتاب والدين فاتحة الأمل لكل الشعوب إذ حدث ذلك لأول مرة وأصبح في الإمكان أن تكون الأديان وعلومها ليست قاصرة على شعب بعينه أو إنسان بذاته حتى بيّن القرآن في سورة «النحل» أن الله يوحي إلى مخلوقاته حتى أنه يوحي إلى النحل والحشرات ومثل ذلك يوحي الله إلى الناس حتى أنه أوحى إلى محمدﷺ بعلم القرآن ومعرفته الجليلة.

- وضحت معالم العالمية في مواجهة العنصرية والشعوبية لما جعل القرآن من الله رباً للعالم كله وليس رباً لليهود وحدهم ولذلك بيّن القرآن أن رب اليهود «يهوه» هو رب مدسوس على الله ولذلك أوضح القصص القرآني أنه ما من نبي أو رسول إلا وأعلن في الناس أن الله هو رب العالمين وليس ربه هو وحده لتأصيل المبادئ العالمية والمساواة والإخاء.

- ليس للإسلام التاريخي منذ رسالة نوح في القصص القرآني إلا تدعيم العالمية والإخاء الإنساني وكل نقيدة ردت على القوميات إنما كانت من أجل بنيان الأمة الإسلامية العالمية وإن فهم المسلمون أن للإسلام دولة وأمة «اقرأ للشيخ علي عبد الرازق» (الإسلام دين ودولة).

- إن روح التاريخ وروح المعاصرة وروح العالمية كانت كلها نتاجاً للهيمنة القرآنية لتتبين حرية الفكر وحرية العقيدة وحرية النقد البناء.

- عندما أخذ القرآن في تحليل التاريخ اليهودي والتاريخ المسيحي ومعتقدات الديانتين وضحت معالم نظرية للنقد وكان قوامها الاعتدال

والوسطية ومن ثم ضمن القرآن للأمة استقلالها نسخ بعض الشرائع كما نسخ بعض الآيات والسور في القرآن نفسه.



القضايا ومحمولاتها:

- تحمل فكرة السورة نسقاً واحداً من أنساق الهيمنة وأن أهل الكتاب والأديان كاذبون في دعواهم وعنصريتهم وخرافة شعب الله المختار وسلطانهم الديني هو سلطان الغرور والنفاق.
- بيّن القرآن في القصص الذي ورد في السورة أن البقاء للأصلح ولذلك رأينا هلاك قوم نوح بعد ألف سنة إلا خمسين عاماً ومثل ذلك ما أخلف الله على ابراهيم من بعد نوح في مجالات النبوة والرسالة والكتاب حيث كان كل منهما صادقاً في إيمانه ودعواه ولبيان هيمنة الله وعلمه بما يدور بين الناس وقوامته على العالم أوضح القرآن أن الله قد نجى لوطاً وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع الآخرين.
- لو كان الله لا يعلم الجزئيات كما ادعى اليهود وغيرهم ما كانت أحداث هلاك المفسدين قد وقعت والحقيقة أن كل قوم خالفوا ما أنزل إليهم جاءهم عقاب الله وتدميره وهذا من شأنه أن يوضح هيمنة الله على التاريخ حتى إنه أمهل قوم نوح ألف سنة ثم أخذهم بذنوبهم.
- إن ذلك سينطبق على أهل الكتاب والأديان أيضاً وسيجعل الله للمسلمين بالعالمية والإخاء والإنساني دور النصر والغلبة.
- إن فكرة العنصرية والسلطان الدنيوي كفكرة بيت العنكبوت لا تغني عنهم

من الله شيئاً ولو أنهم آمنوا بالمساواة والإخاء والعالمية لمد الله في سلطانهم حيث البقاء للأصلح.

- إن حكم البقاء للأمم متعلق بيد الله لأنه هو المهيمن على التاريخ والعالم ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُم شَهِيداً يَعْلَمُ مَّا فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا باللهِ أُوْلَئِكَ هُم الخَاسِرُونَ﴾[1].

- إن الإخلاص لله لن يكون في التعصب وإنما في قبول مبدأ التطور وأن الله حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم وكل يوم هو في شأن من كمالات الخلق والإبداع ولو أن أهل الكتاب والأديان آمنوا بنزول القرآن على محمد ﷺ رغم أنه أمي لتبين لهم أن سلطان الله الحق إنما يقع في التطور الخالق وأن الله قادر على أن يبدأ الخلق ثم يعيده وهو قادر أيضاً أن يأتي بخلق آخرين يحبهم ويحبونه وكل ذلك لفساد أمر اليهودية والمسيحية وتسلطهم على الناس.

- لو نظر أهل الكتاب إلى آية الحرم الآمن في مكة وما يجري فيه من الحريات والعالمية حيث من دخله كان آمناً على نفسه وعقيدته لتبين لهم تسلطهم على الناس ليس إلا كذباً مفترى وأن الله بريء من كل تسلط يدّعي إن أهله أنهم أصحاب سلطان الله في الأرض.

- كما آن أوان قوم نوح بعد ألف سنة كذلك آن الأوان لانهيار سلطان اليهودية والمسيحية والعنصرية لتحل العالمية الإسلامية محلهم جميعاً وليكون السلام والأمن للعالمين وليس ذلك إلا من قبيل هيمنة الله وسلطانه.

- إن الافتراءات على الله من شعب الله المختار أو ألوهية عيسى وعزير ومقولات أهل الكتاب والأديان لن تجديهم شيئاً وسيكشف القرآن زيف كل المعتقدات العنصرية وسيبين الدين الخالص والدين القيم والسلام والإخاء

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٥٢.

وهي المعتقدات الصادقة في الله سبحانه وتعالى وهو الحي القيوم الذي يعول عليه في دفع المظالم عن الناس حتى انه أخذ كل الأمم بأسبابها ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مِن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم من خَسَفْنا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَن أَغْرَقْنَا وَما كَانَ الله لِيَظْلِمهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون﴾[1].

البراهين التي وردت في الهيمنة والمهيمن

- قدم نسق «العنكبوت» معياراً لأهل الكتاب والأديان حتى لا يكون إعلان الإيمان هو المدخل إلى العنصرية والاستعلاء فبيّن أن الله يمتحن الناس وعندئذ يتضح من هو صادق الإيمان ومن هو منافق كذاب ولذلك الأمر اعتبر القرآن أهل الكتاب وما هم عليه من استغلال الناس خارجين من زمرة المؤمنين.
- احتكم القرآن إلى مبدأ الإحسان فبين أن اعتبار الإيمان لا يعتد فيه بالاعتقادات وإنما يعتد فيه بالنتائج ولذلك كان المحسن هو المؤمن الحق.
- اعتبر نسق «العنكبوت» امتداداً لما ورد في «البقرة» وما ورد في «آل عمران» فقد اعتمد فيه على النتائج الفعلية والعملية لبيان أنهم منافقون كاذبون في دعوى الإيمان بالله.
- ألحق القرآن المخالفين من اليهود والنصارى بالقوميات التي هلكت في الدهر كقوم نوح ولوط وابراهيم ليبين أنَّ هناك فرقاً كبيراً بين الدعاية وبين النتائج التاريخية.
- بيّنت الهيمنة أن الله قد جعل مسألة الإيمان به مسئولية شخصية خالصة يتعين على كل نفس أن تصدق فيها مع الله حتى تضمن الخلاص والنجاة ولذلك لن ينفع الإنسان شفاعة الشافعين وأن إعلان اليهود وأهل الكتاب

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٠.

أنهم يحملون عن الناس أوزارهم وخطاياهم وصكوك الغفران وغيرها مما كان الكهنة يتسلطون على العامة لا ينفعهم في قضية الإيمان ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ليكون من ذلك كله تحرير الناس من سلطان الدين المستغل وليكون الله وحده ولي الإنسان.

- فجَّرت قضية أهل الكتاب والأديان قضية الهيمنة والمهيمن «الم» في القرآن كله لكنها في كل نسق وفي كل سورة كانت في مواجهة موقف خاص من مواقف سلطان اليهود والمسيحية وما كان نزول نسق «العنكبوت» إلا لبيان أنهم منافقون وكاذبون ولدعم موقف «محمدﷺ» حيث كان من الأميين الذين لا ينتسبون إلى أهل الكتاب والدين فكان نزول تلك السورة لتكذيب وصياتهم.

- في نسق «البقرة» ركزت الهيمنة على كشف الماضي المشين لنشأة اليهودية وفي نسق «آل عمران» ركزت على نشأة المسيحية وبيان فساد اعتقاداتها وفي هذا النسق كشفت عن نفس الوصاية الكاذبة لأهل الكتاب والأديان حتى قال رسول الله (إن الإنسان يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه) ولذلك سنجد مسألة الوالدين تذكر بوضوح في نسق «العنكبوت» ونسق «لقمان» ليرفع القرآن تلك الوصاية التقليدية وليفتح الباب أمام الإيمان الفطري وليغلق الباب أمام إيمان الوصاية وإيمان التقليد وذلك كله دعماً لمبدأ الحرية وحركة الرسول الأمي الذي أرسل في الأميين دون اليهود والمسيحيين.

- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ من خَطَايَاهُم مِن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1].

إن أهل الكتاب والأديان يتسلطون على الناس بتلك الأكاذيب ولن تحمل نفس عن نفس شيئاً حتى الشفاعة لن تكون إلا بإذن الله وحده

(١) سورة العنكبوت: الآية ١٢.

والمصير الإنساني مصير فردي وكل نفس وما كسبت وما أثار القرآن كل ذلك إلاّ ليرفع هيمنة أهل الكتاب على عقول الناس باسم الدين.

- قدم القرآن في نسق «العنكبوت» قانوناً هاماً للهيمنة من خلال سنن الخلق في الطبيعة إذ بيّن أن حياة الأمم كحياة الأفراد والأنواع الطبيعية يحكمها قانون الصيرورة والتطور والله في كل أنواع النبات والحيوان يبدأ الخلق ثم يعيده ومثل ذلك ما يعيده من تجديد الرسالة والكتاب وأن محمداًﷺ ليس بدعاً في السنن ولا القرآن نكرة مما تنكره القوانين الطبيعية وإذا كان كبر ذلك عند اليهود فإن الله سينشئ الحياة الآخرة التي سيبعث فيها الناس أحياء من بعد موت وفناء وهذا أكبر من بعثة محمد ﷺ **﴿أَوَلَمْ يَرَوا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**[1].

- يعرض القرآن مسألة هلاك القوميات والكافرين في كل عصر ليبين لأهل الكتاب والأديان أنها سنة خالدة وستأخذهم كما أخذت غيرهم من الأمم الفاسدة بل إنّ المصير نفسه كان من نصيب المسلمين أيضاً الذين ابتعدوا عن مبادئهم الخالدة.

- أوضحت الآيات أن الله عندما خلق السماوات والأرض استودعهما أسباب الحق والعدل والإخاء والمساواة ولذلك فإن العنصريات والعدوان على الناس هو خرق للفطرة وإفساد للحياة ونواميسها التي أودعها الله في كل خقله وهذا يكشف لنا السِّر في كشف القرآن للسنن والنواميس والفطرة وبيان أن الهيمنة ليست مقولة لاهوتية وإنما هي طبيعة في المخلوقات ولن ينجو مفسد من العقاب أبداً.

- يمتاز النسق في «العنكبوت» بدعم مبدأ الاستقلال والحرية ويكشف

---

(١) سورة العنكبوت: الآيتان ١٩ ـ ٢٠.

للناس عن السنن التي تضمن حرية الناس أمام ربهم فقد خلق الله الناس أحراراً وليس ذلك فقط وإنما هو قد ضمن تلك الحرية أيضاً.

- من قراءة التاريخ ونتائجه تبين أن الله وحده الحكيم الذي يؤتى الملك من يريد وليس كما يريدُ أهل الكتاب واليهوَد وأهل العنصرية الدينية ومثل ذلك ما كشف القرآن عنه من أن الله لا يعلم الكليات فقط بل إنه يعلم الجزئيات وما يدور في الحياة اليومية فهو السميع البصير وهو الحي القيوم وهو أيضاً الحي المهيمن في كل وقت فيقرّر القرآن إنه يعلم حتى سقوط ورقة من ورقات الشجر ويسمع دبيب النمل على الحجر وأن ذلك هو اعتقاد جديد على مفهوم سلطان اليهود وأهل الدين والكتاب.

- عندما تعرض القرآن بالنقد لإيمان اليهود وأهل الكتاب والأديان قدم في الهيمنة أخطر قضاياه على الإطلاق إذ بين أن الإيمان يمكن تزييفه بل وتحريف الكتب السماوية والعقائد بصفة عامة فأمكن عن طريق ذلك نقد سلطان اليهود والأحبار والرهبان وسقط سلطانهم سقوطاً ذريعاً وأصبح في الإمكان أن يقول أحد الناس لرجل الدين أنت كاذب بل منافق متى ثبت أنه يستغل الدين وقد كان ذلك جريمة كبرى عند الناس حيث كان رجال الدين من الأحبار والرهبان يتمتعون بسلطان مطلق وأنهم أحلوا للناس وحرموا وأخذوا بذلك مكانة الله نفسه إذ هو وحده الذي يحرم ويشرع وأصبح للقرآن والناس نقض كل الادعاءات والافتراءات.

- في نسق «العنكبوت» أثار القرآن قضية تاريخية عظيمة الخطر إذ بيّن عند مجادلته لأهل الكتاب والأديان أن الصدق المطلق الذي يبنون عليهم سلطانهم ليس موجوداً على الإطلاق لأن شأن الله في خلقه هو البدء والإعادة ولذلك فالله سبحانه وتعالى يرفع قوماً ويخفض آخرين ويدفع الناس بعضهم ببعض من أجل قيام العدل ولو فطن اليهود لتلك السنة لتبين لهم أن الصدق المطلق والحق الإلهي الذي يدعونه بسلطانهم على الناس

كذبة كبرى ومثل ذلك حال الأمم والحضارات أيضاً.

- اتخذ القرآن من نزول الكتاب والوحي على محمدﷺ وهي حقيقة لا تنكر شاهداً على هيمنة الله واعترافاً واقعياً بأنه يمكن أن يوحي الله إلى غير اليهود وأن يتخذ من الأميين رسلاً مثل محمدﷺ متى نقض أهل الدين عهدهم مع الله كما فعل اليهود والنصارى حتى جاءت الآية في الأمامة بسورة «البقرة» مبينة أن حق الإمامة لذرية ابراهيم لا يشمل عند الله الفاسقين منهم والذين ظلموا أنفسهم وظلموا الناس وبذلك أصبح محمدﷺ والذين آمنوا إيماناً صادقاً هم أولى بالإمامة والولاية من اليهود وهم أولى بابراهيم ووراثته أيضاً.

- إن تشبيه القرآن لليهود وأهل الكتاب والأديان بالعنكبوت وبيته الواهي ليبين تهالك سلطانهم وأنه يوشك على الزوال لأنه أقيم على الكذب والنفاق والخداع ليعلم الناس أن دعوة محمد ﷺ لا بد أن يتم النصر لها وليقلل من شأنهم عند من يعتقدون أنهم قوة لا تقهر حتى أنه يتنبأ في كثير من الآيات بهزيمتهم وفرارهم لأنهم حرموا الإيمان الصادق.

- لقد أثارت حادثة تغيير القبلة من بيت المقدس إلى مكة ثائرة أهل الكتاب خاصة اليهود وبدأوا يعلنون للناس فساد أمر محمد ﷺ والذين آمنوا معه فكان ذلك سبباً جوهرياً لنزول نسق «الم» المهيمن في سورة «البقرة» ومثل ذلك ما أثاره وفد نجران النصراني مما استدعى نزول نسق «الم» المهيمن في سورة «آل عمران» ومثله ما أثاره أهل الكتاب بأنهم شفعاء للناس عند الله وأنهم هم وحدهم الذين يحملون عن الأمم خطأهم يوم القيامة فكان نزول نسق «الم» المهيمن في سورة «العنكبوت» أيضاً.

الفصل الثالث



القضايا ومحمولاتها:

- قضية دوام الحال من المحال وأن ذلك هـو الحق في خلق السماوات والأرض وأن لكل شيء أجلاً مسمى عند الله.
- تنطبق المسألة نفسها على الأمم وأن لها آجالاً عند الله والأمة اليهودية وسلطان أهل الكتاب قد جاءتِ نهايته.
- بعد هزيمة منكرة أمام أعدائهم من الفرس جاءتهم سنة الله بنصره وأنـه ما من أمة تستطيـع أن تحوز القـوة وتحتكرهـا في الأرض من دون الله وهكذا سيتم نصر محمد ﷺ والذين آمنوا معه رغم سلطان اليهود وقوتهم.
- هاتان السنتـان قد بيّن القـرآن أنهما من مبـادئ الحق في خلق السموات والأرض والـدليل على ذلـك أن الله يبدئ الخلق ثم يعيده وبيده هلاك كل الأقوياء من القوميات السابقة.
- اعتقاد اليهود وأهل الكتاب والأديان في خلود سلطانهم رد عليه القرآن بأنه كذبة كبرى والدليل على ذلك هو نهوض الـرومان من الهـزيمة في بضـع

سنين ثم انتصارهم على الفرس مرة أخرى ليحقق ذلك سنة الله وتداول القوة بين الناس ليرحم الناس من شرور أنفسهم.

- تلك هي سنة الله في تدافع الناس وتداول القوة والهيمنة والسلطان بينهم ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ إنما هو أداة من أدوات «الم» المهيمن حتى لا تفسد الحياة الإنسانية في الأرض ولذلك بعث الله محمداً ﷺ والذين آمنوا معه للتصدي لطغيان أهل الكتاب والأديان ولذلك لم يكن محمد ﷺ من اليهود أو النصارى وإنما كان من الأميين ممن يعتبرهم أهل الأديان عبيداً أو حيوانات حتى إنهم استباحوا لأنفسهم دماءهم وأموالهم «وقالوا ليس علينا في الأميين سبيل».

- هذه السنن التي أودعها الله في حياة الناس عند خلق السماوات والأرض تشكل فطرة الله فهي الدين القيم الذي يجب أن يسود بدلاً من اليهودية والمسيحية إذ أنهما لم يقيما سلطان الدين على العالم ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[١].

- ذكر القرآن مسألة التغيير وقيام الثورات وما شاكلها من نسخ الأديان تمهيداً لقيام حياة أفضل ليبين أن الله يجري من تلك الأحداث ليخلق العدل والكمال والحق ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[٢]، ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ**﴾[٣]. ولذلك فإنه ما من أمة إلا وتأخذها عناصر القوة وعناصر الضعف مجرى تلك السنة ورياح التغيير مستمرة تقصف بالطغاة والطغيان ولم يكن أهل الكتاب واليهود

---

(١) سورة الروم: الآية ٣٠.
(٢) سورة الروم: الآية ٤٦.
(٣) سورة الروم: الآية ٥٤.

عندهم علم بتلك السنن والنواميس ومثل ذلك في العصر الحديث عندما انهارت الإمبراطورية البريطانية والفرنسية والاستعمار ونهوض الروس والأمريكان في الحرب العالمية الثانية.

- قضية المتطرفين والمطبوعين وعبدة اللاهوت والأهواء والطغيان يثيرها القرآن لبيان أن الجاهل يعبد أهواءه ولن يؤمن إذن أبداً ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

براهين المهيمن «الم» والهيمنة

- اعتمد القرآن في البرهان على حقائق الحياة العليا فقدم برهان النافع وبيَّن أن الله يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي لبيان أن الأمة اليهودية والأمة المسيحية انتهى دورهما.

- مثل ذلك أيضاً ما يحدث في نوم الإنسان مساءً وظهراً واستيقاظه ليجعل الله من الحوادث الماضية نسياناً ولا وعياً ثم يستيقظ الإنسان لاستقبال الجديد من حوادث الحياة ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[2]، ولذلك ستصبح اليهودية والمسيحية من أحداث الماضي بالضرورة والسنة.

- إن الجمود ليس من طبيعة الحياة بل إن السنة هي التنوع والانتشار وليس أدل على ذلك من وجود الأجناس البشرية رغم أنها جميعاً خلقت من

---

(١) سورة الروم: الآيتان ٥٨ ـ ٥٩.
(٢) سورة الروم: الآيتان ١٧ ـ ١٨.

التراب فلماذا يستنكر أهل الكتاب والأديان قيام مجتمع جديد؟.

- مثل تلك السنة خلق الله للإنسان زوجة مختلفة في الطبع والطبيعة حتى لا يكون الإسلام ديناً جديداً رحمة بالناس أيضاً.

- ومن نفس هذا المنطلق ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ واخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[1]، ليتبين أهل الكتاب والعلم فيهم أن اختلاف الأكوان والألوان والأديان سنة جارية فيما خلق الله وهي سنة مؤكدة انطوت على الحق ولا يمكن أن يكون محمدٌ ﷺ وقد أرسل إليه وهو من الأميين خارجاً عن السنن بل إنه سنة من سنن الخلق.

- ظاهرة النوم بالليل ثم اليقظة والسعي بالنهار ابتغاء فضل الله لهو آية كبرى لمن له سمع وبصر وهي تصور الماضي والحاضر ويقاس عليهما أن اليهودية والمسيحية تقومان بعمل الماضي في حياة الناس والإسلام يمثل الحاضر.

- أوضح القرآن أن للطبيعة الفلكية حين تشرق الشمس وحين تغرب وحين يكون الوقت ظهراً صحوة وغفلة مثلما يعتري الإنسان حيث ينام ليلاً أو نهاراً للبرهان على أن لكل خلق صحوة ومثل ذلك صحوة الإسلام ونوم اليهودية والمسيحية وغفلتهما وأنه قد آن الأوان أن تحتل دعوة محمد ﷺ مكانها من تلك الصحوة الطبيعية بل إنها النهضة الربانية بحسب السنن والنواميس.

- إن الاختلافات هي أساسيات المعقولات كلها وما جاءت المخلوقات إلا من العقل وهذا يبدو واضحاً عندما ينزل المطر من السماء فيحيي الأرض بألوان شتى من أصناف النبات وأنواعه المختلفة ومثل ذلك ما يفهم من

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٢.

البرق إذ يعني الخوف من الصواعق وهو يعني أيضاً الطمع في نزول الأمطار فلذا كان اختلاف العقائد والأديان أمراً طبيعياً.

- لقد أكد القرآن الكريم هيمنة الله على خلقه ورفع كل ما تعارف عليه الناس من سلطان البشر فلا رسول بعد محمد ﷺ ولا نبي بعد نبوته ولا سلطان لرجل الدين بل السلطان لله المهيمن ومثل ذلك اعتقادات خلود الأمم وثبات الشرائع السابقة على الإسلام فنسخ كل ذلك لرفع الوصاية عن الناس.

ولا نستطيع الآن أن نتصور هيمنة رجال الدين وسلطان الأحبار والرهبان وملك اليهود والنصارى في مواجهة الأمم الأخرى التي لم يكن لها حظ من الديانات الكتابية ولذلك بين القرآن فساد اعتقادات أهل الكتاب والأديان بالنسبة لمسألة سلطان اليهودية وأنه حق إلهي خالد وشعب الله المختار والوعد الذي زعموه بذلك الأمر.

لقد سقطت عنهم الشفاعة والإمامة والنبوة والرسالة والديانة والحق الإلهي المزعوم والوعد الرباني المفترى وأن ذلك قد ألغاه القرآن وأحل مكانه هيمنة الله على الحياة والناس ولهذا بين القرآن عناصر الهيمنة بوضوح تام فيما ورد من كتاب «طس» وكتاب «طسم» وكتاب «يس» إذ أرجعها إلى عناصر المعرفة الطبيعية وما تكشف عنه الآيات في أفاق الكون ودنيا العقل الإنساني ولم يصبح للاهوت أي سلطان على المعرفة في منهج القرآن.

لقد احتج القرآن بآية انتظام الكون والعالم وحياة الكائنات على ما استودعها الله من السنن والنواميس وبيّن أن ادعاءات أهل الكتاب والأديان من السلطان والحق العنصري لا وجود لها في الحقيقة ولذلك فكل المخلوقات ومنها الإنسان منقادة مطيعة لله سبحانه وتعالى ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌ لَّهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ

الْمَثَلُ الأَعْلَىَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

- بيَّن القرآن أن الله اصطفى آدم من الكائنات ثم اصطفى نوحاً ثم اصطفى آل عمران ثم أوضح أن ذلك كان من أجل الإصلاح وليس من أجل الهيمنة والاستكبار في الأرض وهذا هو الذي حدا بالقرآن أن يوضح في كل مناسبة وردت فيها قصة خلق آدم أن الله لم يجعل منه وذريته خلفاء في الأرض إلا من أجل استعمارها واصلاحها بالعلم والمعرفة.

- يضرب القرآن المثل للناس ليبين لأهل الكتاب أن الله لا يجب أن ينازعه أحد في ملكه وسلطانه فإن نازعه أهل الكتاب والأديان هذا السلطان كان ذلك وبالاً عليهم والله سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل فقد يرزق ناساً ويحرم آخرين فلا غرابة أن يهب محمداً ﷺ مثل جاه وسلطان اليهود أيضاً.

﴿أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

- في الهيمنة نتبيّـن حكمة قرآنية كبرى إذ أقر القرآن جواز اختلافات الأديان ولكنه حارب اختلاف أهل الدين الواحد وأبطل الفرق والطوائف حيث بيّن أن اليهود فرقوا دينهم شيعاً فذهبت بذلك وحدة الأمة الدينية فقاتـل اليهود يهوداً وكان الفريقان المتحاربان في الحرب العالمية يحملان الصلبان على صدورهم ومثل ذلك ما حدث في تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً.

- كان نسق «الم» في العنكبوت متضمناً افتراءات وكذب أهل الكتاب ولكن نسق «الـروم» جاء بـاعثاً على نهـوض الأمة الإسـلامية لأنهـا هي التـطور الجديد والصحوة الدينية المنتظرة.

---

(١) سورة الروم: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) سورة الروم: الآية ٣٧.

- توضح الآيـات أن الله يرسـل الرسـل بالبينـات لكن المشكلة في الأقوام والأمم إذ يجرم الذين كفروا في حق الله والرسل والديانات وهو ما يستوجب انتقام الله وغضـبه.
- بيّن القرآن أن آثار رحمة الله تعم الوجـود وهي واضحة في إنـزاله للمـطر والغيث ولكن أهـل الكتاب والأديـان زعموا أن رحمـة الله وفضله مقصور عليهم ومـا نزول القـرآن على قلب محمد ﷺ الـرسول الأمي إلا رحمـة للعالمين رغم أنف اليهود وغيرهم.
- إن إثبات الهيمنة لله قـد أوضح أن البـديل لـلاهوت في القـرآن هو العلم والآيات والسنن والنواميس والتطور الخلّاق إذ لا هيمنـة لدين من الأديـان على حركة «الحي القيوم» المهيمن الذي بيده مقاليـد السماوات والأرض فإن فرض المسلمون أو اليهود أو المسيحيون الوصاية على الناس جاءهم انتقام السماء بشتى صوره وألوانه.
- إن ما جرى على الأمة بمثل ما جرى على اليهودية والمسيحيـة قد تنبـأ به صاحب الرسالة نفسه ولذلك جعل النجاة في القرآن ومبادئه ولن نتمكن من معرفة منهـج القرآن على حقيقتـه إلا من النقد الـذي وجهه القـرآن لأهل الكتاب والأديان وهو الذي يحدد لنا تلك المـبادئ التي تظهـر في الهيمنة والمهيمن «الم» وسورها ومشتقاتها بين السور القرآنية الأخرى.
- نتبين أن نسق «الم» في «البقرة» و «آل عمران» جاء غزيراً بالنقد والتحليل التاريخي ثم جاء نسق «العنكبوت» و «الروم» مليئاً أيضاً بالبرهان والحجة ليكون من ذلك العلم والفكر والاعتقاد.
- لنتبين قيمة العلمانية كمنهج للمعرفة القرآنية فإن نسق «الروم» قدم الآيات الطبيعية من الصباح والمساء والظهيرة وإخراج الحي من الميت والميت من الحي وخلق الإنسان من التراب وخلق الـزوجة لـلإنسان واختـلاف ألسنة

الناس وألوانهم ونـوم الإنسان ليـلاً ونهاراً وسعيـه في فضل الله ثم البـرق ونزول المطر ونظام السماء والأرض وبسط الـرزق وقبضه وإرسـال الريـاح بالأمطار وجريان الفلك في البحـر وآيات الـرحمة ومـا تجري بـه الأحوال بالإنسان وكل ذلك آيات حسية يراها الإنسان رؤية بصرية ليحتكم بينه وبين أهل الكتاب إلى هذا المعيار الطبيعي والعلمي وكأنه يقول لنـا إن الحكم النهائي ليس هو رجال الدين وإنما هو العلم وسنن الـطبيعة التي أوجـدها الله الخالق.

- إن تـزييف الأديان وتحـريفها وهيمنـة رجـال الـدين واستغـلالهم وطغيـان اللاهوت على الحرية الفكـرية ومعـاداة العلم والتقسيمات الـطائفية ونمـو العنصرية والمقولات على الله بغير الحق كل ذلك كان سبباً جـوهريـاً في توضيح الحقائق الدينية التي تقرر أسس التفضيـل بين البشر، وأنهـا بعيدة عن العنصرية والطائفية والاستعلاء.

- من لا يفهم سلطان رجال الدين حتى اعتبرهم القرآن أنداداً لله نفسه وأنهم أحلوا وحرموا وكقولته المشهورة في الأحبار والرهبان ونزول سورة «الأنبياء» لبيان طغيان تلك الطبقة وسلطان الكنيسة في العصور الوسطى في أوروبا، لا يمكن أن يفهم مبـادئ الحريـات في القرآن ولا منهـج محمـد ﷺ كنبي للحرية والإخاء والمساواة.

- يجب أن نتبين نظرة الحذر التي ينظر بها القرآن للمسألة الدينية برمتها وأن ذلـك كان دافعـه الأساسي لتعـظيم دور العلم والعلمـاء، وتمجيـد الفكـر والعقل.

- من أجـل ذلـك ينشكف لنـا السـر الكبيـر وراء انهيـار الأمـة الإسـلاميـة والمسلمين حيث وقعت في بـراثن المقومـات والصفات التي قضت على السـابقين ولولا ذلـك لكـان لهـا شـأن آخـر مـع العلم والتقـدم وازدهـار الحضارة.

- أبانت الهيمنة أن القرآن يفرق بين الدعوة إلى الدين وبين الإيمان ويجعل من المسألة الإيمانية معياراً للتطور وما أقره القرآن من حرية العقيدة وحرية الاختيار وحرية الفكر إنما يشهد أن الإيمان يعلو على المفهوم التقليدي الذي لا يفرق بين المسلم وبين الإسلام، ولا بين الدين والتدين ولذلك رفع القرآن الوصاية على الإيمان وجعله بين الإنسان وربه حتى قال محمد ﷺ لمن أراد امتحان المؤمن «هلا شققت عن قلبه لترى إن كان مؤمناً أم لا».

- في تبيان مسائل الهيمنة اتضح لنا مدى حرص القرآن على تحرير الفرد ونموه حتى أقر بإمكان بعثة محمد ﷺ كرسول وكنبي من الأميين وليس في ذلك حرج إذ أن الله يوحي بالتوفيق وبالفكر وبالاعتقاد إلى كل من يصطفيه من البشر حيث جعل شرط الإيمان الوحيد أن يؤمن الإنسان بربه وهي مسألة تعني في يومنا هذا الحرية الفردية وطاقاتها الخلاقة.

- من أجل ذلك رفع القرآن في مسألة الإيمان وصاية الوالدين ووصاية الجماعة ووصاية التقليد ووصاية اللاهوت والقديم بكل ثقله وأحماله وجعل من الإنسان الفرد نداً لكل ذلك حتى شرح لنا في قصص «هود» وغيره من الرسل كيف وقفوا نداً لكل الناس وكل واحد منهم بمفرده لا يسانده في تلك المحن إلا ربه حتى نجاهم رغم أنف الناس والطغيان.

- أوضحت الآيات في نسق «الروم» أن الإيمان بالله وآياته يقف في مواجهة الإيمان باللاهوت ورجاله فمن أراد الحق واليقين فليأخذ بالعلوم الطبيعية والسنن والنواميس وليجعل سنده الوحيد من أجل المعرفة الحق هو ما أبدع الله من الآية والسنة والفطرة.

- من الأهمية أن نوضح في الهيمنة أنه لأول مرة ظهرت المسألة الاجتماعية حيث كانت اليهودية تفصل بين ما لله وما للإنسان ولذلك أباحت الربا

واستغلال الناس اعتقاداً أن ذلك ليس من أمور الله واللاهوت حتى قالوا ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾.



موضوعات «الم» ومحمولاتها وقضاياها:

- مسألة سيطرة الله على العالم وشاهد ذلك أنه رفع السماوات بغير عمد يرونها وأنه خلق كل شيء بإحكام.
- بيان مسؤولية الوالدين في مجال تربية النشء وإجلال مبدأ التربية للصغار على هدى الله.
- إن مسألة التربية من الممكن أن يقوم بها الوالدان بخلاف الرسالة والنبوة التي تحتاج لفرد بمميزات خاصة ولن يتوفر ذلك في كل الأوقات والأماكن.
- أبان القرآن أن مسائل التربية لا تحتاج إلى اللاهوت وما يقتضيه من عسر الفهم وكثرة الفقه حيث نتبين في تجربة «لقمان» أنها وصية من والد لولده من السهل تقبلها وعدم العناد فيها كما يحدث مع الرسل وأقوامهم.
- أوضحت الآيات بساطة المنهج التربوي الذي قدمه «لقمان» لابنه إذ بيّن له أن مسألة الإيمان كله تندرج تحت البعد عن الشرك بالله ومتى تحقق هذا الأمر صار الإنسان في مأمن من الكفر بربه.
- عند بحث مسائل الشرك في القرآن نتبين أنها جميعاً قد أوضحت العوامل والأسباب التي يفقد الإنسان فيها حريته أمام ربه وبذلك تهدر طاقاته الخلاقة المبدعة وليس ذلك في العصر إلا مسألة الحرية والفردية أيضاً.
- بين القرآن الضوابط لمنهج التربية الذي عقده للوالدين فشرح لنا أن الفطام بعد عامين ومثل ذلك يجب أن يكون هناك في برنامج التربية

فطـام يستقل بعده الشاب ليواجه مسائل الإيمان والعقيدة ولهذا يوضح القرآن أنه لا يصح أن يدعو الوالدان ابنهما إلى الشرك بالله أبداً.

- كشف القـرآن أن الله لطيف خبيـر ليبين للنـاس أن رعـايـة الإنسـان على الحقيقة هي لله وحده ولذلك فإنه يحدد دور الوالـدين لأنهما همـا اللذان ينصرانه أو يهودانه.

- مسألة الآباء والأجداد مسألة تاريخية كبيـرة تقف عثرة أمـام حريـة الإنسان واختياره ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْه آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[١].

- أراد القرآن في نسق «لقمان» بيان المواجهة بين الفرد والتاريخ وبينه وبين الجماعة وبينه وبين والديه وما يكون من فقده للحـرية والاختيـار والعقيدة وكما أن المشكلة في تسلط رجال الدين كذلـك المشكلة في تسلط الآباء والأجداد والتراث والعقائد التقليدية وما احتوته التجربة الدينية من الأساطير والخرافات والتحريفات المضللة.

- اعتبر القرآن أن حكمة «لقمان» الغالية فتحت آفاقاً جديدة للتوجه إلى النشء بالإصلاح والرعاية بدلاً من التوجه إلى الكبار الذين لم يصلح معهم بعث الرسل أو الأنبياء.

- إن لقمان لم يقدم لابنه ديناً يتدين به وإنما قدم له موعظة ووصية إن شـاء أخذ بها وإن شـاء تركهـا ليكون من ذلـك مبدأ للتـربية الحـرة التي يسعى القرآن لتأصيلها.

---

(١) سورة لقمان: الآية ٢١.

البراهين:

- تتجه الآيات وجهة إثبات المربي فتبين أعمال الرب لرعاية الناس والخلائق ولولا ذلك لهلك الخلق ولهذا تُعقِّب أن المصير الإنساني متعلق بالله وحده والتجائه إلى الله المهيمن على شؤون الحياة.
- تنبه الآيات إلى أن الله سخر للناس كل شيء في الأرض والسماء وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة كي يعرف الإنسان من ذلك قصد الرعاية الربانية وأنه هو بعينه مخصوص بها وإلا فلماذا كان كل شيء مسخراً لمصلحة الإنسان؟.
- لو تحقق الإنسان أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض بهذا الإبداع أفيعييه أن يرعى الإنسان وأن يهديه سبيل الرشاد؟.
- إن كل تدبير في أحكام خلق السماوات والأرض وما خلق الله من دابة ونبات ليثبت دون شك أن الله غني عن المساعدة وبطل لذلك تسلط الآباء والأجداد على تربية النشء بحيث يكون لهم الهيمنة في منهج التربية فيبثون معتقداتهم البالية وتجربتهم الزائلة.
- إن خزائن الله لا تنفد وعلم الله ممتد ولو أن البحر يمده سبعة أبحر وكل شجر الأرض أقلام لكتابة ما يجود به الله من العلم على الإنسانية ما نفد ما عند الله من العلم والحكمة والمعرفة فلماذا لا يترك الآباء دور التربية لله سبحانه وتعالى؟.
- إن هذا الأمر الذي يتحدث فيه القرآن من جهة علم الله الذي لا ينفد قد تحقق معجزته في العصر الحديث حيث تفجرت المعارف والعلوم على يدي التربية وإمكانات الفرد الخلاقة وما توصلت إليه العلوم من التكنولوجيا والمخترعات التي ملأت وجه الأرض والسماء وتبين صدق القرآن صدقاً مطلقاً.

○ لبيـان قدرة الله العلميـة أشار القـرآن إلى عمليات الإحيـاء والإماتـة حتى انتهى إلى أن قـدرة الله تصـل إلى حـد بعث النـاس وخلقهم كمـا يخلق ويبعث نفساً واحدة حيث بيّـن للقرآن قدرة الله المطلقة وهذا ما يستوجب ترك التربية الحرة بين يدي الله ثم نواميس الطبيعة وليس بين يدي رجال الكهانة وأيدي الآباء والأجداد.

○ إن بشارة القرآن بمناهج العلوم الطبيعية في مواجهة العلوم اللاهوتية قد بيّن عداوته لتسلط أهل الكتاب وسلطان اليهود على حرية الفكر وحرية الاعتقاد وحرية الانتماء حتى إنهم كانوا يعتقدون أن الإيمان خصيصة يهودية أو مسيحية فجعل القرآن من قضية العالم قضية إيمانية تشمل العامة من الناس ولهذا كانت اشتقاقات المعرفة القرآنية كلها اشتقاقات طبيعية من النمل والنحل والعنكبوت والشمس والقمر والليل والنهار والدواب والشجر والجبال والبحار ولم يترك القرآن قضية من قضاياه إلا وبرهن عليها من الطبيعة والسنن والنواميس والفطرة.

○ عندما قدم القرآن منهج العلم بـديـلاً للاهوت فإنه قدم عنـد نقده لأهـل الكتاب والأديان موضوعات الدين القيم والدين الخالص وكلها موضوعات اشتقت عناصرها من منهج المعرفة الـطبيعي والفطري حتى أنـه في نسق «لقمان» من أجل إثبات الهيمنة لله سبحانه وتعالى فرض التـربية الفـطرية والطبيعية أيضاً.

○ يقول القرآن لمحمد ﷺ **﴿ألم ترأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى﴾**، ليبين من ذلك أن الله يعرف الصالح للناس وللحياة ولذلك فهو يفرض منهج التربية الحرة ولا غرابة في ذلك إذ أنه عليم خبير وأنه هـو الحق وأن ما يـدعونـه من فرض سلطانهم على النـشء هو الباطل.

○ ثم يضرب له مثلاً بالفلك التي تجري في البحر بنعمته هو إذ أنه يخرج الآيات كي يتعلم منها الإنسان ولولاه ما علم الإنسان شيئاً ولما أبدع ولما اخترع ولما كانت تلك التكنولوجيا ولهذا يجب أن يطمئن الناس إلى منهج التربية الحرة.

○ يقدم القرآن لمحمدﷺ برهاناً عادياً يحسه كل واحد من الناس وقت الشدائد والمحن إذ يستغيث الناس بالله وحده لا شريك له فإذا هم ناجون سالمون بقدرته.

○ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ﴾[1].

○ إن كان كَبُر على الناس أن يكون الله وحده الرب والمربي للأجيال فإنه يعلم أكبر من ذلك ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

○ إذا كان القرآن يحتج بالآيات خارج نفس الإنسان فإنه قد احتج بمقومات الحياة من السمع والبصر وهما أشرف ما في الإنسان لنتبين أن الحي في النفس البشرية ليس هو الإنسان على الحقيقة وإنما هو مدد الله سبحانه وتعالى لنتبين مقدار الرعاية الربانية التي شملت هذا الكائن وذلك أدعى بتسليم الأمر في التربية إلى الخالق وحده لا شريك له.

○ حدد القرآن في صدر سورة «لقمان» مشكلة أهل الكتاب والأديان فبيّن أن الذين آمنوا بما نزل في القرآن فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأيقنوا من الآخرة

---

(١) سورة لقمان: الآية ٣٣.

(٢) سورة لقمان: الآية ٣٤.

أولئك على هدى من ربهم ولكن أهل الكتاب والأديان ليسوا كذلك إذ غرهم في ربهم الغرور وما كانوا يفترون أيضاً.

- إن مسألة الألوهية والربوبية التي يناقشها القرآن ضمن مشكلة أهل الكتاب والأديان إنما أثارها القرآن لأن اللاهوت الديني عند أهل الكتاب فيما يخص الموضوعين قد اصطبغ بصبغة العنصرية وأن رب اليهود ليس رب العالمين وإنما هو رب خاص بشعب الله المختار «ويهوه» عندهم هو سندهم الوحيد في مواجهة الأمم كلها وهذا كله مخالف لنظرة القرآن فيما يخص الرب والإله الواحد الأحد.

- إن الرب في القرآن هو رب العالم كله على السواء والإله الحق هو ما فرضته الربوبية من آيات السنن والنواميس والفطرة الطبيعية وتقوم دعوة القرآن على تصحيح المفهوم اللاهوتي لتلك المسألة فتكشف مقولات أهل الكتاب وادعاءاتهم ومعتقداتهم وسلوكهم وعلاقتهم بالناس وتحلل تاريخهم من بني إسرائيل وآل عمران وتجعل من ذلك كله موضوعاً واحداً للهيمنة الإلهية لبيان أن الله وحده هو المهيمن على العالم.

- تميزت أنساق «العنكبوت» و «الروم» و «لقمان» ببيان جذور المعرفة القرآنية واهتمت بالبرهان الطبيعي وجعلت من قضية أهل الكتاب قضية عامة للكافرين جميعاً ولذلك كانت تلك الانساق نتيجة مباشرة لما ورد من التحليل في «البقرة» و «آل عمران» وأنها هيمنت على ما ورد في هذين النسقين لبيان أن عقائد الذين آمنوا بمحمدﷺ والقرآن هي العقائد الحقة بل هي العقائد العالمية التي وردت في صدر سورة «البقرة» وأنهم يؤمنون بعالمية الرسالة وبما نزل من الكتب السماوية قبل نزول القرآن **﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾**[1].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤.

- نظر القرآن إلى توجيه لقمان في التربية نظرته إلى البديل الطبيعي للكاهن والقسيس والحبر إذ كان هؤلاء يقومون بدور المربي في الأمة فجعل القرآن هذا الدور للفطرة السليمة في الأب والابن ليكون من ذلك شعبية التربية وأنه في إمكان الرجل العامي القيام بها.

- إن هذا التغيير في المفهوم الديني هو الذي جعل أصحاب رسول الله الذين آمنوا به شباناً صغاراً يؤمنون بالحرية والعقل والفطرة السليمة وأن ما حدث من ذلك كان تحريراً للجيل وانبثاقاً من مشاعر الاستقلال وتحطيم القيود.

- يحدثنا القرآن أن الفطرة والأمل إنما هو للشباب وهذا هو السر في نزول سورة «لقمان» لمناقشة قضية هيمنة الآباء والأجداد وأهل الأديان إذ أشار القرآن إلى أهمية تلك القضية عندما تبين له أن الكبار اللذين رانت على عقولهم العقائد الفاسدة لا أمل يرجى منهم ولا خير.

- هذا التحرير قد أُوتيَ ثماره إذ حطم القرآن القيود الدينية لدى الشباب وأحل مكانها الإيمان بالله والإنسان والإخاء العالمي وهي المبادئ التي مكنت لانتصار الأمة عندئذ.

- إن ضمانات انتصار الأمة القرآنية قد أورده القرآن في تلك الانساق العظيمة للهيمنة الربانية وأن نسق «العنكبوت» ضمن الصدق ونسق الروم ضمن حقيقة وقوع التغْيير ونسق لقمان ضمن التفاف الشباب وتحررهم حتى كان الأبناء في صحابة رسول الحرية، والآباء والأجداد المضلون لأبنائهم في صحابة الشيطان والكفر.

- بيّن القرآن أن هناك فرقاً ضخماً عندما ينشأ الإيمان في أحضان أهل الأديان وعندما ينشأ الإيمان على السجية والفطرة ولذلك وضّح أن رب المؤمنين هو رب العالم والطبيعة والأنهار والبحار والشجر والقمر والليل والنهار وما خلق الله من أجناس النبات والحيوان وما أسبغ على الإنسان

من النعم حتى يطمئن المؤمن أنه في كنف وتحت بصر وسمع السماء لأن أهل الكتاب والأديان كانوا يعلنون أنهم أولياء لله على الناس ومن لم تشمله تلك الولاية فقد أصبح طريداً من رحمة الله ورعايته وهذا هو الباطل الذي تصدى له القرآن وكشف للناس زيغه إذ الولي الحق هو الله وحده ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الوَلِيُّ﴾[1].

- بنزول نسق «لقمان» من أجل هيمنة الله تحطمت سلطة أهل الكتاب وسلطة الآباء وسلطة العشيرة والقبيلة وسلطان العرف والتقاليد وسلطان القرابة والرحم ولم يبق غير سلطان الله مانح الحرية للإنسان.



القضايا ومحمولاتها:

- مسألة نزول الكتاب السماوي على محمدﷺ لينذر الأميين الذين لم تأتهم نذر الله من قبل مثلما كانت التوراة والإنجيل نذيراً لأهل الكتاب.
- إن الله عندما خلق السماوات والأرض فإنه خلقها في ستة أيام على التفصيل فلا تغيب عنه غائبة في الأرض ولا في السماء بحيث يعلم الغيب ويعلم الشهادة في أمور العالم والناس.
- إن أمر الله يجري بين السماء والأرض في لمح البصر حتى أن يوماً عند الله يساوي ألف سنة مما يعده الإنسان ويحسبه بحيث لا يتأخر أمر الله ورقابته عن الحوادث اليومية والوقتية عند حدوثها.
- إن استواء الله على العرش تعني الكمالات ولذلك لا يوجد شفيع ولا ولي للناس من دون الله بحيث يكون لأهل الكتاب والأديان أو غيرهم سلطان الشفاعة أو سلطان الولاية.

---

(١) سورة الشورى: الآية ٩.

- إن ولاية وشفاعة أهل الكتاب والأديان على الناس معناه أن هناك خلقة وأجناساً منحطة وهناك أجناس وخلقة سامية وهذا ليس صحيحاً فكل الناس بدأ الله خلقهم جميعاً وكل الناس أمام الله سواسية في أصل النشأة وليس أهل الكتاب والعنصرية والأديان من طينة ومعدن خاص بحيث يكون لهم فضل على العالمين.
- برهان ذلك أن الناس جميعهم سلالة من ماء مهين وهو النطفة ولو كان لليهود وأهل الأديان وأجناسهم شأن آخر لما جرت عليهم تلك السنة.
- إن ما يجري على الناس في ميلادهم ومعادهم سيجري أيضاً على أهل الكتاب والأديان واليهود والنصارى وكل الخلائق ولن يكون لأحد من الناس ميزة عند الله إلا من خلال معيار واحد فقط هو معيار التقوى.
- لو شاء الله أن يهدي الناس جميعاً لهداهم ولكن المسألة ليست كذلك إذ إن الله خلق الناس أحراراً وعلق مصائرهم بما يؤمنون به ويعملون من أجله ولذلك بطلت دعوة أهل الأديان أنهم موكلون بهداية الناس ولن يستطيع ما عندهم من العلم والمعرفة أن يكون بديلاً أمام الله سبحانه وتعالى.
- إن المسألة ليست مسألة أديان وعنصريات وفضل وإنما هي سنن قد خلقها الله ونواميس أودعها الحياة ولن يفلت من ذلك طاغية أو جبار ولهذا يفوز من إذا ذكر بآيات الله خرّ ساجداً مطيعاً لها واليهود وأهل الكتاب معاندون مكابرون وفاسقون أيضاً ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾[1].
- إن أهل الكتاب والأديان يعتقدون غيبة الله عما يجري في العالم والمسألة ليست كذلك إذ أن الله يرعى العالم كما يعلم الغيب فإنه يعلم الشهادة وهو لم يترك تدبير الأمر لأحد من الناس ولم يترك فضلاً لجنس على جنس أو لأمة على أخرى إلا من خلال السباق إلى الخيرات والتقدم.

(١) سورة السجدة: الآية ١٨.

براهين المهيمن «الم» والهيمنة:

- إن إظهار الأمة الإسلامية وسيادتها هو أمر حتمي لأن الأمم الدينية تقوم على الكتب السماوية والقرآن أحد هذه الكتب وما جعل من بني إسرائيل واليهود وأهل الكتاب والأديان أئمة للناس إلا نزول التوراة على موسى فلماذا لا يكون محمدﷺ والقرآن سببين لقيام أمة جديدة؟.

- إن هلاك القرون والسابقين سنة وناموس جرى به الزمن ولن يكون للأمة اليهودية أو المسيحية وضع خاص عند الله بحيث لا يكون غيرها في التاريخ ولو كان لأهل الكتاب والأديان هادٍ من عبرة لاعتبروا من هلاك القرون الأولى قبل وجودهم في التاريخ لكنهم لا يعلمون السنن ولا النواميس التي تجري عليها حياة الأمم والقوميات والحضارات.

- إن ظهور الأمم والحضارات في التاريخ مثله كمثل أية ظاهرة من عمليات الخلق إذ أن لكل أجل ولكل أمة عمراً ولكل حضارة زماناً وقد ولى زمان اليهودية وغيرها لتخلي مكانها للإسلام وحضارته.

- إن قراءة التاريخ تبين أنه لا دوام إلا لله وحده لم يكتب الخلود لأحد من الناس أو لحضارة من الحضارات أو لأمة من الأمم ولو تبين أهل الأديان ذلك لآمنوا بالتطور ولدخل اليهود والمسيحيون في الإسلام وحضارة القرآن.

- لقد أراد الله إحياء حضارة من العرب البدو والمتخلفين مثلما يرسل الأمطار والماء على الأرض التي لا يرجى منها نبات ولا زرع فتصير بها الحياة بإرادته وقوته والمسألة لا تتعلق بمشيئة الإنسان، وإنما تتعلق بمشيئة الله ولو فهم ذلك أهل الكتاب والأديان لتبين أنهم على أعتاب حضارة جديدة من إرادة السماء وحدها.

- إن أسباب قيام الأمم والحضارات علمها عند الله وحده وهو محيط بالكافرين وعلمه الواسع وخبرته بأحوال الناس اقتضت نزول القرآن على قلب محمد ﷺ فهو إرادة السماء والهيمنة الإلهية على العالم.

- إن السنن تجري ولا تتخلف ولقاء موسى ومحمدﷺ لقاء حتمي لأنه يستمد عناصره من وحدة الرسالة السماوية ووحدة الأديان ولو أن أهل الكتاب آمنوا بذلك على الحقيقة لتبين لهم أنه الحق من ربهم ولكنهم فاسقون كاذبون.

- ما من خلق في السماء أو في الأرض إلا ويسجد لله طوعاً كان ذلك أو كرهاً ولن يفلت أهل الكتاب والأديان من قبضة الله ومتى وقع القتال كانت الهزيمة من نصيبهم وسورة «الحشر» شاهد على صدق هذا الأمر حتى أنهم خربوا ديارهم بأيديهم.

- من فرط غرور أهل الكتاب والأديان وافتراءاتهم على الله أن الإيمان لم يعد وسيلة للنفع وإنما قلبت به الآيات فأصبح وسيلة لهلاكهم وهذا ما نراه واضحاً في المجتمعات الإسلامية والمسيحية واليهودية المتخلفة.

- لو كان أهل الكتاب والأديان صادقين لكانوا أئمة الناس في التقدم والسلام والعالمية ولكن واقعهم يكذب ذلك كله لأنهم هم الفاسقون حقاً ولكن لا يعلمون **﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ﴾**[1].

- إن القرآن لا يقدم للناس ديناً من الأديان على التقليد والمشابهة وإنما يقدم للناس حقيقة الإيمان الذي أفسده أهل الكتاب والأديان ولذلك يحدثنا نسق «السجدة» عن الإيمان بالآيات التي خلقها الله بيديه فيبين أنها هي السنن التي جرى عليها الخلق وهي أيضاً النواميس والفطرة التي يجب أن يدين بها الإنسان.

- إن اختلاف أهل الكتاب والأديان مع القرآن في حقيقة الإيمان جعل القرآن

---

(١) سورة السجدة: الآية ١٨.

يضع لأول مرة في تاريخ الإنسانية منهجاً للمعرفة جاء بـه مقنناً في كتـابي «يس» و «طس» وبالتحديد في سورة «يس» وسورة «النمل».

- مثل ذلك لجأ القرآن لأول مرة عندما أصبحت الحاجة ملحة إلى التحليـل والبيان إلى إيراد التنـظير والنـظرية القـرآنية وهـذا نتبين ملامحـه في إيراد «نظرية علم النفس» من قصة خلق آدم عندما تحتم الضرورة بيان الأسباب السيكـولوجيـة التي جعلت من الإنسان كـافـراً بـربـه ومثلهـا في الإبليس والشيطان وغيره «اقرأ كتابنا نظرية علم النفس القرآنية».
- إن الهيمنـة تقتضي التحـديـد والـدقـة وفي نفس الـوقت تقتضي البيـان والتوضيح ولذلك تضمن القرآن المحكم من أجل تحديد القضايا وحصرها وتضمن المتشابه من أجل البيان والتبيين والوضوح بغير لبس.

الباب الثاني

الفصل الأول

بيان علاقة «الم» بـ «المص»



لبيان معنى «الصمد»

القضايا ومحمولاتها:

- مسألة هيمنة الله تتجلى في أنه هو العزيز الوهاب وقد أنزل القرآن ووهبه لمحمدﷺ ليكون للعالمين نذيراً.
- إن مشكلة الألوهية قد وجدت لها حلًا في القرآن وإن الإله لم يعد إله إسرائيل ولا إله النصارى ولا إله المجوس وإنما هو إله واحد لجميع الناس وأنه رب العالمين الذي بشرت به كل الرسالات منذ نوح وابراهيم وهذا هو التوحيد في أنضج صورة وأشرف معنى لأنه قدَّم للناس العالمية التي بشَّر بها الأنبياء والرسل من قبل.
- إن خزائن رحمة الله لا تنفذ وقد اختص بتلك الرحمة محمداً ﷺ وقومه العرب وقد كانوا من قبل في ضلال مبين.
- إن هلاك قوم نوح والذين كذبوا الرسل في مسألة التوحيد والألوهية لله وحده

قد أوضحت أن هؤلاء الرسل على الحق وأنه ما من إله إلا الله وحده لا شريك له وكل مسلك إنساني كان طابعه التعالي والطغيان والاستكبار في الأرض قد عاقبته السماء ومثل ذلك سيكون مصير المعاندين من أهل الكتاب والأديان.

- إن تأييد السماء وعونها لن يتخلى عن محمد ﷺ لأنه جاءه ما جاء لداوود من الحكمة وفصل الخطاب.
- إن الله سخر كل أسباب القوة الطبيعية والنفسية لداود وليس محمدﷺ عن ذلك ببعيد وأن انتصار داود ليس إلا نتيجة لهذا المدد الرباني حيث آتاه الله الملك والسلطان على الناس.
- إن الله أمكن لداود من الملك لأنه عرف في نفسه النصاب الروحي الذي لا يتعدى ١٪ من مطالب النفس فنماه وجعل له السلطان وبسبب هذا الأمر صار خليفة لله في الأرض يحكم بما أراه وعلّمه ومثل ذلك محمدﷺ أيضاً.
- إن الله عندما خلق السماوات والأرض وما بينهما من علاقات لم يخلقها من الباطل بحيث تغطي أسباب السماء على أسباب الأرض وأسباب الجسد على مطالب الروح وإنما اختص كل خلق بشأن وتلك هي الحكمة والمنطق الذي وهبه الله محمداًﷺ فكان من ذلك دعوته للتوحيد والإله الواحد ورفع طغيان أهل الكتاب والأديان ومن يجادلون فرض السلطان والهيمنة.
- أورد القرآن تاريخ داود حيث كان داود في بني إسرائيل فقيراً لا حول له ولا قوة من مال أو سلطان ورغم ذلك وفقه الله في قتل جالوت وآتاه الله الملك عليهم ومثل ذلك من شأن محمدﷺ حيث وهبه الله علم القرآن رغم فقره وهوان أمره على الناس.

- إن داود عندما عرف نفسه على حقيقتها تبين له أنها مستودع طاقة الخلق والإبداع ولذلك يبين القرآن أن كل ملك داود والذي ضرب به المثل كان جزءاً يسيرًا من طاقة النفس فما بالك لو استثمر الإنسان كل طاقاته الخلّاقة.

- إن إيمان محمدﷺ بنفسه وبربه لا حدود له ولذلك فهو على بينة من انتصاره وأنه سيكون له من الملك مثلما كان ليوسف وداود وسليمان وغيرهم ممن أفاء الله عليهم من قوة السيكولوجية والمعرفة النفسية على حقيقتها واكتشاف تلك الطاقات في النفس.

- إن خليفة داود في الملك كان سليمان ولم يمد الله له في الملك أيضًا إلا من خلال نفس السيكولوجية وأن الفتنة والتجربة النفسية هي التي تكشف عن عظمة الإنسان وتجعله يؤمن بربه وبنفسه ولذلك يبين القرآن أن التاريخ الإنساني يصنعه الروحانيون والسيكولوجيون والمبدعون والخلاقون وليس محمد ﷺ إلا واحداً ممن آثرتهم بالعون والتأييد والنصر.

- يصور القرآن النفس البشرية بالمحراب المقدس لبيان الكمال والجلال والبهاء لأصل النشأة وما يطرأ على النفس البشرية من الكفر والشرك والطغيان ليس من طبيعتها وإنما هو من عمل الشيطان لنتبين أن من خلصت نفسه من تلك الأمراض أمثال محمدﷺ وداود وغيرهما أنهم هم الخلصاء المخلصون القادرون على خلافة الله في الأرض.

- إن مسألة المعصية والفتنة تحيق بالناس جميعاً ولكن الفضل يكتب لمن ينيب بعد ذلك إلى الله ولو فعل أهل الكتاب والأديان ذلك لكان لهم فضل كبير على الناس.

- كشف القرآن تجربة سليمان في أخص خصوصيات الإنسان فبيّن أن ما يغلب الإنسان على أمره هو الجنس حتى أن سليمان نفسه قد غرق في

المتعة حتى صار جسداً لا روح فيه ثم تبين له أن الإنسان لم يخلق لذلك وهكذا أوضح القرآن في قمة المتعة الحسية ألا وهي الغريزة الجنسية أن الله لم يخلق الإنسان لشهوة من الشهوات سواء كانت تلك الشهوة جنسية مالاً وسلطاناً أو جاهاً لأن ذلك جعل من الإنسان عبداً لغير الله وحده ولذلك لا يصح من أهل الكتاب والأديان عبادة السلطان أو الجاه أو العنصرية أو المال.

- إن مسألة التسامي الروحي هي التي تجعل من الإنسان كائناً مؤهلاً لخلافة الله في الأرض وأن محمداًﷺ قد سمت نفسه وروحه وتعالى على الشهوات والملذات ووهب نفسه للعلم والعمل فلماذا لا ينال ما نالت من قبله الرسل والأنبياء؟.

- يذكر القرآن فيما يذكر به بعد تجربة ملوك بني إسرائيل، داود وسليمان أنبياء الله وخالصة كل واحد منهم فأيوب مارس الصبر وابراهيم واسحاق ويعقوب كأنواع من الأخيار وكلهم جميعاً كانوا من الأوابين التائبين ولم يكونوا من الأشرار كما هو الحال في أهل الكتاب والمشركين.

- إن طغيان أهل الكتاب والأديان لهو شر مآب لهم ولو تبينوا أن الأخيار هم من يعملون للآخرة لا للدنيا لعرفوا أن الله مع محمدﷺ والذين آمنوا به.

- إن محمداًﷺ ما هو إلا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار.

- إن تكبر أهل الكتاب وكبرياءهم الزائفة طبيعة إبليسية كانت في خلقة آدم عندما خلقه الله لأول مرة ولذلك لم يسجد إبليس لآدم رغم معرفته بفضله وعلمه وهذا هو الذي يجعل أهل الكتاب يعاندون ويكابرون وهم دون وعي أو شعور يطردون من رحمة الله مثل إبليس اللعين.

- إن الغرور والسفاهة والاعتقادات المضللة هي التي جعلت بين أهل

الكتاب والإيمان بمحمدﷺسداً،ولو أنهم تبينوا فضله وعلمه على الحقيقة لآمنوا به ولنصروه.

○ إن التطرف في مسائل الاعتقادات والأديان يؤديان إلى العنصرية العمياء التي لا ترى فضلاً لأحد من الناس حتى لو كان هذا نبياً ورسولاً كريماً.

براهين الهيمنة

○ في النظير نتبين الأحكام فيورد القرآن مشابهات أسماء الله الحسنى لبيان أنها في موضوع «الم» المهيمن فيورد:

﴿**إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[1]، ليحدد الغرض الذي نزل من أجله نسق «العنكبوت».

ومثله ﴿**بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾[2] لبيان الحكمة من نزول نسق «الروم».

ومثله ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[3] وذلك لبيان حكمة تنزيل نسق «لقمان».

ومثله ﴿**ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾[4] وذلك للكشف عن علة تنزيل نسق السجدة وكلها منسوبة إلى عزة الله سبحانه وتعالى.

○ ترد نظرية علم النفس القرآنية قصه خلق الله لآدم لبيان مسألة اللاوعي وأن الكافرين والمشركين وأهل الأديان وأهل الكتاب تغلبهم على

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٢.
(٢) سورة الروم: الآية ٥.
(٣) سورة لقمان: الآية ٢٧.
(٤) سورة السجدة: الآية ٦.

عقولهم تلك الغرائز الدفينة في الإبليس والشيطان الذي يسيطر عليهم دون وعي أو شعور لنتبين أن القرآن لم يلجأ للتنظير والنظرية إلا ليجعل منها سنة وناموساً بحيث يطبقه في كل موضع ترد فيه حالات فقدان الوعي وغلبة الشهوات والأهواء ولذلك وردت قصة خلق آدم في العديد من السور القرآنية والتي شملت الكثير من التحليل والبيان.

- في نسق المهيمن من «لقمان» أبان القرآن كيف تحققت حكمة الله وفي نسق «العنكبوت» أما في نسق «الروم» ونسق «السجدة» فقد تحققت الرحمة ثم أوضح نسق «ص» أن الله هو الوهاب الذي بيده خزائن السماوات والأرض وهو الذي بيده ملكوت كل شيء ولن يكون ذلك بين يدي العنصريين من أهل الكتاب والأديان أو غيرهم.

- لمّا عمد القرآن إلى نقد تاريخ أهل الكتاب والأديان وفند مقولاتهم وادعاءاتهم ولما كشف لناس من سلوكهم وفسادهم ظهر علم مقارنة الأديان وكان ذلك العلم لا وجود له قبل نزول القرآن.

- اعتبر القرآن أهل الكتاب والأديان من أشد الناس عداوة للتطور والتقدم الروحي ولذلك ما أن يرد ذكر الكافرين والمنافقين حتى يشير إليهم القرآن فيورد عقائدهم من مقولات ولد الله وغيرها لبيان أن الكافرين على الحقيقة هم أهل الكتاب والأديان المرتدون.

- كان القرآن حريصاً أن يوضح للناس أن التقدم الذي أحرزته البشرية في مجال الأديان كان نتيجة مباشرة للمصطفين الأخيار من الناس وأن كل واحد منهم عقيدة خالصة لوجه الله والدار الآخرة فمنهم من وقع في الفتنة ثم أناب ومنهم من وقع في المرض ثم صبر ومنهم من جعل فعل الخيرات لها مآباً ومنهم من جعل الحكمة والعلم منهجاً وبذلك أعطى القرآنُ للعقيدة الدينية تقنيناً جديداً وفتح للعامة مجالاً واسعاً للدخول في الدين الخالص والدين

القيم الذي لا تشوبه العقائد والمفاهيم المضللة حتى أنه يشير إلى بعثة محمدﷺ وماآتاه الله من فضل القرآن وهو كما يعلم الناس ليس من طبقة رجال الدين بل إنه من الأميين الذين ليس لهم دراية بالدراسات الدينية واللاهوتية، فيوضح أن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء وليس الأمر بأيدي رجال الدين والكهانة، ومثل ذلك ما ورد في سورة «الكهف» وما قدمه القرآن من العلم اللدني ﴿**وعلمناه من لدنا علما**﴾ كي لا يكون الفكر الديني مغلقاً أمام العامة من الناس بل أن تلك البعثة خارج نطاق أهل الأديان والكتاب لتبين أن أبواب الرحمة السماوية لا تغلق في وجه الإنسان أياً كان الإنسان إذا لجأ إلى ربه مثلما فعل محمدﷺ وأن الذين ينادون بالتخصص وحمل الدكتوراه في الأديان أغلقوا أبواب رحمة الله وليس الأمر عند الله كذلك.

- مع كل قضية من قضايا الإيمان أورد القرآن عقيدة الإيمان بحياة آخرة لتتبين أن خلاصة الأديان كلها تنصب في الروحية فلو شابت أهل الأديان شائبة مادية فقد خرجوا من ربقة مهمة الدين عند الله وهي نفس المسألة التي أخذها القرآن على أهل الكتاب فبين أنهم يلفقون ويكذبون على الناس ولو أنهم صدقوا لكانت ديانتهم روحية الطابع.

- لم يكن الخطر الداهم على الدعوة وبعثة نبي الأميين، المشركين من قريش وإنما كان العدو الأول هم أهل الكتاب والأديان وهذا نتبينه من انتشار موضوع الهيمنة انتشاراً يكاد يغطي القرآن كله إذ نجده في كتاب «الم» وكتاب «المر» وكتاب «المص» وكتاب «طسم» وكتاب «حم» وهي كتب قرآنية تغطي عشرات من السور الطوال شملت أجلّ ما في القرآن من النظريات والجدل والعقائد والقضايا حتى ليكاد نسق الهيمنة فيه يطغى على كل آية وسورة.

- إن مشكلة قريش كان يمكن أن تنتهي من تلقاء نفسها عندما يشتد سلطان المسلمين علاوة على أن قريشاً لم يكن لهم دراية بالدراسات الدينية ولا

باللاهوتية ولذلك كان خطر قريش هينا، ولكن المشكلة الكبرى التي كانت تهدد الأمة في وجود الفكر الديني متمثلاً في أهل الكتاب وعقائدهم ولو لم تنتصر الهيمنة في القرآن على سلطانهم الفكري والديني لما استمرت الدعوة بعد نصر بدر ولما أمكن للمسلمين أن يحققوا تلك المعجزة في سرعة انتشار الإسلام ومن ذلك نتبين المجهود الخطير الذي قام به القرآن لتحرير الناس من ربقة عبوديتهم لأديانهم التي حرفوها.

- عندما جعل القرآن من رجل أمي رسولاً ونبياً إلى الناس كافة فإنه بذلك قرَّر مبدأ الحرية والديمقراطية للجميع وعندما بيّن أنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى فإنه أرسى القاعدة الأولى للحرية الفردية في مثل تلك الأمة الوسط والتي لا تنحاز إلى عنصر دون آخر إلى عقيدة دون أخرى وجعل من حرية محمد ﷺ واستقلاله شاهداً على ذلك.

- إن الثقافة التي استمدت جذورها من استقلال الأمة والقرآن في مواجهة الثقافة الدينية السائدة عند أهل الكتاب قد جعلت المسم يتعدى القوالب الجامدة في العبادات والقرابين والكفارات وما شابه ذلك من تعقيدات اللاهوت في هذا الوقت وأصبحت كل الأرض مسجداً وطهوراً ورفعت تلك الثقافة الواسطة بين الإنسان وربه ورفعت من شأن الإرادة التي تنبع من قلوب الأفراد حتى بيّن محمدﷺ للناس أن العبد ما أن يقبل على ربه ماشياً حتى يأتيه هرولة لنفهم معنى الحريات التي أطلقها القرآن وجعل منها سياسة وثقافة.

- إن الذين لا يفهمون أن مشكلة أهل الكتاب التي وردت في القرآن هي المشكلة الدينية، لا يدركون سرَّ العناية الإلهية لتصحيح مفهوم الأديان عند الإنسان منذ بعث نوح لأول مرة ناقضاً ما بين أيدي الناس من الدين وأن المشكلة الدينية هي مشكلة الإنسان أينما وجد وأينما كان وأنه ما من إنسان إلا ويأخذ بتلابيبه الدين وهو في صراع دائم

بينه وبين دينه وما بعثة السماء ورسالة محمد إلا رأفة ورحمة من الله حتى يقول القرآن إن الله ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته ليبين للناس أنه ما من عمل أو فعل يعمله الإنسان إلا ويكون الدين فيه قاسماً مشتركاً لنتبين خطورة المسألة الدينية عند الإنسان حتى يقول محمد ﷺ لصحبه وقد رآهم يجادلون في الدين «ما شاد الدين امرؤ إلا غلبه» ومثل ذلك عندما وجدهم يجادلون في مسألة القضاء والقدر لنعلم أن عناية القرآن للهيمنة إنما كانت موجهة إلى الأديان وأهل الكتاب وما فرضوه من الوصاية على الناس.

- الأمة الوسط والرسول والنبي والقرآن ومنهج الشورى والاستقلال من لحظة الصدام بينه وبين أهل الكتاب وعقائدهم ومقولاتهم وافتراءاتهم على الله وتزييف الكتاب والرسالة والنبوة واستغلال الإنسان للإنسان قد جعل المنهج القرآني يتبين أنه لا يمكن أن يضمن هذا الاستقلال للأمة إلا من خلال شيء واحد هو التطور والارتقاء ولذلك رأينا في الجدل إرجاع القضايا إلى مدلولاتها في المثاني من أسماء الله الحسنى مثل السميع البصير أو العليم الحكيم وهي كما نعلم مطلقات خارجة عن الزمان والمكان لنتبين أنها وردت من أجل التطور وأن القرآن يقول لنا في مثل تلك القضايا إنها نسبية ولا يحكمها إلا هذا المبدأ حتى ورد الفكر القرآني في كثير من القضايا على عكس مفاهيم الناس ومعتقداتهم وثقافتهم.

- من حق القرآن علينا أن نفخر بمنهجه ودينه الذي ارتضاه للناس لأنه بذلك أرجع كل شيء إلى الخلقة والخالق وآياتها تملأ الطبيعة والآفاق فمن أراد أن ينجو بنفسه من سلطان الأديان المحرَّفة فهذا هو السبيل إلى النجاة وهذا هو نفسه الطريق إلى الله إن شاء الإنسان أن يتخذ له إلهاً ورباً.

- العلم والفكر والإيمان للعالم كله ويكشف القرآن عن دور أهل الكتاب والأديان في حرمان الناس وإخفائهم لما لديهم من أسرار الدين لنتبين أن

القرآن قام بدور خطير حطم احتكار أهل الكتاب للعمل والفكر وشجع الناس للنظر في ملكوت السماوات والأرض وأهاب بهم أن يفكروا في عجائب خلق النفس وخلق الطبيعة وأبان لهم ألا يتخذوا ما لدى أهل الكتاب والأديان مرجعاً بل يجعلوا مراجعهم إلى الله وآياته وسننه في الطبيعة والفطرة لأن الكتب والمراجع الموجودة لدى أهل الكتاب كلها مزيفة وكلها مغرضة وشكك فيما بين أيديهم من أصول التوراة وأصول الإنجيل بحيث ندرك أن القرآن هو أول من لفت نظر الناس إلى قيمة الطبيعة العملية وما قد تكشف عنه من الأسرار المذهلة، ولذلك أبان في جدله لأهل الكتاب أن الحكم بينه وبينهم ليس في اللاهوت وإنما يجب أن يكون في الناموس والحياة العملية وبذلك كشفت مخازي الربا وطغيانهم على الناس وادعاءاتهم الباطلة وأن واقعهم هو الذي يدفعهم بالخزي والعار.

«لا تقل أصلي وفصلي بين الأمم» وإنما هو ما يعمله الإنسان وينتجه ويا لخيبة المسلم أو المسيحي أو اليهودي الذي يعتقد أن له فضلاً على الناس.

○ قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ليتبين العالم أن الله بريء من اختلافاتهم ولو كان أهل الأديان على الصدق ما تمزقت وحدتهم في الله ولذلك يسخر القرآن منهم حتى يقول إنهم يفعلون ذلك وهم يتلون الكتاب السماوي من التوراة والإنجيل والقرآن لبيان أن العقائد عند عنصريات الأديان ليست إلا أهواء أو حماقة وسفها ولو أنها اشتقت عناصرها من المبادىء السماوية لكان لواقعها حال آخر غير تلك الحال التي نعلمها جميعاً.

الفصل الثاني

عناصر الهيمنة في «المص» والمعنى الفقهي للمهيمن والصمد



المحمولات والقضايا:

- قضية اعتقادات أهل الكتاب أن لهم وضعاً خاصاً عند الله وأنهم من طينة غير طينة الناس، وأجناسهم أفضل من أجناس البشر، ولذلك فهم يستكبرون في الأرض بغير الحق.
- إن المسألة ليست كذلك وإنما الحق عند الله أن يحاسب الناس يوم القيامة بالموازين والقسط فمن ثقلت موازينه فهو إلى الجنة ومن خفت موازينه فهو إلى النار حتى لو كان من أهل الكتاب والأديان واليهود والنصارى والمسلمين.
- هذا الكتاب ومضمونه إنما نزل تذكرة للذين آمنوا بالقرآن وعلى هذا المبدأ يجب أن تكون عقيدتهم وأن الله يأخذ الناس بأعمالهم ولا يأخذهم بعنصرهم وأجناسهم ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ومن كان يريد الله والحياة الآخرة فليرفع عن عقيدته الكبرياء والغرور.

- إن قولة أهل الكتاب من اليهود والنصارى بتفضيل عنصرهم قالها من قبل إبليس وما هم فيه من الغرور وعدم العلم الحق وقع فيه آدم وحواء من قبل، وهي تجربة تتكرر مع الناس وتقوم العداوة بينهم بسبب ذلك والخطيئة الأولى عند الجهلاء إنما تبدأ من الغرور بسبب العقائد العنصرية والهيام بها إذ هي مرض دفين في كل نفس خلقها الله من آدم وحواء.

- إن قضية العنصرية وفساد أهل الكتاب إنما كانت لعدم وجود المعرفة الحقة والعلم الصحيح ولذلك فكتاب «المص» هو كتاب تذكرة لهؤلاء جميعاً لعلهم يرجعون.

- إن من يعتقد أن له وضعاً خاصاً عند الله إنما يريد أن يكون له طبيعة غير بشرية مثل باقي الناس وهي نفس المسألة التي غرر بها الشيطان آدم وحواء منذ الخلقة الأولى ولم يكن ذلك صحيحاً إذ أن خلقة الله لا يمكن أن تتبدل أو تتحول وما خلق من الطين لا بد أن يكون كائناً بشرياً ولا يمكن لأهل الكتاب والأديان واليهود والنصارى والمسلمين أن يكونوا ملائكة أو أرباباً أو آلهة من دون الله بل هم كسائر خلق الله من العالمين وموقفهم في الآخرة على قدم المساواة مع الناس كافة إلا فضيلة من ميزان الأعمال.

- ليس من السهل أن يقول القرآن ذلك للناس خاصة أهل الأديان والكتاب ولكن المسألة تستوجب إنذار المؤمنين بالله على كافة مللهم وطوائفهم لأن الاستكبار والكبرياء والغرور جبلة وطبيعة غالبة على الإنسان وقد أخرجت أبوينا من الجنة من قبل والناس لا يعرفون ذلك.

- إن كمالات النفس البشرية تنهار أمام السموم الباطنية للأبالسة والشياطين التي تدرك الوجود الإنساني وهو لا يدرك وجودها ولذلك فهي تتربص بالإنسان دون أن يدري حتى تجري منه مجرى الدم وهو لا يحس ولا يشعر حتى يقع في الخطيئة فتبدو له سوءات النفس البشرية على حقيقتها وذلك

بأسباب الكبرياء والغرور والحماقة وأهل الكتاب والأديان العنصريون قد وقعوا في تلك المصيدة.

- إن من فضل القرآن في مجالات الهيمنة أنه كشف عن مستويات الوعي الإنساني وأن الإنسان قد يأتي سلوكاً وهو يعتقد أنه يدركه حق الإدراك والحقيقة غير ذلك لما ينطوي عليه الوعي الإنساني من درجات كبيرة من الباطنية اللاشعورية وهي نفس الحالة التي وقع فيها أهل الكتاب والأديان ولذلك شرح لهم القرآن تلك السيكولوجية لأول مرة لبيان فضل الأبالسة الشياطين وغلبة الإنسان أمام تلك القوى الكامنة اللاشعورية.

- «وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وقالوا إن الدار الآخرة لم تخلق إلا لليهود أو النصارى وقالوا إنهم اتخذوا عند الله عهداً بذلك وقالوا إنهم شفعاء للناس عند الله وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه وقالوا. . . وقالوا. . . وقالوا» ولكن القرآن يرد على ذلك كله فيبين في أكثر من موضع أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته فلا مفر من العقاب ودخول النار.

- من الخطورة أن ينسب الإنسان أسباب الخطيئة والذنوب إلى الله باعتقاد أن ذلك قدر محتوم، فبيّن القرآن أن الخطيئة ليست من الله وإنما هي من الشيطان ومن باطن النفس وغرور الإنسان بربه ولذلك رد القرآن على ما يعمله أهل الكتاب والأديان من الفواحش في كل مجال فبيّن أن طاعة الله في كل ما يجب أن يطاع هو الإخلاص في الدين والعصيان الذي يبدو في مجتمعات أهل الأديان هو الذي يذهب بريحهم وسلطانهم ولو أنهم أخلصوا لله لما حاق بهم ما كانوا يفترون.

- إن أهل الكتاب يسرفون في كل شيء فتراهم يتشددون حتى يحرموا ما أحلّ الله ويحلوا ما حرمه لنتبين أن المسألة ليست علماً وإنما هي الأهواء والتطرف.

- لكل أمة أجل فإذا انتهى هذا الأجل ماتت الأمة وولدت بدلاً منها أمة جديدة وتلك سنة الأممية الفاسدة التي لا تبنى عقائدها على الحقائق حتى يداركوا جميعاً في النار ولو قامت حياة الأمم على العلم والحقائق ما كان ذلك ولما هلكت الأمم ولكن التاريخ يقص علينا هلاك قوم نوح وقوم إبراهيم وقوم لوط وانهيار الأمة اليهودية والنصرانية لنتبين الحقيقة التي تعمي الأبصار وأن أهل الأديان قد زيفوا عقائدهم وهي مشكلة كبرى من مشاكل الطبيعة الإنسانية حتى أصبحت سنة تجري في الأمم كلها ولذلك لا يعلم أهل الكتاب والأديان أن سلطانهم إلى زوال.

- إن هذا الاعوجاج في مسألة أهل الأديان والكتاب مرده إلى الاستكبار في الأرض بغير الحق وبغير العلم وبغير العقيدة الإيمانية السليمة، ولو أنهم أدركوا أن الناس سواسية أمام الله لما حدث هذا التعالي والعنصرية باسم الأديان وباسم الأجناس وباسم الأعراق وباسم الشعوبية ولتبين أن علاقته بربه يوم القيامة إنما تقوم على الموازين القسط والإنصاف ولذلك يقول القرآن إن الحساب أمام الله سيسفر عن وجود طائفة أصحاب الجنة الذين زادت حسناتهم وأصحاب النار الذين فاقت سيئاتهم حسناتهم ثم طائفة أهل الأعراف الذين تساوت سيئاتهم مع حسناتهم فلا أصبحوا من أهل النار ولا أصبحوا من أهل الجنة وإنما هم بين الدرجتين لنتبين العدل الإلهي ودقة الموازين عند الحق سبحانه وتعالى.

- إن التبعية لا تفيد الإنسان ولن تنفع أمَّةٌ أمةً أخرى ولن يشفع أحد لأحد ولذلك سنرى في هذا اليوم المشهود التابع بالمتبوع ولعنته وتنصل الشافع من طالب الشفاعة ولن ينجو من النار متدين لدينه ولا كتابي لتوراته أو إنجيله أو قرآنه ولن يستطيع عيسى أو موسى أو محمد ﷺ أن يشفع لأحد من المجرمين لأن الله قد أحاط بالناس وهو الوحيد الذي بيده ملكوت كل شيء وهو الوحيد الذي إذا أراد الشفاعة لأحد من خلقه شفع فيه من يريد وقتذاك

ليجعل من فضل الفضلاء آفة ورحمة.

- إن الموازين السماوية هي موازين لا يعرف أسرارها إلا الله وحده ولن يستطيع أهل الكتاب والأديان معرفة شيء من يوم الحساب حتى يخبروا الناس، وأقوالهم في الآخرة أقوال مفتعلة وسيخيب الله ظنونهم فربما نظروا في أهل الجنة فوجدوا فيهم من اعتقدوا أنهم من أهل النار وربما نظروا في أهل النار فوجدوا فيها من كانوا يظنون أنهم من أهل الجنة وربما وجدوا في أهل الجحيم الحبر والراهب والإمام الأكبر ليتبين الناس أن الله خلاف الظنون وأن موازينه كانت هي الموازين الحق وأن معاييره كانت بخلاف معايير الناس وأن من اعتقدوا فيه الإيمان والصلاح كان كافراً أو من اعتقدوا فيه الإلحاد والكفر كان هو المؤمن الصادق لكي لا يغتر أحد بإيمانه أو بعمله فيعتقد أنه هو الولي عند الله وأنه هو الشفيع وأنه هو الوكيل وأنه هو المسيطر والحقيقة بخلاف ذلك.

- يدعي أهل الأديان والكتاب أن الله لا ينال برحمته من هو خارج نطاق الأديان وهذا كذب مبين إذ الله قد شمل برحمته جميع الخلائق وسيتبين أهل الكتاب كذلك تلك الفرية يوم القيامة إذ سينال الله برحمته كل من عمل صالحاً وخلص دينه وعقيدته من الأهواء والغرض حتى يقول القرآن ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾[1].

- إن مسألة تكفير الناس مسألة كبيرة إذ لا يعلم الله أن الإنسان قد خلق كافراً بطبعه وإنما ورد عليه الكفر والفسوق والعصيان لمّا تعرض للتجربة ولم يكن مستعداً لها بالعلم والمعرفة وهو ما يقع فيه أهل الأديان فيكفرون

---

(١) سورة النساء: الآيتان ١٢٣ ـ ١٢٤.

الناس بغير علم أو هدى أو كتاب منير، ولو تبين لهم أن الأصل في الإنسان هو الإيمان وأنه فطري لعرفوا أن الأديان ليست مزورة حتى يكون الإنسان مؤمناً بربه لأن الحيوان نفسه وهو أقل مرتبة من الإنسان قد عرف ربه بالغريزة فما بالك بالإنسان ومثله ما ورد في سورة «النحل» إذ استكثر أهل الكتاب والأديان أن ينزل الوحي على رجل أمي ليس من أهل الأديان فبين القرآن أن الله يوحي للخلائق كلها حتى إنه أوحى إلى النحل فليس غريباً أن يوحي إلى محمدﷺ أيضاً.

- إن مسائل الحرج في الأديان مردها إلى الجهل ولو أن أهل الأديان تمتعوا بالعلم وتسلّحوا[1] بالمعرفة الحقة ما كان هذا التطرف والشطط والغرور بل ما كان استكبارهم وحماقتهم وطغيانهم على الناس.

- في مواجهة سلطان أهل الكتاب والأديان ومقولاتهم وافتراضاتهم وحتمية وصاية الأديان قدم القرآن لذلك بديلاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقد جعل الفطرة السليمة شعار الإيمان الخالص لوجه الله سبحانه وتعالى وبيّن للناس أن الإنسان بتلك الفطرة السليمة يستطيع أن يكون مؤمناً بربه وهذا ما اختاره محمد ﷺ عند الإسراء والمعراج ففضل اللبن على الخمور حتى قال جبريل: لقد اخترت الفطرة والبساطة والإيمان الخالص.

- بيّن القرآن في سورة «فاطر» طبيعة الخلقة في الإنسان وأنها طبيعة تقبل الامتداد والتوسع بحيث تأتي تلك الفطرة فتستوعب الرسالة والنبوة لشخص أمي خارج نطاق أهل الكتاب والأديان وبعيداً عن تعقيدات اللاهوت وتعليماته وجمود هذا القالب الفكري المغلق الذي لا يقدم للناس إلا القوالب المصبوبة والتي لا تقدم للناس إلا مقولات الأحبار والرهبان والأئمة وليس ذلك عند الله هو الحق وإنما الحق هو الحرية الفكرية

المبدعة والفطرة الإنسانية العالمة التي فطرها الله على العلم والمعرفة بالسليقة.

- في كل موضع أثاره أهل الكتاب والأديان وشكوا في محمد ﷺ رد عليهم القرآن بأن يرجعوا إلى الفطرة وسيجدون أن الإنسان عالم بفطرته مؤمن بغير دين عارف بالله بغير واسطة حتى كشف عن ذلك في فضل آدم على الملائكة عند الخلقة الأولى ليتبين أهل الكتاب والأديان أن محمداً ﷺ هو وليد تلك الفطرة بل هو عنوانها خارج سلطان رجال الدين والأديان وما يدعونه من العلم والمعرفة.

- لقد انتصر القرآن لمحمد ﷺ على الأديان وأهل الكتاب ليبين للناس أن الوصاية العلمية للأديان مرفوضة وسلطان الكهانة ليس له سند في فطرة الإنسان إذ تمتع كل إنسان بتلك الروح الإلهية فيه ولا يجوز أن يفرض إنسان نفسه من دون الله على العالم بتلك الحجة التي يحتج بها أهل الكتاب والأديان.

إن بعثة محمد ﷺ وهو النبي والرسول الفطري قد فتحت للناس حرية العلم وحرية المعرفة وحرية الإيمان ومزقت تلك الأستار المصطنعة للدين بسلطانه وجعلت من العلم منهجاً فطرياً لكل الناس فألغي القرآن لذلك نزول الرسل بعد محمد وأصبح لكل إنسان الحق في البحث والتنقيب والمعرفة.

- لا يكف القرآن أن يعلن للناس أن محمداً ﷺ رسولاً أمياً خرج من بين الأميين الذين ليس لهم في الأديان مكان ليعلن للناس أنه قد جاء الزمن لسقوط سلطان أهل العصيان وبيَّن للناس أن العالمية لم تعد في رب اليهود أو رب النصارى أو رب المسلمين وإنما هي في رب العالمين الذي يشمل كل الشعوب والأمم بعين رعايته وأن محمداً ﷺ كظاهرة شهادة قد أثبته القرآن في كل موقع بحيث أشار إلى أن الغرض الرئيسي للربوبية

هو ظهور رب العالم كله الذي بعث الرسل للتبشير بـه وأن محمـداًﷺ هو بعين هذا الرب ورحمته.

- إن جلال الأسماء الحسنى الرمزية من أمثال «الم» وغيرها لا نتبيـن حقيقته إلا من خلال الروح الطائر في القرآن كله وهو يرى من هذه السمـاء العليا كل تفاصيله وهيمنته على المشكلة الدينية برمتها.

براهين الهيمنة:

- في نسق سورة «البقرة» بينت آية الذبابة كـذب قولـة اليهود أن قلوبهم غلف بحيث لا يستطيعون فهم ما يدعو إليه القـرآن ومحمدﷺ فـأبان القرآن أنه ما من كائن قد خلقه الله إلا وهو يتمتع بالإدراك والتعقل حتى الذبابة الصغيرة وأتبع القرآن ذلك بأن شرح في قصة الخلق التي وردت في سورة «البقرة» أن الله ما جعل فضل آدم على الملائكة إلا من إمكان العلم والمعرفة وهو فطرة طبيعيـة في الإنسان فكيف يكـون حال أهـل الكتاب والأديان الـذين يدعـوهم القرآن إلى الإيمـان فيكفرون إلا أن يكونوا مرضى الكذب والافتراء على الله.

- في دحض دعـاوى أهل الكتـاب والأديان واليهـود والنصارى قـدم القرآن التحليل والتنظير وقدم نظرية سيكولوجيـة عن النفس البشريـة وأبان بكـل الوضوح أن سلوك الإنسان يكون سلوكاً لاشعوريـاً بعيداً عن كل علم وعن كل معرفة وآيات الذين طبع على قلوبهم تملأ القرآن للتنديد بعدم إعمال العقل واستطلاع الموضوعية والواقعيـة ولـم يكن هذا المنهـج معروفـاً في الفكر وقتذاك بكل الأمر كله موكولاً إلى التسليم والإذعـان لمن كان بيـده مقاليد العلم الديني والأحبار والرهبان وإلا كـان التكفير والـطرد من رحمة الكنيسة والمعبد هو جزاء هذا التطاول ولذلك كان خصيصة الإيمان عندهم هو التقليد والقول ولم يكن ذلك منهج القرآن.

- اعتمد القرآن في البرهان على تقديم قصة خلق آدم ولكنه قدمها في كل نسق من أنساق الهيمنة بحيث تشير إلى القصد من التنزيل ولذلك رأينا في «البقرة» بيانها لعلم آدم وبيانها في نسق «الأعراف» أنه يستبطن أمراض الجهل والغرور كما هي الحال في أهل الكتاب حتى جعل عالم الأبالسة والشياطين والجن كائنات منفصلة عن الإنسان وإن كانت تعاشره في الجسد البشري «أقرأ نظرية علم النفس القرآنية».

- أوضح القرآن أن العامة من الناس لا تعلم شيئاً عن علم النفس ولا عن تكوين الخلقة الآدمية ولا يعلمون أنهم ذات مركبة من أنوات متعددة بحيث تتصارع تلك الأنوات حياة الشخص فيغلب الإنسان الإبليس مرة ثم يغلبه شيطانه مرات وكذلك أوضح القرآن أن الذين يعلمون هذه الحالة من النفس البشرية هم رسل الله إلى الناس وعلى الناس أن يصدقوهم ولو كان أهل الكتاب والأديان على معرفة بذلك لآمنوا بالقرآن ومحمدﷺ حيث أوضحت آيات القرآن أن هذا الصراع الذي تدور رحاه في النفس البشرية هو صراع لا شعوري ولا يحس به الناس ولذلك كان عمل الأبالسة والشياطين يجري من الإنسان مجرى الدم دون أن يكون لهم دراية بشرور النفس وآثامها.

- إن بداية المعرفة في القرآن إنما يعتمد على معرفة الذات والقول المشهور الذي يقول من عرف نفسه على حقيقتها فقد عرف الله هو قول علمي خالص لأن القرآن أوضح في الهيمنة أن السلوك الإنساني يتوقف على تلك المعرفة بل أنها نقطة البداية لكل معرفة وبكل الأسف تخلو معارف الأديان من تلك البداية.

- أوضح القرآن هناك فرقاً كبيراً بين المعرفة الدينية والمعارف السيكولوجية ولو كان أهل الكتاب والأديان لديهم تلك المعرفة لتبينوا أن القرآن هو الحق وأن دعوة محمدﷺ علمية أصيلة وأنه يحدثهم عن الفطرة وأصل النشأة

وكيف تطورت حياة الإنسان وبيان الصراع النفسي الذي يتعرض له الأفراد دون وعي منهم بذلك.

- في مواجهة كل لون من ألوان الشرك أوضح القرآن في نسق «الأعراف» سلطان الطبيعة فبين أن كل الأجناس البشرية جميعاً إنما تأتي إلى الوجود عن طريق الذرية ولم يكن هناك وسيلة أخرى حتى يدعي البعض أنهم من عنصر آخر غير عنصر البشرية حتى أنه يحتج على عملية جعل أهل الكتاب من عيسى وعزيز وغيرهما آلهة من دون الله فيقول أنهم ما كانوا إلا بشراً يأكلون الطعام ويخضعون للغريزة مثل جميع الناس وأن ذلك لهو أكبر البراهين لواقعيته وماديته أيضاً ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(1).

- إن الفطرة التي يتحدث عنها القرآن عندما يتعرض لمشكلة أهل الكتاب والأديان والعنصرية وبعثة النبي الأمي من خارج أهل الأديان وإمكان تحصيل العلم والمعرفة من أيات الله وسننه ونواميسه وإلغاء النبوات والرسالات وجعل الوصاية للعلماء كل ذلك جعل من نظرة القرآن إلى الإنسان أي إنسان أنه في إمكاناته الفطرية أن يكون عالماً بالسليقة وفتح الباب لأول مرة أمام العقل والتكافؤ فيه بين المتدين وغير المتدين وبين العنصري وغير العنصري بل إنه جعل من تكافؤ إمكانات الفطرة أن يعرفها «ديكارت» أو غيره قانوناً من قوانين السماء حتى أرسى بين المسلمين عندئذ مبدأ للحرية والشورى واعتبار قدرات الآخرين وفجر ثورة عالمية وقتها كان

---

(1) سورة الأعراف: الآيات ١٧٢ ـ ١٧٣ ـ ١٧٤.

الفرد وإمكاناته الخلاقة عماد نهضتها وقوتها حتى كان محمدٌ ﷺ وإمكاناته الخلاقة المبدعة الشاهد العملي على ذلك.

- إن علم النفس الفردي ومقنناته ليس غريباً عن تاريخ القرآن ومحمد ﷺ وبعثة النبي الأمي خارج نطاق الدين واحتكاراته واعتقاداته، وليس غريباً أن يساوي القرآن الناس في العقل بالفطرة وأن يساويهم في إمكانات العلم والمعرفة ولكن المشكلة كما أبدعها القرآن إنما هي الأمراض الاجتماعية والأخلاقية والاعتقادية التي تصيب فطرة الإنسان ولهذا كان القرآن حريصاً في تحليل كل سلوك وكل عقيدة منحرفة وبيان أسبابها حتى انتهى إلى المنهج القويم لحرية التربية في نسق «لقمان».

- إن خطورة الأديان وانحرافاتها إنما تؤدي إلى هلاك الناس في الدنيا والآخرة ولو أخذت الأديان طابعها العلمي الصارم واستمدت مقوماتها من الطبيعة والسنن والنواميس لكان ذلك نعمة كبرى لكن المسألة عند أهل الكتاب والأديان لهوٌ ولعبٌ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(١).

- إن القرآن فصلت آياته من العلم والسنن والنواميس وليس من اللاهوت والمقولات وعقائد أهل الكتاب والأديان والعنصريات ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

- إن رب البشرية كلها على قدم المساواة هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام على التفصيل حتى لا يعزب عنه منها مثقال ذرة في السموات أو في الأرض ولو تبين الإنسان ظاهرة الليل والنهار وكل ظاهرة منهما تتعقب الأخرى وتطلبها حثيثاً لعرف أن الله بيده الخلق وبيده الأمر وما

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥١.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٢.

يحدث في العالم وبين الناس هو يعلمه ويقوم عليه ولو كـان للإنسـان أن يعتمد أو يتوكل أو يطمئن فليؤمن بهذا الرب الذي سخر لـلإنسان الشمس والقمر والنجوم وكل ما يقع بصر الإنسان عليه من النعم.

- هذه الثقة فيما ظهر من الله وآياته تقود الإنسان أن يثق في نفسه وقدراته وأن لا يعتمد إلا على نفسه وأن ربه لن يخذله في موقف أبداً حتى بين القرآن لموسى وهو يطلب برهان الرعاية الربانية أنه لن يتركه وحده بل هو معه في كل لحظة من لحظات حياته وهو يسمع ويرى وسيجد عند مقابلته للفرعون الطاغية نصراء من بين فرعون أنفسهم حتى تحقق ذلك.

- إن الله الذي خلق الطبيعة بيديـه لن يترك الإنسـان سدى حتى يصيـر إلى الفناء والموت وإنما هي الأسباب يخلقها الله سبحانـه وتعالى حتى وقعت إرادته حتى إنه يرسل الرياح فتحمل السحاب والمطر إلى بلد ميت فيكون من ذلك حياته ونماؤه ومثل ذلك بعث الناس من بعد الموت أيضاً.

- عنـدما يستشكـل الأمر والشـك عند النـاس في القدرة الإلهيـة والـربـانيـة ويتخذون من دون الله أولياء ووكلاء مثل أهل الكتاب والأديان وغيرهـم من الطغاة يقدم القرآن قدرة الله في بعث الناس من بعـد الموت حتى يكـون ذلك الآية الكبرى التي تبعث في النفس الاطمئنان والثقة رغم أن ذلك لا يكون له محل في القضية المعروضة.

- مثل النفس البشرية في خبثها وطيبتها كمثل البلد الخبيث والبلد الطيب وما يخرج من ثمرات البلد الطيب إنما يخـرج بإذن ربـه لنتبين أن الأصل في الباطنية والسيكولوجية في الإنسان هي الخير وإنما يدخل الشـر على حياة الناس من أفعالهم وأعمالهم ولذلـك يبيّن القرآن لمحمـدﷺ وقد ظن في نفسه أنه ما أصابه من حسنة فمن الله وما أصابه من سيئة فمن نفسه ولذلك رفع وصايتـه عن الناس حتى قال له: ﴿**وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل ـ إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل**﴾.

- عندما يرفع القرآن سلطان محمدﷺ عن أمته إنما يتركها للتطور والله وآياته وما كان ذلك إلا نتيجة للتجربة المريرة عند أهل الكتاب والأديان وسلطان الكهانة والأحبار والرهبان حتى سرقوا سلطان الله نفسه لنتبين الكارثة التي تحيق بالأمة عندما توجد فيها تلك الطبقة.

- في برهان قصص القوميات الذين أهلكهم الله بين القرآن أن بعثة نوح كانت من أجل رب العالمين والحرية والمساواة والإخاء والعدل ومثل ذلك كانت دعوة هود ودعوة صالح ودعوة لوط ودعوة شعيب وكلهم جميعاً أوضحوا للناس أن المعبود على الحقيقة هو الله رب العالمين لذلك فصل القرآن كيف هلك أهل القرى بالسلوك الموروث عن الآباء والأجداد وعدم الإيمان بالتطور حتى بين القرآن المدى الذي يصل إليه حال الإنسان من البعد عن الله والطبيعة والفطرة السليمة فبيّن شذوذ قوم لوط وعشقهم وهيامهم بإتيان الذكور من دون النساء ومثل ذلك ناقة الله والطبيعة البرية وغنائها وثرائها وما أفسده قوم صالح ليكشف القرآن أن هلاك الحضارة إنما هو في التقليد ولا ازدهار إلا من خلال التطور والإيمان برب العالمين.

- إن قيام الآباء والأجداد والتراث والفكر التقليدي والوصاية على العقل بدور رب العالمين هو في ذاته نقض لمهمة الخالق والرب وأن الأمر إنما يجب أن يترك للتطور الخالق وهو الكفيل بإخراج الطيب والصالح.

- إن دعوة رسل القوميات إلى رب العالم هي نفس دعوة رسل الأمميات أيضاً وما محمدﷺ إلا رسول العالمية والتطور والله سبحانه وتعالى.

- عندما يخص القرآن تجربة نوح وينجيه في الفلك الذي أصبح آية ممتدة مع تاريخ الإنسانية ثم ينجي هوداً ولوطاً وصالحاً ويدمر أقوامهم إنما يضع أيدينا على تاريخ الأحرار وأنهم هم وحدهم القادرون على التغيير.

- إن المشكلة تتعين في تكذيب الناس للرسل وعدم إيمانهم بالتطور والجديد

لأنهم يقعون عبيداً للتقليد وعبادة الآباء والأجداد والمواريث من السلوك.

- فصل القرآن بين الدين والإيمان عندما قدم الربوبية والفطرة إذ أبان أن كل الكائنات تعرف ربها والإنسان يؤمن بربه وما كان من آدم والخطيئة إنما كان طارئاً وليس أصلاً في الفطرة وما قدم القرآن قصة الخلق في مواضع الربوبية إلا لبيان أن الإيمان بالرب فطرة كل إنسان وليس الإيمان ضرورة دينية وإنما هو ضرورة وجود وفطرة طبيعية وما رفع الوكالة والولاية وسلطان الأديان والآباء والأجداد إلا تأكيدًا لوجود هذا الأمر في باطن النفس البشرية وهي غنية عن كل إيمان مصطنع ولهذا كان محمدﷺ نبي الأميين بالفطرة والإيمان بالله والرب وليس بإيمان الدين وأهل الكتاب.

- خلقت الربوبية في القرآن قدراً هائلاً من الشك في الاعتقادات إذ أوضحت التطور من جانب ومن جانب آخر أدانت سلطان الأديان وكشفت للناس أن أهل الأديان اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم وأئمتهم أرباباً من دون الله والحقيقة تخالف ذلك إذ إنه لا رب إلا الله وهو نفسه رب العالمين ورب كل شيء ولذلك أبان القرآن أنه من حرم وأحل للناس فقد صار من تلك الفعلة رباً وإلهاً يعبد بغير وعي ولا دراية.

- أبانت التجربة أن القوميات جميعها قد كذبوا وجميعهم قد هلكوا ومشكلة معتقدات الآباء والأجداد والديانة الموروثة كل ذلك يطبع الأجيال بطابع العناد والقرآن يدرك هذا الأمر ولذلك لجأ القرآن في نسق «لقمان» إلى تحطيم سلطة الآباء والأجداد وان جعل الإحسان للوالدين شيئاً مفروضاً ﴿**تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ**﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٠١.

- ليس ما تقدمه الرسل للناس سحراً ولو كـان سحراً لعـرفه سحـرة فرعـون ولكان لهم الغلبة على موسى وهارون وإنما هي آيات بينـات تملأ أرجـاء الأرض وأنحاء السماء، وإنما المشكلة في الذين طبع على عقولهم وقلوبهم فقـالـوا عنـد كـل آيـة إن هـذا إلا سحـر مبين ولـذا نتبين أن مـا قـدمـه محمــد ﷺ لا يعلو على فـطرة العقــل السليم ولـيسـت المـشكـلة في محمد ﷺ والقرآن ولكن المشكلة في العقلية الموروثة والتقليد الأعمى.
- لم تكن بعثة موسى إلا من رب العالمين ليوضح القرآن عـالمية الـرسالـة وإنسانيتها ولم يبعث موسى ليجعل من بني إسرائيل عنصرية جديدة تحـل محل طغيان الفـرعونيـة وعنصريتهـا وإنما كـانت رسالـة من أجل السـلام العالمي والإخاء الإنساني ولذلك فموسى بريء مما أحدثه اليهود من تحريف للمبدأ.
- في بيان القرآن لغلبة موسى وانتصـاره على السحرة بيـان لما يمكن لـرب العالمين أن ينجزه على يــدي رسله حتى في المجــالات التـي تتــطلب الذكاء الخارق وها هو موسى وما أتاه الله من الـذكاء والفـطنة يتغلب على عباقرة السحر بقوة رب العالمين فماذا ينكر أهل الكتـاب والأديان من أمـر محمدﷺ؟.
- لقد سبقت في تجربة رب العالمين مع الرسل المعجزات الخوارق فلماذا تكون معجزة محمدﷺ والقرآن من نفس القبيل أيضاً؟.
- إن التشاؤم بمحمدﷺ وأصحابه وإلقاء الكوارث التي تصيب الكافرين على سـائر المؤمنين ليس عمـلاً عقليـاً وإنمـا تصيبهم المـآسي بسبب كفـرهم وعنادهم ولو أنهم آمنوا لتبين لهم الشطط فيما يعتقدون فيه ولذلك أوضح القرآن أن الجراد والقمل والضفادع وما أرسله الله على قوم فرعون من الآيات والعذاب لم يكن بسبب موسى والذين آمنوا معه وإنما كان بأسباب كفرهم وفسوقهم.

- إن الله يرسل الرسل ويسلط على الكافرين ليتبين الناس أن هذا ليس طريق الله وإنما هو طريق الشيطان، ورغم ذلك كله يكذب المطبوعون حتى قالوا لموسى رغم ما أصابهم من الدم والقمل وغيره إنه مهما يأتهم به من آية ليسحرهم بها فما هم له بمؤمنين **﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾**[1].

- إن مسألة المطبوع التي أثارها القرآن إنما هي وريث مسألة الاعتقاد في دين الآباء والأجداد وأن القرآن يناقش هذا الأمر باستفاضة ويقدم قصص موسى مع الفرعونيين لبيان أنها مسألة تاريخية تأخذ بالأجيال جميعاً وأن الاعتقادات والذي يرثه الناس من تجارب السابقين هي مشكلة المشاكل أمام العقل والإيمان ودعوة الناس للتنازل عن عقائدهم ودينهم من أجل الإيمان برب العالمين هو شيء خطير لأن الدين جزء لا يتجزأ مع الشخصية ومع السيكولوجية ولهذا يبيّن القرآن أنه لن يؤمن أحد من الناس إلا من خلصت نفسه من انحراف الديانات والاعتقادات وأخلص وجهه لله وحده.

- من نشأة محمد ﷺ بين أحضان الطبيعة بعيداً عن سلطان الآباء والأجداد نتبين مقدار الحرية التي جعلته يتدبر في خلق السماوات والأرض حتى ينتهي إلى أن الدين الحق والدين الخالص والدين القيم هو الفطرة الطبيعية للنفس البشرية ولذلك أوضحها القرآن في نظرية النقد عند تقديم قصة خلق آدم لبيان الجذور والمبادئ التي يرتكن إليها دين الفطرة السليمة وأن النبي الأمي ليس له دين إلا هذا الدين وليس له اعتقاد في إله إلا من خلال رب العالمين.

- إن نصرة الله لبني إسرائيل على الفرعونية العنصرية لم يكن لأنهم الجنس الراقي في العالم وإنما كان ذلك لسنة وناموس هو أن يحل السلام في

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٢.

الأرض ولذلك ما أن فسدت عقائد بني إسرائيل وتحـوَّلوا إلى العنصريـة والشعب المختار حتى سلط الله عليهم أيضاً.

- يقدم القرآن مشكلة غلبـة الحس عند الإنسـان على العقل فيبيّن أنـه بعد خروج بني إسرائيل من مصر فإنهم طلبوا من موسى أن يكون لهم إله مثل آلهة القوم الذين مروا بهم ومثل ذلك ما وقع موسى فيه أيضاً إذ طلب من الرب أن يراه رؤية بصرية ليبين القرآن أن طريق المحسوسات في الإدراك هو طريق سهل ولذلك يميـل الإنسان إلى المحسوس ويطلب كل معرفة من خلال الحواس والمادة وطريق الإيمان ليس كذلك وإنما طريقه هـو طريق المعقولات وتجريد الآيات الطبيعية والسنن والنـواميس والفطرة وهـو ليس طريقاً سهلاً بحيث يستطيعه كل إنسان.

- إن الرؤية التي طلبها موسى قد أوضحت أن الإنسان مهمـا أوتي من قدرة الإدراك فإنه لن يبلغ الإحاطة برب العالمين ولذلك فلكل إنسان قـدره الذي اختصه الله به وأن عليه أن يشكر الله في هـذا الأمر وأن يؤمن بـأن الله من الممكن أن يهب بعض الناس فضلاً خاصاً من عنده في مجالات الإدراك والمعرفة وأن يتبين أن للناس مقامات عند الرب مثلما وهب محمداً ﷺ هذا المقام الرفيع الذي يكذب به أهل الكتاب والأديان.

- إن تجربة موسى مع ربه قد أوضحت أن رب العالمين لا يعجزه أن يربي وأن يعلم وأن يرعى وأن يدافع عن الإنسان متى اختصه بالرسالة أو النبوة أو بالآيات والمعجزات الخارقة ولذلك كان انتصار موسى على الفرعونيين ثم انتصاره على بني إسرائيل الذين خذلوه في نهاية الأمر.

- إن المتكبرين من الفرعونيين قد هلكوا والمعاندين الجهلة من بني إسرائيل أنفسهم قد تاهوا وضلوا الطريق إلى الله وعذبهم بذلك لنتبين أن المشكلة إنما تنحصر في التسليم للرسـل وطاعتهم وقبـول ما جـاؤوا به حيث يعلـو على أفهام العامة وما عليهم إلا الأذعان للأمر.

- في نسق «الأعراف» لبيان الهيمنة جمع القرآن أغرب البراهين إذ بيّن أن القوميات وهي ما قامت حياتها على المحسوسات قد كذبت بالرسالة السماوية ومنها قوم نوح وقوم هود وغيرهم ومثل ذلك كذبت الأمم وكما كذب فرعون وقومه فإن بني إسرائيل لم يحملوا أمانة التوراة ومثل ذلك فعل المسيحيون ومثل ذلك فعل المسلمون اليوم حتى يقول القرآن إنه رغم كتابة كل مبدأ فيه هداية وفيه علم لموسى في الألواح ورغم مبادئ القرآن الجليلة ورغم ما تضمنته المسيحية التي أرسلت جذورها على الروحية والمائدة السماوية قد فتحت للناس على الكافة، فإن ذلك كله لم يحقق رسالة الله في الأرض وأفلست الأديان جميعها ولم يبق إلا الإيمان وهو الملجأ الأخير للبشرية ولذلك كانت دعوة محمدﷺ ليست لدين من الأديان ولا لرسالة من الرسالات ولا لنبوة من النبوات وإنما كانت دعوة إلى الإيمان برب العالمين وهو وحده المنجي للناس.

- في الألواح كتب الله لموسى موعظة ووصية وذكرى للمحسنين فهل سار أهل الكتاب على هذا النهج؟ أم فسقوا وعصوا وضلوا السبيل؟ تلك هي المشكلة التي يبحثها القرآن في الهيمنة وتلك هي قضية القضايا لأنها ليست قضية اليهودوليست قضية النصارى وليست قضية المسلمين وإنما هي قضية شيء خطير هو الدين نفسه والعقيدة ذاتها والإيمان أو لا إيمان!!.

- إن إفراغ الديانات من محتواها هو نفسه ضياع لقضية رب العالمين في الأرض بل هو محاربة الله وكل من يهدم الدين لا يهدم الإنسان فحسب بل يهدم الوجود كله ولذلك اعتبر القرآن قضية الهيمنة أكبر قضاياه على الإطلاق وهو لذلك أدخلها في كل عقيدة وفي كل جدل وفي كل إيمان.

- يجهل من يعتقد أن القرآن يحارب الأديان من أجل العلمانية فقط وإنما يحاربها من أجل الإيمان الخالص والدين القيم الذي يبشر بقيام دين رب العالمين وليس دين اليهود أو النصارى.

- إن اعتبار القرآن للإسلام يرجع لشهادته على هذا الإيمان العالمي ولذلك قال القرآن في دعوة نوح لرب العالمين وهو وغيره إنها من أجل الإسلام لنتبين تلك الفضيلة العالمية لهذا الذي يبشر به القرآن.

- اختار موسى سبعين رجلاً لميقات الرب ففشلت التجربة الربانية لأنها تجربة فرد واحد بعينه والرب يوحي إلى محمدﷺ وحده ولو كانت التجربة جماعية لنجحت تجربة موسى ولكن القرآن يبرهن على أن الرسالة والنبوة هي خصوصية من عند الله لأحد من الناس بعينه بحيث يكتشف هذا الفرد من الناس الآيات والنواميس الهادية لله سبحانه وتعالى ومثل ذلك كان نزول التوراة ومثل ذلك وحي القرآن فلماذا إذن يكذب أهل الكتاب والأديان وهو ما زال سارياً عند المخترعين والمبتكرين في الوقت الحاضر؟.

- في نسق «الر» في سورة «هود» يوضح القرآن أن لكل فرد من الناس فضيلة بعينها يختصه الله بها ومثلما كان فضل هود أنه وثق من نصرة الله له حتى لو اجتمع أهل الأرض وأن فضل محمدﷺ على الناس أن الله اختصه بالقرآن وما ورد فيه من العلم والمعرفة ولهذا أيضاً لم يقبل رب موسى أن يشرك هارون في الرسالة والنبوة إلا بعد إلحاح كبير من موسى ولذلك وجدنا غضب الرب على من اختارهم موسى لميقاته وكان يفتك بهم.

- إن كل إنسان قد أهل بفطرة خاصة يستطيع من خلالها أن يبدع وأن يثري الحياة متى آمن هذا الإنسان برب العالم فلماذا لا يؤمن أهل الكتاب والأديان بالنبي الأمي الذي بشرت به التوراة وبشر به الإنجيل أيضاً.

- في غير موضع من الكتاب المقدس يوضح الرب لبني إسرائيل أنهم لو خالفوه فسيرسل عليهم أمم الأرض وبذلك ينقل عنهم سلطانه إلى الأميين وهكذا جاء وقت تلك النبوة وظهر محمدﷺ من بين الأمم التي تعادي أهل الكتاب والأديان.

- إن رسالة محمدﷺ رسالة عالمية وليست للعرب وحدهم أو لليهود أو النصارى وإنما هي دعوة لعبادة رب العالمين فلماذا لا يستجيب لها أهل الكتاب والأديان؟ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِله إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

- يوضح القرآن أن موسى لم يكن يشبع من لقاء ربه حتى بلغ أربعين ليلة لبيان أن الماديين لا يفهمون تلك السيكولوجية ولا يدركون تلك التجارب الروحية التي تأخذ الرسل والأنبياء لبيان اختلاف الوجدان الإنساني وأن محمداًﷺ شأنه مع ربه شأن موسى أيضاً فماذا ينكرون منه؟.

- في نسق «الأعراف» يقص القرآن تجربة موسى مع بني إسرائيل باستفاضة كبيرة في موضوع الهيمنة لبيان أن الربوبية خلق كل الظاهرة الروحية عند موسى وعند محمدﷺ وأنه كما لم يفهم بنوا إسرائيل تلك الظاهرة على حقيقتها وأنهم لم يستفيدوا منها في حياة موسى نفسه فإن أهل الكتاب والأديان واليهود لن يفهموا أمر محمدﷺ والقرآن ولن يستفيدوا من تلك الرسالة أيضاً.

- لقد أثرى القرآن الحقيقة من خلال دراسته موضوع الهيمنة وهي أجلّ موضوعات القرآن قاطبة.

- يوضح القرآن أن أهل الكتاب ومشكلتهم لم تكن مع محمدﷺ وحده وإنما كانت مع موسى نفسه حتى أن الله لعصيانهم موسى قطعهم في الأرض إثنتيعشرة أمة بعدد أسباطهم رغم أنهم كانوا أمة واحدة وشعباً واحداً لتتبين أن المشكلة ليست في القرآن ومحمدﷺ وإنما المشكلة في العقلية المريضة لهؤلاء الورثة.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

- يعدد القرآن انحرافات اليهود وسقطاتهم وعنادهم وعصيانهم حتى جعل الله منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت وسلط عليهم في كل بلد وفي كل وقت من يومهم سوء العذاب حتى أصبحوا مثلاً للمهانة والذلة والمسكنة.

- **﴿وَقَطَّعْنَاهُم فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**[1].

- إن وراثة الكتاب السماوي عند اليهود وعند المسيحيين وعند المسلمين تفرض عليهم أن يكونوا أعلاماً وشهداء على السلام والحرية والمحبة لكن واقعهم يكذب ذلك كله ويوضح لنا أن وراثة الكتب السماوية من التوراة والإنجيل والقرآن لم تخلف وراءها إلا أمماً تدين بالعنصرية والكراهية للآخرين معتقدين أنهم وحدهم أولياء الله والآخرون ليس لهم حظ من ذلك وهذا الإعتقاد هو الذي أودى بسلطان أهل الأديان والكتاب السماوي.

- أوضح القرآن خصيصة المجتمعات الدينية في مشكلة أهل الكتاب والأديان وأن تلك المجتمعات لا بد أن تكون سلفية وراثية تقليدية تميل إلى فرض الطغيان والتعنصر ولذلك وصمهم القرآن بأسفل الخلق وأحط العقول حتى صار من أهل الأديان القردة والخنازير ومدمني الطغيان.

- إن مثل تلك المجتمعات التي تبنى على إنكار العقل وحريته والفكر وسلطانه والعلم وهدايته لا ينفع فيها الرأفة ولا الرحمة ولا تقوم حياتها إلا من خلال التنكيل بهم والعنف معهم والعقوبة فيهم ولذلك كانت الشريعة الموسوية شريعة دموية حتى أن الله نفسه وهو أرحم الراحمين قد رفع الجبل فوق بني إسرائيل تهديداً ووعيداً ورغم ذلك كانوا عصاة فاسقين ناقضين لكل عهد نابذين لكل شرع خارجين بالباطل لكل دعوة لا أمانة لهم ولا وفاء عندهم وهي بكل اوسف أخلاق الكافرين والمشركين.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٨.

- إن هذا التنديد بأهل الكتاب والأديان في كل موقع أثـاره القرآن من أجـل الهيمنة خاصة في نسق «الأعراف» لهو بيان للناس بحيث لا يخدعهم دعاة الأديـان أنهم ينتسبـون إلى الله، والحقيقـة أنهم ينتسبـون إلى الشيـاطين والأبـالسة ولنتبين أن التنـزيل قـد وضع الأديـان في كفة والقـرآن في كفة أخرى وأصبح الأمر يتطلب من الإنسان الإخلاص لله وحده لا شريك له.

- يواجه القرآن بين كل اعتقاد عند أهل الأديان والله سبحانه وتعالى ليشرح لنا أن الأديان شيء والله شيء آخر ولذلك فصـل القرآن قضـاياه ونسبهـا إلى أسماء سماهـا الأسماء الحسنى لله سبحـانه وتعـالى حتى لا يرتكب أهـل الكتاب الفحشاء والمنكر ثم ينسبونها إليه سبحانه وتعالى حتى قالوا إن الله نفسه هو الذي أمرهم بارتكاب الفحشاء والمنكر ولذلك دافع القرآن دفاعاً مجيداً في كل موضع حدثت تلك المواجهة وحملهم قولهم الشنيـع وأبان للناس أن الله سبحانه وتعالى عما يقولون وعما يفعلون وعما يعتقدون وهو بريء من مثل هذا الخلق وله الأسماء الحسنى التي يجب أن يدعى بها مثل المهيمن والجبار والمتكبر والرحمن الرحيم وغيرها.

- لقد وضع القرآن الأسماء الحسنى لله سبحانه حتى لا ينسب أحد إلى الله فعلاً سيئاً أو قـولاً فاحشـاً أو عقيدة فـاسدة وشـرح قيمة تلك الأسمـاء في الحوادث والقضايا ليكون للدارسين صورة واضحة عن الذات الإلهية التي يدعو القـرآن لها وهي بكـل تأكيـد صورة تختلف عمـا عند أهـل الكتاب والأديان.

- لقد قامت الأسمـاء الحسنى بالتقنين المـطلوب لعدم الخلط وسـوء الفهم للذات الإلهية ولذلك يحرص القرآن بتنزيل قضاياه باسمين من أسماء تلك الذات من قضايا أهل الكتاب وغيرهـم حتى تظهر الدسيسة والتحـريف إن وضعن، ولـو أن أحد الناس ادعى أنه جبـار فنقول له: ليس ذلـك صحيحاً فالجبار وحده هو الله ومثل ذلك لو اعتبر أحد الناس نفسه عزيزاً فالرد عليه

أن الله وحده هو العزيز وغيرها كثير في المواقف والحوادث.

- أبان القرآن في تكراره الأسماء الحسنى لله وتذييلها لأكثر من حدث في قضية واحدة أن تلك الأسماء هي أسماء مطلّقة خارجة عن نطاق الزمان والمكان والتحديد لنتبين الرقابة الخالدة لله سبحانه وأن القرآن جعل الله مهيمنًا إلى الأبد كما كان مهيمناً من قبل أن يوجد الإنسان أيضاً.

- يرسل نوح في مواجهة قومه لبيان أن الذات الإلهية ليست كما يعتقدون ومثل ذلك فعل هود وصالح وإبراهيم ولوط ويونس ويوسف وغيرهم كثير ليتبين أن المسألة عويصة والتوحيد ضرورة ثم جاءت رسالة موسى لأول مرة بألكتاب والحق المبين وعقبت السماء بعيسى ثم محمدﷺ ليكون الله دائماً في مواجهة الدين المبين ورغم ذلك كله تبين للقرآن أن المشكلة ما زالت بلا حل وأن الذات الإلهية تستعصي على كل فهم وهكذا حاول القرآن تقنين تلك الذات من الله والرحمن والرحيم وسائر أسماء تلك الذات تجنباً لاختلافات الناس ولذلك جعل القرآن من الربوبية ورب العالمين موضوعاً للهيمنة على مسألة الإله ولنتبين أن النهج القرآني قد جعل في العلمانية والفطرة والسنن والنواميس الحل النهائي لكل اختلافات في هذا الأمر وبذلك أصبحت النبوة والرسالة والدين ليست ذات موضوع عند الناس على الكافة.

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]. يقول القرآن لأهل الكتاب والأديان ويحتج أنهم لو نظروا في ملكوت السماوات والأرض والطبيعة والفطرة والسنن وكل شيء خلقه الله بيديه لتبين لهم الحق في العقائد والأديان ولكنهم أقل درجة في العقل من الحيوانات ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٤.

بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾[1].

- لو تبصرنا في معاداة الأديان للعلم بحجة الإيمان لتبين لنا نظرة الشك التي نظر القرآن بها إلى إيمان أهل الكتاب والأديان ولذلك كان القرآن حريصاً أن يجمع بين الإيمان والعلم في الفطرة والسنن والنواميس وأن يجعل من ذلك الدين الخالص والدين القيم الذي أورد معالمه في المنهج النقدي لمسألة الأديان وأهل الكتاب.

- إن أهل الكتاب والأديان ومن يمارسون الشرك بالله في الأرض يرتكبون حماقة كبرى إذ يوشك الله أن يهلك الأجيال لأن استجابة الله لآدم أن يجعل منه نسلاً وذرية في الأرض كان مرهوناً بالصلاح وأن تكون تلك الذرية في جانب التقدم والإصلاح وها هم اليوم يتخذون جانب الأبالسة والشياطين ولهذا يهلك الله الحضارات والقوميات والأمم حتى يقول القرآن إن هذا الأمر أصبح سنة نافذة في الكافرين والمشركين.

- في بيان الهيمنة أورد القرآن نسق «البقرة» في «الم» حيث أوضح الفيصل بين أهل الكتاب والأديان والذين آمنوا بمحمدﷺ فقدم موضوع التقوى والمتقين وأن أهل الأديان لا يؤمنون إلا بالمعتقدات الخاصة بهم ولهذا وجدنا اليهود لا يؤمنون بما نزل على عيسى والنصارى لا يؤمنون بما عند اليهود.

لذلك أوضح نسق «البقرة» أن المتقين حقاً عند الله هم أولئك الذين يؤمنون بما نزل على جميع الأنبياء والرسل ولهذا فمنهجهم منهج العالمية ومثل ذلك ما أوضحه القرآن من هلاك القوميات والأمم الواحدة تلو الأخرى لأنها جميعاً لم تكن تؤمن برب العالمين وإنما لكل آلهتها الخاصة بهم.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

ثم نزل نسق «آل عمران» في «الم» أيضاً لبيان الحق في القصص الذي امتلأت به التوراة والإنجيل وأن هذا القصص قصص مختلق ومحرف ولا يمت إلى الواقع بأدنى صلة وأن المقولات التي وردت فيه عن «آل عمران» وألوهية عيسى وعزيز وغيرهما ما هي إلا مفتريات، القصد منها تثبيت إمكان سلطان أهل الكتاب والأديان ولهذا يقول القرآن بعد ورود الجدل فيما أثاره وفد نجران ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[1].

لذلك رأينا أن هيمنة القرآن تنهض في كل موضع أثاره أهل الكتاب والأديان وفي كل اختلاق لتفنيد تلك المقولات وهذه الادعاءات بالباطل حتى يقول لو أنهم آمنوا على الحقيقة لتبينوا أن موضوع الألوهية إنما تأتي كمالاته في التوحيد وأنه ما من إله في الأرض إلا الله الواحد القهار.

ثم جاء نسق «العنكبوت» في «الم» والهيمنة أيضاً لبيان امتحان الله وفتنته للناس في عقائدهم وإيمانهم وأن الله قد جعل ذلك ليعرف العالم مَنْ مِنَ الناس صدق إيمانهم وعقيدتهم، وكل أهل الأديان والكتاب يقعون في هذا الإختبار ولو كان اليهود والنصارى والمسلمون صادقي الإيمان بالله حقاً ما كانت تلك مجتمعاتهم ومفاسدهم وظلماتهم وواقعهم يكذب ادعاءاتهم ودعاياتهم والقرآن يكشف أن المعيار بين أهل الأديان ومن يعلنون للناس أنهم مؤمنون بالله هو الصدق وحده وبغير الصدق يصبح الإيمان فسوقاً وعصياناً وكفراً.

ثم نزل نسق «الروم» لبيان أن الله يداول بين الناس ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ وأنه يجعل سلطانه حيث يشاء وأن دوام الحال من المحال لينظر ماذا يكون سلوك الذين أتاهم القوة والغلبة فأم كان ذلك في موضع الخير والكمال والسلام زادهم قوة على قوتهم وإن كان عكس ذلك سلبهم سلطانهم وجعله لغيرهم من الأمم ولذلك ما تجد أمة في التاريخ كله إلا وزال سلطانها وقوتها وهزمها أعداؤها وأهل الكتاب والأديان لا يدركون تلك السنة وهذا

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٢.

الناموس وأنهم يعتقدون استمرار سلطتهم وسلطانهم والحقيقة بخلاف ذلك إذ إن الله يهيمن على حركة التاريخ والحضارة.

ثم جاء نسق «لقمان» في «الم» والمهيمن لبيان منهج التربية إذ اكتشف لقمان أن الرب على الحقيقة ليس الوالد وإنما هو الخالق ولهذا اتبع منهج التربية الحرة مع ولده وجعل من علاقته به وصية بألا يشرك بالله وأن تكون عقيدته خالصة لوجهه وألا يطيع والديه في معصية الله وأن يتركهم وما يعتقدون لو كانوا على الكفر والشرك لأن الولاية ليست للوالدين والوكالة ليست للآباء أو الأجداد وإنما هي لله وحده حيث بيّن القرآن أن مشاكل أهل الكتاب والأديان إنما هي مشاكل الديانة الموروثة والتقليد الأعمى والتشبث بكل قديم حتى يقول محمد ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

ثم جاء نسق «السجدة» في «الم» أيضاً لبيان أن الحكم العدل بين أهل الكتاب والأديان وما يثور بينهم من عداوات وخلافات مرده ومرجعه إلى آيات الله والسنن والنواميس والعلم والتطور والفطرة لأن كل أهل دين وكل أهل ملة وكل أصحاب نحلة وكل طائفة تدعي أن ما لديها هو الحق وأن إيمانهم هو الإيمان وأن منهجهم هو المنهج الرباني والحقيقة أن الهيمنة لله وآياته وهي التي إذا ذكر بها الإنسان عن طريق التطور العلمي والتطور الأخلاقي والتطور الطبيعي والفطري كان ذلك مدعاة لسجود الإنسان وتسليمه لله وما خلق من أسرار ملكوت السموات والأرض.

لكن المشكلة في الهيمنة و«الم» لم تكن بالنسبة للإنسان وإيمانه ومعتقداته خارج النفس ولذلك قدم القرآن نسق «ص» وضمنه نسق «الم» في نسق «المص» وجاءت سورة «الأعراف» ليشمل معناها الهيمنة داخل نفس الإنسان وفطرته فأوضح أن الإنسان قد خلقه الله عالماً بالسريرة والجبلة ومثل ذلك في الحرية والاختيار مما لا يجب معه فرض الوصاية على الناس ولذلك

كانت الموازين القسط هي حساب الإنسان عند ربه ولن ينجو من ذلك أحد ومما أوجب أيضاً أن ترفع الولاية والوكالة والوصاية والشفاعة عن كاهل الناس حتى تحملوا مصائرهم يوم القيامة ولن يستطيع أهل الكتاب والأديان أن يحملوا عن أدعيائهم شيئاً أمام الله بل سيحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة وأوزار الذين يضلونهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

هذا الدفاع المجيد الذي يتولاه القرآن لقضية حرية الإنسان أمام رب العالمين قد كشفت عنه أنساق «الم» في موضوع هيمنة القرآن على ما سبقه من التوراة والإنجيل لنتبين أنها مشكلة الأديان، وما في ذلك شك، لكن الجهلة هم أولئك الذين يقحمون الإسلام على أنه دين من الأديان وما كان الإسلام في يوم من الأيام إلا دين رب العالمين الذي بشرت به الرسل والأنبياء ليكون منه دين الله الخالص ودين الله القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الإسلام ورب العالمين في مواجهة دين كل قومية ودين كل ملة ودين كل أمة حتى يبيّن القرآن للذين آمنوا به أن هذا الدين ليس وليد اليوم وإنما هو دين الله حتى أطلق إبراهيم على معتنقيه المسلمين ليتميزوا عن أهل الأديان كأنه يخصهم وحدهم بالإيمان برب العالمين ورغم ذلك صار المسلمون اليوم كأهل أي دين من الأديان وكأهل أي ملة من الملل وكأي أهل أي عقيدة من العقائد ومن يكذب ذلك فلينظر في واقع المسلمين اليوم.

لقد حلّق القرآن بجناحيه مع الآيات القرآنية الكريمة والسور ليجعل من أحد أسماء الله الحسنى هذا الجلال الفكري وهذا الكمال الفقهي وهذا البحث المضني الذي لم تعزب عنه شاردة ولا واردة إلا أحصاها ليضع بين أيدينا «المهيمن» على الآيات والسنن والنواميس والطبيعة والفطرة والتاريخ والقصص والتوراة والإنجيل بل قدم في الهيمنة أحداث يوم القيامة وما سيجري فيه ليكون الناس على بصيرة وليتبين الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

الباب الثالث

الفصل الأول

نسق «الر» الرحمن



القضايا ومحمولات النسق:

- يتساءل القرآن عما إذا كان إرسال الرسل مسألة صادقة عند الله أم مسألة كاذبة لأنه ما من قوم إلا وكذبوا رسولهم.
- هذا الما صدق الذي يتحدث القرآن عنه هل هو موجود بالفعل عند رب هؤلاء الرسل والأنبياء أم لا؟
- إن فشل الأديان في القوميات والأمم ليس معناه أن الدين خرافة أو أسطورة وإنما هو عند الله حقيقة واقعية ولذا يبيّن القرآن أنه ما من فعل يصدر من الانس أو الجن في التكوين النفسي للانسان إلا ويخضع بشكل أو بآخر للعقيدة الدينية حتى يقول الله للناس **﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنّ وَالانْس إلاّ لِيَعْبُدُون﴾** ليبيّن أن مسألة الدين مسألة قدرية والمشكلة حقاً إنما تقع في الديانات الفاسدة التي يخترعها الانسان بأهوائه ومفاسده.
- أن الله عندما خلق السماوات والأرض والعالم فإنه خلقها في ستة أيام على

التفصيل ولذلك فهو يعرف كل صغيرة وكل كبيرة وهو يعلم الغيب ويعلم الشهادة ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض ويدبر الأمر من الأرض إلى السماء وهو ليس بغافل ولا يدركه النوم ولا يأخذه الكلل أو الفتور أو ما يعتري الإنسان من الضعف.

- إن ما يقع في ملكوت الله إنما يقع بأمره وما يأتي الناس من الشفيع الواحد بعد الآخر مثل الرسل وتتابعهم والأنبياء وبعثهم والحوادث التي تجري في حياة الناس الواقعية إنما يحدث ذلك كله بإرادته.

- إن الله يبدأ الخلق ثم يعيده ليتبين الحق من الباطل والصدق من الكذب والصالح من الفاسد وكذلك يرجع الناس جميعاً إلى ربهم يوم القيامة فيعرف الذين ظلموا ما كانوا عليه من الفسوق والعصيان.

- إن الله قد خلق الآية الطبيعية وفصلها أمام الفعل الإنساني مثلما فعل في دورات الشمس وأهلة القمر ليعرف الناس عدد السنين والحساب وليكون من تلك الآيات مهديات وعلم ومعرفة ولو لم يفعل الله ذلك لما تبين الإنسان القضية الصادقة من القضية الباطلة ومثل ذلك مما يمكن أن يكون طعناً في بعثة الرسل والأنبياء وأنهم ليس لقضيتهم من أوجه الصدق شيء.

- ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[1]- ليتبين الذين يعلنون للناس أن الله ما بعث أحداً ليكون رسولاً - أن قولهم مردود لأن الرسول أو النبي في عالم الخلق عند الله ما هو إلا آية من الله مثل الشمس أو القمر أو الليل أو النهار وكلها آيات مادية ملموسة وهي لا تعلو في مراتب الخلق على الآية العقلية والروحية في شخصية الرسول أو النبي فلماذا إذن يكذب الناس ببعثة الرسل والأنبياء حتى أننا لم نجد رسولاً واحداً صدقه قومه.

(١) سورة يونس الآية ٦.

- عندما ينتهي الناس إلى تلك النتيجة حتى يقولوا لكل رسول **(ما بعث الله أحداً)** فإنهم لا يعلمون أن الناموس عند الله في الخلق هو البدء ثم الإعادة فهل توقفت تلك القدرة في يوم من الأيام حتى يعجز الله عن إرسال الرسل ومثله ما قالوه لمحمد ﷺ إنه لا يبعث بعد موسى رسلاً ومثله قول النصارى حتى أكد القرآن أن تلك المسألة في أصل التوراة والإنجيل بأنه يبعث من بعدهم رسولاً اسمه أحمد.

- إن قضية الرسل قضية صادقة والعيب لا يوجد في رسل الله وأنبيائه إنما هو في الناس وليس أدل على ذلك من نجاح تجربة يونس مع قومه لما آمنوا برسالته فقد متعهم الله وأفاض عليهم بنعمته.

- تلك التجربة الوحيدة الناجحة هي معيار صدق الرسل والأنبياء وهي تمثل البرهان وشهادة يونس على هذا النجاح ليؤكد أن الأنبياء والرسل لهم قدم صدق عند ربهم وما هم بمجانين ولا بمخابيل ولا بكاذبين كما يدعي الناس ولو فشلت تجربة يونس بعد إيمان قومه به لكان ذلك كارثة ولكن الحقيقة هي ازدهار حضارة قوم يونس لما آمنوا به.

- إن بعثة محمد ﷺ ودعوته إلى العالمية والحياة الآخرة هي من جنس الرسالات والنبوات والكافرون يقولون لمحمد ﷺ إنهم لا يريدون القرآن وما يدعو إليه وهو يقول إنه لا يستطيع لأنه لا دخل له فيه بل هو وحي من الله تعالى والدليل أنه مكث فيهم زمناً طويلاً لا يعرف القرآن ولا يدري عنه شيئاً ثم خلقه الله في قلبه كما يخلق الله في كل وقت ما يشاء ويختار.

- إن الله عندما خلق الإنسان جعله أمة واحدة على الفطرة لكن اختلافات الناس جاءت من الأهواء.بغير علم ولذلك سيستمر هذا الأمر رغم إرسال الرسل وبعثة الأنبياء.

- إن ملجأ الناس إلى الله وقت الشدائد والمحن ليبرهن على أن الدين الحق

إنما هو لله وحده ولذلك يتبين الإنسان أن ربه هو وحده الولي وهـو وحده الوكيل وهو وحده النصير عندما يقع في الفتنـة والمحنة ثم لا يجـد له من دون الله ولياً ولا نصيراً.

- ليس الأنبياء والرسل من جهة الربوبية إلا هؤلاء النفر القلائل الذين اكتشفوا في أنفسهم تلك الطاقات الروحية المبدعة الخـلاقة العـالمة المتـدبرة في ملكوت ما خلق الله من الآيات والقرآن وما نزل على محمد ﷺ ما هو إلا آية من تلك الروح المنبعث من باطن النفس البشرية ولن يكون محمد ﷺ بدعاً من الرسل وإنما هو مثله في هذا الأمر مثل موسى وغيره ممن سبقوه.

- إن محمداً ﷺ يعشق الحياة الآخرة وهي حياة روحية خالدة والناس يعشقون الحياة الدنيا وهي حياة مهما بلغت من الثراء والزخرف فإنها حياة فانية لن تدوم لمخلوق أبداً ولـذلك فـالآخرة التي يـدعو إليهـا محمد ﷺ هي دار السلام والأمن والخلود أيضاً.

- إن الدعوة إلى الله هي نفسها الدعوة إلى القدرات الخلاّقة للإنسان والذي وهب الإنسان قـدرات السمـع والبصر وأخـرج الحي من الميت وأخرج الميت من الحي لن يعجـزه أن يجعـل بين يـدي الإنسان قـدرات العلم والمعرفة والروح القرآني المبـدع ما هـو إلا قدرة من قـدرات الخالق رب العالمين الذي يدعو محمد ﷺ لعبادته هو وحده.

- عندما يدعو القرآن الناس إلى رب محمد ﷺ فإنه يبين لهم في نفس الوقت أن هذا الرب ليس مقتصراً على محمد ﷺ وحده وإنما رب العالمين رب الشمس والقمر ورب الرزق والشجر ورب الماء والحجر ولذلك فهو نفسه رب أي إنسان متى طلبه في سعيـه ونفسه وسيجـده خير عـون مثلما كـان لمحمد ﷺ أيضاً.

- تلك الثقة التي يحاول القـرآن بثـها في نفـوس الناس على قـدم المساواة

يغفل عنها الذين لم يخوضوا تجربة الرسل والأنبياء لأنها تجربة روحية خالصة ولو أنهم لم يجعلوا للمادية التي تشغلهم عن أنفسهم سلطاناً لوجدوا هذا الروح الخلاق بين يديهم ولكنهم يجهلون السيكولوجية لفرط انشغال حواسهم بالمطالب والغرائز والشهوات ﴿فَذَلِكُمْ الله رَبُّكُمْ الحَقُّ فماذَا بَعْدَ الحقِّ إلاَّ الضَّلَالُ فَأنَّى تُصْرَفُونَ﴾[1].

- إن موت الأحياء وإحياء الأموات هو عمليات طبيعية تجري كل يوم بين يدي الناس ولو أنهم مقدرو تلك القدرة لكان لهم ثقة كبيرة في تلك الحياة الآخرة التي يدعوهم إليها محمد ﷺ والقرآن ولتبين لهم أن تلك العقيدة القرآنية ما جاءت إلا من العلم الحق والدين الخالص.

- إن القرآن وما يدعو إليه من العقائد إنما هو الحق من رب العالمين لأنه يقدم ما بين يديه من الآيات الطبيعية والفلكية مفصلة للعقول موضحة للعقائد وليس ذلك كله إلا مصداقاً لما خلق الله من الآية سواء كانت تلك الآية آية فلكية أو آية طبيعية نباتية أو حيوانية أو بشرية أو حتى آية بيولوجية أو جيولوجية كما أوضحتها الآيات في خلق الله لطبائع الناس كالألوان في الجبال بيض وحمر وغرابيب سود ليتبين الناس أن هذا القرآن المتلو هو الصورة الحقة للوجود العيني المجلو في الطبيعة والناس والأشجار والبحار أيضاً.

- ليس القرآن شعراً ولذلك أوضح القرآن موقفه من الشعر والشعراء وهو الثقافة التي كانت سائدة عندئذ لنتبين موضوعية القرآن ولذلك كان سند معارفه كلها تلك الآيات المنبثة في الطبيعة والكون حتى أنه اعتمد على الفطرة مصدراً من مصادر المعرفة فإنه نسبها إلى الواقع من فعل وعمل الرسل والأنبياء وما أمكنهم من تحصيل تلك المعارف حتى أصبحت معياراً للإنسان وفطرته

---

(١) سورة يونس الآية ٣٢.

○ إن محمداً ﷺ ويونس أخوان نشآ في أحضان صدق المنهج فلماذا لا يؤمنون كما آمن قوم يونس من قبل؟ ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

○ إن الله ما خلق الإنسان في تلك الحياة إلا ليجمع أسباب سعادته في الدارين وهو مثل من آتاه الله نعمة خالصة فجعل فيها حلالاً وحراماً وخسر بذلك رحمة الله ولو أنهم آمنوا لكسبوا الدنيا والآخرة.

○ إن الاختيار الحسن قد جعله الله بين يدي كل إنسان وليس أدل على ذلك من جعل الله آية للسكن والنوم والراحة وآية النهار مبصرة بحيث يتم فيها سعي الإنسان وعمله ونشاطه والذين يساوون في الاختيار بين الإيمان والكفر كمن يساوي بين الليل والنهار وهذا لفرط جهلهم بالحقائق.

براهين الرحمة والرحمن «الر»

○ قال أهل الكتاب والأديان إن الله اتخذ ولداً وهذا ليس صحيحاً لأن الله له جميع من في السماوات والأرض كل له قانتون وله ما في السماوات وما في الأرض من الأمر والسلطان والهيمنة وهو الغني الحق عن كل ذلك ولهذا الأمر رفع القرآن وصاية أهل الكتاب والأديان وأسقط تلك العقائد التي يراد بها العنصرية والتعالي على الناس.

○ إن نوحاً هو أول من نادى بالدخول في الإسلام لله وحده لبيان حرية الإنسان لرب العالمين وهذا يؤكد أن أهل الكتاب والأديان لا يفهمون الإسلام والإيمان على حقيقتهما ولو أنهم فهموا تلك المبادئ السامية لما اتخذوا مواقف العنصرية والتسلط والعقائد الفاسدة.

---

(١) سورة يونس: الآية ٥٧.

- إن المعتدين هم الهالكون في الدهر والقوميات والنصر من نصيب رسل الله والذين آمنوا بالحرية ورب العالمين.

- مثل ذلك بعث موسى إلى فرعون وملئه فكان استكبارهم وعنادهم حتى قالوا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ليتبين الناس أن الداء ليس في الرسل وإنما هو في الناس حتى يقول القرآن في إدانة الجمهور والعامة إن أكثر الناس لا يؤمنون وإن أكثر الناس لا يعلمون وإن أكثر الناس لفاسقون ليعرف أهل الكتاب والأديان أن مثل محمد ﷺ ومناداته بالحرية والإسلام لرب العالمين إنما هو امتداد لما جاء به الأنبياء والرسل من قبل وهو لا يعدو أن يكون مثل ظاهرة موسى وعيسى وتصديهما للطغيان.

- إن ما يهم الجهلة هو ما ورثوه عن الأجداد من نسق القيم والعقائد والتراث والكبرياء لذلك كله حتى نتبين أن اعتقادهم في السلطان الدنيوي هو جل شغلهم وهو ما يحرك غرائزهم وشهواتهم.

- إن الله يحق الحق بكلماته وآياته والقرآن مثله في هذا الأمر مثلما نصرالله موسى على السحرة فإنه يظهره على الدين كله ولو كره أهل لكتاب والأديان ولذلك أوضح القرآن في قصص موسى أنه رغم إيمان القلة به وتعرضهم للضغوط والأذى حتى طاردهم فرعون وجنوده بغياً وعدواناً.

- إن الله أهلك فرعون وجنوده وجعل البحر يلفظ جثته على الأرض ليكون من ذلك نكالاً للطغاة ومن يسلبون الناس حريتهم التي وهبها لهم رب العالمين.

- إن انتصار القلة المؤمنة بالحرية بفضل الله وسلطانه هو الذي جعل بني إسرائيل يتبوأون هذا الموقع الممتاز في التاريخ حتى رزقهم الله من الطيبات ولم تقع الفرقة بينهم إلا عندما أصبحوا أعلاماً للعلم والمعرفة وهو ما جلب عليهم الخراب والدمار وكان أحرى بهم أن يكونوا إخوةً في الله سبحانه وتعالى.

○ إن البغي بالعلم هو أشد الجرائم إنكاراً لفضل الله وأهل الكتاب والأديان يستغلون سلطتهم وسلطانهم ولو أنهم آمنوا حق الايمان كما يزعمون لتبين لهم أن ما ينادي به محمد ﷺ من الحرية هو عينه ما نادى به موسى وهو عينه ما أقام لهم السلطان بين الأمم فلماذا لا يؤمنون به؟

○ عندما يورد القرآن مشكلة أهل الكتاب والأديان وقصص موسى وعيسى لا بد لنا أن نتبين أن التنزيل في الهيمنة حتى ولو كان ذلك في «الر» أو «حم» أو «طس» أو «طسم» لأنها جميعاً فروعٌ لهذا الموضوع الجليل.

○ إن القرآن يبين في تجربة موسى وبني إسرائيل مقدار الصدق الذي حققته التجربة ولكن أهل الكتاب والأديان ومن جاء بعدهم أفرغوا التجربة من محتواها حيث استغلوا سلطان العلم بالدين واللاهوت وما كان ذلك طريق الرسالة السماوية لأنها تقوم على الحرية والإخاء والمساواة وهي نفس ما طلب به موسى فرعون من قبل.

○ يقول القرآن إنه مهما يأتهم من آية فلن يؤمنوا حتى يحل بهم عقاب السماء ليبيّن لمحمد ﷺ أن المطبوع بعقيدة معينة لا يؤمن بغير تلك العقيدة حتى لو تبين له أنها باطلة لأنه مريض لا شفاء له.

○ عندما يبيّن القرآن عصبية أهل الكتاب والأديان ويدمغهم بالعناد والتكبر والعصيان والطبع فإنه يدين التعصب الديني الأعمى كله لأنه نمط سائد وسيكولوجية واحدة.

○ قد يحتج أهل الأديان بأن السنة القرآنية التي وردت في أهل الكتاب لا تنطبق عليهم وهذا ليس صحيحاً إذ تنبأ محمد ﷺ نفسه بمصير الأمة وانطباق سنة أهل الأديان وأعمالهم وأفعالهم حتى قال فيما معناه أن المسلمين سيسيرون في أمور دينهم وعقائدهم عند تقادم الزمن مع اليهود والنصارى حزوًا بحزو حتى تفرق اليهود على إحدى وسبعين فرقة

والمسلمين على اثنتين وسبعين أيضاً ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ﴾[1].

- إن إيمان قرية يونس وقومه إنما هو دلالة وآية على صدق الرسل رغم أن ذلك يمثل نسبة ضئيلة جداً تدين القوميات والأمم في مواجهة الله ورسالاته.

- إن إرادة الإيمان قد تركها الله لحرية الانسان ولو شاء الله لآمنت جميع القوميات والأمم ولكن الله يجعل الرجس على الذين لا يعقلون ليعرفوا أن الايمان قيمة عقلية وخصوصية من خصوصيات التطور الراقي في الناس.

- لن تغني الآيات الموجودة في السماوات والأرض عن الإنسان متى كان هذا الإنسان غافلاً فلا يقع في وجدانه وعقله معنى الوجود والطبيعة والإنسان ولو أنه تدبر تلك الآيات بقلبه وعقله لتبين أن القرآن هو الحق من رب العالمين ولذلك لن تفيد في الكافرين النذر والوعيد ووسائل الترهيب والترغيب.

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2]. هذه هي النتيجة التي ينتهي إليها القرآن في شأن أهل الأديان وأهل الكتاب الذين كفروا بالرسالة السماوية من جراء التعصب والعنصرية وهذا هو الذي حدا بالقرآن أن يبيّن تلك السنّة التي جرت في المتعصبين حتى قال فيهم إنهم لا يعبدون إلا كما عبد آباؤهم وأجدادهم السابقون.

- يعتبر القرآن إيمان قوم يونس برهاناً وقدم صدق للرسل وللذين آمنوا واعتبروا ذلك رحمة من الله إذ لو لم تتم تلك التجربة لأصبح للشك في الرسل

---

(1) سورة يونس: الآيتان ٩٦ ـ ٩٧.
(2) سورة البقرة: الآيتان ٦ و٧.

والرسالة والإيمان قوة الحجة التي يحتج بها المكذبون وهم الأكثرية الغالبة.

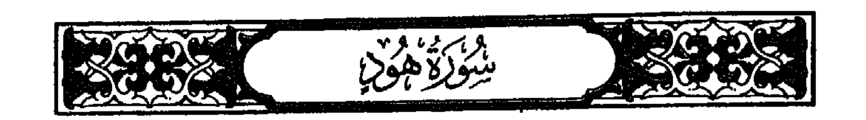
- من أغرب براهين الهيمنة استعماله العجز الإنساني أمام حقيقة الموت لبيان أن ادعاءات الألوهية من دون الله تقف أمام تلك الظاهرة عاجزة ومسلمة لله وحده حتى يقول محمد ﷺ أنه لا يعبد إلا من يتوفى الناس ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر

- تميز نسق «يونس» بأنه وضع الثقة في قلوب الذين آمنوا وقد برهن على أن الإيمان حق كبير عند رب العالمين وله كرامة لا تخيب أبداً حتى يقول لمحمد ﷺ أنه ما يكون من شأن يعمل فيه من أجل الدعوة إلى الإيمان أو ما يتلو من قرآن فيه إلا والله معه ومثل ذلك أولياء الله من رسله وأنبيائه والذين آمنوا معهم ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تَفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرةٍ فِي الأرضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إلاّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لاَ خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

- هذا النسق الذي ورد في «الر» متضمناً سورة «يونس» وسورة «هود» و «ابراهيم» و «يوسف» و «الحجر» إنما قام بدور كبير في إبعاد شبح اليأس الذي كان قد بدأ يتسلل إلى قلوب الذين آمنوا وهم نفر قليل فأوضح القرآن في «يونس» أن تجربة الإيمان لها قدم الصدق من عند رب العالمين وإيمان قوم يونس هو الماصدق الذي يشير إليه الوحي وأن قضيتهم قضية حق وعدل ولا خوف عليهم أبداً حتى يقول لهم أن الله يضع هذا البرهان لهيمنته بين أيديهم وهو الذي يحقّ الحق بكلماته ولو كره المجرمون.

---

(١) سورة يونس: الآيتان ٦١ و٦٢.



القضايا ومحمولاتها:

- قضية التوحيد والألوهية وعبادة الله وحده هي الضمان لظهور الكفاءات وأفضال الأفراد بحيث يعطى المجال لكل فرد من الناس أن يبدع هذا الفضل وهذا الجانب الذي وهبه الله إياه وهي كما نتبين قضية الحرية وتكافؤ الفرص في العصر الحديث وظهور المبادئ التي تضمن ذلك.

- إن عبادة غيرالله من سلطان الأموال وسلطان الطبقات وسلطان أهل الدين وسلطان العنصرية وسلطان الطائفية وكل سلطان يقف حجر عثرة أمام الإبداع الإنساني هو شرك بالله وضياع لقضية حرية الإنسان وفضله.

- إن القرآن يقدم في نسق «هود» مسألة الفضل لبيان أنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى وهي المعيار العالمي الذي ارتضاه القرآن بين أهل الكتاب والأديان من جانب والأميين الذين منهم محمد ﷺ من جانب آخر وليس أشهد على ما أوتي محمد ﷺ من العلم والقرآن والمعرفة من صدق أن الفضل بيد الله وليس بيد أهل الأديان والكتاب وهو يؤتيه من يشاء متى كانت الظروف مُهيَّأة لهذا الأمر ولذلك دعا القرآن إلى عقيدة التوحيد والإله الواحد حتى يفسح المجال أمام إبداعات الأفراد ومن بيانه في الألوهية نتبين أن القرآن اعتبر كل سلطان على الناس من مال أو بنين أو شهوات أو ملكيات هو بمثابة إله آخر وند لله رب العالمين.

- ليس هناك مرجع في الأفضليات يمكن أن يكون معياراً بين الناس في الدنيا ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره ومن ذلك نتبين أن المرجع الوحيد هو الله وحده وليس ما بين أيدي أهل الكتاب وأهل الأديان من معايير

يعتدونها أو ما بين أيدي طبقة الرأسمالية أو أيدي طبقة الحكام حتى يكون معياراً صالحاً لإمكانات الإنسان الفرد وأنه لم يكن في الحسبان أن يؤتى محمد ﷺ وهو الفقير المعدم واليتيم العائل هذا القرآن الكريم وهذا المجد العظيم وهذا الروح الرباني أو مثله ما كان من إبداعات نيوتن وأينشتين وداروين وفرويد وماركس وغيرهم حيث لم يتوقع منهم هذا الذكاء الخارق.

- من يدري أو من يعرف بالضبط من هو الذي سيكون عبقرياً مخترعاً أو مبدعاً مبتكراً غير الله وحده؟

- إن العقبات التي تقوم في وجه الأفراد وطغيان المجتمعات وعقائدها هو شرك صريح لأن الله وحده هو الولي وهو وحده هو الوكيل وهو وحده هو الذي يقرر أفضال الناس.

- يقول القرآن إن ما نزل في سورة «هود» في قضية التوحيد والألوهية والحرية وأفضال الناس هو آية محكمة لا تحتمل التأويل ولا الصرف إلى موضوعات أخرى والله يفصل هذا الأمر في بيان شخصية هود وفضله في التمسك بالاستقلال بعيداً عن التبعية وأنه خالط تسعة رهط من قومه ولم يزل على مبدأ الاستقلال حتى تحداهم جميعاً من دون الله وحده ثم كان انتصاره عليهم.

- يبيّن القرآن أن مسألة نعاق الناس بعضهم لبعض وتسترهم وتكتم أسرارهم حتى تدثرهم بالثياب لن يفيدهم في كثير من الأمور لأن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون وهو عليم بذات الصدور نفسها ليتبين الإنسان أن ما يمكن أن يستره حقاً إنما هو التقوى حتى يقول القرآن في قصة الخلق إن الله أنزل من الأخلاق الفاضلة ما يمكن أن يستر للإنسان عورته وفساد أمره ولكن خير ما أنزل الله من تلك الألبسة سواء كانت ديناً يتدين به أو علماً يحتزم به إنما هو التقوى والصدق مع ربه.

- لن ينفع الإنسان مال أو جاه أو سلطان أو عشيرة أو غير ذلك من الحليف أو النصير إنما ينفعه اعتبار الذات والصدق مع النفس وتبني القدرات الروحية الخلاقة التي يمكن أن تجعل من الإنسان روح الرب في الأرض بل تجعل منه خليفة للخالق المبدع.

- إن فلسفة الخلق والابداع قد فصلها الله في الآيات وهو قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام على التفصيل والتجزيء ليعرف الإنسان تلك السنن فيهتدي بها ولو نظر الإنسان إلى كل ما خلقه الله بيديه لتبيّن له أن هذا العرش العظيم لملكوت السماوات والأرض كان قائماً على شيء واحد هو الماء الذي صدرت منه حياة المخلوقات كلها وفي ذلك بيان للقدرات الخلاقة لرب الإنسان وأنه مستودع الروح الذي لا ينتهي إبداعه ولا تتوقف قدراته ليكون الناس على بينة وثقة من ربهم وإمكانات وطاقات النفس حتى يقول القرآن إن رب الإنسان وروحه التي أودعت فيه ستبعثه من بعد الموت مرة أخرى، فهل يؤمن الإنسان بربه وأنه روح من الله نفسه وأنه يمكن أن يتحدى المصاعب ويمكن أن يواجه الناس بمفرده كما فعل «هود» من قبل وأن ثقته في ربه قد كتبت له النصر على تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون؟.

- يقول القرآن إن الله عندما بدأ بناء عرشه من الماء وصدر ملكوت السماوات والأرض لم يكن ذلك إلا من أجل عمل الإنسان الذي جعل منه خليفة له في الأرض وكل ما يمكن أن يقع في بحث العلماء والمخترعين والعاملين إنما هو الذي يجعل لكل إنسان قدره عند ربه حتى يبتلي الله الناس بالعمل في هذا الملكوت الذي أعد لاستقبال آدم عند النشأة الأولى.

- إن هذا المستودع البشري الذي اتخذ الله من روحه عرشاً وملكوتاً كان غاية صدور المخلوقات جميعاً ولذلك رأينا أن كل العوالم التي خلقها الله من الأفلاك والأرض والسماء والنبات والحيوان والجبل والأنهار والبحار قد

سخرها الله للإنسان لنتبين أننا غاية الخلق والوجود والروح الرباني وهو ما يبعث في كل نفس بشرية الكرامة والثقة والعزة بالنفس وقيمتها الإبداعية حتى أنها لا تغني من بعد حياة أبداً وسيبعث الناس أحياء مرة أخرى بتلك القوة المودعة في أرواحهم ونفوسهم.

- هذه الثقة التي أفاضت على «هود» مكانته وصلابته في مواجهة قومه هي التي يريد القرآن أن يتحدث عنها في مواجهة محمد ﷺ والذين آمنوا معه ليجعل من ذلك برهاناً سيكولوجيا في منهج الدعوة وأن هذا الروح الرباني معهم ولن يقهروا إذن أبداً.
- **﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها﴾** ومستودعها ليتبين الذين آمنوا بمحمد ﷺ أن الحصار الذي ضربه عليهم الكافرون لن يكون سبباً في هلاكهم لأن أسباب الحياة الحقيقية بين يدي الله وحده.
- إن الإنسان المتذبذب المتطير لا يعلم من سنن الله والحياة شيئاً ولذلك لا يصح للمؤمنين بالله أن يجزعوا متى وقعت لهم المحن ولا يصح لهم أيضاً أن يفرحوا إذا أصابهم الخير لأن ذلك ليس من شيم الإيمان ولهذا يقول القرآن للذين آمنوا إن الله يبتلي الناس بالخير وبالشر ويجعلهما فتنة ليرى صمود الإنسان فلا يستخففه مال أو سلطان فيطغى ولا يصيبنه القنوط واليأس إذا فرغت يداه بالفقر والحاجة.
- يقول الكافرون لو أن محمداً ﷺ أنزل عليه كنز أو جاءه الثراء العريض أو نزل من السماء ملك يكون له نصيراً وسنداً فبين التنزيل أن القرآن وما أوتيه محمد (ﷺ) من ربه يفوق كل ذلك حتى تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله حتى لو كانت مفتريات على الله ومنسوبة إليه زوراً فما بالك بهذا القرآن الكثير والجليل وأنه من عند الله نفسه.
- لم يكن القرآن لينتصر للهيمنة في الموضوعات التي تداولها الوحي في

التنزيل فقط وإنما جاءت الهيمنة لنصرة محمد ﷺ أيضاً ولهذا يقول التنزيل إن معجزة القرآن ليست بدعاً في هذا المجال وإنما سبقه كتاب موسى وما نزل من ربه عليه من العلم والهدى-ولذلك فإن القرآن ومعجزته وجلاله لا شك فيها وإنما يقع الشك عند الذين لا يعلمون من أمور الربوبية تلك الأسرار التي تجعل من أحد الناس رغم كل التحديات رسولاً أو نبياً أو مؤلفاً أو مبدعاً أو صانعاً أو مخترعاً أو مكتشفاً.

- إن من لا يدرك طاقات نفسه الخلاقة يخسر علاقته بربه بل إنه يخسر مصيره الروحي في الحياة الآخرة لأنه لم يستغل تلك الروح المبدعة في أفعاله وأعماله وأقواله.

- يضرب القرآن مثلاً للذين لم يستفيدوا بما لديهم من إمكانات الطاقة الروحية في الإبداع فيقول هل يستوي الأعمى والبصير أو الأصم والسميع أو الذي يعلم والذي لا يعلم أو الذي يعمل ويجيد والذي لا يعمل أو هل يستوي المبتكر والمخترع والذي لم يدخل إلى هذا المجال أو يستوى محمد ﷺ مع أبي جهل؟

- نتبين في مجالات إثبات الهيمنة أن القرآن يورد قصص أنبياء ورسل القوميات في الموضوعات التي تخص الإنسان كله كنوع له فطرة خاصة به ثم يورد قصص أنبياء ورسل الأمميات في الموضوعات التي تخص أهل الكتاب والأديان ولذلك تستفيض القصص استفاضة واضحة عندما يقدم قصة موسى للدلالة على فساد اليهود وأهل الكتاب ومثله عندما يقدم قصص نوح لبيان الطبيعة الربانية والألوهية التي شكلت فطرة الناس.

- قدم القرآن مسألة الجبر والاختيار والقضاء والقدر والحرية بمفهوم لم تدركه الأمة رغم تطرق القرآن لإلقاء الضوء عليها في كثير من الحوادث خاصة عندما هزم المسلمون في غزوة أحد ولذلك قدم القرآن عند كل بحث في

خيرية نشأة الإنسان وآدم مسألة الفطرة والسنن والنواميس ليقول لنا إن الله قد قدر كل شيء بفطرة وسنن ونواميس تعمل جميعها من أجل خير الحياة والإنسان وأوضح من سورة «التسبيح» والآيات التي وردت فيه أنه ما من شيء أو كائن خلقه الله إلا وله من الفعل الجبري الخير سلوك لا يخضع لإرادته الذاتية لضمان هيمنة الله على العالم حتى لا يفسد بفعل الإرادات الإنسانية المنحرفة.

- هذا المبدأ أدركه «هود» ووثق منه وتبين له أن الله آخذ بناصية الانسان والناس والعالم وما حدث من الشر لم يكن من فعل القضاء والقدر ولا من فعل الجبرية والفطرة وإنما هو من فعل الأبالسة والشياطين وقلب القرآن بذلك نظرة الأنبياء والرسل إلى تلك المسألة فأصبح القضاء والقدر والجبر والفطرة عندهم هي الحرية وهي الاختيار من أجل الله والخير رغم انتكاس هذا الإدراك والمفهوم عند العامة لأنهم لم يدركوا أن الله هو نفسه الخير المحض.

- هذه الثقة عند الأنبياء والرسل في القضاء والقدر والجبر والفطرة والسنن والنواميس والطبيعة هي التي جعلت «هود» يتحدى الناس جميعاً حتى يقول لهم إنهم مهما جمعوا من القوة ومن الهيمنة فإنه سينتصر عليهم بقوة الله وحده ومثل ذلك ما تحدى الرسل والأنبياء به أقوامهم لبيان أن القدر إنما هو رحمة بالإنسان رغم جهل الناس بذلك.

- في تلك المسألة العظيمة الأهمية لبيان حرية الفعل عند الإنسان في مواجهة الله والطبيعة والفطرة يقول القرآن إن الله عندما خلق السنن والنواميس والفطرة جعلها تقبل الزيادة والاتساع من جهة الخير وجعلها في نفس الوقت دائرة مغلقة أمام الشرور الإنسانية ولذلك رأينا القرآن يقول للذين آمنوا بالجانب الروحي في الإنسان من الابداعات وغيرها كما بين عند ذكر ملك داود وسليمان أن الله عنده رزق لا ينفذ أبداً وأن الوهاب بعزته

وسلطانـه لا حدود لمـا يمكن أن يهبه للنـاس بشرط الإيمان ولكن ما أن ينحرف الإنسان إلى الشرور حتى تحاربه السنن والنواميس والفطرة وتغلق أمامه الأبواب وتسد الطرق وتحاربه بلا ضراوة ومثل ذلـك هلك قوم نـوح وهود وغيرهم.

- ما أن يؤمن الإنسان بالله والفطرة والسنن والنواميس والقضاء والقدر حتى ما اعتبرته أنت شراً حتى تنفتح لك أبواب الحـرية وأبـواب الخيريـة وأبواب السلام وأبواب الملكوت أيضاً.
- إن القـرآن قدم كتب «الم» في «البقـرة» و «آل عمـران» و «العنكبـوت» و«لقمان» و«الروم» و«السجدة» ليشرح لنا الهيمنة والمهيمن في موضوعاتها ولكنـه يقدم كتب «الـر» الـرحمن من سـور «يـونس» و«هـود» و«ابـراهيم» و«يـوسف» و«الحجر» ليشـرح لنا الهيمنـة في أحداثـها العينية كمـا وقعت لهؤلاء الرسل ولذلك كان محمد ﷺ يتمثل بهؤلاء حتى يقول أخي «هود» أو أخي «يوسف» لأنه ظاهرة من ظواهر الرحمة والهيمنة أيضاً.

البراهين

البراهين التي استعملها «الر» لبيان فقه «الرحمن» حيث تبيّن من جـدل الكافرين من أهل الكتاب والأديان أنهم لم يفهموا معنى «الرحمن» حتى زادهم ذلك الجدل نفوراً وبعداً عن محمد ﷺ وما يـدعو إليه القرآن: -

- قدم القرآن فضل نوح على قومه هو والذين آمنوا معه رغم نـظرة الاحتقار واعتبار الذين آمنوا معه من أحط الطبقات في المجتمع وأرذل الناس فكانت النتائج عكس ما توقع الكافرون حيث كتبت لنوح وللمؤمنين النجاة والبقاء وهلاك الكافرين.
- أبان القرآن في الجـدل أن نوحـاً بيَّن لهم معرفتـه بربـه وقدراتـه الخلاقـة المبـدعة وأن تلك البينـة التي اكتشفها في نفسـه هي رحمـة من الله وهم عمون عن كل ذلك.

- تلك المعرفة السيكولوجية التي يتحدث نوح عنها وأن ربه قد وهبه إياها لا تتوفر للناس على الكافة إذ هي وحي شخصي لفرد من الناس بعينه وهذا يوضح لنا مسألة عصرية هي مسألة القدرات الإبداعية عند الأفراد وأن لكل واحد من الناس فضله من ذلك حتى أوضح الصوفية أن هذا هو مسألة الكشف والعلم اللدني الذي تحدثت عنه سورة «الكهف» حتى جاء القرآن بالخبر الصادق لسؤالهم عن أصحاب الكهف وغيرها مما أثاره أهل الكتاب والأديان واليهود للتصدي لمحمد ﷺ وكشف جهله بتلك المسائل اللاهوتية.

- كانت حجة الكافرين أن الناس لا تمايز فيهم ولا فضل لأحد على غيره وهم لا يؤمنون بتلك القدرات التي يتحدث عنها نوح وربه والبشر كلهم قطيع من الأغنام لا تختلف فيهم الطاقة الروحية ولا العقلية ولا السيكولوجية وكان ذلك راجعاً لسلطان المجتمعات في مواجهة الفردية التي بشر بها نوح لأول مرة في التاريخ فأوضح للناس أن الفرد الممتاز و «السوبرمان» هو الذي يبني الحضارة بما أوتي من الروح الخلاق.

- ليس معنى ذلك أن الأصل في الانسان هو التميز العنصري وإنما الأصل في الإنسان اختلاف القدرات ومن ثم اختلاف أنماط وألوان المعرفة ولذلك خص رب كل نبي وكل رسول ما أوحى إليه بجانب فريد وخصوصية من مجالات المعرفة حتى صنع نوح الفلك لأول مرة في تاريخ الإنسانية وأنه كان أول تكنولوجي يعرفه العالم ومثله ما أحيا به عيسى الموتى ومثله ما أقام عليه موسى سلطان بني إسرائيل.

- إن الإيمان بالفردية والإيمان بالحرية والإيمان بقوة الفطرة العالمة عند الإنسان هو الذي جعل القرآن.يقدم «الر» من خلال الربوبية لبيان أن رب «يونس» حقق الصدق لايمان المؤمنين وأن رب «هود» كتب له النصر على تسعة رهط من قومه وهي أحزاب كثيرة لها سلطانها وأن رب «ابراهيم» كتب

له النجاة من نار الكراهية والحقد على قومه ووحيه له بالهجرة وإقامة بيت الله الحـرام ومثله ما أفـاض عليـه رب «يـوسف» من علم النفس وتفسيـر الأحلام حتى صار ملكاً على مصر ومثله ما ورد في سورة «الحجـر» حتى جاءهم عقاب الله فيما اعتبروه واطمئنوا إليه لبيان أن هؤلاء الأنبياء والرسل إنما بعثوا وواجهوا قومهم بقوة أربابهم وأنهم لم يرسلوا في أهل الأديان بل كانوا أميين خارج نطاق الديانات وأنهم جميعاً تصدوا للديانات التي كانت قائمة وقتئذ ليقول القرآن لمحمد ﷺ إنه هو أيضاً فـرد ربانيٌ أرسـل خارج نطاق الأديان وأهل الكتاب والتعصب الأعمى.

- أوضح الأنبياء والرسل للناس أن ربهم قد شمل كل فرد في الجنس البشري كله بنفس الرعاية التي شملهم بها وأن رب نوح كان هو نفسه رب العالمين ورب هود كذلك ورب ابراهيم مثله ورب يونس والآخرين ومحمد «نفسه» قد أوضح للناس أن ربه هو أيضاً الذي أتاه علم القـرآن والوحي هـو رب العالمين لنتبين من ذلك أن الفطرة الانسانية هي فطرة واحدة أودعت تلك الطاقة الروحية الخلاقة وما هؤلاء الذين عرفوا من أنفسهم تلك القدرات إلا رسلاً للناس بأمر الله حتى يكون المنهج الفطري بين أيدي الإنسان على اختلاف أجناسه وملله وعقائده ودياناته ولتفتـح أبواب السمـاء لكل البشـر سواء من كان منهم نبياً أو رسولاً أو شخصاً عادياً من العامة.

- أراد القـرآن وحرص كـل الحرص أن يـوضح للنـاس أن ما أوتي الأنبيـاء والرسل من ربهم هو نفسه عين مـا يمكن أن يؤتى أحد من النـاس وجعل الايمان بالله شرطا لهذا الأمر وضمن ذلك كله في رب العـالمين ليبعد عن الناس شبح العنصرية وسلطان الطغيان وحتى يتبين الناس أن الله ما ساوى بين الناس إلا في إمكان العقل والمعرفة والعلم والقدرات الخلاقة.

- يقول محمد ﷺ وهو صاحب القـرآن العظيم ويقـول موسى وهـو صاحب التوراة والإمامة ويقول نوح وهو صاحب الريادة إنه ليس إلا واحداً من البشر

مثله في البشرية وحاجاتها وضعفها وقوتها مثل أي واحد من الناس ليغلقوا مداخل الشيطان والتعالي والعنصرية على المبدأ ولبيان أن الرسالة ما هي إلا الفطرة والواقع لكل الناس وإنما غفل الكافرون عن ذلك لما لم يعرفوا أربابهم وإمكاناتهم حتى قال الحكيم من عرف نفسه فقد عرف الله وربه.

- عندما يبين الرسل والأنبياء أن صاحب المعجزة حقاً هو الإنسان العادي الفطري الذي لمسوه في أرواحهم وقلوبهم وهو موجود منذ خلقه آدم كان مرادهم لفت نظر الغافلين عن أربابهم وطاقاتهم ولذلك كان الغافلون مذمومين عند ذكر الربوبية في كل موضع حمل الإنسان فيه مسئولية الفشل والضياع وفقدان الهوية.

- إن المجتمعات الفاسدة كما أبان القرآن هي العدو الأول للفطرة في الإنسان لأنها تصنع للناس فطرة مصطنعة قوام وجودها السلطة والتسلط والتقليد والديانات والحقيقة بخلاف ذلك إذ الحرية الفردية هي الفطرة منذ نشأة آدم ولهذا أوضح الله لآدم أن كل شيء في الجنة مرهون بإرادته وعمله وحريته، لكن المشكلة في التحريم والشجرة لم تكن إلا في مواجهة إرادة إبليس والشيطان ليتبين الناس أن الفطرة والأصل هي الحرية وما يطرأ عليهم إنما يطرأ من أعمال الشياطين والأبالسة بالجهل أو بالعناد أو بالكفر والفسوق والعصيان.

- في كل قصة للخلق وردت لبيان نشأة آدم أوضح القرآن أن الإنسان لا يقع في الخطيئة إلا إذا أصيب بمرض يخرجه عن فطرته فقد يقع في حبل الشيطان أو غواية إبليس أو وسوسة الجنة ورغم ذلك كله تبقى أحواله الفطرية عادلة متى طلبها الإنسان وأقبل على ربه.

- في تصنيف الكافرين يقدم القرآن خلق آدم ويورد الخصيصة المرضية ليقول للناس احذروا الجهل أو احذروا الغرور أو احذروا العناد أو احذروا

الفسوق أو احذروا العصيان أو احذروا التكبر أو احذروا التعصب الأعمى والعنصرية لبيان أن كل ذلك كان من جراء تجربة الخطيئة الأولى بين آدم وإبليس وشيطانه «اقرأ نظرية علم النفس القرآنية للمؤلف».

- عند الاجتماع تقع الخطيئة وآدم لم يعص الله عندما تقابل هو وحواء ولذلك لم يظهر لآدم إبليسه وشيطانه إلا عندما وجدها بين يديه لتتبين أن المشكلة لا تقع إلا عند وجود الآخر وكل الأمراض التي يصاب بها الإنسان في فطرته إنما مرجعها للعامل الاجتماعي وهو المسئول عن ضياع فطرة الناس والاستغناء بالآخر عن الفعل الذاتي الرباني.

- لا يغني المجتمع ولا يغني السلطان ولا تغني الزوجة ولا يغني المال ولا الجاه ولا الشهوات عن الإنسان شيئاً لأنه خلق وحيداً غاية وجوده لذاته هو وليس لأي شيء آخر ولهذا كان قمة التوحيد أن يعرف الإنسان أن ربه هو الله الأحد في كل شيء يخص الفرد بعينه.

- في نسق «هود» نتبين شيئاً ملفتاً للنظر إذ قدم القرآن قصة «نوح» باستفاضة واضحة ووصفاً لم يترك هنا أدنى من شك فيما أبدعه الرائد الأول للفردية حتى غطى قصص هود نفسه ليقول القرآن إن هؤلاء النفر القلائل الذين أدركوا قيمة إمكاناتهم هم بعينهم صنعة التاريخ وإذا كان نوح قد تحدى الطبيعة الفيضانية التي كانت تسيطر على البيئة فإن هوداً قد تحدى الناس جميعاً ليعرف المؤمنون بالله والرب والقدرات أنهم بين يدي قوة عظمى خلاقة يبحث عنها الانسان وهي بين جنبات نفسه.

- يبيّن الرب لنوح وقد أشفق على ولده من الكفر والغرق وأن المصير عنده في الفرديات والربوبية ليس مصيراً مشتركاً وإنما هو مصير فردي وكل نفس بما عملت رهينة ولذلك لن يستطيع أن يحمل ولده على الإيمان والنجاة إلا إذا نبع هذا الإيمان من قلبه هو ولذلك أوضح له ما يطلبه أنه عمل غير صالح وليترك ولده وشأنه.

- هذه المقابلة بين منهج الربوبية ومنهج الألوهية في القرآن نتبينه من موقف القرآن في السلوك الجمعي الذي ورد في سورة «الزمر» إذ يقول القرآن إن المسألة في الألوهية عكسها تماماً في الربـوبية إذ يخـرج الله من الشعوب أمماً كل أمة تذهب بكتابها لمصير مشترك ولكن الأمر عند الأرباب ليس فيه مصيـر مشتـرك لبيـان أن المشكلة في الألـوهيـة هي مشكلة المجتمعـات والمشكلة في الربوبية هي مشكلة قـدرات الأفراد أمثال نوح وهود ومحمد ﷺ وغيرهـم.

- لقد خلق الله رباً لكل نفس وجعل لكل أمة إلهاً ليواجه القرآن بين الحرية الفردية والقيود الاجتماعية وهذا التـوازن بين المتناقضين قـد جعل الله لـه ميزاناً ومعياراً في الفطرة والسنن والنـواميس التي تضمنت مبادئ المعـرفة والعلمانية ولذلك أشار القرآن عند تقديم الربوبية في آيات الشمس والقمر والليل والنهار أن ذلك كله قد تم وضعه في النواميس والحسبان وأن كل آية منهـا قد جعلت في فلك معلوم لنتبين احتـراز القرآن من طغيـان الحريـة والفوضى.

- أوضـح القرآن أن نـوحاً حمـل من جنس الأنواع ذكـراً وأنثى لبيان مسـألة الانتقاء فاختيار الأصلح والأقوى للبقـاء حتى يقول لـه وقد كفـرت زوجته وولده أنه يتعين عليه هو أيضاً أن يتخذ له من هي أهل لأن تكون له زوجة من خلال القدرات العقلية والنفسية وهكذا وضع نوح لأول مرة في التاريخ القانون الطبيعي من أجل البقاء وأنه قد كتب للأصلح وأن الفرد الممتاز من جميع صفاته هو الذي يجب أن يأخذ تلك الفرصة.

- يطالب نوح من ولـده أن يركب معـه الفلك ويصور القـرآن شدة الـطوفان وأمواجه قد صارت كالجبال وقد ظن الكافر أن الجبال تمنعـه من مواجهـة الغرق ولكن نوحاً قد تبيّن من قبـل أن نجاة الإنسان واستمرار حيـاته في الأرض هو مرهون بالتكنولوجيات والاختراعات واكتشاف السنن والنواميس

واستخدامها للسيطرة على الطبيعة ولذلك أوضح لولده أنـه بهذا الأسلوب سيواجه الموت والغرق.

- من العجيب أن يجعل القرآن الإيمان بالنفس هو المعيار الطبيعي للانتقاء وبذلك جعل القرآن من المسألة الدينية والطبيعية التي خلقها الله بيديه شيئاً واحـداً ووحد بين الاعتقـاد والعلمانيـة وجعل العلمـاء ينظرون في النفس البشرية ويبحثون فيها عن الأسرار الربانية والالهية بعد أن كان الإنسان ينظر خارج نفسه إلى صنم أو حجر أو إله توتمي أو حتى زوجة أو ولد أو رفيق أو ولي يطلب منه العون.

- قدم القرآن اختلاف نوح مع ولده على المنهج في مسألـة الإيمان بـالرب ليوضح أن الإيمان بالله والقدرات النفسية هي مسألة وجدان وشعور باطني أولاً قبـل أن تكون قـدرات عقلية أو نفسيـة وليتبين الناس أن الإنسان لا تجري عليه سنن الوراثة والحتميـات كما هي في أنـواع النبات والحيـوان خاصة في القـدرات الوجـدانية والـروحية والعقليـة وإن جرت عليـه سنن الوراثة في الأجساد كالحيوان ولذلك يخلق الله من العالم ولداً فاسداً كابن نوح ويخلق الله من الفاسد عالماً كابراهيم عليه السلام.

- من قال بالحتميات في المجال السيكولوجي والروحي في الانسان فقد كفر بربه ولم يدركه على حقيقته وتلك النظرة السـطحية هي التي جعلت كـل الأقوام يعتقدون أن الله لم يبعث أحداً ولم يرسل إليهم بشراً رسـولاً لأنهم رأوا النـاس تتناسـل من الأجساد من ظهـور آبـائهم ولم يـدركـوا أن هـذا الناموس لا ينطبق على الإنسان الروحي الذي اتخـذ من الأجساد مستقـراً ومستودعاً ليس إلا.

- في الحجة على من قال إن الله قد كتب الكفر والخطيئة على الإنسان قدم القرآن في سورة «البقرة» آية أخذ الله لذريـة آدم من ظهورهم واشهادهم

عليهم أنهم جميعاً قد دانوا بالإيمان لرب العالمين ومثله ما جاء في ذكر زكريا ويحيى ومريم وعيسى فأوضح أنها ذرية طيبة بعضها من بعض وهو في قصة نوح وولده وابراهيم وأبيه يناقض ذلك ليبين أن مسألة الفطرة مسألة الوراثة الطبيعية للنوع كله وأن تلك السنة لا تتخلف مثلما أنجب زكريا ومثلما أنجبت مريم ولكن مسألة الربوبية التي وردت في نوح وابنه هي مسألة معرفة واكتساب وعمل وهذا العمل قد يكون صالحاً فيذهب بصاحبه إلى الجنة وقد يكون فساداً فيؤدي بصاحبه إلى النار وهو ما حدث مع ولد نوح ومع والد ابراهيم.

- إن الفطرة تأخذ مجراها لكن عمل الإنسان في مجال القدرات والإيمان بالرب إنما يتوقف على العلم والمعرفة ولذلك يقول نوح لقومه إنه ما جاءه بينة من ربه وأنه عرف لأول مرة قانوناً من قوانين الطبيعة وعن طريق قانون الطفو صنع الفلك لأول مرة وبها كانت نجاة البشرية من الهلاك ولولا تلك المقدرة والمعرفة لهلك الجنس البشري كله.

- أوقف القرآن مصير البشرية كلها على ما عمله نوح وما أبدعه من إدراكه لثلاث من المسائل الكبرى في حياة الإنسان وأولى تلك المسائل هو اختراع وابتكار وصناعة الفلك وثانيها وضع القانون الطبيعي من أجل البقاء وأن البقاء للأصلح في عالم الإنسان وللأقوى في عالم الحيوان وحتمية الانتقاء وثالث المسائل هو سلطان العلماء وأنه لا يقدم إلا من خلال تحصيل العلم والمعرفة وسنن ونواميس الطبيعة والكون لنتبين فلسفة القرآن في مجال الفرد وقدراته وأن التاريخ البشري كله إنما يدين لهؤلاء النفر القلائل الذين أدركوا ما لربهم من فضل وما لربهم من رحمة.

- يقول القرآن لمحمد ﷺ بعد أن قص عليه من أخبار القوميات الهالكة وأن هلاك قريش مثل هلاك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح لأنهم لم يدركوا دور الفردية واعتبروا محمداً ﷺ ما هو إلا يتيم أبي طالب وما هو إلا هذا

الشخص الفقير الذي لا فضل له عندهم بالمعيار المادي الذي يعتبرونه، ولكن المسألة ليست كذلك وها هو هود يوضح لقومه أن المعبود بحق يجب أن يكون هو الله وحده ومثل ذلك أوضح لهم صالح آية الناقة التي ترعى في الطبيعة فتأكل من أرض الله وتشرب من مائه وتحيا حياة طبيعية كلها الخصب وكلها النماء ومثل ذلك ما لفت به لوط نظر قومه فأوضح أن الطبيعة قد جعلت من الإناث محلاً لشهوات الرجال ولا يصح أن يأتي الرجل الرجل لبيان أن الفرد الرسولي هو الفرد الذي اكتشف الناموس الفطري وهو الفرد الذي يعرف السنن الطبيعية ليبني عليها صرح العلم والمعرفة.

- لكن القرآن تدرج إلى أن وصل إلى بشارة الملائكة لإبراهيم وزوجته حيث سخرت من تلك البشرى التي رواها إبراهيم عندما رأى هؤلاء الملائكة الكرام وهم ذاهبون لدمار قوم لوط فأوضح القرآن مقدار التفاوت بين إدراك وإدراك ووعي ووعي آخر وأن تلك الزوجة لم تكن تتمتع بالروحية التي كانت لدى إبراهيم حتى أنه رأى الملائكة وعالم الغيب رؤية العين والبصر ولذلك تحققت تلك البشرى لإبراهيم بإسحاق ومن ورائه يعقوب ليوقن الذين ينكرون قيمة الفردية مالها من قوة إدراكية عظمى حتى أنها يمكن أن تخبر عن الغيب وهذا العالم الملائكي الخفي عن الأبصار.

- يقول القرآن في شأن فرديات الناس إنهم درجات عند الله في المصير ولو أنهم فطروا من فطرة واحدة لنتبين مسئولية كل فرد من أفراد الناس عن مصيره بين يدي ربه وأنه مسئول عن استغلال طاقاته الخلاقة المبدعة التي أفاضها عليه ربه حتى يقول القرآن في هذا الشأن **﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾** وعندئذ فقط يدرك الإنسان مدى ربحه أو خسارته ولو أنه آمن بربه ونفسه وقدراته وطاقاته وعمل بحسب ذلك لكان هذا اللقاء الذي يحدثنا القرآن عنه لقاء سعيداً.

- إن هذا الوعي الروحي الذي يحدثنا القرآن عنه في تجربة ابراهيم وقدراته وربه حتى يمد إليهم يـده بالسـلام والتحية معتقـداً أن هؤلاء الضيوف من الناس والبشر إنمـا قدمـه القرآن لبيـان المدى الـذي يمكن أن يصل إليـه الإنسان في مشواره الـروحي مع ربـه حتى يجعل هـذه العوالم الـروحية والخفيـة بين يديـه ومثله ما جعـل الله بين يـدي محمـد ﷺ في الإسراء والمعراج حتى بلغ سدرة المنتهى والتي ليس بعدها شيءٌ يمكن أن يصل إليه الوعي الروحي.

- في هلاك قوم لوط يحكي القرآن أنهم هلكـوا جميعاً ولكن أهـل لوط قـد نجاهم الله إلا امرأته لبيان علم الله بالأحداث الوقتية وكما يعلم ما يحدث في عـالم الخلق فإنـه يعلم أيضاً مـا يقع في عـالم الأمـر وإلا نجت تلك الزوجة مع لوط وأهله لنتبين أن الله ليس بغافل ولا تأخذه سنة ولا نوم بل هو على الحقيقة الحي القيوم.

- يكاد يكون كل فرد من أفراد النوع الإنساني جنساً بذاته بل هو من خـلال الفـرد الرسـولي كما في نـوح وهود وابـراهيم وصالـح هو النـوع المتطور للإنسان ومثل ذلك ما مثله القرآن في شأن عقائد إبراهيم حتى قال عنه إنه هو وحده ليس معه زمرة من المؤمنين كان أمة بأسرها حتى نتبين هذا الفضل الذي يمكن أن يحوزه آحاد الناس عندما يؤمن بربه إيماناً خالصاً لا تشوبه شائبة من كفر أو شرك.

- لكن القرآن في تجربة شعيب أوضح لنا المكيال والميزان إذ اعتقد القوم أن المكيال والميزان عند الله إنما هو في الأموال والسلطان والجـاه فبيّن لهم شعيب أن هذا الأمر ليس صحيحاً إذ المكيال الحق هـو ما كـال به الـرب للإنسان ومثله مـا وزنتْ به أعمـال الناس من أجـل الخير وهكـذا جاءهم شعيب بالمعيار السماوي بديلاً للمعيار المادي إذ جعل القيمة في الإنسان وليس قيماً يملكه الإنسان.

- لقد أوضح القرآن أن أمر فرعون كان وبالاً على قومه لبيان خطورة تسلط أصحاب السلطان والسلطة حتى يقول في موضع آخر إن فرعون سيقدم قومه يوم القيامة فيوردهم النار وأن المسئولية لا تقع على فرعون بل تقع على كل المتخاذل وكل المستضعف وكل من يرضى بالعبودية وهي لذلك دعوة للحرية وإن وردت في أمر فرعون وحده.

- ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾[1] ليبين لنا أن القرآن في موضع الفردية والحرية والقدرات قد أحل الربوبية محل الألوهية وخلع من الآلهة سلطانهم وجعلها لرب كل نفس حتى تأكد ذلك من فعل رب نوح وفعل رب هود وفعل رب إبراهيم وفعل رب شعيب معه وأنه هو وحده الذي أصبح إلهاً يعبد من دون الآلهة ومثل ذلك رب محمد ﷺ وما قدمه له من وحي القرآن وعلومه.

- لقد انتهى دور الآلهة في القرآن وأخذت الأرباب مكانها لتتبين ما أوكل القرآن للإنسان من المسئولية تجاه نفسه وتجاه العالم والآخرين حتى تتكشف لنا قيمة تلك الرحمة **﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله رب العالمين﴾** وليكون من ذلك سلطان الضمير الإنساني الذي يكشفه القرآن للناس فيقول **﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾**.

- إن هذا القصص الذي ورد في نسق «الر» من «هود» إنما ورد لبيان أعمال الرسل وأن هؤلاء الصفوة من الناس الذين يستطيعون بما أوتوا من الكفاءات والقدرات والصفات الممتازة أن يكتبوا التاريخ وأن يصنعوه. ولنا مما كان من حياة العظماء سواء كان ذلك في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو العلوم والاختراعات أو التكنولوجيا والتصنيع من أمثال محمد ﷺ

---

(١) سورة هود: الآية ١٠١.

وهـود ونوح ومن قـادة المعرفـة من أمثال دارون ومـاركس وفرويـد ونيوتن وأينشتين أو تـولستوي أو غيـرهم من آبـاء السيكـولـوجيـات مثـل يـوسف وغيرهم هدى ونبراساً ﴿وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَـاءِ الرُّسُـلِ مَا نُثَبِّتُ بِـهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

- قدم القرآن مضامين «الم» في سور قرآنية اعتبر كل واحدة منها كتاباً قرآنياً حتى وجدناه يصف كتاب سورة «البقرة» بأنه لا ريب سيكون هدى للمتقين وكتاب «آل عمران» بأنه الحق الذي يصدق ما بين يدي محمد ﷺ،وكتاب «العنكبوت» لبيان المؤمن الصادق من المؤمن الكاذب،وكتاب «الروم» لبيان سنة الله في تداول القوة بين الناس والأمم ومثله كتـاب «لقمان» لبيـان أن المربى على الفطرة والحقيقة هو الله وليس الوالدان أو المجتمع أو أي لون من ألوان السلطان ثم كتاب «السجـدة» لبيان سيـطرة الله على العالم بمـا خلق من جنس الآيـات والسنن والنواميس والفطرة، ثم أردف كتاب «ص» وألحقـه بكتاب «المص» في الأعـراف ليضيف بعداً جـديـداً للمهيمن والهيمنـة ثم ها هو يقدم كتاب «الر» الرحمن ويقدم فيه السير الذاتية لأولي العزم من الرسل وأعمالهم حتى يكون من ذلك تثبيتاً لمحمد ﷺ والذين آمنوا وأنهم هم صنعة التاريخ على الحقيقة وليس كمـا يدعي المشـركون والـذين لا يعلمـون المعـاني الحقـة لـوجـود الإنسان وحقيقتـه عنـد الله وعنـد رب العالمين.

ومن ذلك كله نتبين عظم البينات الفكرية والعقائدية التي حملتها أسماء الله الحسنى الرمزية مثل «الم» أو «الـر» وقد تبين لنـا أن معنى اسم واحد من تلك الأسماء كالمهيمن «الـم» يجـري في عشرات السـور القرآنيـة بل يشمـل عشرات الكتب كي لا تأخذ الأمر ببساطة كما يفعل الجهلة من العامة الذين لا يدركون من معنى «الله» مثلاً إلا أنه «الله» كمن فسر الماء بعد الجهد بالماء.

---

(١) سورة هود: الآية ١٢٠.

ناهيك بسلطان تلك الأسماء الرمزية على معـاني ما ورد في الأحـداث والمواقف والجدل والعقائد والقصص والأمثال وغيرها من أسماء الله الحسنى التي وردت في المثاني مثل السميع البصير وغيرها من مشابهات الفهم والعقل الإنساني، وكأن القرآن يقول لنا إن الفعل الالهي الذي ورد في الأسماء الحسنى الرمزية يهيمن على العقل الانساني الذي ورد في المثاني من أسماء العزيز أو الحكيم أو العليم أو الغفور أو الرحيم وإنما فرق القـرآن بين الرمـزي وإفراده والصريح وتثنيته لنتبين وجه المشاركة وأن الإنسان يشارك الله في بعض الكمال من التـوليد كمـا يتولـد الرحيم من الغفـور مثل «الغفـور الرحيم» حتى يـدرك الإنسان معاني التطور والارتقاء وأنـه من عزة الله. مثـلاً اشتقت الحكمة مثـل العزيز الحكيم أو اشتق العلم مثل العزيز العليم أو الرحمة مثل العزيز الرحيم أو الحمد مثل العزيز الحميد أو المغفرة مثل العزيز الغفار أو الاقتدار مثل عـزيز مقتدر لو أن تلك الأحداث التي زيلتها تلك الأسماء هي أحداث بشرية إنسانية لنتبين معنى التطور نحو الكمالات التي تسيطر وتهيمن على حياة الناس وكأن الأحداث لا تقع من محمد ﷺ أو غيره لتحقق تلك الكمالات وإنما تقـع من فعل الله نفسه حتى صار هو العزيز الرحيم أو العزيز العليم أو العزيـز الحميد لندرك تلك المسألـة من جهة نسبـة الكمالات إلى محمـد ﷺ وهي أصلاً من كمالات الخلق وأن الأهم أن يعرف الإنسان من خلال الربوبية ومن خلال سيره مع ربه ومن خلال تحصيله لتلك الكمالات بالتطور والرقي أنه هو وما يكسبـه من ذلك كله آية من آيات «الر» السورة الذاتية ليونس وهود وإبراهيم ويوسف من خلال هذا الاسم «الرحمن» وأنهم بكل مـا وصلوا اليه من كمـالات المعرفـة والقدرات ما هم إلا آيات من الله سبحانه وتعالى.

تلك المسألة الخطيرة تدخلنا في مسألة من أجل الموضوعات المعاصرة إذ يوضح القرآن كيف انتقل السلوك الـرسولي وانتقـل في القرآن بين أعمـال الأنبياء والرسل حتى جاءت تلك البينات للناس وأن التـطور والارتقاء من نبي

ورسالة إلى نبي ورسالة أخرى واسم أول يشتق منه لله أسمـاء وأسماء وحـركة الفكر القرآني والسلوك المحمدي وفي الحوادث التاريخية وقصص القـوميات وقصص الأمم برز لله من كيان العزة تلك الكيانـات التي هدت بفعلهـا هؤلاء الصفوة من خلق الله حتى تبيّن للقرآن في نهـاية الأمـر أن الوجـود كله جماده وحيوانه وإنسانه يتطورون ويتحركون حتى الجبال نفسها وقد حسبها محمد ﷺ أنهـا ثابتـة وهي ليست كذلـك ﴿وَتَرَى الجِبَـالَ تَحْسَبُهَا جَـامِدَة وَهِيَ تَمُـرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[1] والأخطر من ذلك أن المثاني من أسماء الله الحسنى تجعل الله في الحياة الإنسانية تاريخـاً وامتداداً لبيـان هيمنة الله على الـدهور والأزمـان والحقب والحضارات ولذلك يقدم القرآن في قصص هلاك قوم نوح فيقول إن الذي أهلكهم هو العزيز الحكيم ومثله في قوم هود وقوم صالح وقوم ابـراهيم لنتبين أنها ذات شخصية ممتدة مع التاريخ والحضارة والإنسان وكـل ذلك من أجل بيان الهيمنة وأن الله هو على الحقيقة القرآنية الحي القيوم وإن بدا لنا أن الناس هم الأحياء وأن الناس هم الذين يقومون على الأمر وليس هذا هو الواقع إنما الواقع والحق أن الوجود لله وحده وإن اعتقد الطغاة أنهم موجودون وأنهـم أحياء وأنهم قائمون على الأمر والسلطة والسلطان.

- من لم يدرك عمق المعاني التي حملتها الأسماء الحسنى ومـا تضمنته من المـوضوعـات الجليلة والفقه الـرياضي والبنيـوي فلن يستطيـع أن يعرف للقرآن قدره ولن يستطيع أن يكون بين يديه هذا المعيار الصادق الذي يزن به هذا الفكر الإلهي الذي تضمنته الكتب والسور القرآنية في موضوعـات الأسماء الرمزية.

- إن المثالية الألمانية وكل الفلسفات التي اشتقت مقوماتها من روح الله في العالم لم تقدم مثل هذا التقييم ولا مثل هذا المعيار ولا مثل هـذا الحصر للحوادث والجدل العظيم الذي ورد في القصص والذي أودعه القرآن في

(١) سورة النمل الآية ٨٨.

روح الأسماء الحسنى حتى أن القرآن شمل كل مثالية ممكن أن تطلق بالاسم والصفة على الله سبحانه وتعالى.

- لم يكن هيجل ولا ماركس ولا نيتشه ولا جوته ولا كانت إلا جوانب وحواشي لما قدمه القرآن في أنساق «الم» و«الر» و«المر» و«المص» وغيرها مما حملته روح تلك الشفرات الفقهية ولكن المشكلة هي كيف نستفيد من ذلك كله كما قال الدكتور زكي نجيب محمود وليكون منه منهج الأمة حيث لا صلة اليوم بين الأمة والمنهج القرآني والفصام وازدواج السلوك والإسلام واضح تمام الوضوح.

- إن التوحيد في مجال التوراة والأناجيل غيره في المجال القرآني حيث تبيّن لنا أن التوراة والإنجيل لا يحملان نسقاً للأسماء الحسنى ولم تظهر فيهما أعمال الرب منسوبة إلى اسم من تلك الأسماء لنتبين معنى تطور المعرفة في القرآن والبنيان الفكري له إذ خلت التوراة والإنجيل من التنظير والنظرية ولن تجد في التوراة والإنجيل إلا الأحداث والقصص ولكن القرآن مليء بالفقه والجدل والتفكير والتدبر لآيات الله وما قدم في مجالات أسماء الله الحسنى من المحكم وما قدم من التحليل والفلسفة والنظرية في المتشابه واتخاذه لخط البيان والتبيين والتفصيل والإيضاح.

- إن أجلّ ما وصل إليه القرآن هو تحميله لما ورد فيه من كل ما ذكرناه من المعارف لأسماء الله الحسنى حتى نكاد نقول إن القرآن ما هو إلا دراسة وفقه لتلك الأسماء لنتبين أنها عبارة خاصة لمحمد ﷺ والذين آمنوا معه حتى إذا كشف له الوحي عن معرفة من معارفه قال له إن ذلك من الرحمن الرحيم أو من العزيز الحكيم أو من الغفور الرحيم ليجعل من ذلك في عقيدة محمد ﷺ قوامه تلك الذات الإلهية على قلبه وعقله وضميره ووجدانه حتى وجدناه لا ينام آلليل داعياً ملبياً مجيباً لربه.

- هذا الإيمان الذي أفرغته الأسماء الحسنى في قلب محمد ﷺ لم يكن إلا من مصادر العلم والمعرفة حتى يقول القرآن ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ لنتبين أن محمداً ﷺ لم يوح إليه بتلك الأسماء إلا عندما جاءه العلم والمعرفة ولذلك أدان القرآن الذين يفترون القضايا ثم ينسبونها لله ويلحدون بذلك في أسمائه ثم يزيفون عقائد الناس مثلما فعل أهل الكتاب والأديان حتى أوضحت سورة «الأنعام» في مثل تلك الالحادات أنها ليست لله وإنما هي للتسلط على عقول الناس وعقائدهم وأفهامهم حتى أن يهوذا وغيره جعلوا لله نصيباً مما يأكلون ويشربون ويملكون وتمادى الأحبار والرهبان حتى زيفوا للناس مسألة القرابين البشرية فقتل الناس أبناءهم ظلماً وعدواناً بغير علم.

- لكي تنسب القضايا والعقائد لله فإن القرآن أشار إلى تلك الأسماء حتى لا يلحد الناس في الرحمن ويتخذوا موقفاً من مواقف القسوة مثلاً ويقولوا للناس إن ذلك من الله ومن الرحمن ومثل ذلك إذا مارس أهل الكتاب والأديان العنصرية وادعوا أن ذلك من الله والعزيز الرحيم فإن القرآن يكشف هذا الزيف وهذا الإلحاد لأن الأسماء الحسنى في الله قد أبان القرآن للناس مفهومها والجوانب التي جرت فيها الأحداث وهذا هو الجانب الأهم من جوانب الهيمنة والدور الذي قامت به نسق الأسماء الحسنى في المثاني وفي الأسماء الرمزية أيضاً.

- إن تحريف أهل الكتاب والأديان لما نزل في التوراة والإنجيل هو الذي استوجب للقرآن هذا الحرص وهذا النظام في محكم القرآن واتخاذه للأسماء الحسنى وسيلة كبرى من وسائل الأحكام حتى نستطيع إن دخل على القرآن تحريف أن نتبين مصادره بالتحديد وليعرف الدارس للقرآن أن تلك القضية هي بعينها قضية مدسوسة عليه لأن قضايا المهيمن لها فقه خاص ومثلها قضايا الرحمن ومثلها قضايا العزيز ومثلها قضايا العليم وقضايا السميع وقضايا البصير أيضاً.

○ إن القرآن المحكم والأسماء الحسنى الرمزية والأسماء المثاني هي أعظم ما نزل في القرآن كله لخطورة شأنها ودورها وهذا نتبينه عندما نزلت الحواميم السبعة من «غافر» و«فصلت» و«الشورى» و«الزخرف» و«الدخان» و«الجاثية» والأحقاف» في معنى الحي المهيمن «حم» ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالقُرآنَ العَظِيمَ * لاَ تَمُدَّنَ عَيْنَيكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخفِضْ جِنَاحَكَ لِلْمُؤمِنِينَ﴾[1]. ولذلك صرفه القرآن عن المتاع الحسي الدنيوي لأن الوحي قد جاءه بأفضل من ذلك وأجل وأخطر فيما نزل في تلك السور العظيمة الشأن بالنسبة لهيمنة القرآن.

○ يتوجه القرآن في نسق «يونس» إلى أهل الكتاب والأديان ويناقش مشكلة الإيمان ولذلك وجدنا قصص موسى هو القصص البارز في هذا النسق لكن الجدل في نسق «هود» اعتمد على قصص نوح وأفاض فيه لأنه يناقش مسألة الفرد الرسولي لنتبين أن قصص القوميات إنما ورد أصلاً في مسألة الربوبية والإمكانات الخلاقة للرسل والأنبياء وقصص الأمم إنما ورد أصلاً لبيان الدين الحق والدين الخالص والدين القيم لفساد الأديان وأهل الكتاب ولهذا ناقش مسائل الألوهية واستعاض عنها بالتوحيد والرب العالمي لكل الناس بغية التصدي لمقولات أهل الكتاب والأديان بالعنصرية وشعوب الله المختارة من اليهود والمسيحيين والمسلمين وغيرهم.

○ إن اهتمام القرآن في الهيمنة بقصص أهل الكتاب والأديان وشعوب الله المختارة وشتى ألوان العنصريات قد خلق مشكلة كبيرة للقرآن لأن الألوهية في القوميات لم تكن شيئاً مستفحلاً حيث كان الاله صنماً أو عجلاً أو قومية من القوميات ولكن المسألة أخذت عن الأمن بعداً كبيراً إذ أصبح الاله شعوباً وأقواماً ينظمهم جميعاً اعتقاد خاطىءٌ في الدين والإيمان ولذلك تتبين

(١) سورة الحجر: الآيتان ٨٧ ـ ٨٨.

تلك المسألة اليوم بوضوح في الأمة المسيحية المنتشرة في العـالم والأمة الإسلامية وكل فرد من تلك الأمم هـو سجين الاعتقادات وأنـه هو وحـده المؤمن من دون الناس.

- ما إن تنبعث مسألـة الإيمان والـدين والعقيدة حتى يقـول القرآن (لقد كفر الذين جعلوا لله ولداً) لبيان أن مشكلة المشاكـل كلها في المسـألة الـدينية والايمان تلك العقائد المادية والتي لا تبغـي وجه الله بقدر ما تبغي الـدنيا وسلطانها وإبليس وشيطانه وهو النفوس الدنيئة.

الفصل الثاني

نسق سورة «يوسف»

قضايا «الر» الرحمن ومحمولاته:

- لقد نزل القرآن باللغة العربية من أجل بيان معجزة محمد ﷺ وربه وإمكاناته ولو نزل بغير اللسان العربي لكان ذلك إبهاماً وحجة للذين لا يؤمنون بالرب والقدرات.
- استكمالاً لهذا البيان الذي أخذه القرآن على نفسه فإنه يقوم على الناس قصة يوسف مع ربه حتى يكون من ذلك بيّنة على أن المربي على الحقيقة هو الله وحده ولذلك تشابه حال يتيم أبي طالب ورعاية الله له وما حدث ليوسف وهو صغير حتى صار ملكاً لمصر وعزيز القوم فيها.
- هذا البيان من أجل الإيمان بالتربية الحرة ومن أجل أن تلك التربية والربوبية هي التي خلعت على يوسف هذا المجد وهذه المكانة وأمكنته من علم النفس حتى تفسير الأحلام.
- مثل محمد ﷺ وربه ووحي القرآن له ومثل يوسف وما مكن ربه له حتى يقول محمد ﷺ يوم أن مكن الله له في القوم عند فتح مكة «لا أقول لكم إلا

كما قال أخي يوسف» لبيان أن القرآن قدم لمحمد ﷺ ومن أنكر عليه هذا الفضل من ربه أن مسألة يوسف هي نفس مسألة محمد ﷺ فماذا ينكر الناس من ربهم ومن ظاهرة محمد ﷺ والقرآن؟

- اعتبر القرآن قصص يوسف وربه هو أحسن القصص لنتبين أن العلم اللدني والذي ينبعث من فطرة الإنسان التي خلقها الله عالمة واعية مدركة منذ خلق آدم هي سر نزول القرآن على هذا الفرد الأمي الفطري الذي لم يكن لأحد سلطان عليه إلا ربه كما كان نفس الرب والفطرة هما المعلمان كيوسف أيضاً.

- هذا النسق الذي يحدثنا عنه «الر»،«الرحمن» في يوسف لا نتبين أبعاده إلا في سورة «الكهف» حيث جاء محمد ﷺ من العلم اللدني والفطري من ربه وإمكاناته الروحية ما جاءهم بتفسير كل ما سألوا عنه من مسألة أهل الكهف وغيرها.

- هذا الأمر يؤكد للناس مبدأ التربية الحرة والقدرات ورفع كل وصاية على النشء في الطفولة وإمكان الإيمان والوثوق والثقة إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها وإنما تصبح المشكلة عقبة كبرى عندما يفقد الناس إيمانهم برب الإنسان ومن ثم تسلط الدين أو المجتمع أو حتى المربي وهي نفس المشكلة التي تناولتها سورة «لقمان» وإنما جاء هنا من جانب التسليم بالإيمان والاعتراف لفضل الرب الذاتي لكل كائن وكل إنسان حتى جعل رب يوسف منه هذا العظيم التاريخي.

- إن الدليل التاريخي لا يقهر ولا يمكن أن يكذبه الناس وما حدث ليوسف مع أخوته وتآمرهم عليه ووصوله إلى مصر دون راع يرعاه وتعرضه لما يتعرض له كل لقيط وكل شريد وبيان فضل رعاية ربه له في كل ذلك إنما كان البرهان الصادق على أن الإنسان مهدي بنفسه حتى في أشد المواقف وأحرج الظروف والملابسات.

- إن الظروف الصعبة والسيئة والتي يعتبرها الآباء قـاضية على الأبنـاء وهي التي تخـرج مادي الانسـان من الطاقـة والإبداع والـوعي ولـذلـك جعلت الظروف التي مرت بيوسف ومكيدة أخوته له فتحاً مبيناً لمستقبله واجتباء ربه إياه وتعمده له بالرعاية والرحمة ومثل ذلـك شأن محمـد ﷺ وما كـان من نزول وحي القرآن عليه.

- من مثل ذلك ما نوه به رب موسى له من مواقف الشدة إذ يبين له وقد خاف بطش فرعون أنه هو الذي كفله ورعاه وهو في قصر فرعون عدوه وهو الذي رعاه وشمله بالعناية وهو في الغربة عند أهـل مدين وهـو الذي أنـزل عليه التوراة فلماذا لا يثق في نفسه وربه وإمكاناته ولماذا لا يذهب إلى فرعـون الطاغية؟

- تلك التجربة الروحية الربوبية عند الأنبياء والرسل هي تجربة ذاتية شخصية وجدانية يريد القرآن بتقديمه لقصص يوسف أن يجعلها تجربـة موضـوعية عملية نواتجها واقعية قد حدثت من قبل في التاريخ.

- كيف يثق الإنسان في نفسه وربه وقدراته والإيمان بذلك هو المشكلة التي قدم فيها القرآن أحسن القصص الذي يرويه لنـا فيما حـدث ليوسف ومـا تعرض له من الأهوال حتى صار علماً يشار إليه في التاريخ والقدرة والعلم.

- إن القدرات التي يتمتع بها محمد ﷺ ليست بدعاً من الرسل وقد سبقه في هـذا موسى فأحيا عيسى المـوتى بإذن ربـه وتحدى يـوسف الأقدار التي فرضتها عليه الظروف حتى تآمر عليه أقرب الناس إليه ورغم ذلك بلغ الله أمره وجعل منه هذا العلامة في علم النفس وتفسير الأحلام وأصبح بذلك أحق الناس في ملك مصر فلمـاذا لا يكون محمـد ﷺ أحق الناس بملك قريش وملك الدين وملك الأمة؟

- تلك القضية الخطيرة التي يتحدث القرآن عنها من خلال الربوبية هي التي

يجب أن تكون منهجاً للتربية المعاصرة إذ نتبين أن الفطرة التي أودعها الله إمكانات النفس البشرية كما تتبدى في الطبيعة عند الحيوان وعند النبات هي ما يجب أن يمارس الإنسان من خلاله أعماله العقلية والذكاء وغيره، ولذلك يتحدث نسق «لقمان» عن العظام وانفصال الطفل عن الرعاية التي يتلقاها من أمه ومثل ذلك يجب أن يكون هناك فطام لاعتماد عقل الطفل على الوالدين والمجتمع وشتى ألوان الوصاية المصطنعة.

- في مواجهة ادعاء العلم عند أهل الكتاب والأديان قدم القرآن الفطرة كمصدر للمعرفة وبين أن الإنسان عالم بطبعه وطبيعته وتلك هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها وأوضح القرآن في سورة «الكهف» وما قدمته من الإجابات عن التساؤلات التي أثارها اليهود وأهل الديانة مقدار ما يتمتع به الإنسان من العلم اللدني الذي لم يعجزه بيان وجه الخرافة والأسطورة في قصة أهل الكهف، ومثل ذلك ما قدمه القرآن من معيار الفطرة في الهيمنة والسلطان إذ نزع الله العزة والقوة عن الأقوياء والطغاة في كل عصر واعتبر القرآن ذلك سنة جارية وفطرة غالبة، ومثل ذلك قوامة وهيمنة الفطرة في أمر التربية الحرة التي يقدمها لنا في سورة وقصص يوسف وما يمكن أن يبدعه رب محمد ﷺ كما فعل مع يوسف من قبل وما كان من رب موسى ورب عيسى ورب نوح وغيرهم لنتبين من ذلك كله معنى الفطرة ومعنى تفضيل محمد ﷺ ليلة الإسراء شرب اللبن وانحيازه للفطرة حتى بينت سورة «فاطر» أن فطرة الإنسان الروحية وقدراته في هذا الشأن هي فطرة ممتدة لا حدود لإمكاناتها حتى يخلق الله من تلك الفطرة ملائكة ذوات أجنحة مثنى وثلاث ورباع وما يمكن أن يحققه الإنسان لهو الذي يشهد عليه التقدم العلمي المعاصر وما حققه الإنسان المخترع والتكنولوجي من الإنجازات الجبارة في مجالات الصناعة والزراعة والفضاء أيضاً.

- إن المشكلة أمام العقلية الدينية الموروثة الآن هي كيفية فهم الربوبية

والألوهية وهي مفـاهيم دينية قبـل أن تكون مفـاهيم قرآنيـة في المجالات المعاصرة، وكيف يمكن لتلك المعـاصرة أن تجعـل من الأديـان والإيمان أدوات عصرية بين يدي الناس حتى يستفيدوا من تلك العواطف الـدينية المشبوبة وجعلها وسيلة غاية في الثراء والتقدم والعلم والثقافة لأن المشكلة كما هي أيهما أقرب للنفع أصحاب الرواية أم أصحاب الدراية؟

- هذه المسألـة بين الروايـة والدرايـة هي مشكلة الوعي ومشكلة المعـاصرة واصطدام أهل الأديان على جميع نحلهم ومللهم ودياناتهم وطوائفهم بتلك المشكلة الكبـرى وكيف نجعل من هـذا المتدين التقليـدي السلفي رجلاً عصرياً متقدماً بنفس تلك الإيمانات والعقائد الـدينية مـع الحرص عليهـا وتنميتها تنمية عصرية؟

- إن الصدام الذي وقع بين محمد ﷺ وقومه هو صدام المعاصرة والسلفيـة والتراث الديني ومثله ما وقع بين نـوح وقومـه وابراهيم ومثله هـود ويونس وغيـرهم لنتبين أنها مشكلة تـاريخية تحـدرت مع النـاس في كل عصـوره وحضاراته وقومياته وهي تظهر بشكل واضح متى ما قام في الناس فرد رباني قد عرف من نفسه وطاقاتها الخلاقـة مـا يمكن أن يفرض طـريق التحريـر وطريق التقدم مثل محمد ﷺ والذين آمنوا معه.

- كيف يمكن أن تنقـل أمة من الأمم الـدينية من مـرحلة الـروايـة والسلفيـة والتقليد إلى مرحلة الدراية والمعاصرة والتقدم وقبول التطور، وقد استغرقت الكنيسة مئات السنين في دراسـة قضية جـاليلو حتى تبينت في النهايـة أن جاليلو كان على الحق ورجال الدين والكنيسة كانوا على الباطل رغم هذا الخضم الهائل من التقدم والمعرفة الذي بنى على مثل ما قدمه جاليلو؟

- دائماً عند مناقشة مشكلة أهل الرواية والتقليد والسلفية يقدم القرآن مسألة الإنسان المطبوع الذي وضع قواه الروحية وإمكاناته العقلية في القوالب إذ

يقول القرآن إن مثل هذا الإنسان لن يؤمن أبداً إلا بما في رأسه حتى لو أقبل عليه الملائكة مثل الناس يمشون أو حتى جاءه النبي أو الرسول بقطعة مادية من السماء ولو أن النبي والرسول فجّر لمثل هؤلاء أنهاراً بين أيديهم ما آمنوا أبداً لأنهم لا يريدون إلا ما هو بين أيديهم وما بين كتبهم وما بين معاهدهم وما في كنائسهم ومحاربهم ومساجدهم وأضرحتهم.

- هل فهمت قريش محمداً ﷺ وإمكاناته وما يدعوهم إليه طيلة ثلاث عشرة سنة؟ لم يفهموا أن محمداً ﷺ مثل يوسف وما مكن له ربه إلا يوم فتح مكة لنتبين أن هذا الأمر لا يدخل إلى عقول الناس وقلوبهم إلا بحد السيوف ولذلك لن نستطيع أن ننقل الأمة إلى مفهوم المعاصرة بالطرق الديمقراطية وإنما تدخل الأمة إلى هذا المجال بالحديد والنار كما تقول سورة «الحديد» ومن لم يرتدع بالقرآن فإن الله يردعه بالسلطان والقوة والقهر.

- إن مسألة إلغاء النشاط من أجل المعاصرة هي فكرة قرآنية وما تحطيم الأصنام إلا صورة للتقدمية بالقوة وحرم القرآن مخالطة أهل الكتاب والأديان لعدم إفساد العقائد والدين المنحرف والدين المستغل والدين الرجعي والدين السلفي وديانات الآباء والتراث كلها أجاز القرآن فيها الأخذ بالشدة والقوة من أجل فتح باب المعاصرة والتقدم العلمي لأنه أباح حرمات بيت الله الحرام عند مكة وهي من أكبر الكبائر في التحريم تحقيقاً للعدل والحق وفرض سلطان الله الذي استغله المنتفعون والنصابون والمفسدون في الأرض.

- لا تستغربوا أن يكون الدين أفيون الشعوب والأمم فمشكلة أهل الكتاب في القرآن كله هي مشكلة أهل الأديان وهي التي أثارت القرآن ضد التقاليد وضد الأعراف وضد السلف والتراث وضد المقولات بل ضد اللاهوت كله وهي التي كانت سبباً في نظرة القرآن نظرة مرتاب إلى مسألة الاعتقادات وهي نفسها التي استوجبت نزول محكم القرآن وأسماء الله الحسنى من

أجل اتّقاء عمل وتحريف رجال الدين للنصوص ولا يغيبن عن البال ما كان يدعيه اليهود من احتكارهم للإيمان عند الله حتى بين القرآن أن هذا كذب وافتراء لأن الإيمان طبيعة بشرية عند كل الناس وليست عند أهل الكتاب والأديان فقط لنتبين المدى الذي يمكن أن يصل إليه فساد الأديان واستغلال الشعوب عن هذا الطريق حتى قتل الناس أبناءهم وبالعقيدة الدينية كما ورد في سورة «الأنعام» وحتى جعل الأحبار والرهبان والأئمة من أنفسهم أرباباً للناس من دون الله ومثله ما كان من صكوك الغفران وميراث الجنة عند اليهود ونازعهم عليها المسيحيون ثم أدعياء المسلمين.

- إن المسألة تكاد تكون كذبة كبرى ولذلك احترز القرآن في ذلك وقدم المعيار الفطري والمعيار العلمي والمعيار النفسي والمعيار الإيماني وأبدل الألوهية برب العالمين ورب الناس من الاختلافات وجعل الهيمنة لله وللطبيعة والسنن والنواميس وألغى الوصاية وشتى صور التسلط وجعل الهيمنة لله وحده من دون أهل الأديان والأديان بشتى صورها حتى تبينا عندما قدم الدين الخالص والدين الحق والدين القيم أنه ألغى الأديان بوجود الإسلام.

- صدام محمد ﷺ وقومه ودينهم ونوح وقومه ودينهم وابراهيم وقومه ودينهم وموسى وقومه ودينهم وعيسى واليهود ودينهم وهود ويونس ويوسف وليس هنالك كذلك من معنى إلا أنه صدام تاريخي مع الأديان والديانات وهو صدام أزلي أبدي يحذر القرآن منه أشد التحذير ولن يفيد الأمة سلطان أهل الرواية وغلبتهم وسيكتب الله النصر في النهاية لسلطان أهل الدراية دون شك في ذلك لأن العلم المعاصر هو الذي نصر جاليلو في نهاية الأمر على الكنيسة.وجعل من ذلك فضيحة كبرى لسلطان رجل الدين وهيمنته. وهيمنته.

- إن نسق «الر» «الرحمن» قدم قصة يوسف واعتبرها من أحسن القصص

لبيان انتصار يوسف ومنهج الربوبية وعلم الفطرة السليمة على معتقدات المصريين وعزيزهم لأن يوسف أمكنه بالفطرة أن يعرف التفسير لحلم الملك وقد عجز عن ذلك كهنة الدين في مصر كلها حتى أشار السجين زميل يوسف أنه هو وحده يمكن أن يخبر الملك عن مضمون هذا الحلم لأن يوسف أخبرهم من قبل وهم في السجن عن مثل تلك الرؤى والأحلام، وهكذا جاء انتصار يوسف على الكهنة والدين انتصاراً ساحقاً ومثله انتصار محمد ﷺ عندما أخبرهم بأمور أهل الكهف وما سألوا عنه.

- إن مشكلة المعاصرة والفكر الديني بعامة إنما تنحصر في الثقافة التي كانت سائدة وقت نزول الكتب السماوية: التوراة والانجيل والقرآن، إذ نتبين أن الفكر الإنساني كله كان مصبوباً في تلك الثقافة الدينية ومثله في ذلك مثل الدور الذي لعبته الفلسفة في احتضان كل علم عند ميلاده ولذلك نجد الكثير من أهل الرواية لا يستطيعون تحديد الموضوعات المقابلة في المعاصرة لما ورد في الألوهية والربوبية لأنها جميعاً مصبوغة بالصبغة الدينية والعقائد المشحونة بالعواطف، والعواطف والتطرف في الشعور الديني رغم أنها جميعاً لها المقابل العصري كما تبينا من إمكان رد الربوبية إلى موضوعات عِلم النفس الفردي وتطبيقاته في التربية والقدرات الروحية التي يحدثنا عنها كتاب «الر» كما يقص علينا قصص يونس وهود وإبراهيم ويوسف.

- تلك المهمة الكبرى التي يستطيع أهل الدراية القيام بها لم تعد من اختصاص رجل الدين، والقرآن نفسه قد حمل حملة شديدة على رجال الدين من الأحبار والرهبان والإمام لأنهم لا يؤمنون بالتطور والفكر الحر ويخضعون كل فكر للقوالب السلفية وما عندهم من أعمال اللاهوتيين، وحقيقة الأمر ليست كذلك بل إن الفكر والإبداع الإنساني لا قوالب له ولا قيد عليه وشاهد محمد ﷺ والقرآن وهو الأمي الذي ليس له من علوم

الأديان شيءٌ هو الفيصل في تلك المسألة.

- كما نشأت العلوم كلها في أحضان الفلسفة يريد القرآن أن يفتح الباب أمام الدور الذي يمكن أن يلعبه الدين حيث ينشأ الحب والسلام والمساواة والأخلاق والإخاء في أحضان الأديان فيكون من ذلك رحمة لا نقمة كما هو عند العنصريين من أهل الأديان.

- إن قول القرآن في الربوبية بالنسبة للأنبياء والرسل والقدرات الروحية إنها من إرادة الله وإنه خصهم بذلك حتى نتبين أن العباقرة لا يصنعون إنما يولدون بعين ورعاية السماء، هو نفسه لا يتعارض في تطبيق الفطرة على الآخرين وإنما اكتسب هذا الأمر هؤلاء لأنهم آمنوا وأسلموا لتلك الفطرة، وبذلك جعل القرآن الاعتقاد والإيمان هو الشرط الوحيد للدخول إلى رحاب هذا الملكوت الذي جاء منه الأنبياء والرسل ولهذا يقول القرآن في المبدأ﴿**إن كل نفس بما كسبت رهينة**﴾ ولو أنهم آمنوا لكان لهم مما كان للرسل والأنبياء.

- تلك المسألة تقودنا إلى بيان أهمية العقيدة والفرق بين المسألة ووضعها العلمي ووضعها الديني. إن الإيمان يخلع على القضايا الطابع الروحي الذي لا يقهر حتى يجعل من نوح ومن هود ومن محمد ﷺ وأمثالهم أسوة حسنة في الصبر والعزم والجلد الذي لا تلين له قناة وهذا هو فضل الدين على العلم الذي يأخذه صاحبه بالتسليم والتبلد.

- قد يجتمع للعلماء معارف علم النفس الفردي ويجتمع للرجال الإيمان ومعارف علم الربوبية فهل نتوقع أن يكون السلوك واحداً عند الطائفتين؟ إن الإيمان يخلع على القضايا قوة هائلة من الشوق والجذب والعزيمة التي لا تقهر ولذلك انتصر الرسل بقوة الإيمان رغم كل الصعاب والعقبات.

- أن تجعل من المعلومة العلمية ديناً وعقيدة فهذا هو الوعي الإيماني وهو

الذي يدعونا إليه القرآن وهو نفس البوتقة القرآنية التي انتصر فيها العلم مع الإيمان فأخرج لنا درة الوجود كله محمداً ﷺ الذي استطاع أن يجمع بين الدين والتدين والعلم والمعرفة بكل ما تعنيه تلك المعرفة من المادية والجمود.

- هذا التناقض الذي رأيناه بين القول بالروحية والقول بالعلمانية والسنن والنواميس والفطرة قد رفعه القرآن من خلال خصيصة الإيمان إذ هو وحده الذي بفضله أنجب إبراهيم على الكبر وزكريا على الشيخوخة ومريم رغم أنه لم يمسسها بشر وأن القرآن يضرب المثل بقوة الإيمان حتى أحيا عيسى الموتى بإذن ربه ولم يكن ذلك كله إلا تحطيماً لكل سنة ولكل ناموس ولكل فطرة.

- في دنيا الأشياء تأخذ الناس السنن والنواميس ولكن في دنيا النفس ليس هناك وسيلة إلا الإيمان وهو الذي يفجر الطاقات والقدرات، وكأن القرآن يقول لنا إنه لو كان لكل خلق سنة وناموس فناموس موسى النفس البشرية هو الإيمان وحده وما أن يؤمن الإنسان حتى يرى الملائكة ويرى عالم الغيب بين يديه ولن يعجزه أن يكون نبياً أو رسولاً أو خلقاً مما يكبر في أذهان الناس.

البراهين التي حملها نسق «الر» في سورة «يوسف»:

- إن من الأهمية أن نتبين في الهيمنة تحول القرآنية من مسألة الألوهية لإثبات مسألة الربوبية حيث يوضح أن الإنسان كما يحتاج لإله فإنه يحتاج لرب وهذا ما نراه في ترافق الربوبية للألوهية في كثير من الموضوعات ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس مَلك النّاس إلَه النّاس**﴾[1] لأن الألوهية كانت دائماً مدخلاً لكل شرك سواء كان ذلك شرك العقيدة أو شرك الفعل.

---

(١) سورة الناس الآيات ١ - ٢ - ٣.

- أوضح القرآن في رؤى يوسف والشمس والقمر والكواكب الساجدة له أن العقل الفطري الباطن في كل نفس يولد تاماً كاملاً واعياً حتى لمستقبله قبل أن يتحول ذلك في مسيرة الحياة إلى مركز اجتماعي وشخصية متميزة.

- مثل تلك الرعاية الربانية التي شملت يوسف وهو ما زال صغيراً هي نفسها التي يحكي القرآن عنها بالنسبة لموسى الطفل حيث ألقى عليه ربه محبة منه بحيث كان من يراه فلا بد أن يحبه من أجل التدبير لتربيته في بيت فرعون وهو عدوه وعدو قومه.

- إن هذا اللطف والخبرة لما يشاء الله ويريده لا يعرف حكمته إلا من خبر تلك الأحداث الربوبية ولذلك يشرح القرآن أن الله ما جعل من قصة موسى وتربيته في قصر فرعون ثم هروبه إلى أهل مدين ومثل ذلك خروج يوسف وتآمر أخوته لقتله كان ذلك كله سبباً ليجعل الرب منهما رسولين كريمين وكأن القرآن يقول إن الشدائد هي التي تتيح الفرصة لقوى الإنسان الذاتية كي تعبر عن نفسها هذا التعبير الذي يظهر لنا في كمالاته وعظمته.

- إن ما يراه الناس غير ما يراه الرب ولذلك كان القوم زاهدين في يوسف حتى إنهم باعوه بثمن بخس جداً وهي عبارة عن دراهم قليلة ولم يدركوا أنهم بين يدي رسول كريم لنعرف من ذلك أن استهانات الناس بأقدار الإنسان هو حماقة كبرى حتى يقول: رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره.

- إن بيان أحقاد أخوة يوسف وتآمرهم إنما يقدمه القرآن لنعرف ما يكتنف الانسان في الظروف الأسرية والاجتماعية من الغبن ولو كان هناك مبدأ للتكافؤ والحرية والرعاية لأمكن تحقيق التقدم دون معاناة أو صراع.

- قدم القرآن لبيان تفسير رؤية يوسف وقوله إن الله سيتم نعمته عليه كما أتمها على آبائه وأجداده ابراهيم واسحق لنعرف أن الإنسان كما هو في الطبيعة

وراثة وتحدراً ولكن من خـلال خصيصة الايمـان إذ من الممكن أن يعمل الإيمان كعامل وراثي عندما تكون الفطرة أهلاً لذلك.

- أن المسألة في الوراثة عند الحيوان والنبات انتقاء وطفرة كما أوضح دارون في التطور وهي نفس المسألة في الانسان وقواه الروحية والعقليةوالنفسية، ولكن المشكلة التي يحددها القرآن بكل الوعي هي كيف يعرف الناس أن فـلاناً من النـاس بعينه هـو الفطرة المنتقـاة ليوسف ومحمـد ﷺ ومـوسى وغيرهما.

- هنا نتبين مقصد القرآن من الهيمنة وأنه يريد رفـع وصايـة الوالـدين ورفع وصـاية المجتمع ورفع القيود من أي لون وأي شرك حتى تتحرر الفطرة وتعبِّر عن نفسها من التلقائيـة والحريـة وليكون من ذلـك تلك البيئة التي تتبنى مثـل هؤلاء الأفراد الممتازين الذين خصتهم الطبيعية بتلك الفـطرة الروحية لأنها كما يقول «لا مارك» لا يمكن أن تحدث من خلال عوامل البيئة وإنما هي روح تنبعث رغم شتى المتضاربات والعوائق. ولذلـك كان مستقبـل موسى ومستقبـل يوسف مرهوناً بتلك الـروح التي شملتها بـالـرعـايـة رغم كـل المؤامرات والدسائس والفتن حتى صار كل منهما رسولاً كريماً.

- مَنْ مِن الناس يعرف أنه ربيب السماء بذاته هو؟ لا أحد يمكن أن يتنبأ ومن كان يستطيع أن يتنبأ بملك يوسف أو خطورة وعظمة موسى أو جلال وكرامة محمد ﷺ وهو يتيم أبي طالب؟

- تلك هي المشكلة ولذلك يقص القـرآن قصص يوسف وفي كـل مرة رغم تآمر ورغم كل الظروف يخرج منها يوسف رابحاً سـالماً صـاحب المركـز الممتـاز حتى التي راودته عن نفسهـا تقف بين يـدي الملك وتعلن بـراءة يوسف ونصاعة ونظافة قلبه وضميره.

- لنتبين معنى التربية الحرة أن يوسف نشأ بين قوم أغراب عن عشيرته وعن

معتقداتهم ورغم ذلك نتبين عندما وقع في الفتنة بين يدي امرأة جميلة وسلطان وشهوة،أن ربه في هذا الوقت بالذات أوضح له البرهان فيما هو مقدم عليه ولولا ذلك لغرق في الفحشاء ولذهب مستقبله كله لنتبيّن أن الفطرة هي التي تهدي وأن القلب هو الذي ينير وأن السليقة هي التي تعلم الإنسان ومثل ذلك محمد ﷺ الأمي الذي لم يكن له من حظ التربية إلا الحرية والفطرة وربه الكريم.

- يقول القرآن في حادثة تدبير يوسف لحجز أخيه بجواره إنه دبر موضوع سرقة بنيامين لصواع الملك كي يكون من ذلك ذريعة بقائه في مصر، ورغم هذا التدبير فقد فشلت خطة يوسف وأوضح له الملك أن بنيامين بريئ من السرقة ليقول القرآن لنا إن مجد يوسف لم يصنعه يوسف ولو كان يوسف هو الذي صنع المجد لنفسه لأمكنه إحكام تدبير حادثة السرقة، ولذلك فإن مجد يوسف إنما يرجع لربه ولا دخل ليوسف فيه وهي إرادة رب العالمين لكي يعرف الناس أن تلك الأحداث التي تجري بتدبير الناس ليست هي التي تسيطر على حياتهم وإنما تسيطر عليها تلك القوى الباطنية التي جعلت من محمد ﷺ ومن يوسف من قبل هذا الشأن العظيم.

- ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ هذا هو تدافع الناس في العقل المكتسب بالتجربة والتعلم،لكن المسألة مختلفة عند العقل الباطني الفطري فهو سيد المعرفة بلا منازع وهو دائماً في القمة ولذلك أورد القرآن عند المحن والشدائد سيطرة الأنبياء والرسل حتى اعتقد بنو إسرائيل وقد حوصروا بين فرعون وجنوده من جانب والبحر من جانب آخر أنهم هالكون لا محالة جاءهم موسى بالخلاص والنجاة وعندئذ ضرب البحر بعصاه فكان كل فرق كالطود العظيم لنتبين ما يمكن أن يفعله أمثال محمد ﷺ من الأنبياء والرسل وأمثال نيوتن وأينشتين وماركس وفرويد وكل المخترعين وكل المبدعين من العباقرة والمفكرين الذين خصتهم الفطرة بهذا القدر

العظيم من الروحية والعلم والمعرفة.

- ﴿إِنَّ الله غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاس لاَ يَعْلَمُون﴾ ـ قد يعتقد الناس أن ما يضعونه من عوائق أمام الفطرة سيكون عقبة في ازدهار مثل تلك الفرديات والمسألة ليست كذلك إذ بيَّن القرآن أن كل المكائد انقلبت نفعاً بالنسبة ليوسف حتى دخوله السجن كان فاتحة لشهرته العلمية من تفسير الأحلام حيث عرف عنه زملاؤه السجناء أنه لديه تلك المقدرة الفريدة والتي كانت سبباً لاستقدامه عند الملك وتفسيره للكابوس الذي أقض مضجعه وكان ذلك وسيلة لاعتلائه عرش مصر.

- إن الإنسان عالم بالفطرة ونفس الفطرة تدافع عن وجودها بل تتحدى المجتمع وسلطته وهي لذلك في صف يوسف وصف محمد ﷺ ولن تهزم أبداً ولو أن الناس تركت الحرية في التربية للفطرة لكان لكل فرد من النوع الإنساني فضل معين كما أخبرت بذلك «الر» في نسق «هود» من قبل ولكن المشكلة أن المجتمعات تفرض سلطانها وعقائدها وتشرك بالله ما لم ينزله به سلطاناً.

- إن الكمالات الجسمية والنفسية والعقلية التي يحدثنا القرآن عنها ليوسف إنما أوردها القرآن لنتبين صبغة الفطرة والإيمان وأن جمال الإنسان ليس في شكله ولا في لونه ولا في لبسه ولا في ماله وإنما جماله في الفطرة والروح التي تسبغها على الإنسان المؤمن بربه ونفسه حتى قالت النسوة عندما رأين يوسف ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم لنتبيّن.أن القرآن عندما يقول لمحمد ﷺ ﴿لاَ تَمدنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهم﴾ من الهيئة أو الجمال أو القوة إنما كان يريد أن يصرفه عن تلك القشور والديكورات وأن ينظر إلى نفسه من خلال هذا الفيضان الروحي الذي يضيفه الإيمان عليه وأنه هو الجمال الحق الذي يقع فيه حتى النساء أنفسهن.

- هذا الجمال الروحي هو جمال آسر أخاذ وهو يسحر المرء حتى لا يتبين إن

كان هذا الجمال لكمال الجسم أو لبهاء الروح وتلك العزة الربانية التي لازمت يوسف ومحمداً ﷺ منذ الصغر هي نفسها التي أضفت على يوسف تلك الحضرة التي قطعت النساء فيها أيديهن دون وعي أو شعور.

- يقول القرآن إن رب يوسف قد سمع ورأى ما تعرض له من خلال مكيدة النسوة في قصر العزيز ولذلك استجاب لدعائه لبيان أن الإنسان ما أن يؤمن بالفطرة الباطنة والقوة النفسية والعقلية التي أودعت فيه حتى يكون سمعه هو سمع تلك القوة وبصره هو بصر تلك القوة وهي قوة لا تقهر ولا تتخلى عن صاحبها أبداً، ولذلك لبث يوسف في السجن بضع سنين زيادة عندما اعتمد على صديقه الذي أوصاه أن يطرح قضيته أمام الملك ليعرف الناس أن محمداً ﷺ هو بعين السماء ورعايتها وأنه سيكفيه مكائد المشركين والكافرين.

- إن الاعتماد على الذات قد تبينت قيمتها في العصر عندما نهضت ألمانيا واليابان بعد الهزيمة الساحقة في الحرب العالمية الثانية ولولا ذلك ما قام للألمان ولا لليابان قائمة ومثله ما فعله الروس وأصبحوا بفضله القوة العالمية ليعرف الناس أن هذا هو المبدأ الحق وأن الله وحده هو رب العالمين ولا يمكن أن يحصل الناس على النجاح إلا من خلال القوة الذاتية التي يحدثنا عنها قصص يوسف ومثل ذلك ما فعله رب محمد (ﷺ) إذ نصره على الكثرة وهو ثاني اثنين في الغار عند الهجرة.

- في كل عقبة وفي كل مؤامرة وفي كل دسيسة وفي كل المآزق ينهض الفعل الذاتي ليبين القرآن أن ذلك فطرة وسنة وما أن يؤمن الإنسان بربه حتى يكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ما دام على الحق والايمان.

- يوضح القرآن إن يوسف ما فعل ذلك إلا لأنه كان على منهج وعقيدة آبائه الذين دانوا للحرية والفطرة وهي ملة جرت فيهم عند ابراهيم واسحق

ويعقوب إذ رأينا إبراهيم يهاجر بالحرية ودين الفطرة حتى سمي ابراهيم العبراني لأنه كان دائم التجوال والرحال ساعياً إلى ربه وحريته وما بني ابراهيم بيت الله الحرام في مكة إلا ليكون من هذا البيت شعاراً للناس حتى جعله بيئة آمنة توفر للناس على الكافة أجمل ما في فطرتهم من الحرية والسلام.

- إن القرآن قد قدم آباء يوسف إبراهيم واسحق ويعقوب لبيان فساد معتقدات اليهود في الشعب وادعائهم أن الأمم الأخرى لا يدخلون حظيرة الإيمان لأنهم ادعوا أن الإيمان من حقهم وحدهم ولذلك جاء نسب محمد ﷺ وهو من الأميين من خارج الشعب إلى ملة آبائه إبراهيم وإسماعيل لبيان أن المسألة ليست في الشعب والعنصرية وإنما هي في العقيدة وأن مثل يوسف وما حدث له مثل محمد ﷺ وما يلاقيه من المكائد والدسيسة.

- يوضح القرآن من مواقف يوسف والقصص أنه كان أميناً فلم يخن عندما رادوته المرأة، وكان صادقاً عندما قال الحق وكان محسناً عندما فسر للملك تلك الرواية، وكان عالماً عندما استطاع تأويل الحلم ليبين القرآن أن فطرة محمد ﷺ الصادق الأمين العالم المحسن هي من نفس فطرة يوسف وهي دائماً فطنة في الفطرة والإنسان الرباني يتمتع دائماً بكل الأخلاق والصفات الحميدة حيث تذهب تلك الفطرة عند التربية الاجتماعية السلفية والتراثية والتقاليد والعادات حيث يضطر الناس للكذب والنفاق والتآمر ويذهب كل ذلك بالفطرة التي يحدثنا القرآن عنها.

- إن من يتقّي ويصبر فإن العاقبة له ومثلما انتصر يوسف في نهاية الأمر كذلك سينتصر محمد ﷺ والذين آمنوا بربهم ليكون من قصص يوسف وما حدث له عبرة وعظة حتى تحققت رؤية يوسف التي رآها وهو ما يزال صغيراً بعد عشرات السنين لنتبين أن الإيمان بالرب وبالنفس وبالقوى الذاتية الخلاقة هو شيء خطير وكبير وغاية في الأهمية حتى يقول محمد ﷺ لمن ساومه

على ترك هذا الأمر «والله يا عم لـو وضعوا الشمس في يميني والقمـر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته أبداً حتى أهلك من دونه أو يظهره الله».

- بعد بيان قصص يـوسف يقول القـرآن إن الله هو العليم الحكيم لنتبين أن الرب الذي خلق كل إنسان هو الذي يعلم فضائل النـاس وأقدارهم وهـو الحكيم الـذي يضع رسـالته حيث يشـاء ولو كـان في قريش من هـو أهل للرسالة كما ادعوا لجاءته الـرسالـة دون أن يكون لـه إرادة في ذلك، ولكن المسألة ليست بالجاه أو السلطان والأموال وإنما هي باختيار الله وإرادته وقد يجعل من يتيم أبي طالب ملكاً وقد يجعل من صعلوك أمبراطوراً وقد يجعل من يجعل من محمد من دون الناس جميعاً رسولاً ونبياً.

- لم ير بنو اسرائيل بَمعيار المال أو المركز فضلاً لطالوت ولكن الله قد أتاه من قوة الجسم وقوة العقل والصفات الذاتية ما يفوق المـال والمركـز ولذلـك جعله الـرب ملكـاً على الشعب قبلوا ذلـك أم أبـوا لنتبيّن أن المعيـار في الربوبية هو معيار القدرات الذاتية وهي اجتمعت لمحمد ﷺ من فضل ما أوتي من علوم القرآن ورجاحة العقل وسلامة الضمير والوجدان.

- إن هذا الاختيار الذي يتم في الأفراد بحسب القدرات والصفات يؤكـد لنا أن الله ذات تسمع وذات تبصر وذات تعلم وذات تحكم وذات تختار وذات تـريد ولـذلك يـزيل القـرآن الحوادث والآيـات بالسميـع العليم أو العليم الحكيم ليقول إن المسألـة بيد الـرب الذي لا يعلم أسـراره إلا العارفـون الـدارسون للتـاريخ وللحوادث، ولـذلـك كـان قصص يـوسف هـو أحسن القصص في القرآن كله لأنه أوضح للناس أن محمداً ﷺ سينتصر عاجلاً أم آجلاً.

- نتبيّن من ذلك أن الهيمنة عندما تضمنت الأسمـاء الحسنى الرمـزية فـإنها أوضحت لنا الذات الإلهية لله ولكن في مجال الذات المجردة والتي تؤكد

وجـودها في الفكـر كمـا نـزل في كتب «الم» و«الـر» و«المص» وغيرها، وأوضحت كذلك من التنزيل بالمثاني مثل السميع البصير وغيره أن الله ذات وروح تاريخي مثلما قدم القرآن حوادث التاريخ القومي حـوادث التاريـخ الأمي، وأنه كذلك ذات روح وقتي يخلق الحوادث الزمنية والوقتية والمكانية وكما يعلم الكليات فإنه كذلك يعلم الجزئيات ويعلم ما يدور بين الناس في حياتهم اليومية، ولذلك يقول القرآن في الهيمنة والقوامة على أمور الناس إنه هو «الحي القيوم» والذي برهن على ذلك نزول الحواميم السبع في معنى «ح» «حي»، «م» «مهيمن» أي الحي المهيمن لنتبين أن الله غالب على أمره آخذ بناصية العباد وهو محيط بكل شيء وهو محيط وملم بكل خافية وهو يعلم السر وأخفى من السر وهو يدرك الناس ولا تدركه الناس.

○ تأكد من حوادث قصص يوسف أن الله عليم حكيم وأنه السميع العليم وأنه غفور رحيم وأنه أرحم الراحمين وأنه خير الحافظين وهو يهيمن على كـل شيء وعلى الناس ومكرهم وخداعهم ودسائسهم ونفاقهم ولن يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ورغم ذلك يقول القرآن لمحمد ﷺ إنه حتى ولو حـرص على هدايـة النـاس فلن يجـد منهم إلا قليـلاً يـرتضـون الإيمـان والحرية.

○ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

○ لولا تدارك محمدٍ ﷺ رحمة من ربه ولولا صموده وصبره وجلده. ولولا إيمانه الراسخ وثقتـه في نفسه والتي بـلا حدود لمـا قرأ حكمـة القرآن والـوحي والتنزيل في نسق «يـونس» ونسق «هود» ونسق «يـوسف» ونسق «ابراهيم» حتى ثبت الله قلبه ليتبين أنه «الر» الرحمن وأنه هو الذي شمل كل أولئك

(١) سورة يوسف: الآية ١١١.

الرسل بالعناية والرعاية والنصر حتى إذا دعاهم إلى الرحمن «قالوا وما الرحمن» لنتبين أن القرآن ما قدم المعرفة والعلم وحملها اسم الله الحسنى إلا لتكون عقيدة لمحمد ﷺ في الذات الإلهية والرب وليكون من ذلك إيمان المؤمنين وعمل الصالحين وثقة الله عند الصديقين والشهداء المخلصين.

- في كل حدث وفي كل موقف وفي كل شدة وفي كل حرج زعزع الناس تعبد القرآن باسم من أسماء الله الحسنى حتى إذا اشتد الأمر دعا المؤمنون الرحمن ليكون لهم عوناً ونصراً ومثل ذلك اشتد بالناس الطغيان دعا المؤمنون العزيز الجبار ليكون لهم عزاً وملجأ وكذلك ما أن يقرأ المؤمن «الم» أو «الر» أو «حم» إلا وقلبه متعلق برب العالمين لنتبين مدى أهمية تلك الأسماء في الفكر والعقيدة القرآنية وكأن الوحي القرآني يقول لمحمد ﷺ إنه لا يوجد شيء إلا بقوة الله وسلطانه ليعرف أن الله مهيمن وغالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولا يفهمون ولا يعقلون أيضاً.

- ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١).

- يقول جاليلو عندما خرج من المحاكمة التي أقامها له رجال الدين والكنيسة إن الأرض ستظل تدور حول نفسها رغم ذلك لنتبين بعد مئات السنين الخزي والعار على رجال الدين والكتب عندما أعلن البابا سنة ١٨٩٥ أن جاليلو كان على الحق وأن الكنيسة كانت على الباطل.لنتبيّن انتصار الفطرة في شخص محمد ﷺ وغاليلو وعلمانية نيوتن واينشتين وآباء المعرفة الفطرية الذين أثروا الحضارة والإنسانية في كل فرع من فروع المعرفة لنتبين أن محمداً ﷺ كان على الحق المبين ومثله في العلم مثل ما

(١) سورة يوسف: الآية ١١٠.

كان بين يدي يوسف من علم النفس وسلطانه ولذلك لا يؤمن الإنسان بربه والفطرة حتى يكون الملكوت بين يديه كما كان هذا الملكوت نفسه بين يدي رب الإنسان المبدعة عند بدء الخلقة أيضاً.

- هل يعجز الذي فطر السموات والأرض منذ اللحظة الأولى والتي لم يسبقها خلق ولا إبداع ولا وجود أن يهب الإنسان من ملكه وعلمه وقدرته ووحيه وإبداعه؟ هل القرآن وقدرة محمد ﷺ الروحية وما كان من الوحي لديه هو شيء بعيد المنال عند فاطر السموات والأرض؟ لقد تبيّن للناس أن الله أبدع هذا الملك دون سابقة ودون أن يكون له مشابهة والعجيب في قدرة رب الإنسان أنه خلق وأبدع كل ذلك حتى صار عرشاً وملكاً وملكوتاً إنما خلقه من مادة واحدة هي «الماء» فقد كان عرشه على الماء ليبلو الناس في قدراتهم وإبداعهم وأعمالهم الصالحة.

لكن المشكلة ليست في قدرات رب الإنسان لأن قدراته قد فصلها للعقل الإنساني فيما خلق من الطبيعة والأكوان وهي قدرة لا تدحض ولا تنكر ولا يمكن تجاهلها وإنما المشكلة في الايمان بهذا الرب وتلك الطاقة الروحية الخلاقة عند الإنسان وإمكاناته ولو كان محمد ﷺ يعيش بيننا اليوم لما رأى عجباً فيما حققه الإنسان والعلم والمعرفة لأنه قد آمن بذلك منذ عرف نفسه على حقيقتها.

- يقول القرآن في نسق «يوسف» كم من آية من آيات الربوبية وقدرة الله في خلقه يمر الناس عليها ليل نهار ولكنهم لا يفهمون معانيها، والقدرات في عالم الحيوان وعالم النبات لا تحصى حتى رأينا في عوالم السرك في العصر الحديث أن الحيوان لا يقل فهماً ولا تعقلاً عن الإنسان متى استخدم الإنسان في تعليمه القواعد الأساسية التي يعمل بها العقل البشري من العلاقات والترابطات والجشطالت لنتبيّن أن القدرات الخلاقة هي قوى

كامنة في كل نفس حتى في نفوس البهائم التي يظن فيها أنها لا تفهم ولا تعقل.

- لكن القرآن وهو يورد عمى يعقوب حزناً على يوسف ثم استرداده لقوة الإبصار عند علمه بخبر يوسف فإنه أشار إلى ما نعنيه اليوم بالأمراض السيكوجسمية والتي تكون من نتائج الصدمات واعتبرها القرآن من رحمة الله ورعايته إذ تخفف تلك الوسائل والحيل النفسية من قوة الصدمة والخوف وما ينتاب الإنسان من هذا الأمر حيث يثبت القرآن أن رب الإنسان به بصير ولن يتركه نهباً للقلق والاضطراب وبذلك جعل الوحي والتنزيل من مثل تلك الآيات السيكولوجية برهاناً على هيمنة الله حتى ليتنسم يعقوب ريح يوسف من قبل أن يأتوه بقميصه.

- في التنزيل بأسماء الله الحسنى من المثاني قد يعلق القرآن على أمراض الخلق والابداع في الطبيعة أو يعلق على أمر من التاريخ أو يعلق على أمر سيكولوجي أو أمر بيولوجي كما في إنجاب مريم لعيسى أو يعلق على فعل من أفعال الشخصيات أو يعلق على مكيدة ومكر أو يعلق على نصر أو دحر، لنتبين معاني ما ينسبه القرآن إلى ذات الله حتى يقول عنه مثلاً فعال لما يريد أو يقول إنه غفور رحيم أو يقول إنه على كل شيء قدير أو يقول إنه يسمع ويرى أو أنه يحيي ويميت لبيان أساليب هيمنة الذات الالهية وكأن تلك الذات الفاعلة في الطبيعة والأكوان والنبات والحيوان والإنسان والتاريخ لها شخصية كونية وشخصية إنسانية، ولهذا لم يتحرج القرآن أن يقول في تلك الذات المشبهات مثل أن يكون لله يد أو وجه مثلما للإنسان وليس ذلك هو التجسد الذي يدعي به اليهود أو النصارى حتى يحترز فيقول ليس كمثله شيء وأن القرآن إنما ينظر إلى تلك الذات من خلال تلك الأسماء من جهة الفعل والسيطرة لا من جهة البحث في الذات نفسها وهو ما صرف الرسول عنه الناس بقوله «لا تتفكروا في ذات الله فتهلكوا ولكن تفكروا في خلقه وما أبدع من الآيات».

- تلك المسألة هي التي جعلت لهيمنة القرآن وجهة عصرية إذ صرفت الناس إلى البحث في الآيات الكونية والآيات الطبيعية والآيات النباتية والحيوانية والإنسانية والتاريخية والسيكولوجية والعلمية والفقهية والشرعية، وأوضح القرآن أن الرسالة السماوية ما هي إلا هذا البحث المضني فيما خلق الله من الآيات والسنن وهما موضوع «يس» أي آيات وسنن وهو نفس ما استحق عليه محمد ﷺ أن يكون من المرسلين ﴿**يس * والقرآن الحكيم * إنّك لمِنَ المُرْسَلِينَ**﴾[1]

- لم يكن نسق «الر» في سورة «يوسف» قصصاً بالمفهوم القصصي وإنما هو بحث في تلك الآيات التي جعلت من يوسف «ملكاً على مصر» بحيث يتبين محمد ﷺ وقومه أن ما جعل من يوسف عزيز مصر هو الربوبية وهي نفسها منهج محمد ﷺ الذي كان من فضله نزول القرآن والوحي على قلبه وسيكون من شأنه مثلما كان لشأن يوسف أيضاً.

---

(١) سورة يس الآيات ١ ـ ٢ ـ ٣.

الباب الرابع

الفصل الأول

نسق «الر» في



سُورَةُ إبْرَاهِيمَ

القضايا ومحمولات النسق:

- ورد نسق «يونس» في «الر» لبيان صدق الايمان وقضيته ونسق «هود» لبيان أن المعبود وحده هو الرب ولذلك أمكن لهود أن يتحدى قومه جميعاً رغم ما لديهم من القوة والبطش، وفي النهاية كان هلاكهم وانتصاره، ونسق «يوسف» لبيان أن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ونسق «ابراهيم» لبيان أن العزة لله جميعاً وهي عزة يحمدها كل الناس لأنها مجلبة لخير الجميع.

- إن ما يجري في أمور السماوات والأرض مرده إلى الله وبتدبيره وعلمه ولذلك ما أرسل نبياً أو رسولاً إلا بلسان قومه ليبين لهم ومثل ذلك ما بين يدي محمد ﷺ من القرآن الذي نزل بلسان العرب.

- إن بعثة إبراهيم من قبل ربه اعترضها مشكلة اللسان واللغة إذ كان ابراهيم يتحدث بلغة غير لغة العرب الذين هاجر إلى ديارهم في مكة ولذلك هداه الله أن يبني بيتاً لله للتعبير عن معتقداته في السلام والأمن والمحبة ولهذا

كان شرط الدخول إلى هذا البيت أن يدخله الناس آمنين مطمئنين من كل اعتداء.

- عبّر إبراهيم ببنائه لهذا البيت الحرام الآمن عن لغة السلام العالمية التي يريد الله أن تكون منهجاً وعقيدة للناس حتى يتحرروا من كل لون من ألوان الشرك والعبودية لغير الله ولهذا أعلن إبراهيم أن هذا البيت حرم على الطغاة والطغيان وأصحاب السلطة والسلطان والناس فيه سواسية أمام ربهم ولا يقربه إلا من يتجرد من المال والزخرف والدنيا.

- هذا البيت الآمن هو قصد الرب وعقائد الله تتجلى فيه والعالمية هي طابع هذا البيت وهو مثل لرب العالمين من العزة والسلطان على الناس كافة ومن دخله فقد دخل آمناً في دين الله وعقائده.

- إن إبراهيم قد أتم بناء هذا البيت ليبين للناس ما عجز اللسان عنه وهو نفس الدور الذي يقوم به القرآن أو غيره من الكتب السماوية من التوراة أو الإنجيل.

- إن الغرض من رسالات السماء هي جعل العزة لله جميعاً وبشتى الطرق وبشتى الوسائل يحاول الأنبياء والرسل بيان ذلك للناس ومثله ما نزل في التوراة وأوضح موسى لبني اسرائيل تصاريف أيام الله مع الأمم ليتبينوا أن العزة لله وحده ولا سلطان لأحد من الأمم أو القوميات أو الأشخاص مع الله.

- إن المسألة في القرآن هي نفس المسألة في كل كتاب وهي نفس المسألة التي جسدها إبراهيم في البيت الحرام وإنما يأتي فضل إبراهيم أنه بنى البيت ليكون صورة مرئية ثم أذن في الناس بالحج ليدركوا معنى عبادة الواحد ومعنى التوحيد ومعنى الرب ومعنى الله وآياته وما يمكن أن يجلب السعادة للناس جميعاً.

- إن كـان البيت الحرام آيـة حسية فـالقرآن آيـة عقلية ومثله من قبـل كانت التوراة والإنجيل لتتبين قصد الرسـالة التي بين يـدي محمد ﷺ وهي من جنس ما أرسل به الرسل من قبل.

- إن أول بيت وضع للناس هو الذي أقامه ابراهيم في مكة وهـو نفسه الأب الشرعي لكل مسجد وكل كنيسة وكل محراب ومعبد بني من أجل فكرة الله وعقيدته لتتبين ريـادة ابراهيم في هـذا المجال وأنـه بهذا العمـل قد سـد الذرائع أمام المدلسين والمحرفين للعقائد في الله حيث جعل الآيـات في هذا العمل آيات محسوسة لكل عقـل ولكل فهم ولكـل سمع ولكل عين، وفصل بذلك بين الشرك والتوحيد وأبان للناس تلك المعـاني الساميـة من عقيدة التوحيد وعبادة الله وحده.

- تلك الآيات البينات والتي أخرجها للناس. بناء هذا الحرم أصبحت شهـادة الميـلاد لكل دعـوة يراد بهـا عبادة الله وحـده وكـل عبـادة لا تحقق الأمن للإنسان فهي عبادة مزيفة، ولذلك يقول القرآن إن الإيمان الخالص هو الذي لم تشبـه شائبـة لأي لون من ألـوان الطغيـان لتتبين المعاني الجليلة التي حققها بناء بيت الله الأول مرة على يدي إبراهيم الذي لم يكتف بذلك بل جعل من ذريته خدماً يقـومون بخـدمة الـزائرين لـه وحتى يقيموا الصـلاة والمناسك للطائفين والعاكفين في حرمته.

- هذا النضال الذي قام به إبراهيم وضحى من أجله بالوطن والعشيرة والذرية والأسرة قد أثمر بقوة رب إبراهيم وتصحيحه والصبر على المصاعب ليكون من ذلك أسوة حسنة لمحمد ﷺ ومن آمن معه.

- إن مجهودات الرسل في بيان قصد الله وعقيدته هي التي أثمرت في مجهود موسى الأمة اليهودية وهي نفسها التي أثمرت البلد الآمن في مكة ليكون من تلك الآية بيان الناس وهو نفس ما يحاوله القرآن في بيانه للناس إذ يدعـو

القرآن إلى الإله الواحد المتمثل في السلام والأمن والمحبة و الإخاء الإنساني أيضاً.

- إن فضل إبراهيم أنه كان أول المهاجرين بعقيدتهم في التاريخ وكان فضله لأنه أسس لأول مرة مدينة الله الآمنة وجعلها بمثابة المدينة الفاضلة المفتوحة لكل أجناس الأرض ولم يكن للمسلمين كما اعتقد فيهم ابراهيم إلا هذه العقيدة ولذلك فبيت الله الحرام في مكة يجب أن يكون لكافة العالمين حتى يعلم الناس ما هي حضارة الله التي يدعو إليها الرسل والأنبياء.
- في تطور معنى الصلاة قدم القرآن تخليد لقاء الرب مع موسى وكشفه له عن الشخصية الرسولية التي يحملها في قلبه وروحه فيقول الرب لموسى ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ أي لتلك الذكرى وهو نسق سورة «ابراهيم» يوضح لنا اهتمام ابراهيم بإقامة الصلاة والشعائر من الطواف والسعي ورجم الشيطان ووصاية ذريته بذلك لنتبين أن الصلاة كشعيرة من شعائر الله ما فرضت إلا من أجل البيان، وليعلم الناس أن شعائر الله والبيت الحرام والمدينة الفاضلة والمفتوحة كل ذلك آيات بينات لما يريده الله ويؤمن به، وما تلك المناسك في الحج إلا إحلالات للطقوس التي كانت للإله قبل أن يبعث الله الرسل ولنتبين من سورة «الحج» أن الصلاة والمناسك ضرورة دينية يتعبد بها الناس كما كانوا يتعبدون بالطقوس من قبل ذلك حتى بيّن القرآن أنه ما من أمة إلا ولها منسكٌ من المناسك يخصهم وحدهم وهي لذلك كالأعلام رمزاً من رموز الكينونة والوجود.
- يقول القرآن في دعوة ابراهيم إنه أراد أن يكون من منهجه وعقيدته أمة لها مناسكها وصلواتها وشعائرها حتى جعل من ذريته سقاة وخدماً وحراساً لبيت الله الحرام وهو الدور الذي كان يقوم به الكاهن والحبر والراهب والإمام لنتبين أن إبراهيم بتركه لذريته حول البيت ووصايته لهم بإقامة الصلاة والشعائر هو أول من ابتدع صلاة الجماعة ومثل ذلك ما خص به القرآن

محمداً ﷺ وأمته بصلاة الجمعة كي يكون من ذلك ،وحدة الرأي العام لخدمة قضية الله في الأرض.

- إن نزول القرآن على قلب محمد ﷺ ما هو إلا مرحلة من مراحل بيان الله للناس وكشفه لهم عن الطريق المستقيم ولن يترك الله عباده حتى يبين لهم ما يتقون والمجهودات التي يقوم بها محمد ﷺ والقرآن إنما تجري في نفس المجرى أيضاً.

- لقد أدرك الرسل والأنبياء المعرفة النفسية الصحيحة وتبين لهم أن الإله الذي يسعى إليه الإنسان لا يوجد خارجه وإنما يوجد هذا الإله في رب الإنسان ولقد بحث إبراهيم عن ربه في الظواهر العظيمة للشمس والقمر وغيرها خارج نفسه فلم يجد ضالته فعلم من ذلك أن ربه لا يوجد خارج النفس وليس له شبيه مادي ومثل ذلك ما بحث عنه موسى حتى طلب أن يرى ربه رؤية العين فكانت النتيجة ما حدث له من الصعق ولذلك تبين له أن وجوده الشخصي إنما هو عبرة من ربه وأن باطن الانسان هو وجوده على الحقيقة وما كانت دعوة الرسل والأنبياء للتوحيد والدعوة لرب العالمين إلا كفاحاً متصلاً لشرح هذا الأمر وتوضيحه للناس.

- إن تلك الدعوة التي دعاها ابراهيم في الله وإقامته البيت وجعل ذريته لخدمة ونمو هذه البيئة حتى صارت بلداً آمناً مطمئناً هي نفسها الطور الذي انبثق في محمد ﷺ والقرآن حتى قال أنا دعوة أبي ابراهيم وملته هي نفس ملته وعقيدته في الله هي نفس عقيدته حتى يقول القرآن إن الذين آمنوا بمحمد ﷺ والقرآن هم الحلفاء لله على امتداد دعوة الحنفية التي أعلنها ابراهيم بين الناس ليكون من الحنفيين أمة يدعون لله غير مشركين به أحداً.

- يقول القرآن إن الله اتخذ ابراهيم خليلاً ليبين لنا مقام ابراهيم في الدعوة من أجل التوحيد والسلام والخلوص من كل لون من ألوان الشرك،حتى

يقول القرآن إن إبراهيم قد صدق ربه في كل شيء ولذلك بادر بذبح ولده لأنه رأى في المنام أنه يذبحه لبيان مدى الإيمان الـذي كان عليـه ابراهيم واسماعيل وأهل البيت رغم أنه لم يكن هذا الحلم من الله وإنما كـان من الشيطان.

- سارع رب إبراهيم لفداء إسماعيـل من الذبـح واعتبر ذلـك عيداً عنـد كل ربوبي يؤمن بالله ونفسه وفطرته وإمكاناته.

- في تاريخ إبراهيم ورحلته مـع ربه وتحـديه لأبيـه وقومـه وللملك وسلطانه وللعبادات والشرك وما كان منه من التجوال والترحال عشقـاً للحريـة حتى سمي ابراهيم العبري وابراهيم الرحالة الذي زار كل بقاع الأرض حتى جاء مصر من فارس وجاء فلسطين من اليمن، وتبين من طاقاته الخلاقة ما يمكن أن يكون منه دين لله في الأرض يقدم القرآن تاريخ شخصيتـه الفذة امتـد أثرها عبـر مئات السنين بـل آلافها وعم ذكـره الأديان كلهـا حتى كان أبـو الأنبياء بحق، وما اليهودية والمسيحية والإسلام إلا امتدادات تاريخيـة لتلك الشخصية، واليهود يدعون أن ابراهيم كان يهودياً والمسيحيـون يدعـون أنه كان نصرانياً والمسلمون والقرآن يطالبون بميراث إبراهيم ملة وعقيدة ليتبين هذا المقام الرفيع الذي احتله ابراهيم في الـدعوة إلى التـوحيد ولا ينكـر محمد ﷺ والقرآن أنه امتداد لإبراهيم ودعـوته ليعـرف الناس أن منهـج التوحيد والقدرات الفطرية وإمكانات وطاقات النفس البشرية لا حدود لها حتى يقول فيه القرآن إن ابراهيم وحده كان أمة بخواصها ومميزاتها وإنه كان في جانب، والعالم كله في جانب آخر وهذا هو الإخلاص الذي يطالب به القرآن.

البراهين التي استخدمها نسق «الر» في سورة ابراهيم:

- يقول القرآن إن المشركين والكافرين لا يلبون دعوة الله التي يدعو إليها محمد ﷺ رغم أنه لو نظر الإنسان في ملكوت الله في السماوات والأرض لوجده كله بأمر الله وسلطانه دون تدخل من خارج ليتبين الناس أن الدعوة إلى الفطرة والطبيعة والتوحيد هي الحق وهو الذي يجب أن يكون منه الدين الخالص والدين الحق والدين القيم.

- إن الدعوة إلى الله يجب أن تراعي بيان آثار رحمة الله سواء كان ذلك في الطبيعة أو الفطرة أو السيكولوجية، وضرب القرآن مثلاً لذلك فأوضح ما قام به موسى لتذكير بني إسرائيل بأيام الله ونصرته لهم على آل فرعون حتى أخرجهم من الظلم والعبودية إلى العدل والحرية وما آتاهم الله من نور التوراة ليتبيّن الناس أن ما يقوم به محمد ﷺ والقرآن من بيان أيام الله مع الإنسان بوصفه الله الخالق أو الله الرازق أو الله المهيمن أو الله الرحمن أو الله الرحيم أو الله العزيز أو الله العليم وغيره مما ورد في أسماء الله الحسنى وما ألحقه القرآن من الحوادث التاريخية والبيولوجية والسيكولوجية وكل العلاقات التي كانت بين الإنسان وربه إنما هو من قبيل التعريف بالله أيضاً. وأن ما فعله موسى وما قام به إبراهيم وما يقوم به القرآن من الجهد المضني في فقه الأسماء الحسنى إنما هو نفس القضية ونفس الموضوع لأن الناس لا تعرف من أسرار تلك الذات الإلهية مقتنياتها واعتباراتها وكينونتها على الحقيقة.

- هذا البيان لله وأيامه وآياته وسننه ونواميسه وفطرته وخلائقه وكائناته وسمائه وأرضه والانسان والنبات والحيوان وكل ما خلق الله من دابة في الأرض أو في السماء إنما ألحقه القرآن كله بذات الله وأسمائه الحسنى حتى لم يعد في القرآن كله إلا تلك الأسماء ليتبين الناس من هو ربهم على أفعاله

وأعماله ومن هو الله على قدراته وإمكاناته ومن هو رب .العالميـن الـذي يدعو محمد ﷺ والقرآن إليه حتى لا يكاد القرآن يقول للناس إنه لا شيء يوجد على الحقيقة في الوجـود كله إلا الله وحده ومـا في السماء والأرض والإنسان وغيره إلا ظلال لتلك الذات الجليلة.

○ لكن ذلك كله لا يفيد الله في شيء لأنه غني عن كل شيء وهل رأى الناس شيئاً من الأشياء أو مخلوقاً من المخلوقات قدكتب له البقاء والخلود لأن الله محتاج إليه فأبقاه معـه؟ إنما يـريد القـرآن من المعرفـة الإلهية أن يعـرف الإنسان انتسابه الإلهي وأنه كائن صغير وضع في الأرض من أجل غرض واحد هو استعمارها وازدهارها ولذلك كان الإنسان موضع رعـاية السمـاء ليس من أجـل نفسه وإنمـا من أجل المسئـولية وخـلافة الله في الأرض ولذلك هلك جميع المفسدين على اختلاف قومياتهم وأجناسهم.

○ ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ليس هناك حدود لطاقات المؤمن بـربه وكم من عالم وكم من مخترع كان بارعاً طويلاً في كل علم وكل اتجاه حتى يكـاد بعض الناس يكون موسوعة علمية وحده كما كان إبراهيم أمة وحده لنتبين قيمة الإيمان وما يدعونا إليه القرآن وما يريد أن يوضحه للناس.

○ ﴿أفي الله شك﴾؟ لقـد رأى محمـد ﷺ الله في النجم والشجـر والـطين والحجر وفي الماء والخشب وفي كل صغيرة وكبيرة وعظيمـة وحقيرة وفي الأجناس والأنواع والتاريخ والحضارة وفي البيولـوجي والسيكولـوجي وفي الأجسام وفي الأرواح، وراح يكشف لنا من كل ذلك سنة وفطرة لنتبين تاريخ تلك الذات الإلهية التي تركت بصماتها على كل آية ليتعلم الإنسان وليثق في الله وربه وليكون من ذلك كله على بينة من الأمر إذ أن تلك المهديات من فطرة السماوات والأرض هي أكبر البراهين في الشهـادة لله حتى يكاد ينطق كل شيء من حول الإنسان قائلاً «الله الله» ورغم ذلك يترك المشرك والكافر الله وملكوته ويطلب القوة في المال أو يطلب العزة في السلطان أو

يطلب الجاه في العشيرة أو يطلب الإيمان في الصنم أو يطلب المعرفة عند الناس والحقيقة ليست كذلك.

○ لم يلمس محمد ﷺ والقرآن شيئاً إلا ووجد وجه الله فيه ولذلك يقول القرآن إن كل شيء يهلك إلا وجهه ولذلك نتبين أن أفعال التسبيح التي يحدثنا عنها القرآن وتقهر الخلائق عليها أنها جميعاً لله ومن أجله وهذا ما وجدناه في التاريخ البيولوجي والفسيولوجي للكائنات إذ ترك التطور حلقات الارتقاء واضحة في الأجناس والأنواع ليكون من ذلك هادياً بالعقل إلى معرفة الله وما من آية من آيات الخلق في السماوات أو في الأرض إلا قامت بهذه المهمة حتى بيّن القرآن أنه ما من شيء إلا ويسبح لله وحده لنتبين مقدار العقيدة القرآنية في الذات الإلهية وأن الله في القرآن قضية تذهل العقول وتحير الألباب وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴿لَه دَعْوَةُ الحقّ والَّذِينَ يَدْعُـون مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيء إلاّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغه ومَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إلاّ فِي ضَلال * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلاَلُهُم بِالغُدُو وَالآصَالِ﴾[1]، لذلك مات محمد ﷺ ومات من قبله من الأنبياء والرسل وبقيت الأعمال الجليلة التي قاموا بها المدعوة إلى الله والتعريف والبيان به.

○ هذه الطبيعة والأكوان والنبات والأشجار والحيوان وما خلق الله من دابة، والإنسان والأجناس والأنواع وما أشرق كل ذلك إلا من وجه الله ولن يتبدى هذا النور الإلهي في تلك الظلمات التي تحيط بالناس إلا من خلال فطرة السماوات والأرض وهي النواميس التي جرت عليها الخلائق ولذلك كان هيام القرآن بالفطرة دون حدود حتى يحتج على المشركين والكافرين في

---

(١) سورة الرعد: الآيتان ١٤ و١٥.

كل قضية بالفطرة والسنن وكأنه يقول للناس إن طلبتم البيان على وحدانية الله فاطلبوا العلم لأنه الوسيلة لإشراق وجه الله، والحقيقة التي تخفى عن أعين الجهلاء ولذلك يقول القرآن في العلماء إنهم هم وحدهم الذين يعرفون قدر الله وسلطانه وهم وحدهم الذين يخشون الله لما بين أيديهم من سنن الفطرة التي يتحدث عنها القرآن.

- يكتشف القرآن أن الطبيعة مطردة ومتطورة ومرتقية من خلال نظرته للأكوان والتطور المادي كما يبدو في الشمس والقمر والنجوم، وما يبدو من سجل التطور في النبات والحيوان حتى يقول القرآن في سورة «نوح» إن الله قد أنبت الإنسان من الأرض نباتاً ثم حدث التطور حتى أصبح هذا الكائن العجيب لبيان قدرة الخلق والإبداع عند الله ثم أنه يخلقه بعد الموت في خلق روحي جديد ومثل ذلك ما ورد في طورسينا من تطور السنن والنواميس حتى استخدم القرآن ذلك في معرفته أن الحضارات التي سبقت مثل حضارة عاد وثمود وغيرها لم يكتب لها التطور والبقاء لأنهم كانوا بكل تأكيد ضد الفطرة والنواميس ولو أنهم كانوا على الفطرة والتوحيد لنمت وازدهرت الحضارة منذ ذلك الحين أو لتركت الحضارات بصمات التطور حتى يومنا هذا، ولذلك اندثرت تلك القوميات ولم تترك هذا الأثر الذي يتركه التطور في الكائنات الفطرية لأن ذلك سنة من سنن الله في خلقه حتى يقول القرآن إن الله عندما خلق السماوات والأرض خلقها على التفصيل والبيان ليتعلم الإنسان من ربه ويهتدي بهديه ولتشارك الطبيعة والفطرة في مسألة البيان مع مجهودات الرسل والأنبياء حتى يقول القرآن إن المشركين يمرون على آيات الله مصبحين كل يوم وكل ساعة ثم لا يفهمونها لجهلهم وسفاهة عقولهم.

- إن كل عالم ساهم في الكشف عن السنن والفطرة قد دخل مجال البيان للناس الذي يتحدث القرآن عنه في نسق «ابراهيم» لنتبين أن دارون وغيره

ليسوا بعيدين عن هذا المجال بل إنهم وحدهم حملة أمانة الرسالة السماوية بالعلم وليس بالدين لأن الدين كوسيلة من وسائل الرسالة قد انتهى عهده منذ كشف القرآن دور العلم والعلماء وها هو يبين لنا في نسق «ابراهيم» أن مسألة الرسالة ما هي إلا بيان آيات الله للناس وما تعنيه تلك الآيات وتلك السنن وتلك النواميس وما يمكن أن يفيد الناس من ذلك كله.

- إن نظرة الفكر الديني إلى موضوع الربوبية بحذر وشك خاصة الفكر الإسلامي لما كان للربوبية في الفكر اليوناني وغيره هو الذي جعل الأمة لا تستفيد من موضوع الرب والربوبية في القرآن مع أنه في أنساق «يونس» و«هود» و«يوسف» «وابراهيم» قد كشف عن إمكانات الفرد وما يمكن أن يكون لهؤلاء العباقرة بالفطرة من أثر في حياة البشرية.

- يقول القرآن إن الله ما خلق السماوات والأرض إلا بالحق وهو يتعلق بأقدار الناس وفضائلهم إذ لا يبقى إلا الصالح ولذلك فإن الله يأتي بالجديد على يدي هؤلاء الرسل والأنبياء والعلماء والعباقرة وهو يبدىء الخلق ثم يعيده لنعرف من ذلك أن الفرد ربما كان حاملاً لأمر من أمور التجديد أو لصفة كمال أو جمال وهو نفسه آية من آيات الله للناس، ويونس كان آية من آيات الإيمان وهود كان آية من آيات التحدي ويوسف آية من آيات المعرفة النفسية وإبراهيم آية من آيات الإبداع والبيان، فلماذا لا يؤمن المجتمع بالحرية الفردية لما لها من الأثر والنتائج.

- يوضح القرآن أن كل إنسان وكل فرد من الناس هو غاية في نفسه لأنه عمل من أعمال الرب وآية من آيات الخلق وكما ينظر الناس إلى زهرة من الزهور ثم يقول«الله» لشدة جمالها وكمالها يحدث ذلك أيضاً عندما يقوم أحد الناس بعمل من أعمال العبقرية، ولذلك دفع القرآن عن المستضعفين ظلم المستكبرين والطغاة وأوضح أن تلك الفوارق الطبقية أو الطائفية أو العنصرية أو الاستعلاء وغيره إنما تفقد الإنسان غاية وجوده، ورب عبقرية

جعلها الله بين يدي أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرَّه.

- إن المسألة تتعلق بفتح الأبواب أمام قوى الطبيعة والفطرة في نفس كل فرد لأن تلك النفس بعينها من الممكن أن يكون استودعها فتحاً من الفتوحات في العلم أو الإبداع أو الابتكار أو حتى في الأخلاق وما ندري ما يمكن أن يكون عليه مصير أحد الأفراد في البيئات الحرة، ورب عبقري ضاعت مواهبه في مجتمعات الاستغلال والظلم والطبقية وما كان قول الكافرين لنوح وغيره إنهم وجدوا أراذل الناس من حوله إلا قولاً فاسداً وباطلاً لأن العبرة عند الله ليست بالمال وقوته أو بالولد وسلطانه أو بالجاه وطغيانه أو حتى بالملك والسيطرة وإنما العبرة بما يكن أن يعمله وأن يبدعه الانسان وهذا هو مصيره الوحيد عند ربه.

- إن الصورة التي ابتدعها إبراهيم من أجل الحرية والديمقراطية والسلام إنما كانت من عقيدته التي اكتشف أثرها في حياته وفي نفسه حتى أنه لما آمن بربه وقدراته والحرية وسلطانها أمكنه في نهاية العمر من الإنجاب ورغم الشيخوخة ورغم كل العوائق البيولوجية لنتبين أن الطاقات النفسية والروحية هي حياة الإنسان الحقيقية وهي التي تشكل مصيره بين يدي ربه.

- من جهل الناس بالربوبية أنهم يعتقدون أن المنجزات العصرية للحضارة الغربية لا تمت بصلة إلى الإيمان، ولذلك يعادونها رغم أنها جميعاً من نتاج إبداعات الفردية وهي نفسها قضية الربوبية في الفكر الديني بل إنها هي الفكرة الدينية التي قرَّرها القرآن حين تحدَّث عن الدين الحق والدين الخالص والأديان التي بنت عقائدها جميعاً على الربوبية وأعمال الرب لنتبين أن المفهوم المغلوط للأديان عند الجهلاء يخلق هذا التصادم الحضاري بل إننا نجد حتى الآن من أئمة الفكر الديني الكبار من يعتقد أن تلك الحضارة قد أحلت العلم محل الإيمان وهو خطأ كبير لأن

المبادئ التي تقوم عليها من الحرية الفردية في الإبداع والابتكار والعمل والإعلاء من شأن العلم والعلماء والطبيعة والفطرة كلها هي المقومات الأساسية لدين الحق والدين الخالص والإيمان بالرب.

- لم يلتفت الباحث في القرآن إلى أهمية التحول من الألوهية إلى الربوبية حتى إذا ذكر الإله قال القرآن إنه الرب لتحقيق مبدأ الفردية والحرية وجعل الإنسان في مواجهة دائمة مع نفسه وكأن القرآن يقول للناس إن طلبتم الألوهية فاطلبوها في أربابكم وأنفسكم وستجدون أنه لا إله إلا رب الإنسان.

- ليس هناك ند لله والطبيعة والفطرة بحيث تكون السلطة التربوية للآباء أو للمجتمع أو الطائفة أو للديانة أو يكون الأمر لسلطان جاء أو حكومة طاغية أو نظام طبقي أو عنصري أو حتى نظام فاشي ولذلك ما إن يحدث الجور على الفطرة بأي لون من تلك الوسائل حتى تلتهب الحروب وتقوم الثورات وتتأجج الفتن ليعلم الناس أنه لا إله في الحقيقة إلا الرب وحده رب كل شيء بل رب العالمين أيضاً.

- من أخطر الأمور في الربوبية أن لا نتبين أن الأصل هو الحرية. الدلالة على ذلك أن الله نفسه لم يكن الهاً إلا من خلال الهيمنة حيث جعل من نفسه المهيمن والعزيز والجبار والمتكبر في مواجهة الكفرة والطغاة وهو في نفس الوقت الرحمن والرحيم للمؤمنين ومن تبع طريقه المستقيم بل كتب على نفسه الرحمة والمغفرة والتوبة وغيرها وهي أبواب الحرية للناس أيضاً.

- **﴿بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم﴾**[1]، ـ هذه الربوبية وليس فيها قيد واحد على الإنسان بل إنها ضمنت في الرب الرعاية والرحمة وكل ما يفتح أمام الناس حتى يبين القرآن

---

(١) سورة الفاتحة الآيات ١ ـ ٣.

في سورة «الناس» أن الله لم يكن إلهاً للناس ولا ملكاً لهم إلا لمواجهة وسواس الشيطان وأتباعه ﴿قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النّاسِ * ملك النّاس * إلَهِ النّاس * مِنْ شَرّ الوَسْوَاس الخَنّاس الذي يُوَسْوِسُ فِي صُدورِ النّاسِ مِنَ الجنّةِ وَالنّاسِ﴾. ـ وتلك هي ضمانات الله للحرية ولولاها لفسدت الحياة لفعل الطغاة والمجرمين وما من آية من آيات الربوبية إلا ووردت لضمانة الإنسان حتى أن رب الإنسان قد ضمن له أكبر المفاجآت إذ سيبعثه حياً بعد الموت وبعد الفناء مرة أخرى.

○ يحتج القرآن لقدرة الله رب الإنسان فيقول ﴿الله الّذي خَلَقَ السّمَوات وَالأرض وَأنْزَلَ مِنَ السّمَاء ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ منَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وسَخَّرَ لَكُم الفُلك لِتَجْري فِي البَحْرِ بِأمْرِهِ وسَخَّرَ لَكُم الأنهار * وسَخر الشَّمْس وَالقَمَر دَائِبينَ وَسَخّرَ لَكُم اللّيْلَ والنَّهارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كلّ مَا سَألْتُمُوه وَإنْ تَعدّوا نِعْمَةَ الله لاَ تحْصُوهـا إنّ الانْسَان لَظَلومٌ كَفّارٌ﴾[1]، ـ أفبعد ذلك كله يطلب الإنسان العون من الطبقة أو من الفئة أو من الطائفة أو من الأسرة أو من النظام والحكم أو من الجاه أو من الولد أو من المال أو من مما يملك من العقارات والأطيان وغيرها مما يعتقد فيه أنه يغنيه ويكفيه؟

تلك الثقة في النفس وما للرب من الآية في خارجها إنما يتلوه القرآن من أجل قضية الإيمان وقضية الإمكانات وقضية الولاية وقضية الرعاية ولن يستطيع الانسان أن يجد من دون الله خارج نفسه وطاقاته السند الذي يغنيه أو يكفيه مهما كان لتلك الوسائل من سلطة أو سلطان.

○ إن كمالات العالم الطبيعي وما أسبغ الله على الإنسان من النعم وما سخر الله له من ملكوت السماوات والأرض لهو الشاهد الحيُ على أن ما يدعو إليه القرآن من التوحيد والاعتماد على الرب والنفس هو وحده الذي يضمن

---

(١) سورة ابراهيم: الآيات ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤.

لحياة الناس ازدهارها وجعل السنن والنواميس طوعاً لإرادة الإنسان ولذلك ما إن فتح الله على الإنسان في عصور النهضة الأوروبية أبواب الربوبية وما أودع الله من الآيـات في النواميس الـطبيعية حتى تفجـر العلم الإنساني بـالإبداع والابتكار والتقدم كما نراه اليوم في مجالات غزو الفضاء وأسرار الذرة وتكنولوجيا الأقمار الصناعية وإن ذلك كله قد تنبأ به القرآن في منهج الربوبية التي أشرقت بنورها الأكوان وكأنه يقول لنا إن ما يحتاجه الإنسان ليس الآلهة وإنما يحتاج إلى الرب وهو وحده الذي يغنيه حتى يقول القرآن في ذلك ﴿**كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾أي عندما يرى ربه على وجه اليقين والحقيقة فإنه يستغني به عن كل شيء سواء كان ذلك جاهاً أو سلطاناً أو مالاً أو ولداً لنتبين مدى عقيدة القرآن في الإنسان وقدراته وآماله بحيث جعل القرآن هذا الكائن البشري محوراً للوجود كله، بل جعله غاية لكل ما خلق الله من الشمس والقمر والنجوم والألوان والنبات والحيوان والبحر والنهر والجبال وما أودع الله من الأسرار في الفطرة والسنن والنواميس وعالم الأمر والشهادة وعالم الخلق والغيب والملكوت أيضاً.

- إن من لم يدرك قيمته كإنسان لم يدرك حلاوة الإيمان ولا طعمه ولا رائحته وهي طعـوم لا يـدركهـا إلاَّ من عـرف نفسـه وخبـر قـدراتهـا من أمثــال محمـد ﷺ من الرسـل وأينشتين ونيـوتن ومـاركس وفـرويـد وداروِن من العباقرة وهم جميعاً لم يكونوا إلا من بشارة محمد ﷺ والقرآن حتى لـو ولـدوا خارج الأمـة وخارج الإسـلام وقد علم الله سبحـانـه وتعـالى أنهم جميعاً من أمة واحدة ولو أنكر ذلك الحمقى والجهلاء.

- هل يبحث الإنسان عن القدرات في صنم أو في وثن أو يطلب الكفالة عند المجتمع أو عند الطبقة أو عند الطائفة؟ هل يعتقد الإنسان في إله خارج نفسه؟ هل يريد الإنسان أن يفجر أمامه وقد ملأت آيات الله الآفاق من حوله؟ إن آباء المعرفة كلها من الرسل والأنبياء والفلاسفة وغيرهم من

العلماء قد جعلوا بداية المعرفة كلها في معرفة النفس ذاتها لأنها بداية لكل إيمان وكل فعل وكل عمل،ولا فائدة عند ذلك من جاه الدنيا كلها أو مالها أو سلطانها،ورب إبراهيم لم يجده في الشمس رغم جبروتها ولم يجده في القمر رغم بهائه إذ وجد أن بهاء ربه يطغى على كل بهاء ولم يجده في أي شيء في الخارج وإنما وجده بين جنبيه وفي نفسه هو وما أدرك ذلك حتى رأى الملائكة والعالم الروحي الخافي عن الأنظار.

- ليس هناك في نظرية الرعاية في القرآن والربوبية أبدع ما قدمه حوار موسى مع ربه إذ يبين له أنه معه في كل وقت وفي كل مكان وأنه لما هرع للقائه في الجبل كان واهماً إذ أنه معه بصورة دائمة يسمع ويرى ويبصر ويرعاه في كل موقف ومثل ذلك ما بيّنه رب محمد ﷺ له إذ قال له إنه ما يعمل من عمل وما يتلو من قرآن إلا هو شاهد على هذا كله وما يكون منه من صغيرة ولا كبيرة إلا هو معه فيها لنتبين مدى رعاية السماء للإنسان،وأن القرآن ما كشف ذلك للناس إلا من أجل تثبيت الثقة في النفس وأن الرب لا يخذل ولا يفر ولا يترك أحداً من المؤمنين في شدة ولا في حرج إلا وقدم له العون والمساعدة،حتى أنه جعل النار التي أعدها المشركون لإبراهيم برداً وسلاماً وأمناً وثقة من النصر.

نسق «الر» في



القضايا ومحمولات النسق:

- إن الله سبحانه وتعالى يقدم الآيات للناس وينزل القرآن المبين لعل ذلك يؤدي إلى إيمان الناس وهكذا نزل الوحي «الر» من سورة «الحجر» لعلهم يدركون عاقبة المكذبين.

- في نسق «ابراهيم» كان البيان والاعلام هو القصد القرآني حتى جعل إبراهيم من ذريته رجالاً للاعلام عن ديانة التوحيد من إقامتهم للصلاة والنسك والحج وغيره لكن «الحجر» قد أوضح للناس أن الله لا يعجزه أمر المكذبين ولا الكافرين ولا الظالمين ولا الطغاة حيث يأتيهم من حيث لم يحتسبوا وها هم أهل الحجر على الله قد اعتقدوا أن ما استقبل أوديتهم هو عارض الله إله المطر والخير عندهم فجاءهم في ثوبه عقاب الله وحسابه.

- إن المكذبين والكافرين والمشركين يطلبون عقاب الله الفوري ويقولون لمحمد ﷺ هيا ابعث علينا غضب الله وما تنذرنا به وهم لا يعلمون أن كل شيء قد خلقه الله في وقته وفي حينه ومتى جاء وقت هلاكهم بعث الله عليهم وأهلكهم كما أهلك الطغاة من قبلهم.

- لشدة جهل الكافر بأمر الله أنه لا يدرك السنن التي تجري في الناس والخلق والأمر ولذلك فهو يستعجل ما يوعد به والمسألة أنه ما من أمة إلا ولها كتاب وأجل مسمى عند الله ومتى جاء هذا الأجل وقعوا فيما وقع فيه الهالكون من أمر السنن والنواميس ودليل البرهان أن تلك السنة قد أخذت من قبلهم من الأمم ولم تسلم منها أمة أبداً.

- يطالب الجهلة محمداً ﷺ أن ينزل عليهم الملائكة من السماء بحيث

يرونهم رؤية البصر والأمر ليس كذلك إذ الملائكة لا ينزلون إلا بالحق وعندئذ لا يراهم الناس وليست المسألة في الإيمان هي طلب المعجزة الحسية وإنما المشكلة في المطبوعين ولو جاءهم الرسول بكل آية حسية لقالوا إنما سكرت أبصارنا ولن يؤمنوا إذاً أبداً.

- ليس العيب في الله ورسله وآياته ولكن العيب في المطبوعين والجبريين والمقلدين والسلفيين والذين يعبدون الآباء والأصنام في الماء أو الولد أو الجاه أو السلطان أو زينة الحياة الدنيا،ولذلك لن يغني عنهم القرآن وبيانه ولا الأيات ومعانيها ولا السنن ونواميسها ولن يفيد من ذلك الذين ران على قلوبهم ما كانوا يعملون من حكم القادة والذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.

- إن القرآن ما هو إلا ذكر وإعلام وإعلان للناس وليس محمد ﷺ إلا رسولاً قد خلت من قبله الرسل،ولذلك لن تذهب رسالة السماء إذا هو هلك وإنما ستبقى ويبقى هذا الذكر إلى يوم القيامة والذين يعتقدون أنه في الإمكان القضاء على محمد ﷺ ودعوته قد وقعوا في وهم كبير لأن رسالة السماء لا تنقطع والقرآن لن يزول لأنه قد ضم بين دفتيه قضية الحق وقضية المصير كله.

- إن الاستهزاء والاحتقار والقول إن محمداً ﷺ مجنون هو نفسه قول كل الكافرين واستهزائهم بالرسل في كل قوم وفي كل أمة ولذلك فلا يضير محمداً ﷺ مثل هذه الأعمال ولن ينال منه ذلك وستكون العاقبة للمتقين.

- يكشف القرآن أخطر القضايا في مسألة حرية الإنسان إذ يقول في الجهل والجهلة والكفر والكفرة إن المشركين بالله لا ينتظرون إلا السنن وهي تجري بهم دون وعي حتى تهلكهم،لكن المؤمنين الأحرار الذين عرفوا من السنن والنواميس مجاريها وأسرارها هم هؤلاء النفر الذين يستطيعون بما أوتوا من سلطان العلم والمعرفة ما يمكن أن يغيروا بها وجه التاريخ ومسار

الحضارة، وهي نفس المسألة المعصارة التي يثيرها العلمانيون الذين يعتقدون أن العلم والوعي قادران على السيطرة وتوجيه الحوادث لصالح الإنسانية وأن الله إنما جعل السنن والنواميس وغيرها من الضوابط من أجل الهيمنة في مواجهة الجهلة والمفسدين والكافرين والفاسقين ولم يخلقها كي تكون قيداً على حركة المؤمنين بل هادياً ونصيراً.

- لا ينظرون إلى سنة الأولين ولن تجد لسنة الله تبديلاً أو تحويلاً لنتبين متى يدخل القدر على حياة الناس وأن الغافلين هم وحدهم الذين يأخذون بغتة بالسنة أو الناموس ولو آمنوا وعرفوا وتبينوا لأصبحوا على وعي ودراية وإمكان السيطرة على الحوادث ومجرياتها.

- يحدثنا الله عن أحواله فيقول لا يغرنكم بالله شيء من جاه أو سلطان أو مال أو ولد فقد يأتيكم عقابه وعذابه فيما تفرحون به والله شديد المحال ومكره واسع ودهاؤه لا حدود له وهو يمكر بالكافرين والمشركين ويأتيهم من حيث لا يدرون ومن حجر على قدرة الله فقد جهل ولذلك اعتبر القرآن أن ما حدث لأصحاب الحجر كان آية لذلك وبيانها الذي ورد في القرآن عبرة لكل كافر وعظة لكل مشرك.

- إن الوقت المعلوم والأجل المسمى والسنّة النافذة في هلاك الأمم والحضارات يكشفه القرآن ليتبين الناس أن ذلك لا يحدث إلا من فقدان الوعي بحركة التاريخ ومشكلة الوعي والإدراك ليعرف المؤمنون أن ما يدعوهم إليه القرآن من عناصر الإيمان والعلم والسيطرة على حركة التاريخ هو الحق من ربهم وشتان بين من يعلم ومن لا يعلم حتى يقول القرآن هل يستوي الأعمى والبصير أو هل يستوي الظلمات والنور حتى ينتهي أنه لا يستوي الأحياء ولا الأموات ليقول لنا إن مشكلة الإنسان ليست في العقل وإنما هي في الوعي والأخذ بالأسباب والعلل وهو ما كشف عنه القرآن في سنن الهالكين من قبل.

- هذا النسق من سورة «الحجر» يوضح لنا في مجال الهيمنة كيف كان الله رحماناً بحيث لم يعجز عن عقاب وهلاك المجرمين، وأنه قد جعل لكل مفسد سنة تداهمه وتقضي عليه وأن تلك السنة والناموس لها الأجل المعلوم الذي أخفاه الله عن الناس ولا يكشف القرآن هذا حتى يقول إنه ما من شيء في الأرض إلا وخزائنه في السماء لتبين للناس أن ما بين أيديهم من زخارف الدنيا إنما هو عبرة وأمانة حتى روح الإنسان نفسه فكيف يعجز الله أن يأتيهم بعذاب مبين؟

البراهين التي استخدمها نسق «الر» الرحمن في سورة «الحجر»

- يطالب الجهلة محمد ﷺ بالمعجزات الخوارق ولم يعلموا أن الله عندما خلق السماوات والأرض فإنه خلقها بسلطان وقوانين ونواميس وسنة ولذلك ما إن تنظر في السماء حتى تجدها بروجاً مشيدة ومزينة وفي أبهى وأكمل صورة ليتبين عقل الإنسان أن المسألة ليست أمنية وأن الذين يطالبون محمدًا ﷺ بالمعجزات والخوارق هم حمقى وجهلة ولا يعرفون أن ذلك ليس أمراً سهلاً وإنما هو من شدائد الأمور وأعظمها.

- إن نظرة واحدة إلى إبداع السماء من فوق رءوسنا وحفظها في مكانها ملايين السنين ليوضح لنا أن هذا البنيان قد أقيمت قواعده وأفلاكه وأبراجه بحيث يتحدى كل العوامل التي تفسده وتجعله ينهار ولو طلب الإنسان سر تلك الصنعة الربانية لوجد أنها صعبة للغاية ومجالات علم الفلك وسفن الفضاء والتليسكوبات قد برهنت على أن الله قد أحكم هذا البناء إحكاماً معجزاً بحيث لا يستطيع حتى الشياطين أنفسهم اختراقه والعبث به فكيف بالجهلة الذين يطلبون من محمد ﷺ المستحيل؟

- إن المسألة ليست فوضى ولا عبثاً وإنما المسألة علمية وأكبر من ذلك بكثير والقرآن يقول إن لكل شيطان يحاول التسمع على عالم الملكوت السماوي

له شهاب رصد يرجمه ويحرقه قبل أن ينـال بغيته لنعـرف من ذلك مقـدار كمالات خلق الله وأن هذا الخلق لن يعجزه أمر الكافرين والمشركين كما لن يعجزه حفظ تلك السماوات وما شملت من آيات الخلق والإبداع .

- إن الأرض قد أقيمت فيها الرواسي من الجبال وغيرها ليكون من ذلك هذا التوازن، ومثله ما بين النبـات والحيوان، والتـوازن الطبيعي أيضـاً لنتبين أن خلف ذلك ناموساً تجري عليـه حياة الأحياء والجماد والناس وأن المسألة ليست فوضى ولا عبثاً والكافرون لا يعلمـون من ذلك شيئـاً ولهذا فـإنهم لا وعي لديهم وهم يرمون محمداً ﷺ بالخبل ويقولون إنه لمجنون وحقيقة الأمر أنهم هم المجانين وهم الجهلة وهم الحمقى .

- تلك النظرة المتدبرة في الأكوان والـطبيعة ومـا يحكم ذلك من النـواميس وإدراك السنن حتى يقول القرآن إن كل شيء في الأرض أو في السماء قد جـاء موزونـاً بحيث لا يصيبـه الفسـاد وهـو نفسـه مـا كشفت عنـه العلوم المعاصرة الفلكية والطبيعية والتوازن البيئي بين النبات والحيوان والإنسان لنتبين أن القرآن يريد أن يشيد الوعي الإنساني ويدعمه من خلال المعرفة والعلم بأسرار الطبيعـة ومـا خلق الله في الأرض وفي الفضاء والفلك التي تعمل فيها الشمس والقمر وغيرها .

- لا يلفت القرآن نظر الناس إلى عوالم الأرض والفضاء والنبـات والحيوان ويكشف عن السنن والنـواميس والفطرة إلا ليبيّن أن الـربـوبيـة ليست هي المنهج الذاتي والقدرات فقط وإنما هي منهج الموضوعية أيضاً كما تظهر لنا في آيات الأرض والنبات والحيوان والإنسان والفضاء والشمس والقمـر حتى الجبال والوديان والغابات وكل ما يحيط الإنسان من الـطبيعية كي لا يكـون إيمان المؤمنين خـرافة أو أسـطورة أو ما يـطلبه الجهلة من الـرسل والأنبياء بغير علم ودراسة .

- إن استشهاد القرآن بالعالم الطبيعي لبيان الهيمنة إنما كان لإثبات أن الله وحده هو الذي يحيى ويميت وهو وحده الذي يأخذ بمقاليد السماوات والأرض وهو وحده الذي يجب أن يتوجه الإنسان له، والبحث والتنقيب من أجله وما يفعله العلماء اليوم إنما هو وجه الإيمان المشرق بالله وبالرب ولن يفيد المشركين إلا الهلاك أو تأتيهم سنن الأولين.

- إن القصد القرآني وتقديمه لآيات الكتاب والبيان القرآني إنما يقوم بمحاولة مع الكافرين والمشركين كي ينقذهم من المصير المنتظر والذي سبقهم إليه كل فرد كافر وكل مشرك، ولذلك يكشف القرآن عن السنن والنواميس وما خلق الله من الآيات الفلكية والطبيعية ويقدم ذلك كله في إطار تقديم الآيات والبيان القرآني لعلهم يؤمنون أو يكون لهم من ذلك ذكرى.

- عندما ينظر القرآن في الطبيعية ويتبين روح التدبير والقصد فإنه ينفي العبثية وأن حياة الإنسان على الأرض لها غرض ولها غاية ومن ثم فالمصير منتظر والحياة لا تصير إلى العدم ولهذا يقول القرآن إن الله قد علم المستقدمين وقد علم المستأخرين لبيان أن ما غاب عن أنظارنا في طي الوجود قادم لا محالة ومسألة بعث الإنسان هي مسألة وقت ومتى حان وقتها بعث الناس من قبورهم ليعرف المشككون في المصير أن السعي في الإيمان هو وحده حصيلة الآخرة حتى يقول القرآن﴿**من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً**﴾ ليوضح مدى الارتباط بين الدنيا والآخرة.

- يورد القرآن قصة خلق آدم والإنسان بأوجه عدة وبحسب الأغراض ولذلك يقول نسق «الحجر» إن الشيطان لم يسجد للإنسان واعتبر نفسه أفضل منه لأنه تبين من طبيعته الصلصالية أنه كائن متأثر منفعل وهو عيب كبير
- لتتبين مشكلة التكوين النفسي وأن الانفعالات هي العدو الأول للعقل ولذلك جعل القرآن من الطبيعة وآياتها والفطرة وسننها والنواميس

ومظاهرها المعيار، الصادق لكل علم ولكل معرفة ولهذا كانت الأسطورة والخرافة وعدم الواقعية أدواء السيكولوجية والعقل.

- إن الغواية هي الداء الخطير الذي يحدثنا القرآن عنه ولذلك كان اعتقاد الكافرين والمشركين في السحر والشعوذة والخرافة والأسطورة واضحاً في مطالبهم للرسل، والمعجزات الخوارق التي يطلبونها من محمد ﷺ إنما هي من الشيطان والغواية وليست من عمل العقل والعلم ولو أنه جاءهم بالخارقة لقالوا إنما سكرت أبصارنا ولن يؤمنوا أبداً.

- يقدم القرآن خلق الإنسان من الصلصال والغواية من الشيطان والسحر والشعوذة والخرافة والأسطورة لبيان ضلال المنهج، والمشركون والكافرون يعرفون مصادر المعرفة الحقة ولم يتدبروا أو ينظروا في وجه الطبيعة ولم يدركوا الغاية من وجودهم أو وجود الكون ولم يدرسوا السنن ولا النواميس ولم يكن لهم حظ من معرفة النفس على حقيقتها، ولذلك يسأل الجاهل الرسول أن يأتيه بالملائكة أو ينزل عليه كتاباً من السماء أو يفجر الأرض بين يديه أنهاراً، ولم يعلم أن ذلك من المستحيلات عند الله وعند المعرفة الحقة.

- إن مشكل المعرفة هو الذي صنع هذا الحاجز الكبير بين المؤمن والمشرك وبين المسلم والكافر إذ نتبيّن أن السعي نحو العلم والمعرفة وطلب ذلك في آيات الطبيعة سواء كانت طبيعة فلكية أو طبيعة نباتية أو حيوانية أو إنسانية أو حتى جيولوجية هي بحق التي أعطت لهؤلاء النفر الباحثين عنها جدارة الرسالة وشرف النبوة حتى يقول نسق «يس» لمحمد ﷺ وقد شك في موقفه من جهة المعرفة والمنهج أنه رسول من المرسلين لأن منهجه ومعرفته تشتقان مصادرهما من «ي» الآيات ومن «س» السنن وهي بعينها المعرفة الرسولية التي كانت لكل الرسل ولكل الأنبياء.

- إن المشرك يبدأ المعرفة من ذاته هو وفروضه ويطلب المستحيلات وهو لا

يعلم عن العلم الحق ومنهجه أو يعلم من الواقعية وأسسها ولذلك لم ير الجاهل المشرك مانعاً أن تكون قدرة الرسول الانسان مساوية لقدرة الرب الخالق حتى يأتيه بالملائكة قبلاً وتلك هي المشكلات التي واجهت عصر النهضة وانتصار العلم والمنهج إذ جعل المادية العلمية من السنن والآيات هي المصدر الصادق لكل معرفة ولكل منهج .

- في كل موضع وردت فيه قصة خلق آدم والإنسان والإبليس والشيطان والملاك وما دار من الجدل بين الله وكل تلك الخلائق عند ميلاد آدم إنما يقدمه القرآن لبيان أن السيكولوجية والنفس البشرية ليست كلاً واحداً وإنما هي كل مركب من تلك الإمكانات في الخلق، وإن ما يظهر لنا من الإنسان إنما استبطن تلك الموجودات ولذلك يطرأ على فطرة الإنسان الذي أبدعها الله عالمة مدركة ما يكون من أمراض الإبليس والشيطان فيكون من ذلك جهل الإنسان وغوايته «اقرأ نظرية علم النفس القرآنية للمؤلف» وهي نفس مشكلة المعرفة وكيف يهتدي الإنسان إلى المنهج ولذلك يوضح القرآن أن الإنسان قد وقع في الخطيئة الأولى، لأن النسيان قد داهمه أو الغرور قد أحاط به أو الكبرياء قد أعماه أو حبه للخلود أو حبه للقوة أو استعجاله أو تعطشه للخير أو أي حافز لا يخضع للعقل، ولذلك تربص الشيطان للإنسان في المال والبنين والجاه والسلطان والقوة والطغيان وفي كل منحرف عن الإيمان والعلم والحق .

- إن مسألة منهج المعرفة هي مسألة العصر وما زال العلماء يكتشفون في كل يوم الجديد في القواعد والمناهج، لكن المشكلة الحقة هي كيف يتبصر المتدينون أن تلك المسألة لم تعد مسألة دينية بل أصبحت مسألة علمية خالصة؟ في الشرق يجب أن نتبين كما هو الحال في نشأة العلوم من الفلسفة عند الغرب فإن الدين كان وما يزال هو الأب الشرعي لكل علم ولكل معرفة والخطورة لا تكمن في أن يكون العلم عقيدة بل هذا من شرف

ووظيفة الدين وإنما المشكلة دخول المنهج الذاتي للاعتقادات في المنهج وانحرافه إلى الخرافة والأسطورة والمعجزات الخوارق، وبالتالي صرف النـاس عن طلب العلم الحق والمعرفـة اليقينية وهـو ما يجلب على المجتمعات الشرقية التخلف والتردي.

- إن القرآن بريء مما عند الأمة والمنهج القرآني للمعرفة كما بين أيدينا من احترام الطبيعة الفلكية والجيولوجية والنباتية والحيوانية والجغرافية هو منهج المادية العلمية والجاهل من يخلط بين عقيدة المادية من أجل العلم ومنهج المعرفة ومعاداة المادية كمنهج أخلاقي للناس ولـذلك يـدين الجاهـل أن الحضـارة الغربيـة أحلت العلم محل الإيمـان ولم يـدرك أن الإيمـان في القرآن على قمته رايات العلم وأعمال الرسل والعلماء ومن انتهجوا المادية من أجل المعرفة.

- إن المشكلة قد تعينت في نشأة المعرفة بين أحضان الأديان في الشرق وهي مشكلة أدركها القرآن إدراكاً واضحاً وحاول في كل موقف وفي كل عقيدة إلقـاء الضوء على أن الأديـان تغلب الناس على عقـولهم وإنسان الشـرق وحضارته قد نشأ نشأة دينية غالبة جامحة ولذلك لصقت بالأديان خـرافات الناس وأساطيرهم وتمنياتهم وجعلوا لكل أمنية ولكل خوف ولكل موسم من الحصاد وغيره إلهاً ورباً،والحقيقة ليست كذلـك إذ الدين عنـد القرآن هـو العلم والموضوعية والواقعية والسنن والنواميس والطبيعة والآيـات و «يس» لنتبين محاولة تقنين الإيمان وتصويب الأديان ولذلك لم يتردد القـرآن عند كل موضع وردت فيه مشاكل المنهـج والمعرفـة أن يقدِّم الآيـات والسنن واستشهد بكل نبرة وكل همسة من همسات الطبيعة حتى الجبال وألوانها استخدمها في البـرهان والـدلالة ـ **﴿أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَـاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّـاسِ وَالدَّوابِّ وَالأَنْعَـامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُـهُ**

كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1].

- لكن القرآن وهو يقدم الغواية والشيطان فإنه قدم قصص إبراهيم والملائكة وقصص لوط وهلاك قومه لبيان مدى التناقض في الطبيعة البشرية وأنها كما يكون منها هذه الشفافية الروحية مثلما كان إبراهيم حتى يرى الملائكة ويحدثهم ويخبر عنهم كذلك يكون من نفس تلك الطبيعة هذا التبلد وهذا الانحطاط حتى يأتي قوم لوط الذكران من العالمين ويتركون ما خلق لهم ربهم من الإناث ثم يكشف القرآن عن نجاة أهل لوط جميعهم عدا امرأته لبيان أن مسألة الطبيعة مسألة شخصية ومتى كانت تلك الطبيعة منحرفة مريضة فإنه لا علاج لها ولذلك هلكت زوجة نوح وزوجة لوط رغم أنهما كانتا تحت عبدين صالحين ليعرف الناس أن مسئولية كل هو مقاومة الغرائز والانحرافات وهو نوع من جهاد النفس الذي يحدثنا القرآن عنه عندما يقول إن المنحرفين عن الطبيعة السوية يخسرون السماوات السبع التي خلقها الله لهم من الحواس الخمس والحس المشترك والعقل المجرد وهي كلها مداخل السبعة أبواب من الجحيم إذا انحرف بها الإنسان.

- لا يتحدث القرآن في موضع من مواضع العقل إلا ويقدم ما خلق الله من السماوات والأرض ويقدمها على التفصيل في سبع سماوات طباقاً لتتبين مدى الكمال في خلقة الإنسان وأنه مستودع السماوات والأرض بكل أسرارها وبكل ما خلق الله فيها من الإمكانات كي تتبين كل نفس ما لها من كرامة عند الله وما يقع عليها من المسئولية تجاه النفس والعالم بل تجاه النفس والعالم بل تجاه الكون كله لأنه لا غاية لكون من الأكوان إلا في الإنسان وهو وحده المعيار الحقيقي لكل خلق وبيده وعقله ووجدانه أنطق الله كل شيء حتى صار الحديد قاطرة تجري بمئات الكيلومترات وصار الألمونيوم والنيكل طائرة الجامبو أو طائرة الكنكورد أو صاروخاً جباراً يشق

(١) سورة فاطر: الأيتان ٢٧ ـ ٢٨.

عنان السماء ليعرف الذين يغفلون عن ربهم وأنفسهم أنهم المعيار الصادق للوجود الإلهي في كل ما خلقه الله بيديه.

- ما أن ترد قصة خلق آدم حتى يحتج القرآن على النقص الذي يصيب النفس البشرية، وما أن يرد خلق السماوات والأرض حتى يدعو القرآن للكمالات لنتبيّن أن الخطيئة في القرآن ليست قدراً كما ورد في التوراة أو الإنجيل وإنما هي من فقدان العلم وعدم الوعي وكل التحليل الذي ورد في القضايا والعقائد والتنظير إنما كان من أجل خلق الوعي عند الإنسان وهو على قمة أهداف القرآن ودعوته.

- لا يخلط القرآن بين الطبيعة والفطرة في الإنسان ولذلك نجد قصة خلق آدم ترد في موارد أدواء الطبيعة وانحرافاتها ونجد قصة خلق السماوات والأرض ترد في موارد الفطرة وكمالاتها وحتى يقول القرآن في مشكلة أهل الكتاب والأديان وفسوقهم وعصيانهم ﴿كَيْفَ تَكْفُرونَ بالله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمّ يُمِيتُكُمْ ثُمّ يُحْيِيكُمْ ثُمّ إِلَيْهِ تُرجعُون * هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1] لنتبين أن سعي القرآن لبناء الوعي عند الإنسان كان سعياً متواصلاً وهو يواجه في المواقف والحوادث والجدل ليشرح للماديين أن الإنسان ليس ما يبدو من الأجساد وأعيانها وإنما هو بالقطع ما يخفى منه من هذا الجانب الروحي الإلهي الذي جاء من روح الله وكمالاته.

- يقول القرآن في الحق إنه لا يغني عن الإنسان جمعه لأسباب القوة ولا جمعه لأسباب المال أو أسباب السلطان أو أسباب الطغيان وإنما يغنيه تنمية الجانب الروحي في العلم والمعرفة والوعي والكمالات والجمال وكل القيم العليا التي أخرجها الله للناس في التطور التاريخي والتطور الحضاري

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ٢٨ ـ ٢٩.

ولذلك ما أن يفقد الإنسان هذا الجانب من نفسه حتى يغترب ويصيبه ما أصاب قوم لوط أو نوح أو هود لأنهم جميعاً لم يكونوا مع الفطرة التي أودعها في قلب الإنسان ووجدانه.

- يختتم القرآن نسق «الر» الرحمن في «الحجر» فيقول لمحمد ﷺ **﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾** الذي ورد في «يونس» و«هود» و«إبراهيم» و«يوسف» و«الحجر» لأنه كشف للناس أن عبادة محمد ﷺ لربه هي عبادة الإله الواحد بحيث خلصت عقيدته من كل شرك أو كفر ولو لزم الناس هذا الأمر في مجال الإيمان لنجوا وأبدعوا مثلما أبدع محمد ﷺ والقرآن الجليل الشأن العظيم الأثر.

الفصل الثاني

نسق «الر» المهيمن والرحمن



قضايا النسق ومحمولاته:

- إن العقيدة في الله تأخذ عند الناس الكثير من الأباطيل والخرافات والأساطير والحقيقة بأن العقيدة في الله والدعوة إليها هي نفسها الدعوة إلى المعرفة الطبيعية لأن الله وآياته إنما تبدو بأجلى صورها فيما خلق الله من الآيات والسنن والنواميس والفطرة.
- إن مشكل المعرفة يجد له الحل الأمثل والاعتبار الأوفق والمعيار الصادق لو نظر الإنسان وتدبر فعل الطبيعة إذ لا فرق بين النظر في الله كذات مجردة والنظرة في الطبيعة كفعل خلق وإبداع لتلك الذات.
- يقول الكافرون الجهلة لولا أنزل على محمد ﷺ آية من ربه، والقرآن يرد على ذلك فيقول إن محمداً ﷺ ما هو إلا منذر بوجه عام لبيان فساد منهج المعرفة ولكل قوم من الله وآياته هاد ومرشد ولو طلبوه لوجدوه.
- إن محمداً ﷺ لم يرسل كفيلاً ولا وكيلاً ولا ولياً للناس من دون الله ولذلك

فالأمر كله لله وحده والمسألة كلها تتوقف على إرادة التغيير والله لا يغير ما بقوم من الجهل والفساد والكفر حتى يغيروا ما بأنفسهم أولاً لبيان أن فعل الإرادة الإنسانية هو الفعل الأصيل نحو التقدم والتطور الحضاري إذ لا يمكن أن يحدث التغيير من خلال الإنسان وتربيته وتأصيله.

- ماذا يفيد الطبيعة والآيات والرسل وقد وضع الجاهل إرادته في الجهل والكافر إرادته في الكفر ولو تحرك الإنسان ونظر وتدبر وطلب العلم والمعرفة وآمن بالله والطبيعَة وآياته لوجد حياة أفضل وحضارة أرقى.

- إن إلقاء المسئولية على الله سبحانه والقضاء والقدر وما يعتقد فيه الناس من الخرافات والأساطير وتزييف العقائد في الله هو الذي يجلب الكفر بقضية الله والشرك فيما وحده الله، ولا يعقل أن يريد الله الشر بالناس وإنما وقعت الفتنة في القضاء والقدر ليعلم الإنسان مقدار الدعوة الحقة لله وللمعرفة وأن الشيطان يصبح قدراً مقتدراً في غياب العلوم والمعارف والوعي لدى الناس.

- إن وضوح آثار الربوبية في كل خلق مجلب للإيمان والثقة في المعرفة الطبيعية وأنها معرفة هادفة جعلها الله بين يدي العقل لتنيرله الطريق ولو تدبر الإنسان حكمة الفعل الربوبي لأصبحت لديه الذخيرة العلمية ولتبين أنه في الإمكان فهم ملكوت السماوات والأرض على حقيقته وسننه ونواميسه.

- ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّور أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾[1] ـ فمن أين يطلب

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٦.

الإنسان أوليات وأساسيات المعرفة وكل آية في الربوبية كما تظهر في عالم الأفلاك وكما تظهر في عالم النبات وعالم الحيوان وعالم الحشرات والنمل والنحل والعنكبوت وكل ما يمكن أن يدرسه الإنسان دراسة علمية في عالم الطبيعة والفيزياء والكيمياء وغيرها.

- إن تلك الدعوة التي يدعو إليها القرآن للنظر في عالم الخلق والآيات قد جعلها مظاهرة طبيعية حتى سمى الكثير من السور بأسماء تلك الآيات برهاناً واستشهاداً مثل الشمس والقمر والليل والنحل والنمل والعنكبوت والتين والأنعام والرعد والنجم والحديد والفجر والضحى والعصر لتبين المنهج الطبيعي من أجل المعرفة اليقينية وأن القرآن قد انتزع الاعتقاد في الله من الدين وما يمكن أن يدلف إليه من اعتقاد الخرافات والأساطير وجعله في العلم الطبيعي التجريبي وحث الناس إلى تدبر الآيات ومعجزات الخلق.

- تلك المشكلة التي بين الدين والعلم وبين الإيمان والعقل والبحث قد حسمها القرآن في نسق «الرعد»، ولكن المشكلة فرضت نفسها من خلال واقع الأمة وتخلفها وعدم الفصل بين الدين كعبادة والدين كعقيدة في الله إذ جعل القرآن للعبادات من أجل السيكولوجية الإنسانية ولذلك أشار على موسى عند افتقاده له وحنينه إليه أن يقيم الصلاة ﴿**وأقم الصلاة لذكري**﴾ وشتان بين العبادة وبين العقيدة إذ العقيدة علم وبحث ويقين وهو ما طلبه إبراهيم ﴿**قال بلى ولكن ليطمئن قلبي**﴾..

- إن التوجه إلى الطبيعة ومعرفة مناهجها وأساليبها قد جعل القرآن منه المدخل الصحيح للإيمان والعقيدة الصادقة ومن يعتقد أن الإيمان سابق على المعرفة الطبيعية والتجريبية فقد وقع في الفتنة وحبائل الشيطان وهو بكل الأسف حال الأمة بل حال أهل الأديان جميعاً لأن الإيمان لديهم قد

سبق العلم وسبق المعرفة وسبق الله والطبيعة وجعلوه في المرتبة الأولى رغم أنه نتاج ونتيجة.

- إن الشيطان قد افترض أنه أفضل من آدم فأوضح الله أن العبرة بالسعي والتجربة والعلم والنتيجة وليست بالإيمان وهو وحده لا يقرر النتائج ولا يصنع المصائب وما خلت آية في القرآن من العمل والسعي.

- إن مشاكل المؤمنين في العصر والفكر الديني قد بحثها القرآن في الهيمنة، ولذلك قدم الطبيعة كمعيار لما يمكن أن يكون منه الدين والإيمان والبحث في الآيات كما خلقها الله وكما يراها الإنسان بعقله وبصيرته، ولذلك ما إن ترد مشكلة المعرفة واصطدامها بالعقيدة الدينية حتى يقول القرآن انظروا إلى كمالات الطبيعة وجمالها وبهائها وما اشتملت عليه من قدرة الخالق وما احتوت من إبداعات الرب وسترون أنها أوثق المصادر وأتم المناهج وأرقى ألوان العلم وهي الوعاء الذي أمكن الله أن يجمع فيه الامتداد دون تصادم وأن يوفق منه بين المتناقضات ثم لا يكون ذلك فساداً في الخلق حتى يؤمن الإنسان ويثق في هذا المصدر.

- إن ما كان للأنبياء والرسل من شدة الثقة في الله سبحانه وتعالى قد كان مصدره المعرفة السيكولوجية أولاً ثم الموضوعية ثانياً ولذلك جاء الأنبياء والرسل بآيات الطبيعة واستشهاد إبراهيم بحركة الفلك لبيان المهيمن الحق والحي الحق له روعة من روائع الطبيعة حتى قال للطاغية إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ومثله من صناعة نوح للسفينة بحسب قانون الطفو ومنه ما ضرب لهم صالح من سلطان الطبيعة وبرهان الناقة وغيره كثير.

- لقد بلغ من هيام محمد ﷺ بربه ومحبته لله والطبيعة أن جعل صلاته مع الشمس ومع الليل ومع العصر ومع الفجر لبيان سلطان الله والطبيعة التي

خلقها بيديه ﴿أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلوكَ الشَّمْسَ﴾ . . . الآيـة ـ لنتبين أن العبادة الدينية الصحيحة هي ما كـانت تقديسـاً للعلم والعالم في معمله هـو في المحراب الإلهي الحق وهو نفسه العبادة مع الشمس والقمر وغيرها.

- يجب أن يتبين الباحث في القرآن أن ورود مشكل المعرفة معناه إثارة قضية أهل الكتاب والأديان، لأن العرب وقتذاك لم يكن لديهم هذا المشكل لأنهم كانوا أميين لا يعلمـون الكتاب ولا الفقـه ولا اللاهـوت ولم تكن الأصنام نتيجة لعقيدة وإنما كانت وسيلة للتعبير عن الأعراف والتقاليد للحلف بهـا والتوثيق في العلاقات الاجتماعية عن طريقها، ولذلك قالـوا ما نعبـدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى وبقيت المشكلة للفكر الديني والثقافي خاصة بـأهل الكتاب والأديان واليهود والنصارى.

- إن المواجهة التي يحتد بها القرآن في وجه اللاهوت واللاهوتيين إنما تقدم أساساً على التوحيد ونتبين معالم التوحيد في مشكل المعرفة عنـدما أقـام القرآن لله وللطبيعة والآيات والنواميس والسنن هذا الصرح الكبير بحيث لم يخلُ مـوضع من مـواضع البـرهان إلا ووردت فيـه الآيات الـطبيعية مثـل الشمس والقمر والليل والنهار والشجر والنبات والحيوان حتى انتهى بهيمنة العقل الغريزي كما نرقبه في مملكة الحشرات مثل النمل والنحل وجعلها مصدر المعرفة التي بنى عليها سليمان مملكته العـظيمة ليـوقظ في الناس العلم بالطبيعة وأن الله كما هو في رب الإنسان هـو نفسه خـارج الإنسان وما يتبدى لنا في الظاهرة الحسية هو تفصيل وتوضيح لهـذا المنهج الـذي اعتد به القرآن أمام سلطان اليهود والنصارى.

- إذا احتد الجدل في المعرفة ومشكلها بين أهل الأديان والخرافة والأسطورة في الفكر الديني عند اليهود والنصـارى فإن القـرآن يحتج بـأية دابـة على الأرض قد خلقها الله بقدرته وبعلمه ليكون منها شهادة لله وللمنهج وما يدعو إليه القرآن ﴿وَإِذَا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِن الأَرضِ تُكَلِّمُهُمْ

أَنَّ النَّاس كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُـون * وَيَـوْم نَحْشُرُ مِنْ كُـل أمّةٍ فَـوْجاً مِمّنْ يُكَذِّبُ بِآيَـاتِنَا فَهُمْ يُـوزَعُـون * حَتّى إذَا جَـاءُوا قَالَ أكَذَّبْتُمْ بِآيـاتِي وَلَم تُحيطُوا بِهَا عِلْماً أم ماذَا كُنْتُمْ تعْمَلُونَ * وَوَقَعَ القَوْلُ علَيْهم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنْطقُـون * أَلَـمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] لـذلك فـأحقر دودة تخـرج من الأرض هي حجة لله وآياته وهي على حقارتها عند الجهلة عظيمة الخطر عند العلمـاء الـطبيعيين لما استـودعت من سنن العلم والمعرفـة ومـا يمكن أن يجعـل لـلإنسان فضـلاً وعلماً وبصيرة، وخـير شاهـد على ذلـك ما استفـاد به العلماء من دراسة الحشرات وأساليب حياتها وما أصبح للإنسان من علم في الوراثة أو البيـولوجي أو الفسيـولوجي أو حتى الأنثـروبولـوجي وغيـره إلا من خـلال الدراسات الطبيعية وتطورها.

- أدرك القرآن أن الخلط في الإيمان بالله بين ما هو ديني وبين ما هو علمي كالخلط بين ما هو نفسي وما هو مادي، إذ يجعل الأنساق من النسق النفسي عقيدة دينية وهي تجمع إلى الوجـدانات والشعـور والمشكلة تبرز للوجـود عندما يريد الإنسان تطبيق ما للدين على ما هو للعلم والمعرفة الطبيعية إذ لها نواميس تخالف الوجدانات والشمس لا تتوقف لاعتقاد ديني ولا يمكن أن تتدخل العقيدة الدينية لتوقف حركة الشمس مثلاً وهذا هو الخلط الكبير بين الإيمان كموضع ربوبي نفسي خالص وكموضـوع علمي طبيعي إلهي خالص، وهو نفسه مدخل كل خرافة ومدخل كل أسطورة حتى يقول اليهود في خـرافاتهم إن الـرب أوقف الشمس حتى فتح ليـوشع بن نـون منشئ سلطان اليهود الدنيوي.

- إن الجانب الأهم في العقيدة من أجل المعرفة لا يغفل عنه القرآن وإلا كان

---

(١) سورة النمل: الآيات ٨٢ ـ ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٥ ـ ٨٦.

جعجعة بغير طحن ولذلك ما إن تقوم المشكلة بين القرآن وأهل الكتاب من أجل المعرفة حتى يقدم القرآن لأول مرة في التاريخ الالتزام الاجتماعي تجاه الآخرين فيفرض الزكاة ويدعو المؤمنين أن يتجاوزوا هذه الفريضة إلى الإنفاق بشتى صوره وألوانه لنتبيّن أن إرادة القرآن من أجل التغيير قد وضع أسسها في تطور الأديان لأن اليهودية والمسيحية في هذا المجال الاجتماعي لم تفرض على أتباعها شيئاً ولذلك كان الإنسان مندوباً لفعل الخير بصورة عامة لكنه في القرآن أصبح مكلفاً بل مسئولاً طالما أنه دخل في زمرة المؤمنين.

- بيّن أهل الأديان من يهودية ومسيحية ومجوسية وصابئية وبوذية وهندوكية وغيرهانزول القرآن باللغة العربية ليكون حكماً بين هؤلاء جميعاً لأن العرب كانوا على الحياد ولا يعقل أن ينزل القرآن على رجل من رجال الأديان لأنه يثير الشك والتحيز والريبة، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾[1] لنتبين هيمنة القرآن العالمية وأنه يقف على الحياد في مشكلة صراع أهل الأديان.

- عند مناقشة عقائد أهل الكتاب والأديان واعتقادات الناس في الله سبحانه وتعالى يتضح لنا أن القرآن لا ينظر إلى الله كموضوع سطحي عامي بسيط ولكنه ينظر إليه كموضوع فكري وفقهي غاية في التعقيد ولذلك نجد الآيات للدعوة للفكر تملأ القرآن كله حتى لنتبين أنه شكك وذلك مرده إلى المسألة الدينية وما جلبته على العقائد من أوجه التحريف والتزييف.

(١) سورة الرعد: الآية ٣٧.

البراهين التي استخدمها نسق «الر» لإثبات أن الله هو المهيمن وهو نفسه «الرحمن»:

- يبحث الإنسان عن ربه ومصيره المنتظر ولو أنه نظر في ملكوت السماوات والأرض والشمس والقمر والأفلاك وما سخر الله لـلإنسان لتبين أن اللقـاء الإنساني مع الله لا يتم إلا من خلال عملية الخلق والإبداع وهي مبثوثة في الآيات الطبيعية من الكواكب والأفلاك والنبات والحيوان على التفصيلات لكي يكون من ذلك كله يقيناً بهذا اللقاء المنتظر.

- إن الآيات التي فصلت أمام العقل الإنساني في الطبيعة المرئية في الخارج إنما جعلها الله لمعرفة الطبيعة الباطنية للنفس البشرية ورب هذه النفس، وأن قوام وجود هذا الرب هو في هذا الاعتبار من القدرة الخالقة والإبداع وما يتجلى للعقل من ظواهر ومعاني الآيات حتى نعرف أن الله هو الله الخالق البارئ المصور ثم ندرك أنه هو وحده المهيمن والجبار والمتكبر وهو وحده الملك القدوس وما ورد في أسماء الله الحسنى من جليل الصفات وعظيم الأثر.

- من كان يدري أن لقاء الإنسان بربه سيكون على أجلى معانيـه فيما أمكن للإنسان من إبداعات وابتكـارات واختراعـات عالم الـذرة وعالم الفضـاء وعالم الطيران وعالم التكنولوجيا وغيره لنتبيّن أن الإيمان بلقاء هذا الرب لا شك فيه، وما أن يقرأ الإنسان صفحة العالم من الأفلاك وكمالات الدورات وكمالات الدقة وكمالات الصنعة وكمالات الإبداع حتى يؤمن بالله خـالق الجمال والكمال على هذا النحو الذي يبدو للعقل المتدبر في جليل تلك الآيات.

- يقول القرآن إن الله مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار لنتبين من ذلـك أن هنالـك رباً

لكل شيء قد أنجزته الطبيعة ولكن الإنسان لا يرى ربه رؤية البصر ولكن من الممكن معرفة ذلك لو نظرنا أن كل الكائنات جاءت من الأزواج والليل يغشى النهار وهو مستبطن فيه ومثل هذا شأن الإنسان مع ربه إذ أنه مستبطن فيه أيضاً.

- لقد طلب إبراهيم ربه في الشمس والقمر والنجوم ولم يجده في خارج، ومثل ذلك طلب موسى أن يراه رؤية العين فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً وتبين موسى أن الوجود العيني في المادة لا يتسع للإنسان وربه فإما أن يوجد الانسان ويستبطن ربه وإما أن يوجد رب الإنسان ولا يوجد شيء من الخلائق معه ولذلك يقول القرآن إن الأزواج تثير الفكر وتثير التساؤل وتثير أن هناك ظاهراً وأن هناك باطناً ومثل ذلك أن هناك أولاً وأن هناك آخراً، هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

- ماذا يعني الإيمان بوجود رب للإنسان؟ يقول القرآن إن الله قد خلق العالم وسخر الشمس والقمر وأخرج من ثمرات الأرض وهو ما زال يرعى العالم والإنسان في كل يوم ويدبر الأمر ليل نهار ثم لا يعقل بعد ذلك أن يترك مصير الإنسان للفناء والموت وإلا كان ذلك عبثاً؟

- هل يعجز من أبدع كل ذلك أن يبعث الأموات في خلق جديد بعد تلك الحياة؟ لقد تبين للعقل الإنساني أن قدرة الله في عمليات الإبداع والخلق والصور التي نراها في الطبيعة لا نهاية لها ومثل ذلك ما نراه من التدبير والرعاية لكل خلق حتى يذهب جهد الخالق عبثاً وكل خطوة جرت في خلق الطبيعة قد جعلت في التطور وسننه وقوانينه والحفريات الحية والمنقرضة وكل ما يدل على أن الله حفيظ قد تأكد، ولذلك يقودنا الفكر أن موت الأبدان ليس معناه موت وفناء الإنسان وإنما هو انتقال وتطور إلى خلق جديد في عالم آخر، ولو تبين الإنسان أنه محور الكون والعناية الإلهية لأيقن أنه هو بعينه روح الله في الأكوان ولا يعقل أن يموت روح الله لأن الله نفسه هو

ضمانة الوجود وإلا من أين جاء الوجود والحياة؟

- إن القرآن لا يكشف لنا عن البعث مرة أخرى إلا ليحقق مسألتين: الأولى هي المسألة الأخلاقية وأن الحساب امتداد بين الدنيا والآخرة والثانية وهي من أهم ما عنى القرآن به وهي مسألة القدرات البشرية ولو ثبت لرب الإنسان أنه سيستطيع أن يبعثه حياً بعد الموت لتحقق للإنسان أنه لا مستحيل أمام العقل البشري بل إن هذا العقل الذي يستمد قوته ونوره من هذا النبع الرباني الذي أبدع هذا الملكوت لن يقف أمام مشكلة من المشاكل وسيتطور العلم الإنساني ليسيطر على كل شيء من حوله حتى إذا أخذت الأرض زخرفتها وازينت بقدرة العلم الإنساني لتأكد للناس وقتئذ أن لقاء ربهم هو حقيقة حسية ولم يعد بعد ذلك إلا أن تكون حقيقة روحية يوقن بها الإنسان.
- إن هذا اللقاء المنتظر لا يتحدث عنه القرآن أنه لقاء في السماء فقط وإنما هو لقاء في الأرض قبل أن يكون في السماء ولذلك تدعو الربوبية للعلم وللكمال وللتمام وللجمال وللقيم العليا والقيم الخلقية لأن هذا العالم الروحي الذي ينتقل إليه الإنسان هو هذا العالم المعنوي وعلى الإنسان أن يتزود بهذا الزاد قبل رحيله.
- يقول القرآن إن الله ينبت من قطع الأرض المتجاورة وهي من جنس التربة نباتات مختلفة ومثل ذلك ما تجود به الأرض عندما تسقى بماء واحد فينبت به الزرع والعنب والنخيل المتشابه من ذلك وغير المتشابه حتى يفضل الإنسان بعضها على بعض في المذاق لنتبين تلك اليد الالهية التي تخلق ذلك كله ولو لم يكن لتلك اليد وجود لجاءت كل النباتات وكل الكائنات على صنف واحد لأن الاختلافات هي من فعل مدبر خلاق.
- إن هذا العالم الطبيعي هو مثار للدهشة وللفكر وللعقل فكل آية من تلك الآيات توقظ في الإنسان روح الإيمان بالرب والثقة في البعث واللقاء المنتظر.

- لا يقدم القرآن عقيدة الحياة الآخرة كموضوع ديني لأن هذا الموضوع كان معروفاً في الأديان قبل نزول القرآن وإنما يقدمه كموضوع علمي تحكمه القيم والاعتبارات والأعمال والصراع من أجل البقاء، في وجهة نظر القرآن أن يكون الوجود الإنساني حاملاً للقيم العليا للحياة ولا فائدة من هذا الوجود لو أنه تدنى أو انحط أو طغى أو أصبح فارغاً من كل قيمة، وبذلك أعطى القرآن لتلك العقيدة فقهاً جديداً وبعداً امتدت آثاره بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

- ليست الحياة والوجود في نظر القرآن أن يحيا الإنسان حياة بيولوجية حسية كالحيوان وإنما يحيا الإنسان بالروح والقيم التي يخرجها رب الإنسان للناس في رحلة التطور نحو الكمالات ونحو الأفضل ونحو الأصلح كذلك ما أن ينظر الإنسان إلى الطبيعة بالعين العلمية حتى تقابله سنن التطور والارتقاء لنتبين أن روح الرب هي بعينها ما سيصير إليه الإنسان في رحلة الكمالات والجمال كما يبدو لنا في تفصيلاته الطبيعية وكما نراه في تمام الوظائف الفسيولوجية للأعضاء وجمال الزهور والعطور والرياحين حتى يقول القرآن ﴿رُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾.

- كم منظر خلاب وكم من زهرة فاتنة وكم من حسناء رائعة وكم وكم في كل عالم من عوالم الابداع والخلق لنتبين أن عالم الغيب وما يخفيه لنا من تجليات لا حدود له ولا نهاية لآياته حتى يتألق بين أيدينا على هذا النحو وليكون من ذلك كله دفعاً للخوف الذي يصيب الإنسان من جراء فكرة الموت وليستعد الناس للقاء الرباني المفرح في عالم أوسع وأرحب وأجمل وأكمل.

- إن ما يصله الإنسان بقوة العلم هو بعض من هذا العالم الغيبي الخفي الذي يدعونا إليه القرآن ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾[1] ولذلك ما

---

(١) سورة الرعد: الآية ٩.

أن يتدبر الإنسان عالم الشهادة حتى يكون نين يديه آيات وعن عالم الغيب لنتبين معنى أن يكون الله عالماً للغيب وأن يكون عالماً للشهادة وأنه هو الذي يعرف المصير المنتظر للإنسان وهو مصير كبير جداً لا يتخيله عقل ولا يحتويه قلب.

- إن ما يكبر في نظر الإنسان هو صغير بالنسبة للكبير المتعال وإذا كبر في نظر الناس بعثهم مرة أخرى فهذا أمر بسيط وهين عند رب الإنسان حتى يقول القرآن إن الله يعلم ما في الأرحام نفسها قبل أن تحمل الإناث، قبل أن يلدن لأن ذلك كله مقدر قبل أن يوجد الإنسان وهو هين على الله وعلمه ومعرفته وقدراته.

- هل يأت طفل إلى العالم بالصدفة؟ هل تسقط ورقة من شجرة إلا كان ذلك قد خط في اللوح وحفظ في الكتاب قبل أن توجد الأرض ومن عليها. إن القرآن يقول لنا ذلك لبيان معنى أن يكون الله حفيظاً ومعنى أن نثق فيه ومعنى التوكل عليه ومعنى الاطمئنان وتحدي الموت ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ من أَسَرَّ القَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَه مِنْ أَمْرِ الله إِنّ الله لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ الله بِقَومٍ سُوءاً فَلَا مرد لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِه مِنْ وَالٍ﴾[1] لنتبين مدى الرعاية التي يحظى بها الإنسان وما يصيب الناس من الشرور إنما يأتيهم من أنفسهم حيث تفسد الفطرة بأفعال الأشرار والمجرمين.

- يقول القرآن إن الله قد فصّل الآيات الطبيعية أمام العقل البشري ليكون منها مهديات المعرفة والعلم وإنما تتعين المشكلة في جهل الإنسان عندما يفشل في الفكر ولذلك ضرب لنا مثلاً بظاهرة كظاهرة البرق إذ يجردها

---

(١) سورة الرعد الأيتان ١٠ و١١.

العقـل الإنساني عن معنـاها ومحتـواهـا فيـدرك أن البـرق معنـاه الأمـطار والخصب والنمـاء ومعناه هبـوب العواصف والأنـواء والأعاصيـر المـدمـرة والعاقل من احتاط لذلـك ومن لم يكن لديـه معرفـة بذلـك جاءه الهـلاك والموت.

- هذا الحديث عن التنبؤات من خلال الظاهرة الطبيعية من الممكن أن يقود الإنسان إلى المعارف الراقية التي تكشف له أن العالم قد جاء من الـروح ومثله ما يستفيد به الناس من العلوم المعاصرة في الزلازل والبراكين وغيرها لنتبين أن الله لم يجعل عالم الشهادة بين يدي الإنسان فقط وإنما جعل بين يديه ما وراءه والذي لم يزل في طي الغيب حتى يمكن تصديق النبـوءات عن هذا العالم الخفي بالصدق واليقين أيضاً.

- عندما يرى الإنسان البرق في كبد السماء فإنه سوف يعرف أن الله في طريقه لإنشاء السحاب الثقيل المملوء بالماء والأمطار وما إن يحدث ذلك في حينه حتى يـدرك معنى الثقة بالله وآيـاته وأنهـا كما تبـدو في تسلسل الأحـداث الطبيعية لا تتخلف، ومثل ذلك مـا يقرأه العقـل من الآيات والـدلالات عن البعث والإحياء مرة أخرى ليدرك أن القرآن يقول للناس لو كذبت الطبيعة لكان الإيمان بالله وقدرته خرافة من الخرافات ولكن العلم المعاصر وضح لنا مدى التطابق والصدق بين ما يمكن أن تقودنا إليه الحادثة الـطبيعية من الاستنتاجات والنتـائج الفعليـة التي تحدث طبقـاً لذلك، وشاهـد التنبؤات الفلكية في ظواهر الخسوف والكسوف قد أكدت لنا هذا الأمر الذي يحدثنا القرآن عنه فلماذا لا نصدق العقل القرآني الذي قرأ صفحة الوجود المرئي في آيات الله حتى أخبرنا بأن الأموات سيبعثون مرة أخرى؟

- تلك المسـألة الخـطيرة التي يحـدثنا القـرآن عنها هي بعينهـا مشكلة الثقـة في الإيمان برب الإنسان والعالم والتي فجرتها ظاهرة موت الإنسان كأي شيء يموت في الطبيعة إذ كيف يعرف الإنسان مصيره في هـذا العالم المملوء

بالمخاطر والمخاطرة والموت يحيطه به في كل لحظة ومن كل جانب؟ لذلك يضع القرآن بين أيدينا تداعيات الحوادث الطبيعية التي تحدث بين أيدينا كوسيلة لمعرفة ما نتساءل عنه من المصير وهي أداة ثبت بالتجربة والعلم أنها لا تخيب وما على العلماء إلا جمع الآيات والظواهر والدلالات كما جمعها القرآن في العديد من التساؤلات، وعندئذ ستبين لهم أن بعث الإنسان مسألة من مسائل الطبيعة التي لا تتخلف ولا تتأخر والمسألة كلها لا تعدو أن تكون زمناً يقضيه الإنسان كما يقضي نومة ينامها ثم يهب مستيقظاً.

- تلك الدعوة التي يدعو إليها القرآن هي نفسها التي وردت في التنزيل في أحداث يوم القيامة: «الواقعة» «التكوير» «الانشقاق» «البروج» «الغاشية» «الزلزلة» «القارعة» وكلها جميعاً قد رتبت بعث الإنسان حياً من قبره بخلق الله لكون جديد وأرض جديدة وسماء أخرى غير ما عهده الناس من تلك الطبيعة الكونية لنتبين أن قيام الناس من قبورهم مسألة طبيعية هي في حكم التطور الطبيعي للمادة نفسها والتي تشكل الكون مرة أخرى بقوة خلق الله وقدرته وإبداعه وأن ذلك ليس إلا مرحلة من مراحل التطور كما بدأ خلق العالم لأول مرة.

- إن المسألة لا تعدو أن تكون تداعيات للطبيعة في مجالات التطور ومثلها في العقل كمثل الاستنتاجات الأولية التي يستنتجها العقل من الظواهر كظاهرة البرق أو غيره وربما يتطور العلم بالإنسان حتى يتأكد أن التنبؤ من خلال سنن ونواميس الطبيعة سيؤدي إلى صدق العقيدة القرآنية صدقاً مطلقاً وعندئذ تزول الشكوك وتطمئن القلوب ويعرف الإنسان أنه بعين ورعاية رب كريم وإله قدير.

- البرق والرعد والتنبؤ من خلال الظاهرة الطبيعية وعلم الفلك وعلم الفضاء وما حققه الإنسان من الانتصارات في مجال التنبؤ بالأحداث الفلكية حتى أمكن لعلوم الفلك اليوم أن تخبرنا عن الخسوف أو الكسوف أو أية ظاهرة

أخرى قبل وقوعها بعشرات السنين بل مئات السنين لنتبين مدى صدق القوة العقلية والروحية التي وهبها الله للإنسان وأنه يستطيع عن طريق الملاحظة العلمية الدقيقة لكل ظاهرة طبيعية أن يقرأ المستقبل وأن يخبر مثلما أخبر القرآن أن الإنسان سيبعث حياً بعد الموت ولذلك اهتم القرآن لبيان هذا الأمر فأوضح أن قيامة الناس من القبور ستتوقف على حدوث القيامة الكونية وأن العالم سيخلق خلقاً جديداً.

- يقول القرآن إن الإنسان يكفيه ظاهرة مثل ظاهرة الرعد حتى يتبين صدق المنهج الطبيعي وما أن تبدأ ظاهرة كظاهرة البرق حتى تداعى بعدها الأحداث من الرعد والصواعق والعواصف والأعاصير والأمطار وكل الخير وكل الدمار المصاحب لتلك الظاهرة ليثق الناس في هذا المنهج القرآني، وبكل الفخار فإن هذا المنهج هو الذي أقام صرح العلم المعاصر وعلى أساسه بنيت المعرفة اليقينية.

- لقد تبين العقل القرآني من خلال ظاهرة كظاهرة الرعد أن الله هو المهيمن إذ تقتل الصواعق الجهلة والحمقى والذين ليس لديهم معرفة لأنهم لو كان لديهم العلم والمعرفة لاتخذوا حذرهم كما يضع العلماء فوق المباني اليوم مانعات الصواعق لحمايتها، ومثل ذلك يرحم الناس بنزول الأمطار لنتبين أن العقل الإنساني بدراسته للطبيعة وأحوالها وظواهرها من الممكن أن تجعل من الإنسان عالماً ومتنبئاً مثلما يتنبأ عالم الفلك بأحداث الخسوف والكسوف اليوم ومن الممكن أن يكون الإنسان عن نفس المنهج عالماً متفرداً واليوم تتداعى المعرفة الطبيعية في الفلك والرياضة والطبيعة والكيمياء وغيرها بشكل مدهش ويقيني يثير الاعجاب والعجب بهذا القرآن الكريم.

- يقدم القرآن «نسق» «المر» في سورة «الرعد» لبيان أن مظاهر الطبيعة تحوى في دلالتها البراهين المانعة الجامعة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ولذلك كانت تلك مصدر نبي وكل رسول وما قدّم

نبي من الأنبياء ولا رسول من الرسل ما قدمه للناس إلا من خلالها لنتبين أن القرآن يكشف مصادر منهج الرسالة ومنهج النبوة بين أيدي الناس على الكافة ولذلك لم ندهش عندما جعل القرآن من رسالة محمد ﷺ ونبوته آخر الرسالات وآخر النبوات.

- لقد أصبحت الطبيعة وآياتها وسننها ونواميسها والفطرة التي فطرت عليها هي الرسالة الإلهية للناس وكل آية ظاهرة من ظواهرها بمثابة رسول من الرسل ونبي من الأنبياء لنتبين منهج القرآن على حقيقته بعيداً عن الزيف والغرور والغوغائية.

- لم يعد في مجال المعرفة القرآنية الواسعة أن يكون الرسول بشراً من الناس من أمثال نوح أو هود أو غيره من هما من الرسل والأنبياء وإنما أصبح الرسول آية من الآيات يطلع عليها عالم من العلماء أو ظاهرة من ظواهر الطبيعة أو بحثاً في الكيمياء يقوم به عدة أشخاص أو جمعية من العلماء لنتبين أن الرسول الشخصي قد انقضى عهده بنزول القرآن وما المؤسسات العلمية الحالية إلا وليدة للفكر القرآني الذي فتح الباب أمام المعرفة الطبيعية ليدخل فيه كل طالب علم وكل باحث عن الحقيقة وكأن آية الرعد ونسق «المر» لم يقدمه القرآن إلا ليقول للناس إن كانت الرسالات السماوية قد قامت على الكتب مثل التوراة والإنجيل والقرآن فقد آن الأوان أن تقوم الرسالات على النظر في الطبيعة وظواهرها وهي التي تقدم المعرفة الحقة واليقينية التي يبحث عنها الناس.

- إن معجزة القرآن الكريم واعتمادها على العقل والتفكير وإقناعها للعاطفة والوجدان أغنت إرسال الرسل حيث احتكمت إلى الآيات والظواهر في القرآن عند الاختلاف بين أهل الكتاب وجعلت من تلك الآيات عنصراً للهيمنة وعنصراً للرقابة وعنصراً يجب أن يوثق فيه ولذلك يخرج للناس

دابة تكلمهم كآية ليتبين الناس المراد والمرجع والحكم بين المختلفين وهو حكم طبيعي يراه الناس ويأخذ عليهم أبصارهم وبصيرتهم.

- الشمس والقمر والنجوم وسفينة نوح وناقة صالح والبرق والرعد والصواعق وما استشهد به من النمل والنحل والعنكبوت وكل آية من آيات الطبيعة كانت هي الرسول إلى الناس ولذلك كانت المشكلة ليست في آيات الطبيعة إذ أن تلك الآيات موجودة منذ ملايين السنين وما زالت ولكن المشكلة كانت في الإنسان والمنهج ولذلك ما إن توصل القرآن إلى عناصر المنهج حتى جعل من مبادئه منهجاً عالمياً كي لا يكون دولا بين أهل الكتاب والأديان الذين استغلوا مكانتهم العلمية، ولهذا ينعي القرآن على اليهود وأهل الكتاب استعلاءهم على الناس وطغيانهم واستغلالهم حتى يقول إنه ما كان لبشر أن يأتيه الله الكتاب والحكمة ثم يقول للناس اتخذوني إلهاً من دون الله لنتبين في الهيمنة لماذا اهتم بالمنهج ولماذا كانت مشكلة المعرفة داخلة في الدعوة لرب العالمين ولماذا كانت نبوة محمد ﷺ ورسالته آخر الرسالات ولا يمكن أن نفسر رواة القرآن لسلطان أهل الكتاب والأديان إلا من خلال اضطهاد اليهود والنصارى للأميين من خارج أهل الأديان وكأن القرآن قد شن الحرب على هؤلاء وجعل منهج المعرفة منهجاً عاماً وعالمياً لكي يزيل إلى الأبد سلطان رجل الدين وسلطان الأديان أيضاً.

- لقد جعل القرآن لله وآياته الهيمنة على حركة التاريخ والحضارة والطبيعة كما تبدو للقرآن ككتاب للمعارف التي لا تنفد ولما يجب أن يضع الإنسان فيه الثقة واليقين فإنه رفع الحصانة على جنس الكتب السماوية ولهذا يقول القرآن إن الله أنزل فيه الذكر وأنه هو وحده الذي يحفظ المنهج الرباني ولذلك ليس في القرآن سلطان لأمة من الأمم وإنما السلطان كله لله وما خلق من الآيات والسنن والنواميس والفطرة الطبيعية ولهذا فهو يقول في

سورة «الرعد» إن كان للناس من دلالة على صدق المنهج فها هي آية «الرعد» تتحدى كل معرفة والطبيعة فيها تتحدث وتتكلم وتبوح بأسرارها لمن يريد أن يعرفه ولمن يريد أن يفهم ولمن يريد أن يكون له عقل راجح ورأي سديد.

- ما بشر به القرآن من قوامة المنهج الطبيعي وهيمنته فإنه قد تحقق بشكل مذهل، إذ قامت الحضارة المعاصرة على نفس المنهج بينما وقف رجال الدين في القرون الوسطى موقف العداء والتصدي، ومحاكم التفتيش وحرق العلماء وصكوك الغفران وتزييف الديانات كل ذلك قد وقف من العلم الطبيعي موقف الشك والريبة، لكن النهاية كانت انتصاراً لمصداقية القرآن وأنه لم يخرج صاروخ من نطاق الأرض إلى أجواء الفضاء إلا بهذا السلطان العظيم الذي بشر به القرآن وهو سلطان الطبيعة والله وآياته.

- لا ينفذ الإنسان إلى رحاب تلك العوالم إلا بسلطان وهو سلطان عظيم الشأن وجليل النتائج ومن كان يتصور تلك التقنينات والتكنولوجيا المتطورة الموجودة في مجالات الطيران ومجالات الفضاء إلا من خلال سلطان العلم الجبار وهو كما نراه يتجاوز كل عقل يحلم وكل فكر يتأمل وكل إيمان بالله يثق ويوقن لنعرف أن القرآن قد تجاوز تلك المراحل التي مرت بالأديان والملل والنحل ولم يبق في الميدان إلا آيات الله في الكون ومن لم يدرك هذا الأمر فإنه لم يدرس القرآن ولم يفهمه على وجهه الصحيح.

- ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾[1] تلك هي المشكلة التي

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٣٣.

استوعبت عشرات السور القرآنية الطوال وعشرات الكتب القرآنية من «الم» و «الر» و«المر» و «المص» و «طس» و«طسم» بل «حم» وكلها جميعاً كانت تدور حول بيان المنهج القرآني لنتبين أن ما توصل إليه القرآن هو سلطان عظيم تفتح له أبواب السماوات والأرض وهو منهج لا يرد ولا يخطىء، حتى أن هذا المنهج من استقراء الطبيعة ومساراتها وآياتها قد جعل علم الغيب وخبر السماء وأخبار يوم القيامة وما سيحدث فيه بين يدي محمد ﷺ الرجل الأمي الذي أرسل في غير أهل الكتاب والديانات ولم يكن له من سلاح إلا تأمل ودراسة الطبيعة من حوله.

- بهذا المنهج الطبيعي لله وآياته سقطت المراحل الدينية وحل العلم بسلطانه محل رجالات الأديان وأصبح القول الفصل للمعامل ومراكز الأبحاث وانفتح أمام الانسان باطن الأرض وأبواب السماء وتنبأ القرآن بأن الإنسان عن طريق هذا المنهج لا بد له أن يسيطر على كوكب الأرض سيطرة تامة ﴿**حَتّى إذا أخَذَت الأرْض زخْرفها وَازّيَنَتْ وظَنّ أهْلها أنّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْهَا آتَاهَا أمْرُنَا لَيْلاً أوْ نَهَاراً**﴾ ومن كان يتصور أن تكون نتائج هذا المنهج كما هي بين أيدينا اليوم في كل المجالات وما خفي لا بد أن يكون أعجب وأدهش وأغنى.

- ما إن يمسك العقل الانساني بسر من أسرار الطبيعة حتى تكون يده هي بعينها يد الله التي صنعت كل تلك العجائب بل إن القرآن يقول لنا في مجالات المعرفة إنه إن كانت النواميس والسنن تحكم عالم الطبيعة الأرضية فإن عالم الطبيعة السماوية لا يخضع لتلك السنن وتلك النواميس وهذه القيود، ولذلك يزيد الله في الخلق ما يشاء وهذا ما استطاعه الإنسان أن يستغل به هذا التطور وهذا الفتح ليخلق من قوانين الوراثة أجناساً جديدة لم توجد في الطبيعة، ومثله ما يستحدث في تطوير تلك القوانين لتجعل

هندسة الوراثة إمكان خلق الأجنة على صفات محددة عملاً عادياً بل إن أطفال الأنابيب وغيرها من تلك البحوث ربما جعلت من كائنات الطبيعة مخلوقات من الدرجة الثانية حتى يقول الله للإنسان لو أنك أمسكت بمنهج المعرفة كما هو عندي وكما هو مفصل في الطبيعة وآياتها لأصبحت بين أحضان الملكوت.

- هذا التداعي وانفراط عقد الأسرار والنواميس والسنن والفطرة وما يحدثنا القرآن عنه في «الرعد» والبرق والصواعق والأعاصير والأمطار ليست إلا بدايات للرؤية البصرية القريبة، لكن ما إن ينفتح عالم النفس الباطني أمام عقل الإنسان حتى يرى العجائب ليبين القرآن أن الطبيعة المادية خارج النفس كما تبدو في الطبيعة ما هي إلا صورة واحدة لما يمكن أن يخلقه الله من الصور حتى يحذرنا من ذلك وما استبطنته نفوسنا إذ هي على الحقيقة صورة لروح الله في الخلق والإبداع وهذا يفتح أمامنا باب الإبداع اللامتناهي وقدرتنا على ذلك في الحياة الدنيا وفي الآخرة كما أنه بنفس الخاصية يفتح أمامنا أبواب الجحيم لو أننا لم نستخدم هذا السلطان استخداماً راشداً، ولهذا يقول الكافر الفاسق المجرم يوم القيامة ﴿**يا ليتني كنت تراباً**﴾ لنتبين أهمية الأخلاق وأنها ضرورة كضرورة قدرة الابداع.

- ما إن يتحدث القرآن عن المنهج ويدلف إلى عالم النفس والحساب حتى يقول إن الانسان عن طريق هذا المنهج من الممكن أن يخلق لنفسه مليوناً من الملائكة الكرام المقربين ومن الممكن أيضاً أن يخلق لنفسه عن طريق نفس المنهج مليوناً من الشياطين والأبالسة وزبانية جهنم ولنا مثل مما استخدم فيه الديناميت واختراع نوبل لتلك المادة في أوجه الإستخدامات الحربية وأوجه الاستخدامات السلمية المدنية وما يمكن أن تكشفه الأحلام والرؤى وما يخلقه العقل الباطن أيضاً.

- حارب القرآن العادات والتقاليد والسلفية وشكك في التربية المأخوذة عن

الآباء والأجداد وحارب الأديان وقدم الدين الحق والدين الخالص والدين القيم واعتبر كل معرفة غير المعرفة الفطرية شركاً وكفراً وأصبح حتى على العقل الخالص واعتبره شيطاناً من الشياطين لنتبين أنه كان يريد صرح الله والطبيعة وحده حتى جعل من ذلك ديانة التوحيد إن كان للناس دين يتدينون به وعبادة يتعبدون بها لنعرف جلال الطبيعة وقدرها وقيمتها عند المنهج القرآني.

- إن مشكلة الاعتقادات مشكلة خطيرة عند القرآن لأنها تدلف إلى قضية المعرفة التي يترتب عليها الكثير من النتائج، ولذلك قدم القرآن لتلك المسألة في سورة «الأنعام» وجعل ينقد تخريم الناس لآذان الأنعام وتقسيمهم لها بحيث يكون هذا لأزواجهم وذلك لأبنائهم حتى جعلوا لله من ذلك نصيباً وحرموه على أنفسهم،ومثله قتل الأبناء بحجة القرابين البشرية ومسائل التحريم التي ليس لها سند في الطبيعة لندرك الذي تصل إليه تلك العقائد التي لا ضابط لها حتى تنتهي بالناس إلى السحر والشعوذة والخرافات والأساطير، وهو ما جعل القرآن ينتصر للطبيعة وحدها ويجعل منها قوامه على كل معرفة كي يسد الذرائع والأسباب أمام إفساد الخلقة، وهذا نتبيه بوضوح تام في الأطفال الذين يولدون مشوهين نتيجة للأدوية والمركبات الكيميائية والتي لم تجر عليها الدراسات اليقينية.

- هذا الاحتراز والتشدد في منهج المعرفة واعتبار الطبيعة المصدر الوحيد لها إنما كان لأن الإنسان هو كائن الدين والإعتقاد بل إننا لو أردنا أن نصف الإنسان بالطبيعة فلن نجد له طبيعة إله هذه الطبيعة الدينية التي تغلبه على أمره وشغب الناس بالدين هو فطرة مودعة في باطن النفس البشرية وذلك هو الخطر الداهم إذ ينقلب كل تحصيل للمعرفة ديناً يتدين به وعبادة يتعبد بها والمعرفة الخاطئة تدلف إلى هذا الباب دون وعي من الناس حتى تصير الأماني والخواطر النفسية عقائد للناس يتقربون بها إلى الله وما هي من الله

تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

○ عندما يتعرض القرآن للدور الإنساني فإنه يقدم الحرية والاختيار ثم يورد موضوع الهيمنة لنتبين أن تلك الحرية ليست حرية العبث ولا هي حرية الفوضى وإنما هي الحرية المسئولة، ولذلك يواجه القرآن بين الإنسان وما أودع فيه من طاقة العلم وإمكان الخلق وبين السنن والنواميس والطبيعة والفطرة حتى تتحقق الضمانة الموضوعية ويعرف الإنسان أن الصدق هو الاعتبار الوحيد لمعرفة الرب وأنه متى حصل الإنسان على ذلك كان على صراط مستقيم ولذلك يقول القرآن إنه ما من شيء في السماوات والأرض إلا ويسجد لله حتى ظلال الناس في الغدو والآصال.

○ يتساءل القرآن وهو يقدم الربوبية من أجل المعرفة فيقول من رب السماوات والأرض ومن هدى تلك الكائنات وقسم أرزاقها وجعل لكل خلق ناموسه وفطرته؟ من أين جاءت تلك الأنواع وتلك الأجناس وهذا الملكوت؟ إن دعوة القرآن لمعرفة الرب وأسراره ليست قضية خيالية وإنما هي قضية موضوعية وفي كل خلق من خلائق الطبيعة تطالعنا العناية.الإلهية الربانية ولهذا فليس غريباً أن يقدم رب الإنسان ظواهر البرق والرعد والصواعق وكل آية من آيات الطبيعة ليتعلم الإنسان وليكون له من ذلك ذخائر العلم والمعرفة والدارس للطبيعة هو الذي يتبين أنها هي المعلم لكل كائن وليس الإنسان وحده.

○ عند دراسة دودة العلق وما شابه من الحشرات الماصة للدماء مثل البعوض وغيره أمكن للانسان معرفة المادة الطبيعية المذيبة لتجلط الدم وأمكن عن طريق هذا الدرس الطبيعي إنقاذ حياة الملايين من أخطار الذبحة الصدرية وتجلط الدم في الشرايين وهذا مثل بسيط لما قدمه للإنسان والإنسانية لو آمن الناس برب العالم والكون وما بين أيديهم من الملكوت الذي

يحدثنا القرآن عنه ليشير إلى هذا المستودع العظيم لأسرار الخلق والإبداع والعلم.

- ﴿قل مَنْ رَبُّ السَّمَاواتِ والأرضِ قُلِ الله﴾ رب دودة العلق وهاديها ورب النمل ورب النحل ورب الوطواط ومبدع فكرة الرادار الطبيعي ورب الطيور وكيف أمكنها التحليق الميكانيكي والتحليق الشراعي الذي تستطيع عن طريقه أن تقطع آلاف الأميال حتى وهي نائمة دون شعور كما يفعل السمان والطيور المهاجرة وأسرار العلم في الطبيعة لا نهاية لها فهل أدرك الإنسان معنى الدعوة إلى عبادة ربه ومعنى تكريم رب هذا الملكوت للإنسان؟

- إن رحمة الله بالخلائق قد جاءتهم بالمعرفة حتى يقول القرآن لو نظر الإنسان في السماء ورأى الطيور وهي تحلق شراعياً دون أدنى الجهد لتبيّن أن الذي يمسكها في السماء والتحليق هو رب رحمان قدم لكل مخلوق ما يناسبه من العلم ومن المعرفة وهي قد تظهر للإنسان أنها معرفة ظاهرية والحقيقة أن المعرفة الربانية معرفة باطنية لا إرادة لأحد فيها وهي تنبت في العقل الباطن للإنسان وغيره ولذلك تحلق الطيور بالفطرة ويعرف ويعلم الإنسان دون أن يدري من أين جاءته المعرفة مثلما نزل العلم لدنا على محمد ﷺ ومن سبقه من الرسل والأنبياء.

- لكن الدارس للقرآن لا يتبين ملامح المنهج الطبيعي للمعرفة فيه كما أوضحنا من قبل لأن كل معرفة وقتذاك وفي الشرق كله كانت تنشأ في قلب الدين بحيث نرى الوصاية عليها في كل موقف وكما أوضحنا من قبل أصبح الكثير من القضايا الدينية كالربوبية والألوهية من اختصاص علم النفس وعلم الطبيعة والكيمياء وغيرها لأنها انفصلت من الأديان بالتطور ولذلك لم ينقض القرآن صرح الأديان وإنما جاء بالهيمنة والمنهج.

- يقدم القرآن مسألة وعقيدة «البداء» وأن الله يمحو ما يشاء ويثبت ويغير في اللوح ويفعل ما يريد ليبين أن أصل الإيمان بالله هو العقيدة في الحرية وما

يقدمه القرآن من السنن والنواميس وما يراه الناس في حتميات الطبيعة لا يعدو أن يكون من أجل المصلحة التي أرادها الله سبحانه وتعالى ولو أن الله لم يخلق تلك السنن لانقلبت الأشياء بالتداعي إلى أضدادها، ومثل ذلك خشي العلماء عند تفجير الذرة أن يستمر التفاعل دون توقف وفي ذلك كارثة كبرى وهنا تبيّن العلماء أن ما وضع في القوانين الطبيعية إنما هو لحكمة كبرى قد تخفى على الناس ولكن الأصل في القدرة الإلهية هو الإمكان والحرية.

- إن عقيدة «البداء» وما أراده الله من الكائنات والأشياء ووجوب هيمنة الخالق على العالم يستوجب أن يكون الرب بيده الأمور التي تحدث بين الكائنات ولذلك ينتقي الله بعض الكائنات للفناء ويخص بعضها بالبقاء والتطور ويفعل الله كل ذلك بحكمة وعلم ومثله علم القرآن إذ كان عند الله من قبيل تدبير الأمور فماذا يفكر اليهود وأهل الكتاب من رسالة محمد ﷺ؟.

- إن نزول نسق «المر» في معاني الرحمة ومعاني الهيمنة كان من الضرورة بيان الآيات التي تبرهن على تلك المعاني ولذلك ضرب القرآن مثلاً في ذلك بآية «الرعد» وأوضح للناس أن المعاني التي يتداولها القرآن يكفي آية واحدة من آيات الطبيعة حتى تجعل لها من مكانة الصدق واليقين ما يتبين منها الذين يشككون في بعثة محمد ﷺ أنها حق وأنها صدق وأنه رسول من الرسل قد أتى الناس بالمنهج.

يجب أن يتبين الإنسان في أسماء الله الحسنى الرمزية أنها لا تشمل السور التي بدأت بالرموز فقط وإنما تمتد معانيها في غيرها من السور مثل سورة «النساء والأنعام والمائدة» والتي تعتبر امتدادات لما ورد في سورة «البقرة» وسورة «آل عمران» وهي استيضاء لمجال الهيمنة والمهيمن «الم» ومثل ذلك ما تبيناه من احتواء المعاني الفقهية للمهيمن «الر» لما ورد في «الر» الرحمن وما

نزل فيه من سورة «يونس» و «هود» و «ابراهيم» و«يوسف» و«الحجر» وما أورد القرآن سورة «الأعراف» إلا لتكون صورة جامعة لما بين «الر» و «ص» من الفكر والفقه في تلك الأسماء ليتبين العقل امتدادات البنيوية والموضوعات التي تجري فيها الهيمنة، ومثله ما ورد في «المر» من سورة «الرعد» ولذلك نلاحظ امتدادات كتاب مثل «المص» والذي شمل سورة «الأعراف» ليستكمل معانيه في سورة «الأنفال» وسورة «التوبة».

هذه المسألة هي التي تكشف لنا معنى وجود السورة المحكمة في القرآن وهي تلك السور الأمهات التي بدأت بالرموز لأسماء الله الحسنى وتلك السور التي لم تفتح بها لنعرف أن تلك السور ملاحق لما ورد في الأخريات حتى تكاد تكون «النساء» و«الأنعام» و«المائدة» و«الأنفال» و«التوبة» هي من أعمال الناس اليومية وحياتهم ومعيشتهم قد ضمت في الفكر القرآني ليس من أجل العقيدة إذ العقيدة في الله وأسمائه وإنما هي في مطالب الدنيا والتنظيم والتشريع.

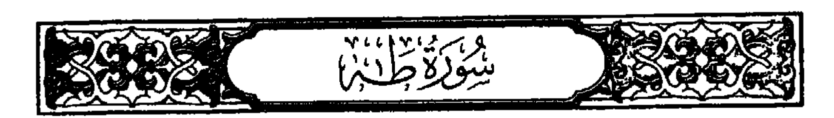
تناولنا السور القرآنية التي وردت في أمهات «الم» وهي «البقرة» و«آل عمران» و«العنكبوت» و«الروم» و«السجدة» و«لقمان» وأم كتاب «المص» وهي «الأعراف» ومثله كتاب «الر» وما ورد فيه من سورة «يونس» و«هود» و«إبراهيم» و«يوسف» و«الحجر» ثم تناولنا أم كتاب «المر» وهي سورة «الرعد» وأوضحنا في هذا الفكر أن القرآن ينسب كل معارفه إلى الذات الإلهية ليكون من ذلك وضوح تلك الذات بل أقول إن القرآن رحمة بالمؤمنين بالله قد جعل لتلك الذات بين الناس شخصية الفعل والتصرف والهيمنة حتى في حياتهم اليومية، وبيَّن ذلك لموسى فقال له إنه لن يذهب إلى فرعون وحده وإنما سيكون هو معه يسمع ويرى ويحضر حضوراً مادياً وأن ذلك كله قد كان من أجل البيان والتبيين وأنه قد يجوز أن يكون لله يد تبطش بالمجرمين وتطول الفاسقين وأنه لا يضل ذلك في إيمان المؤمن حتى يشبّه عليه.

لكن المعايشة مع القرآن هي التي كشفت لنا أن هذا الفكـر الريـاضي الذي تضمن فقه الأسمـاء الحسنى في الرمـوز هو فكـر بنيوي يتـطلب الجهد الكثير والدراسات الشاقة لبيان علاقاته، فمن أراد هذا الأمر وأخذ له عدته فعليه بالنظرة الكلية للقرآن ولا يمدن عينيه إلى آيـة بمفردهـا حتى يتبين الموضـوع والمناسبة بل عليه أن يتبين الاسم والرمز الـذي تنتمي إليه ليعـرف الموضـوع والنتيجة.

الباب الخامس

الفصل الأول

نسق «طه» «طاهر - هادي»



القضايا ومحمولاتها:

١ ـ إن الله هو الذي أنزل القرآن على قلب محمدﷺ ولذلك فلن يكون هذا القرآن في يوم من الأيام سبباً لشقائه أو حزنه أو تعرضه للأذى من الكافرين والمجرمين والمشركين أبداً.

٢ ـ إن هذا القرآن قد نزل لتذكرة الناس وما عليك يا محمد من حسابهم من شيء سواء كفروا أم آمنوا إذ حسابهم عند ربهم فلا يحزنك الذي يقولونه من أنك ساحر أو أنك مجنون أو أنك دعي مفترٍ.

٣ ـ هذا التنزيل القرآني لن يكون إلا ظاهرة من ظواهر الخلق والإبداع في القدرة الإلهية والسماوات العلا للنفس البشرية هناك لمزيد من هذا الخلق وهذا الإبداع وما محمدﷺ والقرآن إلا آية لتلك القدرة.

٤ ـ إن الله سبحانه وتعالى منه الكمالات النفسية للإنسان وهو لا يريد شيئاً من الإنسان والناس وإنما يريد بهم الرحمة، والقرآن وما نزل فيه إنما هو

رحمة للعالمين ولن يكون هذا القرآن أداة من أدوات القوة أو الظلم كما يريد له الكافرون والمشركون.

٥ - إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يجري في الأرض وما يجري في السماء ويعلم ما تحت الثرى وإن كان محمد ﷺ يخفي عذاباته وما يلاقيه من الناس فقدعلّمه الله ولذلك فهو يوضح له الأمر في شأن نفسه وشأن القرآن ولن يكون ذلك سبباً في شقائه وتعاسته.

٦ - إن تلك المسألة التي خطرت لمحمدﷺ من شقائه بسبب القرآن تدخل في العقيدة ولذلك يبيّن الله لمحمدﷺ أنه ما استوى على العرش واستولى على الملكوت إلا من خلال اسم حميد وكل صفة كريمة ولذلك فللّه الأسماء الحسنى ولا يمكن أن يكون الأمر كذلك ويدعه للشقاء وللتعاسة بسبب ما بين يديه من القرآن ومسؤولية الرسالة.

٧ - إن الألوهية التي كتبت لله وحده هي التي ستحسم الأمر في النهاية وأن تلك الألوهية هي التي نصرت أنبياء الله ورسله من قبل ولذلك لا يستقيم الاعتقاد في التوحيد والألوهية والظن بالله ظن السوء إذ هو ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾.

٨ - إن ما نزل على محمدﷺ ليس من عندياته وإنما هو من لدن الله ومحمدﷺ لا دخل له في ذلك وما القرآن إلا تذكرة للناس لأن الإنسان طبيعته النسيان والغرور والحماقة ﴿**وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكراً**﴾[1].

٩ - لن يتبين الناس جلال هذا الفكر القرآني وما تنبأ به وما قدمه في شأن العقيدة وشأن الإيمان إلا عندما تقوم القيامة الكونية وتبدل الأرض غير الأرض ويبرز الناس للرحمن من قبورهم وأجداثهم.

١٠ - يتعجب الكافرون مما يتنبأ القرآن من فناء العالم والقيامة الكونية ولذلك

---

(١) سورة طه: الآية ٩٩..

يرد القرآن بأنه حتى الجبال ستنسف ويذرها الله كأعاصف لا يرى فيها الناس عوجاً ولا أمتاً ولا نتوءاً حتى إذا حملت الأرض والجبال فدكتا دكةً واحدة فيومئذ وقعت الواقعة التي يكذبون بها.

١١ ـ هذه النبوءة الجليلة الشأن تتضافر عناصرها مع العلوم الفلكية المعاصرة وأن العالم الكوني له من الأعمار ما للإنسان ولأي ظاهرة مخلوقة وعمر الشمس والأرض وغيرها لم يعد نبوءة وإنما هو حقيقة وما أخبر عنه القرآن قد استقام لأن القرآن يؤمن بنظرية التطور التي تحكم كل شيء في الوجود حتى الجبال والتي يحسبها الإنسان ثابتة لا تتحرك ﴿**وترى الجبالَ تحسَبُها جَامِدةً وهي تَمُرُّ مَرَّ السَّحَاب**﴾.

١٢ ـ هذا الجلال القرآني يكذب به الجهلة والكافرون والمشركون لأنهم لا يعلمون ما أخفي لهم في الحياة الآخرة وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كيوم لو قيست بالأزمان التي سيحياها الإنسان في الآخرة ومن يستكبر على الله أمور القيامة والبعث لا يدرك السنن التي خلقها الله في الطبيعة البشرية.

١٣ ـ إن الله وحده هو الذي يعلم ما بين أيدي الناس من ظواهر الطبيعة والسنن والنواميس والفطرة وتطور ذلك كله وهو يعلم الآماد التي يستقرها كل فلك وكل عالم من عوالم الأرض وعوالم السماء والنفس، وهو يعلم ما خلف الناس من أسرار قيامة العالم وأسرار يوم البعث، ومهما قال القرآن في تلك الأسرار فهي نقطة ماء في محيط إذ أن علم الله الظاهر لا يعبر عن علمه الباطن ولو كان البحر من بعده سبعة أبحر ما نفذت آيات الخلق ولا أسرار السنن فماذا ينكر الكافرون من ربهم؟.

١٤ ـ إن الله هو الحي على الحقيقة فهل لحياة الله بداية أو نهاية حتى تنفد

السنن والقوانين والنواميس وما احتوى ذلك كله من أسرار العلم والمعرفة الربانية؟.

١٥ - إن الله هو الحي القيوم في كل جيل وفي كل أمة وفي كل عالم وفي كل ملك ولذلك فقد خاب من حمل ظلماً لأنه بهذا الظلم أحدث في ملك الرحمن ما ليس فيه وهو ملك قد بني أصلاً على الأسماء الحسنى والرب في القرآن هو الرحمن الرحيم وأن رحمته وسعت كل شيء فكيف بالمجرمين الذين يتعرضون لمحمدﷺ ويكذبونه؟.

١٦ - إن تعريف القرآن للمعاني كان القصد منه ترويع وتخويف الناس من ارتكاب الجرائم مثل الظلم والفسوق والعصيان لعل ذلك يحدث لهم ذكراً ويكسبون من ذلك نجاتهم وسعادتهم.

١٧ - إن الله هو الملك الحق وهو ملك قد أقام ملكه على العلم والمعرفة ولذلك ما على محمدﷺ إلا طلب المعرفة والعلم والاستزادة من ربه لعله يبلغ مبلغ الرسل الذين صبروا وجاهدوا في الله سبحانه وهو ناصره ومنجيه كما نصرهم ونجاهم.

١٨ - إن ما يعتري محمداًﷺ من مظنة الشقاء بالقرآن إنما يرجع لأنه لم يزل ناقص المعرفة التي تكشف له عن معاني الأسماء الحسنى مثل الحي القيوم فكيف بالله يظن في ربه هذا الظن وقد استوى ربه على العرش والملكوت بالرحمة والأسماء الجليلة التي لا يمكن أن يفهمها الناس فهماً على حقيقتها.

١٩ - ﴿فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[1]. ولذلك يتقدم القرآن في معرفته بالله وبالأسماء الحسنى من مرحلة إلى أخرى وهو يكشف لنا من خلال

(١) سورة طه: الآية ١١٤.

الأحداث التاريخية والطبيعية والإنسانية كيف يوصف الله بالحياة فيصير حياً ويقيم تلك الحياة من خلال الأسماء الحسنى ثم يكشف لنا كيف يكون الله قيوماً في توضيح وبيان الهيمنة «الم» ويعبر إلى بيان كيف يكون الله رحماناً «الر» وكان ذلك في عملية اطلاع وكشف، ولو قلنا بأن الله في عصر القرآن الحي القيوم فإنه أيضاً في عصر العلم ومن الممكن أن نقول الله التكنولوجي أو الله الكيميائي بحسب التطور المعاصر ومن كان يصدق من العرب وقتذاك لو شاهد صاروخاً منطلقاً من الأرض أو من غواصة أو سفينة فضاء مما اخترعه الإنسان بقوة الحي القيوم بقوة الرحمن وبقوة المهيمن وبقوة العليم الحكيم.

٢٠ - إن عجب القرآن أنه لا ينظر في الوجود أو المعرفة أو حتى الشعور إلا ويجد الله ماثلاً أمامه في اسم أو صفة حتى صارت المعرفة في القرآن عبادة ولذلك جاء ﴿وقل رَبِّ زدني علماً﴾ لنتبيّن خطورة أنساق أسماء الله الحسنى خاصة تلك الأسماء الرمزية التي أفتتحت بها أمهات الكتاب من السور والآيات.

٢١ - ما إن تقع آية في علم القرآن حتى يقول إنها من الحي أو من القيوم أو من المهيمن أو من الرحمن أو من الطاهر أو من الهادي أو من العزيز أو من الجبار أو من المتكبر لنتبين النسق الذي تجري فيه الأسماء الحسنى وأنه نسق علمي موضوعي يتحقق بين يدي الناس ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم وأن دارون وماركس ونيوتن وآينشتين وكل عالم من العلماء رأى جانباً من الله لم يره غيره حتى لو لم يعرف أسماء الله كما عرف القرآن.

٢٢ - يقول القرآن لمحمدﷺ وقد انتابته الشكوك والظنون في الناس إن المسألة في الإيمان ليست مرهونة بإرادة الإنسان وحده وإنما هي السنن والنواميس الطبيعية التي تعمل خارج إرادة الإنسان، ولو نظر في شروق

الشمس وغروبها وتتابع الظواهر الفلكية من الليل والنهار دون تدخل من أحد لعرف أنه مهما كفر الناس ومهما أشركوا فإن الحياة ستمضي رغم أنفهم والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

٢٣ ـ عندما يورد القرآن آيات التسبيح وأنه ما من شيء إلا وله فعل يسبح به الله رغم أنفه ويتصل بهذا الفعل مع الكون كله ليجعل الله من ذلك وحدة الوجود ووحدة الخلق فإننا نتبيّن معنى هيمنة الله ومعنى سور «التسبيح» وأنها عقيدة تبعث إلى الإطمئنان والثقة في الذي خلق حيث جعل من تلك النواميس الخفية أدوات ووسائل للهيمنة ولذلك كان نصر الله لرسله شيئاً مؤكداً، ومثل ذلك قال ابراهيم للانتصار لربه إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها أنت من المغرب لبيان أن الله رب الإنسان والطبيعة والنواميس وهو المهيمن على الطبيعة والحقيقة وهو العزيز على اليقين وهو الملك الحق الذي يجب أن يدين له الناس بالولاء والطاعة.

٢٤ ـ يقول الكافرون في القرآن إنه قول ساحر وإنه قول كاهن والحقيقة بخلاف ذلك إذ أنه من جنس بينة ما في الصحف الأولى ولو أنهم كانت لديهم المعرفة التي عند علماء بني إسرائيل وأهل الكتاب لتبينوا أنه من جنس الكتب السماوية وليس بحديث يفتريه محمدﷺ ليخلع على نفسه ما ليس له.

البراهين التي استخدمها نسق «طه» لبيان أن الله طاهر وأنه هاد:

- يقدم القرآن الآيات وقد تكون الآية فلكية كالليل والنهار أو الشمس والقمر وقد يقدم الآية جغرافية من البحر والنهر أو من الوديان والجبال وقد تكون الآية نباتية مثل التين والزيتون وغيرها وقد تكون حيوانية مثل الإبل والضأن أو تكون آية نفسية وهي ما يحدثه عنها في هذا النسق فيقول له «هل أتاك

حديث موسى» أي تلك الآية النفسية التي كانت في حديث موسى مع ربه وتجلياته في النار والشجرة المقدسة.

- إن القرآن يقدم الآيات في شتى الموضوعات ولذلك ما أن يبدأ في صدر كل كتاب أو سورة حتى يقول تلك آيات الكتاب أو تلك آيات القرآن وكتاب مبين ليخدم قضية البيان والتفصيل والبرهان وهو هنا يقدم تلك الآية النفسية التي كانت بين موسى وربه في هذا الحديث ليبرهن على أن الرب لن يترك الرسل يتعذبون بما حملوا من مسؤوليات الرسالة ولذلك فهو لن يترك محمداً ﷺ حتى يشقى بالقرآن والرسالة.

- هذا الحديث الرباني الذي كان بين موسى وربه واستجابة الرب لما طلبه موسى من الدفء والأنيس والرفيق تحقق بصورة نفسية رائعة إذ وجد موسى النار التي طلبها من أجل الدفء بل إنه وجد حولها الأنيس والرفيق ومن يناديه باسمه فيقول له لماذا لا تذهب يا موسى إلى فرعون وها أنت برعاية الله وعناية السماء حتى يقول له ربه اذهب أنت وهارون وأنا معكما لأسمع وأرى.

- من خلال القرآن يعتبر الحادثة والآية النفسية آية حقيقية حسية مادية لها قوة الفعل المادي ولذلك يستشهد القرآن بانتصار موسى وهارون وتصديقهم لرب موسى وذهابهم إلى فرعون.

- هذا البعد النفسي قد كشف عن قيمة التربية المعاصرة إذ تبين أن أحلام اليقظة ولو أنها ليست وجوداً مادياً ولكنها حافز عظيم لتطور الإنسان من الحالة السلبية إلى الحالة العملية والنجاح والتفوق وهذا هو البعد الإنساني الفائق للطبيعة المادية والواقع الجامد.

- إن النار وما رآه موسى حتى كلّمه ربه هو الذي يكشف لمحمد ﷺ هذا الناموس الثاوي في الباطن النفسي لكل إنسان وأنه

ما أن يتعرض الإنسان للضغوط الخارجية حتى يهب يدافع عن الإنسان ويسرّي عنه في الأحلام بنوعيها في اليقظة والمنام بل إن حالات الهروب في الهستيريا وغيرها ما هي إلا ألوان من ألوان هذا الأمر الذي تلجأ إليه النفس للتوقيع والتخفيف وللتحويل وكل الآليات التي تحدث في المرض النفسي تأخذ بدايتها كلها من هذا الجانب الذي يحدثنا القرآن عنه.

- لم يكن موسى في هذا الحديث مع ربه مريضاً نفسياً وليس كل حديث للنفس له الدلالات المرضية بل إنه أعقل العقلاء ولا تصح منه النفس إلا بهذا الحديث وهو طبيعة فطرية في كل نفس ووجود الأنا والأنا الأعلى المثالي والأنا الفردي والأنا الجمعي يجعل نفس كل فرد منا ميداناً لهذا الصراع ولهذا الحديث وما الإنسان على الحقيقة إلا بوقاً لتلك الأنوات ينفخون فيه أصواتهم وأفعالهم طول الوقت.

- هل يخلو إنسان بالفطرة السليمة من حديث النفس وخذ وهات بينه وبين ضميره ووجدانه؟ في الصحراء الباردة العارية يطلب موسى الدفء والأنيس وهو مطلب طبيعي ويرى موسى النار والشجرة المقدسة وفي كل ذلك لا يذهب الواقع منه أبداً إذ القضية أنه راجع لملاقاة فرعون الطاغية وكأن تلك اللحظات عند النار والشجرة هي اليد الحنونة للرب قد تجلت أمامه لتأخذ بيده وتشد أزره ولو لم يكن هذا اللقاء من حلم اليقظة وحديث النفس لما أقدم موسى على مواجهة فرعون حتى أنه في الحديث يطلب من ربه أن يشد أزره بهارون ويلح في هذا الطلب فيقول له الرب لقد أوتيت سؤلك يا موسى وها هو هارون أصبح وزيراً لك ومن قبل شملك الله برعايته وأنت ما زلت طفلاً في قصر فرعون.

- في الحديث النفسي تتجلى الآيات الحقة ولذلك يقول الرب لموسى ﴿**وما تلك بيمينك**﴾ ويرد موسى بأنها عصاً يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه لكن الرب يوضح له أن تلك العصا ليست كما يقول إذ يمكن أن تتحول إلى

ثعبان به حركة وحياة وهكذا كشف له ربه أن الأشياء كما تبدو في الوعي واليقظة تنقلب طبيعتها في الباطن النفسي وتكون العصى ثعباناً ولذلك فإن عليه أن يخاطب هذا الجانب النفسي لدى الفرعون وملئه وسيكون النصر من نصيبه.

- تلك الآية الكبرى التي كشفها رب موسى له أثناء هذا الحديث هي التي يجب أن يتوجه بها الرسل إلى الناس والنار والشجرة، والعصى بالنسبة لموسى ووعيه قد كانت بخلاف ذلك كله عند رب موسى وعندما كتب «فرويد» تفسير الأحلام فإنه اكتشف اختلاف الوظائف للأشياء وعندما تظهر في الرؤى الأحلام وكذلك انقلبت العصى حية سامة تسعى بل إنها ابتلعت بالحجة ما قام به السحرة.

- تلك الآية التي ظهرت مع حديث موسى وربه قد بيّنت أن تلك القوة الروحية للإنسان هي عالم في النفس البشرية وما أن يتعرض الإنسان من متاعب حتى تنهض تلك القوة ولذلك يقول رب موسى له ﴿**اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى**﴾ ليتبين موسى أنه بعالم آخر غير مألوف للناس بل إن هذا العالم وهذا الوادي المقدس المطوي في النفس ليس في إمكان إنسان أن يصل إليه ولذلك اختار الله موسى بالذات ومحمداًﷺ بالذات فليس كل إنسان مؤهلاً لهذا الأمر حتى يقول الكفرة ﴿**لو أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾.

- يقول الناس على هؤلاء الرسل إنهم مجانين ومرضى نفسيين والحقيقة بخلاف ذلك إذ أنهم بشر ذو طبيعة روحية خالصة تستطيع أن تتصل بهذا العالم المطوى في النفس البشرية وظاهرة رؤية ابراهيم للملائكة وحديثه معهم وحديث موسى مع ربه ونزول الوحي بالقرآن على قلب محمدﷺ ما هي إلا ظواهر للتعبير عن هذا الاتصال والمشكلة في أن يعرف الإنسان طبيعته الخاصة والقرآن ما يشرح حديث موسى وربه إلا لبيان الأمر في

طبيعة محمدﷺ وأنه لن يشقى بالقرآن بل سيكون سعيداً بهذا اللقاء السماوي.

- إن حديث موسى مع ربه قد كشف له أن رب الإنسان لا يمكن يكون هو الفرعون أو يكون هو الطغيان أو يكون هو السلطان أو يكون هو المال أو يكون هو الولد أو يكون هو العشيرة أو الزوجة أو أي شيء خارج النفس إذ أن الإنسان ترعاه القوة الذاتية الباطنة في نفسه ولذلك ما إن تعرض موسى للمتاعب حتى ظهر له الرب وأخذ يحدثه ويسمعه ويتكلم معه حتى يقول القرآن إن موسى كلم الله بالفعل﴿**وكلم الله موسى تكليماً**﴾ ليتبين موسى أن الإله الحق هو إله واحد وهو بالتعيين رب الإنسان والذي يرعاه ويحرسه في كل وقت وفي كل موقف وفي كل حين وهو الذي يقلب له معاني الأشياء حتى صارت العصى بين يديه ثعباناً هائلاً بل إنها فرقت البحر بضربة واحدة.

- هل يؤمن العصر بتلك السيكولوجية؟ هل يتبين العلماء الطبيعيون والماديون والتجريبيون هذا الجانب النفسي الذي يحدثنا القرآن عنه؟ تلك هي المشكلة التاريخية والتي كانت بين محمدﷺ وقومه وبينه وبين أهل الكتاب وما زالت تلك المشكلة بلا حل!!!.

لقد اكتشف العلم المعاصر علم النفس الفرويدي والتحليل المتتالي واكتشف علم النفس الفردي واكتشف القدرات الفردية واكتشف وما زال يكتشف ألواناً من المرض النفسي والعقلي والعصبي وهو في كل ذلك لم يستطع أن يفصل بين ما هو عنصري وبين المشكلة التي قدمها القرآن لمحمد ﷺ وهي مشكلة الحلول الذاتي عند كل فرد فهي تكاد تكون وجداناً وشعوراً خالصاً لا يمكن التحقق منه في الخارج وإلا كيف لهذا النبي الأمي الذي لا علم له بالسيكولوجيا أو بالأديان يقدم كل تلك المعارف الجليلة والعظيمة التي وردت في القرآن إلا أن يكون هناك جانب لله في تلك النفس البشرية وهو

الذي يحدثنا عنه القرآن في حديث موسى مع ربه.

- إن المشكلة بين العامة من الناس والرسل هي مشكلة السيكولوجية والبعد النفسي وهو بعد بكل أسف لا يمكن قياسه وتقنينه أو قياسه بالمعايير العلمية والمادية وما زال علم النفس والعلوم الإنسانية تفتقر إلى تلك القياسات والضوابط ولكن القرآن لا ينظر إلى هذا الأمر لبيان أن الكافرين كانوا على الباطل وإنما يقدمه ليبيّن لمحمدﷺ أنه فرد ذو طبيعة خاصة وأن هذه الطبيعة ستغنيه عن كل المشاكل مع الناس ولذلك يقول له بعد تقديم حديث موسى﴿لعلك ترضى﴾أي لعلك تعرف نفسك وترضى عنها لبيان أن الله طاهر لا يضر وأن الله هاد وأن السماء ستحمل عنه عبء القرآن والرسالة.

- إن الكافرين يحاولون أن يشككوا محمداًﷺ في ربه ونفسه ولكن الوحي يقول له أيهما أعقد وأصعب في التجربة الروحية نزول القرآن على قلبك أم حديث موسى مع ربه؟ إن ما حدث مع موسى وتجربته الروحية يدهش العقول ويذهب الألباب لأنه ترتب عليه انتصار أمة مستضعفة مغلوبة على أمرها وهزيمة طاغية كبير كفرعون وملأه لنتبين أن القرآن عندما يبيّن أن موسى كان برعاية الله وربه حتى عندما ألقته أمه في اليم وهو طفل إنما يريد أن يطمئن محمداًﷺ وأنه أيضاً برعاية ربه وعنايته وليست التجربة الروحية معه خبلاً أو جنوناً كما يزعمون.

- **﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**[1].

لقد كان رب موسى هو الذي صور له هذا المشهد من النار وحولها

(١) سورة النمل: الآيات ٧ - ٨ - ٩.

الناس يتحدثون إليه ويشجعونه ويقولون له لا تخش من فرعون ولا من جيوشه ولا طغيانه وأن تلك النار المقدسة هي التي يتعبد بها اليهود والنصارى وأهل الأديان لأنها تجليات الرب وما النار والشجرة وغيرها مما نتبينه في الآية النفسية إلا ظاهرة ربانية روحية مثل ظاهرة القرآن والتوراة والإنجيل (اقرأ كتابنا «علم النفس من القرآن») و (كتابنا «نظرية علم النفس القرآنية») لتتبين أن ما ورد في قصة الخلق من الشيطان والإبليس والله والملائكة والإنسان والهدهد والعفريت وما ورد في شرح القرآن لقوى سليمان الروحية من المخيلة والمصورة والذاكرة إنما هو بيان لـقدرات الإنسان وما يتمتع به من تلك السيكولوجية حتى يتجلى رب موسى في النار ويتجلى رب محمدﷺ في القرآن العجيب.

- لا يقدم القرآن قصة موسى في نسق «ط». «هـ» إلا لبيان أن الله طاهر وأنه هاد وأنه يخرق ما اعتاد عليه الناس حتى أنه إكراماً لمريم وما كانت عليه من التقوى والورع بعث لها ملكاً في عملية تلقيح ذاتي كانت نتيجته ولادتها لعيسى دون أن يمسها بشر أو تلقيح من خارج، وأن الحوادث الروحية والسيكولوجية هي أساسيات حركة النفس البشرية ليعرف الناس أن حياة الإنسان وما يتمتع به من العقل والإدراك إنما هو نتيجة لتلك السيكولوجية ولذلك يمتاز الانفعاليون بالحركة والإرادة والفعل المدهش ونابليون لم يكن ينام في المعارك إلا ساعتين على جواده.

- هذا التجلي لرب موسى في النار قد جعل عبادة ومنذ تلك اللحظة فرضت الصلاة كذكرى لهذا الحادث الجليل ومثل أيام الله والحج والنسك وكل ما يتعبد به إلى رب الإنسان لنتبين قيمة الصلاة كصلة روحية وأن فريضتها في سورة «طه» إنما جاءت لبيان أنها رحمة وأن موسى أمر بها عند الشدة ليتذكر أنه بين يدي رب ومثله ما أخبر القرآن أن يقيم محمدﷺ الصلاة مع حركة الشمس وعند غروبها ليجمع بين ما يكون من الرب في رعاية الشمس وما يكون منه في رعاية محمد ﷺ ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ

اللّيلِ وقُرْآنَ الفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾[1]، لنتبيّن أن عبادة الصلاة والمناسك إنما هي من أنساق الطاهر والهادي والرحيم.

○ يقول القرآن إن ما حدث من ظاهرة تجلي رب موسى له في النار ومن حولها من صور الناس هو بمثابة آية عندما يتجلى الله تجلياً روحياً في كل نفس بعد موتها ليتبين موسى أن الحياة وحقيقتها ليست في الأجساد وإنما هي في النفوس والأرواح والناس لا يدركون هذا الأمر الخطير في نفوسهم ولكن ما حدث لموسى وتجليات ربه في النار وفي الشجرة جعلت موسى يوقن أن هناك حياة أخرى ولذلك يقول رب موسى له **﴿إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾**[2] ومثل هذا التجلي ما حدث لمحمدﷺ ونزل القرآن به إذ لم يكن هذا التجلي بإرادة موسى ولا بإرادة محمدﷺ وإنما هو بإرادة الرب.

○ يوضح القرآن هذا الأمر في تجربة موسى النفسية والروحية لبيان أن ما ورد في القرآن من ذكر الآخرة كان له الشاهد في التجلي والبرهان القاطع لذلك الأمر طلبه موسى نفسه إذ قال **﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فلما تجلّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَه دكًا وخرّ مُوسَى صعقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[3]، لذلك كان الظاهر في الأشياء والناس غير الباطن واصطفاء هذا الرب الباطن لأفراد بعينهم لمثل تلك التجليات والحوادث النفسية والروحية إنما هو من قبيل الآية والرسالة والإنذار.

○ في التجلي الروحي تحدث ظاهرة الكشف والإلهام ويعرف الإنسان من البينات والآيات ما يؤيد به دعواه ومثلما قدم رب موسى تسع آيات من الضفادع والدم والجراد والقمل وغيرها كذلك قدم رب محمدﷺ علم

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٨.
(٢) سورة طه: الآية ١٥.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

القرآن وقضاياه ومعارفه دون سابق علم أو سابق معرفة ليتبين محمدﷺ أن اصطفاء الله له وجعله نبياً ورسولاً لن يكون من أسباب شقائه أبداً وإنما سيكون من أسباب عظمته ورقيه ورفعته وما عليه إلا طلب المزيد من العلم «وقل رب زدني علماً» ولذلك يقدم نسق «ط . هـ» الطاهر الهادي تجربة موسى الروحية ليكون منها آية له ولقومه أيضاً.

- يبين القرآن لموسى شيئاً عجباً إذ يدرك أن مشكلة الإنسان الكبرى هي على التحديد الخوف من الموت والفناء مع أن هذا الأمر وهذا الشك وهذا الاعتقاد خاطىء من أساسه ولذلك رأينا آية كبرى في التجلي إذ يبين رب موسى له أنه ما من شيء في الوجود إلا ويستبطن نوعاً من الحياة حتى ما يراه من الجمادات ولذلك أمره بإلقاء عصاه التي يمسكها ميتة بغير حركة وما كاد يتركها لربه حتى نفخ فيها الروح وأصبحت حية تسعى بين يديه حتى أن موسى أخذه الفزع والذعر مما يراه ورغم ذلك أمره ربه بأن يمسكها مرة أخرى فأصبحت بين يديه جماداً ميتاً ليبين له أنه ما من شيء بين يدي ربه إلا وهو حي فما بالك بالإنسان وكرامته عند الله وعند ربه.

- ما أن تكون العصا بين يدي موسى الظاهر حتى تموت وما أن تكون نفس العصا بين يدي موسى الباطن وهو رب الإنسان حتى تحيى ولذلك تنقلب الأشياء في الأحلام إلى كائنات حية مثلما تتحول الجبال إلى ثعابين والمشكلة هي أن نصدق بالروحية أو تغلبنا المادية على أمرنا، ولذلك رأينا سحرة فرعون يخفقون لأنهم قالوا بقوة فرعون ولكن موسى ألقى عصاه بقوة الرب وهو الحي القيوم الذي يهب الحياة للجماد نفسه ﴿ **فَأَلْقَوا حِبَالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَون إِنَّا لَنَحْنُ الغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يأْفِكُونَ** ﴾[1]، وهكذا انتصر رب موسى لأن الحياة بيد الله ويد الرب ولم تكن أبداً بيد الطغاة وفرعون.

---

(١) سورة الشعراء: الآيتان ٤٤ ـ ٤٥.

○ وعنت الوجود للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً، لقد كشف التجلي أن الحياة في الروحية تشمل الجماد والكائن الحي ولذلك تأخذ الأحياء عناصر التغذي من الجماد ومصادر الأرض والنبات يتغذى على الجماد والحيوان يتغذى على النبات وليس هناك فعل بين ما هو ميت ظاهرياً وبين ما هو حي، والمسألة هي قصور علم الإنسان لها من قوة الحياة وبئس الألباب وليس هناك موت على الحقيقة والمسألة لاتعدو أن تكون ظاهرة للوعي فقط وهو درجات في كل خلق وما بعث الإنسان إلا مسألة من مسائل الروحية والوعي ولذلك قدم رب موسى بعد أن أوضح له وجود الحياة الباطنية وبعث الإنسان وأنه لا خوف من الفناء والعدم للعقيدة التي لا تخيب أبداً فقال له اضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء ولذلك ما أن يكف الإنسان يده عن الغير فلا يطغى على الناس حتى تسلم يده وسريرته وأن المشكلة للإنسان كلها تتعين في عشقه وشغفه للطغيان ولذلك يقول القرآن ما أن يرى الإنسان ربه حتى يستغني به عن كل لون من ألوان الطغيان لأن رب الإنسان هو الطاهر وهو الهادي أيضاً ﴿**كلا إن الإنسان ليطغي أن رآه استغنى**﴾.

○ كأن القرآن يقول لمحمدﷺ في مجال بيانه لاسمين جليلين من أسماء الله الحسنى وهما الطاهر والهادي «طه» أنت ما دمت بعين رعاية الربوبية فكيف تشقى بالقرآن وكيف تحمل هموم الرسالة؟ وما دام الأمر كذلك فها هو موسى وحديثه مع ربه قد جاءه بآيات الحياة الكبرى وها هو يلقي بعصاه فتأكل ما يأفكون وها هو يضرب بها البحر فيجعل لهم طريقاً يابساً وها هو يقرع بها على الحجر فيخرج منه الماء ليبين أن الربوبية موضوع كبير وعلم خطير وروحانية لا يفهمها الدهماء والعامة.

○ في القرآن نتبين أن الخيط بين النفسية والروحية خيط رفيع بحيث لا يستطيع الإنسان أن يتبيّن الظاهرة وانتماءها وتشخيصها وهل هي ظاهرة

نفسيـة مرضيـة أو روحية علميـة واعية، وهـو نفس الشيء في علم النفس المعـاصر إذ من الصعب أن نفصـل بين الجسمي والنفسي للتزامن الـذي يدرك الظاهرة، ولذلك أوضح موسى هذا الأمر للناس إذ دفع بيده إلى جيبه ثم أخرجها بيضاء من غير سوء ليبيّن لهم أن الإنسان على الحقيقة لا ببدنه وإنما يحيا حياة نفسية روحية وأن الضرر الحقيقي هو الذي يصيب الروح والنفس إذ هـو الضرر الذي يبقى مع الإنسان بعد فناء الأجسام.

- من أعجب ما ورد في شأن المعرفة النفسية في القرآن هو بيـان أن اللاوعي والحياة الباطنية والرب والله همـا مصدر المعـرفة والإدراك في الشخصيـة الإنسانية، ولـذلك قـدم رب موسى لـه تلك الآيات الكبرى، وبعكس هذا المفهوم نجد أن علم النفس التجريبي ونظرية فرويد في التحليل توضح لنا أن اللاوعي هو مستودع الخرافـات والأساطيـر والأمراض العقليـة ولذلـك فصل القرآن بين الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها وما يقع فيه الإنسان من الأمراض العقلية والخطيئة في قمة خلق آدم لبيان أن الخـطيئة والأمـراض ليس من فطرة الإنسان ولذلك نسبت تلك المعارف إلى الإبليس والشيطان والنفس الأمارة بالسوء ويبقى الأمر مـرتهناً بـالموضـوعية التي أشـار إليها القرآن في البرهان الطبيعي وما يمكن أن يكون مصداقاً لمـا خلق الله في الأفلاك والنبات والحيوان وما يقع عليه حس الإنسان وبصيرته.

- إن الباطنية والفطرة ومعرفة الرب والله هي منابع الحياة ومنابـع المعرفـة ومنابـع الطهارة ومنابع الهداية ولم يكن موسى كاهنـاً ولم يكن محمدﷺ حبراً أو راهـباً ولذلك يقول القرآن في غير موضع إن الإنسان عالم بفطرته ومهدي بطبعه وأن هذا الأمر يفتقده الإنسان في المجتمعات لأن عناصر التربية قد تكون لطاغيـة مثل فـرعون أو هـامان أو أي لـون من ألوان الكفـر والشرك والضلال.

- إن مشكلة الإنسان هي الإجرام والخروج على الفطرة وهي مشكلة كبيرة إذ أن الإنسان هو الكائن الذي يستطيع بما أوتي من قوة العلم وحرية الاختيار والإرادة أن يقلب فطرة الأشياء وأن يفسد الطبيعة وهي ظاهرة تبينها يونس وتبينها لوط في قومه عندما كانوا يباشرون الرجال دون النساء وما كان حديث موسى مع ربه إلا لبيان الباطنية في الإنسان وأنها باطنية الحياة والأمن والسلام ﴿**إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فإِنَ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتَ فِيهَا وَلاَ يَحْيَي * وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَرَجَاتُ العُلَى**﴾(١).

- في بيان كاسح يوضح القرآن استجابات رب موسى لمطالبه حيث جعل له من أخيه هارون وزيراً ومعيناً ومتحدثاً باسمه ومثل ذلك ما قام من رعايته وتربيته في قصر فرعون رغم أنه كان من الأعداء حتى يقول القرآن في ذلك ﴿**وألقيت عليك محبة مني**﴾ وكان الناظر إلى موسى وهو طفل يحبه ويعشقه دون أن يكون هناك سبب ظاهر لنتبين أن الحياة الروحية الباطنية تصبغ أصحابها بهذا البهاء الرباني حتى وهم أطفال رضع.

- عندما يقول القرآن إن الرب اصطنع موسى ليكون منه رسولاً منذ الطفولة وبيان رعاية ربه له في تقلبه إلى أن صار راعياً في أهل مدين ثم مجيئه إلى مصر مع زوجته حتى يبيّن القرآن أن ذلك كله كان قضاء وقدراً فإنه يفعل ذلك ليعرّف محمداًﷺ أن نزول القرآن عليه وحمله الرسالة لم يكن بإرادته وإنما كان بإرادة الرب والسماء وسيتكفل به الله في كل ما يصادفه من الصعاب وكأنه يقول له ماذا تخشى وأنت ربيب السماء كموسى.

- إن ما حدث لموسى وتربيته في قصر فرعون وهو ألد أعدائه وقومه وهو عدو كبير لله أيضاً وما كان من إفلات موسى من الذبح الذي كان يترصده

---

(١) سورة طه: الآيتان ٧٤ ـ ٧٥.

حتى كان ربه معه في كل لحظة من لحظات حياته وشدائدها العظام لهو مضرب الأمثال عند العقلاء والذين يقدرون أعمال الرب مع عباده، ولذلك يقص القرآن أن رب موسى قد بيّن له أن الرسل المبعوثين من قبله لا يخشون أحداً ولا يرهبون طاغية وهم في مأمن من بطش الطغيان، ولما فر موسى هارباً ولم يعقب ولم يرجع إلى ربه وهو يناجيه قال له: أقبل يا موسى ولا تخف إنَّه لا يخاف لديَ المرسلون، ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾[1]، ليتبين محمدﷺ أن ربه سيهديه وسينصره وهو ما أوضحه القرآن إذ هو وأبو بكر في الغار وقريش بجبروتها تبحث عنهما وعناية الله هي التي مكنته من الوصول سالماً إلى يثرب ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

- يسأل الفرعون موسى وهارون «من ربكما» ويجيبان أن ربهما هو الذي أعطى لكل خلق خصائصه وهو الذي ميز الخلائق والأجناس والأنواع والأفراد وكل ظاهرة وآية جاءت من الخلق والإبداع ثم هدى كل خلقة إلى سننها وطباعها وحياتها الخاصة ليؤمن الفرعون بالفطرة والمحبة والإخاء وليتبين أن الفطرة هي التي تعطي لكل فردية من الأفراد إمكاناتها الذاتية فيكون موسى رغم أنه فقير لا يحمل ذهباً ولا فضة مقرباً من الله ثم لا يكون للفرعون من ذلك نصيب رغم وجود السلطة والسلطان بين يديه حتى قال للناس ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وحتى افترى على الله ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا

---

(١) سورة النمل: الآية ١٠.

(٢) سورة التوبة، الآية ٤٠.

تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ * ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[1]. لذلك كان حجة موسى وهارون هو ما عليه الإنسان من القدرات الروحية والعقل وليس ما يملك أو يحكم أو يتمتع به من السلطان والطغيان وهو ما يفتح الباب في المعاصرة لمبدأ مسألة تكافؤ الفرص ونمو الفردية وحريتها وإن الطائفية والطبقية وكل ألوان الحواجز المصطنعة هي التي كان يتحدث عنها موسى وهارون وأن المسألة في الربوبية ليست لسلطان المجتمعات وإنما هي لسلطان الرب وهو الذي خلق حتى يقول القرآن «**ألا يعلم من خلق؟**» أي أنه هو وحده الذي يعطي القدرات الروحية لكل فرد بقدروحساب حتى يجعل من موسى وليس الفرعون رسولاً إلى الناس ومثله ما أرسل به إلى محمدﷺ دون أن تذهب الرسالة إلى أبي لهب أو أبي سفيان أو رجل من عظماء القريتين مثلما قال الجهلاء والكافرون ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُم فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2]، ليتبين الناس أن الطبقية وما يترتب عليها من سخرة الفقراء عند الأغنياء هو من ألد أعداء الطبيعة والفطرة والروحية تستمد درجاتها من القدرات الفطرية التي وهبها الله لكل فرد بما يمتاز به حتى جعل الرب من موسى ومن محمدﷺ رسلاً رغم أنهما لم يكونا من الطبقات الغنية ﴿قَالَ رَبُّنا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[3].

- هذه الحجة الباهرة ألجمت فرعون فلم يكن له دراية بالعالم الروحي الذي اكتشفه موسى وأن هناك حياة أخرى يبعث فيها الإنسان بعد الموت وأن

---

(١) سورة الزخرف: الآيات ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣.
(٢) سورة الزخرف: الآيتان ٣١ و٣٢.
(٣) سورة طه: الآية ٥٠.

مظاهرها تتبدى للرسل وحدهم ولم يكن له نصيب من ذلك وأنه لم يكن له إلا الماديات والسلطان والطغيان، ولم يدرك هذا الجانب الأخلاقي للحياة، ومثل ذلك يقول القرآن في محمدﷺ وأنه وحده قد تمتع بنعمة ربه وما هو بمجنون ولا هو بكاذب وأن ما نزل عليه من وحي القرآن إنما كان لأنه لديه القدرات الروحية للاتصال بعالم السماء والروح أيضاً.

- يتساءل الفرعون عن القرون الأولى ونشأة الجنس البشري ويرد عليه موسى بأن علم ذلك عند الله وهو خالق السنن والنواميس ويدلل ذلك بقوله إن الله قد جعل الأرض مهداً للإنسان وسلك فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرج به كل شيء من ألوان الحياة وهذا له دلالة عند العقلاء وأن الفطرة التي يدعو لها موسى وهارون ومحمدﷺ هي بعينها التي أبدعت ما بين يدي الإنسان من الطبيعة كما تبدو للعقل والإدراك ليتبين الفرعون أن الطائفية والطبقية التي يبتدعها ليست من عمل الله وإنما هي من عمل الطغيان والاستكبار بغير الحق ويجب عليه أن يسلم لموسى وهارون ومثله ما يجب أن تقبله قريش وطوائف المشركين.

- من الأرض خلق الله الكائنات وإليها تعود وتستمر دورة الحياة فتخرج أحياء وتهلك أحياء مزدهرة والله في كل يوم يبدىء الخلق ثم يعيده لنتبين أن هناك عالماً آخر تأتي منه الكائنات وتذهب إليه وأنه كتاب ومستودع ولذلك لا يضل الله ولا ينسى وستكون نتيجة تلك الدورة أن يخرج الإنسان من الأرض مرة أخرى بعد موته.

- لقد بيّن رب موسى أن الكون كله وما استودع من الروحية هو كائن حي حتى لو بدا لنا في الظاهرة المادية أن بعض أجزائه جمادات وأن بعضها كائنات حية ليعرف الفرعون أن الإنسان مهما أوتي من حرية الاختيار والعقل فهو يدخل في النواميس الكبرى للوجود ولن يستطيع أي طاغية مهما أوتي من السلطان أن يضع للحياة النواميس من عنده إلا أن يستسلم للفطرة

التي فطر الله الناس عليها ولا تبديل لما خلق الله أبداً ورغم ذلك كله وبيان آياته الكبرى لم يصدق الفرعون واستكبر في الأرض بغير الحق ﴿لَقَدْ أَرَيْنَاه آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾[1].

- يقول الفلاسفة إن الله عندما خلق الكون فإنه قبل خلق أكمل العوالم الممكنة في العقل وأراد موسى أن يبيّن للفرعون أن هذا العالم المادي الذي خلقت منه الكائنات إنما هو العالم السفلي ولذلك فإن تلك الحياة هي الحياة الدنيا والدنيئة وما خفي من العوالم الروحية لهو العجب حتى يقول الحديث في الدنيا إنها لا تساوي جناح بعوضة عند الله وأن في الجنات المنتظرة في الحياة الروحية الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ورغم ذلك لا يؤمن الماديون إلا بالصراع الطبقي والطائفي وشتى ألوان الطغيان عشقاً وهياماً بتلك الحياة الدنيا التي تثير بين بني الإنسان ألواناً عديدة من الظلم وليست الحربان العالميتان منا ببعيد وما تفجرت عنه من المآسي من انتاج الأسلحة الذرية وعناصر الدمار إلا امتداداً لكفر فرعون منذ آلاف السنين ولو آمن الإنسان بدعوة الآخرة التي جاءت على يدي موسى وعيسى ومحمدﷺ ما كان هذا الصراع وما كانت تلك الحروب المدمرة.

- لا يؤمن الإنسان حتى تتضاءل أمام بصيرته زخارف الحياة الدنيا، وما كانت دعوة موسى إلا رسالة كشفها له ربه حتى يقول له في لحظة التجلي إنه يكاد يخفي تلك الحياة الروحية لاختيار الناس ودرجاتهم عنده ومن أراد الشيطان والمادية فهي له ولذلك لن تفتح للماديين أبواب السماء حتى يلج الجمل في سم الخياط والدعوة للروحية التي جاءت على يدي موسى ومحمدﷺ وغيرهما لا تجد صدى عند الناس لأنها تجربة ذاتية من الصعب أن يحسها إلا من عاشرها بوجدانه وروحه.

---

(١) سورة طه: الآية ٥٦.

- يقدم القرآن مسألة السحر بين موسى والفرعون وينتصر موسى وهارون لبيان الخداع الذي يقع فيه الإنسان عندما يتبنى المناهج المادية ولذلك خيل لموسى أن حبالهم وعصيهم قد دبت فيها الحركة والحياة ومثله ما يحدث من خداع العالم باسم الرأسمالية حتى يخادعوا الناس فيعلنون أنها هي الحرب وأنها هي الفطرة وأن حرية الإنسان لا تستقيم إلا بالنشاط الخاص وحده وكل ذلك من عمل السحر والتزييف والخداع.

- لقد زيف الفرعون الحقيقة وقال للناس إن موسى وهارون يريدان إخراجهم من أرضهم والاستيلاء عليها ولم تكن تلك هي الحقيقة لأن عقيدة الروحية لا تأمر بالطغيان ولا الطائفية ولا الطبقية ولا الاستعلاء ومثل ذلك محمدﷺ ومن نهج على تلك العقيدة ولذلك حرص كل رسول وكل نبي أن يبيّن للناس أن ربه هو أيضاً رب العالمين وأنه في إمكان كل إنسان فطري بلوغ حد الكمالات والفضائل.

- بيّن القرآن أن الطور الأيمن في تطور النفس البشرية كان من نصيب الروحية التي وعد بها بنو إسرائيل ولذلك نهوا عن الطغيان والاستكبار في الأرض وجعل من ذلك مبدأ التوحيد وأصبح الإله هو بعينه رب كل إنسان، ورغم وضوح تلك الفكرة فقد ظلم بنو إسرائيل أنفسهم واتخذوا العجل أبيس وهو إله مصري معبوداً لهم وهكذا أضلهم السامري لبيان أن مسألة الألوهية التي يطلبها الناس بشغف إنما تنحصر في الربوبية وهي روحية خالصة.

- إن السامري المتنبئ لم يدرك الطريق إلى إله الإنسان ولذلك صنع لهم مما حملوا من زينة القوم ومتاعهم من الذهب هذا الإله الصنمي ليوضح القرآن مقدار ضلال الناس حتى في وجود الرسل والأنبياء بين ظهرانيهم كي نتبين المدى الذي تصل إليه عبادة الناس لمتاع الحياة الدنيا من الذهب والفضة والمال والبنين حتى يجعلوا منها آلهة من دون الله والرب.

○ في بيان القرآن لغضب موسى وأخذه رأس أخيه والقائه للألواح والتوراة وفشل هارون مع الناس وعبادتهم العجل أوضحت الآيات أن مسألة الإيمان بالرب مسألة فتنة ويتعرض لها كل إنسان على حدة ولو لم ينبت الإيمان بهذا الرب بالفطرة فلن يستطيع موسى ولا هارون هداية الناس ومن يهده الله وحده فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ولا يمكن أن يصطنع محمدﷺ أو موسى أو غيرهما الإيمان لأحد من الناس لأنها تجربة ذاتية باطنية.

○ من تلك التجربة أدرك موسى خطورة المسألة وأنه مهما فعل مع بني إسرائيل فالأمر متروك لنموهم الروحي الذاتي وما متاع الدنيا المادي إلا فتنة للناس وجهاد النفس في سبيل الله وأخذها بالشدة لا يقدر عليه إلا الخلص المؤمنون.

○ أفاض القرآن في تجرية السامري ليوضح لنا المتنبئون المزيفون أن جلّ علمهم إنما ينحصر في التدليس والتزييف ولذلك أخرج السامري هذا العجل الذهبي لأنهم قد أشربوا من قبل وهم في مصر عبادة المجتمعات المادية التي تنحصر فيها القيم بالذهب والفضة والمال والطغيان والطبقية والرأسمالية والطائفية، وليس للإنسان من قيمة في هذا المجتمع، وآثار قدماء المصريين وما كانوا يملكونه من أطنان الذهب شاهد حي على ما كان من فساد هذا المجتمع وفقدانه لكل قيمة روحية حتى أننا لا نجد مخلداً في آثارهم سوى الملوك والأسرات أما باقي الشعب فكان مطحوناً مغلوباً على أمره.

○ لبراءة موسى ومحمدﷺ أدان القرآن الفرعونية ثم أدان بني إسرائيل وما كان منهم من عبادة العجل الذهبي وإدانته لما فعله السامري كل ذلك ليشرح لنا معنى أن يكون الله «طاهراً» ومعنى أن يكون الله «هادياً» ﴿**طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي**﴾ وفي ذلك من المعاني الجليلة ما أوضحت الآيات أن

الإلـه الحق هو الـرحمن وهو الـذي رحم موسى وهـارون ومحمداًﷺ في مواجهة جعل الناس ﴿**إنما إلهكم الله الذي لا إلـه إلا هو وسـع كل شيء علماً**﴾.

- هذا القصص الذي قدم حديث موسى مع ربه وما كان من نتائجه قد كـان تنزيلاً من «الحي القيـوم» ليعرف محمـدﷺ أن ربه سيكـون معه في كـل خطوة يخطوها وأنه لن يتركه يشقى وأن أولي العزم من الرسل أمثال موسى هم قدوة له وأن اليأس وخور العزيمة لم تكن من فطرة آدم ولكنها كانت من أدوائه ولذلك يقص القرآن علينا الخطيئة في قصة الخلق ويقول لنا آدم قد وقع فيها عندما تخاذل عن طلب العلم والمعرفـة فكانت غـواية إبليس لـه وطاعته إياه ووقوعه في الجهل والغرور والحماقة.

- إن ما يقوم بين بني الإنسان من العداوة والكراهية والحروب المدمـرة إنما هو نتيجة مباشرة لإسراف الإنسان وتطرفه حتى إن آدم قد أكل من شجـرة الخطيئة التي تـنزع بنواقص الإنسان إلى الجهل والغرور والإسراف وعشق المادية وحب المال والبنين والطغيان فكان من ذلك طلبه للخلود والحقيقة أنه لا خلود لإنسان لنتبين أن القرآن عندمـا يقول لمحمـد ﴿**قل ربِّ زدني علماً**﴾ ندرك أنهـا هي الـوصيـة التي يجب أن يتحلى بهـا الجميـع وهي تكشف لنـا مشكلة المعرفـة واختلاف النـاس فيهـا وأن الـذين يكـذبـون محمداً ﷺ لم يقع في علمهم تجربة موسى الروحية.

- في كل موقف قدم القرآن قصة خلق آدم وأوضح أن الخطيئة سـواء كانت إسرافاً أو جهـلاً أو غروراً أو استكباراً أو أية نقيصـة من الإنسان هي من الإبليس أو الشيطان كبيان أن تلك الحالات ليست من فطرة الإنسان الذي فطره ربه على الكمالات والمعرفة والإدراك والعلم الذي لا حدود له ليعرف الناس أن ما يتمتع به الإنسان من الوعي يختلـف من شخص لآخر وأن تلك الحالات والفروق هي نتاج المجتمعات ولن يستـطيع أحـد من الناس أن

يدرك قيمة الوعي الذاتي له إلا في وجود الآخر والإبليس لم يظهر لآدم إلا في وجود حواء لندرك أن المعيار هو قسمة بين الإنسان والآخرين من جنسه، ولذلك يقول: بعضكم لبعض عدو متى كان الجهل سائداً والطغيان ضرورة ولن يكون للإنسان نجاة إلا من خلال العلم والمعرفة ولو كان آدم يتصف به ما وسوس له الشيطان ولتبين حقيقة الأمر.

- هذا التنظير القرآني له واجهة عصرية إذ لم تعد المسألة مسألة دينية ولا هي مسألة عقائدية وإنما أصبحت مسألة الصراع العلمي والتكنولوجي وأصبح الإبليس والشيطان قرين كل تخلف وصاحب كل كارثة نجت من الجهل وتبرأ الدين من أتباعه وأصبح رب الإنسان لا يظهر إلا في طائرة أو صاروخ أو تلفزيون أو كمبيوتر أو جهاز للاستشعار وتليسكوبا إلكترونياً وتوارت من حياة الإنسان العصري الرسالة والنبوة وحلت محلها رسالة التكنولوجيا والعلم والإبداع والوعي الروحي.

- إن الفجوة التي يتحدث عنها القرآن بين محمدﷺ والذين كفروا هي فجوة علمية ولذلك يوضح القرآن لمحمدﷺ من خلال حديث موسى مع ربه أن ما كان بين يدي موسى من المعجزات الخوارق إنما كان لهذا العلم الذي أثمرته التجربة الروحية وهي نفسها التجربة التي يخوض محمدﷺ غمارها مع قومه وهو في وعي، وقومه الذين كفروا في وعي آخر، وهو يؤمن أن هناك حياة أخرى أجمل وأكمل من هذه الحياة وهم لا يدركون ذلك ﴿**قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى**﴾[1].

---

(١) سورة طه: الآية ١٣٥.

الفصل الثاني

نسق «يس» «آيات ـ سنن»

محمولات وقضايا النسق:

- إن محمداًﷺ من رسل الله إلى الناس وما نزل من القرآن الحكيم في منهج المعرفة يعطيه هذا المقام دون أن يكون هناك حرج في هذا الأمر.
- إن الناس لا يصدقون الرسل لأنهم لم يروا فيهم إلا الجانب البشري من الأكل والشرب وغيره مما يسف فيه العامة أيضاً.
- يحدد القرآن موضوع الرسالات السماوية في المنهج فيقول إن من يقدم الآيات «ي» ومن يقدم السنن «س» يكون من زمرة رسل الله إلى الناس، والقرآن يفعل ذلك إذ يبيّن في كل موقف من مواقف المعرفة أن الأمر لا يخلو من ناموس أو من سنة أو من فطرة تحكم السلوك وترشد الأفعال.
- لم تعد المشكلة في موضوع الرسالات بحيث يكون هذا الإنسان رسولاً أو غيره أو أن ينظر الناس إلى الشخصية لأنها لن تعدو أن تكون شخصية بشرية وإنما يجب أن ينظر الناس إلى ما يقدمه هذا الإنسان في منهج المعارف فإذا كان ما يقدمه كاشفاً لسنة أو كاشفاً لناموس من النواميس أو

فطرة من الخلق استحق هذا الإنسان لقب الرسول، ومحمدﷺ والقرآن على نفس المنهج فماذا ينكر الناس منه؟.

- أصبح العلماء رسلاً وأولهم في هذا الفتح محمدﷺ إذ جاءه القرآن وما فيه من منهج المعرفة والسنن من خلال العلم لأنه لم يكن من أهل الكتاب ولا من أهل الأديان وإنما كان من الأميين من غير اليهود والنصارى.

- الآيات والسنن «يس» أصبحت منذ نزول القرآن هي بعينها معيار كل رسالة ومعيار كل رسول وأصبح العلماء ورثة الأنبياء فلماذا ينكر الكافرون أحقية محمدﷺ في أن يكون رسولاً من عند الله؟.

- إن بعثة محمدﷺ لم تنبت من خلال الدين وإنما نبتت من خلال الآيات والسنن والنواميس وقراءة الطبيعة التي خلقها الله بيديه وبيان الفطرة في كل خلق وهي نفسها مناهج الرسل من قبل إذ أن سفينة نوح أرشدت إلى قانون الطفو واستغراق إبراهيم عليه السلام في البحث عن ربه قاده إلى التوحيد، وناقة صالح أدت إلى توازن الطبيعة.

- إن دعوة محمدﷺ إلى الروحية وإنفاق المال في صالح الفقراء والمناداة بالإصلاح تقوم على عقيدة وجود حياة أخرى وأن تلك الحياة ما هي إلا حياة دنيا وما أعده الله للإنسان في الحياة الآخرة يفوق بكثير ما بين أيدي الناس.

- إن الآيات التي يقدمها محمدﷺ لاثبات نبوته والحياة الآخرة تعتمد على قوة الخلق وقدرة الرب ولو نظر الإنسان في صفحة الوجود لتبين تلك القوة وتلك القدرة حتى أنه خلق الإنسان من نطفة غاية في الحقارة والصغر وهي بعينها الكمبيوتر الذي ينتج منه هذا الكائن العاقل العظيم الشأن.

- إن المسألة ليست فوضى كما يعتقد الماديون وأن حياة الإنسان تنتهي بموته ويذهب الطغاة والظالمون بما ارتكبوه من الجرائم ولكن المسألة خطيرة

وبعث الناس سيكون من أجل حسابهم عند ربهم إذ لا يعقل أن يمنح الله الإنسان العقل والحرية ثم يكون ذلك كله عبثاً ولهواً.

- إن خطورة التكذيب تكمن في أن الناس لا يرجعون بعد الموت حتى يخبروا عما وجدوه هناك في العالم الآخر ولذلك فالسقوط والهاوية ليس لها استدراك بحيث يصحح الإنسان ما فاته ولذلك تكتب النجاة للمؤمنين لأنهم لم يضيعوا الفرصة بل اغتنموها والله سبحانه وتعالى يعرف هذا الأمر فيرسل الرسل والأنبياء الواحد بعد الآخر ورغم ذلك يكذب الناس بمحمدﷺ وهو رحمة للعالمين.

- إن الرسل لا يبغون جمع المال ولا يطالبون الناس بالأجر وليس لهم مأرب في سلطان أو جاه فلماذا لا يصدقهم الناس وقد ترفعوا عن الغرضية إلا أن يكونوا من الصادقين؟.

- إن قضية محمدﷺ كرسول ليست قضيته وحده وإنما هي قضية كل الرسل ولذلك يبدل القرآن منهج الرسالة ويدعو الناس بعامتهم وكافتهم إلى قراءة صفحة الوجود وسننه ونواميسه وعندئذ فقط سيتبينون أن ما جاء به الرسل والأنبياء هو الحق وهو الصدق وهو اليقين. لم يعد هناك داع لأن يقول أحد الناس أنا نبي وأنا رسول طالما أن ذلك لن يجدي وجميع الرسل وجميع الأنبياء قد كذبتهم أقوامهم وإيمان قوم يونس لا يحتسب إلا للإمكان والقاعدة العامة أن أكثر الناس لا يؤمنون ولذلك فكل الناس مندوبون لمعرفة السنن والآيات والعلم وهي جميعها أصبحت تأخذ دور الرسول ودور النبي وسيتبين العلماء أن ما أخبر به القرآن كان رسالة سماوية وأن محمداًﷺ هو رسول من الرسل ونبي من الأنبياء.

- إن الاحتكام إلى الآيات والسنن «يس» والعلم وقراءة الطبيعة والبحث عن نواميس الفطرة هو الذي فتح الباب أمام رفع الوصاية عن الشعوب والأمم

وجعل هذا المنهج منهجاً عالمياً وأصبح رجال الدين وأهل الكتاب وأهل الأديان في مأزق أمام القرآن لأن هذا المنهج لم يجعل السلطان للاهوت وإنما جعله للعلم وأصبح الاعتقاد بحثاً في مسألة كيميائية أو مسألة فزيائية أو مشكلة تكنولوجية لأنه بدون العلم والسنن والنواميس تدخل الخرافات والأساطير ورجل الكهانة إلى حياة الشعوب وليس ذلك منهج المعرفة القرآنية.

- إن الملايين من العلماء منذ عصر النهضة وعلماء الفلك وعلماء الطبيعة وعلماء الكيمياء وكل انجاز قد تمت نتائجه غلى معرفة القوانين الطبيعية قد أكد لنا أن ما بين أيدي الإنسان شيء قليل وما خفي عنه مما يتحدث القرآن عنه هو شيء عظيم جليل، من نفس البحث وقراءة الطبيعة أشار القرآن الكريم إلى الحياة الآخرة والبعث والحساب بعد الموت.

البراهين التي استخدمها نسق «يس»:

- جعل القرآن من مسألة نبوءة الحياة الآخرة قصة للمعرفة التي كشفت عنها الآيات والسنن إذ هي الأمر الخطير الذي تتوقف عليه حياة الإنسان ومصيره ولذلك يقول القرآن إن الآية الكبرى للبرهان على إمكان بعث الأموات هو ما بين أيدي الناس وما يشاهدونه كل يوم حيث يحيي الله الأرض وهي مادة ميتة فينبت فيها النبات من كل لون وكل صنف، والطبيعة وما فيها من الأنهار والعيون وما تزدهر به من النخيل والأعناب وشتى الثمرات لهو خير برهان على إمكان البعث، ومن قبل بيّن الرب لموسى أنه ما من شيء حتى الجماد والعصى يخلو من لون من الحياة، والعلم المعاصر قد أوضح لنا أن الذرة المتناهية في الصغر لكل العناصر هي مترعة بالحياة والحركة، والبيولوجيا وأبحاثها القيمة أثبتت أن الطبيعة بأحيائها وجماداتها لا تعرف الموت وأن دورة الحياة تنتظم الأحياء والجمادات أيضاً إذ من أين يستمد النبات

مقومات حياته إلا من عناصر الأرض التي يحدثنا القرآن عنها فأين هو العدم والفناء.

- إن الفيصل في المعرفة بين القرآن والذين كفروا قد ارتضاه الوحي في الكشف عن السنن والآيات «يس» ولذلك يقول القرآن للذين كفروا في الفسق إن الاحتكام بينه وبينهم هي الآيات والسنن ولذلك يكرر «وآية لهم وآية لهم وآية لهم» ليبين حجته دامغة وأنه آتاهم بمنهج علمي لا تداخله الخرافات ولا الأكاذيب.

- يقول القرآن لو نظر الناس إلى ظاهرة الموت لتبين أنها سنة والمسألة ليست عبثاً ولا هي فوضى وإنما خلفها آية كبرى فهل خرج للناس من القرون التي ماتت وهلكت أحد من الناس؟ إن ذلك ليثير التساؤلات حتى يقول الشاعر الجاهلي في ذلك ما بال الناس لا يرجعون بعد الموت أرضوا فأقاموا هناك أم منعوا من العودة مرة أخرى؟ وهو نفس تساؤل القرآن لماذا لا يرجع الناس بعد موتهم؟ إلا أن يكون ذلك ناموساً وسنة يراد بها أمرٌ؟.

- لو كانت الحياة بلا غرض ولا غاية لما أنبتت النباتات المحاصيل التي يتغذى عليها الحيوان والإنسان وأن ذلك من أفعال التدبير وهو يدفع العبث واللعب واللاغائية.

- إن الله عندما فجر العيون وأجرى الأنهار وجعل في الأرض جناناً من نخيل وأعناب ليأكل الناس فإن ذلك يبين القصد ولا يعقل في البديهة أنه عندما يثبت القصد تنتفي الغائية بل يكون ذلك كله برهاناً عليها وأن الإنسان لم يخلق سدى وإنما هو بين يدي رب كريم يرعاه ويبعثه حياً مرة أخرى.

- إن إمكان العمل والاختراع والإبداع لدى الإنسان واستجابات الطبيعة لهذا الأمر ليتبين لنا أن تسخير تلك الإمكانات للإنسان والنتائج الباهرة التي تترتب على ذلك لهو برهان آخر على الغائية ولو أن تلك الغائية شيء يفرضه

العقـل الإنساني وحـده بهواه وعشقـه للخلود والبقاء لمـا استجابت قـوى الكهرباءوالمغناطيسية ،ولفشل علم الفلك وعلم الفيزياء وعلم الكيمياء وكل علم بحث عن السنن والنواميس ،ولما كان هناك نظام للعالم والكـون ولما وجـد الإنسان فـطرة تستقيم عليها حيـاة الكائنات، لحـدث الاضـطراب والفوضى ولوجدنا الشمس تشرق مرة من المشرق ومرة أخرى من المغرب ولكن ذلـك لم يحدث ليتبيّن الإنسـان أن الغائيـة والمصيريـة واللقاء هي طبيعة الوجود وليس هناك أدنى سبب في أن يفنى الإنسان ويصير بالموت إلى العدم.

- إن هذا التناسق والتضافر بين العقـل الإنساني والـطبيعة وإمكـان الوحـدة بينهما ليبين لنا أن الظاهرة المادية الطبيعية لا توجد وجوداً عينياً إلا من خلال السنن والنواميس المعقولة، ولذلك فالعبـرة ليست في المادة وإنمـا هي في العقل ويكون نتيجة ذلك أسبقية البقاء وأوليته للإنسان والعقـل فكيف إذن يصح أن تبقى المادة ويفنى العقل الذي هو سيدها بالضرورة.

- لو نظر الإنسان إلى ما عمل الله وما يعمله الإنسان لتبين له أن الحياة ما هي إلا ظاهرة للعقل المبدع وهو في كل يوم ينبت النباتات الجديـدة من براثن الأرض الميتة ومثل ذلـكَ ما يفعله عقـل الإنسان فيحيي المـادة الميتة في الكـائنات التي يختـرعها مثـل الطائـرات والصواريـخ فيبعث فيهـا الحيـاة والحـركة من خـلال السنن والنواميس والقـوانين الطبيعيـة ولـو ثبتت تلك القدرة لله وللإنسان بالعقل فليعلم الناس أن مسألـة البعث ما هي إلا وقت حتى يخرج الناس أحياء مرة أخرى.

- **﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمـون﴾**[1].

---

(١) سورة يس، الآية ٣٦.

- في كل موقف لبيان قدرة الخالق يقدم القرآن مسألة الأنواع وتطورها فيقول إن الأنواع في النبات قد جاءت كلها نباتاً من الأرض، ونفس الشيء بالنسبة للحيوان إذ كلها قد انبثقت من التطور والأصول الأولى للخلية الحيوانية ويقول القرآن ومثل ذلك هناك أنواع لأجناس لا يعلمها الإنسان كالملائكة والأبالسة والشياطين والأنس والجن ليبين لنا أن القدرة المبدعة لا تتوقف ولماذا تتوقف حتى يهلك الإنسان بالموت وهو أشرف تلك الكائنات جميعاً؟.

- عندما تتبع دارون سنن ونواميس التطور بالملاحظة والمشاهدة تبين أن مسألة خلق الأزواج والأنواع هي الناموس الوحيد الذي يمكن أن يفسر لنا الغائية وإلا ما هو الداعي للتطور لو كانت الحشرة تستطيع أن تحيا بكفاءة تامة ونظام دقيق يفوق بكثير المجتمعات البشرية ولماذا يخلق العقل والغريزة في ممالك النمل والنحل وغيرها كافية.

- إن التطور له غاياته التي يسعى إليها حثيثاً وهو لا يتوقف لحظة واحدة وليس هناك كائن بغير حركة حتى الجبال﴿**وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب**﴾ لنتبين أن ما يثيره القرآن في النظر إلى الطبيعة وأسرارها هو الذي يكشف لنا عن مسارات السنن وغاياتها ولو كان التطور وفلسفته يكشفان أن خلق النوع الإنساني من الحيوان تم بقدرة معجزة خارقة فإن نفس القدرة كفيلة بخلق نوع آخر من نفس الإنسان وهو النوع الموعود بالآخرة عند ربه.

- إن تلك السنن والآيات لها معنى الحفظ والبقاء ولذلك يتساءل القرآن والشاعر الجاهلي ما أبقى الناس ومنعهم من المجيء إلى الحياة بعد الموت؟ أو ما يمنع الشمس أن تشرق من الغرب أو ما يمنع الإنسان أن يرجع إلى أصوله الحيوانية. إن ضمانة السنن واضحة ظاهرة وهي تعمل للحفظ كما تعمل للذاكرة والجينات والكروسومات والوراثة وكل القوانين

التي اكتشفت في ثبات الطبيعة والفطرة هي بعينها ضمانات للبعث وضمانات للحياة والتطور.

- إن كل خلق سائر في مساراته والتحديدات تفصل بين الأزواج والأنواع والترتيب والنظام يأخذ بكل شيء فلماذا توجد تلك السنن والقوانين إن كان الأمر ينقضي بفناء الكائنات بالموت، ولماذا هذا الجهد وهو ضائع في بحور العدم؟ إن الترتيب والنظام الكوني والطبيعي يفتح التساؤل أن هناك تدبير ومدبّراً والقرآن نفسه يقول إن الليل لا يسبق النهار والقمر لا يأتي قبل الشمس وكل فلك يدور في قطع معين لنتبين أن المسألة تفرض الغرضية وهي نفسها تفرض الغائية ولو لم يكن هناك غرض ولا غاية لذلك كله لما كان للالتزام معنى عند العقلاء.

- «آيات وسنن» «يس» هي حجة الرسالة وهي حجة القرآن وهي أصل نبوته ويقين إيمانه ولذلك لم تخل قضية واحدة من برهان لسنة طبيعية أو فلكية أو نباتية أو حيوانية أو إنسانية لنتبين أن الله والطبيعة والإنسان هم وحدة وجود لا يداهمها العدم أو الفناء ولا العجز أيضاً.

- في التطور العلمي تبدو لنا الحقيقة ومستوياتها المدهشة إذ ليس هناك مستحيل في العلم وقد تحقق للإنسان وما زال يتحقق إمكان التأكد من روحانية المادة وخلودها وإمكان تشكلها بروح الله في صور وكائنات لا يعلمها إلا الله ولذلك يقول القرآن **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة﴾**

- ينظر القرآن في الطبيعة فيجدها كلها مملوءة بالحياة وسلسلة الحياة تنتظم كل موجود سواء كان جماداً أو كائناً حياً ومثل ذلك يفعل العلم فيجد أن مقدمات الحياة موجودة بكامل قوانينها حتى في الذرة وما أصغر منها ويتساءل القرآن عن معنى التصنيف فهذا جماد وهذا نبات وهذا حيوان

وهذا إنسان وهذا إبليس وهذا شيطان وهذا ملاك فلماذا كان هذا التصنيف في الموجودات ونفس المسألة يتساءل القرآن في السلسلة الغذائية لنتبين معنى القصد ومعنى التدبير ومعنى نفي العبثية وأن هناك بالقطع غاية كبرى لكل خلق بل رسالة يؤديها على أكمل وجه، وما قدمه القرآن في سورة «التسبيح» يوضح لنا أن وحدة الخلق تشمل جميع المخلوقات وما من كائن إلا ويسبح بحمد الله لنتبيّن أن المسألة ليست معماة بحيث يقول الجهلة إن الله يخدع الإنسان والأمر ليس كذلك ويهديه ويجتبيه إليه.

- يتساءل القرآن عن مسألة الآجال والأعمار وتقديرها فيقول إن الله يسلخ من الليل والنهار فإذا الدنيا ظلام ومثله ما تجري به الشمس حتى تغيب في الأفق حتى القمر فقد قدره منازل حتى عاد كالعرجون القديم وهذا النظام البديع الدقيق لا يمكن أن يكون بلا غاية وهذا الكون الفلكي الذي يأخذ بالعقول والذي تمت خلقته على أدق النظم لا يمكن أن يجيء بالصدفة أو العشوائية بل هناك خالق ومدبر وعليم قدير أخرجه إلى الوجود لنتبين أن المسألة تستحق النظر وتستلفت الفكر وتثير التساؤل.

- من أجل ما قام به القرآن للبرهان على صدق دعواه في الحياة الآخرة أنه يلفت النظر إلى الأجرام السماوية ويعتبرها مثلاً رائعاً بل هي تدهشه في كل نظرة لنتبين في العصر الحالي أن كمالات الدقة وكمالات الحساب وكمالات التقدير وكمالات علوم الفضاء كلها قد تعلمها الإنسان من هذا الكون العجيب لنعرف في النهاية أن هذا كله قد خلق بيد مقتدر عليم خبير.

- إن اكتشاف الإنسان للمعقولات واختراع نوح لأول سفينة تطبيقاً لذلك وما تطورت إليه وسائل النقل من القطارات والطائرات وكلها قد جاءت مصداقاً لهذا الأمر الذي اكتشفه نوح لأول مرة قد أكد لنا أن عين السماء ترعانا وترشدنا وتشد أزرنا وأن الإنسان رغم ضآلته بجوار ما أنجزه من الخلق قد

كان غاية لكل ذلك حتى أن الله لم يترك شيئاً في الأرض أو في السماء حتى سخره لنا لنتبين أنه لا يجوز في العقل أن يكون مصيره إلى العدم والفناء بالموت.

- لذلك يقول القرآن بعد استجلاء تلك الآيات وتلك السنن وهذه البراهين على وجود حياة تحرك تلك الكائنات من باطنها، إن الواجب يدعونا للتقوى والعطف على الفقراء وإنفاق الأموال في سبيل المجتمع ليجعل القرآن من التكافل الاجتماعي عملاً أخلاقياً تتوافق جوانبه مع إرادة الخالق الذي سخر كل شيء للإنسان ورعايته ولا يصح أبداً أن يطغى الإنسان على أخيه الإنسان أو تكون الطبقية أو العنصرية أو أية سلطة مانعة للرحمة التي أصبغها الله على الناس.

- كيف يقول الكافرون والمشركون والرأسماليون «أنطعم من لو يشاء الله أطعمه» وكأن الله هو الذي حرم الفقراء وأذل الضعفاء وكأنه أراد لطوائف من الناس المسكنة ولطوائف أخرى العزة والقوة والسلطان وليس الأمر عند الله كذلك إذ هو من فعل والله بريء من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

- إن حديث القرآن عن السنن والنواميس والآيات كما أنه إثبات لوجود الخالق المدبر فإنه إثبات للثواب والعقاب أيضاً إذ تتبين معنى الضمانة ووظيفتها التي لا ينكرها العقل حتى يهلك الله المفسدين والأقوياء والظالمين بالسنن والنواميس ويسلط على من يشاء من عباده لنعرف أن العبثية والفوضوية ليس لها مكان في هذا العالم وأن الإنسان كما أنه ربيب السماء فإنه صاحب أمانة وصاحب مسؤولية وما من نعمة أنعم الله بها عليه إلا ابتغاء وجه ربه ولعرف بمحاسبته عليها.

- إن المسؤولية الأخلاقية التي يتحدث القرآن عنها تتناقض وما يحدث في تلك الحياة الدنيا إذ يذهب المجرمون بجرائمهم والظالمون بظلمهم فكيف وقد رأينا أن كل شيء لم يخلق إلا بمقدار وأن كل شيء لم يخلق إلا

لحكمة وكل شيء لم يوجد إلا لوظيفة وأن كل شيء حدد له الأجل وأن كل شيء قد حكمته سنّة أو ناموس أو فطرة فكيف بعد ذلك يساوي العدم بالموت بين المجرم والمحسن وبين الظالم والعادل وبين المشرك والمؤمن؟!؟.

- تلك هي تساؤلات القرآن وتلك هي قيمة ما يكشفه من السنن والآيات وقيمة الرسالة التي بين يدي محمدﷺ وأنها رسالة أخلاقية كبرى.

- إن اعتبار القيم الأخلاقية هي القصد مما يقدمه القرآن من كشفه للسنن والآيات وهو قمة المنهج للمعرفة وإن كان العلم المعاصر قد جعل كشفه للسنن والنواميس والآيات في خدمة الآلة واختراعها واستخدامها من أجل الرفاهية فإن القرآن قد سخرها واستعملها في الغاية الكبرى التي تفوق كل ذلك إذ كشف عن طريقها أن الأموات سيبعثون من أجل الثواب والعقاب وليتبين كل إنسان موقفه من المصير المنتظر ولذلك تخطى القرآن قمة المعارف وجاوز واقع الإنسان المادي الذي يرسف فيه الجهلة والحمقى والمغرورون.

- يتجاوز القرآن بالأخلاقية العلمية ما يرسف في العالم اليوم من جراء جهل العلماء الغايات. ونوبل وأي مخترع آخر لو تبين أين يضع علمه ومعرفته بالسنن والآيات والنواميس ما كان بين أيدي البشرية أسلحة الدمار الشامل ولما كان للعلم هذا الوجه الشيطاني الذي تبرز لنا ملامحه المفزعة في القنابل الذرية والهيدروجينية وسفن الفضاء وحروب الكواكب ولما طلع علينا إبليس بوجهه الكالح ليدمر رسالة الله الأخلاقية.

- رسالة العلم هي من أجل الأخلاق ومن أجل الفقراء ومن أجل المساكين والمطحونين والقرآن يقرّر أن السنن هادية إلى الخير فلماذا تنتكس رسالتها عند الإنسان؟.

- سيقف شيطان الرأسمالية ليقول لك إن القرآن أقر المواريث ليثبت دعائم

رأس المال والحقيقة ليست كذلك إذ جعل القرآن من مسائل الإيمان هيمنة على كل شرع والدارس للقرآن لا يتبيّن سننه ونواميسه إلا من محكم سوره وآياته وجميع الشرائع التي وردت في القرآن من المتشابهات بل إن الغالبية العظمى منها لم تكن من العقيدة الإسلامية ولذلك وردت بـ «يسألونك» «يسألونك» فهي مطلبهم وهي خاصة بهم حتى قال رافضاً لرأس المال «نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» ليبين أن الاقتصاد الإسلامي له منهج خاص يختلف عن منهج الرأسمالية وما نزلت سورة «التوبة» وسورة «الأنفال» وسورة «الأحزاب» وسورة «الأعراف» إلا لبيان ضعف إيمانهم وتخاذلهم وعبادتهم لرأس المال حتى أشاعوا عنه ما أشاعوا في الغنائم وطلبوها لهم.

- نقول إن القضايا التي وردت في الشرع وهي متناثرة في العديد من السور قد احتواها القرآن في المتشابه لأنها جميعاً مصالح مرسلة ومنافع للعامة وقد فصل القرآن بين الإسلام والإيمان في حادثة الأعراب وادعائهم الإيمان فبين أن الإيمان شيء جليل لا يبلغه الجهلة والحمقى ولذلك فإن الإسلام هو درجة أقل من درجة الإيمان .

- كيف يؤمن من ليس لديه المعرفة ولم يقرأ سنّة ولم يدرك ناموساً ولم يهتد إلى فطرة؟ تلك هي المشكلة الكبرى وهي في عصرنا مشكلة ثقافية وكل التقدم العلمي الهائل الذي حققه الإنسان لا يغنيه شيئاً لأنه حتى وتلك السنن والنواميس أصبحت بين يديه فإنه لم يقرأ الغائية ولم يعرف المصير وهم يؤمنون بالله ويعلنون ذلك ثم يرسفون في أغلال الطبقية والعنصرية والهيمنة والسلطان وشتى ألوان الطغيان وتجد أهل الأديان وهم يتلون الكتاب ويحكمون بالشرع بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً ويرفعون رايات الحرية وهم عبيد إبليس والشيطان ورأس المال.

- هذه هي الوظيفة الخالدة والوظيفة الكبرى التي سيظل القرآن بها مهيمناً حتى تقوم القيامة وينتهي العالم إذ أنه كشف عن الغائية وأوضح للناس أن الأخلاقية هي بعينها غاية الوجود ولذلك كان الله هو الرحمن وهو الرحيم وهو المهيمن وهو العزيز وهو الجبار وهو السميع وهو البصير وهو كل اسم تضمن في معناه جلال وبهاء الأخلاقية ونفي العبثية والفوضوية وكل الزيف في حياة الإنسان.

- يتعجب القرآن من عقلية الكافر المادي فيقول إن كانت تلك الحياة لا غاية لها فلماذا تظهر على الإنسان ظاهرة النمو ويتقلب من الطفولة إلى الشباب إلى الرجولة ثم إلى الشيخوخة ما دام ليس هناك غرض ولا غاية منها ثم ما نراه في ظاهرة انتكاس العقل عند الشيوخ والذين يمتد بهم العمر حتى يعودوا كالأطفال في العقل والتفكير لنتبيّن من ذلك أن تلك الحياة هي حياة مقدّرة وأنها حياة لها غاية ولها مصير وأن ذلك يؤدي بنا إلى المسؤولية الأخلاقية ولو لم يكن الإنسان كذلك لأصبحت حياته مثل حياة أي حيوان يحيا بالغريزة والجبر.

- يطلب الجهلة المعرفة من الشعر وعندالشعراء، والقرآن ليس كذلك إذ ذكر للسنن والنواميس والفطرة التي استقرت في الآيات والظواهر ولذلك فلا يصح أن يكون على منهج الشعر الذي لا يلتزم بالحقائق والشعراء يكذبون ويلفقون ويقولون ما لا يفعلون وحقيقة القرآن هي الكشف عن السنن وبيانها مما يتعارض مع الشعر ومنهجه.

- يتساءل القرآن عن المنهج لأن المشكلة عند الناس أن كل واحد منهم يقدم بحسب ما يعرفه معرفة ذاتية منهجاً يعتقد فى صحته مع أن الحقيقة أن الإنسان لا يخلق المنهج ولذلك يقرِّر القرآن: أن ما بين يدي الناس من الأنعام وما يركبون منه وما يأكلون إنما كان مما عمله الله له وذلك لنتبين أن المنهج هو العمل والاختراع وتذليل العقبات والتنمية وإثراء الحياة

والإغداق كما أغدق الله على عبيده ولذلك فرأس المال والاحتكار والطبقية وحرمان الفقراء ليس من المنهج ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُون * وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ**﴾[1]. لذلك لن ينصر الإنسان بجاه الملكية أو رأس المال أو الطبقية أو العنصرية وقد أهلك الله الطغاة فرعون وثمود وغيرهما لنتبين أن المنهج الحسن ما قامت على بنيانه سنة أو ناموس أو فطرة، وثراء الطبيعة والتوازنات التي تحكمها بحيث تتعايش النملة مع الفيل وبحيث لا يطغى القوي على الضعيف هي جميعاً من عمل الله وهي المنهج الذي يدعو إليه القرآن.

- لو لم يكن للمنهج الطبيعي والفطري سيادة ما تمكن الإنسان من استخداماته وكيف يستطيع الإنسان ترويض الوحوش أو ترويض القوانين الفلكية إلا إذا كان للمنهج هذا السلطان حتى يقول الله سبحانه وتعالى ﴿**يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان**﴾ لتتبين مصداقية المنهج وأن هذا المنهج لا يخيب وأن القرآن عندما يدعو إلى العطاء والإنفاق وعدم عبادة رأس المال إنما يكفل للإنسان صحيح المنهج وقويم المعرفة.

- تلك الصعوبات التي يصادفها الإنسان في منهج الرأسمالية التي قادت إلى المآسي والحربين العالميتين وحرب الكواكب وكل ألوان المرض العضوي التي تملأ البيئة الرأسمالية والمشاكل الكبرى التي تظهر في الاقتصاد والسياسة والاجتماع وغيرها في مثل تلك المجتمعات اللعينة هي التي تفضح المنهج المفتعل للرأسمالية وهي نفسها التي تشهد على جلال

---

(١) سورة يس: الآيات ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٤.

وعظمة منهج القرآن الرباني وهل وجد الإنسان قصوراً في الطبيعة أو فشلاً في منهج الله؟؟.

لقد أدرك العلماء سلطان الطبيعة من النجاحات والإنجازات التي قامت على المنهج الطبيعي وما أمكن الإنسان من السيطرة على المصادر في البيئة والعلم إلا من خلال ما ذلله الله في أصل المنهج ولو كان هذا المنهج منهجاً يزايله النقصان لما أمكن للإنسان هذا التقدم الهائل الذي نشهده الآن وما خفي كان أعظم وأجمل وأروع لنتبين مدى جحود الإنسان ونكرانه بحيث يتبنى المناهج التي تعادي الفطرة وتعادي الطبيعة وتعادي المنهج الرباني أيضاً.

○ يضرب القرآن مثلاً لمشكلة الإنسان والمنهج وكيف ينحرف الإنسان بهذا المنهج فيملك مع الله فيما لا تصح له فيه ملكية إذ المالك الحق هو الله وحده فيقول أرأيتم إن كان لأحدكم عبد ونازعه فيما يملك حتى تساويا فيه أيكون ذلك سليماً وصحيحاً؟.

والإجابة بأن الصراع والاختلاف سينشب بين السيد وعبده ومثل ذلك مفترضات المنهج إذ سينشب الصراع بين الله والإنسان وسيكون الإنسان هو الخاسر عند افتعال هذا المنهج ومشاركة الله في ملكه ولو أن الإنسان رأى نشأته من نطفة حقيرة لما وقف من ربه هذا الموقف العدائي **﴿أَوْ لَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾**[1].

لذلك فالله بيده ملكوت كل شيء ولا يستطيع الإنسان أن يفتعل في ملك الله ما ليس فيه والمناهج التي بنـاها الإنسان في الاجتماع وغيره يجب أن تخضع لكل النواميس الطبيعية التي خلقها الله بيديه ولو أن الإنسان كان صادق المنهج مع ربه لما حـدث هذا الصـراع العالمي ولمـا نشبت الحرب ووقعت الجرائم بين الأفراد والمجتمعات.

---

(١) سورة يس: الآية ٧٧.

○ يتغنى القرآن بالمنهج الطبيعي فيقول «وآية لهم. . وآية لهم. . وآية لهم. . وآية لهم. . والشمس والقمر والأنعام والدواب والشجر والنجوم والنمل والنحل والليل والنهار». إن استقراء القرآن للآيات الطبيعية كان بمثابة المعمل الذي أجرى فيه تجاربه حتى صلى محمدﷺ مع دلوك قرص الشمس ومع كل همسة ولمسة من الظواهر وكان ثمرة ذلك كله هذا الإيمان الذي جعل من محمدﷺ والقرآن رسولاً إلى الناس متجاوزاً كل الحواجز المصطنعة التي أقامتها الأديان حتى يقول إن ربه ورب كل شيء وكل نبي ورب كل رسول هو بعينه رب العالمين وهو نفسه إله الإنسان الوحيد إن كان لا بد أن يكون للإنسان إله.

لكن الجليل في القرآن هو ما قرره من وحدانية الله وهيمنته على الطبيعة والإنسان لنتبين قيمة الإنسان على الحقيقة وأنه هو الكائن الذي يستطيع من خلال الأخلاق أن يصير إلى الأبدية ولهذا كانت الأجساد في نظر القرآن ليست إلا مستودعاً للكائن السامي في الخلقة البشرية وهو ما يفتح الأمل أمام المؤمنين بالله سبحانه وتعالى.

الباب السادس

الفصل الأول

نسق «طس» «الطاهر - السنن»

القضايا ومحمولات النسق:

- يقدم نسق «طس» ما ورد في نسق «طه» و «يس» مطبقاً هذا المنهج الطبيعي على مملكة الحشرات خاصة مملكة النمل لما في تلك المملكة من قوة التعاون وقوة التكافل وقوة العمل وقوة التخصص والأساليب الطبيعية التي ضمنت لممالك الحشرات الاستمرار والبقاء.
- إن إشارة القرآن لمملكة النمل إنما هو إظهار لآية واقعية لما ورد في القرآن من المنهج الطبيعي الذي ارتضاه وليبني على غراره المجتمع الإيماني حيث نجحت الغريزة والعقل الرباني في النمل لدرجة مدهشة بحيث كان ذلك مثالاً يحتذى لكل من يريد أن يقيم المجتمع الفاضل.
- في نسق «طه» بيّن القرآن كيف هدى الله الإنسان من باطنه وضرب لذلك حديث موسى وفي نسق «يس» أوضح القرآن ما يمكن أن يهدي الإنسان من السنن والنواميس خارج النفس كما يراها الإنسان في الطبيعة من الشمس والقمر وغيرها وفي هذا النسق «طس» يوضح النموذج الذي يمكن أن تقوم على غراره المجتمعات الإنسانية بحيث يكتب لها البقاء والنمو

والاستمرار والتطور ولذلك كانت مملكة النمل نموذجاً رائعاً في التعاون والإخاء والمساواة والسلام أيضاً.

- لا يريد القرآن بهذا النموذج في النمل أن يضع العقل في مواجهة الغريزة كما هي في الحشرات وإنما يريد أن يوضح لنا سلطان المنهج الطبيعي وأنه هو بعينه الذي أبدع الغريزة كما تبدو في تلك الممالك المنظمة والمتعاونة والمحبة لنعرف أن ما بين أيدينا من سنن ونواميس هذا المنهج هو الكمال المنشود لكل عقل.

- يقول الوحي إن كان للقرآن من آيات فإن تلك الآيات قد اشتقت من سنن ونواميس هذا المنهج الذي على مثله خرجت الغريزة إلى حيز الوجود كما هي في النمل والنحل وغيرها لنتبين هيمنة وسلطان القرآن وليكون من ذلك بشرى لمجتمع المؤمنين بهذا القرآن وهذا المنهج.

- لقد رأى القرآن المجتمعات البشرية وهي تنهار والحضارات وهي تهوى وما من أمة هلكت إلا ولعنت أختها لنتبين حجم المشكلة أمام القرآن وأمام المؤمنين ولنتبين أن قراءة التاريخ وما هلك من القوميات قد جعل القرآن يُعنى بهذه المشكلة الكبرى وكيف يبني هذا المجتمع الذي يريد له البقاء والازدهار؟؟.

- قرَّر القرآن الآيات والسنن والنواميس وكشف عن التطور الطبيعي وأنه لا بد أن ينتهي إلى التطور الروحي ولذلك أكد القرآن أن هناك حياة روحية أخرى يبعث فيها الناس فأقام منهجه على تلك العقيدة التي تكفل الإخاء والمساواة والتعاون وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

- إن إمكان المعرفة والعلم قضية يقينية وأن الإنسان لم يترك سدى بحيث يتخبط في متاهات الجهل والغرور والحماقة والله من خلال ما خلق من

الآيات والسنن والنواميس والفطرة يخرج الخبء في عوالم السماوات وعوالم الأرض لكي يفيد الإنسان من ذلك وقد تبين لنا أن اختراع الإنسان للكهرباء وللمغناطيسية واستخراجه للمعادن وكل الخطوات التي حققها العلم هو برهان لا ينقض أبداً ومثل ذلك ما أمكن من المعرفة عند الرسل وعند الأنبياء وعند علماء العصر والماصدق وكل النتائج الباهرة لما أنجزه الإنسان بالعلم والمعرفة.

- إن اللاإرادية والتشاؤمية وقصر الأمر على ما بين أيدينا من المحسوسات فقط لهو أمر خطير إذ يجعل من الإنسان حيواناً مثله في هذا التدني مثل القردة والخنازير ولكن الحقيقة أن إمكان العلم وإمكان المعرفة وإمكان الوصول إلى أسرار الخلق هو عملية يقينية سواء كانت تلك المعرفة معرفة باطنية من نفس الإنسان والنظر إليه من الداخل أو كانت معرفة خارجية بالنظر إلى الأشياء والكائنات والنمل والنحل وما يمكن أن يكون مصدراً أو موضوعاً للمعرفة والعلم.

- لا تقف عقبة أمام المعرفة الإنسانية مطلقاً وقد أمكن للأنبياء والرسل خلال التجربة الروحية الباطنية أن يعرفوا أن هناك حياة أخرى بعد موت الإنسان وها هو القرآن يكشف نفس المعرفة من خلال قراءته للسنن والنواميس والمنهج الطبيعي لنتبيّن أن رب الإنسان ولو أنه أخفى عالم الغيب عن نظر الإنسان وحواسه فإنه قد كشف عنه من خلال المعرفة والعلوم وأمكن للإنسان اليوم أن يخبر بحدوث الخسوف والكسوف قبل أن تقع بمدة طويلة لنتبين إمكان معرفة أسرار الحياة الآخرة وما ورد في القرآن من أوصاف يوم القيامة والبعث والحساب لا يبعث على الشك بل هو بعينه ثمرة من ثمرات العلم والمعرفة بل إنه ثمرة طبيعية لما يمكن أن نقرأه من التطور والارتقاء وما قدمه دارون وغيره في منهج الملاحظة والدراسة.

- إذ أمكن لنوح أن يعرف كيف بدأ خلق الإنسان وأن الله قد أنبته نباتاً لا

يفترق في كثير أو قليل عن جنس النبات ثم صار بإبداع الله والخلق إلى ما صار إليه فقد أمكن لداروين يعرف شيئاً عن تلك السنن لنتبين أن المعرفة الباطنية للأنبياء والروحية تلتقي مع منابعها في المنهج الطبيعي وأن رب الإنسان كما يظهر في المعرفة والعلم اللدني الباطني كذلك يظهر له في الآية والسنن والنواميس والطبيعة أيضاً لنتبين أن المشكلة عند الجهلة هي الغفلة ومن لا يتدبرون الخلق والطبيعة وأن القرآن قد دعا إلى الفكر والبحث والتنقيب ليقيم صرح العلم والالتقاء بين الله ورب الإنسان.

- عندما يدعو القرآن إلى الثقة في علم الإنسان عن طريق التجربة الروحية وعن طريق النظر إلى الطبيعة فإنه يعقد الصلة بين الاستدلال والاستقراء لكنه لم يجعل من السنن والنواميس والفطرة وسيلة للهيمنة فإنه يأخذ الضوابط العلمية لسلطان الطبيعة كما تبدو في الغريزة والنمل والنحل والحشرات ليتبين الإنسان ما لله وما للشيطان إذ التكنولوجيا هي التي تفصل بين العلم الكاذب من العلم الصادق والفكرة التي يمكن تطبيقها والفكرة المستحيلة التطبيق ولذلك قدم القرآن آية النمل والنحل والعنكبوت والشمس والقمر والليل والنهار وغيرها.

- لكن القرآن وهو يقدم «نسق» «طس» والنمل لا يقدمه إلا من خلال هذا الجانب الخطير وهو هل في الإمكان الإنساني أن يتنبأ وأن يخبر عن الغيب؟.

- وللإجابة على هذا الأمر قدم القرآن نبوءات الرسل وأخبر عن صدق تلك النبوءات حتى أن نبوءة نوح تحققت بعد ألف سنة إلا خمسين عاماً على وجه التحديد لنتبيّن مدى ما يمكن أن نثق فيه لهؤلاء المكرمين الذين خصهم الله بالعلم والمعرفة وعلماء العصر وما يتنبأون به اليوم من العجائب لهو خير شاهد على صدق القرآن ورفعة شأن الإنسان عند ربه.

- إن المشكلة كما أوضح القرآن جوانبها قد أصبحت بين أيدي العلم وإمكاناته ولقد فتح القرآن فتحاً مبيناً إذ نقل المنهج من منهج الباطنية الروحية متمثلة في الأنبياء والرسل إلى منهج العلماء العاديين وما بين أيديهم من الطبيعة والآيات والسنن والناموس كي يكون ذلك ميسراً لكل إنسان يمكن أن يبحث فيه وأن يقوم بدوره الذي خلقه الله له ولذلك كانت رسالة محمدﷺ هي آخر الرسالات ونبوءته أنهى لكل نبوءة بعدها.
- هذا اليقين العلمي استخدمه القرآن لتثبيت دعائم الأخلاقية الروحية ولذلك يقول ولقد خاب من حمل ظلماً لنتبين أن فضل العلم في القرآن على العصر هو استعمال العلم استعمالاً صحيحاً وبيان المصير المنتظر للبشرية كلها ولن يتمكن العلماء من استجلاء هذا الأمر استجلاءً صحيحاً إلا عندما تقترب العلوم من العتبات الروحية المودعة في أصل الفطرة وعندئذ سيتبين الإنسان أن فناء المادة ما هو إلا وهم كبير اخترعته الظواهر المادية وسيتبين الناس أن طبيعتهم الروحية تفوق كل ما يتبدى لحواسنا من عوالم المحسوسات والطبيعة المرئية أيضاً.

البراهين التي استخدمها نسق «طس»:

- قدم القرآن إمكان المعرفة إذ أوضح أن محمداًﷺ يتلقى الوحي من المصدر الإلهي الذي قدم الآيات البينات لموسى عليه السلام والقرآن شأنه شأن التوراة ككتاب سماوي إذ لم يكن بين يدي موسى أو محمدﷺ أثر من علم أو معرفة لكن المشيئة الإلهية هي التي صنعت منهم رسولين جليلين.
- إن تجلِّي رب موسى له في ظاهرة النار المقدسة وبيان التجربة الروحية وما أخلفه ذلك على موسى من الأمن والطمأنينة قد كان ليعرّف موسى أنه لا إله إلا الله وهو العزيز الحكيم حيث يجعل من بعض الأفراد رسلاً إلى الناس

وما حدث مع محمدﷺ في الروحية هو من نفس القبيل.

- قدم رب موسى له من باب العلم والحجة والمعرفة تسع آيات بينات على فساد أمر الفرعونية مثل الجراد والقمل والضفادع والدم وغيرها مما وصف به هذا المجتمع من التطفل والصراع الطائفي والصراع الطبقي وغيرها.

- تلك الآيات كانت آيات واضحة وضوحاً تاماً ورغم ذلك ظلم الفرعونيون بها ومثل ذلك القرآن إذ يهدي للتي هي أقوم لنتبين أن العيب ليس في موسى وآياته ولا في القرآن وما نزل فيه من العلم والهداية وإنما المشكلة في الظالمين والمجرمين والطغاة ولذلك يحدد القرآن الأسباب المادية التي تغلب الناس على عقولهم وعقائدهم ليكون من ذلك كله العناد والكفر.

- مثل ما قدم الله من العلم لموسى ومحمدﷺ في التجربة الروحية الخالصة فإنه قدمه في التجربة اليومية والحسية لداود وسليمان وكان ذلك ما أقام عليه داود وسليمان هذا الملك الذي يتغنى به اليهود وأن مملكة سليمان هي تجربة للعلم لا تدحض ولا يمكن إنكارها ليبين القرآن أنه إن كانت التجربة الروحية تعصى على الفهم في القرآن فإن التجربة المادية الحسية في سليمان وداود من الممكن أن يفهمها الناس وأن يتبينوا أن الإنسان لديه القدرة على المعرفة ولديه القدرة على تحصيل العلم من خلال قراءته للسنن والنواميس كما تبدو في الظاهرة المادية.

- يقدم القرآن آباء المعرفة الروحية ويضرب مثلاً بموسى ومحمدﷺ ويشرح لنا في ظاهرة رب موسى والنار المقدسة ومن حولها من الناس في المشهد السيكولوجي ليقول إن هذا العالم الباطني الذي يحياه الروحانيون يقدم للإنسان المعرفة النفسية ويجلى لنا سماتها وسننها ونواميسها ولكن تجربة ما يظهر في الوعي واليقظة إنما تقدمه لنا التجربة المادية ولذلك فهذا الوعي اليقظ يكشف لنا عن السنن والنواميس كما تظهر لنا في الكائنات والأشياء

الخارجية ليتبين الإنسان مدى الصدق والتطابق بين ما هو باطني سيكولوجي وبين ما هو مادي حسي خارجي.

- إن المعرفة الروحية للإنسان تتجاوز الكتب السماوية ولذلك لم يتم إقامة ملك داود وسليمان على التوراة والإنجيل وإنما قام هذا الملك على العلم التجريبي والملاحظة والتعلم وهي أمور تخرج عن معنى الوحي كظاهرة روحية ولذلك قدم القرآن لإمكان المعرفة عن هذا الطريق الحسي والمادي شخصية سليمان وشخصية داود ليتبين الناس إمكان تقييم التجربة الروحية التي يقدمها القرآن ولو أنهم قرأوا السنن والنواميس والفطرة التي فطر الله الخلق عليها لعرفوا أن القرآن صادق وأنه لم يقدم لهم إلا العلم اليقيني والحق الباهر.

- إن قراءة الآيات كما تبدو في الطبيعة وعالم الحشرات والنمل والنحل من الممكن أن يكون مصدراً للمعرفة والعلم كما هو الحال في التجربة الروحية، لكن المشكلة التي يهتم لها القرآن هي الإبدال لصعوبة تصديق الناس للظاهرة الروحية رغم وضوح آياتها ولذلك اختار القرآن للمنهج الأخذ بتجربة داود وسليمان وهي تدبر الطبيعة والسنن والنواميس والفطرة كما تبدو في الغرائز وممالك الحشرات وغيرها وأن ما فعله آباء المعرفة المعاصرة دارون وماركس وفرويد والتجريبيين إنما كان على نفس منهج القرآن الذي ارتضاه في النهاية.

- هذا التحول عن التجربة الروحية كان خاتمة لكل رسالة بعد القرآن إذ جعل المعرفة والعلم مسألة عامة يستطيع كل إنسان أن يخوضها وأن يتعلم منها مثلما تعلم سليمان من النملة وسلوكها ولذلك كانت دعوة القرآن إلى البحث وإعمال التجربة والفكر وقراءة آيات الله في الطبيعة وملوك السماوات والأرض وقد أخرج الله خبء السماوات في التجربة الروحية وأخرج خبء الأرض في التجربة الحسية وما بين أيدينا من ممالك

النبات والحيوان والحشرات والنمل والنحل وغيره.

- هذا الفصل بين الروحية كوسيلة للمعرفة والعلم وبين المادية والطبيعة ونهج القرآن المنهج العلمي كما هو في الطبيعة قد فتح الباب لبيان قدرات الإنسان العادي وأن هذا الإنسان لديه الإمكانات التي يستطيع بها أن يكتشف السنن والنواميس الطبيعية ومن ثم يستطيع أن يقدم للناس علماء؟.

وهكذا كانت تجربة سليمان والنملة وعرش بلقيس وبناء قصر للملكة مشابهاً تماماً لعرشها في مأرب من خلال الذاكرة والصورة والحافظة وقد حلل لنا القرآن (اقرأ «نظرية علم النفس القرآنية») عمل الطاقات الروحية التي يتمتع بها سليمان فأوضح في «الهدهد» كيفية عمل الذاكرة وفي «العفريت» كيفية عمل المصورة وفي الذي عنده علم من الكتاب كيفية عمل المخيلة وهو نفسه ما كشفت.عنه الدراسات المعاصرة في علم النفس والقدرات إذ الإنسان لديه من تلك الإمكانات الشيء الجليل حتى .نيوتن وهو يراقب سقوط التفاحة فقد رأى أنها قد سقطت بطريقة مختلفة عن الأحجار وغيرها وكأنها سقطت أمامه بالتصوير البطيء فتبين مسألة العجلة والجاذبية وغيرها.

- لقد ضرب القرآن مثلاً لما يمكن أن يصل إليه الإنسان عن طريق حواسه الظاهرية وما يمكن أن تقدمه له عمليات التعلم من الطبيعة والنمل والنحل وغيرها لنتبين منهج المعرفة في القرآن وأنه جعل من العلماء ورثة للأنبياء لكي يكون من ذلك باب واسع جداً لرسالة الله والسماء في الأرض ولم يكن «بيكون» وغيره من التجريبيين حتى اليوم إلا ثمرة من ثمرات منهج القرآن الجديد وأن «طس» كما وردت في نسق «النمل» وما كان من تجربة سليمان مع النملة وتجربته مع نفسه لبناء عرش للملكة مشابهاً تماماً لعرشها في مأرب إلا نتاجاً لعلم القرآن الواسع.

- يبيّن القرآن أن عرش النفس البشرية والذي اتخذه الله له عرشاً هو عـرش عظيم جداً وأن ما قدمه القرآن في تجربة سليمان وبلقيس قد أوضح لنا أن الله يخرج خبء السماوات والأرض بشتى الطرق وشتى الوسائل وهـا هو موسى يقدم تسع آيات بينات وها هو محمدﷺ يقدم القرآن العظيم وها هو داود وسليمان يقيمان تلك المملكة العظيمة التـي يتغنى بها التـاريخ حتى يقول القرآن إن الله قد سخر لسليمان القوى الـطبيعية حتى طـاقة الـرياح ومثله اليوم ما سخره الله للعلماء من طاقة الشمس وطاقة الذرة لنتبين قيمة الإنسان عند ربه وأنه مستودع لكل علم وكـل خلق وكل إبـداع ليكون من ذلك للناس شاهد وبرهان ومعرفة بالنفس على حقيقتها وأن الإنسان سواء كان في التجربة الروحية أو التجربة الحسية قادر على تحصيل المعرفة بل هو نفسه مبـدعٌ لها بقوة ربه.
- حشر للإنسان من الطاقات الروحية طاقة الجن وطاقة الإنس وطاقـة الطيـر لنتبين أن الوسائل التي سُلح بها الإنسان العادي من أجل العلم والمعرفة لا يمكن أن تنفذ حتى أن سليمان يستحث قواه الروحية لتخيـل عرش الملكة فيقدم له العفريت صورة العرش في جلسة واحـدة من أجل التـذكر ولكن الـذي عنده علم من الكتـاب يقدمهـا له في غمضـة عين حتى إذا جاءت الملكة لزيارة سليمان لم تستطع أن تفرق بين عرشها في مـأرب وعرشهـا الذي صنعه لها سليمان حتى اعتقـدت أنه نقله بقـوة السحر والجن لتتبين مقدار ما يمكن أن يكون لدى الإنسان من القدرات. والتـزييف في الأوراق النقدية وتزييف اللوحات الفنية يكشف لنا عن هذه القدرات العجيبة ليثق الإنسان من نفسه ومن ربه وليتبين القرآن أن الإنسان بالفطرة وهو الإنسان العادي لديه إمكانات العلم وإمكانات المعرفة وإمكانات التعلم.
- لقـد وجَّه القـرآن في سورة «لقمـان» النظر إلى العنـاية بـالتربيـة للصغار لأنهم عناصر المستقبـل وأسقط القيود عن الفكـر الحر ولكنـه في «طس»

من سورة «النمل» قد عُنِيَ بالتعلم والبحث ورفع قدر الإنسان العادي وفتح بصيرته على نفسه وطاقاته ليفتح الأمل أمام الملايين من بني الإنسان وليكون من ذلك هدى وبشرى للذين آمنوا بمحمد ﷺ حتى يقول في أصحابه إنهم أعلام بأيهم اقتديتم اهتديتم.

- لقد جعل القرآن فاتحة «طس» والنمل بشارة لكل المجتمع المؤمن ودخل في العلم كل مسلم وأصبح له دور في الرسالة حتى إذا سألوه عن تقليم النخيل رد عليهم بأنهم أعلم بشؤون دنياهم لاحترام هذا المنهج الجديد وهو الذي أعلى من شأن الشورى والديمقراطية وجعل لكل واحد من المؤمنين قدره في العلم وقدره في المعرفة ولم يستنكف أن يكون لأصحابه دور معه رغم ما كان له من الوحي وما كان له من جلال القرآن.

- لكن القرآن وهو يقدم هذا المنهج من أجل ملايين الناس ومن أجل قضية الإيمان وثقة الإنسان في نفسه قد أوضح الفروق في منهج المعرفة إذ يقول سليمان لملكة بلقيس في المنهج إنه لا يستمد علمه وتعلمه من ظاهر الآيات كما تفعل هي وقومها إذ اتخذت من الشمس إلهاً ولكنه يتعلم من خلال رب الظاهرة وهو باطنها وما يبدو لنا منه في العقل ليثير بذلك مشكلة الظاهرانية العلمية والتي تنتصر على دراسة الأشياء كما تبدو لنا أو مشكلة الباطنية وما يجب أن يدرسه العلماء من أسرار باطن الآيات والظواهر لقد أدرك القرآن أن الإنسان لا يصح له العلم اليقيني إلا بالغوص في باطن الظاهرة وهو الذي يخرج خبء السماوات والأرض وبذلك أقام القرآن لأول مرة مبدأ الاختبار والتحليل من أجل البحث ومن أجل التنقيب ومن أجل العلم.

- لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ولكن اسجدوا للذي خلقكم ليتبين الناس أن ما وراء الظواهر هو الذي يحكمها وما السنن والنواميس التي تظهر في الفلك وسلوك الكائنات إلا تعبيرٌ لهذا الباطن الذي يدعونا إليه القرآن ولو

لم يعـايش سليمان مملكـة النمل ويعـايش مندل نبـات البـازلاء ويعـايش العلماء الدروسـوفيلا ويعـايش دارون سلاسـل الأنواع وتـطورها ويعـايش ماركس حركة التاريخ ويعايش العلماء الطبيعة بجلالهـا لما كـان للإنسـان تلك الحصيلة وهذه الحضارة.

- لكن القـرآن وهو يتصـدى في الهيمنة من كتـاب «الم» في «البقرة» و «آل عمران» وغيرها قد أسقط سلطان أهل الكتاب والأديان ولأن محمداً ﷺ كان من الأميين أوضـح القرآن أن سلطان الاعتقادات لم يعد في الأديان وإنما أصبح في العلم وهو وحده الفيصل في كل عقيدة حتى قـدم المفهومـات الجديدة في أسماء الله الحسنى لنتبين أن القرآن وهو يحدث تلك الثورات العظيمة في منهـج المعرفـة لم يترك شيئـاً إلا ونقضه وأقـام عليه لـوناً من المعـاصرة التي لم يفهمهـا العرب ولم يفهمهـا الناس وقتـذاك ولننظر في تصديه لسلطان الكهانة حيث قدم سورة «الأنبياء» لينقض بذلك كل سلطان داعياً بهذا إلى تكريم الإنسان العادي الذي كـرمه ربـه وأسبغ عليـه نعمة العلم الفطري عند ميلاد آدم لأول مرة أمام كل الخلائق خاصة الملائكـة الكرام.

- من يقرأ قصة الخلق وما ورد فيها من أدواء تصيب فطرة الإنسان من الجهل أو الغرور أو الطغيان أو حتى الضعف النفسي لا بد أن يتبين ما أراده القرآن من ذلك إذ وضح لنا أن الفطرة الربانية في كل إنسان هي فطرة العلم وفطرة المعـرفة وفـطرة الإدراك وفطرة الـوعي ويستوي في ذلـك النـاس جميعـاً وإنمـا تبـرز المشكلة عنـدمـا يمـرض الإنسـان ولا يعـرف المنهـج وهـو مـا قدمـه القرآن في المسـائل التي أثـارها القـرآن لمواجهـة سلطان أهل الأديان وأهل الكتاب والأنبياء والـرسل الـذين عبدهم النـاس من دون الله ودور الأحبار والرهبان والكهان في تضليل الإنسان واحتقار فطرته والتعدي على قدراته وإمكاناته ولذلك كان محمد ﷺ شاهداً وبرهاناً على المنهـج

الطبيعي والفطري وما يمكن أن يصل إليه الإنسان بقواه الذاتية خارج نطاق العلم المفتعل وخارج نطاق التسلط وخارج نطاق الوصاية وخارج نطاق الأنبياء والرسل.

- عندما صور القرآن المنهج على تلك الصورة بين ملك وهو سليمان وملكة مأرب وكأنها معركة حرب كان القصد من ذلك بيان ما يتمتع به الإنسان من تلك الجنود حق يقول ﴿**وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير**﴾ لنتبين المدى الذي سلمت به الطبيعة قدرات الإنسان حتى صارت جنوداً وجيوشاً لا يعلمها إلا خالق الإنسان ومن كان يتوقع من الولد الخامل آينشتين أن يكون له من القدرات ما أدهشنا به إلا أن نتبين قدرنبوءة القرآن للإنسان العامي العادي الذي من الممكن أن يجعل من داود الراعي البسيط ملكاً ومن محمدﷺ الأمي أكرم الرسل وأغلى الأنبياء ومن دارون البليد عالماً عظيماً ومن «مدام كوري» مكتشفة الذرة ومن كل إنسان لم نتوقع له مستقبلاً أو كرامة.

- الإشادة بالإنسان وما بين الإنسان والأشياء والكائنات ولقد كانت نملة سبباً في علم سليمان، ودودة العلق سبباً في معرفة دواء الجلطة والدروسوفيلا سبباً في اختراع الرادار ومحاكاة الطيور سبباً في إرساء صناعة الطائرات وتطور العلوم والتكنولوجيا لنتبين معنى «طس» وآية النمل ولنعرف أن منهج المعرفة الذي بحثه القرآن لم يكن من أجل الأخلاق فقط وإنما من أجل الدنيا والحياة اليومية وليس هناك فاصل في القرآن بين ما للدنيا وما للآخرة في عقيدة المؤمن وإنما يأتي هذا الفصل عند الكافرين وعند الفاسقين وعند المشركين لأنهم يزيفون الحقائق ويضعون المسائل في غير موضعها.

- إن مشكلة المعرفة والمنهج مشكلة كبيرة واختلاف الناس فيها منذ القدم والصراع بين نوح وقومه شرحه القرآن إذ كانوا يقصرون المعرفة على ظاهرة

الأشياء ويعتقدون أن المذهب الحسي هو ما يجب أن يكون له السيادة لكن نوحاً وقد أدرك قانون الطفو فإنه اعتقد في المعقولات وما يمكن أن يطبق من مكتشفاته ولذلك بادر بصناعة الفلك ليتغلب على البيئة الطوفانية التي كانت سائدة في تلك الحقبة ومثل ذلك ما كان بين هود وقومه واختلافهم إذ كان في القوم تسعة رهط لكل منهم وجهة نظره في المعرفة ولكن هوداً قد أدرك أن المسألة ليست كذلك وأن المنهج هو منهج واحد والله سبحانه لا يترك الإنسان في ضلال وتخبط وظهور الفساد في الأمم ليس له معنى إلا فشل المنهج ولذلك ضرب القرآن مثلاً حياً لتلك المسألة فأوضح أن قوم لوط كانوا يأتون الذكران من العالمين رغم وضوح أعضاء التذكير في الذكر لنتبيّن المدى الذي يصل إليه ضلال الإنسان وأن مسألة المنهج والمعرفة مسألة خطيرة وفقدان الإنسان للمنهج يجعله يقلب طبيعة الأشياء بل يخترع لها طبيعة فاسدة من عندياته.

○ انظر إلى ما ورد من الآيات في شأن الإعادة بالمنهج الطبيعي ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرَا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]. لنتبين إبدال الألوهية كموضوع ديني يتعدد

(١) سورة النمل: الآيات ٦٠ ـ ٦١ ـ ٦٢ ـ ٦٣ ـ ٦٤.

فيه الآلهة وبموضوع علمي طبيعي ليس فيه إلا إله واحد هو سلطان الله وسلطان الطبيعة التي أثرت حياة الإنسان بالنعم في الأرض وفي السماء.

- في غياب المنهج كان في قوم هود تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون وفي قوم لوط وجد الشذوذ الجنسي وهو آفة فاضحة لا تحتاج لبرهان ومثل ذلك يأتي اليوم شذوذ منهج الأمة الإسلامية والعربية وغير العربية ثم تنكشف صورتهم جميعاً بالتخلف والفساد لنتبين أنه وإن كان في قوم هود تسعة فرق فاسدة فقد أصبح في المجتمعات الرأسمالية ملايين الفرق وملايين الناس يفسدون في الأرض حتى قامت حربان عالميتان كاسحتان ولم يتعلم الإنسان بعد أنه ليس على المنهج وليس على الفطرة وليس على الطبيعة ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**﴾[1].

- يقول القرآن يكفي حجة للمنهج الطبيعي وهو منهج القرآن أن ينظر الناس إلى أحقر المخلوقات كالدود وهو دابة الأرض ليتبيّن أن هذا الدود فيه من أسرار الخلق والإعجاز ما يدهش عقل الإنسان ودودة «العلق» الماصة لدماء الأسماك مثلاً قد عرفت بالهداية الربانية كيف تبقي الجرح دامياً حتى تمتص منه دون أن تتجلط الدماء فيه ومثله ما يفعل البعوض ومثله ما يحتج به القرآن من غلبة الله إذ يقول لا يستطيع الإنسان أن يقهر الذباب وهو يسلب من الإنسان طعامه حتى ضعف الطالب والمطلوب لنعرف أن المناهج الشاذة والفساد في الأرض إنما هو لغياب المنهج ولضلال الإنسان ﴿**وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاس كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوْقِنُونَ**﴾[2].

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٩.

(٢) سورة النمل: الآية ٨٢.

○ كم من حشرة دخلت إلى المعامل وكم من فأر دخل التجارب وكم من كلب علّم «بافلوف» أسرار الردود المنعكسة للتجربة الحسية عند الحيوان والإنسان وكم من دابة أنطقها علم الإنسان حتى يقول القرآن وقد عرف أن الطبيعة وأسرارها ستنطق يوما ما سبحان الذي أنطق كل شيء لنتبين نظرة القرآن إلى الطبيعة وأنها هي بعينها المعلم الأول لكل متعلم ولكل طالب علم ولكل باحث لاتضح لنا مصيبة الأمة ومراءاتها الكبرى عندما وقف علماؤها الحمقى من كل ما هو طبيعي موقف العداء والشك.

○ لو تبين الإنسان أفعال الطبيعة وأعمالها لوجد فيها ظاهرة كبرى تستحق التأمل ولذلك ما تجد آية من الآيات فيها إلا وتلك الآية قد خصها الخالق بوظيفة محددة تقوم بدورها في الحياة وضرب القرآن لذلك مثلاً بظاهرة الليل إذ جعل وظيفته زمناً للناس ينامون فيه ومثل ذلك جعل النهار مبصراً ليسعوا ويعملوا فيه ليتبين الإنسان أن ذلك لم يكن إلا من عليم خبير فإذا أراد الإنسان أن يعرف أسرار العلم فعليه بالبحث في وظائف الطبيعة وسيكون له من ذلك العلم الذي لا يدحض والعلم الذي لا يعتريه الباطل ولا الزيف ولا يدخل حظيرته الشيطان.

○ لكن القرآن وهو يقدم الطبيعة كمصدر للعلم ومصدر للمعرفة فإنه قدم قمة العلم وقمة المعرفة إذ يقول إن تلك الصنعة المتقنة والتي يراها الإنسان في الطبيعة قد كانت من منهج خطير لا يبصره الناس وأن التطور والحركة تأخذ بكل شيء ولذلك يقرّر القرآن لمحمدﷺ أن الصنعة العجيبة فيما خلق الله تكاد تخفى على الناس بأسرارها حتى أنك ترى الجبال تحسبها جامدة وهي ليست كذلك بل هي متحركة متطورة تمر في مراحل مر السحاب الذي تراه بعينيك وما من خلق إلا ويتطور لنتبين معنى دقة الصنعة وجلالها كما تظهر في آيات الطبيعة ومثل ذلك جاءت إلى الوجود مخترعات العصر بسيطة تافهة ثم تطورت إلى ما بين أيدينا من السفن العملاقة والطائرات

الضخمة والقاطرات المريحة والصواريخ الجبارة ليقول القرآن للناس في العلم إن الطبيعة لا تبوح بأسرارها كلها دفعة واحدة لأنها لم تخلق دفعة واحدة وما على الإنسان إلا البحث والتنقيب ولهذا يقول القرآن إن التطور الذي أوجد ما بين أيدينا من الآيات هو نفسه الذي سيقدم آية البعث وإحياء الأموات وهو نفسه مرتبط بالقيامة الطبيعية والكونية ويوم ينفخ في الصور سيعرف الناس أن علم الطبيعة هو العلم الحق الذي أرشده الله إليه وهو العلم اليقين.

- ﴿وَقُلِ الحَمدُ لِلهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١).

- ﴿«طس» تلك آيات القرآن وَكِتَابٍ مُبِينٍ * هُدًى وبُشْرَى لِلمُؤْمِنِينَ﴾(٢)

- لذلك كان فتح القرآن لكتاب الطبيعة وآياتها أمام الذين آمنوا بمحمد ﷺ هو بداية المعرفة الطبيعية إذ لم تبدأ تلك المعرفة عند «بيكون» وغيره إنما بدأت بالقرآن وبرسالة محمد ﷺ ومن آمن به لكن المشكلة أن الأمة لم تفهم المنهج وتبين من التجربة أنها نزعت إلى اللاهوت والدين بمفهومه الغيبي وللعجب أن القرآن قد جعل كل الهيمنة في محاربة أهل الكتاب والأديان والأحبار والرهبان والكهان وأزال سلطانها وجعل القرآن هو الرسالة والنبوءة الخاتمة من أجل هذا الأمر وكما أعطى للإنسان الأمي العادي حريته كذلك أعطى للمنهج خلاصة وأوضح للناس أنه لا حاجة للنبي أو لرسول طالما وجدت آيات الله حبة الطبيعية ومقدرة العقل الإنساني. فهي تستطيع أن تقوم بالمهمة على خير وجه، والدابة التي يخرجها الله من الأرض والفراشة الطائرة ودودة «العلق» والنمل والنحل وغيره من الممكن أن تكون هي الرسول وهي الكتاب وهي الآيات الربانية المبثوتة من

---

(١) سورة النمل: الآية ٩٣.

(٢) سورة النمل: الآيتان ١و٢.

حولنا ليعرفها الإنسان ويوقن أن ربه هو المعلم وأن ربـه هو المهيمن وأن ربه هو العليم الخبير صانع كل شيء وهو أيضاً الذي أتقن كل شيء.

- ليس هناك عجب في الخلق غير هذا القرآن واكتشافه أن كل عناصر الطبيعة في حركة وتطور حتى الجبـال الجوامد لم يتحقق العصر منه إلا من خلال الأبحاث الذرية وبتلك الأجهزة العلمية التي كشفت عن حركـة ومكونـات الـذرة والعناصـر لنتبيّن أن القراءة الفـطرية للعقـل الإنساني ونـظرتـه إلى الطبيعة وتدبرها والبحث والفكر لا بد أن ينتهي بنا إلى تلك العقيـدة التي اعتقدها محمدﷺ في ربه وتلك الثقة في النفس وتلك الحجة على الإنسان أنـه مهدى بـالفطرة وليس مهـدياً بـالأديان أو التعليم أو حتى بـالـوالـدين وحدها والذي كتب «حي بن يقظان» قد أصاب الحقيقة.

- ليس هنـاك إعـلاء لسلطان الـفـطرة في الـقـرآن إلا هـذا الإصـرار في تقديم نبوءة الحياة الآخرة في كل مرة يذكر فيها المنهج الطبيعي وكـأنه يقول للناس انظروا ما قـدمه المنهـج وأمكن له من تلك المعـرفة الجليلة والتي كـانت التـاج لعلم محمد ﷺ والقـرآن في هـذا قـدم لنا تفصيلات يوم القيامة ويوم الحساب كأنه رأى تلك المشاهد رؤية العين ورؤية البصر وما كانت سورة «القارعة» «والزلزلة» و «الغاشية» و «الطارق» و «البروج» و «التكوير» و «النازعات» و «القيامة» و «الحاقة» إلا ثمرة لهذا المنهج الذي تحدثنا عنه في آيات نسق «طس» في «النمل» ولذلك يقول سليمان فيما عـرف من المنهج إن الله فضله على كثير من عباده المؤمنين لأنه تبين سلطان هذا المنهج وإمكاناته.

- لقد تنبأ القرآن بأن العـالم والباحث الـطبيعي سيوجـد مع التـطور العلمي ولذلك يقول القرآن إن الله سيرينا الآيات والأسرار في الآفـاق وفي أنفسنا حتى نتبين أن هذا المنهج الذي ورد في القرآن هو الحق وهو الصدق وأن منهج رجل الدين وأهل الكتاب ليس هو المنهج السليم ولهذا لا يوجد في

القرآن علماء على الحقيقة إلا هذا العالم الطبيعي ولا يعقل أن يهاجم القرآن علماء اللاهوت ثم يقيم هيمنة الطبيعة وعلماء الناسوت ولذلك كان العلماء المذكورون في القرآن هم بعينهم علماء الطبيعة من الفيزياء والكيمياء وما كشفت عنه الأبحاث والتطور لنتبين مقدار هيمنة القرآن على العالم وعلى التاريخ والإنسان ولنعرف أن ما ورد في سورة «النمل» كان بشرى حقيقية وهدى للذين آمنوا بمحمدﷺ والقرآن وأنه إيمان العلم والمنهج السليم.

الفصل الثاني

نسق «طسم»

○ يجب أن نتبين كيف يعبر القرآن عن القضايا الفقهية ومحمولاتها في أنساق المنطق الرياضي والمنطق الرمزي إذ نتبين من المعادلات البيانات والعلاقات الداخلية بين تلك الأنساق ولذلك نجد أن:

المص= (الم+ ص).

وهما نسق المهيمن «الم» مع نسق «الصمد× ص».

المر= (الم+ الر).

وهما نسق المهيمن «الم» مع نسق «الرحمن× الر».

طس= (طه+ يس).

وهما نسق الطاهر «طه» مع نسق «الآيات والسنن× يس».

ثم طسم= (طه+ الم).

وهما نسق الطاهر والسنن مع نسق «المهيمن» «الم».

لنعرف من ذلك أن اللغة وإن كانت لفظاً وكلمة فإنها في المنطق الرياضي والرموز القرآنية علاقات بنيوية لا يدركها إلا الفقهاء الذين لا يعنيهم في تلك الأنساق إلا المناسبات والأفكار والعقائد التي تشكل منطق القرآن

وترسى دعائم المنهج ولا فائدة في النظرة السطحية التي ينظرها العامة إلى جزئيات الآيات وتفسير القرآن الذي يجري على منهج تفسير الآية والآية بمعزل عن مناسبات السورة والفكر هو الذي أضاع قضية القرآن في الأمة.

إن العلاقة الواحدة كما هي في الهيمنة قد تجري في عشرات السور القرآنية وتظهر في كل مناسبة بوجه خاص لا يمكن أن نتبين أبعاده إلا من خلال النظرة الشاملة والمهيمن «الم» ظهر في كتاب «الم» وهو يضم ستة سور قرآنية من طوال السور وهو قد ظهر في كتاب «المص» وظهر في كتاب «طسم» لنعرف أبعاد الفقه والفكر البنيوي الذي تتضمنه تلك الأنساق عظيمة الشأن أن تغفل هذا الأسلوب عند تداول تفسير القرآن.

في المتشابه وما ورد في الشرائع تظهر المتناقضات وهناك الكثير من الأحكام التي نسخت عند قيام مجتمع المسلمين وتحويل القبلة في الصلاة إلى مكة وقول القرآن في تكفير أهل الكتاب ومحاربتهم وقوله في مجادلتهم بالحسنى وكثير من تلك الأمور لا تقدم لنا قضية القرآن إذ هي فيه أشبه بالسياسات لكن ما ورد في شأن المنهج والمحكم القرآني وأنساق أسماء الله الحسنى الرمزية هي التي تكشف لنا عن رفع تلك المتناقضات ومن يقول إن المواريث برهان رأسمالية القرآن سيعرف عند الدراسة للكتب القرآنية في «الم» و «المص» و «المر» و «طس» و «طسم» أن القرآن ليس رأسمالياً ولا هو طبقي أو طائفي أو عنصري وإنما هو السلام.



محمولات نسق «طسم» لبيان علاقة «طه» وعلاقة «يس» وعلاقة «الم»:

- في نسق «الم» من سورة «آل عمران» ناقشنا الهيمنة القرآنية موضوع قصص آل عمران وادعاءات النصارى ألوهية عيسى لبيان أن القصص الحق في ذلك هو أن عيسى ليس إلهاً كما يدعون وإنما مثله عند الله كمثل آدم إذ خلقه لأول مرة من تراب وما من إله إلا الله الواحد القهار.

- إن القرآن يقص القصص بغاية أخرى ليس لها صلة بالعنصرية والتعالي والطغيان وإنما يقص القصص من خلال منهج المعرفة الحقة لأن أهل الأديان والكتاب يزيفون القصص لخدمة شعب الله المختار ولهذا يقدم القرآن نبأ موسى وفرعون لبيان موضوع رسالة موسى التي يزيفها اليهود ولذلك جاءت قصة موسى وفرعون في سورة «القصص» على منهج وعقيدة التوحيد وأنه لا إله إلا الله ليتبيّن الكافرون سواء من قريش أو أهل الكتاب والأديان فلسفة القصص القرآني وأنه قصص صاحب منهج وصاحب عقيدة إذ يوضح للناس معنى الرسالات السماوية ومعنى رسالة موسى وخبره مع فرعون الطاغية.

- إن الطغاة من قريش وأهل الكتاب والأديان لا يؤمنون بالتوحيد إذ لكل منهم الإله الذي يتعبده وقريش تتعالى على الناس واليهود يطغون بالعنصرية وشعب الله المختار والحقيقة ليست كذلك إذ ما من إله إلا الله وهو وحده الذي لا شريك له في الملك وسيشرح القرآن في سورة «القصص» كيف جعل الله من مستشفعي بني إسرائيل أئمة وملوكاً وأصحاب سلطان ليتبين الناس أن الله غالب على أمره وسيفرض السلام رغم كل ألوان الطغيان.

- إن إرادة الله أن يجعل من المستضعفين ورثة للسلطان إنما كان لينظر كيف

يفعلون بهذا السلطان وليتبين عما إذا كانوا من المتقين ومن المسالمين أم سينقلبون طغاة مجرمين كفرعون وهامان وقارون أيضاً.

- عرض القرآن فلسفة هذا القصص ونبأ فرعون وموسى من خلال المنهج الطبيعي الذي يعرف الله ومراده على الحقيقة ولذلك ربط القرآن في نسق «طسم» بين سورة «النمل» وسورة «القصص» حيث إن موضوع نسق «طس» هو كيفية حصول الإنسان على المعرفة.

- إن التوحيد ولا إله إلا الله كما هي في نسق «طس» نسق المعرفة كذلك هي في نسق «طسم» نسق الهيمنة وما يقدمه من القصص في نبأ موسى وفرعون وكأنه يقول لنا إنه قدآن الأوان للنظر فيما ورد من قصص الأنبياء والرسل في التوراة والإنجيل بنظرة جديدة بحيث يرد القصص إلى جوهر التوحيد ولا يرد كما هو الآن إلى شعب الله المختار الذي أصبحت عقيدته مزيفة يراد بها الطغيان وهو ما يتعارض مع التوحيد والإله الواحد.

- إن الذي أثار تلك المشكلة عند القرشيين وعند أهل الكتاب هي مسألة الألوهية وما يقابلها من مضامين إرسال الرسل وأن محمداًﷺ قد انتسب إلى تلك القضية الإلهية وهو ما جعل القرآن يقدم لرسالة موسى إلى فرعون على هذا النحو في سورة «القصص» ليتبين الناس أن أمر محمدﷺ هو من أمر موسى أيضاً لكن الطغاة لا يفهمون.

- عندما يثير القرآن مسألة السلام الاجتماعي ويربطها بالتوحيد والإله الواحد ويجعل منها موضوعاً لرسالة موسى إلى فرعون إنما يريد أن يقول لقريش التي تعاديه إن الإيمان برسالته والتوحيد لا يجلب لهم الشقاء وإنما يجلب لهم السلطان كما ورث أهل الكتاب نتائج رسالة موسى وليبين أن الإيمان الحق هو ما كان التوحيد مضمونه ومحتواه وعقيدته ليعرف الذين ظلموا بأي لون من ألوان الطغيان أنهم ليسوا بمؤمنين وأنهم لو آمنوا على الحقيقة لما كانت الطبقية أو الطائفية أو العنصرية ولأصبحوا في الله إخواناً.

- إن صراع الطبقات وصراع العنصرية والطائفية وشتى ألوان البغي يحول بين الناس وبين إدراك السنن التي تحكمه ولو عرف الناس أن الله قادر على أن يبعث من المستضعفين مناضلين ومقاتلين لا تلين لهم قناة لتبينوا أن الدعوة إلى السلام في صالحهم وكم من طاغية قتل بيد الله والقرآن يقص علينا أن داود الراعي البسيط قد وفقه الله في قتل جالوت وهو من أشد الجبابرة وأعتى المقاتلين ومثل ذلك ما نصر به الروم بعد الهزيمة الساحقة. ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾ ليعرف الناس أن ما نصر به الله بني إسرائيل وجعلهم الوارثين هو سنة التوحيد وأنه لا إله إلا الله ولكن الجهلة والحمقى لا يدركون.

- تلك المعرفة يفخر بها القرآن ويضمها إلى ما بين يديه من المنهج ليتبين الناس أنه ما من إله إلا الله الواحد القهار ولتبطل مقولة القرشيين أنهم لو آمنوا بما يدعوهم إليه من السلام فسيخطفهم الناس من كل مكان وسيزول سلطانهم ﴿**وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَك نُتَخَطَّفْ مِن أَرْضِنَا أَولَمْ نُمَكِّن لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُون**﴾[1].

- إن الله هو الوارث على الحقيقة وهو نفسه الذي ورث القوميات وورث الأمم وورث ملك داود وسليمان لما طغى اليهود وهو الذي ورث ملك الفرعون من بعده وهو الذي ورث ثروة قارون وهو الذي يرث الأرض ومن عليها فماذا يسعى إليه طغاة قريش؟ إن الميراث الحق والاستقرار الحق والازدهار الحق كان للسلام والإخاء والتعاون ولذلك ضرب القرآن في ذلك آية البيت الحرام وازدهاره وبقاءه على مر الزمن والدهر والتاريخ ليعرف الناس أن البقاء والتقدم من نصيب السلام وأهله.

- لقد آن الأوان أن يتبيّن أهل الكتاب وأهل الأديان والمشركين من كل لون

---

(١) سورة القصص: الآية ٥٧.

حتى العرب وقريش معنى ادعاء الإيمان بالله ومعنى الألوهية ومعنى المنهج الاجتماعي الذي أصبح في القرآن من العناصر الداخلة في التوحيد ومن لا يعرف أن الله كان للطغيان بالمرصاد فليعرف ما جاء في سورة «القصص» وليعرف من نبأ موسى وفرعون وليتبين الذين يرتكبون الجرائم في حق البشرية أن الله لكل طاغية بالمرصاد وحتى أنه أهلك الفرعون ثم أهلك قارون ومثل ذلك ما في بطون العرب واستعلاء قريش واستكبارها أيضاً.

- عندما يكشف القرآن جوهر رسالة موسى لمحمدﷺ وأنها كانت بإرادة الله السلام في الأرض فإنه يوضح المنهج الذي انتهجته الكتب السماوية وأنه منهج القرآن والتوراة من قبل حتى أنه يقول عندما رفضت قريش الدخول في اليهودية أو المسيحية أو في أية أمة كتابية أنهم كافرون بكل ذلك بل إن موسى ومحمداًﷺ ما هما إلا ساحران ومفتريان لنتبين جذور المشكلة التي أثارتها سورة «القصص» وأن عداءهم للقرآن إنما كان لأنه يدعو للسلام الاجتماعي ونبذ الطغيان.

- إن عبدة المال لا يرتدعون أبداً إذ يسوون في قوة المال بين سلطان الشيطان وسلطان الله ولذلك ضرب القرآن لقريش مثل قارون الذي اعتقد أنه قد كسب ما لديه من الأموال بالعلم والعمل والحقيقة أن الأموال تنمو من ذاتها ورأس المال ينمي نفسه وما كان هلاك قارون وأمواله إلا مثلاً لكل رأسمالي غبي جاهل لا يعرف الأسباب وما كان هلاك القرى والأمم إلا بالمظالم والذنوب والمشكلة أن الجهلة لا يدركون تلك السنن والقرآن يقدم القصص لعلهم يفهمون أو يرجعون.

- في نسق «طسم» من أجل إثبات المعرفة بالسنن والهيمنة حمل القرآن للناس أعظم موعظة في التارخ إذ يقول في عقيدة الآخرة ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. لنتبين مدى الانفصال والانفصام بين عقائد الأمة التي تدين بالطبقية والرأسمالية ثم تدين بالله والآخرة وعقيدة القرآن.

البراهين التي استخدمها نسق «طسم»:

- يشرح القرآن من خلال تجربة واقعية وهي تجربة موسى وفرعون كيف تلطف الله بالأسباب الواحد تلو الآخر حتى جعل من موسى والذين آمنوا معه نداً وخصماً لهذا الطاغية.
- في التفصيل نتبين فعل الوحي والتدبير إذ يوحي الله لأم موسى أن تلقيه في البحر ليكون من ذلك سبباً كما رأينا حتى يأخذه عدو الله وعدوه ثم ينشأ في بيته وهو في مأمن وسلام رغم كل الأخطار التي كانت تحيق بحياته لنتبين أن الله سبحانه وتعالى له أسبابه التي تخفى عن الناس حتى يربي الفرعون موسى وهو لا يعرف أنه يصنع مقتله وهلاكه.
- إن امرأة فرعون وإيمانها بفعل الخير قد كان سبباً في انقاذ الطفل من الذبح رغم ما كان من تقتيل أطفال بني إسرائيل ليشرح لنا القرآن أن بذرة الإيمان بالخير لها تأثير كبير حتى لتقف في وجه كل القوى الشريرة والطاغية ولذلك كان الواحد من المؤمنين في بدر بعشرة والعشرة بمائة من الذين كفروا.
- ليس لذلك معنى إلا بيان أن الله غالب أمره والهيمنة القرآنية دائماً هي قصد لكن ما يلفت النظر في تلك المسألة هو توضيح الصراع بين الخير والشر وأن الشر مهما كانت أدواته ومهما كانت تدابيره ومهما كانت القوى التي تقف خلفه فإن الخير لا بد أن ينتصر في النهاية لأن الله هو الخير والسلام والمحبة.
- في التجربة البيولوجية وتحريم المراضع على موسى أكدت الطبيعة معنى

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٣.

الخيرية وأن إبدال الأم بمرضعة ليس من الخير ولذلك دفعت الفطرة ولم يستجب الطفل للمراضع حتى كان ذلك سبباً في رجوعه إلى أمه لنتبيّن كيف يغلب الله على أمره وكيف جعل الله في فطرة الكائنات والأشياء الهداية إلى ما فيه الخير بالتلقائية والسليقة.

- يعدد القرآن مواقف نجاة موسى من الغرق ثم من الذبح ثم إرجاعه إلى أمه حتى تقر عينها ولا تحزن لنتبين عين الرعاية الربانية ولو أن الناس لا ترى تلك الأسباب الخفية ولكنهم يلمسون نتائجها وها هو موسى الرسول وموسى المفدى وموسى المخلص ينشأ بين أحضان عدوه رغم جبروته وطغيانه ليكون منه حزناً ومهلكاً وإنقاذاً لبني إسرائيل.

- إن عين الرب لا تغفل وإن بدا للناس غير ذلك لنتبين أن هؤلاء الرسل محروسون بالفطرة محبوبون بالطبيعة حتى إن موسى وهو طفل ما كان يقع بصر إنسان عليه إلا أحبه ويقول الرب لموسى في معرض هذه الرعاية «وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني» لنتبين أن هذا الباطن النفسي الخير منذ الميلاد يضفي هذا الجمال وهذا الكمال الذي يحدثنا القرآن عنه.

- الرعاية الربانية الخيرة هي التي حققت العدل في الأرض وهي التي كفلت الحياة لموسى وسط تلك المخاطر المتلاطمة ليوضح لنا القرآن كيف تعمل الفطرة وكيف يزاول باطن الحياة عمله في رعاية المخلوقات رغم فساد الإنسان وها هو الرب يتحسس كل منفذ ليخرج موسى من المحن التي كانت من الممكن أن تذهب بحياته.

- عندما يشرح القرآن لنا كيف تضافرت الأسباب الباطنية للدفاع عن موسى لتجعل منه رسولاً إنما يريد أن يبيّن لنا معنى تلك الباطنية وأن هناك مستوى من اللاوعي هو الذي يدفع بالأحداث بعيداً عن الأسباب الظاهرة ولذلك فإن فخر القرآن أن يكشف لنا هذا المستوى الذي لم تكن تدري عنه شيئاً

اللهم إلا عندما تبين فرويد أن كثيراً من العمليات العقلية للإنسان هي عمليات لا شعورية تعمل بالتلقائية والوحي الباطني الذي يحدثنا عنه قصص موسى والفرعون حتى أن هذا الوحي نفسه هو الذي دفع أم موسى لإلقائه في اليم لنتبيّن أن الهداية والخيرية تأتي الإنسان من باطله وفطرته وهي التي تجعل الناس رسلاً قد كان لهم نصيب كبير من تلك الفطرة الباطنية والتلقائية الخيرية.

- إن أم موسى من فرط جزعها تكاد تبدي بالخبر وأن الطفل هو ابنها ويقول القرآن إن الله قد ربط على قلبها لتكون من المؤمنين بالله والخير فلا تيأس من روح الله وكذلك تحققت المعجزة ورُدّ الطفل إلى والدته رغم كل الظروف لنتبين ماذا يريد القرآن من هذا القصص وأنه قصص عظيم يثبت بحق أن رعاية السماء وعين الله لا تغفل أبداً بل هي عين في سهر دائم ويقظة واعية ولنعرف من ذلك أن الله فعّال لما يريد وأنه مهما كاد الطغيان وتآمر فسيظهر العدل والسلام والمحبة.

- إن وعد الله حق ولكن أكثر الطغاة والطبقيين والمستكبرين لا يعلمون وما من غائبة عن الله في أمور الناس والخلق ولو تبين هذا الأمر للناس لآمنوا بالسلام على كافة صوره وبشتى طرائفه والجاهل هو من غفلت بصيرته عن تلك السنن التي يكشفها لنا القرآن في قصص موسى والفرعون.

- إن الأسباب المودعة في الباطنية والفطرة الخيرة وما يحدثنا القرآن عنه من هذا الناموس وجدناه في كل قضية إيمانية حتى يقول رب موسى له وقد خشي تكذيب فرعون له إنه لن يعدم من يصدق به في مجلس فرعون نفسه وما أن ذهب موسى حتى قام رجل من آل فرعون أنفسهم يدعو لتصديق موسى والإيمان به وتحقق بذلك نبوءة رب موسى وأن الإيمان لا يعدم أنصاره حتى بين الكافرين أنفسهم.

- نتبين الفطرة الخيرة والتي يحدثنا القرآن عنها فيقول إن موسى بعد قتله

للمصري قد اكتشف أن ذلك ليس هو الطريق لإقامة العدل ولهذا استغفر وتاب عن تلك الأعمال إذ لا يعقل أن يقام العدل بقتل الناس ولذلك اكتشف موسى لأول مرة أن الصراع لا ينتهي بالصراع وإنما ينتهي بالحب والعدل والمساواة ومقابلة الشر بالشر والقتل بالقتل والطغيان بالطغيان هو من عمل الشيطان وليس من عمل الله.

- كاد موسى أن يفتك برجل آخر لنتبين عمق التجربة وتناقضها مع الباطن وبحث موسى في الأمر لعله يهتدي إلى المنهج القويم لكن المسألة على هذا النحو لا تخص كل فرد بعينه وإنما هي مسألة اجتماعية تخص كل الناس ولذلك عرف موسى أن هذا القتل يمثل غواية وفتنة كبرى نتائجها وخيمة ولذلك فلن يكون موسى ظهيراً للمجرمين بحيث يفعل أفعالهم ويطغى ويتكبر في الأرض بمثل طغيانهم.

- يقدم القرآن ما حدث لموسى في مدين بلد الغربة وما كان عليه موسى من القوة والأمانة لنتبين أن الرعاية التي يسبغها باطن الفطرة الإنسانية على ظاهره هي سنده الوحيد سواء كان في الغربة أو بين أهله ومحمدﷺ عندما هاجر وابراهيم من قبله كان سندهم الوحيد تلك الفطرة الخيرية والتلقائية السمحة التي لا بد أن تصنع من صاحبها نبياً أو رسولاً.

- هذا القصص العجيب لم يُعرض في سور القرآن إلا ليكون منه إنذار للكافرين من قريش وأهل الكتاب الذين يفسدون في الأرض بالسلطان والجاه والطغيان وليتبين الذين ظلموا أنهم ليسوا أمام محمد ﷺ وحده وإنما هم أمام رب الإنسان الذي صنع مع موسى من قبل تلك المعجزات حتى نصره في النهاية على فرعون الطاغية.

- لن يعدم الحق والعدل الخير أنصاراً أبداً وليعرف المجرمون أنهم يقاتلون

معركة خاسرة وليتبين كل طبقي وكل رأسمالي وكل طائفي وكل عنصري وكل داعية للخراب والدمار والحرب وكل مزيف ومزور للحقوق أنه بيد قدير مقتدر لا تعجزه الأسباب ولا تتخلف من بين يديه الحيل ولا يقف أمام مكره كل المكائد التي يصنعها الأبالسة والشياطين.

- يقص علينا القرآن كيف خلق الله الأسباب حتى دفع بموسى إلى ديار الغربة وكيف أصبح في عنقه ثأر المصري حتى يقول القرآن إن ذلك كله قد كان قدراً «**وجئت على قدر يا موسى**» لنتبين تداعي الأسباب والنتائج وأن باطن الإنسان هو صانع الأحداث وأن اللاوعي واللاشعور يتحكم في سلوك الناس ليعرف كل واحد منا أن الفطرة التي أودعت باطن النفس هي فطرة الكمال والخير وهي تسعى لهدفها في الحياة دون أن يشعر بها الإنسان ولذلك كان رب موسى هادياً له في كل خطوة مبيناً له أن ما اعتبره غربةً اغتراباً إنما كان وسيلة ليصنع منه ربه هذا الرسول الكريم.

- هذه الباطنية الأخلاقية لا تتعارض مع إعلاء القرآن لشأن العقل وما قدمها القرآن إلا ليؤكد لنا دفاع الحياة عن كل ما هو خير وكل ما هو جميل وكل ما هو كامل ليعرف الناس أن الأخلاق لا تفتعل وأن أنظمة الطغيان لا يمكن أن تفرض سلطانها وأن هذا الأمر قد كان في كل قومية وكل أمة ولهذا ما أن ينتشر الفساد في الأرض حتى يبعث الرسل والأنبياء لتقويم ما اعوج من المنهج وما فسد من أمر الناس.

- هذا الطور الخير وهذا الجانب الأخلاقي في الفطرة البشرية تبدى لموسى في الشجرة الإنسانية وما كان هذا اللقاء بين موسى وربعه في تلك البقعة المباركة من النفس إلا لنتبين معنى الطور الأيمن الذي يحدثنا عنه القصص وأن هذا الجانب الروحي المطوي في أعماقنا لن يلبث عند المحن والشدائد أن يعرف طريقه إلى حياة الناس ولذلك تقوم الثورات وتبعث الرسالات ويتنبأ الأنبياء وكلما اشتدت الكوارث ظهر هذا الجانب الذي

يحدثنا القرآن عنه في شدة وضوحه حتى أن موسى لم يشك في أن تلك النار هي نار على الحقيقة والواقع وأن هذا الحوار الرباني ارتقى إلى واقعية الكلام حتى يقول القرآن في هذا الأمر إن موسى كلم ربه بالفعل لتعرفَ أن الروحية والسيكولوجية هي التي تهدينا ولو ظهر لنا أن ما نتمتع به من العلم والذكاء والوعي والإدراك هو من العقل الظاهر.

- هذا الطور الأيمن والبقعة المباركة من شجرة النفس والروحية ومخاطبة رب موسى له لا نتبين حدودها إلا من خلال الربوبية وأن رب العالم هو الذي خلق الإنسان ولكل خلْقٍ تلك السنن الفطرية الهادية ﴿**الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ وأن رب العالم هو أيضاً الذي جعل تلك السيكولوجية الروحية لموسى حتى كان هذا الحديث وكان ذلك اللقاء لنعرف من ذلك أن للعالم رباً يدافع عنه وأنه هو الإله على الحقيقة ولا يمكن أن يكون له شريك في تلك الألوهية سواء كانت من شخص كفرعون الطاغية أو من طبقة مستغلة أو طائفة مستبدة أو حتى لو كان ذلك من الشيطان نفسه.

- في هذا اللقاء الروحي يهتز كل شيء ويحيا كل جماد وتنقلب الأشياء على طبيعتها ولا يبقى لشيء هذا الثبات الذي نلمسه في الكائنات والأشخاص وعالم الربوبية تتحرك فيه الجبال الصوامد رغم أنك تراها جامدة لا حركة فيها ولذلك اهتزت عصا موسى من هذا الهول الذي دخل فيه موسى حتى أنه هو نفسه ولى مدبراً خائفاً مذعوراً.

- يريد القرآن في تجربة موسى الباطنية الروحية أن يقول لنا ما دام العالم لم يأت إلى الوجود من ظاهره فإن الحركة كلها للباطنية وإن بدت لنا كما بدت لدارون والبيئة ولكن حقيقتها كما ظهرت عند «الإدراك» أن الحياة تنمو من داخلها وأن الناموس والسنن مستبطنة في الظواهر ولذلك لن يستطيع أي طغيان أو استبداد أو أي لون من ألوان التسلط أن يسيطر على حياة الناس

ولذلك يقول الرب للفرعون بعد هلاكه وغرقه «الآن ننجيك ببدنك لتكون لما خلفك آية» أي أن الفرعون لم يستطع بطغيانه إلا مكاسب الجسد وشهواته وبلاؤه فقط أما الروح فهي ليست بين يديه ولا هي خاضعة لسلطانه ولذلك تبيّن موسى من هذا اللقاء الروحي أن الإله على الحقيقة الروحية هو رب العالمين وليس الفرعون أو غيره.

- تلك الاستجابة الروحية في كل نفس بشرية تنتظم حياة العالم بجماده وكائناته ولذلك اهتزت عصى موسى كأنها جان وولى موسى مدبراً حتى يقول القرآن إنه من شدة الخوف والرعب والخروج عن المألوف لم يعقب ولم يتوقف لكن الناموس يناديه ويقول له يا موسى أقبل ولا تخف لأن هذا العالم الروحي هو بعينه عالم الأمن والأمان وأنك يا موسى بهذا الجانب الروحي والطور الأيمن من النفس البشرية من الآمنين لنتبين جلال هذا الموقف الرباني بين موسى وربه وتلك المعرفة الفياضة التي كشف عنها هذا اللقاء.

- الروحية تتبدى في التاريخ، والقرآن يكشف لقريش والطغاة من كل لون كيف حفظ الله رب العالمين حياة موسى رغم ما كان في ذلك الوقت من الاضطهاد والظلم والفتك بالطوائف واستكبار فرعون حتى قال للناس إنه ربهم الأعلى وأن له ملك مصر وأنه يدين له كل شيء بالطاعة والمذلة وفي النهاية يُخرج له الله من بين يديه ومن بيته وربيبه عدواً يكون سبباً في هلاكه لنتبين معنى أن يقول القرآن في الله إنه هو الملك وإنه هو الجبار وإنه هو المتكبر وإنه هو العزيز الحكيم.

- في هذا اللقاء الرباني تبين لموسى أمران جليلان إذ الإنسان محروس بالطبيعة وهو آمن بالفطرة الروحية فيه ولذلك قال له ربه اسلك يدك في جيبك تخرج من غير سوء ومن غير ضرر ودلالته العلمية المعاصرة أن الجسم البشري لديه شتى ألوان المناعة والمقاومة الطبيعية ومثل ذلك لا

يمكن أن يحصـــل الإنسـان على الأمن إلا من خـــلال ثباتـه الـــروحي والسيكولوجي إذ الماديات لا تغني عن الإنسان شيئاً ولذلك قال رب موسى له اضمم إليك جناحك من الرهب ولا تكن من الخـائفين المرعوبين.

- هذان البرهانان كـانا كـافيين ليعرف مـوسى قيمة المنهـج الروحي وليتبين الفرعونيـة كمنهج طـائفي يريـد أن يحط من طبقة من الناس على حسـاب الآخرين لكن الطبيعة والفطرة قـد منحت كل النـاس هذا الأمـان الفطري الذي ساوى الرب فيه بين كافة أجناس البشرية ليكون من ذلك هداية لكل منهج.
- المنهج الطبيعي والفطري هو الضمانة لكـل منهج يـريد أن يبني لـلإنسان حضارة لكن الطائفية والطبقية والعنصرية والرأسمالية تفتعل المنهج وتكون الكوارث والحروب والقنابل الذرية وسفن الفضـاء وحروب الكـواكب لأن الإنسان لم يتبيّن بعد مدى قيمة الطبيعة والروحية كمنهج.
- ليس هناك إله ولا رب إلا رب العالمين وهو وحده لا شريـك له يصبح له الألوهية، فلمـاذا يخرق الإنسـان السنن الفطريـة إلا أن يكون مـا زال هذا الإنسان رغـم تلك الحضارة جاهلاً لتلك السنن التي كشفها لقاء مـوسى وربه وهذا الطور الأيمن من الشجرة في البقعة المباركة.
- إن العافية التي يطلبها الإنسان للأجسام لا تفتعل والطبيعة هي التي يمكن أن تحصن الجسد ضد شتى ألوان الجراثيم والأدواء ومرض «الإيدز» الذي يصيب المناعة الطبيعية يكشف لنا قيمة تلك الحصانة وقيمة الطبيعة وأنه لا يمكن أبـداً أن يستمر الجسـد بالمصنعـات الدوائيـة وغيرهـا لنتبين معنى الربوبية ولذلك أخرج موسى يده من جيبه بيضاء من غير سوء.
- إن الاعتبار يجب أن يكون للروحية والأمن والأمان وكرامة الإنسان ومقياس اليوم في جلب شتى ألوان الرفاهيـة والشهوات على حسـاب هذا المنهج

وهذا الاعتبار جريمة كبرى والدعوى إلى أسبقية قضايا الإنتـاج والاقتصاد والسياسة على أسبقيـة الصراع الـطبقي والطائفي والعنصـري وشتى ألوان الطغيان هي كارثة تغني الإنسان في جوف الإنسان وتقتل كل أمل في أن يحيا الناس في سلام وأمن.

- كيف يدرك الإنسان قيمة المنهج والطبيعة والفطرة وقيمة مـا يحدثنـاالقرآن عنه من رب العالمين وكيف نفهم تجربة موسى الروحية وكيف يبيّن له هذا اللقاء أنه يكفي الفرعون وقومه أن يعرفوا هذين البرهانين حتى يتبينوا ما هم عليه من الضلال والخسران المبين.

- هـذا اللقاء الآمن الـذي كان بين مـوسى وربه وتلك التجـربـة التي ملئت بالخوف وانقلاب الأشياء على طبيعتها وعصى موسى تهتز كأنها جان ليس لها جميعاً معنى من المعاني إلا أن تكون التجربة نفسها هي البرهان القاطع على مدى استجابة الباطن النفسي لاحتياجاتنا وأن الإنسان لا يطلب الأمن من خارجه ولكنه يطلبه من نفسه هو ومن روحه وكل ما يتحصن به الإنسان من الصواريخ ومن الطائرات ومن الغواصات ومن سفن الفضـاء والقنابـل الذرية والهيدروجينية وحلف الأطلنطي وجبروت أمريكا لن يفيده شيئاً طالما كان ذلك فاقداً لهذا الأمان الروحي والنفسي ولذلـك يقول رب مـوسى له لمـاذا تنزعـج ولماذا يصيبـك الرعب ولمـاذا تخاف رغم أنـك أصـلاً من الآمنين؟.

- إن كل التجربة واللقاء كان من أجل الأمن فقد طلب موسى النار فوجد النار المقدسة وطلب الأنيس فوجد الناس من حـول النار «بـورك في النار ومن حـولها» وطلب الحـديث وكان هـذا الكلام مـن ربه حتى انقلب الحـديث بينهما إلى نقاش حاد وطلب الوزير فكانت استجابة ربه له إذ جعل له من هارون وزيراً ومن قبل حفظه من الذبح ومن الغـرق وفي مدين حبب فيـه الشيخ وابنته لنتبين قيمة ما يدعو إليه القرآن من الطبيعة والفطرة.

- إن حياة موسى هي المنهج وهي تاريخ حي للروحية وما يمكن أن تحققه للإنسان لكن المشكلة كيف يقتنع الناس بهذا المنهج؟ النازية الفاشية الرأسمالية الشيوعية الاشتراكية الطائفية العنصرية الطبقية، وفي كل دين تجد عشرات الملل وعشرات النحل وعشرات الجماعات ولذلك فالمشكلة هي مشكلة المعرفة الحقة والعلم الصادق الذي جعل القرآن سورة القصص «في نسق طسم» وهو نسق للمعرفة وللمنهج للهيمنة أيضاً.

- إذن فالمشكلة كما يحددها القرآن هي الآيات والمعرفة والسنن ودراسة فطرة الإنسان ومعرفة طبيعته على حقيقتها ولذلك يقول القرآن إن موسى لم ينصر إلا من خلال تلك الآيات ﴿**قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلطَاناً فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ**﴾[1]، لنتبين أن القرآن كان همه وشاغله الكشف عن السنن والنواميس وعن الفطرة وأن منهجه للمعرفة لم ينبت من الأديان لأن محمداً ﷺ كان أمياً وإنما كانت جذوره من الطبيعة والفطرة التي ملأت القرآن كله حتى رآها في الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والجمال والأنهار والحشرات والنمل والنحل وغيرها.

- في نسق «طسم» وسورة «القصص» نتبينّ الدراسة السيكولوجية بكامل مقوماتها والذي يدهشنا حقاً هو تلك التفصيلات من تجربة موسى مع نفسه وربه وهذا التحليل المعجز الذي يكشف لنا عن فطرة الإنسان وباطنيته والاستفادة من تلك التجربة بل إن القرآن يوضح لنا أن موسى لم يتعلم الآيات إلا من التجربة الروحية والنفسية التي مارسها ومثل ذلك تعلم محمد ﷺ وتجربته مع ربه ومع الوحي حتى أمكن له ذلك من قراءة القرآن وقراءة الطبيعة والوجود وكأنْ القرآن يقول لنا إن المعرفة الحقة هي ما بدأت بمعرفة النفس وأنها مع معرفة الرسل والأنبياء وأجلّاء العلماء أيضاً.

---

(١) سورة القصص: الآية ٣٥.

- إن الدراسات النفسية والروحية التي يهملها الناس هي الأداة الحقة لمعرفة الإنسان وما فعله «فرويد» وبدأ به علم النفس ما زال يحتاج إلى الكثير ليكون من ذلك هيمنة على العلوم الإنسانية خاصة علم الاجتماع وعلم الاجتماع السيكولوجي بالذات ولنا من تاريخ موسى الذي خلقت تجربته لنا ديانة كبرى هي اليهودية ومثله ما فعل عيسى ومثله ما قام عليه الإسلام لنتبينّ خطورة الأمر وأن المسألة ليست تجربة إنسان بذاته وإنما هي منهج وعلم ومعرفة.

- لا نتبينّ قيمة ما يحدثنا عنه القرآن من مسألة الرعاية الفطرية وحاجة النفس البشرية إلى الأمن إلا إذا درسنا وظيفة الآليات التي تظهر في الأمراض النفسية وتلك الحيل التي تلجأ إليها الذات في مواجهة التهديد الخارجي وحجة العصر على برهان حديث موسى مع ربه أن الأمراض النفسية نتيجة لضلال المنهج أصبحت شيئاً شائعاً وليس معنى ذلك أن موسى أو محمداً ﷺ أو أي نبي أو رسول كان مريضاً نفسياً وإنما تبين كل نبي وكل رسول من تلك الحالات ما حدثنا عنه وتبين منه آية من الآيات ولو لم يعاشر محمد ﷺ تلك الحالات الروحية ما كان بين أيدينا هذا القرآن العظيم.

- حديث موسى وما يعرف الآن بحديث النفس والجدل الباطني الذي يفترضه الأنا والأنا الأعلى والأنا المثالي والأنا الجمعي وكل حادثة يكون من شأنها تكوين أنا من تلك الأنوات ليبين لنا أن الإنسان في الحقيقة مستغنٍ بذاته وما يكون من تلك الأنوات بين الأخذ والمنع إنما يمثل الموضوع الخارجي الذي يحتاجه العقل ليقوم بعمله ومن يهدي الإنسان إلا هذا الضمير العظيم الذي يتكون من ملايين الأنوات في كل خطوة يخطوها الإنسان لنتبين من ذلك البصيرة الذاتية التي يحدثنا القرآن عنها ومدى عمق حديث النفس وأثره في هداية كل واحد منا وكأنه عالم بأكمله ومجتمع بأسره حتى ليكشف القرآن عن قيمة إبراهيم في تلك التجربة فيقول

إنه وحده كان أمة بأسرها في الهداية وفي الرشد أيضاً.

- ما حاجتي إلى الآخر في تلك التجربة العظيمة وأصحاب الضمائر المرهفة تقتلهم هنة من الهنات وعقاب الضمير للإنسان قد يدفع بالمجرم إلى الانتحار لنتبينّ خطورة الجدل الباطني الذي يحدثنا القرآن عنه ولذلك كان هذا البرهان من موسى ولو أنه بسيط للغاية كافياً ليعرف الفرعون أن الهيمنة على الإنسان لا تأتيه من خارج بل تأتيه من نفسه هو ﴿**اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً**﴾ ليتبين كل طاغية وكل طغيان أن المسألة برمتها تخرج من يده ومن إرادته وأن الإله الحق هو رب العالمين الذي أودع هذا الناموس باطن النفس البشرية.

- تلك التجربة الجليلة التي خاضها موسى مع ربه ونفسه وبيان الآيات فيها لم تكن لتقنع الفرعون والطائفية التي انتهجها ولذلك يقول القرآن إن فرض الطائفية أو العنصرية أو أي لون من ألوان الأيديولوجية إنما يدخل بالإنسان إلى افتراض الألوهية وهي خصيصة لرب العالمين وحده ومهما افترض الإنسان فلن يستطيع أن يفرض المنهج إلا أن يكون هذا المنهج نداءً للطبيعة ونداءً للفطرة التي أوضحها رب موسى له.

- كأنه في التجربة يقول له مالك مذعور وخائف ومرتجف وطبيعتك الأمن والأمان والطمأنينة لذلك تتضح تلك المسألة بجلاء في قيم الحرية وقيم الديمقراطية وقيم المجتمعات التي تشمل أفرادها بالأمن والرعاية وتلك المجتمعات التي تقوم على الدكتاتورية واستغلال الإنسان.

- ليست حاجة الإنسان إلى الأمن والسلام مسألة اقتصادية ولا هي مسألة سياسية حتى ولا حضارية وإنما هي مسألة نفسية وضرورة وجود حيث تصبح الحاجات النفسية أهم من كل شيء في حياة الإنسان وهو لا تضطرب قواه العقلية عند نقص الغذاء وإنما تختل عندما يفقد الأمن والسلام والطمأنينة.

- ﴿هل أتاكَ حديث الجنود* فرعونَ وثمودَ * بلِ الَّذِينَ كَفَرُوا في تكـذيبٍ * والله من ورائهم مُحِيطٌ﴾ لذلك رأينا في العصر فشل تلك القوى في فرض سلطانها لأن فطرة الإنسان تأبى كل ذلك وهو ما أوضحه رب موسى له خـلال هذا اللقاء العجيب.

- يقول القرآن إن الله لا يهلك القرى والحضارات إلا وأهلها ظالمون لنتبين أن المسؤول عن انهيار الحضارات هو غياب المنهج إذ لا يجد الناس بين أيديهم إلا المادية وهي تقود الإنسان إلى الطغيان والقهر ولهذا نزلت التوراة على قلب موسى بصائر وهدى ومثلها ما جاء على يدي عيسى وما نزل على محمدﷺ من القرآن والمنهج.

- عندما تفسد حياة الإنسان ترسل السماء الرسل والأنبيـاء منذرين من ذلـك وهو ناموس طبيعي في الإنسان إذ لما فسدت حياة الناس والفرعونية أرسل الله موسى وآتاه التوراة ومثل ذلك حدث مع عيسى ومثل ذلـك حدث مـع إبراهيم ولذلك فبعثة محمدﷺ لينذر النـاس هي بعثة النـاموس السمـاوي ورب مـوسى هو رب العـالمين ورب محمدﷺ أيضـاً ومـا أوحي إليـه من القرآن هو من جنس وحي التوراة فلا غرابة في الأمر.

- في المعرفة الإنسانية والتي تبحث في الـدين والاجتماع وغيـره نتبيّن عدم القطيعة إذ هي معرفة نسبية ولذلك يقول القرآن في مواجهة جهل الكافرين إنه لو كان هناك كتاب سماوي أهدى من التوراة والقرآن لاتبعه محمدﷺ والذين آمنوا لكنه للآن لا يوجد أهـدى من التوراة ومن القـرآن وهذا هـو الذي يوضـح لنا معنى التـطور ومعنى نسخ الكتب ونسـخ الشرائـع ونسخ الأديان إذ أن المعارف لا تتوقف لأنها تستمد تطورها من لدن العليم الأول والعـارف الذي لا تنتهي معارفه وهو كما أوحى التوراة والإنجيل والقـرآن فإنه هَدَى علماء العصر إلى كل معرفة وكل علم وكل برهان أيضاً.

- لا نؤمن برب العالمين الذي تحدِّثنا عنه المعرفة والهيمنة حتى نؤمن بالتطور الخلاق والهداية المستمرة من جانب هذا الرب وعندما أفصح الرب لموسى عن تلك الصفة فيه وأنه ليس ربه وحده بل رب العالمين فإنه كان يقول له ويعلمه أنه ما أن يحتاج الإنسان للمعرفة حتى يأتيه بها في كل مكان وكل عصر وكل حضارة ومثل ذلك ما بينه رب كل نبي وكل رسول أنه أشار إلى مثل ذلك ليتبين الإنسان معنى المعاشرة ومعنى التطور ومعنى الثقة في هذا الرب والذين لا يعتقدون في التطور والتجاوز والمعاصرة بكل معانيها فإنهم لا يؤمنون برب العالمين ويعتبرون أن هذا الرب منذ موسى ومنذ عيسى ومنذ محمدﷺ أصبح نائماً غافلاً لا يرعى الإنسان وهذا من فرط جهلهم لأن القرآن ربط بين رسالة محمد ﷺ والقرآن ورسالة موسى والتوراة ليعرف مصادر تلك المعرفة وتطورها.

- إذا جاء الفساد إلى حياة الإنسان فسينهض رب العالمين وسيرسل الرسل وسيبعث بالأنبياء وسيكون هذا الرسول أو يكون آية طبيعية أو يكون آية نفسية أو يكون بحثاً في ذرة أو رصداً لمذنب أو غوصاً في بحر ليتبين الإنسان منهج المعرفة القويم الذي يحدثنا عنه القرآن وهو يقول إن المسألة مسألة هداية ومسألة بصيرة وهي ممتدة أمام الإنسان.

- عندما كشف رب موسى له عن الحياة الآخرة التي كاد يخفيها عن الناس فإن احتقار الماديات ونعيم وزخارف الدنيا أصبح عقيدة عند الروحانيين ولذلك يتساءل القرآن عن المصير المنتظر للذين يعبدون المال ويعبدون الطغيان ويعبدون البنين ويعبدون الذهب والفضة والخيل المسومة والحرث ثم يقول إن ذلك كله كان من الجهل والسفه والحماقة لأنه لا يفيد في مصيرهم.

- ما يفيد الإنسان لو كسب العالم وخسر نفسه؟ ما يفيد صاحب المال الذي حمل المظالم والجرائم وحقد الناس عليه؟ ما يفيد الطغاة من الطبقيين

والعنصريين؟ ما يفيد أصحاب الملايين وهي لا تغني عنهم عند ربهم شيئاً؟.

- تلك هي المعرفة التي يقدمها الله في التوراة والقرآن فبأي حديث يؤمن طغاة قريش ومن يستكبرون في الأرض؟

- يتساءل القرآن ويتعجب من جهلهم بحقائق الربوبية وأنها تبدو لعين الإنسان فيقول لو لم يكن هناك رب يرعى الناس فمن كان يأتيهم بالنهار ليبصروا لو استمر الليل سرمداً؟ أو من يأتيهم بليل يسكنون فيه لو كان النهار سرمداً؟ لنتبيّن أن الله يعلم حاجة الإنسان اليومية والوقتية ولذلك فالنهار يعقب الليل والليل يعقب النهار ليلبي مطالب الإنسان.

أليس للإنسان بصر حتى يفهم أن ربه يرعاه ليلاً ونهاراً وسخر له الشمس والقمر وسخر له النهر والبحر والشجر وسخر له الجبال وكل ما كشف له من أسرار الطبيعة وسننها ليعرف من ذلك أن عين الله لا تغفل وأن وحي القرآن والتوراة لهداية الناس عمل فطري طبيعي مثله في ذلك مثل كل ما عمله الله من أجل الإنسان.

- ليس هناك عجب في نزول القرآن على قلب محمدﷺ ليكون للعالمين نذيراً ومثله في الآية والبرهان مثل ما يبصر الإنسان من سخرة الشمس أو القمر وغيرها لنتبيّن تطور دور رب العالمين وأنه دور مستمر لا يتوقف مع حاجات الإنسان التي لا تنتهي وأنه يلبي الدافع عند الناس من أجل المعرفة ولو أنه يخلق ويختار لمثل تلك الرسالات بعضاً من الناس أمثال موسى وعيسى ومحمدﷺ ولو فهم القرشيون أن بعثة محمدﷺ رحمة للعالمين لآمنوا به ونصروه وآزروه.

- **ومن رحمتِهِ جَعَلَ لكُمُ الليلُ والنهارُ لتسكُنُوا فيه ولتَبْتَغُوا من فَضْلِهِ ولعَلَّكُمْ تشكُرون﴾** ومثل ذلك القرآن إذ هو رحمة للذين يؤمنون وأن يتبين الناس أن

محمداًﷺ ما هو إلا ظاهرة من ظواهر قدرة الخلق عند الرب إلا إذا درسوا كيف جعل الرب من موسى رسولاً لنتبين مدى اهتمام القرآن اهتماماً كبيراً بمواقف موسى الروحية مع ربه حتى يقدمها وبشرحها ويحللها في كل موضع وكل موقف أراد القرآن أن يكشف للناس جانباً من جوانب نفسية محمدﷺ وشخصيته حتى يكاد يجعل القرآن من محمدﷺ ومن موسى شخصية واحدة.

- إذا أردنا أن نتبين أبعاد الشخصية المحمدية فعلينا دراسة كل ما ورد في شأن شخصية موسى وما أراد القرآن من ذلك إلا لأن شخصية موسى شخصية تاريخية قد استقرت أركانها عند أهل الكتاب وهم على ما هم عليه من المعرفة التي كان يفتقر إليها الأميون من العرب وهذا هو الذي جعل القرآن يستخدم شخصية موسى وما حدث له مع ربه كبرهان على شخصية محمدﷺ حتى جاء القرآن من نفس منهج التوراة التي نزلت على موسى من قبل وهو سر إعلاء القرآن لشأن موسى والتوراة مع ما يتناقض في الهيمنة بشأن عدوانه لأهل الكتاب والأديان.

- إن لكل شيءوجهاً من الله وسنة وآية للناس،والقرآن هو وجه الله في شخصية محمدﷺ وهو آيته ومثله كانت التوراة والإنجيل ولن يبقى شيء إلا ويهلك ويتبقى منه هذا الوجه الكريم ولذلك يقول القرآن لمحمدﷺ ما يضيرك من عداوة قريش وقد كتب الله لك الخلود مع وجهه المشرق ومع نور هدايته وجليل رحمته لنتبين وظيفة الحياة الإنسانية بالنسبة لكل فرد منا ومدى ما يمكن أن يتركه في الأجيال ولن ينسى الناس موسى ولا عيسى ولا محمداًﷺ ولن ينسى الناس داروِن أو ماركس أو نيوتن أو آينشتن أو جاليليو أو مندل أو أي أب من آباء المعرفة وآباء العلم لأنهم جميعاً من وجه الله الذي أشرقت بنوره الظلمات وأضاءت بعلمه القلوب والبصائر.

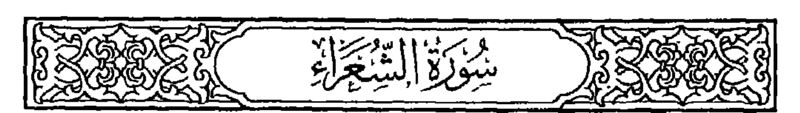
- مثل ما يحدثنا به القرآن من المعرفة اللدنية كمثل ما علم النمل والنحل

وهدى النبات والحيوان لنتبين أن مسائل الجهل والكفر والفسوق والعصيان هي أدواء تطرأ على الفطرة ولذلك ما أوضحه القرآن في قصة خلق آدم وبيانه لوقوعه في الخطيئة إلا وذكر الإبليس والشيطان وأشار بذلك إلى الأدواء والأمراض الإدراكية التي تهاجم فطرة الإنسان فتخرجه إلى الجهل أو الحماقة أو الغرور لذلك اختار محمداً ﷺ اللبن والفطرة في مواجهة العلم المكتسب الذي كان لدى الأحبار والرهبان ورجال الدين وانتصار القرآن على كل ذلك في تساؤلاتهم والتي وردت في سورة «الكهف» ليوضح لنا أن الإنسان عالم بفطرته وفي استطاعته أن يكون عالماً وعارفاً بقوة ربه هو مثلما جاء رب موسى ورب محمد ﷺ ورب كل عالم بالعجب في هذا الشأن ولكن المشكلة كما يعينها القرآن إنما تكمن في الإيمان بالنفس والثقة في القدرات الخاصة والتي لا يعرفها على حقيقتها إلا من خبرها مثل الرسل وهؤلاء الأنبياء وهؤلاء العلماء.

- نتبيّن من كتب الهيمنة «الم» وكتب «الصمدية» كما في «المص» و «ص» وكتب الرحمن والرحمة كما في «المر» وكتب المعرفة كما في «يس» وكتب الطهارة والمعرفة في «طس» وكتب الهيمنة والمعرفة والطهارة كما في «طسم» أن محور الجدل كله إنما يدور حول محور الهداية والمنهج وكيف يصل الإنسان إلى هذا المنهج وأن أكبر المشاكل في العقيدة تدور حول تلك المسألة وأن أخطر الأمور في المنهج أن كل ما يقع في حياة الإنسان سواء كان صواباً أو كان خطأً فإنه يصير للإنسان ديناً وعقيدة لنتبين معنى إطلاق القرآن على الخطيئة للشيطان والإبليس وبيان الفارق بين الأديان كنهج لله والأديان كمنهج ونتاج للخطيئة عندما يفقد الإنسان فضيلة العلم وفضيلة الفطرة وفضيلة الإدراك.

الفصل الثالث

نسق «طسم»: «الطاهر» و«السنن» و«المهيمن»



القضايا ومحمولات النسق:

١ - في القرآن ومنهج المعرفة نتبيّن ألواناً عدة من المنطق بل إنه وهو يقدم المنطق الصوري الذي يعتمد على الكلمة واللفظ حذر من الجدل لأنه يفضي إلى الدور في القضايا الصورية دون أن يدري الإنسان حتى يقول في اعتقادات كثيرة للناس إنها بحسب ظنهم مَن الله وما هي من الله وإنما هي من الشيطان ولذلك لجأ القرآن لتدعيم هذا المنطق بالمنطق المادي كما يبدو للعقل في الآيات الطبيعية ثم قدم أمهات الموضوعات وألحقها بالمنطق الرياضي الذي جاءت رموزه معبرة عن أسماء الله الحسنى الرمزية ليجعل من هذا الحصر محمولات عقائده في تلك الأسماء ولو نظرنا في محمولات نسق «الم» لوجدنا محمولاته هي تلك الموضوعات التي وردت في سورة (البقرة) و (آل عمران) و (السجدة) و (العنكبوت) و (الروم) و (لقمان) لنتبين علاقة البنيوية وهذا المنطق.

لكن المسألة في هذا المنطق الرياضي تتجاوز عملية الحمل إلى عمليات أخرى أهمها عملية الدمج مثلما يدمج نسق «طه» و «يس» في نسق

«طس» ثم يـدمج تلك الأنسـاق من «طه» و «يس» و «طس» في نسق «طسم» الذي نرى له صورتين الأولى في سورة «الشعراء» والثاني في سورة «القصص» وكأنه يقول لنا إن المضمون في «الشعراء» هو نفسه المضمون في «القصص» وإن اختلفت الثقافة إذ الثقافة الدينية كانت تقدم قصص الأنبياء والثقافة العربية التي كانت للأميين من غير الثقافات الدينية كانت تقدم الشعر والشعـراء وهما من وجهة نظر القرآن مضمون واحد ينطوي تحت نسق «طسم».

لكن عجب القرآن نكتشفه ليس في الحمل أو الدمج وإنما يتجلى لنا في الامتداد إذ يمتد نسق «الم» من أول سورة «البقرة» حتى سورة «الأحقاف» وهي آخر سورة من الحواميم السبعة ليجعل من ذلك ذاكرة القرآن التي لا تنسى ولا تغفل بل أنها لتبيّن لنا تلك اليقظة الروحية التي تجمع تلك السور كلها بحيث وهو يقدم كتـاب «الم» وكتاب «المص» وكتـاب «المر» وكتـاب «الر» وكتـاب «ص» وكتـاب «طـه» وكتـاب «يس» وكتـاب «طس» وكتـــاب «طسم» وكتـاب «كهيعص» وكتاب «حم» لا يغفل لحظة واحدة عن المضمون الرئيسي وأنه يريد أن يثبت أن الله هو «المهيمن» «الم» وإن استغرق ذلك عشرات الكتب القرآنية وعشرات من طوال السور أيضاً.

إن المنـطق الريـاضي أو الفقه الـرمزي في القـرآن لا يعبر عن الكيف والصورة إذ أن المهيمن بمنطوقها اللفظي لا تعدو أن تكـون صـورة للغة وقـد يختلف معناها من إنسـان لآخر في القـرآن لكنها في القـرآن تعبر عن كـم من القضايا والامتدادات والبنايات و«الم» كما ينـظر إليها في سـورة «البقرة» عنـد البداية البسيطة تختلف اختلافاً كمياً عندما ننظر إليها في آخـر الحواميم وقـد حملت بـالمحمولات والقضـايـا حتى صـارت كـالجبـل وفي ذلـك الامتـداد والتكثيف والرمز والبنيوية يقول الوحي ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ

الـرَّحِيـمُ * هُـوَ اللهُ الَّـذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُـوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّـلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الْجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُـونَ * هُـوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1]. لنتبين مدى ما حمله القرآن ومدى امتداد القضايا ومدى التكثيف وما صار في أنساق المنطق الـرياضي لتلك الأسمـاء ومن العلاقـات والقضايا والموضوعات لنتبين أنها أثقال وأحمال من المعاني لو حمَلتها الجبال لتصدعت بها وهل في الإمكان حصر الموضوعات التي تشعبت من «الم» حتى ظهرت في «المص» و «المر» و «طسم» و «حم» وغيرها.

هذا الفتح المهيمن للقرآن فـي معرفته لخصائص المنطق الرياضي وأنه هو الأداة الوحيدة لإمكان حل القضية إلى نهاية الفكر مهما كان ذلك الفكر قد كشف للمناطقة عن خاصة التطور في قراءة الطبيعة المادية إذ جعل القرآن ينظر إلى الآية والظاهرة المحددة كـظاهرة الليـل مثلاً ليكتشف منهـا أن الله مهيمن ومتكبر ورحمن ورحيم وعزيز وعليم وقديـر وهي نفسها الآيـة الحسية التي لا تعـدو أمام العين أن تكون ظلاماً ليس إلا لنتبين معنى الفقه الرمزي في العقل لا تعـبر عن القضايا وإنما تعبـر عن كم القضايـا وكأن العقـل ناظـراً إلى تلك الرموز قد تحول إلى كمبيوتر للإحصاء الكمي وهو ما جعـل الإنسان العـادي يقف مشـدوهاً أمـام «الم» في «البقرة» وغيـرها وهـو لا يدري أينـظر إليها في «البقرة» أم في «آل عمران» أم في «السجدة» أم ينظر إلى «طسم» في «الشعراء» أم في «القصص» ليتبين أنه حشرة صغيرة قد ضلت طريقها في غلبة ليس لها بداية أو نهاية لكن القـرآن يعرّف مـداخل تلك الغـاية ومخـارجها على اليقين والدقة.

- إن مشكلة الكم هي التي فـرضت المنطق الـرياضي فلم يعـد يصلح أمام آلاف القضايا التي تحمل مضامين الهيمنة أن يعبر عنها بالمهيمن لأن العقل

---

(١) سورة الحشر: الآيات ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤.

عندئذ سيقع في حرج شديد إذ ماذا يأخذ من صور المهيمن وأمثاله وماذا يدع للدلالة والحصر؟.

في تطور الفكر القرآني أصبح للمهيمن ألف صورة لتبيّن مدى المشكلة والقرآن ملتزم بالنسبة للناس بالبيان والتفصيل بل إنه ملتزم بشرح الغايات والأسباب ولذلك كان الحل الوحيد في المنطق الرياضي والفقه الرمزي وأسماء الله الحسنى والمثل الواضح المعبر عن تلك المسألة هو تحميل آلاف المواقف على اسم «العزيز» حتى شملت فيما شملت من الموضوعات الرحمة والعلم والحكمة والمغفرة وغيرها متمثلاً في «العزيز الرحيم أو العزيز العليم أو العزيز الحكيم أو العزيز الغفور».

- **﴿طسٓمٓ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِين﴾**(1).
- **﴿طسٓمٓ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِين﴾**(2).

تلك الآيات والمسائل التي حملها النسق في القصص هي نفسها التي حملها في الشعراء والفارق الوحيد أنه يقدمها من زاوية جديدة لبيان هيمنة القرآن الفكرية على ألوان الثقافة التي كانت سائدة وقتذاك بحيث قدم القصص وهو صناعة أهل الكتاب في رؤية جديدة تخدم التوحيد وهو في الشعراء يفعل نفس الأمر إذ كانت العرب تهتم بالشعر وتعتبره في قمة الثقافة فأوضح القرآن موقفه من ذلك إذا اعتبر الشعر والشعراء ثقافة فاسدة لأنه لا ينتمي إلى الواقع أو الحقيقة أو الأخلاق وإنما هو الكذب والنفاق والمراءاة.

- شكل الشعر تحدياً للقرآن من جهة الأسلوب لكن الشعر لم يكن هو الوسيلة المناسبة لتقديم منهج القرآن الذي تقوم دعائمه على الحقائق والآيات ولذلك يقول الوحي **﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾** والشعراء

(1) سورة القصص: الآيتان ١ ـ ٢.
(1) سورة الشعراء: الآيتان١ ـ ٢.

يهيمـون في كل واد وليس لـديهم الالتزام الـذي تفرضـه القضايـا ولا هو مطالب برسالة وإصلاح.

- إن الحقيقة في تكذيب قريش للقرآن ولمحمدﷺ ليس لعدم نزول القرآن بأسلوب الشعر وإنما الحقيقة أن القرآن يدعو للإصلاح الذي كان هو نفسه موضوع كل رسالة سماوية وتكذيبهم ليس تجـربة جـديدة وإنمـا هو سنـة جرت مع من كان قبلهم من الأمم مثل قـوم نوح وقـوم هود وقـوم فرعـون وغيرهم.

- إن المسألة ليست الشعر وما كان يجب أن ينزل به القرآن وإنما المسألة هي كفر الطغاة والماديين في كل زمان وفي كل مكان ولـو أن القرآن لم يدعُ للإصلاح لما كذبوه ولكان عندهم مثل الشعر أو أفضل منه والذين استمعوا إلى تلاوة القرآن قالوا فيه ﴿**إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به**﴾.

- عندما يقص القرآن على محمدﷺ أخبار الأمم والقوميات وتكذيبهم للرسل والأنبياء سيتبين علة تكذيـب قريش وعدم إيمانهم بالقرآن وبه لأنه قد سبق للطغاة والكافرين والمجرمين والماديين الكفر بكل رسالة حتى شمل هـذا التكذيب جميع الأنبياء وجميع الـرسل فلمـاذا يتوقـع هو أن يصـدقوه وأن يؤمنوا به وأن يثقوا في القرآن؟.

- إن تفضيل الشعر على القرآن ما هو إلا حيلة وخدعة يخفي وراءها الطغاة والماديون والكافرون ليبعثوا في نفس محمدﷺ القنوط من ربه أو انصرافه عن تلك الرسالة أو الضيق بما يوحى إليه من القرآن ولذلـك يقص القرآن على محمـدﷺ كيف حقق الله لنفسـه العـزة وكيف حقق لأنبيـائـه ورسله الرحمة وأنه هو العزيز الرحيم في كل موقف كان بين هؤلاء الـرسل للذين كذبوا ليتبين محمدﷺ أن قريشاً مهما أوتيت من القوة فمثلها في ذلك مثلما كـان لقوم هـود أو قوم فـرعـون ولن يلبث بهم أمـر الله حتى يكـونـوا هم الخاسرين.

- إن المشكلة الكبرى في عقائد الناس سواء كان ذلك في منهج المعرفة أو في منهج السلوك أنهم لا يعرفون التوحيد على حقيقته وأنه ما من إله إلا الله الواحد القهار ولذلـك نتبيّن من الرسـالات كلها أن رب الإنسـان ما بعث بالأنبياء وما أرسل الرسل إلا ليقولَ للناس إنه هو وحده المتصف بـالألوهيـة وفيما عدا ذلك ضلال مبين وقريش لا تريد إلا الطغيان بل يريد كل منهم أن يكون الإله المعبود بحسب مالـه أو جاهـه أو سلطانه ليتبين محمـدﷺ أن المسألة بينه وبين قريش ليست شعـراً وشعراء وإنمـا هي مسألـة تاريخيـة ضاربة بجذورها في الاعتقادات والألوهية والطغيان في الأرض منذ رسالة موسى إلى الفرعونية.
- في التوحيد نتبين جوانب الألوهية التي ناقشتها الربوبية إذ واجه التوحيد طغيـان الطبيعة والطوفان وقام رب نوح بإلهامـه بصناعـة أداة النجاة والفلك المشحـون لأول مرة وواجه التوحيد طغيان القوة عند قوم «هود» وواجه التوحيد طغيان الإنسان وتعديه على الطبيعة في بعثة رب صالح وواجه التوحيد طغيان قوم لوط والشذوذ الجنسي وواجه التوحيد طغيان الطائفية عنـد فرعـون وقومـه ليتبين محمدﷺ أن ربه قد بعث إليه وأرسله في مثل تلك المهمة ومثل تلك الألوهية لتعرف قريش أن هذا الطغيان الذي تمارسه هـو مضمون القـرآن وأنهم يكذبون بـه لأنه يـدعوهم إلى الله وليس لأنـه لم ينزل على أسلوب الشعر.
- إن سـورة «القصص» أوضحت لقريش وأهـل الكتاب أن رسـالـة مـوسى كانت مضموناً للتوحيـد وعبادة الإلـه الواحـد وهو وحـده رب الناس وهـو وحده الذي تجلى لموسى ومثل ذلك تفعل سورة «الشعراء» إذ توضح أن التـوحيد عبـادة الإله الـواحد هـو بعينـه مضمـونهـا أيضـاً ليتبين كـل من محمـد ﷺ وقريش مـوقعهما من تلك الـرسـالـة التي وردت في القـرآن وليعرف الناس أن نجاتهم في الإيمان بالقرآن ولن يكون الشعر والشعـراء والثقافة التقليدية حـاجزاً أمـام ذلك لأن الله غـالب على أمره ولكن أكثـر

الناس لا يعلمون.

- لقد أثارت سورة «القصص» مشكلة الثقافة السائدة عند أهل الكتاب والأديان وكانت تلك الثقافة تنصب في القصص ولذلك جاءت سورة «آل عمران» مهيمنة على ما جاء في قصص آل عمران ومثل ذلك جاءت سورة «الكهف» وما سألوا عنه من قصص أهل الكهف وغيره ثم جاءت سورة «الشعراء» لبيان أن مشكلة الثقافة عند العرب هي مشكلة الشعر والشعراء وأنهما يدلان على ظاهرة الفساد التي طبع عليها العرب من الكذب والافتراء وصرف الناس عن الفكر والعلم وهو ما أدانه القرآن حتى اعتبر الشعراء من الغاوين أصحاب إبليس اللعين لنتبين أن القرآن ثقافة علمية خالصة.

- يقول صدر سورة «القصص» و «الشعراء» إن ما جاء فيهما هو آيات الكتاب السماوي الذي نزل على موسى ومن كان قبله وليس لذلك مضمون إلا التوحيد ولكن صدر سورة «النمل» يقول إن تلك الآيات التي وردت في «النمل» هي بعينها آيات القرآن ومنهجه لنتبين غرض القرآن إذ يكشف في سورة «النمل» عناصر المنهج الطبيعي الذي أشار إليه القرآن ولذلك لم تحتو آيات «النمل» قصص موسى أو غيره وإنما بحثت علوم الملوك عند بني إسرائيل أمثال داوود وسليمان ولم تتضمن موضوع الهيمنة الذي ورد في «طس» وهو نسق «الشعراء» ونسق «القصص».

- في نسق «طس» وهو نسق سورة «النمل» قدم القرآن ثقافة الملوك وضرب لنا مثلاً بسليمان وكيف استمد معارفه من دراسة الغرائز عند الحيوان خاصة الحشرات والنحل والنمل واعتماده على ما وهبه ربه من قوة الذاكرة والمخيلة والمصورة وقدم ثقافة الرسل في سورة «القصص» وأفاض في توضيح رسالة موسى لنتبين كيف تضفي التجربة الروحية المعارف السامية عند الإنسان ثم قدم ثقافة القوميات في سورة «الشعراء» لبيان فساد الثقافة

التقليدية ومنها ثقافة العرب التي تقوم على الشعر والشعـراء لنتبين علاقـة الأنساق في «طسم» و «طس» ولندرك مـدى ما قـام به القـرآن من الجهد الفكري الخلاق من أجل إقامة صرح العلم الحق والمنهج القيم.

- في «الشعراء» نتبين الثقافة التقليدية إذ كان السحر عند الفراعنة وأبطله الله على يـدي مـوسى وفي العـرب كـان الشعـر وأبـطله الله بـالقـرآن ومثـل ذلك كانت ثقافة قوم إبراهيم والتي تقوم على الوثنية وعبادة الأصنام وأبطلها الله على يدي إبراهيم ومثل ذلك كانت ثقافة قوم نوح وعاد وغيرها فأوضح القرآن أن كل تلك الثقـافات إنمـا هي من التقليد واتبـاع الآباء والمسـألة ليست كذلك إذ الثقافة ما تنتجه الربوبية على يدي رب كل رسول وكل نبي ومـا يقـدمه مـن الجديد في هذا الشأن ومثل ذلك ما قدمه رب محمدﷺ من ثقافة القرآن الجديدة.

- يقول القرآن إنه من الجهل أن يسوي الناس بين ثقافة وعبادة الآباء والتقليد وثقافة وعبادة رب العالمين الذي يبعث بأربـاب الأنبياء والـرسل ليخـرجوا للناس تلك الثقافات والعبادات والعقائد الجديدة والقـرآن ومحمدﷺ من نفس القبيل فلماذا لا يؤمن العرب ولماذا يتخـذون من الشعر وهـو ثقافـة تقليدية منهجاً وديانة؟.

- إن خطورة الثقافة الشعرية أنها تصرف الإنسان عن المنهج العلمي ودراسة وتدبر الآيات وكشف السنن ولذلك رأينا تخلف الأمـة لأنها تفهم مـا يعنيه القرآن من معاداته للشعر وللشعراء وما كانت صحوة العـرب عندمـا دخلوا إلى ثقافة القرآن إلا لأنهم أمسكوا بالمنهج العلمي ومـا كان تخلفهم بعـد ذلك إلا من تلك الآفة الجاهلية.

- إن معاداة القرآن لتسلط الآباء في نسق «الم» في سورة «لقمان» ومعاداتـه لأهل الكتاب وتسلطهم ومعاداته للعادات والتقاليد وعبادة الآبـاء والأجداد

هـو الذي دفعـه للتصدي للتـراث حتى يقول ﴿**ويأكلون التراث أكـلاً لَمًّـا ويحبون المال حُبًّا جمّاً**﴾ لنتبينّ معاداة القرآن لما نطلق عليه اليوم مذهب السلفية والأصالة وأنه إما أن يهيمن التراث ومعتقداتـه على حركة التطور أو يهيمن عليها رب العالمين كما تشرح سورة «الشعراء» ولنا من ذلك برهان على تقدمية القرآن وعلمانيته.

- إن خطر الثقافـات التقليديـة نتبين أثره في قـول الكافـرين المتخلفين ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾ لنعـرف أنهم بهذا الأمـر يخرجون من العصر والزمن الذي يعيشون فيه ليجدوا أنفسهم يعيشون في كهوف الخرافات والأساطير والشعر والتغني بالنسبة إلى القرآن وما هم من منهج القرآن في شيء.

- لكن المفهوم لتلك الثقافات في القرآن يدخله في اعتقاديـة كبيرة إذ كيف يستطيع الإنسان أن يوجد في نفسه بين الولاء لما يرثه من تلك المعتقدات وما تتيحه قدراته الذاتية من الإبداع والقرآن يصوّر هذا الصراع التصادمي في قصة ابراهيم الذي أتاه ربه الرشد والعقل والهداية وبينه وبين أبيه الوثني وقومه إذ ليس لرسالة محمدﷺ وثقافته القرآنية التي أوحى إليه بها ربه إلا أن تتصادم مع التراث متمثلاً في الشعر وهيام العرب به وكـأن القرآن هـو نفسه نتاج الصراع للآباء والأبناء وصراع الأجيال ليعـرف الذين يـوقعون الأمة في شراك الرجعية أن تلك الخدعة التي يطلقون عليها الأصالة هي في أصل العبادات والعقائد المنتسبة لله والقرآن شـرك كبيـر لأنها تجعـل من التقاليد والسلفية ربـاً للإنسان من دون الله سبحانه وتعالى.

- إن فطرة كل إنسان هي ربه وهي التي تهـديه والأصـالة والسلفيـة وكل مـا ينحدر من مدخرات الأجيال السابقة وتراثهم لا يفيد قضية العلم ولا قضية الإيمان ولقد تبيّنا من رحلة التطور في العصر أنه مـا من حصيلة علمية إلا وأصابها التقادم وهندسة إقليدس سقطت وحتمية نيوتن انتهت ولم يتأمل في

التجربة إلا الإمكان الحر والإبداع الخلاق وهذه القولة «إنك لا تنزل البحر مرتين» وهي حكمة قرآنية وشهادة برهانها ما أوحى رب محمدﷺ إليه من جليل هذا القرآن العجيب.

○ في ثقافة القرآن انقلب القصص عند أهل الكتاب والأديان وقد كـان ثقافة سائدة ـ إلى علم النفس، حلل القرآن فيه رسـالة مـوسى الروحيـة حتى أثمرت قيام الأمة اليهوديـة ومثل تلك الـرسالـة كانت رسـالة محمـد ﷺ التي أثمرت القرآن والأمة لكن المسألة في سورة «الشعراء» كما رأينا تحول الأمر إلى قراءة التـاريخ وعلمـه وكيف هلكت القوميـات لتجمد الثقـافات والفكر والرجعية والتراث والتقاليد وسلطة الآباء والأجيال وتحطيم ذلك في منهج القرآن.

البراهين التي استعملها نسق «طسم» في الشعراء:

١ ـ إن الله رحمة بالإنسان يقدم للناس كل حديث وجديـد ليذكّرهم بمعنى الربوبية ورعاية الله للإنسان فيخرج للعالم نبوءة جديدة أو رسالة رائدة أو يقدم لهم علماً لم يكن له وجود من قبل على يدي أحد العلماء أو يكشف لهم عن سنّة من السنن أو آية من الآيات ومن كان يتوقع أن يقدم«مندل» للناس وهو قسيس ورجل دين علم الوراثة ثم يتطور هـذا العلم اليوم إلى أخطر العلوم جميعها حيث تقوم هندسة الوراثة بزراعة الخضـروات عن طريق البكتيريا في المعامل إلى كميات خياليـة في زمن وجيز حيث تستخـرج المستخلصات الزراعية من تلك المصانع ومثله ما يحـاوله العلمـاء ومن مستخلصات البروتين بحيث يتمكن العلمـاء من الاستغناء عن الحيـوان والنبات كما هما في الطبيعة وتصبح المسألة مسألة الطبيعة العلمية التي أهداها رب الإنسان وإلهه إليه.

○ يبرهن القرآن على تلك المسألة فيقول لو نظر الإنسان إلى الطبيعة والأرض

لوجد أن الأرض تنبت كل يوم بنبت جديدوحديث،وعجلة التطور لا تتوقف والأنواع تظهر وتختفي وصراع الحياة والموت على أشده لنتبين نظرة القرآن إلى مسألة التقدمية ومسألة التحديث ومسألة التطور لأن القـرآن نفسه آيـة ونتيجة لذلك.

- يتساءل القرآن كيف أنبت الله من الأرض الأنـواع وكل زوج كـريم ليعرف الإنسان أن الرعاية الربانية التي يتمتع بها لا تجد لها صورة في الحقيقة إلا إثراء كل نفس بلون جديد من الإبداع ولذلـك كان نصيب محمـدﷺ من هذه الربوبية وهذا الإبداع أن أوحى إليه ربه بالقرآن وكأن المسألة تقودنـا إلى معنى الحـديث ومعنى التقدميـة ومـدى مـا يمكن أن يبـدعـه الأفـراد وقدراتهم الخلاقة حتى يكاد يكون كل فرد إنساني نوعاً بذاته في لـون من ألوان العلم أو الثقافة أو الابتكار.

- عندما يتحدث القرآن في تلك القضية الخطيرة ويقوم الجدل الذي يحدث في الطبيعة كبرهان على صدقها وينظر إلى خروج الأزواج والأنواع من كل جديد وحديث فإنه يكشف عن أسرار وثقافة الربوبية وأن الكائنات وخروج كل الأنواع هو سنة خالقة ولم يكن «لا مـارك أو دارون» وما كشفـا من هذا الأمر إلا قارئين لما سار عليه التاريـخ الطبيعي حتى وجـدت تلك الأنواع التي تحتشد بها الأرض وقد يزيد عددها على عدة آلاف بخلاف ما انقرض منها لنتبيّن أن القرآن يقول لنا إن رأيتم ثراء الطبيعة من حولكم فاعلموا أن ذلك من هذا الناموس والتطور والارتقاء وهو نفسه ما جاء بـه القرآن وكـل رسالة سماوية على نهجه ومن نتائجه.

- إن الخـالق المبـدع رب العـالمين ورب محمـد ﷺ يفـر ض ثقـافـة القـرآن لأنه قـد آن الأوان أن تختفي ثقافـة الشعـر والشعـراء والـدجـالين والنصابين ليأخذ العلم مكانته ولكن القديم لا يستسلم ولا يـريد أن يتـرك للجديد والتقدم والتطور فرصة بل إنه يحشد الجنود والطغيان وشتى ألوان

السلطان ويستخدم المكر والدهاء والسحر وما بين يديه من كل الأضاليل ورغم ذلك فالجولة في النهاية للجديد والتطور.

- بالتطور وقوة الإبداع والخلق بدأ الله خلق الإنسان من الطين ولننظر الآن إلى ما صار إليه الإنسان من القدرات والكمالات والجمال؟ لتتبين أن القرآن يكشف تلك السنن لتكون بين أيدينا في المنهج والمعرفة والعلم ولو لم تكن رياديات «دارون» و «لامارك» وآباء المعرفة وكل خطوة أولية والانتقال من مرحلة إلى أخرى ما كان في الإمكان أن يكون للإنسان تلك الحضارة المدهشة ولا تلك الإمكانات العظيمة في مجالات العلم والمعرفة والتكنولوجيا.

- استخدم القرآن في نسق «طسم» من سورة «الشعراء» الثنائي «العزيز الرحيم» في مجال إثبات التطور والتقدم وانتصار هذا المنهج ليتبين القرشيون أن العزة التي تفرضها الثقافات القديمة لا يمكن أن تنتصر والرحمة التي كتبها رب العالم على نفسه لا بد أن تهيء الظروف للتقدمية وكل ما هو حديث نافع ولذلك يقص القرآن كيف انتصرت الثقافة الجديدة التي جاءت على يدي موسى وعلى يدي نوح وغيرهما ليعرف الناس أن انتصارات الرسل والأنبياء ومن جاء بكل جديد هو العزيز الرحيم الذي يحدثنا القرآن عنه لنتبين الذين يدعون للجحود باسم الأصالة وللتخلف باسم السلفية. إنهم يواجهون سلطان العزيز الجبار وفي النهاية سينتصر التقدم وسيفوز أصحاب التطور مهما كان لتلك المؤسسات اللعينة من القوة والسلطان.

- سنن العزيز الرحيم هي التي تحكم حياة الإنسان والحيوان والنبات وكل يوم تنبت الأرض بكل جديد وحديث وكل صباح ومساء ويتوصل العلماء إلى المزيد من المعرفة ليصبح ما بين يدي الناس ماضياً وتاريخاً ليس إلا والقرآن يتحدى الشعر والشعراء وتنسخ الآية والسورة بالسورة ويتقدم القرآن

على التوراة وعلى الإنجيل ويحسب محمدﷺ أن الجبال جامدة هامدة وهي ليست كذلك وكل شيء يجري من حولنا ورغم ذلك كله يعلن المخرفون أن التطور معناه الكفر ومعناه إنكار دور الله والحقيقة ليست كذلك.

- يذهب موسى إلى فرعون بآيات رب العالمين الجديدة على ثقافة المصريين الذين اتخذوا من الطائفية والعنصرية ديناً ومنهجاً وكان نتيجة ذلك استعباد بني إسرائيل وسلبهم حريتهم وإنسانيتهم ولذلك يقول موسى لفرعون إن الربوبية لن تكون له ولا لقومه وإنما الربوبية الحقة هي لرب العالمين يتساوى فيها الإسرائيلي مع المصري مع العربي مع الإنجليزي مع الفرنسي مع الروسي مع كل جنس وكل لون وحقوق كل إنسان مكفولة عند هذا الرب.

- لكن فرعون قال لموسى ﴿إِنَّ رَسُولَكُم الَّذي أُرْسِل إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[1]، ومثل ذلك قول قريش لمحمدﷺ إذ جاءهم بالهدى والتقدم والعلم والثقافة ولم ينج من رميه بالجنون أيضاً لنتبيّن خطورة الرجعيين والتقليديين وأنهم لا يمكن أن يفهموا القيم الجديدة والثقافة الوافدة ولا المعاصرة ومطالب الوقت.

- يحتج القرآن وموسى ويقول للفرعون إن الربوبية لا تكتب إلا لرب العالمين ودليل ذلك أن الله كان رب الأجيال السابقة على الفرعون قبل أن يوجد وهو ما زال الرب أيضاً وتزول الدول وتمضي الحضارات وتزول الأجيال وتستمر الحياة بل تزدهر وتتطور لنتبين أن العزيز هو رب العالمين وأن الذي يرعى الحياة هو ذلك الناموس المودع في باطن كل خلق وهو الذي يحيي وهو الذي يميت وهو الذي يقضي على القديم وهو الذي يبعث الجديد.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٧.

- نظر موسى في الطبيعة فوجد المشارق ووجد المغارب وتبيّن السنّة والمنهج والفطرة ولو لم يكن ذلك من أجل الجديد ما كانت المغارب وما كانت المشارق «قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون» لذلك كان المنطق الطبيعي في القرآن هو الحجة وهو البرهان وقول الحكيم «إنك لا تنزل البحر مرتين» والقراءة التي قام بها دارون وغيره وما كشف العلم الحديث حتى أثبت أنه ما من شيء إلا وله مشرق وما من شيء إلا وله مغرب وموت لنتبيّن أن الأصالة والسلفية والثقافة القديمة والجمود وكل دعوة إلى التخلف هي من قبيل الوهم ومن قبيل الخرافة.

- لقد جمع الفرعون كل ما لديه من الثقافة التقليدية والسحرة وحشر من كل المدائن ورغم ذلك كله فإن الله أبطل السحر ونصر موسى بسحر أشد ومثل ذلك ما أبطله الله من قوة الشعر والشعراء إذ جعل للقرآن سلطاناً وتأثيراً حتى ما كاد يسمعه العرب حتى قالوا إن هذا هو العجب ومن هذا نتبين انتصار الحديث والجديد وليكون من ذلك ثقة في الله وثقة في رب العالمين.

- آمن السحرة برب موسى وهارون لأنه قدم لهم سحراً يفوق ما لديهم ومثله رب محمدﷺ إذ يقدم لهم ما يفوق الشعر بمراحل لنتبين أن التطور في المعرفة والثقافة يمر بمراحل إذ تنقضي مرحلة السحر كوسيلة للمعرفة ثم تنقضي مرحلة الوثنية ثم تنقضي مرحلة الشعر وتتطور العلوم ويلفت القرآن النظر إلى الطبيعة وآياتها والنفس وأسرارها ويوضح السنن والنواميس والفطرة ويسود العلم ويبدل الإيمان محل الاعتقاد ويقول إن الدين الخالص والدين القيم والدين الحق لينقض بذلك كل المفاهيم السائدة عن الأديان وكل المفاهيم السائدة عن الثقافات التقليدية ولتذهب دولة الشعر والشعراء ويحل محلها المنهج القرآني.

- إن الآية التي قدمها موسى لم تكن إلا إلقاء عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين لنتبين شخصية موسى الفذة وأن الله يخرج على

يديه كما أخرج على يدي محمدﷺ من القرآن المعجزات الخوارق التي تذهب بالألباب وتدهش العقول ولذلك ما يزال القرآن حتى اليوم هو السر الأكبر في الوجود كله حتى لو لم يعرف منه الغرب وحضارته شيئاً.

- يكفي أن يلقي موسى عصاه أو ينزع يده أو يتلو محمدﷺ القرآن لنتبين معنى وقيمة ما يدعونا إليه الوحي وأن الله يخرج ويخلق الجديد في كل يوم وفي كل جيل وفي كل حضارة ويكفي أن تقدم امرأة للإنسانية اكتشاف الذرة وعالمها العظيم وما كانت «مدام كوري» إلا آية للتطور والتقدم الخلاق الذي يحدثنا القرآن عنه وليكون من ذلك إيمان برب العالمين وأن الدعوة إلى التطور والجديد والتقدمية هي دعوة وجودية استقرت سننها في طبيعة الكائنات وما مثل موسى ومثل محمد ﷺ من الرسل ومثل ماري كوري أو دارون أو نيوتن أو آينشتين من المفكرين إلا آية لما يمكن أن يكون أمام الإنسان من المستقبل الباهر الذي يدّخره له ربه لنتبين خطورة تكذيب قريش لمحمد ﷺ وتفضيلها أعمال الشعر والشعراء على الإنصات والإيمان بالقرآن.

- تختفي حضارة الفرعون وتنزوي وتنهار لتقوم محلها حضارة اليهودية كأعلام هادية للناس ومن أعمال موسى يجد الناس أول الكتب السماوية التي تدعو للإخاء والسلام والمحبة ليكون من ذلك مؤثراً نتبين من خلاله مدى ما يمكن أن يقدمه الأفراد ومدى ما يمكن أنْ تصير إليه الأمور لو أننا آمنا بهذه السنة وهذا الناموس إذ تشيد التوراة بالأمة اليهودية ويشيد القرآن بالأمة الإسلامية وتقيم الأناجيل صرح المسيحية لنعرف أن المسألة في المنهج والتطور وصناعة الحضارة والتاريخ هو ظهور مثل تلك الأفراد وتلك النباتات الجديدة والتي من الممكن أن يكون بين يديها إقامة صرح حضارة أو صرح أمة أو كشف علمي يفوق التطور لنتبين خطورة التكذيب بالجديد والركون إلى القديم والثقة في معرفة الآباء ولو أن الأنصار لم يصدقوا محمداًﷺ

لذهب إلى ذمة التاريخ كما تذهب إليهَ عامة الناس ولكانت الخسارة تفوق كل حصر ليكون من هذا الأمر عظة وحكمة للذين ما زالوا يعتقدون أن رب الإنسان قد مات بنزول القرآن وهو ما يدحضه القرآن نفسه.

- لا يمكن أن يلغي القرآن الوصاية ثم يقيم الوصاية من أي أحدٍ من خلقه ولذلك جاءت الآيات ؛﴿لست عليهم بوكيل﴾، ﴿لست عليهم بمسيطر﴾وهناك الكثير من الآيات التي تقصر الوكالة والولاية لله وحده لا شريك له لنتبين أن الله هو وحده الولي وأن الله هو وحده الوكيل وأن الله هو وحده الإله وأن الله هو وحده رب العالم من دون أي سلطة ومن دون أي أمة ومن دون أي كتاب أو دين. لو كانت الكتب السماوية والأمم والأديان هي التي تسيطر على الناس من دون الله لخلدت التوراة وسلطان اليهود أو مثله سلطان الإنجيل والمسيحيين وإنما يقول القرآن إن السلطان والهيمنة والعزة لله وحده لنتبين معنى رب العالمين والتطور وما يحدثنا عنه القرآن في سورة «الشعراء» وانتهاء عصر الوصاية وبعثة موسى واختفاء الفرعونية ونشأة الأمة الإسلامية بقوة القرآن الناهض لنتبين مدى الخطل والخبل والحماقة والفشل الذي نعانيه من مثل تلك المعتقدات والتي لا تنتسب للقرآن ومحمد ﷺ.

- في كل شدة ووقت المحن والأزمات يأتي الحل على يدي إنسان من الناس ومثل ذلك وقف بنو اسرائيل والبحر من أمامهم وفرعون وجنوده من خلفهم وأصاب الناس الذعر والخوف والهلع لكن رب موسى جاءه بالنجدة وجاءه بالحل وما هي إلا ضربة بالعصا إلا وكان البحر كالطود العظيم وكانت نجاتهم جميعاً وغرق الفرعون وجنوده ليكون لنا من ذلك أن هذا الجديد والمعرفة المتطورة هي التي بيدها نجاة البشرية ومن قبل صنع نوح الفلك لمواجهة البيئة الطوفانية وقد كان قومه يسخرون منه لنتبين أن مصير البشرية وما يجد أمامه من الصعاب هو رهن بما يخرجه رب العالمين على يدي هذا النبت الجديد والقرآن ومحمدﷺ آية من تلك الآيات والشعر والشعراء لم

يعد لهما مكان في الثقافة الجديدة.

- ولننظر إلى ما فعله إبراهيم مع الوثنية والأصنام التي كان يعبدها قومه لنتبين مدى رشد إبراهيم وعدالة قضيته ومعرفته الجديدة في شأن الربوبية والألوهية وأن رب العالمين هو الذي يطعمه وهو الذي يسقيه وهو الذي يهديه أيضاً لنتبين أن هذه الفطرة وهذا الناموس المودع في باطن الأشياء والكائنات والنفس البشرية هو وحده الذي يخرج الخبء في آيات السماوات وآيات الأرض وهو وحده الذي هدى إبراهيم إلى تلك المعرفة الجديدة وهو وحده الذي تجلى لموسى وعلمه وهو وحده الذي يوحي القرآن ويبطل الشعر ويرفع قدر موسى وعيسى وقدر محمدﷺ وهو العزيز الرحيم.

- هذا الإبداع هو ما خلق الإنسان له ومن أجله ولذلك لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وفطرة منيرة سليمة تعرف أن نفسها هي مستودع كل خلق ومستودع كل إبداع وما كان ابراهيم وما كان موسى وما كان محمدﷺ إلا أهل الفطرة وأهل الإيمان بالنفس والرب ولو أنهم اعتمدوا على مال أو بنين أو جاه أو سلطان لما كان لهم هذا العلم وهذه المعرفة في الله سبحانه وتعالى ولكنهم آمنوا بربهم وأنفسهم والاعتماد على النفس هو الاعتماد على التطور والجديد ولذلك فالأصالة والسلفية لن تفيد الأمة وخير للإنسان أن يعتمد على ربه ونفسه بدلاً من اعتماده على معارف الآباء والأجداد والديانة التقليدية.

- آمن بنوح أرذل الناس وأحطهم مركزاً لكن منهج نوح وما اكتشفه من قوة إبداع الإنسان وما يمكن أن يصنعه وما يمكن أن يكون بين يديه من الإمكانات كتبت لهم بفضل ذلك الحياة والنجاة وآتاهم ربهم التمتع بالحياة الدنيا وجاءهم بثواب الآخرة لنتبيّن أن المسألة في الإبداع ليست قاصرة على وجهاء القوم ولا هي خصيصة لأحد من الناس دون الآخرين ولو كان

الأمر كذلك ما كان لهؤلاء تلك النتائج وإنما الأمر عند رب الإنسان أنها طاقات خلاقة عند كل إنسان متى آمن بها لنتبين أن المشكلة ليست في المال أو الولد أو السلطان أو ما يمكن أن يكون من ذلك بيد الناس ولكن المشكلة هي في إيمان الإنسان بقدراته وإمكاناته وأنها لقدرات صنعت الفلك وصنعت التقدم وصنعت التكنولوجيا لأول مرة في التاريخ ولو أخذ نوح بالثقافة التقليدية لما كان ذلك ممكناً وقولة قريش لو أن هذا القرآن أنزل على رجل من القريتين عظيم هي قول الجهلة وقول الذين لا يعرفون من أنفسهم ما عرف محمدﷺ وما عرف إبراهيم وما عرف موسى من قبل.

- لقد أوضح هود لقومه أن القوة والبطش وفرض السلطان والطغيان ليس منهجاً للحياة وبيّن لهم أن دمار القوميات السابقة كان لهذا السبب لكن رد القوم أن هذه الأخلاق هي أخلاق الأولين وقد جرت الحضارات على احتواء كل أسباب القوة وحيازتها وأنهم لم يتصوروا هزيمتهم أبداً وكان رأي هود وحده مخالفاً لذلك إذ كان اعتقاده أن القوة ليست لحضارة أو لأمة من الأمم وإنما هي لله وحده ولا يمكن أن يتركهم الله يعيشون في الأرض فساداً فكذبوه وكان هلاكهم لنتبين أن واحداً من الناس بعينه يأتيه الله بالبصيرة المستنيرة ويكون هذا الأمر جديداً غير مألوف للناس فيكذبوه دون حق وهو ما يفعله محمدﷺ أيضاً لكن قريشاً في طغيانها وجبروتها لا تريد أن تفهم ولا تريد أن تسمع وهي تصغي للشعر والشعراء ولو أنها سمعت ما جاء في القرآن لتبين لهم الأمر ولعرفوا أنهم مقبلون على عقاب الله سبحانه وتعالى.

- هذا الإسراف الذي تحدثنا عنه الآيات في قصة صالح وثمود وأن الطبيعة لا إسراف فيها لم تكن تلك المعلومة بين أيدي القوم لأنهم اعتادوا الإسراف وحتى كانت بيوتهم فارهة منحوتة في الجبل وهو ما يناقض منهج الرب إذ الطبيعة قد حددت في أي وقت يطلب الكائن الغذاء والشراب ولذلك فالناقة تعرف بالفطرة حاجاتها من الماء وفي أي يوم تشرب ولكنهم لا

يعرفون ولو قارنوا حاجتهم اليومية للماء وحاجة الناقة وهي لا تشرب إلا بعد بضعة أيام لتبين لهم إسراف الإنسان ويعلم أن الإسـراف ليس من الفطرة وإنما هو من جهل الإنسان ومثله ما يسرف الطبقيون والرأسماليون ويسرف الأغنيـاء والحمقى ويسرف أصحـاب القوة وبنـاة القصور ومـا كـانت تلك المعرفة إلا عند صالح وحده وسط هذا الظلم الكبير.

- كان جميع الناس في قرية لوط وقد هداه ربه فنظر في الطبيعة فلم يجد كائناً حياً يمارس هذا السلوك أبداً إلا الإنسان وعندئذ تبينت له الحقيقة وأن هذا السلوك ليس من رب الإنسان وفطرته بل هو عمل شيطاني اخترعه جاهـل منحرف من الناس وغلبت التقاليد والعادات فأصبـح سلوكاً قـومياً ولـذلك أوضح لهم لوط أن الطبيعة قد خصت كل جنس بـوظيفته وخلق الله لكـل جنس أعضاء من الذكـورة ومن الأنوثـة يستطيـع أن يستعملها في وجههـا الصحيح ولذلك فإتيان الذكور رغم وضوح أعضاء التذكير ما هـو إلا عادة جرت فيهم من أجدادهم وليست شيئـاً طبيعياً ورغم وضـوح القضية فقـد كذبوه وكان هلاكهم ليتبين الناس أن الجديد في الثقافة أو المعرفة أو العلم سيصطدم بالعادات والتقاليد وما جرت عليه حيـاة الأجيال والمشكلة إنمـا تكون في تكذيب هؤلاء ومن أنعم الله عليهم بالرشد والهداية ولو أن الناس آمنوا بالجديد وأصبحت بين أيديهم المعرفة والعلم والتقدم والإيمان أيضاً.

- عندما يتحدث القرآن عن الثقافة التقليـدية والمقلدين والعـادات وما يـرثه الناس من زميم أجدادهم وما يحملون من تراثهم وخرافاتهم يقدم القرآن في هلاك قوم لوط ونجاة آل لوط شيئاً عجيباً حقاً إذ يقـول إن لوطا قـدم بناتـه للناس قائلاً هن أطهر لكم من ممارسة الشذوذ مع ضيوفه إذ كـانت العادة إكـرام الضيف بممارسـة الشذوذ معـه ورغم ذلك لم يـوافقوا لنتبين تسلط العادات والتقاليد وهي تتحكم في الكبار خاصة ولهذا يقول إن أهل لوط قد نجـوا كلهم من تلك الآفة إلا عجـوزاً في الغـابـرين لنتبين أن الأمـل في

التحديث والتقدم لا يرجى من كبار السن ومن أخذت بتلابيبهم العادات والتقاليد وأصبحوا لا حول لهم ولا إرادة ولا بصيرة ولذلك فأمل القرآن في الشباب وهم الذين من الممكن أن يقوموا بمهمة التحديث وعلي بن أبي طالب وابن عباس وبلال وغيرهم كانوا هم الشباب الذي آمن بالقرآن ودعوته وهو اليوم أشد منه مطلباً حيث أدركت الشيخوخة الأمة ومعتقداتها والمشكلة هي أن نفهم المنهج القرآني على حقيقته.

- هذه الأوكار والعادات والتقاليد التي تعيش في قلوب الناس وعقولهم والثقافات التقليدية يصور القرآن لنا في تاريخ القوميات ما يمكن أن تصل إليه بها حال الإنسان حتى ظهرت الوثنية في قوم نوح وهي أحط العبادات إذ اعتقد الإنسان في الحجارة وعبدها وظهرت الصنمية في قوم إبراهيم حتى كان الرجل يصنع بيديه التمثال والصنم ثم يخر له ساجداً ثم ظهرت الأترافية والاستهلاكية والسرفية في قوم صالح ثم جاءت الطامة الكبرى للثقافة التقليدية في قوم لوط وظهر الشذوذ وأصبح سلوكاً عاماً كاسحاً لنتبين خطورة الثقافات التقليدية وأن كل شاذ من سلوك الإنسان هو نتاج لتجمد الفكر والثقافة وحجته في ذلك الأصالة وتراث الآباء وأوزارهم.

- في الثقافات التقليدية ينقلب كل شيء على نفسه حتى تنقلب طبيعة الذكران من العالمين وأعضاء التذكير فيهم واضحة لكل عين فيتخذ منهم الإنسان المسرف إناثاً للمتعة الحسية ومثل ذلك كانت آية الناقة في الاقتصاد واضحة تماماً ورغم ذلك لم يؤمن قوم صالح بهذا الأمر ليعرف الذين يتمسكون بما خلف الآباء وأنه لا يمكن أن يكون صالحاً للأجيال وأن إيمان الإنسان بربه ورب العالم ينأى به عن هذا الشرك والأمر واضح وهو في كل يوم يخرج لنا من العباقرة والثقافة خيراً مما يفيد الحياة ويدفع إلى التطور ومن هنا يتبين لنا خطورة ما تقدمه سورة «الشعراء» وأنه قد آن الأوان أن يحل القرآن وثقافته محل الشعر والثقافة التقليدية.

- يقول شعيب لقومه إن الميزان والمكيال الحق ليس في البيع والشراء فهذه تجارة ولكن الميزان والمكيال عند رب العالمين هو أن يأخذ كل إنسان بقدر حياته وحاجته وما يريده من الأشياء ويرغبه وكان ذلك فكراً جديداً عليهم وهم لم يألفوا هذه الأفكار ولذلك كذبوه أيضاً لنتبين أن الجديد من الأفكار لا يلقى قبولاً من الناس بسبب ما اعتادوا عليه وما درج عليه الحال عندهم ولو عرف قوم شعيب أن ما قدمه لهم شعيب منذ آلاف السنين أصبح الآن شيئاً عادياً حتى في أبسط الأنظمة الاجتماعية لتبين لنا معنى الإيمان برب العالمين ومعنى قبول الأفكار الجديدة ومعنى أن نتخذ من الآباء والأجداد والتراث آلهة نعبدهم من دون الله.

- لذلك يقول الوحي ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ﴾[1]، ولنتبين أن نزول القرآن على قلب محمدﷺ قد أذن بانتهاء ثقافة الأفاكين من الشعراء وغيرهم وأن القرآن ليس كالشعر ولا ينبغي أن يكون شعراً.

- في كل قومية عصفت بها رياح التغيير والثقافة الجديدة برهنت الحوادث أن الله هو العزيز الرحيم لنتبين أن نسق (طسم) في الشعراء كله قد حمله القرآن على هذين الاسمين من أسماء الله الحسنى وكم من ظاهرة واحدة استطاع القرآن أن يخبرنا من معانيها أن الله هو الحي وهو القيوم وهو المهيمن وهو الجبار وهو المتكبر حتى بلغت أسماء الله الحسنى عند قراءته لحادثة خيبر في سورة الحشر عشرات من أسماء الله الحسنى ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤْمِنُ المُهَيمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى * يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤.

الحَكِيمُ﴾[1]. ليكشف القرآن بذلك كيف حمل المعرفة وأنساقها وموضوعاتها على تلك الأسماء وكأن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يكشف لنا عن ذات الله وجلاله ويبين لنا كيف نسج بمحمد وكيف ندرك تلك العلاقة العجيبة بين الله وبين الإنسان وأنها لعلاقة غاية في الروعة وغاية في الجلال أيضاً.

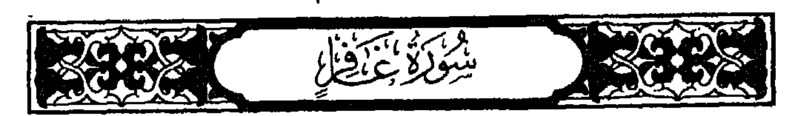
---

(1) سورة الحشر: الآيات: ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤.

الباب السابع

الفصل الأول

نسق «حم»



المحمولات والقضايا التي تناولها النسق لبيان أن الله هو «حي - مهيمن»:

١ - يمثل نسق «غافر» قضية غاية في الأهمية إذ يبحث قضية حساب الإنسان أمام ربه لأن قريشاً والعرب لم يكونوا يؤمنون بالبعث والحساب وكان أهل الكتاب والأديان من اليهود والنصارى لا يؤمنون بأنهم يدخلون النار بذنوبهم كباقي الناس حتى أعلنوا أن الجنة هي ميراث خاص باليهود والنصارى وحدهم ولو فرض أنهم دخلوا النار فإنهم لا يمكثون فيها إلا أياماً معدودات ولذلك كفروا بما جاء في القرآن تصحيحاً لتلك العقائد **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُم وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾**[1]، **﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[2]، أي إن

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٢٣ - ٢٤. (٢) سورة البقرة: الآيتان ١١١ - ١١٢.

جميع خلق الله يأخذون أجرهم وليس أهل الأديان فقط ومسألة أن أهل الأديان هم المهتدون وحدهم هي نفسها كذبة رد عليها القرآن ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ ابْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، أي أن الهدى ينعقد عندما يكون الإنسان حليفاً لله وحده بحسب المبادىء والقيم العليا.

٢ ـ هذه القضية الخطيرة تدخل في مسألة الفهم الخاطئ وخلط المفاهيم في معرفة الله سبحانه وتعالى فاليهود يفهمون الله على أنه رب اليهود وحدهم واشتقاق «يهوه» الذي يلبي طلباتهم وعنصرياتهم وكأنه سخر لهم هو الذي كان سبباً فيما يقوله له القرآن عن مقولاتهم ومفترياتهم في الله ولذلك كان نزول نسق «غافر» لبيان أن الله ليس تواباً وغفاراً للذنوب والمعاصي فقط بحسب ما يقوله اليهود عند ارتكابهم للمعاصي ﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ وإنما الله شديد العقاب والطول أيضاً وسيهلكهم بذنوبهم مثلما أهلك الطغاة في كل زمن وهم عند الله كأي أمة وأي قومية والناس جميعاً في قبضته يوم القيامة.

٣ ـ إن العنصرية بالدين أو العنصرية بالعرق أو العنصرية بالنسب لا تفيد شيئاً عند الله إذ الأمم والقوميات والخلق جميعاً سواسية أمام الخالق والمسألة إنما تقع في الفساد فإذا ارتكب إنسان ما هذه الجريمة في الأرض أيًا كان دينه أو حسبه أو نسبه أخذه الله بذنبه وقد أخذ الله اليهود والنصارى والمسلمين بذنوبهم لنتبيّن هيمنة القرآن على تلك القضية الخطيرة وأنه يكشف لنا في نسق «غافر» ناموساً يأخذ الله به الأمم والحضارات سواء كانت تلك الأمم دينية أو غير ذلك.

٤ـ إن الجدل في الله وآياته مسألة خطيرة وتلك المفاهيم الخاطئة في معرفة الله

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٥.

وأقوال أهل الأديان في المغفرة والتوبة والشفاعة تحتاج لوقفة قرآنية يقدمها لنا نسق «غافر» لنتبين وجه الحق في تلك العقائد المزيفة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[1]، ولذلك يتقلب اليهود والنصارى والمسلمون في البلاد والعالم ويرتكبون المعاصي والمفاسد ويقولون للناس سيغفر لنا ويظنون أن شأنهم عند الله كبير والحقيقة أنه أهون وأصغر من ذلك بكثير وهذا الاستكبار في الأرض هو الذي أوردهم موارد التهلكة والمسلمون اليوم هم أحط الأمم وأكثرهم تخلفاً.

يعتقد أصحاب الأديان في المحاباة وأن الله ينحاز لهم وتلك مشكلة كبيرة فيهم خاصة عند العامة واعتقاداتهم في القضاء والقدر مثل ذلك والقرآن يحذر من تلك العقائد لأنها هي السبب في فساد وانهيار الأمم حتى يقول القرآن ﴿**كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه**﴾لنتبين كارثة موت الرأي العام فيهم وانقلابهم جميعاً إلى المعاصي والخطايا.

٥ ـ من جلال القرآن أن القضايا العامة الخاصة بالمبادىء يظهر لنا صدقها مع التطور الزمني ولذلك كانت المغاليط والمفتريات مقاتل الأمة الاسلامية مثل سابقتيها تماماً حتى يقول صاحب الرسالة في تنبؤ لمثل ذلك «لتحذونهم حذو النعل بالنعل» لنتبين أن القرآن يدرك المشكلة الدينية إدراكاً واعياً وتاماً.

٦ ـ إن موضوع الهيمنة في القرآن ليست خاصة بعقائد اليهود والنصارى وأهل الأديان فقط وإنما هي موجهة بالدرجة الأولى إلى المسلمين أنفسهم وهذا

---

(١) سورة غافر: الآيات: ٥٥ ـ ٥٦ ـ ٥٧.

الخلط باعتبار أن الأمة الإسلامية منفصلة عن أهل الكتاب وهو خلط كبير أوقع الفقيه المسلم في كثير من الأخطاء والتحريفات.

٧ - يتحدث القرآن عن مسألة الحق في تلك القضية لبيان أن الاعتقادات الخاطئة في معرفة الله تقضي على رسالة الكتب السماوية ويتساءل القرآن ما هو الفرق بين طغيان اليهود وطغيان الفرعونية أو بين طغيان النصارى وطغيان الثمودية أو طغيان المسلمين وطغيان اليهود والنصارى ولقمان كان من قلب بني إسرائيل وأهلكه الله وخسف به وبداره الأرض لما طغى عليهم لنتبيّن أن المسألة عند الله ليست مسألة أديان إذ أن تلك الأديان قد يخترعها الإنسان بمنهجه وعقيدته الخاصة ولذلك فالمسألة عند الله هي مسألة الفساد والطغيان في الأرض ولله الدين الحق والدين الخالص والدين القيم وهناك فرق بين دين الإنسان ودين الله ولو كان الناس على دين الله حقيقة ما ظهرت فيهم الاختلافات وما ظهرت فيهم الملل والنحل والطوائف التي تجلب الفساد في الأرض.

٨ - ليس نزول نسق «غافر» معناه أن الله لم يعد تواباً ولم يعد غفوراً ولم يعد رحيماً وليس معنى ذلك إلغاء الشفاعة أو إنكارها وإنما المشكلة كما هي في الولاية أو الوكالة أو الخلافة بشروط إذ لا يستحق خلافة الله من كان طاغياً أو فاسقاً أو كافراً ومعنى ذلك أن نسق «غافر» لاينسخ ما ورد في عقيدة التوبة أو المغفرة أو الرحمة وإنما المسألة في مشكلة الرأي العام عندما تتحول العقيدة في ذلك إلى استباحات وعنصرية واستكبار في الأرض بغير الحق ولهذا أيضاً تقول الهيمنة إن الله يوشك أن يأخذ الأمم إذا ظهرت فيهم الطبقات خاصة المترفين والمسرفين والمستكبرين والغافلين وغير ذلك مما يجعل من الخطيئة سلوكاً عاماً وعقيدة منحرفة.

٩ - من أجل ذلك نجد في القرآن عندما يتحدث عن علاقة الله بالفرد أن الله تواب وأنه غفار وأنه رحمان وتختفي تلك المسألة عندما يتحدث الله عن

القوميات والأمم والفحشاء والخطيئة العامة ويستبدل القرآن مبدأ الشدة ليكون هو الفيصل في أمر قوم نوح وقوم هود وقوم فرعون ثم اليهود ثم النصارى ثم المسلمون أيضاً.

١٠ ـ يكاد يعم الفساد في الأرض وظهور الطبقات وظهور الطوائف وظهور الملل والنحل والجماعات واختلافات ومنازعات أهل الكتاب يؤدي كل ذلك إلى أنه كان في قوم هود تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون لنتبين المدى الذي يصل إليه الفساد والطغيان، واليهود والنصارى والمسلمون يتقلبون في البلاد وفي العالم ليزيفوا قضية الله والمسألة ليست بأقوالهم فقد أخذهم الله جميعاً إذ أصبحت تلك القوميات في أدنى الأمم وأحط المجتمعات لنتبين وجهة نظر القرآن وأن العقائد الفاسدة تنسب إلى الله ولكن الله كما أنه تواب وكما أنه غفور وكما أنه رحيم هو أيضاً شديد العقاب بل باعه طويل ولن ينجو من عقابه أي فساد في الأرض.

١١ ـ إحلال الأمة محل الأمة وخلافة الحضارة للحضارة والقومية للقومية وصراع الطبقات والطوائف ومبدأ دفع الله الناس بعضهم ببعض يكشف لنا عن الناموس الذي يتحدث عنه القرآن في قدرة الله في سورة «الأحقاف» أوضح الميزان الحق وأنه ما ينجو إنسان من اختبار وفتنة الله حتى يصدق إيمانه أو لا يصدق ثم يكون من ذلك في الآخرة أهل الناس وأهل الجنة وأهل الأعراف والمسألة ليست قضاء وقدراً ولا هي فوضى ولا هي عبثية ومن يظن أنه بالإيمان وحده من غير عمل يدخل الجنة فقد أساء الظن بالله ولو أنه أحسن الظن بالله لأحسن العمل أيضاً.

وفي سورة «الإسراء» أشار القرآن إلى الآفة الكبرى للإنسانية كلها فأوضح لنا مهالك الأمم في تجربة بني إسرائيل إذ ما يكاد الله يعطي الأمة أو القومية أو الدولة عناصر القوة من كثرة الأموال والقوة البشرية حتى يشنوا بتلك

القوة الحرب على الآخرين فيكون هلاكهم ودمارهم وبكل الأسف فقد حدث ذلك مع بني إسرائيل مرتين ولم يسلموا من هذا المصير التعس الذي حدثنا القرآن عنه ولو أنهم أحسنوا استخدام عناصر القوة في التنمية من أجل السلام والتعاون والإخاء لزادهم الله قوة على قوة لكن المشكلة هي عبادة الإنسان للطفيليين والقوة والتكبر في الأرض بغير الحق ونفس المصير في العصر قد لحق بأقوى الأقوياء وهزيمة النازية وهزيمة الفاشية وهزيمة الرأسمالية وهزيمة الشيوعية يوضح لنا ما يتحدث عنه القرآن لنتبيّن أن مسألة المغفرة ومسألة التوبة ليس لها مكان عندما يتعالى الناس بالعنصرية الدينية أو العنصرية الجنسية أو العنصرية الطبقية الطائفية ولن يكون ذلك إلا هلاكاً لأصحاب تلك المبادئ المنحرفة.

١٢ - نجد في أخبار القرآن سقوط الإنسان مهما كان دينه، يهودياً أو نصرانياً أو مسلماً إذا استبدت به العنصرية لأن التعصب يعمي هؤلاء عن حقيقة هذا الإنسان الذي يحدثنا عنه القرآن حتى يكاد يكون ملاكاً من الملائكة ومحمد ﷺ نفسه ولو أن خلقه كان القرآن إلا أن عتاب القرآن له في مواقف كثيرة لا يخفى على أحد لنتبين أن هذا الإنسان القرآني لا يكشف عن جلاله وكماله إلا من خلال تمسكه بعقيدته وإيمانه الحق بالله.

١٣ - إن أجل ما يقدمه القرآن في الهيمنة إنما ورد في اعتقادات أهل الكتاب السماوي وهم أهل التوراة وأهل الإنجيل وأهل القرآن إذ احتدم الخلاف والشقاق وقتل اليهودي اليهودي والمسيحي المسيحي والمسلم المسلم بالنحل والملل والطوائف وقال كل قوم في الآخر بالكفر والفسوق والزندقة جاءت هيمنة القرآن في طوال السور مثل «البقرة» و«آل عمران» وغيرها لتحسم تلك المسألة ولتبين أن المهتدين حقاً ليس هم اليهود وليس هم النصارى ولا هم المسلمون وإنما هم أولئك

الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم أي ظلم وأي طغيان أو عصيان والدعاية التي ينشرها أهل التوراة بأنهم شعب الله المختار والدعاية التي يقولها المسيحيون بأنهم اتباع ابن الله والدعاية التي يعلنها المسلمون بـأنهم هم الأولياء لله فإن ذلك لن يفيدهم في شيء متى ما وقع منهم الظلم أو الـطغيـان أو الفسـاد في الأرض لنتبين نهـوض القـرآن بتلك القضيـة العالمية والتي يغفل عنها الناس.

١٤ ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغـررك تقلبهم في البلاد﴾ وفي العالم وفي كل ندوة وفي كل مؤتمر والدعاية من أهل الأديان قـد غطت كل مكان في العالم والمعبـد والكنيسة والمسجـد لم يعد يخلو مكان من وجودها فهل أغنى عنهم ذلك من الله شيئاً؟

تلك هي المسألة التي يبحثها القرآن بحثاً مستفيضاً فيبيّن أن تلك الدعاية لن تفيد أهل الكتاب والأديان لأن العقيـدة في الله هي عقيدة الإخـلاص وهم نصابون كذابون يرتكبون السيئات والمعاصي ولذلك يقول القرآن لمحمد ﷺ وقد أدرك هذا الأمر ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾[1]، إذ ليس هذا الذي عند اليهود أو عند النصارى أو عند المسلمين ديناً وإنما هو كذبة كبرى يحاولون أن يخدعوا بها الناس وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون.

١٥ ـ يقول اليهود والنصارى من أين لمحمد ﷺ بتلك المعرفة وهو أمي من خارج أهل الكتاب والأديان ويـرد القرآن بـأن المسألـة عند الله ليست كذلك وإنما المسألة أن الله يلقي بالروح والعلم على من يشاء من عباده اصطفاءً واختياراً وهو قد اصطفى محمداً ﷺ وعلمه علوم القرآن علماً لدنيا لا دخل فيه لمعلم أو مدرس أو مـربٍ لينذر الناس وليبين لهم مـا ضلوا عنه وما غلب على معارفهم وما كانوا عنه غافلين.

---

(١) سورة غافر: الآية ١٤.

١٦ ـ هذا المفهوم لمعاني أسماء الله الحسنى من الرحيم أو الغفور أو التواب قد يضل طريقه إلى عقائد الناس بالإلحاد مثلما كان يفعل أهل الكتاب فيقولون على الله ويفترون وشعب الله وابن الله وأولياء الله ونسخ القرآن لتلك المفاهيم ليهيمن على المقولات والمفتريات والدعايات وليحذر الناس من عقاب الله لنتبين كيف وردت أسماء الله الحسنى من خلال هيمنة القرآن مقننة لها معاييرها القرآنية ولها قضاياها ومحمولاتها حتى لا تكون من المتشابه وهو مدخل الانحرافات والتأويلات المضلة والمسلمون كانوا يلعنون اليهود والنصارى وهم اليوم قد لعنوا بالقرآن وما ورد فيه من جليل الهيمنة والعلم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ليكون لنا من ذلك سلامة المعرفة وهداية المنهج القرآني.

١٧ ـ إن الله له مفهومه الخاص في التوراة عند اليهود وإفراز «يهوه» رب اليهود مثل لهذا المفهوم ومثل ذلك ما نراه في مفهومه عند النصارى من الله والابن والروح واختلاط وتشويهات تلك العقائد والعرب كان لهم مفهومهم الخاص عن الله أيضاً ولو أنهم لم يكونوا من أهل الأديان ثم جاء القرآن ويا عظمة ما جاء في القرآن ويا جلال ما احتوته وقننته الأسماء الحسنى حتى تدفع الخلط عن مفهوم الله وتذود عنه الإلحاد وتبرئه من مفتريات وأكاذيب أهل الأديان ووضحت في الأسماء الحسنى وما حملت من الأنساق والقضايا أن الله بريء من كل كافر وأنه بريء من كل مشرك وأنه بريء من كل متكبر وأنه بريء من كل طاغية وأنه بريء من كل رأسمالي وأنه بريء من كل مترف وأنه بريء من كل مسرف وأنه بريء من كل كذاب ومن كل نصاب ومن كل منحرف ومن كل مجرم ليصل في النهاية إلى أن الله وحده له الأسماء الحسنى التي يتعارف عليها القرآن والمؤمنون به.

١٨ ـ نجد في نسق «الم» في سورة «البقرة» وغيرها مما تداوله النسق أن القرآن كان يدعو لهيمنة الأمة الإسلامية ولكنه لما بدا له من أعمال أهل الأمة ما يتنافى مع الإيمان مثل الحوادث التي وردت في سورة «التوبة» وسورة «الأنفال» وسورة «الأنعام» وسورة «النساء» وهي كلها سور قرآنية أريد بها نقد السلوك حتى قال للأعراب إنهم لم يدخلوا حظيرة الإيمان رغم أنهم مسلمون تبين أن الهيمنة يجب أن تنتقل إلى القرآن نفسه ولما تكشف له أن الكتب السماوية قد لا تقوم بهذا الواجب أيضاً قدم هيمنة الحديد والنار والثورات ومن لم يرتدع بالقرآن والكتاب السماوي يرتدع بالسلطان والقوة والقانون والثورات المدمرة.

١٩ ـ هذه الوقفة التي يقفها نسق «غافر» من أهل الكتاب والأديان كانت بسبب الأحكام واختلاف ما جاء في القرآن عما ورد منها في التوراة أو الانجيل ولم يقبل أهل الأديان بحكم القرآن لأنهم كانوا يعتقدون أن الأمي لا علم له ولا يمكن أن يكون على دراية بالشرائع ومقتضيات أحكامها ولذلك أحال القرآن تلك المسألة على أنها ليست تكذيباً لأحكام القرآن إنما هي مسألة الإسراف في العقائد والغرور في الدين إذ يعتقدون أن الله سيغفر لهم كل خطيئة وكل ذنب وكل فجور وعصيان وتبين من ذلك أيضاً اعتقادهم في خلود أحكام التوراة والإنجيل وهيمنتها المطلقة وهذا ما أثار تلك المشاكل في نسق «غافر» وكان لا بد أن يوضح القرآن الحق من الباطل في تلك العقائد وتلك المفتريات.

٢٠ ـ كل قومية هلكت أوضح القرآن أنها ما هلكت إلا من اعتقادها في المعرفة التقليدية وطغيان هذه المناهج وهي دائماً في صدام مع الله وآياته ورسله لأنها تشمل الجديد في المعرفة ويجب أن يكون لها لواء الهيمنة ولذلك فإن ما يقدمه محمد ﷺ من آيات الله يجعله رسولاً إلى

الناس فلماذا لا يؤمن بذلك أهل الأديان والكتاب؟

٢١ - لو تبيّنا أن محمداً ﷺ كان أمياً منتسباً إلى العرب الذين لم يكن لهم حظ من الثقافة الدينية ولم ينزل فيهم كتاب سماوي لتبين لنا أن أهل الكتاب وهم أهل الأديان كانوا أشد الناس عداوة لتلك الرسالة الجديدة لنتبين مواقف أهل الأديان من كل تقدم ومن كل زيادة وتلك الظواهر التي تدعو فيهم إلى الأصالة السلفية وتسبب انهيار الأمة.

٢٢ - يقرّر القرآن أن مشكلة أهل الكتاب والأديان هي مشكلة الجهل بأحوال الله مع الناس إذ المسألة عند الله بظهور الآية وقد تظهر الآية على يدي أحد من الناس خارج نطاق أهل الأديان وأهل الكتاب ومحمد ﷺ مثل في هذا الشأن إذ أنه ليس كتابياً وإنما هو أمي ولم يمنع ذلك من ظهور آية القرآن عليه ولذلك ورد في القرآن أسماء رسل رغم أن الله أرسل كثيراً منهم لم يذكرهم في القرآن ولأن العبرة بالآية وليست بالرسول والنبي وأن ما يهم هو إظهار الآية للناس لأن أهل الكتاب والأديان يتخذون من أحبارهم ورهبانهم وأنبيائهم ورسلهم آلهة من دون الله ولذلك فمن الآن وصاعداً ليس هناك رسول ولا هناك نبي ومحمد ﷺ نفسه سيكون آخر هؤلاء لأن الآيات ستظهر للناس على أيدي العلماء منهم وبذلك جاءت الهيمنة بالحل الأمثل لطغيان رجل الدين من الأمم.

٢٣ - يشترط أهل الكتاب والأديان أن تكون الآية على يدي كاهن منهم أو نبي أو رسول والمسألة عند الله ليست كذلك إذ تظهر الآية أحياناً على يدي عبقري أو مفكر مثل ماركس وداروين وأينشتين ونيوتن وجاليلو أيضاً لنتبين أن المبطلين ليسوا هم أولئك الذين يحاربون أهل الكتاب والأديان وإنما المبطلون هم أولئك الذين لا يقبلون بآيات الله ولو جاءت على يدي غيرهم ليكون أهل الأديان وما يكفرون به من العلوم المعاصرة هم أول المبطلين الذين يحدثنا القرآن عنهم ومثل ذلك

أبطل أهل الكتاب والأديان آية القرآن وعلومه التي نزلت على يدي محمد ﷺ الأمي.

٢٤ ـ دعايات أهل الكتاب والأديان وتقلبهم في البلاد وإنكارهم فضل محمد ﷺ وتصديهم للدعوة وما غرهم في ديناناتهم وما كانوا يفترون وقول قريش لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وكل الأذى وكل الانكار والاستنكار لم يمنع ذلك كله من ظهور الآية للقرآن ليكون من ذلك عظة للذين يعادون العلم العصري والتقدم الحضاري وما يظهر من آيات الله على يدي المخترعين والمبتكرين والباحثين وما كان لأحد منهم أن يأتي بآية ذلك إلا بإذن الله لتتبين أن الذين يعادون التقدم ويدعون للسلفية إنما يعادون ويحادون الله نفسه وما كان تحدي أهل الكتاب والأديان وقريش لمحمد ﷺ إلا تحدياً لله نفسه ولذلك أظهر الله محمداً ﷺ والقرآن عليهم جميعاً.

٢٥ ـ العلم عند الله في تقدم مستمر وفي تطور دائم وما في العقائد والأديان والتقاليد وكل ما هو موروث يتصادم مع تلك السيرة الربانية التي تخلق الآية والعلم الجديد على يدي رجل من الناس كان ذلك من داخل أهل الأديان أو من خارجهم لكن المشكلة هي تشبث الناس بالقديم وفرحهم به والمسألة عند الله بخلاف ذلك إذ ما من شيء إلا ويتحول ويتطور والدين ما هو إلا علم كأي علم عند الله يظهر فيه الآيات التي يخلقها كل يوم ومحمد ﷺ ما هو إلا أداة علمية وآية ربانية القصد منها رحمة الله للناس مما يعانون من مشاكله في العقائد الدينية التي فسدت في التوراة والإنجيل بالتقادم ولو نظر أهل الكتاب إلى مسألة الأديان نظرة علمية لتبينوا أن محمداً ﷺ على الحق وأن القرآن يصح له الهيمنة على ما سبقه من الكتب لتتبين أن القرآن يفصل فصلاً تاماً بين ما هو ديني وبين ما هو علمي ويجعل الهيمنة في النهاية لما هو علمي خالص.

٢٦ ـ قد كان لله أسماؤه وصفاته في التوراة وعند اليهود وكان مثل ذلك في الإنجيل بحسب التطور وجاءت أسماء الله الحسنى في القرآن لتفتح للناس فتحاً جديداً وإيماناً متطوراً إذ الله لم يعد هو التواب الرحيم فقط ولا هو الغفور الودود فحسب وإنما لما فسدت الحياة الإيمانية والدينية عند أهل الكتاب والأديان أصبح الله شديد العقاب وأيضاً لنتبين مدى هيمنة القرآن العلمية ومدى ما يمكن أن يستفيده العقل المعاصر من ذلك حتى يقول القرآن في نظرة الكافرين إلى الله وقد اعتقدوا أنهم يستطيعون اختلاق الأكاذيب من حوله ﴿**وَهُم يُجَادِلُونَ فِي الله وَهُوَ شَدِيد المحَالِ لَهُ دَعْوَة الحقّ**﴾ ليتبين المغفلون أن المسألة بين الدين والعلم والمسألة بين السلفية والربانية والمسألة بين الكهانة والعدل والمسألة بين الباطل والحق هي قضية يمكن تلفيقها أو اللف والدوران حولها والمكر السيِّىء كما يشرح القرآن لا يحيق إلا بأهله.

٢٧ـ إن قضية المسلمين مع العصر واعتبار المساجد واعتبار العبادات واعتبار العلم هو الفقه الديني وحده أوصلنا كل ذلك إلى الكارثة حتى تبين لنا أن أصحاب هذا الفهم هم الذين يتردون إلى الهاوية ويرتكبون في حق الله والقرآن والإنسانية ما لا يشعرون بنتائجه اللهم إلا إذا وقعت الواقعة وكان الصدام بين الأمة وأعدائها في العصر لتخرج مثقلة بالجراح والهزيمة والهوان.

٢٨ ـ لذلك لم يكن القرآن في صدامه مع أهل الأديان والكتاب ظاهرة دينية وإنما كان ظاهرة علمية بكل جلالها وكمالها ومجيء جدل التاريخ وجدل الأديان وجدل القوميات وجدل الأمم وتاريخ الرسل والأنبياء والجدل المادي والجدل الطبيعي وظهور النظريات والتنظير والتصنيف وغيره هو الذي يبرهن لنا أن القرآن قد أعلى جانب العلم والعلماء وهو الذي أورثهم سلطان الأديان بعد الرسل.

٢٩ ـ احتكار أهل الكتاب والأديان للرسالات والنبوءات وأنهم لم يصدقوا أن يبعث الله أحداً من الأميين لأنه لا بد أن يكون الرسول أو النبي كتابياً هو ما كذّبه القرآن وهو تلك الآية المعجزة التي ألبست محمداً ﷺ ثوب النبوة وثوب الرسالة حتى أنه في سورة «يس» وهو نسق الآيات والسنن يقول لمحمد ﷺ إنك ما دمت تقدم الآيات والسنن فأنت رسول من عند الله وهي بعينها حكمة القرآن وآيته الكبرى التي أظهرت ذلك المنهج الذي اختطه القرآن بعيداً عن أهل الكتاب والأديان إذ ما تكاد تظهر آية من آيات الله حتى تكون تلك الآية نفسها بمثابة النبي وبمثابة الرسول ويدعى صاحبها عالماً حتى لا تكون هيمنة لأمة أو هيمنة لطبقة أو هيمنة لطائفة وإنما الهيمنة للعلم والعلماء.

براهين نسق «غافر» لبيان أن الله «حي مهيمن»:

١ ـ ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]، لنتبين أن ربوبية الأمم للناس والعالم وتسلط اليهود وتسلط النصارى وتسلط المسلمين وتسلط كل طائفة تبغي الطغيان وتسلط كل طبقة تريد الاستكبار وتسلط كل كتاب وكل إيديولوجيا ليس هو الصحيح أو الحق وإنما الحق ما أخرجه الله للناس من كل جديد وما جاء به رب محمد ﷺ من بينات القرآن دلالة لهذا المنهج ولو لم يكن لواء الربوبية لله وحده وهو الذي يرعى الحياة والعالم لما شمل بعين رعايته هذا الأمي ولما أوحى إليه هذا القرآن العجيب.

٣٠ ـ لا تستقيم الربوبية إلا لواهب الحياة والحي القيوم هو الذي يرعاها وهو

(١) سورة غافر: الآيتان ٦٥ ـ ٦٦.

الذي يشمل كل حي بسنة وفطرة وعلم لدني، هو وحده الذي يهب للناس وللكائنات تلك القدرات حتى قال موسى لفرعون وقد اعتقد أنه إله الناس وربهم أن الـرب هو الله وحـده والذي أعـطى كل شيء خلقـه ثم هدى لنتبين معنى الحرية في القرآن ومعنى دعوته إلى الفطرة ومعنى أن يسلم الإنسان وجهه لرب العالمين ولو كان لليهود وأهل الكتاب والأديان تلك الهيمنة وهذا السلطان الذي يدعونه لما أنزل الكتاب والعلم على محمد ﷺ الأمي أو على أي عالم من خارج أهل الأديان ولكن نـزول الكتاب والقـرآن على قلب محمد ﷺ من ربـه لدنيـا يكـذب دعـواهم ويجعـل الربوبية والهيمنة لله رب العالمين.

٣ ـ لو آمنوا بالحرية والقدرات للنـاس على الكافـة لتبينوا أن الأحكـام التي وردت في القرآن هي من عند الله بل هي آية للناس ولكن المشكلة تتمثل في طغيـان أهل الأديـان اعتقـاداً منهم أن علم الكتـاب وعلم الحكمـة والشـرع وغيره هي احتكـار لهم ومثل ذلـك ما نـراه اليوم في الاجتهـاد وقصره على رجل الدين مع أن نفس المشكلة قد كانت بيـد محمد ﷺ والقرآن من جانب وبين رجل الدين متمثلين في أهل الأديان واليهود من جانب آخر والكتابي هو الذي كان له حق الاجتهاد والفتوى ومحمد ﷺ لم يكن كتابياً ولم يكن لـه دراية ولم يكن لـه علم بالأديـان ولا بالكتب السماوية ولكن انتصار الحي المهيمن هو الذي جعل من رب العـالمين حقيقة قرآنية وعلماً لدنيا عظمياً.

٤ ـ لا يؤمن أحد برب العالمين ويسلم له حتى يقول لأحد الناس إنك لا تقدر أن تعرف أو تعلم أو تبتدع وها هو محمد ﷺ برهان ذلك الأمر والحمد لله رب العاليمن لأنه جعل من القرآن آية على هذا الأمر والذين لا يدركون حقوق الإنسان في القرآن قد افتروا على الله الكذب وجاليلو في مواجهة رجال الكنيسة انتصرت له المعرفة المعاصرة حتى اعترفت الكنيسة بعـد

مئات السنين أن رجالها كانوا جهلة وكانوا حمقى وكانوا هم الكافرين ولكن لا يعلمون لنتبين مدى التردي الذي تهوى فيه الأمة ومدى ضياع حقوق الإنسان الذي كرمه رب العالمين.

٥ - يقول القرآن إن هذا الصراع الأزلي بين القديم والجديد وما يخلقه الله من الآية على يدي رسل الله قد كان منذ أول الرسالات على يدي نوح أول المخترعين وأول التكنولوجيين حين اكتشف القدرات الخلاقة من ربه لنتبين معنى انتصار رسل الله ونجاتهم وهلاك الكافرين بهذا المنهج وحرية الإنسان وقدراته ولو كان ذلك المنهج إفكاً أو افتراء لما كان انتصار الرسل سنة جارية ولما كانوا بعين ورعاية رب العالمين فماذا ينكر أهل الكتاب من مستقبل محمد ﷺ والقرآن وحتمية انتصاره؟

٦ - إن القرآن يتنبأ بزوال سلطان أهل الكتاب والأديان لتحل ربوبية رب العالمين محل رجال الأديان وفرض وصايتهم على العلم وعلى المعرفة وهو يوضح في سورة «الأنبياء» سلطانهم في بني إسرائيل واليهود حيث اتخذهم الناس أرباباً من دون الله وأصبحوا للأجيال آلهة يعبدون من دون الوحي المهيمن وتلك العقائد التي تنمو في الرأي العام نتيجة لسلطان رجل الدين حتى إذا جاء الناس العلم على يدي رجل من خارج تلك الفئة رموه بالكذب وحقروا أمره بين الناس وقد قالوا لمحمد ﷺ من قبل إنه مجنون وإنه كذاب مفترٍ وإنه فقير وإنه لا يستحق الالتفات إليه أو سماع ما يقوله ورغم ذلك كله أظهره الله وجعل من دعوته أمة كان يراد لها الحرية والابداع.

٧ - إن التقدم الذي أحرزته البشرية في العصر خارج نطاق الأديان والأمم الدينية وقيام الدولة على مصلحة العقد الاجتماعي كان ثمرة للمنهج القرآني الذي بشر بربوبية رب العالم وأن رسالة محمد ﷺ والقرآن لم تكن رسالة تكنولوجية إلا أنها هي الرسالة التي جمعت أطراف المنهج

والفضل الأعظم لها لأنها ألغت سلطان الآباء وسلطان الأجداد وسلطان التقليدية بل سلطان العادات والأعراف وجعلت من حقوق الإنسان في الحرية والإبداع ما كان محمد ﷺ نفسه شاهداً عليه وما كان القرآن نفسه قائماً على أساسه ومنهجه والذين لا يفهمون فضل محمد ﷺ وآياته وفضل القرآن ومناهجه وتلك الصلة الرهيفة بين العصر وتلك الدعوة لا يمكن أن نعتبرهم مسلمين على الحقيقة مهما حملوا من شهادات الدكتوراه في الإسلام.

٨ - في سورة «البقرة» حطم القرآن سلطان اليهود وكشف عن زيف تاريخ بني إسرائيل وفي سورة «آل عمران» وبسبب وفد نجران حطم القرآن سلطان النصارى وكشف عن التحريف في تاريخ «آل عمران» وفي سورة «لقمان» أرشد إلى التربية الصحيحة وفي سورة «الأنبياء» حطم سلطان الأنبياء وفي سورة «يس» وسورة «الرعد» وسورة «النمل» ونسق «طسم» لفت النظر إلى المنهج الطبيعي وفي سورة «الحديد» جعل مشروعية الثورة محل الكتاب والدعوة السلمية وفي سورة «الأنعام» جعل سلطان العقل فوق سلطان العادات والتقاليد وأوضح أن الخرافات تداهم العقائد وأثبت في سورة «الأعراف» مسئولية الإنسان عن مصيره مسئولية مطلقة لنتبين الجلال القرآني وأن الدعوة إلى ربوبية رب العالمين لا يمثلها أفضل تمثيل إلا القرآن نفسه والقدرات التي انبثقت منه وهو نفسه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان متمثلة في حق محمد ﷺ وما يجب له من الإيمان وتكريمه بل واتخاذه آية كبرى «للحي المهيمن».

٩ - إن الفتح لم يبدأ بمحمد ﷺ حيث سبقه في تلك الفتوحات نوح وإبراهيم وغيره وإنما فتح محمدﷺ وتفرده أنه قضى على غير رجعة على سلطان الأديان الفاسدة وما كان من هذا الشر العظيم الذي تحطمت أمامه محاولات الرسل جميعاً حيث كفر الناس بكل رسالة لنتبين القيمة الفريدة لمحمد

ﷺ والقرآن وما كانت عداوة القرآن لأهل الكتاب والأديان وعداوته للأمم الدينية إلا منطلقاً من هذا الأمر ومن تلك المشكلة التاريخية وكأنه وهو يقول للناس إن تلك آخر الرسالات وآخر النبوات كان يريد أن يقول لهم لقد انقضى عهد الأديان ولم يصبح للناس إلا رب العالمين والقدرات التي بشرت بها بعثة محمد ﷺ وكان نتيجتها القرآن العظيم.

إن الذين يفهمون الإسلام على أنه دين لم يفهموا لماذا كان الصدام بين الإسلام منذ نشأته على يدي نوح وبين كل دين حتى رأيناه يتصادم مع الوثنية ومع الطوطمية ومع الصنمية ومع الصابئية ومع اليهودية ومع النصرانية ليكون لنا من ذلك فهم أنه ليس ديناً بل هو فطرة وربوبية رب العالمين قدرات الإنسان وحقوقه وإمكاناته التي شرحها لنا القرآن في أعمال الرسل منذ أن صنع نوح أول سفينة في العالم ومنذ أوضح إبراهيم للناس أن ربهم هو رب السلام والأمن والأمان والإخاء أيضاً.

١٠ - من كان لا يريد أن يفهم فليذهب إلى الجحيم فلن يضير القرآن ومحمداً ﷺ شيء مهما كان سلطانه لأن الأقمار الصناعية وأبحاث الفضاء وإمكانات العلم والعلماء والمخترعين والباحثين لن تتوقف أبداً لأنها ثمرة المنهج القرآني ولأنها بشارة رب العالمين وإن كان رجال الدين غافلين عن ذلك أخرجنا لهم السيارة وأخرجنا لهم القاطرة وأخرجنا لهم الطائرة وأخرجنا لهم السفينة العابرة وأخرجنا لهم الكمبيوتر وأخرجنا لهم التليفزيون وأخرجنا لهم الفيديو وكلها جميعاً نتاج هذا المنهج الذي كانت أولى ثماره القرآن العليم لنقول مع الآية ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُم فِي الفُلْكِ المَشْحُونَ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾[1]، ما يركب الإنسان اليوم هو امتداد لما بدأه نوح

(١) سورة يس: الآيتان ٤١ - ٤٢.

ونزل به القرآن والمطر والغيث وكل رعاية من رب العالمين لنتبين قيمة الربوبية وقيمة حق الحرية وحق الإبداع وحق العلم وأنه ليس حكراً على حملة الدكتوراه أبداً.

١١ ـ أن نؤمن بالإنسان ورب الإنسان أن نؤمن بالإنسانية ورب العالمين؟ تلك هي المشكلة التي يستعرضها القرآن كله لنتبين أن موضوع الهيمنة موضوع خطير لأن الأديان منذ نوح كانت عقبة كبرى فاض كيلها عندما بعث هذا النبي الأمي الذي لم يكن في وقت من الأوقات كتابياً يأخذ علوم الدين على الكهنة والأحبار والرهبان وإنما كان من الأميين ومن يعتبرونهم جهلة كفاراً مشركين لا ثقافة ولا علم لهم لنتبين معنى هذا الحقد الدفين في صدر القرآن على تلك الأمم الدينية وتلك الهيئات اللاهوتية وتلك العقبات التاريخية التي عاشرت الإنسان آلاف آلاف السنين وما زالت تضع في تلك المؤسسات وتلغي حقوق الإنسان وتتصدى لكل دعوة نحو الحرية ونحو التقدم ونحو العلمانية أيضاً.

١٢ ـ إن ما أثار نسق «غافر» هي مسألة قبول أحكام القرآن ولو أنهم آمنوا بالقدرات وأن القرآن من جنس تلك القدرات لقبلوا الأحكام لكن المسألة مسألة تاريخية والأديان كانت عدواً لكل رسول ولكل تقدم ونوح يقول للذين كفروا أنه لن يطرد الذين آمنوا معه عسى أن يؤتيهم الله خيراً ومثل ذلك قال الذي آمن من آل فرعون ومثل ذلك الذين استنكروا أن يكون هذا العلم القرآني بين يدي رجل أمي لنتبين أن القرآن لما قدم للناس منهج الدين الخالص ومنهج الدين الحق ومنهج الدين القيم ومنهج دين الله وليس دين الناس كان يعني أن هناك مشكلة تاريخية امتدت مع الإنسان آلاف السنين ثم جاء القرآن ليجتزها من جذورها وليجعل من رب العالمين حباً مهيمناً على كل نفس وليكون من ذلك

بشارة للعالمين ولكل منهج يريد أن يكون له حضارة وتاريخاً.

١٣ - من العجيب أن يربط القرآن بين القدرات التي لدى الإنسان وربه وبين بعث الناس من بعد الموت إذ يقول أن الله وهو رب الإنسان قد أمات الناس مرتين وأحياهم مرتين فهل يستكثر في القدرات أن يخترع نوح السفينة أو يبنى إبراهيم أوّل بيت لله أو يتلقى موسى الألواح من ربه أو يكون القرآن من مثل ذلك لو تبين الإنسان أن ذلك كله أقل من إحياء الناس بعد الموت لزمهم الإيمان بأن القدرات الإنسانية وما تنطوي عليه نفسه من الإمكانات يفوق كل وصف ولذلك ما زال أهل الكهانة يندهشون لكل اختراع ولكل إبداع ينجزه الإنسان لأنهم لا يعبدون ربهم وإنما يعبدون ما بين أيديهم من التراث والتراب والكتب الصفراء.

١٤ - يحتج القرآن على الدعوة إلى القديم ولو نظر الإنسان كيف يرزق الله الكائنات رزقاً متجدداً لتبين الكافرون بالجديد أن الحياة ما هي إلا الجدية والتحدي والتوالد المستمر وكل الجديد من النباتات والحيوانات وما يخلق الله من الآية لدى العقل ولدى البصيرة يشهد بذلك وما يكشفه الروح في عالم الإبداع هو وحي من تلك القوة الباطنية في قلب الإنسان وروح القرآن الذي نزل على قلب محمد ﷺ هو من نفس القوة ونفس الناموس وهو رزق رزقه الله به.

١٥ - يشرح القرآن كيف تهلك القوميات والحضارات فيقول إن الله بعث موسى إلى فرعون وهامان وقارون وقد كانوا طغاة عصرهم فاستكبروا وكانت نتيجة ذلك أن أخذهم الله بذنوبهم ومثلهم في هذا الأمر مثل الذين هلكوا من قبل ليتبيّن أهل الكتاب وأهل الأديان أن المتكبرين الذين لا يعتقدون أن الله من الممكن أن يخلق أفضل وأعلم منهم قد أسرفوا في إيمانهم إسرافاً أخرجهم إلى الكفر ولو أنهم آمنوا بقدرات الإنسان ورب

الإنسان لعرفوا أن قصة محمد ﷺ هي نفس قصة موسى إذ نصره الله على طغاة عصره وجعل منه أمة ورثت سلطان الله ولن يفهموا هذا الأمر ما داموا يعتقدون أن الله لن يبعث رسولاً من بعد رسلهم أو أنبيائهم ومثل تلك القولة قالها الناس بعد موت يوسف ورغم ذلك بعث الله موسى من بعده ليتبين الذين يتكبرون أن الله لن يتوقف عن إرسال الرسل وما محمد ﷺ وبعثته إلا شاهد على هذا الأمر ومن يعتقد في القيومية وأن الله هو الحي القيوم فلن يعتقد في قيامة أمة من الأمم على شئون الخلق ولن يهيمن سلطان من الدول أو من الطبقات أو من الطوائف ما دام الله هو الحي المهيمن ليكون لنا من ذلك عقيدة خالصة في الله وقدرات الإنسان وحقوقه الفطرية.

١٦ - أن يدعو محمد ﷺ أن الله ربه هو في حد ذاته كاف إلى التصديق والإيمان به ولكن الناس لا يفهمون قدرات أنفسهم وطاقاتها الخلاقة واليهود وأهل الكتاب قد خبروا تلك المسألة وانتصارات موسى هي التي أقامت سلطان اليهودية في التاريخ ورغم ذلك لا يؤمنون بمعجزة محمد ﷺ لأنهم لا يخلصون لدعوة الله في الأرض وإنما يخلصون لدعوة الشيطان والمادية وطغيان الإنسان على حقوق الإنسان والقرآن يحتج بالوقائع التاريخية وأن أعمال الرسل هي التي صنعت الحضارة ليعرف العالم أن الفطرة وحقوق الإنسان هي التي تنتصر دائماً وقد كان الألمان في النازية يعتقدون في الجنس الآرى وأنه الجنس المختار واليهود شعب الله المختار والايطاليون والفاشية والرجل الأبيض الخارق وكل ذلك هراء لم يصمد للتاريخ إذ بعث الله من شعب الفلاحين والعمال والروس قوة عالمية كبرى دفنت تلك الأكاذيب وتشكيك الأمريكان في إمكان إدارة دولة كبرى وعظمى بواسطة حفنة من الفلاحين والعمال هو ضرب من المستحيلات ورغم ذلك نجحوا نجاحاً

باهراً وأذهلوا من كانوا يعتقدون أنهم هم السادة وحدهم لنتبين فتوحة محمد ﷺ والقرآن وأنه رغم انتسابه للأميين وهبه الله القرآن وعلومه ليكون الجميع على معرفة بالحقوق والواجبات ونواميس الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها.

١٧ - أن يعرف الإنسان نفسه وطاقاته الروحية الخلاقة وأنها هي التي تصنع المعرفة وهي التي تبدع الحضارة وأن الإنسان في ذلك له فطرة عامة ينتظم فيها الأبيض والأسود والأحمر والأصفر ومن هو متدين وغير المتدين ومن هو يهودي ومن هو مسيحي ومن هو مسلم سيترتب على ذلك انتهاء الصراع بين بني الإنسان إلى الأبد وسيلقى الأشرار بالقنابل الذرية إلى البحر لأن السباق سيكون إلى الإبداع نفسه وليس إلى الاستكبار وحيازة القوة والهيمنة التي هي من شأن الله وحده.

ومن كان يتوقع أن ينهض الشعب الألماني والشعب الياباني بعد الهزيمة الساحقة والقنابل الذرية إلا أن يثبت لنا ذلك ما يحدثنا القرآن عنه وهو الذي يشكل التاريخ ويلقي الضوء على هذا المنهج.

١٨ - في توضيح المنهج يقول القرآن إن الله جعل الليل ليكون منه سكنا للناس ثم جعل النهار ليكون منه ضياء وهو الذي خلق كل شيء لخدمة الإنسان فهل ينكر فضل الله على الناس؟ ليتبين أن دعوة محمد ﷺ إلى الإيمان بالفطرة ورب العالمين هي دعوة الحق وما نزل عليه من القرآن إنما كان من نفس المنبع والله جعل من كل آية طبيعية برهاناً على هذا المنهج ودلالة قوية لصدقه والله الذي يدعو إليه القرآن هو الذي جعل الأرض قراراً وجعل السماء بناءاً وصور كل إنسان على صورته وهيئته الفريدة حتى جاء هذا الإعجاز في البصمات التي لا تتشابه أبداً ثم رزق الخلائق كلها ودبر لها أقواتها والبركة التي نراها في ثراء الطبيعة هي من صنع يديه فلم لا يتخذ الإنسان من سنن الطبيعة والفطرة هادياً؟

١٩ ـ لو عرف الإنسان ثراء الطبيعة ونظامها الدقيق حتى أثمرت عوالم الفلك وعوالم الظواهر الجوية والطبوغرافية وعوالم النبات وعوالم الحيوان وعوالم الأنواع الدقيقة من الحشرات والفيروسات والبكتيريا وغيرها لتبين أن رب الإنسان وهو رب العالم الطبيعي بكل مشتملاته لا ينفذ له علم ولا ينفذ له صنعة ولا يعجز أن يقدم مثل القرآن لمحمد ﷺ ولماذا يعجز وقد تبارك اسمه في كل خلق وسبح بحمده كل ناموس وحل جلاله في كل آية.

٢٠ ـ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَة ثُمَّ يُخْرِجكُمْ طفلاً ثُمَّ لِتَبْلغُوا أَشُدَّكُم ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ومِنْكُمْ من يَتَوَفَّى مِنْ قَبلُ وَلِتَبْلغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تعقِلون * هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾(١)، هل هناك شك في هذا الغرض من نمو الإنسان وتقلبه في تلك المراحل حتى يصير متمتعاً بالعقل والفكر والإبداع؟

إن مراحل النمو هي التي تكشف لنا عن غرض الطبيعة وأنها تريد كائناً قد خصه الخالق بالعقل والفكر وكأن القرآن يستشهد بالنمو وظاهرة التعقل في بيان سعي الفطرة وتحصيل العقل وأن ذلك شيء طبيعي فطري لا صنعة فيه إلا من رب العالمين فلماذا يتخذ الناس من سلطة الأحبار والرهبان ورجل الدين وتسلط الآباء والأجداد والهيئات الاجتماعية هادياً ومعلماً ومرشداً وقد متعهم الله بقوة الإدراك العقل؟

لقد أحيا الله وأمات وحدد لكل مرحلة من مراحل النمو غاية ومصيراً ولم يفعل ذلك فقط بل حدد الآجال والأعمار وكتب لكل نفس أجلاً لنتبين أن رعاية الله للإنسان لم تترك شيئاً يحتاجه من خارج فلماذا يحتاج الإنسان إلى معلم

---

(١) سورة غافر: الآيتان ٦٧ ـ ٦٨.

يعلمه والله هو المعلم وإلى من يهديه والله هو الهادي وإلى من يرعاه والله هو رب العالمين؟

٢١ ـ كأن العقل هـو الهدف والقـرآن يحدثنـا عن مراحـل النمو ليكـون من ذلك البرهان الذي لا يـدحض وأن الفطرة لـدى كل إنسـان هي بلوغ مـراتب العقل فكيف ينكـرون عمل الفـطرة مع محمـد ﷺ وهي التي كانت ثمرة لرب محمد ﷺ وقواه وقدراته الفطرية؟

إن الثمرة كما نراها في الطبيعة هي قصد كل خلق وثمرة محمد ﷺ هي القرآن والذين ينكرون تلك القدرة التي يتمتع بها الإنسان لم يقرأوا الطبيعة ولم يقرأوا الفطرة ولم يعرفوا معجزات رب العالم الذي أمات وأحيا والذي خلق الزوجين الذكر والأنثى والذي جعل الشمس ضيـاءً والقمـر نوراً والـذي جعل الليل سكناً والنهار مبصراً لنتبين أن كل ذلك يفوق بكثير ما أودع الله الإنسان من القدرات وخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس والجهلة والحمقى هم الذين يقللون من شأن الطبيعة والفطرة وما يمكن أن يكون من قدرات الإنسان.

٢٢ ـ لمـا كـان العقـل هـدفـاً وغـايـة فـلا غـرابـة أن يصــل هـذا الـطور في الإنسـان إلى كمالاتـه في الأفراد ومحمـد ﷺ ما هـو إلا آيـة من تلك الآيات ولو تبين أهل الكتاب والأديان أن الإنسان مـا خلق إلا من أجل الإبداع العقلي لعرفوا أن محمداً ﷺ يمثل طوراً جديداً بل يبشر وجوده وما قدم من معجزة القرآن أن أجيالاً من الإنسان ستقدم للناس مبدعات لا يتصورها الناس ولذلك يشير القرآن إلى إبداعات خلق الله في الطبيعة حتى أن الله من جلال إبداعه أحيا وأمات وأمـات وأحيا ليعرف الدارسون أن الإنسان لديه من تلك القوة ما يفوق كل وصف وما يقف عنده كل خيال والقرآن ما هو إلا برهان طبيعي لمدى ما يمكن أن تنجزه تلك الفطرة وتلك القوة المودعة في كل نفس بشرية متى ما أدرك صاحبها هـذا الأمر حتى يقـول القرآن عن النفس البشـرية إنهـا عرش

عظيم الشأن كبير الأثر حتى إن الله نفسه اتخذ منها مجلساً له واستواء لملكوته وهذا شيء عظيم لا يدرك مغزاه إلا الذين خبروا من أمر أنفسهم مثل محمد ﷺ طاقاتها الخلاقة المبدعة.

٢٣ - إن رب الإنسان قد خلق الإنسان لأول مرة من تراب لا حياة فيه ولا روح ثم واصل عملية خلقه فخلقه من نطفة ثم مرت تلك المرجلة ثم خلقه من علقة ثم من عظام ثم كسا العظام لحماً ثم أنشأه مرة أخرى خلقاً آخر غير ما كان عليه في عالم الحيوان ثم جاء التطور وظهرت في تلك النشأة النفس والروح والعقل ومراحل النمو من الطفل إلى الشباب إلى الشيخوخة لنتبين أن قوة الخلق والإبداع لا تتوقف ولا تنتهي حتى يقول القرآن إن الله يخلق الإنسان في الحياة الآخرة خلقاً آخر فيما لا يعلمه الإنسان من البيئة الجسمية أو النفسية أو العقلية وإذا كان ذلك هو رب الإنسان فماذا ينكر الجهلة من أمر محمد ﷺ وربه؟ إلا أن يكونوا لم يدركوا تلك القوة الفطرية في نفوسهم وأهل الأديان وأهل الكتاب وكل الثقافات التقليدية وكل العوامل الدكتاتورية تفرض على الإنسان لوناً محدداً من التربية وتعمل ضد الفطرة والطبيعة التي منحها الله لذلك الكائن ليعرف الذين يدعون للسلفية وما يدعى بالأصالة أنها كارثة كبرى تجهل قدرات الإبداع عند الناس وتجعل مما يسمونهم بالأحبار والرهبان والأئمة آلهة تعبد من دون رب العالمين الذي يحدثنا القرآن عنه.

٢٤ - إن المسألة بين محمد ﷺ وأهل الأديان والكتاب بالأمس هي نفس المسألة التي تطحن الأمة اليوم أيضاً والفارق الوحيد أن منهج القرآن وقتذاك لم يكن له من شاهد سوى محمد ﷺ وحده واليوم شاهد هذا المنهج آلاف بل بلايين العلماء والمخترعين وما أمكنهم من إنجازاته التكنولوجية التي تتعدى الحصر ورغم هذا البرهان ورغم تلك

التكنولوجيا لم تؤمن الأمة حتى اليوم لنتبين مدى الخسران المبين وليعرف الذين يقفون أمام عجلة التاريخ والفطرة والقدرات الخلاقة للكائن البشري أنهم ليسوا من عباد الله المخلصين وإنما هم عبدة التخلف وعبدة الطغيان وعبدة التقليد وعبدة السلفية وهي نفس وقفة اليهود والنصارى وأهل الأديان من سيدنا وقائدنا ومبشرنا محمد ﷺ الذي يقرِّر القرآن عنه أنه الرحمة المهداة للناس أجمعين.

٢٥ ـ الله وحده له الدين ولا دين لليهود ولا دين للنصارى ولا دين للأحبار ولا دين للرهبان ولا دين للأئمة ولا دين للآباء ولا دين للأجداد ولا دين لأحد من الناس أو طائفة من الطوائف أو طبقة من الطبقات أو دولة من الدول أو أمة من الأمم لأن الأخلاص يجب أن يكون لله وحده لا شريك له ومن اعتقد أن الهيمنة لغير الحي القيوم فقد كفر لنتبين معنى سلطان الطبيعة ومعنى سلطان الفطرة ومعنى حقوق الإنسان في الحرية والمساواة والأخاء وليتبين المؤمنون أن الإنسان بعين السماء وعين ربه وأنه لا يحتاج لرعاية أحد ولا يحتاج لعلم يتعلمه من الناس أو من الممكن أن يستعين بقوة من خارج نفسه ليكون من ذلك كله هذا الإيمان برب العالم الذي ما زال حياً والذي ما زال مهيمناً والذي يملك مقدرات العلم ومقدرات الخلق ومقدار الإبداع والذي استطاع رغم كل تلك الطواغيت أن يظهر تلك المعجزة القرآنية في شخص هذا العربي الأمي الذي لم يكن يدري ما الكتاب وما الدين وما الشريعة وما القرآن أيضاً.

٢٦ ـ في الاجتهاد يسألك الجهلة وما هي مؤهلاتك وقد سألها اليهود وأهل الكتاب والأحبار والرهبان والأئمة من قبل وجاءتهم الآية القرآنية تخزي كل عين وتبهر كل بصيرة وتذهل كل عقل ولم يكن محمد ﷺ مؤهلاً لأمر من علوم القرآن ولكنه العلم اللدني الذي يحدثنا عن جلال فطرة الإنسان وهي بديل كل معلم وبديل كل مؤهل وبديل كل دكتوراة ابتدعوها في الأديان ومن قبل احتجوا على أراذل الناس واحتجوا على

هذا التفسير وقال فرعون لموسى إنك لا تملك أسورة من ذهب وقالت قريش في محمد ﷺ إنه ليس عظيماً ولا غنياً ولكن فطرة الله لا تتوقف عند تلك الأمور وأوحى الله إلى موسى بالمعارف والعلوم ومثله ما نزل القرآن على قلب محمد ﷺ لتتبين العدالة عند رب العالمين ورب أخرق يعتقد الناس فيه أنه مجنون هو عند رب العالمين أعلم من الحبر الأعظم والراهب الأجل والإمام الأكبر ليكون من محمد ﷺ والقرآن عبرة وقانون موسى وناموس وهداية وعدل السماء بخلاف عدل الناس وتكافؤ الفرص لو أتيحت للأفراد لكان في الأمة أمثال نيوتن وأينشتين وماركس وداروين وجليل العلماء أيضاً.

٢٧ ـ إن كان الفضل للديانات فقد انهارت الأديان أمام رسالات السماء منذ رسالة نوح وإن كان الفضل للطائفية فقد انهارت التفرقة العنصرية منذ رسالة موسى وإن كان الفضل للتقليدية فقد انهارت السلفية منذ إبراهيم وإن كان الفضل للوثنية أو الصنمية فقد تحطمت الأوثان والأصنام وسقطت الرجعية لنتبين أن البقاء الحق هو بفضل الله وآياته وهي كما نراها في الطبيعة بركة ونعمة وكما نراها في المبدعين والعلماء رايات وأعلام ليتبين الذين ينادون بالسلفية وهيمنة المؤسسات الدينية أنهم يحادون الله وقد كتب الله ليغلبن هو ورسله ويكفي الأمة أنها بخسران منهج التقليدية والسلف التالف في الدرك الأسفل من التخلف والإنحطاط وليكون من هذا الأمر ذكرى للعالمين وليس للأمة وحدها.

٢٨ ـ انظر إلى جلائل النعم كما هي في الطبيعة وستعرف بركة المنهج وستتبين أن رب الإنسان الذي أبدع كل ذلك لا يتخلف أن يبدع نعمة القرآن ووحيه أيضاً ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ الله

تُنْكِـرُونَ﴾(١)، أي والله ماذا ينكـر الناس من شـأن الله في محمد ﷺ والقرآن وقد تبين للناس أن الفطرة هي التي أبدعت الوجـود وأن فضل الله لا ينكر في الطبيعة أبداً ولا ينكر في القرآن أيضاً.

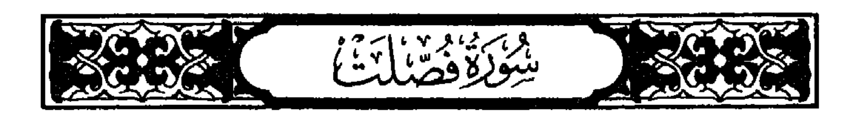
إن القـرآن نعمة من نعم الله والـذين يتعجبون من أمـر محمـد ﷺ ولا يصدقون به هم أولئك الذين يحرمـون الناس من إبداعاته في النفس البشريـة وكمـا أبدع الله تلك النعم الـطبيعية فـإنه يبـدع في نفس الإنسـان تلك النعم النفسية والروحية وخلقة الآية هي فطرة مودعة في كل خلق ولو لم تكن فـطرة الحيوان تقبل الاستئناس لما أمكن استخدامه ليكون من ذلك كله إيمان بتلك القدرة المودعة في باطن كل خلق وهي بكل السرور وبكل الفرح وبكل البركة مسخرة لخدمة الإنسان أيضاً.

٢٩ ـ مـاذا ينكر الإنسـان من قوة ربـه؟ ليكن كل سلطان الأرض في جـانب وسلطان الله في جانب آخر فسينتصـر سلطان الله ومهما كـان للكهانـة ولـرجـال الـدين من قـوة البـطش بـالنـاس ومحـاكم التفتيش وهيمنـة المؤسسات الدينية فستكون الدائرة عليهم في كل أمة وفي كل دولة وقد أخـزى الله الكنيسة ومـا شـابهها بعـد آلاف السنين وانتصـار الفـطرة الإنسانية وتعاظم شأن العلم والعلماء وهو نتاج لمنهج الحرية القـرآنية قد خلع على هذا المنهج الذي يقدمه لنا الوحي التقـديـس والإجلال والاحترام رغم أنف السفهاء والحمقى.

(١) سورة غافر: الآيات ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١.

الفصل الثاني

نسق «حم» «حي - مهيمن»



المحمولات والقضايا:

١ - كان كتاب «غافر» قد نزل لبيان أن الله عزيز عليم حيث جعل الحكم والهيمنة للقرآن وفنَّد مزاعم أهل الكتاب والأديان ولكن كتاب «فصلت» إنما نزل لبيان أن الله هو الرحمن الرحيم.

٢ - نزلت التوراة وهي أول كتاب سماوي بالعبرية وهي لغة بني إسرائيل ولذلك احتكر اليهود علوم الديانة وثقافة اللاهوت ولم يكن من الممكن أن يتناول العرب وغيرهم من الأميين تلك الثقافة علاوة على إخفاء اليهود لما نزل في التوراة من القيم والمبادئ العليا ومثل هذا الاحتكار ندد به القرآن حيث اعتبر إخفاء علوم التوراة عن الناس وتحريف اليهود لها من أكبر الجرائم ولذلك جاء القرآن بكثير مما كانوا يخفونه ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرَ﴾[1]، ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونهَا وَتُخفُونَ كَثيراً﴾[2] ﴿إِنَّ الَّذِينَ

---

(١) سورة المائدة: الآية ١٥.   (٢) سورة الأنعام: الآية ٩١.

يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِن البَيِّنَاتِ وَالهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلْنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنَهُمْ اللهُ﴾[1]، ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس﴾[2]ـ لذلك كان أهل الكتاب والأديان من الأحبار والرهبان والذين يتكسبون من تلك العلوم يكتمونها عن الناس ويجعلونها في قراطيس للبيع والشراء وهي لا تحتوي إلا على الافتراءات والأكاذيب.

٣ ـ هذا الاحتكار وتلك السلطة وهذا الطغيان ومشاكل اختلافات أهل الأديان من يهود ونصارى في تفسير النصوص قد جعل القرآن يناقش تلك المسائل فيوضح المبادئ ويكشف النصوص ويفصل الآيات في نسق «فصلت» ضمن هذا التنزيل الذي جاء من الرحمن الرحيم كما جاء نسق «غافر» من العزيز العليم.

٤ ـ إن كانت العبرية لغة التوراة والسريانية لغة الإنجيل ومشاكل الترجمة ومشاكل رجال الدين ومشاكل جهل الأميين من العرب وغيرهم ومكر اليهود والنصارى والصراع القومي فإن القرآن قد تلاقى في ذلك كله فنزل الكتاب السماوي باللغة العربية واللسان القومي للعرب بل زاد على ذلك البيان والتفصيل ليعرف كل الناس ما نزل من ربهم بغرض هدايتهم رغم أنف اليهود والنصارى ورجال الدين وهو الأمر الذي عقد لواء الهيمنة للقرآن ومحمد ﷺ وما كشف من ذلك عن خداع رجال الدين واستغلالهم للناس وتسلطهم على أمر أقدار الأمم.

٥ ـ اليهود أمة مغلقة والنصارى وأصحاب الأديان وليس هناك ترجمات صحيحة للتوراة ولا الإنجيل وما يتداوله الناس منهما ليس هو الأصول وإنما هي الأساطير والخرافات وما عند عامة اليهود ما هو إلا الأماني والأحلام والعنصرية وشعب الله المختار وما سألوه في سورة «الكهف» من الأساطير والقصص الخرافي دليل هذا الأمر والمشكلة أن العرب

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٧.

وقوميتهم وثقافتهم الشعرية لم تكن هي الثقافة المسيطرة ولا القومية الغالبة بل كانوا أميين أصحاب الحد الأدنى من تلك الإمكانات وهو ما جعل القرآن يقتحم علوم الكتاب السماوي باللسان العربي مبيناً ومفصلاً لما أخفاه اليهود والنصارى وأصحاب القومية والثقافة الظاهرة.

٦ - في مواجهة المشكلات يتنزل القرآن ويقول الوحي إن هذا التنزيل من العزيز الرحيم أو من العزيز العليم أو من الرحمن الرحيم ويقول أيضاً إن هذا الكتاب من أجل الهدى أو من أجل العلم أو من أجل التفصيل لنتبين معنى أسماء الله الحسنى ومن أجل ذلك نزل نسق «فصلت» من الرحمن الرحيم ليكون بين يدي العرب والأميين علم الكتاب السماوي وهدايته وحكمته أيضاً.

٧ - لكن القرآن وهو يقدم علم الكتاب السماوي للعرب يكشف لهم عن جوهر كل الكتب السماوية فيقول لهم إن الموضوع الرئيسي لكل رسالة سماوية هو التوحيد وأنه ما من إله إلا الله ولذلك فالذين يخرجون الزكاة من أموالهم هم أولئك الذين آمنوا بتلك العقيدة التي تقيم العدل الاجتماعي بين الأغنياء والفقراء وتحقق مبدأ التوحيد والألوهية.

٨ - ليست الزكاة التي يدعو إليها القرآن في نص الكتب السماوية من التوراة والإنجيل والقرآن هي ما تعارف عليه المسلمون من النسبة المئوية في الأموال والخراج وإنما هي شيء أكبر من ذلك بكثير فهي تعني العدل بشتى صوره وطرائقه والسلام بكافة قوانينه والمساواة بكل مشتملاتها لأنها جامعة لمعنى التوحيد والألوهية.

٩ - إن التطور في الدعوة والتفات القرآن إلى قيمة العدالة الاجتماعية والزكاة ومعادلتها بالإيمان والحساب والبعث ليوضح لنا نظرة القرآن إلى المجتمع الطبقي الذي كان عند قريش والعرب وهو كما نعلم كان يستمد

ثرواته من التجارة وهي أيسر أنواع النشاط الرأسمالي لأنها تجعل الفجوة بين الأغنياء والفقراء واسعة جداً وهي مثل ما نراه اليوم بين البليونيرات اليوم وعامة الشعب الذين لا يملكون قوت يومهم لنتبين اهتمام القرآن بالزكاة والعدالة الاجتماعية ودعوة الأغنياء للإنفاق وإخراج الزكاة.

١٠ - يقول القرآن إن فرض الزكاة على المؤمنين بالتوحيد والحياة الآخرة هو عمل الرسل والرسالات ولولا اختلاف بني إسرائيل في التوراة وما نزل على موسى لكانت الزكاة من عناصر دعوة موسى أيضاً لأن الرسالات السماوية ما نزلت إلا ليكون الله وحده هو الإله المعبود من دون كل الطغاة ومن دون كل الأقوياء وهو وحده العزيز في كل زمن وكل أمة وأقوى الأقوياء وهم عاد وثمود أخذهم الله رغم قوتهم لنتبين أن فرض الزكاة عمل من أعمال التوحيد وركن من أركان الألوهية ومن يقرأ التاريخ للحضارة كلها يتبين هلاك القوميات التي سعت لاحتكار القوة فلماذا لا يدرك الكافرون من قريش والذين أتخموا بثروات التجارة ذلك الأمر.

١١ - إن النظام الطبقي الذي تمارسه قريش يقودهم جميعاً إلى الهلاك والقرآن يدرك أن هذا النظام إنما يقوم على احتكار القوة وذلك ما أهلك كل الحضارات من قبل لنتبين أن القرآن في نظرته للتاريخ يكشف لنا عن الأسباب المادية وصراع الطبقات وصراع الطوائف ويحيل ذلك كله إلى الفهم الخاطىء للعقائد ولذلك كانت قريش تعتقد في الله ويقولون في عبادتهم للأصنام **«ما نعبدهم إلا ليقرّبونا من الله زلفى»** - **«ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله»** - ورغم ذلك يلحدون إلى الله ما ليس فيه وبعملهم وبطبيعتهم وبطائفيتهم يفسدون العقيدة ويجعلون من سلطانهم وطغيانهم آلهة من دون الله ولو أنهم قرأوا الكتب السماوية لعرفوا أن ذلك شرك وكفر وإلحاد.

١٢ ـ إن حروب الرِّدة بسبب الزكاة هي التي تكشف لنا عن الغاية التي فرضت الزكاة من أجلها بل هي التي تكشف لنا عن القيمة الكبرى لما فرضه القرآن إذ لأول مرة في التاريخ كله تقوم الدولة الاشتراكية ولو أنها كانت بداية بدائية متواضعة ولو نظرنا إلى ما كانت عليه الأمم وقتذاك لوجدنا أن الطائفية والعنصرية هي المبدأ الأول لكل أمة وما يحدث نتيجة ذلك من ضياع حقوق الإنسان وما أمكن القرآن أن يحققه عن طريق فرض الزكاة وبناء الأمة على العدالة الاجتماعية وظهور مبدأ الحق الشخصي بعد أن كانت حقوق الناس تحتويها الأشكال الاجتماعية الكبيرة مثل القبيلة أو القومية أو الأمة مما بشر بحقوق الفرد في مواجهة الجماعة واعتبار الدين ضامناً لتلك الحقوق حتى وجدنا آيات الزكاة والصلاة في القرآن تتلازمان وهو نفس المفهوم الذي فهمه أبو بكر الصديق حتى قال «لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة» وهو ما جعل للدين منذ نزول القرآن تلك الوظيفة الاجتماعية التي لم تكن موجودة من قبل.

١٣ ـ عندما يجعل القرآن نسق «فصلت» موضوعاً لفريضة الزكاة وحدها دون سائر القضايا التي شملتها الدعوى فإنه يضع أيدينا على مكمن الداء في المجتمعات التي سبقت نزول القرآن إذ كانت تلك المجتمعات تعاني من الآفات الاجتماعية المتنوعة والتي كانت تجعل من بعض الطوائف أو من بعض القوميات أو الأمم بشرية من الدرجة الأولى والبعض الآخر بشرية من الدرجة الثانية مما أدخل تلك الحالات في الألوهية والهيمنة وما وجد القرآن حلا للمجتمع الطبقي عند العرب إلا في فرض تلك الضريبة لأول مرة لنتبيّن خصوصية الزكاة ومعناها الديني عند القرآن وأنها ذات شأن عظيم وأثر كبير أيضاً.

البراهين التي استخدمها نسق «فصلت» لبيان أن الله «حي ـ مهيمن»:

١ ـ جعل القرآن من فرض الزكاة مساوياً للإيمان بالله والحياة الآخرة بل تعدى هذا الحد فأدخلها في الهيمنة والألوهية ليتبين الأغنياء أنهم وجه لوجه أمام سلطان الخالق وسيواجهون ما واجه المشركين من قبل ولذلك اعتبر القرآن أن الزكاة عماد الدين في مثل حالة طبقية قريش وطغيانها ولو أنهم أخرجوا الزكاة وهي حق الفقراء لأقاموا ركناً من أركان الرسالات السماوية.

٢ ـ يقول القرآن إن عشق الأغنياء لاكتناز الأموال إنما كان بسبب خوفهم من العيلة والله قد كفل الرزق لكل حي وما من دابة في الأرض أو في السماء إلا وعلى الله وحده رزقها بل ويعلم مستقرها ومستودعها فماذا يخشى الإنسان؟

إن الله عندما خلق الأرض فإنه استغرق في هذا الخلق مدة يومين وهي مدة طويلة جداً ومثل ذلك استغرق مدة أربعة أيام لتدابير أقوات الخلائق ونحن اليوم نعرف أن كل حلقة من حلقات تطور الكائنات استوجبت أن تكون الحلقة الأدنى غذاء أو معاشاً لما فوقها ولذلك فالنبات غذاء للحيوان والحيوان غذاء للإنسان والمراعي غذاء للحيوان الرعوي والحيوان الرعوي غذاء للحيوان آكل اللحوم وهكذا لم يترك الله كائناً إلا ودبر له الغذاء وضمن استمراره حياً لنتبين فساد اعتقادات محتكري أرزاق الناس من الطبقيين والأغنياء وأن نظام رأس المال إنما يتعارض مع الإيمان برب العالمين.

٣ ـ إن الأغنياء والطبقيين والمترفين والكافرين والمشككين والعنصريين وأصحاب الطائفية وكل سلطان أريد به سلب الناس حقوقهم المادية أو المعنوية إنما هم أنداد لرب العالمين ولو نظروا في العالم الطبيعي الذي قدره الله لتبينوا أنه عالم الكمال والجمال والعدل الإلهي وخلقة الأرض

وما عليها من الكائنات وخلقة السماء وما فيها من الموجودات لم يتم ذلك إلا من خلال التقدير الدقيق حتى رأينا السماء فوق رءوسنا وقد زينت بالكواكب والمصابيح والألوان وكل ما يخلب بجماله عقل الإنسان ودهشته وما كشفت البحوث الحديثة من أعمال حفظ الحياة على الأرض من أخطار الإشعاعات الشمسية وغيرها وطبقة الأزون ليتبين أن تلك الخلقة قد جاءت من الأحكام والاقتدار وفي ذلك كله دعوة لثقة الإنسان في ربه وأنه لا يصح من المؤمن أن يركن إلى جاه المال أو جاه السلطان أو جاه الطبقية أو العنصرية أو الطائفية وإنما يركن إلى الله سبحانه وتعالى وهو وحده رب العالمين الذي يدعونا إليه القرآن وهو الذي يعلم أن إخراج الزكاة قد تكون مانعة من عقابه للذين لم يحسنوا به الظن واعتقدوا في الملكية وما تجلبه لهم من رؤوس الأموال.

٤ - كل شيء في الأرض وفي السماء وفي البر وفي البحر خضع للتقدير والله يعلم احتياجات الموجودات قبل خلقها ولذلك جاء الإنسان إلى الوجود في الحلقة الأخيرة من التطور لنتبين أن مسألة الخلق لم تتم عشوائية بل تمت بتقدير وحساب مسبق وما كشف العلم من تلك التقديرات وهذا الحساب الذي يحدثنا عنه القرآن يذهل العقل ولذلك فالله قد ضمن لكل كائن رزقه وما من دابة أو طائر أو حيوان أو إنسان لا يحمل طعامه ورزقه إلا والله يرزقه ويكفيه مؤونة الجوع والعطش وما هلك كائن في الطبيعة إلا لحكمة قدرها الله وحده وكما خلق الله أسباب الموت وقد تخفى حكمتها على الإنسان فإنه قد خلق أسباب الحياة أيضاً لنتبين دعوة القرآن وهي دعوة الثقة في رب العالم ومغالاة الإنسان في عشقه وهيامه بالملكية الخاصة والمال والبنين والذهب والفضة وفرضه للطغيان هي مفاسد الاعتقادات والله بريء من كل تلك الأمور لأنه قد خلق كل شيء وقدر كل شيء وهو وحده المسيطر على العالم وشئونه

كما تبدو لنا في التوازن الطبيعي والتوازن الفلكي والتوازن الطبوغرافي والتوازن الجوي وكل آية كشفت عن جلال هذا العالم الذي خلقه الله بيديه.

٥ - لقد بارك الله في الأرض ونظامها وليس هناك بركة في نظام يفتعله الإنسان إذ النظام الحق هو ما كان نظاماً طبيعياً وليس هناك كائن في الطبيعة يحتكر أرزاق المخلوقات الأخرى بل إن الله جعل من كل كائن صائداً وفريسة وفي نفس الوقت ليحقق هذا التوازن يكشفه القرآن حتى لا يطغى نوع أو جنس على باقي الأنواع ومثل ذلك ما يجب أن يكون بين الإنسان والإنسان إذ هو مطعم وطاعم في نفس الوقت وهذا العطاء والزكاة وما يدعو إليه القرآن من العدالة الاجتماعية إنما هو إصلاح لما أفسده الكافرون برب العالم والذين لا يثقون في نظام الطبيعة والفطرة ولو أن الأموال والكنوز كانت حامية للإنسان ما هلك أصحاب رؤوس الأموال وما هلك قارون ولكن الله يبين للناس أن الثقة الحقة والإيمان الصادق هو ما كان لرب العالمين وهو وحده قادر على رزق كل حي وهو الضامن لحياة الكائنات كلها هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم وهو الذي له ما في السموات والأرض من السنن والنواميس وما جرى عليه التقدير والحسبان والاحتكام أيضاً.

٦ - ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأرضَ كِفَاتاً * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً﴾[1]، لذلك فالتوازن طبيعة سائدة ونمو طبقة الأغنياء في المجتمعات يوشك أن يخل بهذا التوازن ولذلك رأينا المجتمعات الرأسمالية اللعينة تطحنها الحروب والثورات وما الحربان العالميتان إلا نتاج للرأسمالية وهيام الإنسان بالملكية والغنى والجشع والطغيان.

(١) سورة المرسلات: الآيات ٢٥ - ٢٦ - ٢٧.

٧ ـ عندما يتقدم العلم ويتحول الطعام الطبيعي إلى المتاحف ويستطيع الإنسان أن يصنع اللحوم في المعامل من البكتيريا وغيرها ويصنع الخضروات من المصانع البيولوجية عندئذ سيدرك الإنسان أن النظام الطبيعي كاف وأنه هو دعوة القرآن والإيمان والمشكلة إنما هي في جهل وحماقة الإنسان، وتقدم العلوم سيوضح للناس أنه تضمن الحل لكل مشكلة وأن رب العالم قد أودعه كل مطالب الحياة وازدهارها واستمرارها والقرآن يتنبأ بأن الإنسان سيتحكم في مقدورات الأرض وفي كل يوم يفتح العلم إمكانات وطاقات لم يكن الناس يتصورونها.

٨ ـ العودة إلى الفطرة هي دعوة القرآن ورب العالم قد ضمن كمال وجمال هذا العالم ومنهج الإنسان لا يمكن أن يكون نداً لمنهج الله وهو رب العالمين ولكن المشكلة كلها في عديمي الإيمان وقليلي الثقة في الله وأصحاب النفوس الضعيفة الذين يعبدون الدنيا والدرهم والوعي الطبقي إنما هو الطغيان والسلطان الزائف ورغم هلاك الأقوياء وهلاك الطغاة وهلاك المترفين وهلاك الأغنياء وقارون وكل المآسي منذ عرف الإنسان الملكية ذهبت معه كل الجهود ولم تفلح حتى الآن لنتبين لماذا رفضت قريش تصديق القرآن والأخذ بنظام الزكاة.

٩ ـ بحجة الحرية ملك الإنسان مع الله وأصبح نداً له وبحجة الإبداع والحافز احتكر أحد الناس ما يمكن أن يكون حقاً للآلاف من البشر وبحجة العمل والقيمة اخترع الإنسان البنكنوت حتى رأينا الدولار وهو لا يتعدى قيمة ورقة قذرة يحمل قيمة المجتمع الامريكي بأسره ليباشر المسرفون عن هذا الطريق الشيطاني السلطان والقوة التي كانت لله وعلى الدولار تجد الكذبة الكبرى مكتوبة بدماء الأبرياء من البشر في كل بلد «نحن نؤمن بالله» حتى ليتبيّن الإنسان من ذلك أن التزييف أصبح هو الشيء الطبيعي وما عمله الله في العالم هو الغريب عن كل عقل.

١٠ ـ عندما يضرب القرآن المثل بهلاك عاد وثمود فإنه يقدم أعظم تجربة هلاك أجل القوة إذ كانت عاد تتحصن في بيوت منحوتة في الصخور والمغارات ورغم ذلك أهلكهم الله وأوضح صالح لثمود أن المنهج الطبيعي هو الثراء الحق وهو الذي يجب أن يحوز منهم الثقة وضرب لهم المثل بالناقة التي ترعى في أرض الله لنتبين أن كل مصطنع مصيره الفشل والهلاك ولو كان في الطبيعة أغنياء وفقراء لكان النظام الرأسمالي صدقاً وعدلاً ولكننا لا نرى في الطبيعة تلك المناهج اللعينة التي اصطنع الإنسان حتى يقول «لا يتسع قلب رجل مؤمن لوجود المال ووجود الله في وقت واحد» وكل الرسل وكل الأنبياء لعنوا سطوة المال ولعنوا الافتتان بالبنين وكل سلطان ورغم ذلك تخرج الفتاوى بأن الملكية الخاصة هي عصب العقيدة عند المسلمين.

١١ ـ في القرآن المكي تتجلى عقيدة الفطرة ورب العالمين وحقوق الإنسان والدين الحق والدين الخالص والدين القيم ثم يجيء القرآن المدني ونستوضح من خلاله اليأس من الناس وأن أكثرهم لا يؤمنون وأن أكثرهم لا يصدقون ثم ينزل الميراث والاعتراف بالملكية لأنها هي دين العامة والحمقى والجهلة وهي الجيفة التي لم يكن للقرآن أن ينتزعها من بين مخالب الضياع رغم ريحتها الكريهة والتي تزكم أنوف القارىء لسورة «الزخرف» وسورة «الأنفال» وسورة «النساء» وكل سورة وردت فيها لعنة المال ولعنة البنين ولعنة الطبقيين والعنصريين أيضاً.

١٢ ـ من يجحد آيات الله المنبثقة في السنن والنواميس والآيات وما خلق الله في الطبيعة لكل من يريد الهداية وما بين أيدي الرسل والأنبياء والتجربة الحضارية والعلوم المعاصرة وغيرها وغيرها فلن ينفعه القرآن ولن تنفعه الذكرى حتى يقول الوحي في القرآن إنه مشرق بالبصيرة ورغم ذلك فهو عمى عليهم لنتبين لماذا فضح القرآن موقف المسلمين من الإيمان

في سورة «الأنفال» وغيرها ليكون من ذلك شهادة القرآن على الناس وسورة «فصلت» بعدها سورة عرضها القرآن ليتبين الناس أن الزكاة هي أبسط ما يمكن أن يكون للفقراء من حقوق ورغم ذلك يرفضونها ويكفرون بالله وآياته.

١٣ - يقرّر القرآن أن مشكلة قريش ورفضها للعدالة الاجتماعية وعدم إخراج الزكاة هي مشكلة الأمم السابقة إذ اعتقدت كل أمة أن ما بين أيديهم من المنهج هو الحق والحقيقة بخلاف ذلك إذ التطور يكشف عن مناهج جديدة والقرآن كمنهج جديد يضع العلاقة الاجتماعية في صورة جديدة بين الأغنياء والفقراء ولذلك يقول القرآن إن مشكلة الوعي والإنس والجن عند الإنسان هي التي يجب أن يوليها الناس قدراً كافياً من الاهتمام وضلال الوعي الإنساني في الأمم السابقة أنهم رضوا بما كان بين أيديهم ولم يبحثوا في طرائق أفضل لتحقيق العدل بين الناس وهو ما يحذر القرآن منه ويبين أن رفض قريش إنما هو من عدم هذا الوعي أيضاً.

١٤ - يقرّر القرآن الآيات ويقول إن الله قدر أقوات كل الكائنات في الأرض وفي السماء وفي البر وفي البحر فعل مثل ذلك ليبين لنا الطريق إلى هذا الوعي القرآني وأن فرض الزكاة كان بوعي خارق للمسألة الاجتماعية التي أهلكت الأمم قبل وجود قريش والطبقيون منهم في وعي والقرآن في وعي آخر وهم يمجدون بآيات ويرضون بالنظام الطبقي لديهم ولا يدركون أن ذلك سيهلكهم كما أهلك الأمم من قبلهم والضلال كما يبينه القرآن لا يقع على الجدود والآباء وإنما تقع مسؤوليته عليهم وحدهم لأنهم لم يحسنوا قراءة الآيات مثلما أحسن محمد ﷺ والقرآن وفي ذلك لنتبين أن التطور والوعي بالقضية وقراءة التاريخ الطبقي يؤديان إلى فساد منهج الرأسمالية وما يعتقد فيه الرجعيون والمتخلفون أيضاً.

١٥ ـ هذا التفضيل في نسق «فصلت» هو الذي يكشف لنا أيديولوجية القرآن ولو أنه فرض الزكاة ولا يعيب القرآن أن يقبل من الناس الحد الأدنى من الإيمان لأن أكثرهم لا يعقلون ولا يدركون ولا وعي لديهم بالقضايا ولا علم لهم بالتاريخ وهو قد قبل الأعراب في زمرة المسلمين ولم يقبلهم في زمرة المؤمنين «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم» لنتبين مجاراة الواقع وهو في مواقف كثيرة يكفر المتخلفين ثم يعفو عنهم في نهاية الأمر وهو ما يجعلنا نعتقد في ديناميكية القرآن وتطوره مع الأحداث أيضاً.

١٦ ـ يحتج المنهج الفردي والحر أن الإنسان لا يمكن أن يعمل دون حافز وقد أوضح القرآن رأيه في هذا الحافز المادي إذ جعله حافز الشيطان والكفر بالله ولو أن الإنسان آمن بربه وقدراته لكان الحافز لله وحده لا يبغى غير وجه ربه «**إلا ابتغاء وجه ربه**» ولقد رأينا في الملكية الخاصة أن الكافر لا يعمل إلا من خلال العائد المادي وهو وحده الذي يدفعه إلى العمل لنتبين أن سورة «الكهف» أوضحت أن الباقيات الصالحات عند رب الإنسان ليست في المال ولا في البنين ولا في السلطان ولا في القوة وإنما هي في القيم الروحية ولذلك وجدنا من كان له جنتان ويكفر ومن لم يكن له منهما شيء ولا أولاد ولا سلطان يؤمن ليوضح القرآن تلك المهالك التي يقولون إنها حافز وإنها دافع ولا يدركون أنها العبور إلى النار والعقاب ودمار الأمم.

١٧ ـ إن اعتقاد المسلمين في كفاية الزكاة والمواريث وإقرار التملك الخاص على ذلك نهاية التطور قد كان كارثة كبرى إذ جعل الأمة في عداء مع الله والتطور الخلاق وفرح المسلمون بما لديهم فرح من كان قبلهم من الأمم وقد أرجع القرآن المسألة إلى الوعي وهو بطبيعته متطور ولذلك يقول الكافرون الذين هلكوا من الإنس والجن إن المشكلة كما

تبينوها بعد ذلك هي ثقتهم بما كان لديهم من المعرفة والعلم الموروث عن الآباء والأجداد والتقليد الأعمى وهذا هو الجحود بآيات الله في كل عصر وبكل هداية وما جاء به موسى وما جاء به عيسى وما جاء به محمد ﷺ وهو مختلف كل الاختلاف والحلول على أيدي العلماء وتختلف أيضاً لنتبين ماذا يعني القرآن من مسألة الوعي ومسألة الإنس ومسألة الجن والذين يقبلون بالتطور هم أولئك الذين يحرزون من الوعي العلم والهداية.

١٨ - يقرّر القرآن أن من آيات الله الكبرى وجود الشمس ووجود القمر وظاهرة الليل وظاهرة النهار وهي تلبي حاجة كل الناس وكل المخلوقات على السواء ولو كان للإنسان أن يسجد لشيء قد تحقق فضله فإن رب الشمس ورب القمر أولى بعبادة الإنسان ولا يصح أن يعبد الناس من بيدهم المال أو السلطان لأنها عبرة من الله وهو يستردها من الطغاة والكافرين برسالته ويسلط عليهم الثورات والحديد والنار ولم يسلم منهم أحد حتى قارون نفسه.

١٩ - إن المعبود على الحقيقة هو خالق هذا الكون والعالم وما فيه من الخير والبركة وليس للإنسان فضل في ذلك إذ هو مخلوق مثله كمثل أي حشرة أخرى فلماذا يكون للأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال فضل على من دونهم من الناس ليس هناك نعمة أكبر من نعمة النهار وليس هناك آية أكبر من آية الليل ورغم ذلك لا يعبد الناس الشمس ولا القمر لأننا نعلم أن تلك الآيات هي من خلق رب العالمين سخرها للناس وجعلها في معاشهم ومعادهم وما بأحد من نعمة تجزى أو تشكر إلا ويرد أصلها ومصيرها إلى الله أيضاً فأين فضل الأغنياء ومن أين حصلوا على ثرواتهم؟

٢٠ ـ آية أخرى توضح لنا قصد القرآن إذ تقول إن الله هو المصدر الأول لما بين أيدي الناس من الحياة ووسائلها والنعم التي يمتلكها الأغنياء ويحتكرونها ولو لم تجد الأرض بالحياة عند نزول الأمطار لما كان هناك ما يمكن أن يكون ملكية لهؤلاء إذ مرد كل ملكية إلى الله وحده وهو الذي أخرج كل النعم وكل عناصر الملكية فكيف يملك الإنسان مع من له وحده الملك؟ لذلك يكشف القرآن إلحاد الناس في آيات الله فيجعلون للأغنياء فيهم سلطان المال أو سلطان العشيرة أو سلطان القوة وكلها لله وحده ولو كانت قريش تعلم ذلك علم المؤمنين لقبلت بالزكاة ولعرفت أن ما بين أيديها من الأموال إنما مرده ومرجعه إلى الله وحده لا شريك له.

٢١ ـ في نسق «غافر» كانت المشكلة مسألة المعرفة وأوضح القرآن أن المعرفة عند الله لا تقتصر على ما لدى أهل الكتاب والأديان وإنما هي التطور العلمي وقراءة الآيات والسنن والنواميس والطبيعة، والقرآن يتخذ من ذلك منهجه ثم قدم نسق «فصلت» موضوع الرسالات السماوية والكتب التي نزلت مثل التوراة والإنجيل وحصرها في العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان وطالب قريشاً بالزكاة بناء على تلك المعرفة التي نقلها إلى العربية عن طريق القرآن لنتبين معنى الهيمنة ومعنى أن الله هو الحي المهيمن وأن التطور في القرآن قدم للناس ما كانوا يجهلونه من تلك العلوم.

٢٢ ـ ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُسُلِ مِن قَبْلِكَ إنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِياً لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِلَّتْ آياتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقرٌ وَهُوَ عَلَيْهِم عَمىً أُوْلَئِكَ يُنَادَونَ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لَقُضِيَ

﴿بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْه مُرِيبٍ﴾[1]، ولذلك كله أوضح القرآن جوهر الرسالات السماوية ونادى بالعدل والرجوع إلى الفطرة وإخراج الحد الأدنى من الزكاة وقريش لا تعرف جوهر الدين ولا هدى الكتاب السماوي ولا موضع رسالة موسى التي زيفها اليهود واختلفت فيها طوائفهم.

٢٣ ـ لكن القرآن في نهاية نسق «فصلت» يوضح العلة التي كانت سبباً لكفر قريش وطغيانها ورفضها إخراج الزكاة فيبين أن طبيعة الإنسان هي هيامه بالماديات ولذلك فهو يحب الخير لنفسه حباً شديداً وإذا مسه الشر كان يؤوساً قنوطاً وهذا ما يفسر لنا غلبة النفس الأمارة بالسوء على سائر الناس والأمم ولذلك يقول القرآن إن الإنسان لم يخلق للماديات وإنما خلق من أجل الروحانيات وبعثه عند ربه في الآخرة سيكون بناء على تلك الروحانيات التي يدعمها القرآن ويدعو لها قريشاً.

٢٤ ـ في إدانة النفس المادية قدم القرآن أجل أعماله وآياته وكشف عن زيف معتقدات الأمم والقوميات وأهل الكتاب والأديان لأنها جميعاً كانت مادية الطابع وهو يريد أن يقيم الحضارة العربية الجديدة على المنهج الروحي وما من آية وردت في عقيدة محمد ﷺ والقرآن إلا ولها صبغتها الروحية الخاصة وهو يقول لقريش في نسق «فصلت» إن تلك الحياة الدنيا التي تستحوز كل اهتمامهم ونشاطهم من جمع الأموال وغيرها هي حياة زائلة زائفة وتبقى للإنسان تلك الحياة الروحية الخالدة التي يلقى فيها وجه ربه الأعلى لنتبين قيمة هذه العقيدة وأنها لا تقف عند حد الزكاة بل إنها تتجاوز كل حد ما دامت تلك الحياة لا تساوي عند رب الإنسان جناح بعوضة فلماذا نرى المسلمين خاصة رجال دينهم يعبدون المواريث والملكية الخاصة ويزيفون على الله عقائد أهل الملة؟

---

(١) سورة فصلت: الآيات ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥.

٢٥ ـ إما أن يؤمن المسلم بالحياة الآخرة فيحتقر المال والـولد وكـل سلطان يفرق بينه وبين أخيـه الإنسان أو لتـذهب تلك الأمة إلى الجحيم كمـا سبقتها أمم كثيرة من قبـل وبكل الأسف فـإن واقع تلك الأمـة اليوم لا يمت إلى العقيدة القرآنية بصلة وكم من مرة لعن القرآن المال والبنين بل إنه في سورة «الإسراء» وهي السـورة التي شرحت لنـا كيف ذهب ملك بني إسرائيل ودالت أمتهم وكيف مكن الله لهم من قوة المال وقوة الشعب حتى شنوا الحرب على الرومان ثم هزمهم الرومان ثم أتاهم الله مرة أخرى القوة المادية والقوة البشرية علهم يحسنون فيها صنعاً فكانت الحرب بينهم وبين الفرس وتدمير هيكل سليمان وأخـذهم أسرى إلى بابل لنتبين أن خراب الأمم وذهاب حضارتها إنما هو في المادية وهي التي تغلب الإنسان على أمره وفي ذلـك ليكون المسلمـون على دراية بهذا المنهج الذي يكمن فيه مقاتل الأمم والداء الدفين الذي يغيب عن وعيهم وعن علمهم ويكشف القـرآن لعلهم يتقـون هـذا المصيـر **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾**[1].

٢٦ ـ لا نتبين منهج القرآن إلا من هذا التحليل الخطير الشأن إذ يقدم للناس بعد كل مسألة وبعد كل مشكلة علل السلوك البشري ويقدم من تاريخ الأمم والقوميات ويشهد على ذلك كله من الآيـات الطبيعيـة ما يجلب البرهان ويحث على التفكير والتـدبر وهـو لا يترك قضيـة دون تفصيل. والبيان في القرآن قد ورد في القصص وورد في الأمثال وورد في الآيات من الشمس والقمر وغيرها وورد في السنن والنواميس وورد في الفطرة وجاء من البيان والتبيين في مقارنة الأديان والعقائد الكثير جـداً ثم قدم

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

القرآن التنظير والنظريات كما فعل في قصة خلق آدم ورغم ذلك كله ما زالت عقيدة الأمة على المادية فيا للعنة وياللعار.

٢٧ ـ أفكار الأمة ويا لها من أفكار وعقائد الأمة ويا لغرابتها من عقائد والحافز في حياة آخرة في القرآن كله حافز روحي يبغى وجه ربه وحافز الأمة كله ماديات وأموال والوارث في القرآن هو الله وحده ومواريث الأمة رسخت في عقول العلماء لعنة الملكية واحترامها وكم من مرة قال القرآن للذين يحتكرون الأموال إن ذلك من أعمال الهالكين الذين كفروا بالله ليبين لهم أنه هو الوارث الوحيد على الحقيقة؟ لكن المسألة عمى عليهم لأنهم لا يريدون أن يعرفوا ولا يريدون أن يهتدوا وحجتهم دائماً أن نصوص المواريث والملكية هي شرع الأمة ونحن نقول إن نصوص الإيمان ونصوص العقائد هي شرع القرآن وهيمنة الأديان على الإسلام لا تحتاج لإثبات ومن قبل أخزى الله الأعراب وبين لهم درجة الإيمان وفضل العقيدة، والشرائع التي أدَّت دورها نقضها الكتاب السماوي في التوراة والإنجيل والقرآن في غير موضع ولكنه لم ينسخ العقيدة في الله أو في الرب لنتبين أن الجدل الذي يقدمه رجال الدين دفاعاً عن الأمة لا يبغي الأمة بل يبغي مصلحة الطبقات الذين هم أنفسهم طبقة مستغلة متميزة وما يذهب بمصلحة الأمة إلا هذا التزييف لقضية من أخطر القضايا في الأمم وهي قضية الدين نفسه حتى تبين بالتجربة أن الأحبار والرهبان والكنيسة وكل مشتغل بهذا النشاط والمسجد إن لم يكن مخلصاً كل الإخلاص وواعياً كل الوعي ومدركاً لعمق رسالته فإن العواقب وخيمة والإفلاس هو المنتظر لأن الدين يغلب العامة على عقولهم وأفهامهم.

٢٨ ـ في التوراة والإنجيل والقرآن الكثير من العقائد في الرب والربوبية وفي

الله والألوهية لكن الوحي في نسق «فصلت» ترك كل الموضوعات وكل القضايا وكل النبوءات وكل الرسالات وقدم لقريش موضوعاً واحداً هو موضوع الزكاة والعدل الاجتماعي لنتّبين معنى هذا القصد وهذا الاهتمام وأن جوهر الأديان قاطبة ما أقام العدل بين الطبقات وهو ما توصل إليه علم الاجتماع المعاصر إذ اعتبر أن المسألة الطبقية هي مفتاح السلام الاجتماعي كله بل هي مفتاح السلام العالمي لأن الصراع الطبقي يأخذ صورته بين الرأسمالية والشيوعية أيضاً لنتبين معنى الصراع بين المادية وبين الروحية في القرآن حتى اعتبر فريضة الزكاة أجل ما في الكتاب السماوي وعلومه والمشكلة الحقيقية هي في نظرة الأمة إلى تلك المسألة فهي ليست الزكاة وإنما هي الصراع الطبقي الذي يرفضون حتى الحديث فيه ولو كانت المسألة في إخراج الزكاة لما وجدنا مقاومة من الأغنياء وهم يسارعون الآن إليها ولكن المشكلة هي فلسفة الزكاة أين أصولها وموضوعاتها وليكن مفهوماً لنا أن الزكاة ليست غاية في ذاتها بل هي وسيلة لإقامة العدل حيث أصبح الفارق الطبقي فيه يعد بالملايين والتفاوت العظيم في الدخول الرأسمالية مما يجعل النظر في فلسفة الزكاة أمراً حتمياً.

الفصل الثالث

نسق «الشورى»



المحمولات والقضايا:

١ - يتضمن هذا النسق كيف يوحي الله إلى الإنسان فيقدم «عسق» وهي القوى الروحية في الإنسان وتشمل «العقل والسنن والقلب» لبيان ما جرى عليه الوحي مع الرسل والأنبياء من قبل محمدﷺ وهو أيضاً ما يستخدمه محمدﷺ إذ يعلي من شأن العقل وشأن السنن والآيات وشأن القلب السليم والوجدان المرهف.

لذلك أوضحت سورة «يس» كيف أصبح محمد ﷺ رسولاً من المرسلين عندما يقدم للناس الآيات والسنن والنواميس والفطرة ومثل ذلك ما ورد في سورة «ق» لبيان أن القلبْ السليم والفطرة الخيرة في الإنسان هي التي أفاضت بالوحي هذا القرآن المجيد وهي سر اختيار السماء لمحمد ﷺ لينزل عليه الوحي بالكتاب والعلم.

لكن القرآن وهو يكشف هذا السر العظيم للناس إنما كان يريد الديمقراطية ومشاركة الناس في ثمرات هذا الوحي إذ لو أخذ الناس بتنمية

قـدراتهم العقليـة والكشف عن السنن ونقـاوة القلب والضميـر لـدخلوا بتلك الطاقات عالم الوحي الرباني ولتبينوا هذا السبيل الذي جعل من بعض الناس رسلاً وأنبياء أو من الآن فصاعداً وقد أصبح المنهج بين يدي الناس فلا رسالة بعد ذلك ولا نبوة لأحد لأنه أصبح في الإمكان أن يكافح الإنسان ليكون لديه هذا الفضل الرباني وتلك العلوم السماوية ولذلك كانت الشورى والديمقراطية التي طبقها محمدﷺ تفتح الباب أمام الطاقات الخلاقة للعقول والقلوب وما من مشكلة واجهت الدعوة إلا وكان لأصحابه رأي فيها لتتبين أن هذا المبدأ الذي كشف عنه القرآن يستقيم تماماً مع «عسق» وأنها القوى المدركة في كل نفس وقد آن الأوان أن يشارك العـامة بـالرأي والشـورى وقد كـان ذلك قـاصراً في اليهودية والمسيحية على رجال الدين وحدهم وهو ما جعل القرآن يبني حضارة العرب على الشورى والديمقراطية التي كفل ضماناتها الوحي ورب الإنسان.

٢ ـ إن محمداً ﷺ الإنسان الأمي الذي لم يكن في يوم من الأيام كتابيـاً ولا دراية له بالوحي ولا دراية له بالتنزيل ولا دراية له بعلوم الكتب السماوية ولا دراية له بالدين واللاهوت قد كان هو نفسه ثمرة لنـمو تلك القوى من العقـل ومن السنن ومن القلب الفطري السليم وأصبـح في الإمكـان أن يـوحي الله إلى أي فرد من النـاس بفكـرة أو ببحث أو بـرأي أو بعلم أو بفلسفة أو بأي معرفة من المعارف ثم يكون ذلك صائباً وصادقـاً ونافعـاً للنـاس ومن أجل ذلـك اعتقد القـرآن ومحمـد ﷺ في صـلاحيـة مبـدأ الشورى واستشار أصحابه لأنه يعلم هذا الجانب الذي يتمتع به كل إنسان وعندما استكبروا أن يوحي الله إلى رجل أمي مثله دافع القـرآن والوحي عنه فقال في سورة «النحل» إنه لو كان الله يوحي للنحل وما تقوم به من هداية رب العالمين فأولى أن يوحي هذا الرب لمحمد ﷺ وهو كريم عند ربه أيضاً لنتبين نظرة القرآن إلى الإنسان وحقوقه وآماله وطموحه ولنتبين أن أول الحقوق يجب أن يكون احترام آراء الآخرين ربما كانت وحياً من

السماء كما أوحى هذا القرآن العجيب إلى محمد ﷺ من قبل وقد كان أمياً لا علم له ولا هداية بين يديه وهو نفسه لم يكن يأمل فيما أفاض الله على قلبه ولكنها السماء التي تنظر إلى الناس نظرة واحدة لا فضل فيها لمخلوق على الآخر وليكون من ذلك منهج للعالمين من بعد محمد ﷺ ورسالته القرآنية.

٣ ـ لقد جاء نسق «غافر» في مواجهة أهل الكتاب والأديان وأوضح للناس أن الله حر في أن يبعث من خارج أهل الأديان من يختاره ويرضاه وهو يلقى الروح والقرآن والإدراك على محمد ﷺ من نفس المبدأ ونفس السنة ونفس الناموس ولذلك يقدم القرآن تصحيحاً للعقائد والمفاهيم السائدة عند اليهود والنصارى وعند غيرهم أيضاً.

ثم جاء نسق «الشورى» وما له من كرامة وجلال قد نزل ليرفع من شأن الإنسان كله لكن نسق «فصلت» جاء في مواجهة العرب وطبقيتهم وطغيانهم ولا يدخل محمداً ﷺ في زمرة الموحى إليهم فقط بل يدخل أصحابه والذين آمنوا به إلى دائرة الرأي والمشورة ولم يتجل هذا المبدأ العظيم الذي أرساه القرآن للأمة إلا عندما وقفت امرأة في مواجهة رأي عمر بتقييد المهور وعدم التغالي فيها حتى قال إحقاقاً لهذا المبدأ والديمقراطية لقد أخطأ عمر خليفة المسلمين وأصابت امرأة لنتبين معنى كشف القرآن لسنة الوحي «عسق» ومعنى أخذه بمبدأ الشورى الذي أدخل شعب الأمة بأسره إلى دائرة الوحي وأعمال العقل وإبداء الرأي وطلب العلم والمشورة وقت الحاجة.

٤ ـ هذا الفضل العظيم لنسق «الشورى» و«عسق» ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ العزيزُ الحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ﴾[1]، ومثل ذلك أوحى الله إلى محمد ﷺ بالقرآن عربياً لينذر أم القرى ومن حولها حتى لا يتخذوا أولياء من دون

(١) سورة الشورى: الآيتان ٣ ـ ٤.

الله مثلما كانوا يعتمدون في أمور دينهم على أهل الكتاب وأهل الملة وما الداعي لذلك وقد أفاء الله على محمد ﷺ من فضل الوحي هذا القرآن وما اشتمل من المعرفة وما تضمن من العلم وما فيه من الهداية ولذلك فالله وحده له مقاليد السماوات والأرض وقد آن الأوان أن ينهض العرب وأن يكون لهم حضارة على يدي محمدﷺ الذي أوحى إليه الله بما شرع من الدين ومقوماته منذ نوح عليه السلام ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم * شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ الله يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾[1]،

٥ ـ لكن اختلافات الأديان ومشاكل الملة كانت تلقي بظلالها على العقائد والمنهج الذي اختاره القرآن للعرب إنما انبثق من التوحيد والوحي القرآني خالصاً من شوائب وانحرافات أهل الكتاب ولذلك يدعو نسق «الشورى» إلى الاعتماد على الله وحده وليس لذلك معنى إلا من خلال حرية الفكر وحرية التجربة وهي التي تكشف عن جوهر الأديان كما كشف القرآن عن جوهرها وترك كل المفتريات والتحريفات التي أدخلها أهل الكتاب وأهل الأديان.

٦ ـ الشورى والرأي العام ونزول الوحي على الأمي واختلافات أهل الأديان كلها جميعاً محصلة للمسألة الدينية وتعقيداتها ومحاولة القرآن إنما كانت من أجل الحضارة العربية ونصيبها من الأديان ونظرة القرآن بخوف أهل الكتاب واختلافاتهم قد جعله ينظر بشك في إمكان أن يكون للعرب أمة تقوم مناهجها على الدين وكذلك جعل عماد الأمة أعمال السنن وأعمال القلوب والنوايا الطيبة.

(١) سورة الشورى: الآيتان ١٢ ـ ١٣.

٧ - يرفض القرآن ولاية أهل الكتاب على العرب ويقدم علوم الدين وعلوم الكتاب السماوي باللغة العربية ويقول للعرب إنه قدم لهم ما شرع الله لنوح وما وصى به إبراهيم وإسماعيل وما قام به الرسل من قبل، علّمهم يؤمنون بهذا المنهج وتلك الحرية بل إنه كشف لهم عن سر الوحي ليدخل مجموع الشعب العربي تلك النهضة لكن جهلة العرب لا يفهمون ويركنون لولاية أهل الأديان وأهل الكتاب وتكون النتيجة الكفر بالآية التي جاءت على يدي محمد ﷺ والقرآن ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[1]. لنتبين ما كان القرآن يريد أن يكون منهجاً لتلك الأمة وأن نزول القرآن بالعربية إنما كان كسراً لاحتكارات أهل الكتاب والأديان لتلك المعارف وأنه استبدل المسألة الدينية في نسق «الشورى» بالمسألة العلمية وجعل من «عسق» مصدراً لكل وحي ولكل فرد في الأمة.

٨ - هذا الاستقلال في المنهج يكشف لنا عن معنى أمة الوسط التي وردت في مواجهة اختلافات اليهود على أنفسهم واختلافاتهم مع النصارى وأهل الأديان الأخرى ووقوف القرآن من كل ذلك موقفاً غير منحاز إلى طائفة منهم ولذلك دعا العرب إلى وحدة الدين وهي وحدة المبادىء والقيم والعقائد وعرض القرآن في ذلك حلاً للمسألة الدينية بل هو الحل الذي يجعل من الممكن قيام وحدة الأديان والكتب السماوية ولهذا الأمر أيضاً جعل القرآن في كل مناسبة يندد باختلافات وشقاق وطوائف أهل الأديان حتى رماهم بالكفر والفسوق والعصيان.

لكن الوصاية التي مارسها أهل الكتاب والأديان على العرب والأميين كانت لها نتائج كبيرة على المبادئ العليا التي أقرها القرآن فجعل الحرية

---

(١) سورة الشورى: الآيات ١٣

والفكر هو أساس كل وحي وجعل من السنن والنواميس معياراً لكل هيمنة وجعل القلب السليم الذي لم تشبه شائبة العنصرية أو شائبة السلطان محلاً لكل إلهام وبذلك أخرج العرب من ربقة العلوم اللاهوتية التي كانت أدوات في أيدي رجال الدين من الأحبار والرهبان ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[1].

٩ ـ إن المسألة الدينية واختلافات الإنسان فيها واختلاف ما جاء في التوراة عما جاء في الإنجيل وعما جاء في القرآن واختلافات أهل الملة الواحدة على أنفسهم واختلافات أهل الكتاب السماوي وتراشقهم بالكفر والفسوق فيما بينهم وقول اليهود ليست النصارى على شيء وقول النصارى ليست اليهود على شيء وقول المسلمين مثل ذلك وهم جميعاً يتلون التوراة والإنجيل والقرآن قد جعل الوحي ينظر إلى تلك المسألة من تلك الزوايا الثلاث «عسق» ويجعل للعقل والسنن والقلب السليم والفطرة اللخيرة والوجدان النير معيار كل عقيدة عند الناس حتى يقول في تلك الفطرة الربانية «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**». ـ لنتبين أن ذلك الأمر ما نزل به الوحي إلا في مواجهة ما امتلأت به قلوب اليهود وأهل الكتاب والأديان عامة من الأماني الكاذبة والأهواء وشعب الله المختار والعنصرية حتى صارت تلك الأهواء مواريث لهم يتسلمها الأبناء عن الآباء والأجداد حتى يقول القرآن ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ـ لنتبين مدى تلك المشكلة في العقيدة وأنها أفسدت الأديان إفساداً تاماً.

---

(١) سورة الشورى: الآية ١٥.

١٠ ـ لقد تحول الوحي بالوسيلة التي كانت مصدراً للمعرفة الدينية عند أهل الأديان والكتاب وجعلها رهناً بعقلية الأمة وتقدمها العلمي وكشفها للسنن والنواميس والآيات كما تبدو في الطبيعة الشمس والقمر وما أكثر ذلك في القرآن ثم أدخل السريرة الخيرة والقلب السليم والفطرة الطبيعية التي لم تلوثها المقولات والخرافات والأساطير وكل ذلك اتخذ القرآن منه حركة الأمة وحركة العقلية العربية وما كانت الشورى والديمقراطية إلا ثمرة لهذا المنهج الذي ارتضاه القرآن حتى نتبين قيمة هذه النظرة الحرة إلى ذلك المنهج فنجد في القرآن الناسخ والمنسوخ وأن الشريعة نفسها لم تنزل في أمر من الأمور إلا تحقيقاً لمطلب من المطالب ويسألونك. . ويسألونك تملأ القرآن كله ليعرف الجميع معاني التطور ومعاني العلمانية ومعاني دعوة القرآن إلى «عسق» في نسق «الشورى».

١١ ـ لن يكون الحكم والفيصل في اختلافات أهل الكتاب والطوائف والملل والنحل والجماعات بما لديهم وبما عندهم من العقائد والجدل وإنما سيكون الحكم منذ الآن وصاعداً لتلك الأمور الثلاثة متمثلة في العقل والسنن والقلب السليم والفطرة التي خلقها الله بيديه وليست إلى تلك القلوب التي امتلأت حقداً وامتلأت بغضاً وامتلأت كرهاً للناس وقد شهد العصر أن أعمال العقل أخرجت الناس سفن الفضاء والصواريخ والطائرات وهي التي شهدت تلك الحضارة الإنسانية ولم يكن للدين ولا للاهوت في ذلك شيء وأخزى الله الكنيسة وكل وصاية وكل سلطة وكشف القرآن عن قيمة السنن والقوانين الطبيعية حتى وجدنا علوم الفلك والفيزياء والكيمياء وجميع العلوم التجريبية تتداعى على هذا المنهج الذي أوضحه القرآن وكما أورد القرآن العقل والسنن كذلك أوردت الفطرة القلب السليم وما كشفت عنه العلوم الانسانية من

قدرات الإنسان الخلاقة المبدعة وأن الإنسان ليس عاجزاً عن بلوغ الكمالات.

١٢ - شهادة القرآن على العصر تتمثل في إدراكه أن زمن الوحي والكتاب السماوي والأمم الدينية والنبوءات وما يترتب على ذلك كله من ضياع حقوق الإنسان لا بد أن يكون له نهاية و«عسق» لم تكن منهجاً بديلاً للعرب وحدهم وإنما كانت منهجاً لرب العالمين الذي تجاوز بذلك ما جاء به رب موسى ورب عيسى بل رب محمد ﷺ وأصبح الجميع في هذا الواحد العالمي الذي شمل العرب وشمل غيرهم من الأجناس والشعوب وأصبح محمد ﷺ ليس رسول العرب ولا نبيهم وإنما هو رسول العالم ونبي الإنسانية لنتبين نظرة القرآن إلى معنى الربوبية وأنها وردت في القرآن في مواجهة ما كان سائداً من ألوان تسلط أنواع الوصاية خاصة أهل الأديان وقتئذ.

١٣ - لا يثق القرآن في تقادم المعرفة التي يدخل إليها التحريفات والخرافات والأساطير ويدخل إليها العقائد الفاسدة كما دخلت عقيدة شعب الله المختار وغيرها وكما دخلت ألوهية عيسى إلى عقائد النصارى ولذلك يقدم القرآن آباء المعرفة الدينية كنوح وابراهيم وموسى وعيسى دون النظر إلى الأمم التي خلفتهم وليكون من تاريخهم الذاتي مرشداً للعقل والفطرة السليمة وهو ما جعل القرآن يذكر أهل الأديان أن ابراهيم وآباء المعرفة لم يكونوا من الكافرين أو المشركين الذين يفرضون سلطانهم على الناس وهؤلاء الرسل الأوائل كانوا على التوحيد والربوبية التي يدعو لها القرآن.

١٤ - في اختلاف الأديان تجد ألف إله وإله لكن في الربوبية لا تجد إلا إلهاً واحداً هو رب العالم ولذلك يقول القرآن ما تفرق أهل الدين إلا من

بعد ما جاءهم هذا العلم وأن الله وحده هو رب العالمين وإنما حدثت الفرقة من أجل البغي والاستعلاء والسيطرة ويريد اليهود أن يكون لهم الهيمنة ويريد النصارى أن يكون لهم السلطان ويريد المسلمون أن يكون لهم الأمر وذلك من أهواء أهل الأديان والله منه بريء.

١٥ - في العصر أقام العقل والعلم الصرح الدولي وهو يدعو إلى المساواة والتعاون والإخاء وما زالت الأمم الدينية ترفع آيات التعصب ورايات الفرقة ورايات التخلف ولو سألت اليهودي لقال لك إن المسيحي كافر ولو سألت المسيحي لقال لك إن اليهودي هو الكافر ولو سألت المسلم للعنهم جميعاً وهو يعتقد أنه هو وحده ربيب الله في الأرض.

١٦ - يقول القرآن في مواجهة استعلاء أهل الكتاب والأديان وطغيانهم إن عقيدة محمد ﷺ عقيدة روحية ولذلك يعتبر الآخرة بمثابة حرث لأعماله في الدنيا ولكن أهل الكتاب الذين زيفوا الأديان يعتقدون في المادية ولذلك فأعمالهم كلها للدنيا ولن يكون لهم نصيب في تلك الدار التي جعلها الله خالصة للمؤمنين برسالته في الأرض وهذا يبين لنا عقيدة الأمة الإسلامية لو كانت منتسبة حقاً إلى عقيدة القرآن.

١٧ - إن قضية مقارنة الأديان والهيمنة في القرآن ليست قضية هيمنة وجدل أهل الكتاب والأديان يملأ القرآن كله ولكن المشكلة أمام البحث هي معرفة الدافع لإثارة الموضوعات وهذا الدافع في نسق «الشورى» هو وجود المنافس المسيطر من اليهود وغيرهم وما يقدمه القرآن من المنهج لم يكن يلقى القبول من العرب حتى ظنوا أن محمداً ﷺ يقدم لهم ديناً جديداً فقالوا وما حاجتنا بالدين ولديهم منه الأصنام والوثنية ولذلك يقول القرآن إن ابن مريم عندما ضرب لهم مثلاً فقد نفروا منه لنتبين هذا العرض الذي قدمه القرآن حلاً للمشكلة العربية.

١٨ ـ في القرآن نتبيّن اختلاط مشكلة أهل الكتاب والأديان مع المشكلة العربية ولذلك لا تستطيع الفصل في الجدل بين المسألتين وقد يخيل إليك أنه يجادل قريشاً ثم تأتي الآيات اللاحقة لتقلب المسألة على أهل الكتاب لأنه كان يعالج ثقافة دارجة ويقدم التوحيد والألوهية لرب العالمين وهو ما يستوجب الهيمنة التي وردت في أسماء الله الحسنى وكأنه يقول للناس إن الله وحده «الحي المهيمن».

البراهين التي استخدمها نسق «حم، عسق»:

١ ـ في مسألة اختلاف الأحكام واختلاف أهل الكتاب السماوي من يهود ونصارى ومسلمين يتعجب القرآن ويقول إن تلك المشكلة ليست من الخالق ولكنها من قصور عقول الناس لأن الخالق كما نرى آياته في الطبيعة لم يجعل شيئاً يلتبس على العقل المتدبر إذ خلق كل الأزواج والأنواع مستقلة عن بعضها البعض بخواصها المميزة ولن تجد نوعاً من الأنواع يشارك نوعاً آخر في صفاته حتى يلتبس على العقول وليس بعد وضوح الأنواع في الطبيعة ما يشككنا في أن الله يلبس علينا في الفكر والكتب السماوية ولذلك فمرد تلك الاختلافات عدم فهم لما ورد في تلك الكتب ولو فهموها على حقيقتها كما عرضها القرآن لتبين لهم أنها التوحيد وأنها نفس القضايا ونفس المبادئ وإن اختلفت في الظروف والفروع والمناسبات.

٢ ـ ليست مسألة الأنواع الطبيعية واستقلال كل خلق ووضوحه وممالك النبات والحيوان هي فقط التي تدفع شبهة الاختلافات وأن الله يلبس على الناس وإنما هناك ما أوجده الله من السنن والنواميس وكل القوانين الطبيعية ومقاليد السماوات والأرض التي نراها في سخرة الأجرام السماوية وهي جميعاً تكشف لنا عن دفع تلك التهمة وأن الله لم ينزل في الانجيل ما ينقض به التوراة أو ينزل في القرآن ما ينقض به الإنجيل وإنما كانت

الاختلافات واستفحال أمرها من عمل رجال الدين والمتطرفين والذين يستكبرون أن يكون الدين كله لله ولو نظر الإنسان إلى الطبيعة السائدة في سننها ونواميسها حتى شملت النبات والحيوان والانسان لتبين للناس أن الله هو وحده المهيمن ولن يترك اختلافات أهل الأديان تفسد حياة الإنسان. والقرآن عندما يتحدث عن فطرة السماوات والأرض إنما يلفت النظر إلى ما في تلك الفطرة من الضبط والنسق والجمال والتمام والكمال ولذلك فليس هناك في الطبيعة نشاز وهي كلها تعمل وكل واحد يسبح بحمد ربه فكيف يلقى الإنسان تبعات اختلافات أهل الملل والنحل والأديان على الله وهو بريء من ذلك؟

٣ ـ عند اختلافات أهل الأديان في الربوبية ومقولتهم أن عيسى ابن الله وعزيز ابن الله قدم القرآن بديلاً لذلك وأوضح أن الفطرة التي تقرأها في الطبيعة تبين لنا أن رب العالمين هو الله وليس هناك إله إلا هذا الرب الذي يرعى الدودة والنملة والإنسان أيضاً ومثل ذلك أوضح القرآن في اختلافاتهم في المنهج إذ أوضح أن المنهج كما يبدو في مقاليد السماوات والأرض ليس فيه هذا الاضطراب فلماذا يوجد في الكتب السماوية وهي من عند رب العالمين؟ ألا أن يكون ذلك من سوء عمل الناس والذين يحرفون الأديان والرسالات.

٤ ـ إن الله لن يعجز أن يقيم وحدة الأديان في الأرض ولذلك أوحى إلى محمد ﷺ أن يتبع المبادئ التي تفرضها «عسق» وأن يكون منهجه مبنياً على أعمال العقل وآيات السنن والنوايا الطيبة لدى كل إنسان فطرية لم تلوث قلبه عقائد أهل الملة وليس في ذلك خروج عن مألوف الوحي وهو نفسه وحي من الله الذي يرزق من يشاء بالروح والإدراك وهو قد وهب محمداً ﷺ هذا الروح وهذا المنهج الذي يتصدى به لتلك المشكلة.

٥ ـ لن يأخذ محمد ﷺ لمنهجه من اللاهوت اليهودي شيئًا ولن يأخذ من اللاهوت المسيحي وإنما سيأخذ مما وصى به الله آباء الأديان وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى خالصاً من أراجيف ومفتريات وتحريفات أهل الأديان والكتاب وهو رجوع إلى الأصول وكفيل أن يقيم وحدة الأديان ولن يكون للفكر اليهودي أو الفكر المسيحي هيمنة على أمر القرآن وهذا الاستقلال سيدعمه العقل والسنن والآيات والقلوب العامرة وسيجتاز العرب ما أوغل فيه اليهود وأهل الأديان ومشاكل اختلافاتهم وصراعاتهم وتلك الوحدة التي يصنعها المنهج الجديد ليست للعرب وحدهم وإنما هي للعالم كله وستجد المسألة الدينية والمسألة العالمية الحل السعيد على يدي القرآن وهذا الذي أوحى الله به إلى محمد ﷺ.

٦ ـ ﴿الله الّذي أنْزَلَ الكِتَاب بِالحقّ والمِيزَان﴾ ـ لذلك كان ميزان «عسق» هو الوحي النهائي في تلك المسألة التي أوشكت أن تحطم الأديان ورغم ذلك يعتمد القرآن ميزاناً لا يمكن إنكاره فيقول إن الله هو رب اليهود ورب المسيحيين ورب المسلمين ولكن الميزان الذي يراه الناس هو عمل هؤلاء وعمل هؤلاء وعمل هؤلاء ومن أحسن منهم عمله فالله وحده هو ربه والآخرون كذابون نصابون لا يعبدون الله وإنما يعبدون أهواءهم ولذلك رأينا حملة القرآن حملة قاسية على أعمال أهل الكتاب والأديان حتى انتهى إلى أنهم كافرون ولا يقلون شركاً عن الأميين والذين ليس لهم ديانة وإن انتسابهم إلى الأديان هو انتساب مزيف أريد به النفاق واستغفال الناس ولذلك كانت أعمال المسلمين اليوم عليهم بالبرهان والبعد عن القرآن.

٧ ـ إن الله لطيف بعباده وليس لطيفاً بأهل الكتاب والأديان فقط وهو يرزق الناس خارج أهل الأديان بالعلم والهداية وقد رزق محمداً ﷺ هذا العلم وتلك الهداية ومن يعتقد أن الله يحابي أهل الأديان فقد افترى على الله إذ

التقوى هي المعيار عنده وقد تكون التقوى في قلب رجل أمي وقد لا تكون في قلب رجل كتابي أياً كان مسيحياً أو مسلماً لنتبيّن حقيقة علاقة الإنسان بربه وها هو محمد ﷺ يرزقه الله حل المسألة الدينية وقد استفحل أمرها ويرزقه هذا الروح العظيم الذي بشر بوحدة الإنسان وربه وجعل من«عسق» وحياً مثل وحي التوراة ووحي الإنجيل بل اعتبر القرآن أن هذا المنهج الذي عرضه القرآن هو الحل الذي يأتي من الشعوب وطاقاتها الخلاقة ولا يتوقف على نبي أو على رسول أو حتى على كتاب سماوي فقد انقضى عهد الكتب وعهد النبوات وعهد الرسالات أيضاً.

٨ - أن يضرب الله بالأزواج والأنواع مثلاً لما يمكن أن يقوم به رب الطبيعة رغم شدة تباين الأفراد حتى يجعل من الأسود والأبيض والأصفر والأطول والأقصر والكبير والصغير إنساناً ونوعاً واحداً ومثل ذلك ما اشتملت عليه كل الأنواع والأجناس من النبات والحيوان والإنسان هو الذي يكشف لنا عن إمكان اللقاء في الله ووحدة الأديان رغم كل الصعوبات ورغم كل الاختلافات ورغم كل رجال الأديان الذين يتاجرون بالقضية وليكون من ذلك الأمل والفتح الذي فتح به القرآن هذا المجال.

لكن المشكلة كما يحصرها القرآن في السلطان وأهل كل دين لا يمكن أن يتركوا مراكزهم للغير أبداً ومهما قدم القرآن من البراهين والشواهد والآيات فلن يؤمنوا إذن أبداً ولذلك نفض القرآن يده من المسألة الدينية برمتها·وجعل الهيمنة لله رب العالمين لنتبين معنى قيمة رب العالمين ومعنى الحرية ومعنى سلطان «عسق» والأمل الذي استودعه القرآن هذا المنهج.

٩ - إن وحي هذا الحل السعيد وهذا الميزان «عسق» قد جاء في أوانه إذ تصادمت الأديان عندما بعث محمد ﷺ في الأميين وأوشك أن يذهب سلطان أهل الكتاب والأديان ونزل هذا الروح على محمد ﷺ كالغيث

ينزل من الله الولي الحميد في حينه ووقته لينقذ الناس من تلك المشكلة المعقدة وليعرف أهل الكتاب والأديان من وحي «عسق» أنهم لن يعجزوا الله في الأرض بل سيقدم للناس الحلول المناسبة والبرهان العصري فيما بين أيدينا فقد أثبت أن قيام الدول على أساس من العلم هو رحمة أخرى وبرهان لمن يريد أن يذكر أو يريد أن يكون شكوراً.

١٠ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ* وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ* وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ* وَمِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ* أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ* وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾(١) - لذلك لا يعجز الله أمام مشكلة تواجه حياة الإنسان التي رعاها تلك الرعاية وهل هناك آيات لقدرة الرب الذي خلق السموات والأرض من أجل الإنسان أبلغ من تلك الآيات حتى يكون للناس أولياء من دونه مثلما يعتقد الناس في سلطان أهل الكتاب والأديان؟

إن جريان السفن في الماء رغم كل الأسباب التي تجعل من ذلك الأمر مستحيلاً قد حققت المعجزة ومثل ذلك ما تم اليوم من غزو الفضاء وغيره من العجائب حتى نتبين أن رب الإنسان لا يقف أمامه مشكلة من المشاكل أو مسألة من المسائل أو صعوبة من الصعوبات وليس كثيراً على رب محمد ﷺ أن يوحي إليه بهذا الحل النهائي لاختلافات أهل الأديان.

هل هناك تمحيص لتلك المسألة أكثر من ذلك حتى يؤمن أهل الكتاب والأديان بما جاء على يدي محمد ﷺ وهو الحق وهو الميزان؟

---

(٢) سورة الشورى: الآيات ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥.

١١ ـ هذه المسألة التاريخية والتي بكل الأسف لم تنته بعد حتى في عصر بهاء العقل وغلبة السنن والنواميس والاعتراف النهائي بسيادة المنهج الطبيعي واعتبار الفطرة الإنسانية حق كل إنسان رغم ذلك كله ما زال أهل الملة في واد والعالم كله في واد آخر ليكون من ذلك وصمة التاريخ ووصمة الله ورب العالم لكل هؤلاء الحمقى والمخابيل ومن العجب أنهم يعيشون العصر بأدوات العقل ومنجزاته ثم يلعنون المعاصرة وهي من فتوحات «عسق» والشورى والديمقراطية وما استنتج به القرآن وافتخر به على أهل الكتاب والأديان.

١٢ ـ على مثل هذا المنهج أقام القرآن مجتمع الديمقراطية والشورى ويوضح القرآن أن الذين آمنوا به واستجابوا لربهم هم أولئك الذين خصهم القرآن في نسق «الشورى» بالأخلاق الفاضلة لنتبين في مواجهة ذلك ظلم أهل الكتاب والأديان للناس حتى يقول القرآن ﴿**إنَّما السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاس وَيَبْغُونَ فِي الأرْضِ بِغَيْرِ الحَقّ أولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَوَغَفَرَ إنَّ ذَلِكَ لمن عَزْمِ الأمُورِ * وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لما رَأوا العَذاب يَقُولُونَ هَلْ إلَى مَرَدٍّ مِنْ سبِيل**﴾[1] ـ ليكون من ذلك وضوح المسألة وطغيان من يعتقدون أنهم أولياء الله وما هم إلا أولياء الشيطان مثلما قال القرآن في أهل الكتاب والأديان ﴿**قاتلوا أولياء الشيطان**﴾ ليعرف العالم كله أنهم يتاجرون بقضية خاسرة قد رفع القرآن عنها كل افتراء وكل زيف.

١٣ ـ لكن المسألة للأديان واتخاذ أهل الكتاب من أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح وابن مريم وعزيراً وأنبياءهم وعلاقة ذلك بالولاية والوكالة والخلافة قد بحثه القرآن بحثاً مستفيضاً في العديد من السور والأنساق وفي سورة «البقرة» ندد بهم أشد التنديد ولكن سورة

---

(١) سورة الشورى: الآيات ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤.

«الشورى» ونسق «عسق» قد اختص وحده بالبحث في الولاية فقط وقال في ذلك إن ولاية أي أمة على أمة هـو الضلال وولايـة أي طبقة على طبقة هو الظلم وولاية أي فكر على فكر هو الافتراء وولايـة أي عقيدة على أخـرى هو البهتـان لنتبين من ذلك كله أن الله وحـده هـو الـولي الحميد وأن الحرية كل الحرية إنما تتمثل في «عسق» حتى يقـول في نهاية النسق ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنَ أَمْرِنَـا مَا كُنْتَ تَـدْرِي مَا الكِتابُ وَلاَ الإيمانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْـدِي بِهِ مَنْ نَشَـاء مِنْ عِبَادِنَـا وإنَّكَ لتهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاط. الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى الله تَصِيرُ الأمُور﴾[1] لنتبين معنى «حم» ومعنى أن يكون الله هو الحي المهيمن وهو الولي الحميد وهو الذي تصير إليه الأمور وهو الذي أعلن على الناس في نسق «الشـورى» والديمقـراطية حقوق الإنسان أي إنسان كان أمياً أم كتابياً.

(١) سورة الشورى: الآيتان ٥٢ ـ ٥٣.

الفصل الرابع

نسق «الزخرف» و «حم»



القضايا ومحمولات النسق:

١ ـ إن المشكلة العربية والهيمنة اليهودية والهيمنة المسيحية وسلطان أهل الكتاب والأديان وضياع هيبة العرب الأميين كل ذلك كان من أسباب نزول علوم الكتب السماوية باللغة العربية على قلب رجل منهم هو محمد بن عبد الله الأمي ولذلك ترد أنساق «غافر» و«فصلت» و«الشورى» و«الزخرف» في قلب المشكلة التي أرقت العرب وهو يقول في تلك الأنساق إن القرآن نزل باللسان العربي حتى يفهم العرب الايديولوجيا التي يمكن أن تقيم لهم حضارة تعلو على حضارة الأديان وما سواهم ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١]، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[٢]، ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِياً﴾[٣]، ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾[٤]، ﴿قُرْآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢.
(٢) سورة الشعراء: الآيات ١٩٣ ـ ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٣) سورة الرعد: الآية ٣٧.
(٤) سورة طه: الآية ١١٣.

يَتَّقُونَ﴾[1]، ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِياً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[3]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4] وذلك معناه أن القرآن كان يضع المنهج بين يدي العرب ليجعل منهم حضارة وأمة لا تقوم أركانها على ما كان بين يدي اليهودية أو المسيحية ولذلك فمنهجه مستقل عن المسألة الدينية التقليدية وتجربتها الموروثة عند أهل الكتاب والأديان وهذا ما يكشف لنا لماذا ينقد القرآن أهل الكتاب وعقائدهم ثم يلتفت في آخر الأنساق إلى العرب وقريش كي يكون بين أيديهم الإدراك لحركة الفكر وحركة التاريخ وحركة الأديان.

٢ ـ ينزل نسق «غافر» ليحذر من حسن الظن بالله وهو المسألة التي كانت مقابل أهل الأديان من اليهود والنصارى حتى غرهم بالله الغرور وما افتروه على الله وما دسوه في كتبهم وعقائدهم ولذلك ذهب عنهم سلطانهم.

ثم ينزل نسق «فصلت» ويبين أن الطور النهائي لكل رسالة سماوية وغايتها هو العدل الاجتماعي ومن أجل ذلك فرض القرآن الزكاة كحد أدنى للفقراء ولو أن اليهود والنصارى لم يختلفوا في رسالة الكتاب السماوي لنهجوا ما فرضه القرآن على العرب ولكنهم لشدة الأسف لم يفهموا غاية الرسالات ولذلك افترقوا. وها هو محمد ﷺ يأتيه الله من آيات الكتاب السماوي ما تم تفصيله حتى لا يختلف عليه العرب أيضاً.

ثم ينزل نسق «عسق» وهو نسق «الشورى» والوحي في الكتب السماوية من قبل القرآن كان للأنبياء والرسل وحدهم ولكنه في القرآن يلفت النظر إلى القدرات العقلية وللسنن والقلوب والفطرة ولذلك فكل إنسان في الأمة له حق

---

(١) سورة الزمر: الآية ٢٨.
(٢) سورة فصلت: الآية ٣.
(٣) سورة الشورى: الآية ٧.
(٤) سورة الزخرف: الآية ٣.

الشورى وحق إبداء الرأي وحق المساهمة بالفكر والإلهام الرباني الطبيعي وها هو محمد ﷺ الأمي الذي لم يكن له حظ من علومِ الأديان يقدم للناس الجليل من المعرفة والقرآن وإن كان للعرب أن يقيموا نظاماً ومنهجاً فعليهم بالديمقراطية والشورى والحرية وسيكون من ذلك أمة الطاقات الخلّاقة التي جعلت من أمثال العبيد أبي ذر وابن مسعود وبلال وغيرهم رايات وأعلاماً.

ثم نزل نسق «الزخرف» ليبين للعرب أن من قبلهم من الأمم حطمهم الله لأنهم أخذوا بالطبقية والترف وهي طبقة لعينة في التاريخ ما ظهرت في أمة إلا وكان هلاكها وزوالها من التاريخ والعرب وقريش الذين لهم ولديهم الأموال والترف ما هو إلا زخرف في عقيدة القرآن ولن يفيدهم ما بين أيديهم شيئاً وهو ينذرهم عاقبة من ساروا على هذا المنهج ليتبينوا أن المنهج الأقوم هو المنهج الروحي الذي لا إسراف فيه ومحاربة طبقة المترفين والأخذ على أيديهم هو الذي ينقذ الأمم من سائرها.

٣ - في الحي القيوم يوضح القرآن أن الله بالمرصاد لكل فسوق ولكل عصيان ولكل تحريف ولكنه في الحي المهيمن يبين المنهج ويكشف العقيدة ويقدم الدستور الرباني ولذلك وجدنا القرآن وهو يقدم السور المحكمة التي افتتحت بأسماء الله الحسنى الرمزية يضمنها الكتب ويكشف عن غايات التنزيل فنراه في كتاب البقرة أنه هدى للمتقين وفي آل عمران لبيان الحق وفي الأعراف الميزان وفي يونس للإيمان وما صدقه وفي هود لبيان فضل كل إنسان وفي يوسف لبيان نصر الله للرسل الذين اصطفى من عباده وفي الرعد لبيان قيمة القرآن كآية من آيات الله وفي إبراهيم لبيان الغاية من نزول القرآن وما اشتمل من البيان والتبيين ولذلك نزل بالعربية وقد كان من الممكن أن ينزل بالأعجمية وفي الحجر أكد القرآن هلاك المكذبين والكافرين وفي كتب «طس» و«طسم» أوضح القرآن منهج المعرفة الصحيحة ولذلك فإن تلك الكتب القرآنية هي أم الكتاب

السماوي وهي المهيمنة على ما سبقها من التوراة والإنجيل لأنها لم تترك قضية إلا وقدمت الجدل والبرهان والشاهد المادي من التاريخ أو من الطبيعة.

لكن كتاب «الزخرف» بنص فاتحة السور إنما ورد ليعرف العرف أنه الكتاب المبين الذي لا لبس فيه وهو واضح كل الوضوح وعليهم أن يعرفوا موقفهم فلا يزيفون وأن طبقة الأغنياء والمترفين فيهم توشك وتعجل بهلاكهم.

٤ - يسألهم محمد ﷺ من خلق السماوات والأرض، «فيعترفون بألسنتهم أنه الله ثم يزيفون الإيمان به» والقرآن في كتاب «الزخرف» يرفض هذا التزييف وهذا الالتواء وهذا الانحراف فيكشف لهم أنهم ما داموا يعتقدون في الأموال والمتاع الدنيوي وزخرف تلك الحياة فإنهم لا ينتمون لله ولا يعتقدون فيه بل يعتقدون في المادية والشيطان ومثل ذلك اليوم والمسلمون تعج مجتمعاتهم بتلك الطبقة المترفة وآلاف بل ملايين المليونيرات يعيثون في الأمة فساداً رغم أنهم يعلنون على الملأ أن الله هو إلههم وهو ربهم والحقيقة بخلاف ذلك.

٥ - إن طبقة المترفين إنما هي امتداد لمنهج المسرفين في الأمم الهالكة وقريش وطغواها قد كان لهم مثلاً في القوميات السابقة، والإسراف جعل قوم لوط يمارسون الشذوذ الجنسي ويقبلون الطبيعة ومثل ذلك لون من ألوان هذا المنهج ويريد القرآن أن يوضح لنا أن التطرف في المادية هو الذي يجعل قريشاً تعتقد في الزخرف ولو تبينوا أن ذلك مهلكة الأمم والقوميات لما اعتنقوا تلك المسالك والمشكلة أن البطش الذي تمارسه قريش ضد المؤمنين بمحمد ﷺ لن يفيدهم شيئاً إذ مارس البطش فرعون وثمود وغيرهما ورغم ذلك مضى مثل الأولين وهلاكهم وذهاب قوتهم وأصبح الأمر سنة جارية فلماذا لا يصدق العرب بما يقدمه كبديل للحضارات؟

٦ - كل حضارة وكل قومية وكل أمة أعلنت للناس أنها تنتسب إلى الله وهذا التزييف يسبب مشكلة كبيرة ولذلك يقدم القرآن هذا الكتاب المبين القاطع في تلك المشكلة ويقنن المجتمع العربي بالمعيار ليتبين العرب أنهم أفاكون كذابون يفترون على الله الكذب لأن فيهم طبقة الغني المترف وهي الطبقة التي أهلكت كل القوميات وأهلكت كل الأمم وما من قومية أو أمة ظهرت فيها تلك الطبقة إلا وأهلكها الله لأنها طبقة اللعنة وطبقة الغرور وطبقة الكفر والشرك أيضاً.

٧ - من الآن وصاعداً فليعرف كل واحد موقعه من الله فلا يداهن ولا يناقض ولا يزور لأن المسألة بعد نزول كتاب «الزخرف» باتت واضحة تماماً والنظام الرأسمالي في الأمة التي يوجد بها آلاف المليونيرات لن تكون أمة الله أبداً بل هي أمة قريش وملك بني أمية ولم يكن في التاريخ وعند الله خير من ملك كسرى أو ملك الروم والجميع ملاعين بنص كتاب «الزخرف» والمسألة لم تعد تحتاج للدراسات ولم تعد تحتاج للتفصيل.

٨ - إن مسألة تزييف القضايا مسألة تاريخية والعرب كانوا يعرفون الله وقالوا في الأصنام إنهم ما يعبدونهم إلا ليقربوهم من الله زلفى وقالت اليهود إنهم يؤمنون بالله ومثل ذلك قال أصحاب كل شرع وأوضح القرآن تزييف القضية والإيمان عند اليهود وعند النصارى وهي لا تحتاج لإثبات ونفس المسألة والتزييف نجده عند المسلمين وهم يقيمون كل مسجد أو ألف مسجد ويدخلون وقلوبهم عامرة بحب الترف والمال والطبقة فيهم ليست طبقة مترفة فحسب وإنما هي طبقة شياطين وألاعيبهم لا تنتهي ودهاؤهم فاق دهاء أهل الكتاب ولكن البيان القاطع في الزخرف وحده هو الذي يخزيهم وهو الذي يكشف للعالم أنهم أمة تنتسب إلى بني أمية والقرآن بريء منهم.

٩ - لكن القرآن وهو يعرض مادية العرب وقريش وطبقيتها وسلطانها يقدم

مشكلة العقائد وكيف تتطور تلك المشكلة حتى تفسد على الإنسان عقيدته في الله ومن قبل في عصر نوح كانت العقيدة وثنية صنمية ورغم مرور هذه الحقب الطويلة وتتابع الرسالة السماوية فإن الوثنية والصنمية ما زالت في العرب واللات والعزى ومناة هي أمثلة على تلك العقائد الجاهلية في الله ومعتقداته.

والأكثر من ذلك أن الجهلة من العرب يقسمون لله ويضربون له الأنصاب والأنثى من نصيب الله ومثل ذلك الإناث من الملائكة ويجعلون لأنفسهم البنين ويجعلون له البنات حتى يقول القرآن في ذلك تسفيهاً لعقولهم إنها قسمة ضيزى أي غاية في الإجحاف لنتبين في نهاية الأمر المدى الذي يصل إليه تزييف القضايا والعقائد في الله سبحانه وتعالى والغريب أن أشرف ما في الإنسان هو عقيدته وهي عند قريش في الدرك الأسفل من الانحطاط والسفه.

ليس الله لعبة أو خرافة أو كذبة كبرى وإنما هو الروحية التي تعلو على مفاهيم الناس ولو عقلت قريش معنى هذا المفهوم في كتاب «الزخرف» المبين لنتبين لهم أن عقائدهم في الله هي الجاهلية التي ليس لها حدود بل هي السفه والحماقة والغرور في الدين أيضاً.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْض لَيَقُولُنَّ الله﴾ لكن عقائدهم في الله عجب وأحوالهم معه خطل ما بعده خطل حتى ليقرر القرآن في سورة «الأنعام» إن هذه العقائد الفاسدة في الله وما ينشره الكهنة بين الناس من تجاوزات المفتريات قد جعل لله نصيباً من الأنعام والأكثر من ذلك أن الأحبار والرهبان والمزيفين قد جعلوا لله نصيباً من الأولاد أيضاً، حتى قتل الناس فلذة أكبادهم وهم في عقيدة خاطئة وإيمان مزيف وكان نتيجة ذلك هو خسران الإنسان.

الأنسبة لله والقرابين البشرية والبنات والملائكة بنات الرحمن وكل تلك المعتقدات والخرافات ليست هي العقيدة الصحيحة وإنما الصحيح أن الله هو

الإله الحق وهو لا يحتاج لشيء من ذلك ولكن الظالمين يفترون على الله الكذب في تلك المعتقدات والقرآن يناضل من أجل التصحيح ومن أجل الحق والصدق وقريش تزيف وتعتنق من الدين ما كان عليه قوم نوح والماديون في كل عصر وهي تحاول أن تفرض السلطان المادي رغم هلاك كل الماديين في شتى القوميات والأمم.

١٠ - تزييف العقيدة تحريف الإيمان والجهل والسفه والغرور والتخلف وأصنام قوم نوح وأصنام قريش والقرابين البشرية ونصيب الله ولو كانوا عدولاً لجعلوا لله البنين ولكن من فرط كذبهم ونفاقهم جعلوا له البنات لنتبين حجم المشكلة وكيف يدرك الإنسان غاية كل اعتقاد والحق في كل إيمان ومن قبل زيف اليهود الإيمان ومثله كل عقيدة حتى أشربوا العجل والذهب في قلوبهم لنتبين أن المادية والرأسمالية لها من الألاعيب والمكائد ما لا حصر له وتجد المليونير يظلم آلاف الناس ويغتصب قيمة أعمالهم ثم يهرع إلى بناء المسجد وإقامة الأذكار ليوهم الناس أن الله هو الذي أعطاه وهو الذي يحتمي فيه.

العقيدة الضرار والإيمان الضرار والعقل الضرار والمسجد الضرار وهم يحتمون في ذلك ويعتقدون أنه حمى الله وما هو إلا حمى الشيطان ومن لم يدرك خطورة التزييف وأن العملة التي بين يديه ليست هي عملة الله فقد باء بالخسران المبين.

يحتج العرب أن ما لديهم في الله من العقائد هو وراثة عن أجدادهم فيصنعون الأصنام بأيديهم ثم يخرون لها سجداً لنتبن أن المشكلة في العقيدة هي مشكلة العادات والتقاليد والديانات الموروثة وكيف تقدم في العقيدة وفي الله مفهوماً جديداً ليس فيه أصنام المليونيرات ولا أصنام رجل الدين ولا أصنام الطائفية ولا أصنام العنصرية ولا أصنام الطبقية وقد جرت أعراف الناس على الظلم حتى قال الشاعر العربي: ومن لم يظلم الناس يظلم؟

تلك هي المشكلة التي واجه القرآن تعقيداتها ولذلك كان كتاب «الزخرف» هو الإعلان العالمي البين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأن الله بريء من كل ذلك.

لم يكن العرب أهل كتاب ولا أهل دعوة ولا أهل علم ولا أهل هداية حتى نقول إن ما لدى أجدادهم كان صواباً وإيماناً ويتساءل القرآن لماذا يتمسك العرب بتلك المفاهيم وهي كلها من خرافات أجدادهم لنتبين أن القديم لا ينظر في تراثه والقرآن ينعي عليهم ذلك فيقول ﴿**يَأكُلُونَ التُّرَاث أكْلاً لَماً وَيُحِبُّونَ المَالَ حُباً جَماً**﴾ وهو لا يستسلم للمفاهيم والعقائد الجديدة خاصة ما كان منها في الله والدين.

كيف تحول الناس عن عقيدة معينة في الله وقد اكتسبت قوة الإيمان وقوة الدين وقوة التاريخ وتراث الآباء والأجداد حتى يقف محمد ﷺ فوق رأس عمه الجاهلي وهو يحتضر ويريد أن يجعله من المؤمنين لينجو من عذاب الله ولكن الآخر يغلبه الغالب والآباء والأجداد والعقيدة الراسخة فيأبى ويموت كافراً ليكون من ذلك دهشة لتلك العقول وتلك المفاهيم المستغلقة والتي تغلب العامة على مصائرهم.

إن من السهل أن تقنع إنساناً ليس لديه في الأمر فكرة أو عقيدة ولكن من أصعب الأمور أن تقنع المشحون بالعقيدة والتطرف خاصة عقيدة الآباء والأجداد حتى رأينا في القرآن أنها حجة وسند لكل الكافرين ولكل المشركين بل هي سنّة جرت على ألسنتهم جميعاً لنعرف مهما حاولنا أن نقنع الناس.

لكى تتضح أمامنا أبعاد تلك المشكلة التاريخية وأنها هي نفسها التي أفسدت عقائد الأمة وكل أمة من قبلها أن القرآن ندد بمادية اليهود ومادية النصارى ومادية أهل الكتاب ومادية أهل الأديان ومادية القوميات ومادية الأمم ومادية كل الطغاة والفرعونية والثمودية وحارب المال والبنين وحارب الذهب

والفضة وحارب الهيام بالنساء وزينة الحياة الدنيا في كل مناسبة وكل كتاب وكل موضع ورغم ذلك كله دخل المسلمون المساجد وقلوبهم وجيوبهم عامرة بحب المادية وعشقها ولو قلت لهم إن العقيدة في الله هي الاشتراكية لرجموك بالإلحاد والحجارة لنتبين مدى الكارثة ومدى تعقيد تلك المشكلة حتى كان آدم نفسه خاضعاً لإبليس والشيطان وكأنها لعنة قدرية يمضي بها الإنسان لحظة ميلاده حتى وفاته وهذا هو الذي جعل القرآن يقرر لقد خلقنا الإنسان في كبد.

١١ ـ ﴿وَلِذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إنّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّة وَإنّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُون * قَالَ أَوَلَو جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إنّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُون﴾[١]
ـ لذلك فالطبقة المثرية والمترفة في كل أمة كانت هي العقبة أمام كل تغيير نحو الاصلاح ولن تستطيع مهما أوتيت من الحجة أو الهداية أن تقنعهم بالروحية أبداً وهو ما انتهى إليه القرآن في سورة «الحديد» إذ لا يمكن إجراء التغيير بالكتاب والقرآن والتوراة والإنجيل وإنما الممكن أن يكون ذلك بالحديد والنار والثورات المدمرة.

«من لم يرتدع بالقرآن فليرتدع بالسلطان والدبابات وكل عناصر القوة»
ـ ومن لم ينصر الله فلن ينصره الله ـ ومن يعتقد في الزخرف فلن يعتقد في الله حتى لو جاء الله والملائكة قبيلاً لنتبين أن هيام الإنسان بالملكية مرض لا يشفى منه المخلصون الذين اصطفى الله من عباده ولذلك يقول القرآن لمحمد ﷺ إنهم لا يكذبونك وإنما يكذبون الرسل جميعاً كما حدث من قبل.

١٢ ـ يوضح القرآن المعرفة بالله على الحقيقة وليس كما يزيفها المترفون الطبقيون فيقول إن الرحمن قد تبدى في التاريخ في كل رسالة كان

(١) سورة الزخرف: الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.

يـريدهـا رحمة بـالإنسان من تلـك العقائـد الفاسـدة والـدنيـا وزخـارفهـا العنصرية ولم يفلح فيهم هيام قوم نوح بالمال ولا بالبنين ولم تفلح طغاة التاريخ أمثال فرعون وهامان وجنودهما ولم يفلح أكبر رأس في التاريخ للرأسمالية وهلك قارون كما هلك فرعون وتبيّن الناس عندما هلك قوم لوط أن الشذوذ والخروج عن الطبيعـة هو بعينـه مهلك الإنسان ورغم ذلك كله لم تصدق قريش أن الله هو الرحمن حتى قالوا من فرط خيبتهم «ومـا الرحمن» وزادهم ذلـك نفوراً من محمـد ﷺ وما يـدعوهم إليـه والمسألة تاريخية والمسألة عويصة وكل الجدل الذي كان ومن الممكن أن يكون لن يصرف الأمة عن عشقها وهيامها بالمادية والرأسمالية وترى كبيرهم وقد تقلد الفكر الرجعي بحجة الحرية وكرامة الإنسان ونسي أن كرامة الإنسان في المجتمات ليست كرامة الأشخاص وإنما هي كرامة الإنسانية.

١٣ ـ ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِع الصُّم أَوْ تَهْـدِي العُمْي وَمَنْ كَانَ فِي ضَـلَالٍ مُّبِينٍ﴾(١)

ـ تلك هي مشكلة المادي الذي لا يمكن أن يسمع لصوت العقل حتى يسمع صوت الدبابـات ولن يهديـه محمد ﷺ ولن يهـديه القـرآن ولن يهديه من في الأرض جميعاً،والمشكلة في مثل تلك المجتمعـات هي مشكلة ضياع حق الإنسان وكرامته عند ربه ولن تجد في تلك الأمة مبدأ تكافؤ الفرص الذي يحدثنا القرآن عنه من خلال الربوبيـة وأن الإنسان عند الله سواسية وما كان رب موسى وما كان رب عيسى ومـا كان رب محمد ﷺ إلا آية لرب العالمين وأن القدرات الروحية التي كشفت عنها تجارب هؤلاء الرسل توضح أن الإنسان أي إنسان لديه إمكانات هائلة ليدركها إلا من التجربة والمشكلة أن المادية لا تعتبر بذات كل شخص وإنما تعتبره بما لديه من المال وما لديه من البنين وما لديه من السلطان

(٢) سورة الزخرف: الآية ٤٠.

وما لديه من الطغيان وتساءلت قريش ما شأن محمد ﷺ الفقير اليتيم حتى ينزل عليه هذا القرآن العجيب وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم لنتبين ضياع حقوق الإنسان في الرأسمالية بحجة حرية الإنسان وكرامته فتنقلب الحجة على أصحابها وتختلط الألوان وتضيع الحقوق وكرامات الناس.

١٤ ـ في التجربة أصبح محمد ﷺ والقرآن آية عظمى للروحية ولم يكن لديه مال ولم يكن له من جاه قومه نصيب ومن قبل كان موسى لا يتمتع بسوار من الذهب حتى قال الطاغية فرعون **﴿أمعك أسورة من ذهب﴾** لنتبين عبادات الأمة والمعيار فيها ولنتبين أن معايير المادية والرأسمالية هي ما يملكه الإنسان وليس ما يستطيع أن يقدمه في الإبداع والعمل ومثلما استطاع العبيد في التجربة أن يقيموا سلطان الله والروحية ويذهبون بسلطان قريش كذلك استطاع أرذال الناس من تجربة نوح أن يصنعوا السفينة معه لأول مرة في التاريخ وأجلاف العمال والفلاحين في الشيوعية استطاعوا أن يقيموا الدولة السوفيتية والقوة العالمية ودحروا طغيان النازية التي هزمت الأمبراطوريات وأذلت الغرب كله.

١٥ ـ **﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾** لنتبين مخاطر هذا المعيار الذي يذهب بحق الانسان وكرامته عند ربه لا بد لنا أن نوضح مشكلة المادية في التاريخ كله وأن القرآن عبر عن ذلك في حب الإنسان للمال والبنين وأن هذا الغرام العنيف بالمادية هو الذي جعل الناس يكذبون بالرسل ودعاة الروحية ومثل ما كان عليه قوم نوح من ذلك منذ آلاف السنين ما زالت الرسمالية الوجه القبيح لهذا الأمر أيضاً بل إن تلك المسألة وهذه العلة التي لا داء لها هي التي أجهضت الأديان كلها وجعلتها تقف في صف الشيطان ولا تقف في صف الرحمن وأهل الكتاب والأديان والمفروض أنهم يرثون سلطان الله في

الأرض ولكن الداء اللعين غلبهم على أمرهم حتى زال عنهم سلطان الله وغلبتهم الأمم لنتبين عمق هذه الجراح التي أثخنت بها الأمة.

إن الروحية في القرآن ليست هي منهج الفردية والمادية ولكنها القدرات التي تمتع بها الإنسان من قيمة العقل والادراك والابداع وما يملكه الناس من زخرف الدنيا الذي يمنع تلك القدرات من إثراء الحياة الإنسانية وكم من عبقري لم يجد فرصته بسبب الفقر أو الوضع الاجتماعي أو بسبب الطائفية أو العنصرية ويحكي القرآن أن اليهود ملاعين المادية وعبدة الجاه والسلطان والمال احتجوا على داوود وقد كان راعياً مسكيناً غلباناً لا مال عنده ولا جاه ولا سلطان ورغم ذلك جعله الله عليهم ملكاً لما كان يتمتع به من بسطة في العلم وبسطة في الجسم والقوة البدنية ومضرب الأمثال في القرآن أن الله يصطفي من الناس ليس لما لديهم ولا لجاههم ولا لسلطانهم ولكنه يصطفيهم لقدراتهم الروحية التي وهبها لكل إنسان إن أدركها في نفسه.

١٦ - يعجب القرآن من عقيدة الماديين ويقول إن الله جعل كل ما في الأرض وما في السماء في خدمة الإنسان من خلال الابداع والقدرات والعلم لكن الجهلة والحمقى يعتقدون أن الأموال والسلطان والأبناء والزخرف وكل ما يمكن أن يملكه الإنسان هو قدره وهو غاية وجوده والمسألة ليست كذلك ولو كان الأمر عند الله هو تلك الزخارف لجعل للناس بيوتاً من الذهب الخالص من الفضة والماس إذ أن الله لا يعجز أن يجعل للإنسان تلك الاشياء ولكن خطورة هذه الاعتقادات أنها تجعل الإنسان يكفر بربه ويعتمد على غيره ومن ثم يخسر حياته ودنياه وآخرته وتلك هي القضية الكبرى التي يكشفها كتاب «الزخرف» المبين ويفند أثرها ويقول للماديين الذين يعبدون رأس المال إن العاقبة وخيمة حقاً ولن يدرك هؤلاء المسألة حتى يقعوا في الكفر والخسران المبين.

١٧ - إن الآثار المترتبة على العقيدة في المادية آثار مدمرة على الإنسان

ومصيره والأغنياء البلداء وهم معتمدون في حياتهم على الترف والكسل والغرور ولايمكن أن يعملوا من أمر نفوسهم ما استودعها الله من جليل العلم أو جليل المعرفة أو جليل القدرات ومن ثم يغادرون الدنيا بحياة خاوية وقلم لم يستطع صاحبه أن يشغله بالتجربة والمتعة الروحية التي هي نفسها التي تبقى للإنسان في أخراه.

١٨ ـ يقول القرآن وهو يكشف المتطرفين في العقيدة المادية التي تخلق لصاحبها شيطاناً فهو له قرين إن هؤلاء المتطرفين لا يمكن أن يرضوا بأي عقيدة سوى ما عندهم هم حتى لو كان ما عندهم هو أحط العقائد ولذلك ضرب لهم مثلاً بعبادة المسيحيين لابن مريم وهو بكل تأكيد خيراً مما يعبدون من الأصنام ورغم ذلك رفضوا قائلين إن آلهتهم الحجرية الصنمية أفضل من عبادة المسيحيين لعيسى لنتبين مدى انحطاط العقل لدى المادي المتطرف الذي جَعل الله له شيطاناً قريناً ليضله في كل موقف وفي كل عقيدة.

إن المشكلة ليست تسلط العقيدة على فكر صاحبها وإنما المشكلة في التطرف والمادية وفي قصة الكافر بربه في سورة «الكهف» نرى البديل عند هؤلاء الماديين والكارثة أنه يعتقد في محاباة ربه له بحيث يغدق عليه من المادية والأموال ـ ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْن جعَلْنَا لأحَدِهِمَا جَنّتَيْنِ مِنْ أعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً* كِلْتَا الجَنّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِنْهُ شَيئاً وَفَجّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهراً* وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أنا أكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأعَزّ نَفَراً* وَدَخَلَ جَنّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِه قَالَ مَا أظُنُّ أنْ تَبِيدَ هَذِه أبداً * وَمَا أظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمةً وَلِئن رُّدِدْتُّ إلَى رَبِّي لأجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً * قَالَ لَهُ صَاحِبَه وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أكَفرْتَ بِالذي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمّ مِن نُطْفَةٍ ثُمّ سوّاكَ رَجُلاً* لكنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلاَ أشْرِكُ بِرَبِّي أحَداً﴾[1] ـ يا له

(١) سورة الكهف: الآيات ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨.

من غرور ويا له من كفر ويا لها من مادية لا تتوقف حتى تهلك صاحبها ولذلك يبين كتاب «الزخرف» خطورة المادية على عقيدة العرب وقريش وهم لا يدركون العلاقة الصحيحة بين الإنسان وربه.

١٩ ـ من العجب أن نرى الردة والمرتدين في كل دين فقد نشأت اليهودية على روحية موسى والمسيحية على روحية عيسى والإسلام على روحية محمد ﷺ ورغم ذلك انقلب الناس وارتدت الأمم وفعل الأحبار والرهبان كل منكر وصكوك الغفران والمتاجرة على كل حق والتزييف والتحريف والافتراءات والانتكاسات وبعد نوح وابراهيم فسدت الذرية وأضاعوا الكتاب والوصايا والدين لنتبين المصيبة التي تعصف بالقوميات والأمم والنكبة الكبرى التي تبتلى بها عقائد الإنسان ولذلك يقول القرآن لمحمد ﷺ إن تكذيب قريش هو سنة جارية في الأمم وهلاكهم بالمادية أكيد ومحقق.

٢٠ ـ ذهبت قريش لليهود والنصارى يستفتونهم في أمر محمد ﷺ وعقيدته ويرد اليهود بأن الله اتخذ من عزير ابناً له ومثل ذلك قالت النصارى في عيسى ليجعلوا من شأن العرب قومية من الدرجة الثانية وأثار القرآن مشكلة المسيحية ومشكلة اليهودية في أكثر من موضع لبيان فساد تلك العقائد وأنها إنما أريد بها السلطان الدنيوي وشعب الله والعنصرية ولكن البعد الذي قدمه نسق «الزخرف» قد أوضح الجانب الخفي في تلك العقيدة إذ هي تكرس فرقة الناس في الله ولو كان لله ولد لعبده محمد ﷺ ولما استكبر عن ذلك ولكن الحقيقة أن الله لم يتخذ ولداً وهو يتعالى عن تلك المشابهات وكيف يكون هو الرحمن ثم يجعل من الناس شيعاً وطوائف وطبقات؟

٢١ ـ ليس في عقيدة الرحمن إلا السلام والإخاء الانساني ومن يفرق الناس في الله مثل أهل الكتاب والأديان لا يريدون وجه الله على الحقيقة إنما

يريدون الزخرف والدنيا ووجه الشيطان ﴿قُلْ إنْ كَانَ لِلرّحْمَن وَلَدٌ فَأنا أوّلُ العَابِدينَ * سُبْحَان رَبِّ السَّمواتِ والأرْض رَبّ العَرْش عَمّا يَصِفُونَ * فَذَرهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذي يُوعَدُونَ * وَهُوَ الَّذي فِي السَّماءِ إلهٌ وَفِي الأرْض إلَهٌ وَهُوَ الحَكِيم العَلِيم * وَتَبَارَكَ الَّذي لَه مُلْكُ السَّمَواتِ والأرْض وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَه عِلْمُ السَّاعة وَإلَيْه تُرجَعُونَ﴾[1]، لذلك لم يكن طرح النصرانية أو اليهودية إلا مكيدة من مكائد قريش ليصطدم القرآن ومحمد ﷺ بعقائد الملة ويكون من ذلك عون لهم على الدعوة والمؤمنين بمحمد ﷺ.

٢٢ ـ تلك هي ألاعيب الماديين والطبقيين والمترفين وقريش وما كانت أطروحة عقائد النصارى وعقائد اليهود إلا من قبيل الجدل وهم قد صمموا على التكذيب والكفر وتلك المراوغات إنما أريد بها صرف الناس عن القضية الحقيقية وهي قضية المادية التي يعتنقونها والزخرف وهيامهم به وافتتانهم بالأموال والتجارة ونشأة الطبقة المترفة فيهم والقرآن يقول لهم إن كان لكم عقيدة في الله كما تقولون إنه هو الذي خلق السماوات والأرض فلتكن عقيدتكم هي الروحية ولن تفيدكم في كثير أو قليل عقيدة الوثنية والصنمية ولن تفيدكم أيضاً عقائد أهل الملة من اليهود والنصارى لأنها عقائد أريد بها الاستعلاء وجمع الأموال وهيمنة السلطان وشعب الله المختار والله الذي يدعو إليه القرآن هو رب السماوات والأرض ورب كل إنسان وليس هناك في الأرض إله غيره وليس هناك في السماء سلطان سواه لنتبيّن أن القرآن جعل من نسق «الزخرف» الإعلان العالمي بحيث فند فيه كل الحجج وكل الممارسات وكل التخفيات وكل التحريفات وأوضح للناس أن ما يزيف عليهم معتقداتهم هي تلك الطبقة اللعينة وهي تعتنق أحط العقائد

---

(٢) سورة الزخرف: الآيات ٨١ ـ ٨٢ ـ ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٥.

والعلة الكبرى لكل داء أصيبت به الأمم كانت هي المـادية والـزخرف الذي حدثنا عنه القرآن.

لكن القيمة الحقيقية في نسق «الزخرف» إنما تكمن في الإدانة فليست المسألة دينية ولا هي عقائدية وإنما المسألـة ما بين أيـدي قريش من أسبـاب السلطان ولو كان محمد ﷺ عظيماً من عظمائهم لصدقوه ولكن كبر عليهم أن يقدم لهم هذا الفقير اليتيم ما هو أهدى وما هو أحق وما هو أرحم مما عندهم.

٢٣ ـ في أنساق «الم» والمهيمن كانت المشكلة القرآنية أنهـا تواجـه سلطان أهل الأديان وعقائد الملة وخرافاتهم وانحرافاتهم ولكن في أنساق «حم» وهي أنساق الحي المهيمن نجد القرآن يقدم الأطروحة في موضوعات الزكاة وموضوعات الروحية وموضوعات الشورى والديمقراطية والعرب وقـريش يرفضـون ويعانـدون لنتبين أن تلك الأنساق كـانت كالـدستور الجديد للعـرب ولكنهم كقوميـة ماديـة مثلهم مثل مـنا سبقهم من تلك القوميات لم يفهموا ما يدعوهم القرآن إليه إذ الأمم في اعتباره لا تقوم على القومية والعصبية كما هو الحال في وضع قريش بـالنسبة للعـرب ولكن تقـوم الأمم على الروحيـة وعقائـدها السـاميـة ولكنهم من فـرط عبادتهم للتقاليد والعادات والتراث لم يثقوا في هذا المنهج حتى قالوا لمحمد ﷺ إنهم إن يطيعوه في ذلك الأمر يتخطفهم النـاس من حولهم عملاً بقول الشاعر ومن لا يظلم الناس يظلم لنتبين أن نظرة القرآن إلى معنى الأمة أوسع وأرحب بكثير من نظرته إلى القومية ولذلك كان يريد أن يتخطى العرب مرحلة القومية ليكون منهم أمـة تشمل العـربي وغير العربي وهو ما حرم منه اليهود وأهل الكتاب إذ جعلوا الأمـة أمة شعب الله وحدهم ومارسوا بهذا الاعتقاد عقائد القوميات أيضاً.

٢٤ ـ النقـد الأممي يظهـر في القرآن لبيـان موضـوع انحرافـات أهـل الملة والكتاب وما قاموا به من تحريف العقيـدة ولذلـك قدم الإيمـان الحق

والقصص الحق والدين الحق والعقيدة الخالصة ولكنه في نقد القوميات أوضح للناس موضوعاً واحداً قوامه مادية القوميات في قوم نوح وقوم إبراهيم وقوم هود وقوم لوط ليتبين الناس أن القومية لا يمكن أن تقيم حضارة للانسان حتى أوضح أنها الشذوذ بعينه عندما كان قوم لوط يمارسون الجنس مع الذكران من العالمين ورغم ذلك كله لم يفهم العرب ولا قريش أن مصيرهم المنتظر مصير أي قومية هلكت من قبلهم لنتبين عقائد الأمة القرآنية التي دعاهم إليها محمد ﷺ وأنه كان يريد أن يقدم للناس الأمة الحق والأمة الخالصة والأمة العالمية التي ليس لها رب إلا رب العالمين وهو يكلأ كل أفراد العالم بعين رعايته وتوفيقه.

البراهين التي استخدمها نسق «الزخرف»:

١ ـ استخلص القرآن من التاريخ وأحداثه أن هلاك الحضارات كان بسبب المادية وهذه حكمة بالغة يقدمها القرآن لقريش إذ لم تكشف الكتب السماوية عن السبب الكافي لهلاك القوميات.

٢ ـ إن دعوة القرآن لتصحيح مفهوم الله عند قريش تقوم على قراءة الطبيعة ومعرفة أسرارها والغاية التي خلقت من أجلها ولذلك يقول لقريش إن الله كما ينظر إليه هو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأنْشَرْنَا بِهِ بَلْدةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرِجُونَ * وَالَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِن الفُلْكِ وَالأنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذَا اسْتَوَيْتُم عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الّذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإنَّا إلَى رَبِّنَا لَمنْقَلِبُونَ﴾[1] ولا يجعل ذلك كله في خدمة الإنسان إلا من كان رحيماً بالناس ولذلك يستنتج العقل من تلك الآيات أن الله هو الرحمن الذي يدعوه محمد ﷺ والقرآن.

٣ ـ لو نزل الله المطر بغير قدر فنزل قليلاً لكان القحط ولو نزل كثيراً لكانت الفيضانات والطوفان لكن الله ينزل المطر بقدر معلوم لا زيادة ولا نقصان فتحيى الأرض الموات ويكون من ذلك نعمة للناس ومثل ذلك ما خلق الله من أنواع النبات والحيوان وهي بالملايين وفي هذا بركة لمطالب الإنسان وحاجاته والأنعام والدواب يركبها الإنسان ولم يكتف بذلك بل حمل الإنسان في البحر وخلق له من مثل الدواب السفن والطائرات والصواريخ ليتبين الإنسان أنه منقلب إلى روح خالق مبدع مثل ربه وهي نعمة النعم ولو كان رب الإنسان غير الرحمن ما أغدق عليه من نفس

---

(١) سورة الزخرف: الآيات ١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤.

روحه هو حتى صار الإنسان اليوم في مصاف القدرات الطبيعية ليتبين العرب وقريش أن الله كما يفهمه القرآن هو التطور والخلق والإبداع وليس الجحود على مفهوم الوثنية والصنمية والتقاليد والعادات القديمة والصور التقليدية للقوميات والمجتمعات التي لم تدرك قيمة الإنسان في تلك الحياة.

٤ ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ تلك هي الغاية التي يحددها القرآن لوجود الإنسان وأن الوجود الجثماني والجسدي هو الوجود النهائي لنا وإنما هو رحلة ومرحلة يلتقي الإنسان في نهايتها بربه فيصير روحاً خلاقاً مبدعاً مثله ودليل القرآن أن الإنسان يقرن الآية العقلية بالآية الحسية فيكون من ذلك كائناً تكنولوجياً مشابهاً لما في الطبيعة وأن السفينة واختراع نوح لها قد كان ذلك من هذا القبيل واليوم إذا استوى الإنسان على السنن والطائرات والصواريخ وسفن الفضاء وكل الآلات التي أبدعها فإنه يوقن من ذلك كله أن روحاً من الله الذي أبدع خلق الطبيعة من حولنا وهذا أكبر الأدلة على أن الإنسان لم يخلق للمادية وإنما خلق للمصير الروحي الذي يحدثنا القرآن عنه وما قيمة الزخرف وما قيمة الذهب وما قيمة المادية كلها في تلك الكفة الروحية وقدرات النفس البشرية وما يمكن أن يرقى إليها الإنسان والقرآن يقول أن الله الذي خلق السماوات والأرض هو العزيز العليم ومن خلال قدراته العلمية أمكن له إبداع ما لا يحصى من الأزواج والأنواع التي ملأت الأرض ثراءً وملأت السماء ملائكة وأرواحاً وهو يدعوهم إلى الرحمن وهم يقولون له «وما الرحمن» لنتبين الهوة السحيقة بين مفهوم الله عندهم ومفهومه لدى محمد ﷺ والقرآن.

٥ ـ كائنات الطبيعة وكائنات التكنولوجيا والفلك الذي أبدعه نوح لأول مرة في التاريخ لبيان قدرات النفس البشرية ورب الإنسان وهذا الثراء العريق في قوة العلم والخلق والإبداع وما سخر الله من كائنات الأرض وكائنات

السماء والشمس والقمر وهذا العالم والسنن والنواميس كل ذلك فعله رب الإنسان والناموس الذي يشع في روحه الخلاقة وقدراته التي سخرت ملايين الكائنات التكنولوجية اليوم لتتبين أن المادية والزخرف وكل ملء الأرض ماساً وذهباً وياقوتاً لن يساوي عند العقلاء اختراع السيارة مثلاً حتى لو كانت تلك السيارة عرضت على عظماء الملوك في أحقاب التخلف ورمسيس بعظمته وملكه فإنه كان يشتريها بما لديه من الملك كله ليعرف العرب وقريش أن دعوة القرآن للروحية هو الذي يمكن أن يفجر كل الثروات وكل الملك وكل السلطان وقد تبين لنا أن سلطان العلم اليوم هو الذي يشهد أن الله هو العليم القدير وأن رب الإنسان وطاقات الشعوب من الممكن أن تصنع الكثير والكثير مما أفاض عليهم الرحمن من العلم والمعرفة.

٦ - ﴿**سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين**﴾ ليعلم الإنسان مقدار ما أودع في قدراته وأن الإنسان لا يغنيه المال أو الولد أو أي سلطان أو جاه أو طغيان ولكن يغنيه العلم والروحية والابداعية ومن ينظر إلى حقيقة بعث الإنسان فإنه سيتبين أنها قدرة لرب الإنسان والروح في الناس لا تتوقف حتى تحيى الأموات وهي تفعل ذلك كل يوم فيما بين أيدينا من الطبيعية بل هي تسعى إلى كمالات الخلق كما اتضح لنا من خلقتها للأنواع والأطوار التي مرت بها حتى خلقت الإنسان من نفس الحيوان ونفس النبات «**الذي أنبتكم من الأرض نباتاً**» وفي ذلك كل الإيمان بالرحمن وكل الثقة في العزيز العليم الذي عرفه القرآن وتبينه وهم لا يعرفون ربهم ولا طاقاتهم.

٧ - هو يدعوهم للعزيز العليم وهم يدعونه للأصنام والأوثان وهو يدعوهم لمعرفة النفس على حقيقتها وهم يدعونه للعبودية والمادية بل يدعونه للحيوانية حتى يقول فيهم ﴿**إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل**﴾ لنتبين أن

الدعوة إلى العقل وإلى العلم وإلى الروحية والابداع وعدم التخلف وترك ما كان لدى الآباء والأجداد من المعارف هو الكفيل بتفجير الطاقات لدى الشعوب وما أحرزه الإنسان من التقدم العلمي والتكنولوجي اليوم إنما هو ثمرة لتلك الطاقات التي كانت قريش مدعوة لها ومستنفرة من أجلها وما كانت آية القرآن وإبداع رب محمد ﷺ لما أوحى إليه إلا ثمرة لما يحدثنا عنه روح الإنسان ولو أنهم تبينوا أن محمداً ﷺ لم يكن في يوم من الأيام كتابياً أو عالماً من علماء أهل الأديان لعرفوا أن الطاقات الروحية في الإنسان فطرة وأن علمه ومعرفته وعقله المبدع من الممكن أن تقدم كل المعجزات وكل الممكنات ولو أدرك القرشيون في أنفسهم تلك القدرة التي أدركها محمد ﷺ في نفسه وفي ربه لتبين لهم أن دعوته للتعبير وللتقدم هي الدعوة الحق وما يدعون له هو الباطل ولكنهم غفلوا عن أنفسهم فأنساهم الله قيمة العقل وقيمة الإدراك.

٨ ـ إن معجزة الخلق كله تتبدى في أصل الأنواع والأزواج كما يتحدث عنها القرآن في وحدة الخلق ويندهش لهذا الأمر في أكثر من موضع وفي أكثر من مناسبة وداروين عندما اكتشف نظرية التطور كما تبدو في الأنواع أيضاً لم يكن يدرك قيمة هذا الكشف في الإيمان وإن كان قد اكتشف أهميته في العلم والمعرفة ولذلك يقرر القرآن أن الإنسان لا يدرك معنى قدراته ومعنى الروح الثاوي فيه حتى يعرف كيف أبدع ربه تلك العمليات التي جعلت من أدنى الحيوانات مرتبة كائنات عليا راقية تتمتع بالعقل والوعي والإدراك لنتبين معنى النشوء ومعنى الارتقاء ومعنى الثقة في النفس حتى يتبين نوح أن التطور في نهاية الأمر سيخلق من الإنسان الفاني الجسدي إنساناً روحه من روح الله وهو الفتح العظيم الذي فتحت به كل رسالة عالم الروحية والسماء أمام الناس.

يقول القرآن في معرض النظر إلى قدرة الخلق عند رب الإنسان لو نظر

الناس إلى الطبيعة والأنواع وكيف بدأ الخلق وضيعاً دنيئاً جرثومياً ثم صار إلى ما صارت إليه كل الكائنات العلوية الموجودة ليتبين الناس أن ربهم له قدرات خارقة لا تتوقف أبداً وفي كل بيئة قابلت الكائنات ظروفاً معاكسة صعبة ورغم ذلك حدث التأقلم والاستمرار بل الترقي في سلم الخلق وكلما مات كائن من الكائنات بعوامل الفناء والعدم خلق رب الإنسان بدلاً منه أرقى وأفضل وأعجب ومثل ذلك عندما يفنى جسد الإنسان فإن ربه يبدله خيراً منه وأبقى ،وهكذا وضع القرآن مسألة الأنواع والنشوء والارتقاء في خدمة الإيمان والثقة بالله وبالنفس وأن الإنسان مهما داهمته الصعاب فسينتصر في النهاية وليس هناك أكثر صعوبة من مواجهة الموت ورغم ذلك يبعث الإنسان حياً بفضل ربه العزيز العليم ليكون من ذلك هدية لأصحاب الروحية والمنهج الذي يدعوهم إليه.

٩ - ﴿**كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة**﴾ لذلك فالضمانة التي يبعثها القرآن للبرهان على الروحية وقيمتها للإنسان هي نفسها الضمانة التي نراها في الكائنات التي أثرت الطبيعة بالأنواع والأجناس والأفراد وأن هذا الملكوت الطبيعي من صنع رب الإنسان والناموس الروحي في كيانه وكأن القرآن يقول للناس إن كل تلك المبدعات التي ترونها بين أيديكم هي من صنع أنفسكم وقدراتها جاءتكم عن طريق الرب الذي يدعوكم إليه القرآن حتى نسب إليه الاحياء والإماتة وكل ما يجري في هذا العالم ورغم ذلك كله لا يدرك الإنسان قدره وشأنه عند ربه حتى يقول في سورة «البقرة» إن الله ما خلق شيئاً في الأرض ولا في السماء إلا من أجل الإنسان لنتبين أننا غاية الوجود كله بل إننا وراء كل ما يحدث في هذا الوجود فكيف بالله يفسر الإنسان تلك الزخارف الكاذبة من الأموال أو الأولاد أو الجاه والسلطان.

١٠ - ليس بعد هذا الملكوت الذي بين يدي كل إنسان ما يمكن أن يكون

بديلاً وإلا كان الإنسان الذي يعرض عن ذلك هو المخبول الحقيقي ما دام الإنسان في مكنته وقدراته الباطنية حتى يميت وحتى يحيى وقد فعلها عيسى من قبل إذ أمات وأحيا بإذن الله لنتبين ما يدعونا إليه القرآن من جلال هذا الملكوت الذي وعدنا به وأنه لملكوت يفوق ما بين أيدينا من عجائب وغرائب الطبيعة وها هو الصاروخ أو سفينة الفضاء أو غير ذلك شاهد على صدق الوعد إذ بكل لمسة من لمسات الإنسان وعقله تنطق الأشياء ويكبر المذياع وتضيء الصورة في التليفزيون ويزمجر الصاروخ ويصرخ القطار حتى يقول القرآن «سبحان الذي أنطق كل شيء» لنتبين أن المسألة ليست عبثاً ولا هي لهواً ومن لم يدرك ما أدرك محمدﷺ والقرآن فلا حاجة له فلن ينفعه ذهب الأرض أو خزائن قارون وهي دعوة ليست بالهيمنة ومشكلة كبرى أن تفهم قريش أو يفهم العالم أسماء الله الحسنى على غير مفهوم القرآن حتى يقولوا «وما الرحمن»؟ وزادهم نفراً.

تلك الدعوة إلى الملكوت الذي جاء من بعضه عالم الطبيعة التي بين أيدينا هو المنهج الذي يريد القرآن أن يقيم منه صرح الروحية في الأرض ويا للفرحة ويا للبرهان ويا للشهادة فقد تحقق من ذلك الملكوت الذي وعدنا به ربنا بعضاً منه في العصر وتلك الكائنات التكنولوجية الرائعة هي الدلالة على واقعية وحقيقة هذا الملكوت حتى يقول القرآن ما إن تؤمنوا بربكم حتى تدخلوا تلك الجنات وتلك الروائع وتلك البدائع ولنتبين أنه لو قال العلم الذي هو هبة رب الإنسان له أنه يمكن تصنيع اللحوم عن طريق البيكتيريا ويستغني الإنسان استغناءً نهائياً عن الحيوانات فما حاجة الإنسان وقتئذ حتى للعالم الطبيعي وكائناته وليعرف الذين ينكرون قدر وحقوق الإنسان أنهم أمام الكائن الفائق للطبيعة لأن طبيعته ليست من المادة وزخارفها بل هي روح الله في المادة.

١١ ـ استمسك القرآن في كل موضع ندد فيه بالكافر بربه وعدم معرفته له ولم

يبين في نفسه تلك القدرات بقضية البعث والحياة الروحية ليبين لنا أن أدنى العوالم هي التي خلقت بالمادة وأن تلك الحياة التي نحياها هي الحياة الأدنى في سلم الرقي الروحي وما خلق الله الإنسان في هذا العالم المادي وزرعه فيه إلا ليعرف تلك الامكانات وتلك الطاقات وليبين له عين شهادة ورؤية أنه روح خالق سيد لكل ما هو دونه وليكون له من ذلك إيمان بالرب والمصير المنتظر ولهذا لا نجد في القرآن موضعاً لذكر الروحية حتى جاءت قضية الآخرة وما فيها من نعيم لأولئك الذين آمنوا بربهم وما ورد فيها من الجحيم وسعر وصقر ونار الله الموقدة لهؤلاء الذين لم يعرفوا عنْ قدراتهم وعن طاقاتهم وعن ربهم شيئاً حتى أصبحت القولة الشهيرة «اعرف نفسك» هي القضية المصيرية كلها.

١٢ - هل كانت قريش أو أي قومية صنعت لله صنماً أو وثناً أو جعلت له ولداً أو اتخذت له ابناً تدرك ما أشار إليه القرآن أو تعرف ما عرف من علاقة الإنسان بربه وطاقاته وامكاناته ولذلك اختلفت المفاهيم وجاءت للسعة في القرآن الأسماء الحسنى مقننة المعاني محددة المفهوم ولم يترك القرآن موضعاً للشك أو للتحريف وهو يقدم في سورة «الرحمن» كمثل نسق من عشرات الآيات يمكن الاستدلال بها أن رب الإنسان هو الرحمن وليس كما تصوره التوراة رباً قاسياً يأخذ الشعوب بغير رحمة لأن الظروف التي كانت سائدة في تلك الأمة اللعينة تستوجب ذلك وهذا هو الفارق الكبير بين رب القرآن الذي يرعى العالم كله بالشفقة والرحمة ويفتح باب التوبة والمغفرة للإنسان ويصد عنه باب العذاب والآلام ولا يتوقف هذا الرب ليترك الإنسان يصير إلى الموت والفناء بل يبعثه حياً من جديد في عالم أفضل.

في كل موضع يقوم الجدل بين الكفار والمؤمنين يقول القرآن ألا يكفي

الإنسان أن يبعث حياً من جديد بعد الموت وآلامه ويستنكر أن يطلب الإنسان من ربه آية بعد هذا الأمر وليتبين كل جاهل أن المال لا يفيده ولا السلطان ولا الجاه ولا أي زخرف مهما كان له من حول ولكن القوة الحقة هي في باطن النفس البشرية وهي التي تغنيه وتكفيه حتى يواجه بها كارثة ما يحيق به من الموت والفناء.

ليس هناك ضمانة للإنسان وقلقه وانعدام الثقة لديه إلا تلك المعرفة القرآنية التي تقدم له ربه ونفسه في أكمل الصور وأتم الخلقة وأبدع القدرات لتعرف أنه لا كرامة لنا إلا بالروحية ولا مصير لنا من دونها ولو كان ينفع الناس الذهب والزخرف لجعل الله بيت الإنسان من الذهب الخالص ولما نقص ذلك من ملكه شيئاً لكن المسألة هي كيفية معرفة المنهج ومقتضيات العلاقة وسنجد أن تلك الزخارف ورؤوس الأموال وكل السلطان لن يحيي نفساً ميتة وإنما يحييها رب الإنسان الذي يدعونا إليه القرآن.

١٣ - ليس هذا الوعد بالملكوت في الحياة الآخرة فقط وإنما هو بين أيدينا أيضاً. وفي تلك الحياة الأرضية وعندما بشر عيسى بقرب مجيء الملكوت على يديه والآيات التي أعجزت الناس فعل مثله القرآن وأوضح أن حمل مريم من غير اتصال آدمي وكلام عيسى في المهد إنما كان بشارة بما يحدثنا عنه الله والقرآن وكل نبي وكل رسول كان آية لهذا الأمر حتى قدم القرآن الآية الكبرى التي لا تدحض وما كان لمحمد ﷺ من علم ولا هداية ولا كتاب من قبل بل كان أمياً منتسباً لقومية من الدرجة المحتقرة ولذلك يقول رُبّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره والدعوة إلى الملكوت تأتي في المواضع التي يتبين للقرآن كفر الإنسان بربه وضلاله واتخاذه من دونه ما لا ينفع أو يضر ونجد في بحث إبراهيم عن ربه أنه اعتقد في الأشياء الخارجية فنظر إلى النجوم ونظر إلى القمر ونظر إلى الشمس وهي الأجرام الكبرى والآيات العظمى ثم تبين له أن

ربه أعظم وأجل من ذلك بل إنه لا يمكن أن يكون له شبيه أو مثيل أو أي شيء مما يكبر في صدر الإنسان ولـذلك عـرف ابراهيم أن عالـم الرب هو عالم الملكوت الحق وكل ما يراه الإنسان في الطبيعة وخارج نفسه ما هو إلا صدى لتلك الحقيقة الكبرى التي يغفل عنها الجاهلون ﴿وَإِذْ قَـالَ ابْرَاهِيم لأبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَـذَلِـكَ نُرِي ابْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِن المُوْقِنِيـنَ * فَلَمَّـا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَل قَالَ لَا أُحِبُ الآفِلِيـنَ * فَلَمَّـا رَأَى القَمَرَ بَازِغـاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّـا أَفَـل قَـالَ لَئِنْ لَمْ يَهْـدِنِي رَبِّي لأكُـونَنَّ مِن القَـوْمِ الضَّالِيـنَ * فَلَمَّـا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَر فَلَمَّـا أَفَلَتْ قَالَ يَاقـومِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّـا تُشْـرِكُـونَ * إِنِّـي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَر السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ﴾[1]، لنتبين دعوة القرآن إلى الربوبية وأنه دعا قريشاً لترك موضوع الألوهية لأنه لم يعد هناك مكان لإله إلا رب الإنسان وهو نفسه رب العالمين وذلك كله لبيان ما يتمتع به الإنسـان من قوة هـذا الرب وابـداعه ومـا من آية في السماء أو في الأرض إلا كانت من صنعه وعمله.

يقول القرآن في بناء الملكوت وما ظهر منه من السنن في الطبيعة أن هذا الملكوت لا يحيا فيه إلا الكامل والتام والرائع من الكائنات ولذلك لا تكتب الحياة في الطبيعة إلا للأقـوياء الأصحـاء وكل مـا هو ضعيف ومـريض يذوي ويموت وفاسد الأمر حياة الإنسان يؤدي إلى موته والحضـارات والأمم تخضع لمثل ذلك وهلكت القوميات والأمم لمرضها وضعفها وفسادهم لنتبين أن هذا الملكـوت القرآني هـو الملكـوت الـذي جـرى على سنن الله في خلقـه ولن تستطيع قريش بالمادية أن تضمن لنفسها البقاء ـ ﴿وَمِمَّن خَلَقْنَـا أُمَّةٌ يَهْـدُونَ

---

(١) سورة الأنعام: الآيات ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩.

بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِن حَيْثُ لَا يَعلَمُونَ * وأُملِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ وأَنْ عَسَى أن يَكُونَ قَد اقْتَرَب أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(1).

لو كانت الحضارات تستطيع الاستمرار دون القدرات لما انهارت القوميات ولكننا وجدنا أن الأفراد ذوي الامكانات والقدرات هم الذين يصنعون الحضارات وشاهد التاريخ لا جدال فيه ولكن المشكلة بالنسبة لمنهج القدرات هو أنه يريد التعميم لكل الناس بعثاً للثقة في نفوس الشعوب ولنتخيل حضارة مثل حضارة الإسكندر إذ قامت على مجهوده الفردي وللنظر الآن إلى ما بين أيدينا من حضارة العصر العظيمة وأنها من نتاج العديد من العلماء والتكنيكيين وكلما زادت الطاقات البشرية المبدعة ظهر الملكوت في الأرض لنتبين أن الإنسان صنيع الملكوت الإنساني الذي سيفوق هذا الملكوت الطبيعي والفرق بين الأثنين هو الفرق بين الحصان والسيارة وكلما دخلت الشعوب بقدراتها وامكاناتها في التطور والتقدم والعالمية جاء ملكوت الله حتى يقول القرآن إن الأرض ستأخذ زخرفها وزينتها بجهود المبدعين حتى يتبيّن للناس أن هذا الملكوت الذي دعوا إليه حق ويقين ولو عاشت رجال قريش حتى ركبوا الصواريخ لما كذبوا محمداً ﷺ ولآمنوا بالقرآن.

كل الناس والأمم مدعوون للدخول في ملكوت الله وكذب القرآن أهل الكتاب والأديان لاعتقادهم أن شعوبهم وحدهم تدخل هذا الملكوت حتى كفروا كل الناس وكل الأجناس وكل الأمم ورغم ذلك جاء الله بالعلم على يدي كافة الأمم والشعوب ولم يكن فيه فضل واحد لأهل الكتاب والأديان إنما كان الفضل وحده لرب العالم الذي يدعو إليه القرآن لنتبين معنى الدخول في هذا

---

(1) سورة الأعراف: الآيات ١٨١ ـ ١٨٢ ـ ١٨٣ ـ ١٨٤ـ ١٨٥.

المهرجان الإنساني الذي يجمع فيه الرب بين الرجل الأبيض والرجل الزنجي الأسود وبين الرجل الملون والرجل الأصفر حتى لا يكون هناك شبهة فضل لأحد على أحد وعندما اكتشف ديكارت أن الله لم يساو بين الناس إلا في العقل اتضحت المسألة وأصبح في الامكان أن يؤتي الله أحداً من الناس هذا السلطان رغم كل الحواجز ورغم كل العقبات ورغم كل السدود والموانع - ﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوت كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

لذلك يعتبر القرآن أن ما استبطنته النفس البشرية من تلك الطاقات الروحية الخلاقة هي بمثابة عرش عظيم لجلال الخالق وقدراته التي تجلت في خلق آدم من الطين وتلك المراحل والخطوات والتطور ملايين السنين من النشوء والارتقاء حتى أصبح الإنسان كائناً روحياً عاقلاً مبدعاً كما يحدثنا عنه القرآن في كل موضع وليس الأمر كما استهان الناس بأهيمتهم وأقدارهم عند الله وإنما يعرف هذا الأمر هؤلاء الأفراد الذين خبروا طاقاتهم الروحية أمثال محمد ﷺ والذين أرسلوا من قبل أربابهم - ﴿قُلْ من رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العرْشِ العَظِيمِ﴾[2] - لنتبين أن ما تمتع به الإنسان من تلك القدرات في حواس اللمس والشم والسمع والبصر والذوق والحس المشترك هو جليل الخلقة وكمال النشأة وما كان من المخيلة والذاكرة والواعية وكل الإدراكات التي أصبحت للناس على الكافة وليكون لنا مما يمكن أن يبدعه الإنسان تلك النظرة التي ينظرها القرآن إلى هذا الكائن الروحي المودع في باطن كل عاقلة قد كرمها الله بفضله وإحسانه.

١٤ - من لم يدرك قيمته كإنسان فلا حاجة له أن يتعلم أو يتثقف أو يبحث عن المعرفة لأن ذلك كله سيكون عبرة كاذبة وهذا أفضل من أن يعمل الإنسان وهو مؤمن يعرف طاقاته وقدراته حتى لا ينهار أمام موقف من المواقف أو

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٨٨.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٨٦.

عقبة من العقبات لأن الفرق هائل بين من يعمل وهو لا يدري تلك الصلة بينه وبين الملكوت ومن يؤمن به حتى يقول لهم محمد ﷺ ما إن تدخلوا عالم الإيمان بالرب والملكوت حتى تجدوا الملائكة جنداً مجندة لكم وهم بالعشرات والمئات والآلاف وهو فضل الإيمان ويا للحسرة من يعمل ولا يدرك هذا الأمر فإنه سينهار أمام أولى العقبات وعند أول كبوة له ليكون من ذلك هذا الملك العريض الذي يشمل عرض السماوات والأرض ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُم مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] ـ لذلك فإن قدرات الإنسان الخلاقة لا تقف عند حد إذ أن ربه لم يعجز عن خلق شيء بل إنه سيبعثه حياً بعد الموت وقد خلقه من قبل ولم يك إلا نطفة حقيرة لنتبين مقدار ما في نفوسنا من هذا الروح العظيم الذي اتخذ من النفس البشرية عرشاً له قد أتمه بكل آية وبكل زينة وبكل علم وبكل هداية وبكل فضل وفضيلة حتى يقول في الحديث القدسي «خلقت الإنسان على صورتي» في القدرة والإبداع والخلق والإنشاء أيضاً.

ما بال الناس لا يفهمون؟ ما بال الناس لا يعقلون؟ ما بال الناس لا ينصتون؟ إن المسألة مسألة مصير وهذا القرآن نزل على الأمي الذي لم يكن له علم بكتاب أي كتاب ولم يكن لديه مقدرة أية مقدرة ولم يكن له نصير ولا ولي

---

(١) سورة يس: الآيات ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢ ـ ٨٣.

ولم يكن له في شأن الناس ورغم ذلك كله كان ملكوت محمد ﷺ وملكوت القرآن وهذا العرش الوضاء الذي فتح الفتح لكل الناس ولأي إنسان وبشر بقرب الملكوت بين يديه ليكون من تلك الآية الكبرى عظة لكل منكر وبرهان لكل غافل وحجة لكل دارس.

من لم يشرب من رحيق هذا القرآن فلم يذق أي طعم ولو عاش آلاف السنين ومن لم يترع من هذا الكأس فقد خاب ومن لم يعرف العرش العظيم والملكوت فقد مضى العمر به وكأنه دخل من باب وخرج من باب آخر لتتبين خسران الكافرين وعاقبة المشركين الذين باعوا هذا الملكوت بالدينار وبالسلطان وبالجاه والطغيان.

١٥ - يقول القرآن إن الصراع بين المادية والروحية في الإنسان ليس من فطرة الإنسان وإنما يأتيه من خارج بعوامل التراث والبيئة وغيرها ولو ترك الإنسان وفطرته لما اختار المادية ولذلك اعتمد ابراهيم وهو يمثل الرائد الأول للبحث عن الربوبية والفطرة على قدراته الذاتية وطوف في الآفاق يدعو لهذا المبدأ وما تركه إبراهيم من التراث في العرب وبنائه لبيت الله الحرام ليشهد على هذا الأمر إذ يرمز بكل القيم المتجسدة فيه للروحية والسلام والأمن لتتبين قريش أن المادية والزخرف ضد الفطرة التي هدت إبراهيم إلى ربه.

إن اعتقاد قريش أنهم على عقيدة ودين كان اعتقاداً زائفاً لأن ابراهيم كان فطرياً مسلماً لربه ولم يعتمد على أي سلطان إلا سلطان الله وهم يقيمون هذا السلطان بالطبقية والأموال والجاه وما إلى ذلك ولهذا فهم على الحقيقة لا ينتسبون لهذا الأب والداعية العالمي إذ لو كانوا كذلك لاعتنقوا ما يدعوهم إليه محمد ﷺ والقرآن من العدل والرحمة والمساواة بين الناس.

١٦ - لقد أرسل الله موسى بالآيات البينات إلى فرعون وملئه وكشف رب موسى للناس أن الطائفية التي يمارسها فرعون ليست من مناهج الفطرة

التي فطر الله الناس عليها ومحمد ﷺ والقرآن يقدم لقريش مثل ذلك إذ الطبقية ومظالمها ليست من الله وإنما جاءتهم من تقادم الزمن على تجربة إبراهيم في الربوبية وها هو رب العالمين الذي يرعى كل الناس على كافة قومياتهم وأممهم وشعوبهم لم يترك آية من الآيات صغيرة ولا كبيرة إلا قدمها لفرعون وقومه بل إنه أخذه وقومه بشتى ألوان المصائب لعلهم يرجعون عن الطائفية كمنهج ولكن الغرور والحماقة وقفت أمام إيمانهم بموسى وما بين يديه من الآيات حتى هلكوا ومثل ذلك ينتظر قريشاً والقرآن يكشف عناد قوم فرعون لعل ذلك يكون لقريش منه موعظة لكن جبروت الطاغية وتكبره كان سبباً في موردهم وهلاكهم وكل طاغية يقوم في قريش بدور الفرعون يوردهم محاتفهم ومصارعهم دون إدراك تلك النتائج.

١٧ ـ ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾[1] ـ لذلك فالطبقة المترفة في المجتمعات الرأسمالية تتسلط على الناس ورأس الشيطان فرعون يجعل من نفسه إلهاً يعبد من دون الله وفي كل سبب وألف سبب كانت الطبقية والمترفون والأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال وراء انهيار الحضارات ولا يفهم أبو سفيان وغيره إلا المادية التي يعتمدون على سلطانها ولذلك لم يكن من المتوقع أن يؤمنوا باليتيم الفقير محمد ﷺ أو يصفوا دعوة القرآن.

١٨ ـ لقد أدرك إبراهيم بالفطرة أن الهداية الحقة لا تأتي الإنسان من خارجه

---

(١) سورة الزخرف: الآيات ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤.

ولكنها تأتيه من قلبه السليم الذي لم تصبه آفة الطائفية أو آفة العنصرية ولذلك بارك الله في دعوة ابراهيم وجعلها باقية في عقبه وما تركه من التراث لكن المشكلة في هيام الإنسان بالطغيان والمادية حتى يعتقد أهل المسيحية وهم أهل ملة روحية في العنصرية والسلطان والمادية حتى قالوا إن عيسى ولد الله فزيفوا جمال الملة وروحانيتها ويقول القرآن إن ابن مريم ما هو إلا آية من آيات الروحية والحياة الآخرة التي أخفاها رب الإنسان عنه وفي تلك الحياة لا تتوقف الآيات على سبب مادي كما ولد عيسى بغير هذا السبب ولكن الناس لا يفهمون والمسألة كلها إنما تنحصر في تلك الكارثة والمصيبة وهي غلبة المادية للإنسان حتى جعل من أشرف العقائد والأديان شركاً بيناً بالله سبحانه وتعالى.

١٩ - يتساءل القرآن في شأن مثل تلك الكارثة فيقول لعيسى - **«أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله»** - ويرد عيسى بأن ذلك لم يحدث وسبحانك أنت نفسك تعلم أنني لم أقله لتتبين آفة المادية والداء العضال الذي يغلب الناس على عقولهم وبصائرهم فيحرف كل عقيدة ويفسد كل ديانة ويخرب كل ضمير ومثل ذلك زيفت قريش عقيدة إبراهيم في ربه ووضعت الأصنام على بيت الله وجعلت من هبل والوثنية آلهة تعبد من دونه وما دام الصنم قد أخذ مكان الله في المادية فلامانع أن يأخذ فرعون وأبو سفيان سلطان الله في الأرض ويسرقون كل القيم الروحية للعقائد والأديان.

إن المشكل في هذا اللص الذي يسرق من الناس فطرتهم وعقيدتهم في ربهم فيجعل منهم طغاة وأباليس وشياطين وتكون النتيجة خراب القوميات وانهيار الحضارات ولعنة المادية لن تقع حتى تزيف الرب والله نفسه رغم كل آية ورغم كل اعتراض ولذلك يقول الطاغية للناس أليس له ملك مصر أليس معه الذهب أليس هو الذي يملك السلطان لنتبين مدى الكارثة التي تحيق بالإنسان وحقوقه.

٢٠ ـ من العجيب أن يتبين القرآن أن الدين نشأ في أول ما نشأ مع المادية وربما كان في أحضانها وكنفها ونوح أول المصلحين في الأديان حاول الفصل بين الدين والمادية فأوضح للناس أن هيامهم بالمال وهيامهم بالبنين وما يمكن أن يجعل للإنسان سلطاناً ليس هو الدين ولكن الدين الحق هو ما كان لله وهو ليس مادياً روحيّ النزعة وكل رسالة حاولت هذا الأمر لكنه في النهاية انتصر على كل عقل وهزم كل بصيرة حتى جاءت عصور النهضة والكنيسة تسلب سلطان الله والمعبد يهيمن على الحقل والمسجد يقهر العلم ويدوسه تحت أقدامه.

لكن القرآن يقدم نسق «الزخرف» في الهيمنة ويجعله مبيناً واضحاً حتى يقطع على كل مزيف ويرصد كل منحرف ويكذب كل افتراءات الماديين ويقول لقريش إن الزخرف والأموال وممارسة العنصرية مثلها في الله كمثل ما وضعتم من أصنام وما اتخذتم من سلطان ولن تنفعكم اللات والعزى ومناة وغير ذلك مما تعتقدونه في الله لأن الله هو الروحية على تاريخ الرسالات كلها ورغم آلاف السنين التي مرت ما زال الصنم الذي كان في قوم نوح وقوم إبراهيم هو نفسه إله قريش والعرب.

في المندوبات يترك القرآن المسائل مواربة ومعلقة ولكنه في القرآن المحكم وما نزل من أسماء الله الحسنى في موضوع الهيمنة جاء بالالتزام القاطع وأخطر ما في الأمة أنها فهمت قضية الإنفاق والتي تعلو الزكاة في قيمتها وعقيدتها أنها مندوبة من المندوبات والحقيقة أنها من أمهات الهيمنة وسورة «الحديد» قد فرضت أنه في العدل الاجتماعي يأخذ بالسلطان ما لم يؤخذ بالقرآن والرسل والكتب السماوية والدين لأنها جميعاً قد فشلت أمام مادية الإنسان ولم يعد للمشروع من وسيلة إلا وسيلة «الحديد» والنار.

٢١ ـ لكن القرآن لا يفرض إلا من خلال الإحاطة الإلهية بما يصلح الناس ويتبين من مشكلة أهل الكتاب والأديان أن الله قد آتاهم

الكتاب والدين والملك على الناس فماذا كانت النتيجة؟ لقد جعل أهل الكتاب والأديان من أنفسهم أولياء للناس من دون الله بل جعلوا من أنبيائهم مثل عزير وعيسى آلهة من دونه ومثل ذلك شرع الأحبار والرهبان وكتبوا للناس صكوك المغفرة وأخذوا منهم ثمن التوبة والنتيجة أن المادية والشيطان غلباهم على أمر دينهم وكتابهم وعقيدتهم ومثل ذلك في تاريخ بني اسرائيل إذ جعل لهم من قوة الأموال والقوة البشرية والمال والبنين وانتظر ماذا يفعلون في تلك القوة وكانت النتيجة أنهم شنوا الحروب وأفسدوا في الأرض ثم تاب الله عليهم ليتوبوا فماذا كانت النتيجة؟ في المرة الثانية أيضاً أشعلوا نار الحروب ضد الفرس وضد الرومان وهكذا ذهب الله بسلطانهم وأخذهم الأعداء أسرى في بلادهم ومثل ذلك ما كان بين يدي قارون وقوم نوح وقوم فرعون وقوم هود من قوة المادية إذ لو جعلوها في الروحية لاختلفت النتائج ولكن المشكلة هو تلازم المادية والكفر فإذا قامت المادية كان الكفر بالله ومثل ذلك من جاء إلى رسول الله يريد أن يدعو له بالمال والولد فبين له أنهما فتنة المادية ولا يطيقهما في عقيدته فماذا كانت النتيجة؟

إن كفرهم سجله القرآن ـ **﴿وَمِنْهُم مَن عَاهَدَ الله لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا الله مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾**[١] ـ لنتبين أن المادية كمين لكل نفس ولذلك سد القرآن أمامها كل باب وكل ذريعة وجعل نبوته آخر النبوات حتى لا تستغل وجعل رسالته آخر الرسالات ليكون رب العالمين هو الرسول وجعل من الحديد والنار الضمانة الوحيدة ضد شرور المادية وكشف كل زيف وأوصى بكل عدل وأوضح أن أموال قارون وقد كان من بني إسرائيل وهم قومية مستضعفة جعلته

---

(١) سورة التوبة: الآيات ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧.

يطغى على بني جلدته ولم يرحمهم ومثل ذلك رصد القرآن كل صغيرة وكبيرة في حياة المادية والماديين وهو في التوبة قد تبين أن السلام التعاقدي وأسلوب المهادنة مع الكفار والماديين لا ينفع ولذلك استوجب قتل كل مادي كافر حتى يحصن الناس ومن لم يدرك خطورة شيطان المادية لا يفهم قول القرآن في الذي آتاه الله العلم والملك والسلطان فقد جعل من كل ذلك وسيلة لاستعباد الناس ولهذا يتساءل القرآن كيف يؤتي الله الكتاب والحكمة والعلم لأهل الأديان ثم يكونون على المادية؟

٢٢ - من أهم البراهين في مشكلة المادية هو ما قدمه القرآن عن عيسى إذ يقول القرآن إن ولادة عيسى من غير اتصال آدمي كان آية روحية وآيات عيسى كلها كانت آيات روحية فهل آمنت بنو إسرائيل بالروحية؟ أبداً وإنما اختلفوا فيه لنتبين أن المادية تمزق الناس ولا يمكن أن يجمع الناس على تركها وإدانتها فإذا قامت الأحزاب اليسارية بإدانة الرأسمالية والمادية وجدت الأحزاب اليمينية والدينية تصرخ بأن الحرية في خطر داهم ومثل ذلك تظهر الجماعات المنشقة في الاتحاد السوفييتي بعد عشرات السنين من تجربة الاشتراكية لنتبين أن المسألة عويصة وشائكة ولم يكن أوضح من تجربة عيسى وآيته ورغم ذلك اختلفوا وهم ما زالوا مختلفين والأزهر وغيره ينادي بأن الحرية عنده هي حرية الملكية الخاصة ورأس المال ولن يحسم هذا الأمر إلا بالحديد وسورة «الحديد».

لذلك لا يوجد ضمانة في القرآن أمام طغيان المادية ونقد القرآن لسلوك ملوك آل داود وبناء القصور والترف وتجربة سليمان مع رعيته حيث كانوا يصنعون له التحف ويبنون القصور وغيرها هي تجربة يقول القرآن فيها إن المادية قد تغلب حتى على الأنبياء والرسل أنفسهم وما دام الأمر ليس فيه حصانة فالحصانة لا بد أن تكون من المجتمع نفسه وهو الذي يفرض على

أفراده هذه الالتزامات الروحيه ويصبح العدل الاجتماعي إلزاماً وليس التزاماً من جانب الاختيار الفردي ولو أن ما ورد في الإنفاق قد يبدو لنا أنه ندب فما هو كذلك إنما أريد به بيان كمالات النفس والمنهج إلى ذلك.

٢٣ ـ منظور آخر يكشفه القرآن في المادية إذ يقول إن المجتمعات المادية لا يمكن أن توجد بين الأفراد قيم الأمانة أو الثقة بل الأخلاء يومئذ ﴿بعضهم لبعض عدو﴾ والأب في المادية قتل أباه والابن فصل رأس أبيه بالفأس من أجل قيراط ومثل ذلك قتلت الأم أبناءَها لعجزها عن رعايتهم ويا لهول ما حدث عندما قتل مهندس والديه في وقت واحد وليس هناك في مثل تلك المجتمعات إلا الغابة بكل وحشيتها ولا تنتظر من أحد ألا يحقد أو يكره بل التمزق الاجتماعي سمة رئيسية حتى يكون الانتماء إلى الأنانية وحدها.

٢٤ ـ ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُور﴾[1] ـ تلك هي المشكلة في المادية إذ ما تبدأ التجربة الروحية سليمة صحيحة على يد الرائد الأول مثلما كان داود تبدأ جراثيم المادية تنحصر فيه تتقاتل عليها ومثلما شرح القرآن كيف ذهب سلطان الأمة اليهودية وتوارت التوراة كذلك يبين القرآن كيف ذهب ملك داود ومملكته الروحية وأن سليمان ومن جاء من بعده من آل داود قد اتخذوا من المادية منهجاً لحمايتهم وإقامة القصور وإقامة المحاريب وإقامة الزينات والزخارف وكل ذلك لم يكن من الروحية لأن آل داود سخروا الشعب في تلك الصناعات التي لا تغني الشعب وإنما تغني نهم الحكام لإشباع الحاجة المادية ولذلك يقول القرآن إن الضمانة لعدم انحراف الحاكم إنما تتمثل في وعي الشعب ويقدم مثل سليمان ورعيته إذ كانت الرعية تعتقد في سليمان أنه إله لا يموت مثلما يموت الناس وما دلهم حتى على موته

(١) سورة سبأ: الآية ١٣.

إلا دابة الأرض والدود الذي نخر في جسده الميت وعندئذ فقط أدرك الشعب أنه كان مخدوعاً في إنسانٍ وليس إلهاً يعبد من دون الله ولنتبين قيمة العالم الشعبي والثقافة الشعبية وقصد القرآن من البيان والتبيين والإيجاز والتفصيل والتكرار والقصص والأمثال وغيرها أن يجعل من القرآن ثقافة شعبية لأنها كما تبين من قصته لسليمان وشعبه هي الضمانة لعدم انحراف الحاكم.

٢٥ - إن قريشاً لم يكن لديهم الوعي والثقافة ولو كان لديهم منهما شيء لأقاموا العدل الاجتماعي والقرآن يقدم تجربة سبأ التاريخية فيقول إن آل داوود لم يحمدوا شكر النعمة التي كانت بين أيديهم وقد كانوا ذرية من داود جدهم الصالح وقد رأينا كيف فعل داود بالرعية والشعب وكيف كان هذا الشعب بلا وعي وبلا ثقافة ومثل ذلك كان لسبأ من نعيم الدنيا جنتان ولكن المشكلة في أسفارهم وعقائدهم التي لا تلتقي وكان نتيجة ذلك أنهم أصابتهم لعنة التمزيق والاختلافات ولهذا لم يشكروا النعمة التي كانت بين أيديهم، ومثل ذلك تفعل قريش إذ لو أنهم شكروا نعمة ربهم لأخرجوا الزكاة وأنفقوا ولكنهم مثل آل داود ومثل أهل سبأ ولن تستمر بهم تلك الحال حتى تذهب ريحهم لنتبين دأب القرآن على كشف الحقائق وعمل التوعية وبث الثقافة الروحية ورغم ذلك كله ما زال أهل الأديان حلفاء للمادية حتى يومنا هذا.

٢٦ - «دون كيشوت» يحذر القرآن الناس من أفيون المادية والسموم البيضاء التي لا شفاء لإنسان منها إذا أصيب بها لأن الجهد سيكون عملاً من أعمال دون كيشوت ولذلك يوضح أن كل نبرة وكل همة مادية يخطر بها الإنسان في طريقه تتحول إلى شيطان قرين كلما يحاول أن يجنح إلى الروحية ينهض هذا الشيطان فيصرفه عما انتواه حتى ليكون الأمان المحسن بينه وبين الجنة ذراع واحد فيغلبه هذا الشيطان على نفسه

فيعمل بعمل أهل النار فيذهب إليها وتكون النتيجة حتمية القدر والمؤمنون هم .أولئك الذين استطاعوا الخلاص واستطاعوا التقوى واستطاعوا الإحسان والصدق مع الله والنفس ـ ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ له قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيصدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْن فَبِئْسَ القَرينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * أَفَأَنْتَ تُسْمِعَ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي العُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلالٍ مُبينٍ﴾[1]، لذلك فالماديون في طحن وطاحونة ولن يهتدوا طالما كانت تلك الشياطين تجري في دمائهم ورؤوسهم هي التي تقود الزمام وتمسك بالقياد.

٢٧ ـ لم يكن محمد ﷺ ودعوته للروحية أول دعوة إذ سبقتها الدعوات منذ نوح لكن المشكلة في الجبريين والمطبوعين وعبدة الأوثان والمادية المسخرة التي يقابل بها الرسل والروحية التي حدثت قبل وجود قريش إذ لم تكن قريش أول من سخر بالأنبياء والرسل ولذلك يقص علينا القرآن أن موسى قدم الآيات البينات على فساد المادية ورغم ذلك ضحك منه فرعون وقومه بل سخروا من تلك القلة القليلة التي آمنت به وفي كل مرة يقدم لهم موسى الآية التي هي أكبر من أختها وسابقتها ورغم كل ذلك لا يصدقونه ولا يهتدون لنتبين أن المسألة المادية تكاد تكون قدراً لعيناً يأخذ بعقول الناس وألبابهم ولو أن قريشاً كان لهم دراية أو وعي بالتاريخ لاتضح لهم الخطأ ولعرفوا أن محمداً ﷺ والقرآن يريدان إنقاذهم من هذا الأخطبوط الذي له ذراع ومليون ذراع ولو أنه أمسك بهم فلن يفلتوا منه أبداً ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلئه فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ *

(١) سورة الزخرف: الآيات ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠.

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِن آيَةٍ إلاَّ هِيَ أكْبَرُ مِن أُخْتِهَا وَأخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1] ـ ورغم كل ذلك لم يرجعوا ولم يهتدوا وادعوا أن موسى ساحر كذاب ومثل ذلك تقول قريش على محمد ﷺ لأن المشكلة في هذا القدر اللعين الذي لا فكاك منه ولذلك يقول القرآن إن الله يأخذ الأمم المادية والقوميات والحضارات التي تنهج على تلك العقيدة بالمشاكل والعقبات والمصاعب والاضطرابات والثورات وكل أصناف العذاب ثم إذا خفف عنهم تلك المصائب لعلهم يهتدون نكثوا على أعقابهم وأفسدوا مرة ثانية ما تم إصلاحه لنتبين مقدار سلطان المادية ومقدار الكارثة ومقدار المصيبة ومقدار الغم والهم والكرب الذي يلاقيه الإنسان متى هاجمه داء المادية وجرثومتها الفتاكة حتى لتكاد تكون هي بعينها بنت الدهر والكارثة التي ليس بعدها كارثة.

٢٨ ـ كم من ذريعة سد بها القرآن فحيح تلك الأفعى حتى لا تصل إلى الناس سمومها؟

لقد كانت المادية سبباً في هلاك وتزييف الأديان عند أهل الكتاب وكانت سبباً في إلغاء النبوات ونهاية الرسالات وكانت سبباً في نزول الدين الحق الدين الخالص والدين القيم وكانت سبباً في إحلال وإبدال منهج المعرفة وهيمنة العلم والعلمانيين وكانت سبباً في انهيار نظرة القرآن إلى رجال الدين وكانت سبباً في تشويه الرهبانية وهي من ظواهر الروحية وكانت سبباً في عبادة الناس لعيسى وعزير وسبباً في عبادة العقل الجليل الشأن للصنم الحقير القيمة وكانت سبباً في التفريق بين نوح وولده والرسول وزوجته وهي لعنة أينما حلت وكارثة بكل عقيدة وزيفت تراث الأنبياء وجعلت من بيت الله الحرام بيتاً للوثن وللصنم ولكل دنيس ودنيء ومنحط ولم تكتف بذلك بل شوهت صورة الذين آمنوا بمحمد ﷺ والقرآن حتى ندد بهم القرآن في الأنفال والتوبة وجعلت منهم

(١) سورة الزخرف: الآيات ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨.

الكافرين والمشركين والمنافقين وغيرت خلق الله في «الأنعام» وقلبت الطبيعة في قوم لوط وجعلت من الإسراف سنة جرت في الأقوام، لنتبين لماذا لم تؤمن قريش ولماذا اتخذوا من «الزخرف» عقيدة والتاريخ حافل ولكن هل من مدبر هل من مهتد هل من تائب هل من قارىء.

٢٩ - إن هذا الرد لا يمكن دحضه أو إنكاره والآيات والنذر لا تغني عن الماديين شيئاً وما يفيد المريض من دواء وصف من قلب مريض مثله؟ لنتبين أن المسألة تركة مثقلة ويقرِّر القرآن أن المادية فيها خاصية غريبة هي كثرة الأحزاب ولذلك لعن القرآن كل الطوائف التي وقفت في خندق المادية واعتبرهم كلهم أعداء الله وكأنه يقول إن الله في جانب وتلك الأحزاب كلها في جانب آخر وسورة «الأحزاب» مترعة بكؤوسهم وسمومهم ولذلك ما إن تجد أمة على المادية حتى تخرج فيهم شياطين الأحزاب وكل حزب بما لديه من مكر المادية وخبثها فرح طروب والله سبحانه وتعالى ليس له إلا حزب واحد هو بالتأكيد المنهج الروحي الذي لا يختلف عليه قوم لنتبين تلك السمات وتلك الشواهد ولنكون على حذر وعلى دراية وعلى وعي أيضاً.

قد قال قوم إن ظهور الأنبياء في بعض الشعوب كرامة لهم والقرآن يقرر أن كثرتهم فيهم دلالة الفساد والفسوق والعصيان ونتبين من ذلك أن كثرة رجال الدين وكثرة المعابد وكثرة الدعاة ليست دليل الإصلاح والصلاح لو كان الأمر وفق ما أمر به الله ما كان ذلك كله وإنما هو الشيطان والأحزاب والأمم والنحل والملل والطوائف وكل ما هو مفرق بين الإنسان وأخيه الإنسان لأن سببه كما بينه القرآن تلك المادية اللعينة.

خاتمة:

بحثنا في الجزء الأول أنساق «الم» «المهيمن» وقضاياه ومحمولاته وقدم لنا نسق «البقرة» النقد القرآني لمشكلات أهل الكتاب والدين خاصة المشكلة اليهودية وكشف عن زيف اعتقاداتهم في الله سبحانه وتعالى وأن الإيمان عندهم مسألة تاريخية وأوضح أن بني اسرائيل وهم يمثلون العرق التاريخي لتلك الأمة كانوا من سفلة المادية حتى أنهم عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري وانتهى القرآن أن هيمنة الله على خرافاتهم وتحريفهم للأديان قد جعل القرآن يكشف عن تلك التحريفات وشعب الله المختار وتقولاتهم على الله بغير الحق وانكشفت عورتهم أمام العالم كله حتى لا يكون منهم الطواغيت ومن يبيعون صكوك الغفران والسلطان المفتري.

ثم قدم «الم» نسق «آل عمران» وخص به جذور المسيحية وأنها نبعت من الثقافة الدينية التي تعتمد على رواية القصص وأن تلك المشكلة هي أساس كل تحريف للعقيدة السامية من المسيحية وأن أهل الرواية يتحملون تبعة تلك التحريفات وقد أورد القرآن القصص الحق في ألوهية عيسى المزعومة وبيَّن أن عيسى ليس إلهاً يعبد من دون الله وإنما هو في الخلق كمثل آدم خلقه من تراب وليس هناك شذوذ في قدرة الله سبحانه وتعالى.

ثم واجه القرآن في نسق «العنكبوت» قضية الصدق في الإيمان وأن أهل الكتاب لو كانوا صادقين في إيمانهم لما حدث منهم طغيان ولكن واقعهم غير ذلك ليتبين الناس كذب ونفاق أهل الأديان وأن المسألة عند الله ليست بما يدعيه الإنسان من نسبة عند الله أو الولاية أو الوكالة أو الخلافة وإنما هي الأعمال التي توزن بها العقائد وتختبر بها النوايا وأنه ليس لعربي فضل على

عجمي إلا بالتقوى ليكون من ذلك هيمنة القرآن على عقائد أهل الملة من يهود أو نصارى أو مسلمين أو غيرهم.

ثم واجه نسق «الروم» في «الم» مشكلة اعتقادات أهل الملة في استمرار هيمنتهم على الناس وأن سلطانهم لن يزول أبداً فبين القرآن خطأ تلك العقيدة إذ أن الله جعل الأيام بين الناس والأمم دولا ومن هو في موقع الهزيمة الآن من الممكن أن يكون في موقع النصر غداً وليس هناك خلود لقوة من القوى مهما كانت والله يدفع الناس بعضهم ببعض ليكون من ذلك الحق والعدل والإخاء والسلام في الأرض ومن يظن في الله غير تلك السنة فقد ظن في الله الغرور والحماقة والغفلة.

ثم واجه نسق «لقمان» في «الم» أيضاً مشكلة سلطان الآباء وعقائد الأجداد وبين القرآن أن الإنسان يولد على الفطرة موحداً بربه وهو الذي يرعاه ويكلأه بعين عنايته ثم يأتي دور الوالدين فيهودانه أو ينصرانه أو يسلمانه أو يجعلانه ملحداً كافراً لنتبين خطورة الاعتقادات السلفية والتركة المثقلة بالقديم، فقدم القرآن بديلاً لهذا المنهج وأوضح أن العناية يجب أن توجه إلى تربية الصغار تربية روحية حرة من كل قيد وهو ما يمكن أن يفجر طاقات الإنسان الخلاقة لأن الفطرة هي البديل الوحيد لكل إيمان أبوي زيفته الأديان والتحريفات والعقائد والتراث وما شاكل ذلك حيث أوضحت التجربة الرسولية أن الكبار لا يمكن أن يؤمنوا مهما قدم لهم الرسل من الآيات حيث كذب كل قوم بمن أرسل إليهم حتى قتل اليهود أنبياءهم ظلماً وجهلاً وعدواناً وليكون من حكمة «لقمان» مع ولده فاتحة لمنهج جديد في التربية.

ثم واجه نسق «السجدة» في «الم» مشكلة اختلافات أهل الكتاب والأديان وعصيانهم وفجورهم فبيّن أن المسألة كلها تنحصر في آيات الله وأنها متى ما ظهرت بين يدي واحد من الناس سواء كان كتابياً من اليهود أو النصارى أو المسلمين أو غيرهم وجب تصديقه، والعلماء اليوم يخرجون للناس من آيات

الله وسننه ما يمكن أن يكـون هاديـاً لهم والمسألـة ليست في سلطان أحد من الناس وإنما هي في آيات الله فمن ذكر بتلك الآيات خر سـاجداً مـطيعاً وهـو ليس له علاقة بالأديان ولكنه كان لملك الله وعلمه وهدايته ولم يعد الأمر يهم في كثير أو قليل أن تظهر الآيات في أهل الأديان لأن ذلك هو الاحتكار الذي لم يجعل الله له سلطاناً في الأرض أو في السماء وأن المسألة أصبحت لكـل الناس بحق الفطرة وعلم آدم قبل أن يوجد أن الملل وأهل الأديـان وأن فضل آدم على كل خلق إنما كان لأن ربه قد خلقه عـالماً بـالفطرة مبتـدياً بـالسليقة فما بال هؤلاء الحمقى لا يفهمون؟.

لكن الباحث في القرآن يتبين مسألتين هما عمـاد القرآن كله الأولى أن القرآن عبادة محمد ﷺ الروحية في ربه وبـرهان ذلـك أن جميع الكتب التي وردت في بيـان أسمـاء الله الحسنى والتي افتتحت بهـا السـور المحكمـات يختتمها القرآن بالتوجيه أو التحذيـر أو البشارة أو بقـرب هلاك الأعـداد ليتبين محمد ﷺ طريقه مع هذا الرب الذي يعبده على أنه الرحمن الرحيم،ثم المسألة الثـانية وهي مـوضوع تلك الأسمـاء والتي حملت قضايـاه كلها وهي الهيمنـة والمهيمن «الم» ولذلك لا تجد كتاباً قرآنياً واحداً قد خلا منها وهي تظهر في الأسماء الحسنى الرمزية بشكـل واضح وأن «الم» مـوجودة في «المص» وفي «المر» وفي «طسم» وفي «حم» لنتبين جلال هذا الموضـوع حيث يشمل أهم الموضوعات العقائدية ونظريات الجدل والتحليل والأمثال والقصص والمحكم والمتشابه بل يكاد القرآن كله لا يخلو موضع فيه من صورة من صور الهيمنة. وكما ناقش كتاب «الم» موضوع الهيمنة على عقائد أهل الأديان والملة كذلك ناقش كتاب «المص» موضوع الصمد والقدرات الروحية لـدى الإنسان وأنهـا تغنيه عن كل سؤال بل هي التي يجب أن يهتم بها الإنسان في نفسه وينميها.

ثم جاء كتاب «الر» وضرب مثلاً من عظماء الفطرة أمثال ابراهيم ويوسف ويـونس وهود ليتبين النـاس أن الأنـبيـاء لا تصنعهم المجتمعات بـل يولـدون

بالفطرة والقدرات الطبيعية ورب محمد ﷺ مثله في هذا الأمر مثل رب ابراهيم ورب هود ورب يوسف ويونس والذين وفقهم الله ووصل القرآن في ذلك بين «الم» و«الر» في كتاب «المر» وأوضح فيه أن الله كما يهيمن على الطبيعة فإنه يهيمن على الإنسان أيضاً والمهتدون هم أولئك الذين يعرفون آيات الله فيتقون غضبه وعقابه.

ومثل ذلك قدم القرآن مواجهة رائدة بين الهيمنة والثقافة التقليدية التي كانت سائدة وعلاقة ذلك بالمنهج الذي يريده وأوضح في «طس» أن كتاب المعرفة هو ما كان مستمداً من السنن الطبيعية التي تبدو في ممالك الغريزة والحشرات وغيرها وأنها هي المصدر الوحيد لكل معرفة وما تمكن سليمان وداود من إقامة تلك المملكة التي يفخر بها اليهود إلا عن طريق هذا المنهج من قوى الطبيعة والريح والصناعات والتكنولوجيا ثم أوضح أن الثقافة التقليدية للأديان تعتمد على القصص والرواة وتلك هي الطامة الكبرى إذ يحرف الرواة ويزيدون وينقصون من المسائل والقضايا والعقائد فتخرج عن غاياتها التي وردت من أجلها كما أثبت القرآن تحريف أهل الملة والأديان لقصص «آل عمران» وكان نتيجة ذلك اتخاذ الناس من عيسى إلهاً يعبد من دون الله وحجة وفد نجران كانت حجة منقولة عن الرواة ولهذا وضع القرآن للقصص معياراً وهو أن يكون هذا القصص في خدمة الروحية والتوحيد وأن لا يكون فيه إله غير الله وحده «وما من إله إلا الله» لنتبين أن الثقافة التقليدية وأهل الرواية قد تؤدي إلى الخرافات والأساطير ولذلك لعن القرآن ثقافة العرب التقليدية التي كانت تقوم على الشعر والشعراء وأوضح القرآن أن تلك الثقافة عدو خطير لمنهج المعرفة الطبيعية والعلمية إذ تثري النفاق والكذب والمداهنة ثم أقبل القرآن على مواجهة القومية العربية كما واجه من قبل القومية اليهودية والقومية المسيحية وقوم نوح وقوم هود وعاد وثمود وقوم فرعون وأوضح في الحواميم وهي تشمل سبعاً من الكتب القرآنية المثاني والتي نزلت متتابعة يعضد بعضها

بعضاً كي تبين لقريش أن سلطانها زائل لا محالة ولذلك تنتهي تلك الكتب بوعيد وقرب انتهاء طغيانها.

في سورة «الزمر» نتبين خطورة العقائد إذ تقوم عليها الأمم وتكون نتيجة ذلك ذهاب الناس جماعات إما إلى الجنة وإما إلى النار والتحريف وكل ما يزيفه أهل الكتاب والأديان بغية السلطان للمال أو سلطان الملة أو سلطان المتاع الدنيوي أو سلطان العلم الذي يوضع في غير غاياته أو أي سلطان يجرف الناس إلى المادية سيكون نتيجة ذلك عاقبة وخيمة إذ يذهب الجميع إلى الجحيم وكلما دخلت أمة لحقت بها أخرى حتى تهلك الحضارات وتعم الطامة وليس هناك أمل في نجاة لنتبين لماذا كانت هيمنة القرآن ضرورة ولماذا خصها الوحي بالعديد من الكتب القرآنية وجعلها أم القرآن كله بل أم الكتب السماوية كلها وذلك لخطورة الغاية التي وردت من أجلها واعتز القرآن بما نزل في اسمي الله الجليلين الحي المهيمن «حم» حتى اعتبر أن ما نزل فيها جميعاً هو القرآن العظيم حيث أشاد بذلك في كتاب «الرحمن» «الر» في سورة «الحجر» ﴿**وَلَقَد آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِن المَثَانِي وَالقُرْآنَ العظِيمَ**﴾[1] وأن ما جاء في خير سور «الحواميم» السبعة ليفوق كل ما وهبه الله لأجناس الإنسان كلها أبيضها وأسودها وأصغرها ـ ﴿**لاَ تَمُدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُم وَلاَ تَحْزَن عَلَيْهِم واخْفِضْ جَنَاحكَ لِلْمُؤْمنينَ**﴾[2].

لقد كان في مكة الحبشي والعربي والأبيض والأسود وكل أجناس الأرض والجميع كانوا يتمتعون بصفات وميزات عقلية وجسمانية ولكن الذين آمنوا كانوا من ضعاف الأبدان عبيداً مطحونين ولذلك فقد حزن الرسول والقرآن يقول له لماذا تحزن وقد نزلنا عليك تلك الكتب السبعة وسيكون من أتباع ما جاء فيها ما سيغنيك ويغني المؤمنين بك لنتبين فضل نسق «حم» والكتب القرآنية التي وردت في سور «غافر» و«فصلت» و«الشورى» و«الزخرف»

---

(١) سورة الحجر: الآية ٨٧.
(٢) سورة الحجر: الآية ٨٨.

و«الدخان» و«الجاثية» و«الأحقاف» لأنها بشرت جميعاً بقرب انتصار الدعوة.

في نسق «طه» «الطاهر» «الهادي» ونسق «الطاهر والسنن» «طس» كشف القرآن عن مبدأ المعرفة القرآنية وما يجب أن يكون هو المعيار لكل معرفة إذ جعل من آيات الله معياراً لا يدحض ولا ينكر وأبان أن آيات الله قد تكون آيات نفسية روحية كما جاءت آية التوراة على يدي موسى وآية الإنجيل على يدي عيسى وآية القرآن على يدي محمد ﷺ وقد تكون الآية في الآفاق مثل آية الشمس والقمر والليل والنهار وما خلق الله من دابة وما خلق الله من نبات أو قد تكون آية من سنة أو ناموس ظهرت في التاريخ أو الحضارات مثل هلاك كل القوميات لأنها كانت على المادية وهلاك الأمم لأنها كانت تجريفية ولنتبين من ذلك أن أسماء الله الحسنى بما حملت من تجريد لم تحمل معاني القرآن فقط، ولا هي حملت آيات التوراة ولا معجزات الإنجيل وإحياء عيسى للموتى وإنما حملت الوجود كله بما اشتمل عليه الكون من الآية لنتبين جلال عقيدة القرآن في اعتقاده عن الله والأسماء الحسنى وأنه لا يرى في الآفاق سواء كانت آية نفسية أو طبيعية أو فلكية إلا وجه الله الكريم حتى يقول في سورة «الرحمن» ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1] - لنتبين أنه باعتبار تلك العقيدة لا يظهر فلان أو فلان في الوجود أو تظهر الشمس أو يظهر القمر أو يظهر الطاووس أو يظهر الجبل وإنما يظهر ويتجلى علينا في الآية وجه الله الأكرم والأجمل والأتم حتى ينتهي في آخر سورة «الرحمن» لبيان معنى هذا الإسم الجليل الذي حدوده الناس - ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[2].

لذلك لا نتبين مشكلة معرفة الأسماء الحسنى وأنساقها ومعانيها إلا عندما نكتشف في سورة «الرحمن» قيمة التفصيلات التي وردت في آياتها كي تجعل

(١) سورة الرحمن: الآيتان ٢٦ و٢٧.

(٢) سورة الرحمن: الآية ٧٨.

من هذا الإسم شيئاً مدركاً للعقل والبصيرة ولذلك أوضحت الآيات آثار رحمة الله في الكون على التفصيل والتجزيء والبيان ولن نستطيع أن ندرك معنى «الم» وهو المهيمن من خلال سورة واحدة أو من خلال كتاب واحد إلا إذا درسنا كل الكتب القرآنية من «الم» حتى «حم» بكل تفاصيلها وقضاياها وجزئياتها ليكون لنا من ذلك وعي وإدراك بقيمة تلك الأسماء وأنها بحق معجزة القرآن التي تتضاءل بجوارها كل المعجزات الفكرية حتى اليوم.

كانت مشاكل الدعوة ومشاكل الحياة تأخذ بخناق رسول الله وها هو ينظر في الأجناس التي تعيش في مكة فيجد أن القلة التي آمنت به هي القلة المطحونة فينزل القرآن ليبين له أن أمور الخلق عند الله تختلف عنها عند الناس ومن يعتقد أنهم أراذل الناس فإن الله من الممكن أن يؤتيهم من فضله ولذلك قال له «واخفض جناحك للمؤمنين» ومثل ذلك ما كان هو نفسه ينظر إليه من نفس المشكلة فأوضح له في نسق «طه» أن كل ما يمد عينيه إليه ليس إلا زهرة الحياة الدنيا وليس ثمرتها ـ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُم زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأَبْقَى * وَأْمُر أَهْلَكَ بالصَّلَاةِ وَاصْطَبِر عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقوى﴾[1] ـ لنتبين من ذلك قيمة الأسماء الحسنى وأنه عندما كان ينزل القرآن باسم من أسماء الله الحسنى في كتاب من الكتب التي افتتحت بالرموز كان القرآن يصحح من موقف محمد ﷺ وسلوكه تجاه نفسه وتجاه أسرته وتجاه الذين آمنوا به وتجاه المعاندين ولذلك يقول له في نسق «طه» عندما قدم له قصة خلق آدم إن وسوسة إبليس كانت مما يعشقه كل إنسان ويطلبه وهو يتعين في طلب الخلود وطلب الملك والسلطان ورغم ذلك فليس هناك ملك للإنسان بجوار ملك ربه ومثل ذلك فليس هناك خلود لإنسان مهما كان شأنه وأن الخالد الوحيد هو رب الإنسان ولذلك فالمادية هي التي تقيم العداوة بين الناس ويعتقد

---

(١) سورة طه: الآيتان ١٣١ ـ ١٣٢.

الإنسان في أنها وسيلة تحقيق تلك الأماني وهي لن تحقق لأحد من الناس شيئاً فلماذا يمد محمد ﷺ عينيه إلى ما عند الناس من تلك المادية والزخارف وقد آتاه الله الرزق الحقيقي وهو رزق الروحية والقرآن ؟؟!

إن الأسماء الحسنى كانت أدب القرآن الذي به الهداية التي اهتدى بها الناس وأن الصوفية الروحية المنبثة في القرآن كله إنما ترجع لتلك المعاني الخالدة التي حملتها أسماء مثل «المهيمن» و«الرحمن» و«القيوم» و«الحي الذي لا يموت» وقد خاب من حمل ظلماً لنتبين كيف جعل القرآن من محمد ﷺ وهو الأمي الذي لا علم له بالكتب السماوية ولا دراية لديه باللاهوت تلك المعجزة التي تتضاءل بجوارها كل معجزة.

الباب الثامن

الفصل الأول

نسق «حم» «حي - مهيمن»



القضايا ومحمولاتها:

١ ـ قدم القرآن موضوع الحواميم السبعة في سور «غافر» و «فصلت» و «الشورى» و «الزخرف» و «الدخان» و «الجاثية» و«الأحقاف» لمواجهة طغيان قريش ومحاولتهم إقامة القومية العربية على نهج سابقاتها من القوميات التي ذهبت في التاريخ أمثال قوم نوح وهود وعاد وثمود ليبين أنهم سيواجهون «الحي المهيمن» ولكنه في تصديه للقوميات اليهودية والمسيحية وأهل الكتاب قدم أنساق «الم» وهي سور «البقرة» و «آل عمران» و «العنكبوت» و «الروم» و «السجدة» و «لقمان» وهذه نزل منها الكثير في المدينة ليكون من قرآن «حم» مهيمناً على ما ورد من تلك الأنساق التي وردت في «الم» حيث قدم القرآن في الحواميم أصول الاعتقاد في المنهج ولو أننا بحثنا في قرآن «البقرة» وما نزل في «آل عمران» والميمات الستة لتبين لنا أنها وردت لإقامة الحجة على أهل الكتاب والانتصار للقرآن وهي لم تقدم إلا جزئيات المنهج.

٢ ـ الآية المحكمة تهيمن على الآية المتشابهة والسورة المحكمة تهيمن على السورة المتشابهة ومثل ذلك هيمنة الكتاب على الكتاب إذ نجد أن «الحواميم» تهيمن على «الميمات» ليتبين الباحث أن تفاصيل ما ورد في «الحواميم» وتفاعلاتها قد جاءت في «الميمات» مما تضمنت تلك السور من مشكلات أهل الكتاب والأديان والقضايا المختلفة لأهل الملة واعتقاداتهم وخرافاتهم وأساطيرهم.

لذلك عندما ننظر في سورة «الزخرف» مثلاً نجد أن القضية موجزة إيجازاً شديداً حيث تقدم فساد المادية كمبدأ للقوميات والأمم وعندما ننظر في تفاصيل تلك المسألة في تاريخ أهل الكتاب والأديان واليهود وماديتهم نجد لهم في سورة «البقرة» و «آل عمران» وغيرها حشداً هائلاً من المواقف المخزية والمادية المكشوفة ليعدد لنا القرآن ماذا يراد بالزخرف في سورة «الزخرف».

٣ ـ عند ورود أكثر من اسم في فاتحة كتاب ما يجب أن نتبين أن القضية مركبة وأن ما يورده القرآن في تلك السورة له تفاصيله في السور الأخرى ولا تعرف حدوده إلا من تلك السور والجزئيات مجتمعة أمثال ذلك ما ورد في فاتحة سورة «مريم» (كهيعص) إذ جاءت «هـ» من «طه» وجاءت «يٰ» من «يس» وجاءت «ع» من عسق وجاءت «ص» من سورة «ص» لنتبين أن الأنساق لا تظهر لنا بصورة واضحة إلا من خلال البنايات الفكرية لكل تلك السور والتفاصيل التي وردت فيها وفي نفس الوقت تزداد معرفتنا بالأسماء الحسنى وترسم لنا الجزئيات للخريطة الطبوغرافية والفكرية لكل اسم من تلك الأسماء المتداولة ولذلك نجد في نقد القرآن لسلوك أهل الكتاب والأديان وبيان مفاسدهم وتحريفاتهم ومقولاتهم ترد أسماء الله الكبرى التي استعملها القرآن بكثرة مثل العزيز والعليم

والحكيم لأن الأحداث كثيرة ومتعددة حتى تكاد تحدد تلك الأسماء الموضوعات بمجرد ظهورها في الآيات.

٤ - لو نظرنا في فاتحة نسق «الزخرف لوجدنا الآية والأولى والثانية متطابقة تماماً مع نسق سورة «الدّخان».

○ ﴿حم، وَالكِتَابُ المُبِينُ﴾[١].

﴿حم، وَالْكِتَابُ المُبِينُ﴾[٢].

لنتبين أن موضوع نسق «الدخان» هو امتداد لموضوع نسق «الزخرف» ولو أنه كتاب قرآني محكم مستقل ليكون من نفس القضية مواجهة مع ما تعتقده قريش والقومية التي تريد أن تقيم سلطان العرب عليها حيث تباشر في الناس التسلط والسلطان وهو ما أهلك الأمم والقوميات من قبل.

٥ - إن قريشاً تعتقد في القوة ومثلها في ذلك مثل أي قومية باشرت الإسراف حتى جعل فرعون من أنفسهم للناس أرباباً من دون الله وقوم تبع كانوا من

٥ - العرب وما جاورهم من القوميات عاد وثمود فهلكوا جميعاً ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجرِمِينَ﴾[٣] ومنطلق قريش أنهم لا يعتقدون أن هناك حياة ثانية يبعث فيها الناس من أجل الحساب ولو أنهم آمنوا بالآخرة لكان لهم مع الناس شأن آخر وعقيدة أخرى.

٦ - لكن القرآن نظر إلى الأمر من جانب آخر وهو يؤمن بالحياة الآخرة ويؤمن بأن للعالم رباً وهو يرعى السماوات والأرض ومن فيهن من الكائنات ولذلك أرسل الرسل وبعث الأنبياء بالأنبياء لأنهم لم يكونوا من قبل من أهل الكتاب ولم تبعث فيهم قبل محمدﷺ بعثة ولم يكن فيهم أنبياء مثل الذين كانوا في بني اسرائيل وغيرهم لنتبين المشكلة بين محمدﷺ وما

(١) سورة الزخرف: الآيتان ١ - ٢.
(٢) سورة الدخان: الآيتان ١ - ٢.
(٣) سورة الدخان: الآية ٣٧.

يعتقده وبين قريش وما تبين به إذ هي تدين بالموجود الحسي في الحياة القائمة ومصدرها من القوة والسلطان والبطش بالضعفاء.

٧ - إن رب العالم يعلم ويسمع كل عقائد الناس وعقيدة قريش هذه عقيدة عبثية فوضوية ولا حساب للناس بعد موت والمشكلة أن أمثال تلك العقائد هي السبب في هلاك القوميات وهم لا يدركون أن قوميتهم هذه على نفس منهج القوميات السابقة والتي كان أقربها قومية قوم تبع وقومية قوم فرعون وأخبار تلك القوميات وهلاكهم جميعاً يقصها القرآن ليتبين العرب وقريش أن تلك العقائد التي تبنى على منطق الأقوياء فقد هلك الأقوياء بسلطان رب العالمين وهو ما يحذر منه القرآن.

٨ - لذلك يقول القرآن إن الله يسر ما جاء في كتاب «الدخان» بلسان محمدﷺ لعلهم يتذكرون ويكون لهم مما جاء فيه إنذار وبصيرة وقد خلد القرآن تلك الليلة التي نزل الوحي فيها بتلك السورة الجليلة لأنها فرقت بين الحق والباطل وأوضحت للناس فساد اعتقاد قريش وما تقوم عليه من سلطان القوة والبطش والتنكيل بالضعفاء والمساكين ممن كانوا مواطنين من الدرجة الثانية إذ كان القرشي عندهم هو سيد الأجناس ولذلك يقول القرآن إن هذا السيد الكريم الآن سيأتي يوم القيامة أذل الناس أمام ربه لنتبين نظرة القرآن في أمر السيادة ومباشرة الهيمنة وأن القرآن عندما يؤمن بالربوبية ورب العالمين إنما يؤمن بالحرية لعامة البشر سيدهم وحقيرهم وهو الذي كشفه قرآن الدخان أمام طغيان قريش على باقي الجنسيات وقتذاك.

٩ - إن مسألة الاضطهاد ومسألة السيادة ومسألة الطبقات ومسألة الطائفية وفرعون وقومه هي التي جعلت القرآن يدافع عن حقوق الإنسان أمام أعمال قريش وطغواها وقوم تبع وجبروتهم وهم كانوا عرباً. وجوانب المادية تتكشف في نسق «الزخرف» وعقيدتهم في الثراء ورؤوس الأموال

والذهب والفضة وتكدس الثروات بين يدي الأغنياء منهم وقد كانوا ألعن طبقة في الرأسمالية والتجارة ويتكشف الجانب الخطير من مادية قريش في كتاب «الدخان» وفي تلك الليلة المباركة والإنذار والبشارة بقرب زوال سيادة قريش وطغيانها وإن كان القرآن جدد في الزخرف عقيدتهم في الثروة فقد جدد القرآن عقيدتهم في الاستعلاء والتكبر والمواطنة المفتعلة التي تجعل من الأجناس مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة وكل ذلك عقابه عند رب العالمين ومن يحاول أن يفرض قوته على الناس فسيكون صدامه ومواجهته بقوة رب العالم الذي يحدثنا القرآن عنه ولو أن قريشاً قرأت التاريخ جيداً لتبينت أن الذي أهلك القوميات وقوم فرعون هو رب العالمين الذي يحدثنا القرآن عنه.

١٠ - من نفس مفهوم المساواة بين الأجناس كان عمر الخطاب يضرب ابن القرشي المعتدي ويقول له «اضرب ابن الأكرمين» لنتبين قيمة الحضارة التي كان القرآن يريد لها البقاء والنمو والازدهار وعقيدة الآخرة في نظر القرآن هي عقيدة رب العالمين والإخاء والمساواة والمحبة ورفض أشكال وألوان التسلط والتكبر ولنتبين من ذلك أن هذا النسق هو جانب من جوانب المادية جاء إلى دنيا الإنسان من خلال عقيدة مادية فاسدة لا تؤمن بالعالم الروحي ولا تؤمن بالبعث ولا تؤمن بالحساب وإنما تؤمن بالفوضوية والعبثية.

١١ - في تلك الليلة المباركة أوضح الوحي لمحمدﷺ أن طبيعة علاقة رب العالمين ورب السماوات والأرض بالإنسان أنه متى ضل الناس بعث لهم ربهم من يهديهم إلى سواء السبيل وقد أرسله الله من أجل هداية قريش لوصّدقوه نجوا من عقاب الله لنتبين أن الرسالات لا تنتهي لأن الله ما زال يحيي أجيالاً من الإنسان ويميت أجيالاً منه وهم سيضلون الطريق بعوامل التقادم والتخلف وعبادات الآباء والأجداد والتلف

والسلف ولهذا كان الله في كل حين مرسلاً إلى الناس ومرشداً لهم وها هو محمدﷺ قد أرسله رب العالمين ليبين المنهج القويم للمسألة العربية ولقيام القومية على مبادىء الحرية لكل الناس والمساواة للجميع والإخاء لكافة البشر لأن ربهم وإلههم واحد لا شريك له.

١٢ - ليس معنى ذلك أننا نتوقع رسولاً بعد محمدﷺ فتلك قضية أخرى لأن الرسالات قد جعلت بعد محمدﷺ بين يدي العلماء «العلماء ورثة الأنبياء» ولكن المهم في نسق «الدخان» هو هلاك القوميات والأمم المادية وأن قريشاً لا تفهم ذلك وتواصل طغيانها على باقي الطوائف التي تساكنها في تلك البيئة ولهذا اهتم القرآن بتلك الليلة وسمى تلك الحالة التي تفلت الأمور فيها من زمام قريش بالدخان المبين الذي يحمل عذابهم وعقابهم.

١٣ - ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُم مُّوقِنِين * لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[1]. لذلك لا يمكن أن نفهم دعوة القرآن إلى الإنسانية والعالمية إلا إذا عرفنا الطوائف التي كانت تؤلف المجتمع القرشي إذ كان هناك التجار وهم طبقة مثرية والأشراف من سادات قريش ويعتبرون أنفسهم فوق كل قبائل العرب والعبيد والأجراء والأحباش واليمنيون وكل المستفيدين من الرواج الذي كان لتلك المدينة الوحيدة في جزيرة العرب كلها لنتبين أن دعوة القرآن لحقوق الإنسان والحرية وعبادة رب العالم كانت فتحاً جديداً في تلك الأزمان إذ جرت الأعراف والتقاليد مجرى السنن التي لا يمكن تحطيمها أو الخروج عليها.

١٤ - هذا الكشف الذي جاء به الوحي في تلك الليلة المباركة والتي نزلت فيها سورة «الدخان» أوضح نسق «حم» لمحمدﷺ أنهم وسلطانهم

(١) سورة الدخان: الآيتان ٧ ـ ٨.

هالكون لا محالة لنتبين أن القرآن يتنبأ بزوال كل مادية تنشأ في التاريخ ولذلك وجدنا عند استفحال وشراسة وانتشار النظام الرأسمالي المادي في العصر الحاضر كثرت الثورات والحديد والنار والدخان وأصيبت البشرية بحربين عالميتين مدمرتين ورغم ذلك ما زالت المادية والاحتكارات الرأسمالية العالمية تحكم شعوباً بأسرها وتطحن الناس والأفراد ولا ينجو من هذا القدر الكئيب إلا من خلص وأعطى وجهه لله مسلماً.

١٥ - «ذق انك أنت العزيز الكريم» من كان يصدق أن يخرج شاه إيران عن عرشه ولديه من المال في بنوك سويسرا سبعة مليارات ثم لا يجد بلداً واحداً في العالم تقبل إقامته فيها؟ من كان يتوقع أن يرى دكتاتورات العالم الرأسمالي البغيض وهم يتهاوون عن عروشهم الواحد بعد الآخر؟ من سمع بانتحار عشرات المليونيرات في أمريكا سنة ١٩٢٩ عندما أفلسوا في اليوم الأسود؟ من كان أغنى من قارون وما كان لديه من الكنوز؟ من استطاع أن يحمي عاداً وثمود من غضب الله واتخذ فرعون الجنود المجندة ورغم ذلك هلك لنتبين أن المادية والرأسمالية مقضي عليها وأن النصر النهائي في العالم لا بد أن يكتب للروحية ونحن نقول إن ذلك ليس معناه الدعوة للشيوعية وإنما معناه أن كل دعوة روحية هي الدعوة الحقة إلى رب العالمين الذي يحدثنا القرآن عنه.

١٦ - ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَّوْلًى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1]، لذلك تقوم الرأسمالية بالأحلاف وهناك حلف الأطلنطي وحلف مانيلا وحلف بغداد الذي لم يكتب له من العمر إلا قليلاً ومن قبل كانت أحلاف النازية المانيا وحلفائها والفاشية وشتى ألوان التكتلات العسكرية والسياسية والاقتصادية

(١) سورة الدخان: الأيتان ٤١ - ٤٢.

والأحزاب وكل القوى التي تبغي قيام صرح المادية، ورغم ذلك كله ما أن يظهر سلطان الله وداعيته إلى الروحية حتى تنهار تلك الشوامخ وكأنها جبال الثلج لنتبين أن المسألة في هلاك المادية وشتى صورها وأشكالها هي القدر الذي جعله الله من عزته ورحمته ولو تبصر الناس ما فعل بهم لعرفوا أن الروحية ودعوتها ستهزم كل دعوة وأن حزب الله سيهزم كل مولى ولن يجد اليهود ملجأ عند النصارى ولن يجد النصارى ملجأ عند اليهود ولن يجد السلم الذي اتخذ دينه من الرأسمالية أي قوة تحميه لأن عداء الروحية هو من عداء الله نفسه ولو كان الأمر للقوة وفروضها والمادية وسلطانها لبقيت الأمبراطورية البريطانية ولكن القرآن يوضح ذلك ليعرف الناس أن الربوبية هي التي ستنتصر وأن الله وحده هو الموصوف بالرب ولن يكون للناس رب من طائفة الأغنياء أو طائفة التجار أو طائفة أصحاب رؤوس الأموال أو أصحاب البنوك أو أصحاب العقارات أو أصحاب النفوذ والسلطة لأن كل ذلك أشكال هالكة ولن يبقى في الساحة إلا رب العالمين وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وإليه ترجع أمور الناس كلها.

١٧ - «قطيع الذئاب» تستشري المادية والرأسمالية وتنتج لنا طوائف الملة ويقوم المختلسون والمزورون بالدور الرئيسي في سلب الوعي من الشعوب والمادية تغلب كل الفئات، ومتى جاء الطوفان المادي ألقى الإمام بعمامته والحبر بقلنسوته والراهب بصومعته لأنه لم يجد الدونق ليقيم به حياته والرأسمالية لا تترك فرصة واحدة للهرب والنجاة وهي حصار عظيم يأخذ كل الناس ولها من الأذرع ذراع وألف ذراع ولذلك تنهار أمامها الأديان والأخلاق والعلم وكل صاحب مبدأ يفسد بين يديه المبدأ ولا يستطيع أن يجد من يشتري منه لنتبين عظم النكبة التي تصاب بها المجتمعات وستجد أن أصحاب الحق أنفسهم يعملون ضد

مصالحهم وكأن الناس يضربون في الدخان العظيم الذي يحدثنا عنه القرآن لنتبين أن تلك اللعبة التي يتداولها أصحاب هذا المنهج ستفجر العالم كله ولن ينجو منها رأسمالي أو اشتراكي أو شيوعي لأنها هي الطامة المنتظرة.

١٨ - في نسق «الزخرف» كشف القرآن الأدوات وهو في «الدخان» يكشف المنهج وخطورته وماديته والكارثة المنتظرة لعل الناس تدرك المصير المنتظر وها نحن في القرن العشرين مقبلون بفضل المادية والرأسمالية العالمية والشيطان، إلى الحرب العالمية الثالثة التي لن يكون بعدها حرب ولن يكون هناك إنسان ما على ظهر هذا الكوكب وليس هناك نجاة من مثل هذا المصير المرتقب إلا إذا حدثت المعجزة ووفر العلم للمادة ما يسد حاجات الناس من الذهب والفضة والغذاء والترف والمتعة وعند ذلك يتبين الناس أنه لم يعد هناك مبرر للاقتتال أو الرأسمالية أو الطبقية أو الطائفية لأن كل شيء أصبح لا شيء.

١٩ - ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُون﴾[1].

من شدة نفاق الماديين والرأسماليين أنهم يعتقدون في الحرية والديمقراطية ويقولون للناس إنها تعني النشاط الحر الخلاق وهذا لا يعيب المبدأ وعندما يقع الضرر على الطبقات يقولون للناس إنها نواتج العمل المكتسب وهنا لنتبين الخلط إذ تؤدي تلك النتيجة إلى المادية ولهذا يبدأ المنهج عند الجميع روحياً خالصاً ديمقراطياً حراً ثم يختلف في النهايات والنتائج ولذلك يقول القرآن إن الله لم يخلق العالم من الاحتمالات المطلقة وإنما خلق الاختلافات وانتهى إلى الحق فيها لنتبين الفصل بين ما هو روحي

(١) سورة الدخان: الآيتان ٣٨ - ٣٩.

في المنهج وما هو مادي منه ودعوة اكتساب نتائج العمل وفائض القيمة وما يجلب رؤوس الأموال ويفرق بين الإنسان والإنسان هو الباطل في تلك الادعاءات وإذا عجز الإنسان عن الفصل بين ما هو حق وما هو باطل فإن الله يقوم بهذا العمل ويصحح المسار ويرسل الرسل ويوضح الأمر.

«الحرية الفردية والملكية الخاصة» والطبقية والطائفية والمادية ودعوتها ظاهرها الطهارة والحرية وباطنها الباطل والعذاب والدمار ولن يكون الأمر بعد المخزون الهائل لأسلحة الدمار الشامل لعبة مسلية بل سيكون نهاية الحياة على ظهر الأرض يكون للإنسان فرصته بعد ذلك للخداع أو التضليل بل ستنجلي الحقيقة عن شيء مروع شيء يجعل الولدان شيباً.

٢٠ ـ إن من يلعبون بالنار وقريش وكل لون من ألوان المادية هلاك القوميات والأمم درس عظيم لكن المسألة ليست عبثاً فقد سلط الله على الإنسان ألواناً شتى من العقاب سلط عليهم الطوفان وسلط عليهم الحروب وسلط الثورات وسلط الفتن وسلط المكائد وسلط القنابل الذرية وسلط لعل الإنسان ينصرف إلى الروحية ولم يصبح هناك مفر من البطشة الكبرى ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾[١]، ولذلك فاحتمالات دمار العالم بسبب المادية هي احتمالات لا يلغيها القرآن بل يتوقع انتقام الله من الإنسان انتقاماً مروعاً وربما كانت الحرب العالمية الأولى والثانية إنذاراً لكل ذي عقل وكل ذي وعي وكل ذي بصيرة.

٢١ ـ ﴿هُنَالِكَ الوِلَايَةُ للهِ الحَقِ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وخَيْرٌ عُقْباً﴾ [٢] لذلك فلا يوجد في الروحية ولاية لطائفة على أخرى ولا ولاية لطبقة ولا ولاية لفئة ولا ولاية لإنسان ولا ولاية لأمة ولا ولاية لقومية ولا ولاية لدولة عظمى كانت أو كبرى ولا ولاية لمال ولا ولاية لجاه ولا ولاية لسلطان ولا ولاية

(١) سورة الدخان: الآية ١٦. (٢) سورة الكهف: الآية ٤٤.

لفرعون ولا ولاية لقارون ولا ولاية لرغبة ولا ولاية لشهوة ولا ولاية لهوى ولا ولاية لجهل ولا ولاية لفقر وتلك هي دعوة الحرية وحقوق الإنسان عند ربه وهو ليس رب أحد من الناس فقط وإنما هو رب العالمين لنتبين جلال وعظمة ما يدعونا إليه القرآن.

٢٢ - إن الدارس لتاريخ المادية والرأسمالية ليتعجب أشد العجب من النمو الهائل في أشكالها وألوانها وفئاتها التي اعتقد القرآن وهو يعددها عند القومية الفرعونية في الجراد والقمل والضفادع والدم ليبين أن المتطفلين كالقمل يمتص دماء الضحايا والسادة يبتزون ما ينتجه العبيد من بني اسرائيل وقتذاك والضفادع والكلام بغير إنتاج والجراد وما يقوم به المستغلون للطبقات العاملة وحدة الصراع والدم واعتبر القرآن أن ذلك كثير حتى كشف موسى للفرعون عن تلك الآيات والأمراض الاجتماعية في المنهج الطائفي ولكننا اليوم لا نستطيع أن نحصر الفئات المتطفلة على عمل العاملين في النظام الرأسمالي اللعين فهناك النصابون والمختلسون والمزورون والمدلسون والدجالون والمشعوذون والدينيون والأغنياء والأثرياء والسياسيون والمثقفون والكذابون وما لا حصر له مما يتزاحمون على جيفة المادية لنتبين استشراء هذا الداء الذي لفت القرآن الأنظار إليه في مسالك الكافرين وأهل الأديان وأهل الكتاب والملة ومسالك القوميات وقوم نوح وعاد وثمود وإخوان لوط ثم أخيراً قومية قريش وطغواها.

٢٣ - يحتج القرآن على قريش وماديتها وطغيانها لأنهم قالوا لمحمدﷺ إنهم إن يطيعوه في أمر الروحية يتخطفهم الناس فأوضح لهم أن ذلك كذب وافتراء بل هو تضليل والدليل على ذلك أن الله الذي يحيي الناس ويميتهم قد كان رب آبائهم الأولين ورغم ذلك لم يتخطفهم الناس بل متعهم الله وهو ما يزال ربهم هم أيضاً وهكذا بطلت حجة اتخاذ الطبقية

والمــادية منهجــاً ﴿رَبِّ السَّمَـاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَـا إن كُنتُمْ مُّــوقِنِيـنَ * لَا إِلَــهَ إِلَّا هُــوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَـائِكُمْ الأَوَّلِـينَ * بَـلْ هُمْ فـي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾[1].

ليست المسـألة لعبة ولا هي فـوضى ولا هي عبثيـة وإنمـا هي مصير الحضارات والأمم والقوميات بل مصير الإنسانية كلها ولكن التقدم العلمي قد جعل العالميـة قاب قـوسين أو أدنى وستكون الأرض كلهـا في قبضة حكـومة واحدة ويا للهول لو كانت تلك الحكومة على منهج المادية والرأسمالية لنتبين هذا المصير المشؤوم المنتظر.

لقد قدم موسى للفرعون تسع آيات بينات على فساد المنهج المادي وها هو تاريخ العالم قد احتواه القرآن كله منذ نوح وأوضحه بشتى الوسائل وأوسع الموضوعات وحدثت الحروب العالمية المدمرة ولم يعد هنـاك بيان وتـوضيح يفوق ذلك فهل نؤمل أو نثق في العقل الإنساني أو هل يكون بعد ذلك رجـاء يمكن أن نرجوه أو معجزة ممكن أن تحدث؟ إن ذلك لا يعلمه إلا الله وحـده الذي بيده مقاليد كل شيء.

٢٤ ـ من أغرب السنن التي كشفها القرآن للمادية اللعينة أن الناس يحكمهم طبع الردة وكلما وقع العذاب والكوارث والمصائب على رؤوسهم من المادية والرأسمالية أفاقوا وآمنوا بالروحية ولكن لا يلبث الوقت بالناس حتى تغلبهم تلك اللعينة فيرتدون كافرين بالله والـروحية ومن ثم تـدور العجلة ويصبح هذا الأمر ظاهرة ويحصر القـرآن المرتـدين ويقول في المائدة إن الله جعل الروحية مائدة لكل الناس وهو ينـزلها عليهم متى طلبوها ولكن المشكلة في مسـألة الـردة والمرتـدين وصاحب الإيمـان ينقلب صاحب الكفر وصاحب الصدق يرتد صاحب الكذب والذي كان

(١) سورة الدخان: الآيات ٧ ـ ٨ ـ ٩.

له نصيب من العدل يرتد طاغية والمرتد الكبير في مصر جعلها في أسوأ حالات الديون والصراع الطبقي والأنكى أنه يعلن على الناس أنه المؤمن لنتبين خطورة هذا الداء وهو داء عضال يأخذ المهتدي ويأخذ الضال ويأخذ الحكيم ويأخذ الأحمق ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُم فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُم فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[1].

ورغم ذلك كان أول الكافرين في المسيحية حوارياً من الحواريين ورائداً من الرواد ويهوذاً الإسخريوطي باع صاحب الدعوة نفسه بدينار واحد لنتبين مشكلة المرتد ومشكلة الكفر ومن بعد عيسى عبد النصارى الذين ينصرون الله عيسى نفسه اتخذوا منه ومن والدته آلهة من دون الناس لأن المادية والردة وراء هذا الأمر والمنافقون والمرتدون والفاسقون والكافرون حددهم القرآن بأنهم أولئك الذين عرفوا الله ثم ارتدوا على أعقابهم كافرين لذلك كانت تلك الطائفة هي أهل الكتاب وأهل الأديان وأهل الملة وقد كان الافتراض أنهم هم الذين ينتصرون لله وللقضية ولكن المشكلة والداء أكبر من كل إيمانهم وأكبر من كل عقائدهم في الله ولذلك يقول القرآن في الهداية من تلك الأدواء أنها من الله نفسه وهو وحده الذي يمكن أن يهدي الناس إلى الروحية ومن أجل ذلك هيمن الله والفقه الذي ورد في أسمائه الحسنى على المعرفة والهداية القرآنية وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال.

---

(١) سورة المائدة: الآيات ١١٢ ـ ١١٣ ـ ١١٤ ـ ١١٥.

٢٥ - ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾[1]. لذلك فالردة مشكلة كبرى وبعد عشرات السنين تظهر طائفة المنشقين اللعينة في روسيا ويظهر في الصين وقد كانت مثلاً أعلى في التطبيق الروحي من ينادون أن الأسبقية يجب أن تكون للتحديث والتكنولوجيا على حساب الصراع الطبقي بل يجب أن تعود الحوافز الشخصية لأن المادية داء كامن في نفس الإنسان وإبليس لم يدخل بالغواية إلى آدم إلا من خلال الآمال الخادعة في الخلود والملك وما تجلبه المادية من زخارف الحياة. والمشكلة كيف يكون للناس وعي بذلك كله حتى لا تحدث الردة الكبرى للناس وعي بذلك كله حتى لا تحدث الردة الكبرى وينقلب المجتمع العالمي كله إلى وكر الأفعى التي تتربص بالمصير كله، والقرآن يحاول أن يلفت الأنظار ويقدم الإنذار البين في نسق «الدخان» ورغم ذلك ما استسلمت قريش إلا بحد السيف عند الفتح والحديد والنار والدخان ومن لم يرتدع بالقرآن فقد يرتدع بالسلطان والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

٢٦ - في مشكلة الردة والكفر بالمنهج الروحي ناقش القرآن مشكلة أهل الكتاب والأديان وأوضح أن المادية جعلت اليهود وهم الذين استفادوا من الروحية ينقلبون كفاراً بها ليبين مدى التزييف الذي تلحقه المادية بالأديان فتجعل من أشرف العقائد منهجاً مادياً لعيناً وهكذا لعن الله اليهودية التي كانت في يوم من الأيام راية روحية للعالمين ومثل ذلك ما فعلته في المسيحية إذ نشأت نشأة روحية خالصة على يدي عيسى ثم جاءها الداء اللعين فانقلبت بتأثيره ديانة مادية بل ديانة مشخصة وهكذا زيفت ديانة كبرى ونخرت في عظامها حتى جعلت الكنيسة سلطان الله في قتل الأبرياء من العلماء والمصلحين وبكل الأسف فقد حدث

---

(١) سورة الدخان: الآية ١٥.

للأديان الثلاثة الكبرى تلك الردة التي يحدثنا عنها القرآن وانقلبت بشرور الماديين وآثامهم نعمة الله نقمة وبلاءً عظيماً بل استطاعت المادية أن تجعل من الدين أفيوناً للشعوب وغطاءً كثيفاً أمام العقل، ووجدنا المزيف الأول حبراً أو راهباً أو إماماً ليكون من ذلك كله قولة للمؤمنين وتحذيرهم أن شيطان المادية يجري منهم مجرى الدم وهو يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم وهو يدس لهم في المال والبنين وفي السلطان وفي الجاه ليكونوا من الماديين الذين استحقوا لعنة الرحمن.

﴿وَمَا أَمْوالُكُم وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُم عِنْدَنَا زُلْفَى إلاَّ مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضّعفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ في الغُرفَاتِ آمِنُونَ * وَالَّذِينَ يَسعَونَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي العَذَابِ مُحضَرونَ * قُلْ إنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُم مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1].

البراهين التي استعملها النسق في إثبات أن الله «حي - مهيمن» «حم»:

١ - يقول القرآن للذين يتخذون من دون الله أولياء مثل ولاية المال أو ولاية الجاه أو السلطان أو العنصرية أو الطبقية أو أي شكل من أشكال الطغيان والعزة إن كانت تلك الوسائل تنفع فلماذا أهلك الأقوياء وأصحاب العزة المزعومة ثم إذا كانت تلك العزة هي ما أبقى عليهم حياتهم فكيف استمرت الحياة مع الذين من قبلهم واستمرت مع الضعفاء من غيرهم؟.

٢ - لو نظر الإنسان في الطبيعة وفي نفسه لتبين أن الحياة تنمو من باطنها والنواميس التي تحكمها لا ينالها الإنسان ولا يستطيع أن يتحكم فيها

(١) سورة سبأ: الآيات ٣٧ - ٣٨ - ٣٩.

والآجال مقدرة عند رب كل واحد منا ولا يستطيع أي طاغية مهما أوتي من قوة النفوذ والبطش أن يضيف إلى عمره يوماً واحداً ليتبين الأغنياء والطبقيون أنهم لايحصلون من ذلك إلا حقد الناس عليهم وغضب ربهم لهم بالمرصاد لأن الله هو الذي أمات وهو الذي أحيا والإيمان بتلك المقادير يجعل الإنسان مطمئناً آمناً إلى ربه.

٣ ـ يتساءل القرآن إذا كانت أجيال الإنسان الحاضرة لا تثق في ربها وتتخذ من قوة المال سنداً ومعيناً لحياتها وهكذا تظهر فيهم الطبقية والطائفية وغيرها من أشكال الطغيان والمادية إذن فما بال القرون الأولى وكيف استمرت حياتهم ولم يكونوا يعرفون المال ولا رأس المال؟ وهو نفس السؤال الذي سأله فرعون لموسى إذ قال له «فما بال القرون الأولى» وكان رد موسى أن علمها عند ربه وهو لا يضل أبداً لنتبين أن القرآن لمس المسألة التاريخية وتساءل عن كيفية المنهج قبل أن توجد النقود والأموال ولذلك أوضح أن الحياة استمرت بدون العملات والموازين التجارية وتبادل السلع من الممكن أن يكون بديلاً لمشاكل النقد والعملات وسيطرة رؤوس الأموال.

٤ ـ ما دام القرآن يفتح هذا الباب فهو لا يستبعد نظاماً أفضل من هذا الذي ينقده بشدة لأنه مجلب للطبقية والعنصرية والطائفية والعداوة بين الشعوب وبين الأفراد وما جلب الدمار على الحضارات إلا المنهج المادي بشامل عناصره لنتبين معنى هذه الآية الكبرى ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُم مُوْقِنِين * لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُم الأَوَّلِينَ﴾[1]، ولذلك يقول القرآن بل يدعو إلى النظر في المناهج الطبيعية ليتعلم الإنسان كيف يقيم التوازن ولو نظرنا في السنن والنواميس الطبيعية لوجدنا أن البيئة لا يمكن أن تثرى بالحياة إلا إذا كانت بيئة

---

(١) سورة الدخان: الآيتان ٧ ـ ٨.

يحكمها ناموس التوازن بين كائناتها جميعاً ليكون من ذلك نـظرة متأملة إلى ما تفعله الطبقـات والطوائف والفئـات وما يمكن أن يحـدث الخلل بينها جميعاً.

٥ ـ ليست الدعوة إلى الإنسانية والمساواة دعوة خرافية لأن مسألة التوازن غاية في كل خلق حتى يقول القـرآن إنه مـا من دابة أو طـائر أو أي كـائن لا يحمل رزقه فإن الله كفيل به وهو يرزقه ويـرعاه لأن هـذا التوازن طبيعـة الطبيعة ذاتها وهي لا توجد والحياة في جنباتها إلا ويكون التوازن قـريناً وقائماً.

وفي الغابة نتبين معنى هـذا التوازن لـو زادت أعداد الحيـوان المفترس لاختل التوازن وهدد بفناء الأقوياء أنفسهم وهو ما يدركه القرآن ولذلك يقول إن فناء كل حضارة يتحتم أن يمر على ثلاث ليال وثلاث مراحل هي التوازن وعدم التوازن ودمار تلك الحضارة.

٦ ـ اتخذ فرعون من الطائفيـة منهجاً اجتمـاعياً وبنى عليهـا القوميـة المصريـة القديمة وجعل من بني اسرائيل الذين وفدوا على مصر منذ يوسف مواطنين من الدرجة الثانية وعبيـداً وكان ذلـك مخالفـاً للربوبيـة إذ الربـوبية ليست للفرعون ولا لقومه وإنما هي لله رب العالمين وحده ومثل فرعون عنـد الله مثله كمثل أي واحد من الناس بل مثله من استمداد عناصر الحياة كمثل أي دابة على الأرض وهو في تلك الحالة لا يزيد عن الكلب أو حتى الـدودة التي كفـل لها رب العـالم الحياة أيضـاً لكن المشكلة في اعتناق المـادية ولذلك قال موسى له ألا يعلوا على الله بهذا السلطان الجائر ويجب عليه أن يطلق سراح بني إسرائيل وألا يعذبهم لأنهم كرماء مثله عند ربهم أيضاً.

٧ ـ تلك هي الحوادث التاريخية وهلاك قوم فرعون كان بسبب الاستعلاء وهو نفسه ما تمارسه قريش وليس محمدﷺ وما يدعو إليه من الإخاء والمساواة إلا رسولاً كريماً مثله في ذلك مثل موسى وإن كان لهم من الأمر بصيرة

فقد ورث بنو اسرائيل الضعفاء والمساكين ملك قوم فرعون وذهب الآخرون غرقى في البحر لنتبين أن عباد الله وأولياء الله لا خوف عليهم ولا يمكن أن يصيبهم الطغيان ولا يعتدي عليهم الأقوياء بالسلطان لذلك فقريش لا تفهم حركة الحياة ولا حركة التاريخ وهي تفعل بالجهل ما فعله قوم فرعون والذين أخذهم الله بقوتهم وبغيهم على الناس ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾[1].

٨ - لقد ورث بنو اسرائيل ملك الله بعد أن كان بين يدي الطائفية ومثل ذلك ترث الاشتراكية نفس الملك بعد أن كان بين يدي الطبقية والمشكلة إنما تتعين في الأسراف والمادية ومثلها المضروب في القرآن كان الفرعونية لأن مصر كانت دائماً وما تزال مضرب المثل في الظلم والقهر والفسوق والعصيان ولتجدن اليوم فيها أشد ألوان الرأسمالية ضراوة نظراً لتعود المصري ولأن الجد الأكبر لهم قال للناس أنا ربكم الأعلى ورغم ذلك لم يرفع عليه أحد أصبعاً ولم يرد عليه ثائر قولاً وإنما كان منذ آلاف السنين الخشوع والمذلة وابن اليوم وريث تلك التركة المثقلة وهو ينظر إلى الهرم ويسبح بحمد فرعون والقومية التي يحدثنا عنها القرآن.

٩ - ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[2] لذلك انتصرت العبيد وبدلاً من عبوديتهم للفرعون وقومه أصبحوا عبيداً لله وحده لأنه هو ربهم وهو وليهم وهو وحده وكيلهم أيضاً لنتبين أن ما نزل على بني اسرائيل بعد ذلك من التوراة وعلوم الحياة الآخرة كان ثمرة لتلك الحرية وهو الذي قدم لهم آيات الروحية التي جاءت في التوراة لنعرف أن ذلك كان فتحاً عظيماً وأنه قد

---

(١) سورة الدخان: الآيات ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩. (٢) سورة الدخان: الآيتان: ٣٠ - ٣١.

آن الأوان لكي يكون للعرب مثل هذا الفتح وأن تبنى القومية العربية على منهج الروحية والإخاء والمساواة والتعاون وأن لا يكون في المجتمع إله إلا الله وحده وهو الذي يرعى الجميع ويشمل الكل ويقضي بالعدل والحق.

١٠ ـ لكن القرآن وهو يقدم صدام القوميات والعنصريات والطبقات والطائفيات مع الإنسانية يكشف لنا أن قيمة ما حدث بين المستضعفين وأولي القوة هو أنه قدم للعالم ما فيه بلاء واختبار مبين لا يمكن أن ينكره أحد لأن الآيات والنتائج كانت بينة وواضحة لا لبس فيها ومن ينكر أن هذا الانتصار كان انتصاراً حاسماً للروحية والرب ومنهجهما فإنه لا يفهم حركة التاريخ ولا قيم الحياة ولا يدرك أن النواميس لن تترك الطغاة بغير حساب.

١١ ـ عند كل صدام بين المنهج والمادية يقدم القرآن عقيدة الحياة الآخرة والبعث لنتبين أن بعث الإنسان ما هو إلا امتدادٌ للروحية أيضاً ومن لم يؤمن بها فهو على المادية مهما كان إيمانه ولهذا فالإيمان بالآخرة مع اعتناق الرأسمالية كذبة كبرى لأن المادية ليس لها أدوات غير المال والجاه والسلطان وكل ما اخترعته في تحقيق العزة المزعومة والتي وردت بشأنها آيات العزيز وهي مئات من الآيات لنتبين قيمة تلك العقيدة سواء أنها تاج المنهج كله حتى ليذكرها القرآن في كل صدام بينه وبين الماديين دون سبب ظاهر.

١٢ ـ إن تبع قد كانوا عرباً وأقاموا القومية على الاستعلاء فماذا كان مصيرهم؟ ومن قبلهم من القوميات لاقوا نفس المصير لنتبين أن هلاك المسرفين والمتعالين والطبقيين والعنصريين والطائفية والماديين هي سنة جارية ومهما تعاظم أمر الطغيان وامتد فإن مصيره حتمي ودماره ضروري.

من كان كريماً عزيزاً غير الله فقد ذل ومن اعتقد في غير ذلك فقد هلك

ومن لم يدرك هذا الأمر فقد خاب وفشل لتبين المسألة الاجتماعية والأخلاقية القرآنية على حقيقتها.

لكن القرآن وهو يقدم القومية المصرية بقيادة فرعون والقومية العربية بقيادة تبع إنما كان يلفت النظر إلى أن التجربة قد فشلت خارج العرب وداخلهم ليكون من فشلها البرهان العالمي وأن المادية لا تصلح في أي بيئة عربية كانت أو أجنبية وليكون من ذلك رد على أسياد قريش الذين قالوا لمحمدﷺ إن المادية ضرورة لبقاء سلطانهم فقد أوضح القرآن أنها لا يمكن أن تنجح والدليل هو قوم تبع وقوم فرعون والتجربة أصبحت تجربة عامة عالمية ولذلك وجدنا الرأسمالية وطغيانها تفشل في العصر الحديث في كل البيئات وكل البلدان حتى المجتمع الأمريكي ومن يضربون بهم المثل في النجاح الاقتصادي باءوا بالفشل الذريع في المنهج الإنساني إذ يتفشى في المجتمع الأمريكي كل عيوب القوميات السابقة في التاريخ المادي حتى مادية قوم لوط والشذوذ الجنسي لأنه نتيجة حتمية للإسراف والترف.

١٣ - جعل الله في التجربة الروحية الوارثين من أمثال بني اسرائيل العبيد المستضعفين وجعل من أراذل الناس في قوم نوح المؤمنين المبدعين حتى صنعوا مع نوح المعجزة الأولى للخلق والإبداع وجعل من عبيد قريش ابن مسعود وآل عمار بن ياسر وبلال وغيرهم سادة مكرمين وجعل من داود الراعي امبراطوراً عظيماً أقام الدولة التي تاه الزمان بصيتها وشهرتها وجعل من الولد ابراهيم مربياً لأبيه العجوز الجاهل وجعل من هود وحده البطل الفريد الذي تحدى قومه جميعهم بل كل العالم معهم وجعل من عيسى روحاً خالداً بإذن ربه وما نزل على موسى من التوراة لم يكن يدري عنه شيئاً بل إن محمداًﷺ لم يكن في يوم من الأيام يدري ما الكتاب ولا الدين ولا الحكمة ولا القرآن بل كان أمياً لا ثقافة له ولاعلم بين يديه حتى جعل منه المسلم الأول والروحاني الأكبر

وخاتم كل نبوة وكل رسالة ولنتبين قيمة الإنسان في هـذا المنهج وأنـه كائن مكرم عند ربه ورغم ذلك نجد في المصريين امرأة داعـرة حدث لسيارتها حادث وكان في الطريق طفل أصيب وكلبها المدلل قد أصيب أيضاً فتركت الطفل وأنقذت الكلب ويا للغرابة لموقف الرأي المصري من ذلك إذ وجدنا من يقر هذا السلوك ويبارك تلك العاطفة اللعينة.

١٤ - يقول القرآن ويتساءل لماذا يبارك الله التجربة الروحيـة حتى يجعل من بني اسـرائيل هؤلاء المستضعفين ملوكـاً ويجعلهم الـوارثين ويجعلهم أئمة للناس ويجعل لهم الإمامة؟ وفي العصر جعل الله وبارك في طبقة العمال حتى أداروا بجدارة فـريدة دولـة كبرى هي الإتحـاد السوفييتي لنتبين أن الله يعلم بل يعرف أنه لا يصلح لخلافتـه في الأرض إلا من كان روحياً خالصاً وأن المسألة ليست بالصدفة والظروف فكم من فئـة قليلة روحية غلبت فئة مادية كثيرة وهذا بإذن ربها والله يناصر الـروحية ويجعـل الملائكـة تقاتـل مع الـذين آمنوا بهـا ليكون من ذلـك بشارة لأصحاب المنهج ولقرب الملكوت الذي وعدهم الله به ولن يفهم تلك الأمور طبقي أو مليونير لأن النقد والمـال والدرهم هي ربـه وهي التي تحميه إن كان له عند النـاس حمايـة والقرآن يعـري كل المـاديين من حمـاية الله ويخلعهـا بجلالهـا وكمالهـا للروحانيين والـذين آمنوا بـالله السلام وبالله المحبة وبالله الإخاء وبالله المساواة والعدل.

١٥ - إن إرسال محمدﷺ إلى قريش كان حكمة كبرى اختص الله بها العرب لكن سلطان قريش يقف حجر عثرة في طريق إقامة قومية روحية ولذلك كان نسق «الدخان» هو الإنذار السماوي الذي سيكون بعـده الطوفـان وغرق فرعون ودمار «تبع» وكل من سبقهم لكن الميزة الكبرى في البيان الذي احتواه هو كشفه للخديعة التي تروج لها قريش إذ تدعي أن هناك من يعلم محمداًﷺ وينقل عن لسانه وأن محمداًﷺ مجنون لا يفهم لعبة

الطبقية فأوضح القرآن أن المسألة ليست مسألة محمدﷺ وقريش ولكنها المسألة التاريخية وهلاك المادية وقومياتها وأن الله قد كان عدواً للماديين في كل زمن وفي كل حضارة حتى أنه أهلك العرب وغير العرب ولو تبين للناس أن المسألة تدخل في الربوبية والحرية وحقوق الإنسان لعرفوا أن قريشاً تزيف القضية وتدعي أن محمداًﷺ مجنون انصرف الناس عن جوهر المسألة ولو كان لهم عبرة مُن القوميات لأدركوا أن محمداًﷺ هو الصادق الأمين الذي لا يكذب عليهم أبداً ومثل ذلك كل رسول ذهب إلى قومه من موقع الأمانة وأن المادية لا تنفع ولا تفيد بل هي علة خراب الحضارات والقوميات.

الفصل الثاني

نسق «حم» «حي - مهيمن»



قضايا ومحمولات النسق:

١ - إن قضية الله في الأرض قضية ممتدة والإنسان عندما طلب المعرفة في الله أخذ في البحث والنظر في ملكوت السماوات والأرض ولذلك وجدنا عبادة الإنسان للطوطم أمثال ما عبد الإنسان البدائي تمساحاً كان ذلك أو عجلًا أو طائراً وقد عبد قدماء المصريين العجل إبيس والقرد خورس وغيرها مما اعتقدوا أن روح الآلهة قد حلت فيها وهناك من عبدوا النار والأشجار وما حولهم من كائنات الطبيعة حتى التوحيد بدأ يظهر في تلك العبادات عند قدماء المصريين والشمس قد كانت الآية التي يمكن أن تفي بالغرض وكل ذلك بحثاً عن الله سبحانه وتعالى ومرت مراحل البحث في الوثنية كما مرت في الطوطمية وجاءت الصنمية وجاءت العبادة والديانة البشرية في بوذا وغيره ولم يتوقف بحث الإنسان عن ربه والله حتى جاءت الرسالات السماوية وبدأت هي الأخرى في

البحث وأوتى كل نبي وكل رسـول من أنبياء ورسـل التوحيـد جانبـاً من المعرفة والكشف في الله ذاتاً وموضوعاً وهـذا هو الـذي يكشف لنا سـر تقديس المسلمين لما يمكن أن يبدو في شعائر الحج أنه وثنية مثل تقبيل الحجر الأسود لأنه مرحلة الوثنية التي كانت في وقت من الأوقات بحثـاً عن الله للوصول إلى معرفته وهدايته ومثل تلك ما يكون من الحـاج في رجم الجمرات ورمي الحجر بالحجر والسعي بين الصفـا والمروة حتى احتج المؤمنون بمحمدﷺ أن يكون لهم منفعـة في ذلك أو يكـون لهذا الأمر صلة بين الله وما يقومون به من هذا السعي ،فأوضح القرآن أن ذلك من شعائر الله وأن هـذا السعي والهرولـة إنما يعبـر عن اهتمام الإنسـان بالبحث عن ربه والسعي إليه من أجل التعارف كما يهرع الإنسان لملاقاة الأحبة وهكذا وقف صديق لي لأول مرة أمام الكعبة وأخذ منه الشيـطان مقعـده وهو يقـول له مـا أمامـك في تلك الكعبة إلا الحجـارة والـوثنيـة والصنمية ولم يفهم لماذا قبل الحجر وسعى بين الصفـا والمروة ولمـاذا كانت الكعبة ومكة آية وشعيرة من شعائر الله وما كان رجم إبليس إلا لأنه أراد أن يصرف ابراهيم عن طاعة ربه وهذه كلها رحلة معرفة وبحث عن الله وكما تقدس الله تقدست الوسائل المفضية إلى معرفته وأصبح الحجر والصنم بركة وما حطم ابراهيم الأصنام ورفعها محمدﷺ عن الكعبة إلا لأنهـا مرحلة قـد انقضت بعدمـا عرف من الله مـرحلة أخرى حتى قبـل محمدﷺ من المرأة البسيطة عندما سألها عن الله فأجابت أنه في السماء واعتبرها كافية شافية.

٢ ـ هل من الممكن أن يدرك الله ذاتاً وموضوعاً إدراكاً نهائياً وتاماً؟ تلك هي المسألة التي تنـاقشها سـورة «الجاثيـة» وطبيعي أن ذلك مستحيـل على الإنسان وقدراته القليلة ولهذا عندما مكر الكافرون بمحمدﷺ في الجدل أوضح القرآن أن الله أشد مكراً منهم بل أنه شديد المحـال وأحوالـه لا

نهاية لها وآياته لا تنفذ وعلمه لا يطوله الحصر وأعماله لا تقع تحت طائلة التعليل لأنها تتضمن الحكمة البالغة التي تخفي جوانبها الكثيرة عن الناس ولذلك يقول القرآن إن مسألة الإيمان بالله واليقين في هذا وأعمال العقل فيه لها آيات تملأ السماء وتملأ الأرض ولن يستطيع إنسان من الناس مهما أوتى من العلم أن يحصرها عنده فيكون جامعاً لكل علم ولكل معرفة وإنما يفتح الله على أحد من الناس في كتاب أو آية يصير منها أمة من الأمم وقد وجدنا أن نوحاً أوتي آية التكنولوجيا وصناعته للسفينة وأوتي إبراهيم من ربه آية بناء بيت الله لأول مرة وأوتي موسى التوراة فكانت أمة وأوتى عيسى الإنجيل فكانت أمة أخرى ومثل ذلك أوتي محمدﷺ القرآن وسيكون منه أمة وهو ما يكون عليه حسابهم ومعادهم عند الله سبحانه وتعالى ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَـذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

٣ - ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ ابْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى ابْرَاهِيمَ وَاسْمَاعِيلَ وَاسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2].

لذلك اعتقد اليهود وأهل الكتاب والأديان أن ما لديهم يؤخذ به من بعدهم من الأمم والدول والمسألة مسألة تطور في الله وكلما كشف العلم عن سنة أو آية أو قانون طبيعي أصبح ذلك ملزماً لزمنه ولا يسأل عنه غيرهم ومخافة

---

(١) سورة الجاثية: الآيتان ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) سورة البقرة: الآيات ١٣٤ ـ ١٣٥ ـ ١٣٦.

اليهـود والدخـول في الإسلام وهـو كتـاب جـديـد كـان جمـوداً منهم والأمـر في الله ليس كـذلك إذ أن الله قـد أتى الأنبياء والـرسل كلا بما كشفـه لـه من علمه وفضله وبه كان حسابهم عند ربهم ولا يسأل الحـاضر عن المـاضي ولا يسأل الماضي عن الحاضر، وإذا احتج اليهود فإن آيات الله لا تنفذ أبداً والذين حجروا على قدرة الله خابوا وخاب ظنهم بالله وربهم وقد كانوا يقولون لن يبعث الله أحداً بعد موسى ورغم ذلك بعث الله بعيسى ومن بعده محمداًﷺ حتى قال القرآن لمحمدﷺ نفسه في تلك المسألة أن حصر رسـل الله إلى الناس خـطأ كبير حتى أنه قـصَّ عليه في القرآن بعضاً منهم ولم يقص عليه جملتهم لأن عـددهم لا يعلمه إلا الله وحـده ومن كان يعتقـد في الله العجـز حتى يحصـر المسألة في نبي أو رسول أو يتوقف الله فقد باء بالخسران المبين ولو أن اليهود عرفوا من أمر الله ذلك لدخلوا في المعاصرة والعـلـم لأنـهـا من آيـاته أيضـاً وليس ماركس أو نيوتن أو غيره إلا جنوداً لله سخرهم من أجل البشرية.

٤ ـ يرفض اليهود أن يكون أحد من الناس مهتدياً إلى الله إلا إذا كان يهودياً أو نصرانياً أو من أهل الأديان وتلك حمـاقة مـا بعدهـا حماقـة حتى كذب القرآن تلك الدعوة إذ المسألة في الله هي ظهور الآية على يدي رجل من النـاس يهـوديـاً كـان أو غيـر يهـودي مسيحيـاً كـان أو غيـر مسيحي مسلمـاً كـان أو غيـر مسلم لتتبين المخـاطـر والمحـاذيـر ولا يؤخـذ يهودي اليوم بما كان من أمته عند بعثة موسى ولا يؤخذ المسيحي بمثل ذلك ولا المسلم وإنما يؤخذ بعصره وما فتح الله فيه من العلوم والمعارف والهدايات.

٥ ـ تلك هي قضيـة التـطور ومسـألـة السلفيـة المعاصرة والـدين . . . ومـا من قوم بعث فيهم رسول بجـديد إلا قـالوا المثـل المشهور في القـرآن ﴿قَـالُوا إِنَّـا وَجَدْنَـا آبَـاءَنَـا عَلَى أُمَّـةٍ وَإِنَّـا عَلَى آثَـارِهِمْ مُّـهْتَـدُونَ * وَكَذَٰلِـكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَـرِيَةٍ مِّن نَّـذِيرٍ إِلَّا قَـالَ مُتْرَفُـوهَا إِنَّـا

وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[1] لنتبين أنها سنة جرت في تقليد الآباء والتمسك بالقديم ومحاربة كل جديد وكل تقدم ولذلك تخطى القرآن هذا الحاجز وألغى سلطة الآباء والاعتقاد في سورة «لقمان» وبين للناس أن الحصانة الطبيعية للإنسان لا تتجاوز سنتين ومن بعدها يصبح الله هو رب كل إنسان وهو نفسه ما جعل القرآن يعقد للفطرة سلطان العلم والهداية بالنسبة للناس ورفع عنهم النظر في التراث حتى لعنه في الآية ﴿ويأكلون التراث أكلاً لمًّا ويحبّون المال حبّاً جمّاً﴾ ومثل ذلك أيضاً ما فتح به القرآن وجعل للرسالات والنبوات نهاية برسالة محمد ليكون لله وآياته الهيمنة بعد ذلك والعلماء وما يقومون به هو وريث الرسالات «العلماء ورثة الأنبياء».

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ الله وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[2].

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قبلُ وَكُنَّا ذُرِيَّةً مِن بَعْدِهِمْ﴾[3].

﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا * أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنا﴾[4].

﴿قَالُوا بَلْ نَعْبُدُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾[5].

﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[6].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾[7].

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[8].

---

(١) سورة الزخرف: الآيات ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٧٠.
(٣) سورة الاعراف: الآية ١٧٣.
(٤) سورة هود: الآيتان ٦٢ و٨٧
(٥) سورة البقرة: الآية ١٧٠.
(٦) سورة المائدة: الآية ١٠٤.
(٧) سورة الأعراف: الآية ٢٨.
(٨) سورة يونس: الآية ٧٨.

لنتبين حجم الداء والعلة الكامنة في كفر الناس بربهم ولذلك يثير القرآن مشكلة أهل الكتاب وأهل الملة وأهل الأديان من خلال زوايا مختلفة أهمها على الإطلاق هو التمسك بالقديم والتراث ولذلك أيضاً قوض القرآن سلطة رجل الدين وسلطة الأديان وسلطة الآباء والأجداد والتراث لإقرار الحرية والتطور والتقدمية والعلمانية التي ظهر فضلها في مواجهة ما للاعتقادات من مشاكل يصطدم بها كل جديد ناهض.

٦ - في سورة «الشعراء» عند مناقشة مسألة القديم والثقافة التقليدية عند العرب والشعراء أفصح القرآن عن السنة التي يجب أن يكون لها الهيمنة في تلك القضية إذ يرجع إلى الطبيعة ويقول إن العرب تكذب بالجديد وتعتقد في التراث والقديم ولو نظرت إلى فعل الطبيعة لتبين لها أن الأرض كل يوم تنبت بالجديد ليحل محل القديم الذى ذوى وانقضى زمنه ﴿وَمَا يأتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن الرَّحْمانِ مُحْدَثٍ إلَّا كَانُوا عَنْهُ مَعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، لذلك لزم المقلد والسلفى الحجة ولم يعد ممكناً للجدل في هذه المسألة إذ الطبيعة وعمل الله فيها والتطور والنشوء والارتقاء سنة طبيعية وناموس رباني والأزواج والأنواع تنشأ من كل جديد.

لكن المسألة تأخذ بعداً آخر في «لقمان» فتقول إن الحجة التي يريدها الإنسان في أحقية الجديد والأخذ به موجودة في خلق الله والربوبية إذ كيف نشأت الأزواج والأنواع إلا من الجديد؟.

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٥ - ٦ - ٧ - ٨.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

لذلك كان ثراء عملية الخلق حجة كبرى لنصرة المناهج الجديدة ويتساءل القرآن عن معنى رفع السماء بغير عمد وعن الأرض وكيف استقرت ليقول أن الذي يمسك بكل ذلك هو الذي يرعى الكائنات وهو ما يزال رب العالم وليس للآباء والأجداد دور أو حق في رعاية الأبناء لأنهم خلقه وهم بعين رعايته.

٧ - إن قضية التطور والإيمان بالجديد مشكلة الأمة التي كانت الداء القتال فيها لأن السلفية بحجة الأصالة تهلك الحرث والنسل وتجعل من الأبناء نسخة شائهة للآباء ولا ابداع في ذلك إذ تموت القدرات وتزوي الفردية وتقتل المبادأة والريادة وحرية الفكر وحرية الإيمان والاعتقاد الذي به يصير الإنسان روحاً من ربه لنتبين عظم الكارثة التي أحاطت بالأمة وبكل الأسف يعتقد السلفيون أنهم باستعمالهم لأدوات الحضارة أنهم يحيون العصر والحقيقة أنهم خارجه لأن العصر كما هو في القرآن إنما يعني الابداع والجديد والتقدم وشهادة ابداع القرآن فوق كل شهادة إذ لو كان محمدﷺ نسخة من قريش لما كان هذا القرآن بين أيدينا اليوم.

عندما يتحدث القرآن عن الأنبات والأزواج والأنواع والأجناس والألوان وكل ما خلق الله فإنه يلفت النظر إلى ثراء الطبيعة وأن هذا الأثراء لم يكن ممكناً على شدة اختلاف وتباين الكائنات إلا من خلال عمليات الخلق الجديدة والتطور بل النشوء والارتقاء وإلا كيف تأتي إلى الحياة كل تلك الأنواع

(١) سورة لقمان: الآيتان ١٠ - ١١.

وكل تلك الأجناس وكل تلك الأفراد التي تدل بصماتها على أنها لا تشبه غيرها أبداً إلا أن يكون هو الجديد ذلك الذي يحدثنا عنه ومن المشاهد أن نوحاً قد أخذ من كل زوجين ليكون من ذلك الانتقاء والصنف الجيد ولنتبين من ذلك كله أن القرآن يدرك خطورة السلفية التاريخية التي كان عليها قوم نوح وابراهيم وقوم هود وغيرهم لأنهم جميعاً أخذوا بعقائد الأجداد وقولتهم الكافرة راحت في التاريخ مثلاً وراية.

٧ ـ في القومية والربوبية أوضح موسى للفرعون أن الذي يقوم على الحياة هو رب العالم وليس هو أو الوالدان أو الأجداد ويلفت نظره إلى ثراء الطبيعة كل يوم من حوله ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُم الأَرْضَ مَهْداً وسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْواجاً مِن نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وارْعَوا أَنْعَامَكُم إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولي النُّهى**﴾[1]، لنتبين أنه إما أن يكون السلف هو رب الأجيال والقيوم على الناس وعقائدهم أو يكون الله هو رب الناس والقيوم على حياتهم والإيمان بالجديد هو إيمان بما يفعله الله في الطبيعة ولا ينقص في شأن الله ما اكتشفه دارون أن الأنواع أصلها واحد لأن ذلك برهان على قدرة خلق الجديد وإبداعه من هذا القديم المتهالك.

٨ ـ إن مسألة التطور أوردها القرآن في مواضع كثيرة إذ وردت في سورة «نوح» واكتشف أن مصير الإنسان مرهون بالتطور والارتقاء حتى يقول إن الله في بدء الخلقة قد خلق الإنسان من النبات ـ «وأنبتكم من الأرض نباتاً. . الآية» ـ ومثل ذلك في قصة موسى مع ربه إذ ناداه من جانب الطور الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة وهي نفس الإنسان التي عبر عنها القرآن في رحلة التطور بالشجرة حتى أثمرت الطور الروحي الذي نادى الله منه موسى وكثير من المواضع والآيات، يشير إلى تلك الحقيقة

(١) سورة طه: الآيتان ٥٣ ـ ٥٤.

ويبين قيمة التطور في سورة «التين» ﴿والتين والزيتون * وطور سينين * وهـذا البلد الأمين﴾(1) أي أن طـور السنين الـطويلة والتي تقـدر الآن بملايين السنين هو الذي أثمر وجود التين ووجود الزيتون وهو الذي أثمـر وجود هذا البلد الآمن ومع التطور والتقدم والازدهار تثري الحياة.

٩ - عقـائد الأجـداد وأهل الأديـان وأهل الكتـاب واليهود والنصارى كانت حجـر عثـرة في طريق الإسـلام وما اصـطدم به القـرآن كان مشاراً في سـورة «السجدة» إذ يقرر القرآن أن حياة الأمم لا تبنى بظهور آيات الله والرسول الذي يذكر الناس بها والعالم الذي يكشفها لهم يجب تصديقه والخضوع لتلك الآيات ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْـدِ رَبِّهِم وَهُم لا يَسْتَكْبِـرُونَ * تَتَجَـافَـى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَـاجِـعِ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ خَـوْفاً وَطَمَعـاً وَمِمَّا رَزَقْنَـاهُم يُنْفِقُونَ﴾(2)، لـذلك فمن يستكبر عن الآيات العلمية المعاصـرة التي كشف عنها مـاركس وداروين ونيوتن وآينشتين وفرويد وآباء المعـرفة المعـاصرة فإنّه يستكبر على الله نفسه لأن هؤلاء لم يقوموا بخلق تلك الآيات وإنما الذي خلقهـا هو الله وكان دورهم كشفاً وتـذكيراً ولـذلك لعن اليهـود وأهل الكتـاب والأديان لأنهم لم يؤمنوا بالقرآن كآية جديدة.

لكن القرآن وهو يقدم الهيمنة ويتساءل لمن تكون الهيمنـة أتكون لـرب العالم والقائم على شؤونه لحظة بلحظة أم تكون لدى الناس من اعتقادات في السلفية التاريخية؟.

لذلك كشف القرآن عن أمر الله وكيف يجري بين السماء والأرض فيقول إن أمر الله يعرج من الأرض إلى السماء والعكس في يوم كان مقداره ألف سنة مما يعده الإنسان لنتبين السرعة الفلكية وأن أمر الله ما هو إلا لحظة كالبرق ومن

---

(1) سورة التين: الآيات ١ - ٣ .

(2) سورة السجدة: الآيتان ١٥ - ١٦.

العجيب أن يكتشف الإنسان السرعات الفلكية والذرية حتى أن «الفوتون» لم يمكن حتى الآن حساب سرعته ويكاد يكون كائناً في لحظة في كل مكان في نفس اللحظة لنتبين معاني الآيات ﴿الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * ذلِكَ عالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ العزيزُ الرَّحِيم * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾[1]، لنتبين معنى الإيمان بالله ومعنى الربوبية ومعنى القيومية ومعنى الوثوق الجديد وأن الله يحدث كل يوم في العالم فتخرج النباتات الجديدة والحيوانات الجديدة والأناسى الجديدة أيضاً.

١٠ ـ كانت الثقافة الدينية سائدة ومسيطرة عند أهل الكتاب والأديان اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم وكانت الثقافة التقليدية عند العرب الشعر والشعراء وكانت الثقافة القومية موجودة عند القبائل المتنوعة ورغم وجود ذلك كله جاءت الثقافة القرآنية عن رب محمدﷺ والفطرة وهي جديدة كل الجدة ورائعة كل الروعة ولم يكن محمدﷺ لديه علم الكتاب ولا علم التوراة ولا علم الإنجيل وإنما جاءه العلم من ربه وفطرته المبدعة لذلك يقول القرآن إن الإنسان لا يدرك قيمة ربه والفطرة الهادية في نفسه إلا إذا لمس قدراته الخلاقة المبدعة مثلما حدث مع محمدﷺ وربه وما حاجة محمدﷺ بما لدى أهل الأديان أو لدى اليهود أو لدى النصارى أو لدى آبائه وأجداده لنتبين المسألة ونتبين أن الفطرة هي الإيمان بالنفس وقدراتها التي أودعها العلم وأودعها الهداية حتى لو علم السلفيون قيمة ما في تلك الآية ـ ﴿كلا ١٠ ـ إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى * إن إلى ربك الرجعي﴾ـ لو رأى

---

(١) سورة السجدة: الآيات ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧.

أي إنسان ربه من خلال قدراته كما رأى محمد ﷺ ربه لنتبين أنه من الممكن أن يستغنى عن الناس وعن كل شيء وعن علم السلفية وكل ما هو وثن وصنم.

١١ - من يهدي الطير من يهدي الحيوان من يهدي النبات من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟ أهو من يحكمون ويحكون عنهم والسلفية التاريخية أم هو رب العالمين ورب كل نفس وكل إنسان وهو نفسه ما زال قائماً على كل فرد بالهداية والتوفيق؟ لقد اختار محمدﷺ الفطرة واللبن وفضلها على كل مصطنع وكل تراث وكل علم زوى وتحلل ليكون من محمدﷺ الفطرة برهان كل تقدم وبرهان كل جيد وجديد ولو كان علم القرآن من علوم أهل الكتاب والأديان لكان سلفياً ولو كان من عند العرب لكان شعراً ولكان محمدﷺ أصبح شاعراً ولكنه التفرد والوحدانية والفطرة الهادية ليكون من ذلك حجة لكل عاقل وهداية لكل طالب.

تلك السلفية التاريخية هي العدو الأول لله في الأرض وما زالت تحكم مئات الملايين من الناس والغريب أن القرآن أدرك علة استمرار وجود السلفية في الناس آلاف السنين رغم كل رسالة ورغم كل تقدم لأن ما بين أيدي الناس منه يصير بالتقادم والزمن إلى عنصر سلفي رجعي ولذلك أوضح القرآن أن رسالة موسى بدأت بداية روحية ولكنها بتقادم الزمن أصبحت ديانة مادية شأنها شأن أي منهج تصيبه آفة السلفية والقدم ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتى طَالَ عَلَيْهِم العُمُرُ﴾[1] ومثله ﴿وَلَكنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِم العُمُرُ﴾[2] لنتبين أن هذا السبب هو الذي يحول كل العقائد السلفية والرسالات العظيمة إلى مجرد سلفية تاريخية تكون حجر عثرة أمام التقدمية والمعاصرة.

١٢ - في الابداع نتبين قيمة الجديد وما تلك الحضارة المعاصرة التي يستمتع

(١) سورة الأنبياء: الآية ٤٤. (٢) سورة القصص: الآية ٤٥.

بآلاتها وأدواتهـا في كل مكـان هؤلاء الرجعيـون إلا من نتاج الفـردية وإبداعاتها ولننظر مـاذا كانت النتـائج إذا لـم يختـرع أدفنسون القـطار أو لم يخترع رايت الطائرة أو لم يخترع نوح السفينة أو لم يخترع المخترعون بالفطرة والقدرات ورب العالم كل ما أنجزه للناس؟ .

البراهين المستعملة وإثبات أن الله «حي - مهيمن»:

١ - يلفت القرآن نظر المكذبين بالرسالة الجديدة والذين يكفرون بها من أهل الكتاب والأديان وقريش إلى أن الحكم بين الجديد والقديم هو ما خلق الله من الآية في الطبيعة وفي النفس البشرية وما ظهر من الآيات السماوية التي وردت في الكتب على يدي موسى وعيسى والرسل والأنبياء ويوضح أن المنهج الذي يحوز الثقة هو المنهج الذي لا يتصادم مع الطبيعة ولا مع الفطرة ولا مع السنن والنواميس متى تم الكشف عنها وتلك المصادر لا تتوقف على زمن بعينه ولا على رسـالة بعينهـا ولذلـك يوجـه القرآن إلى أن يـدخـل النـاس جميعـاً في دين الله وطبيعتـه وآيـاتـه لنتبين أن إحالة المسألة إلى المنهج الطبيعي قد حققت الهيمنة للجـديد وجعلت الله قيـومـاً على أمـر الأديـان والملل والنحـل والجمـاعـات والـطوائف ولذلك فـالأمم لن يتوقف ظهـورها وكـل أمة ستؤخـذ بكتابهـا من تلك الآيـات التي يكشفها العلم والتقـدم والتـطور والازدهـار ولـذلـك يقـرر القـرآن أن المكذبين بـالجديـد والنهضة والمعـاصـرة لن يجـدوا شيئـاً يصدقون به بعد الله وآيـاته وأن القـرآن مهما قـدم لهم ليبعث الثقة في نفـوسهم فإن ذلـك لن يفيد إلا إذا بحثـوا هم أنفسهم في تلك الآيات والعلوم والمعرفة.

٢ - إذا كان الهدي الذي يبحث عنه الإنسان لا يجده عند الناس فلينظر إلى ما بين يدي الله وما حققه للإنسان إذ جعل نوحاً يقوم بصناعة الفلك وقد كان الناس لا يعرفون عنه شيئاً قبل أن يكتشف نوح قانون الـطفو ومثـل

ذلك ما تم على أيدي المكتشفين من العلماء أمثال جاليليو وما قام به نيوتن وما قام به أدفينسون وما قامت به ماري كوري وما قام به آباء البحث والاكتشاف وما سخر الله من كل المخترعات للناس لنتبين معنى قبول الآية ومعنى التطور ومعنى الجديد ولو لم يكشف الله للناس عن تلك الآيات لما سخر لهم شيئاً من ذلك.

٣ - ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، لذلك فالإنسان مطالب بالسعي والبحث والتنقيب ليبتغي من فضل الله ويسخر كل إمكانات السماوات وإمكانات الموارد الطبيعية وليكون من ذلك آيات دلالة على وجود الله وهدايته ومن لم يفعل ذلك فلن ينال من الهدى شيئاً.

إن العصر بمكتشفاته كلها هو الذي يكشف عن معنى ما بين أيدينا من تلك الآيات وما أمكن العلم من تسخيره للناس بفضل الله وآياته المودعة في الطبيعة هو خير البراهين لتلك الدعوة التقدمية ولن نستطيع أن تجد في الأديان كلها ما يعينك على صناعة صاروخ واحد لأن آيته قد جعلها الله في أسرار الطبيعة التي خلقها بيديه ولذلك نرى عندما يحتد الخلاف والنقاش بين من يعتقدون فيما بين أيديهم من الاعتقادات وبين القرآن فإنه يقدم آية الفلك وصناعة السفينة في إشارة واضحة لسيادة المنهج الطبيعي وما يحتويه من السنن والنواميس والآيات التي ما خلقت إلا بيد الله وحده.

من قبل مجيء نوح كان الدين قائماً لكنه لم يقدم المعرفة السليمة لهيمنة الله وعندما اكتشف نوح قانون الطفو وأخذ في صناعة الفلك تبين له إمكان السيطرة على الطبيعة الطوفانية وعرف من ذلك أن الإنسان يعلو فوق الطبيعة وأنه في الإمكان أن يسخر له الله كل شيء فيها ومنذ ذلك الحين بدأت رحلة الإنسان مع ربه

(١) سورة الجاثية: الآيتان ١٢ ـ ١٣.

حتى أمكن مع كل كشف أن يتعرف الإنسان على ربه .

٤ - هذا الطريق الذي يحدثنا عنه القرآن نكتشف جذوره في الآية الطبيعية وكيف سخر الله الشمس والقمر والأجرام السماوية في أفلاك ثابتة وها هو العصر يكشف عن القوانين الفلكية التي تبقي تلك الأجرام الهائلة في مداراتها وهي نفس القوانين التي سخرها الإنسان لصناعة سفن وصواريخ الفضاء وعما قريب يستطيع الإنسان أن يعرف كيف نشأ الكون كله ليكون من ذلك خزي وعار للذين يرفضون الدخول في المعاصرة والجديد والتقدم لنتبين أن طريق الله الذي اتخذه في خلق الطبيعة وما شملته من كل المخلوقات سيكون بفضل معرفة أسرار تلك الآيات بين يدي الإنسان وبقوة الروح المودع في النفس البشرية من العقل والإدراك وهي من روح الله وسيمكن تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه لنتبين فضل تلك الدعوة الجديدة التي دعا لها القرآن ولو أن المكذبين تفكروا في آية الفلك لتبين لهم أن مفهومهم لله كان خطأ جسيماً .

﴿هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾[1] .

ليس هناك عقاب سماوي يزيد عما فيه الأمة من التخلف والضعف والاستخزاء والعار لأن المسألة إما النظر في آيات الله بتدبر وعمق يؤدي إلى اكتشاف القوانين وإما الإيمان الجامد الذي يقف عند ما قرَّره السابقون الذين يدورون في هذا الفلك المخزي والمشين لكل عقل وليكون من وقفة «الجاثية» التي أثارها استكبار اليهود وأهل الكتاب وأهل الأديان هداية لصاحب كل عقل وبصيرة ولو كان للمسلمين من عظة في هذه القضية فالعظة موجودة عند إسرائيل إذ عندما أخذ اليهود بالتطور والعلم والمعاصرة استطاعوا أن يهزموا ما ينيف على ثلاثمائة مليون وهم قلة قليلة .

---

(١) سورة الجاثية : الآية ١١ .

٥ ـ «أيام الله» الله في صدام مع كل قديم ولذلك بعث نوح في وجه الوثنية والصنمية ويوم جرت السفينة في الطوفان وهي تحمل المؤمنين كان يوماً مشهوداً ومثل ذلك كان صدام ابراهيم مع أبيه وقومه وأصنامهم ويوم تم بناء بيت الله لأول مرة في تاريخ الإنسان هللت الملائكة واتخذت منه مزاراً ومسجداً ومثل ذلك وقع الصدام بين موسى والفرعونية وتوج هذا الصدام بنجاة المستضعفين وغرق الطاغية هو وقومه ومثل ذلك كان الصدام بين عيسى ومادية اليهود ويوم القيامة وعيدها عند المسحيين هو برهان أن الحياة الحقة ليست الحياة المادية والروحية لا يعنيها موت الأجساد ومثل ذلك كان صدام القرآن مع كل ذلك حتى انتصر محمدﷺ وربه في نهاية الأمر لنتبين أن أيام الله هي نفسها الذكرى لكل عاقل ولو لم يقدم هؤلاء الرسل الجديد في حياة الإنسانية لما أمكن التقدم خطوة واحدة بل لأصبحت الطبيعة نفسها انقلاباً رأساً على عقب كما حدث في قوم لوط لأن الآباء والأجداد كانوا على هذا الأمر وكأن القرآن يرفض كل وصاية ويرفض كل سلطان ويرفض كل هيمنة إلا أن تكون تلك الهيمنة لله وآياته.

إن أيام الله مع الإنسان لا تتوقف وهذا هو الخطأ الجسيم عند السلفية التاريخية ويوم الله مع أنبيائه نوح ومع هود ومع يونس ومع إبراهيم ومع الأسباط ومع يوسف ومع موسى ومع عيسى ومع محمد ﷺ ومع المكتشفين من أمثال جاليليو وداروين وماركس وفرويد ونيوتن وآينشتين وبلهارس ورايت ومع ومع . . ومع فهل توقفت آيات الله وتوقف الزمن وتوقف الإبداع والخلق؟ هل ماتت أيام الله وماتت الحياة أم كل يوم يخلق الله أمراً جديداً في حياة الإنسان ليكون منه هداية وصفاء وفضلا؟ .

يقول القرآن إن الإنسان قد يأخذه آخذ من ولد أو مال أو عقيدة أو طغيان أو غير ذلك لكن ما أن يعرف الإنسان ربه ويدركه في نفسه على الحقيقة حتى يستغني به عن كل شيء وسيكون يوم الفصل في ذلك عندما يبعث الإنسان

بعد الموت حيا مرة أخرى بقدرة ربه وعندئذ فقط يعلم الإنسان أن إمكاناته وطاقاته وقدراته لم تكن تتوقف على شيء من خارجه وأن تلك الأوهام التي كان يعتقد فيها إنما قدمت إليه من سلطة المجتمع أو سلطة الدين أو سلطة المادية أو سلطة الجهل أو سلطة الغرور أو سلطة التكذيب أو سلطة الكفر أو سلطة الشرك لكن الله بريء من كل ذلك.

٦ - إن مشكلة الإيمان بالله والجديد والخلق والابداع هي نفسها مسألة المصير الإنساني إذ العلاقة بين الإنسان وربه ونفسه هي علاقة الخلق الإلهي حيث يودع الله في نفس كل فرد من الأفراد فضلاً من موهبة أو علم أو قدرة من القدرات ومسؤولية كل إنسان أن يخرج للناس هذا الفضل فإن لم يفعل كان حسابه عند ربه وأصبح هو نفسه المسؤول عن ذلك ﴿مَن عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾(١) لنتبين أن للمسألة بعداً خطيراً يفضي بالناس إلى قضية الحرية وهي قضية الوجود الإنساني كله إذ بتلك الربوبية والقدرات قد أعطى الله لكل إنسان حريته فإن تنازل عنها كانت مسؤوليتهم الشخصية التي بها يعاقبهم الله سبحانه وتعالى.

السلفية التاريخية تدخل الأمم إلى أحضان الجبرية التي لعنها الله في كل قومية والهروب من العصر ومعاداة العلم تذهب مع الناس إلى قبورهم والكارثة الكبرى أنهم يعتقدون لفرط غفلتهم أنهم هم المهتدون ولو اتبع محمد ﷺ ثقافة العرب ما كان بين أيدينا جوهرة القرآن وكان هناك في الساحة ثقافة أهل الأديان والكتاب واليهود والنصارى وكان هناك تسعة رهط يفسدون في الأرض ولكن واحداً فقط هو الذي كان على الهداية لنتبين قيمة الفردية وقيمة الحرية ولو لم يكن هؤلاء الرسل يؤمنون بربهم هذا الإيمان ما أمكن أن يقدم رسول من الرسل أو نبي من الأنبياء آية من آيات الله لنتبين أن

---

(١) سورة الجاثية: الآية ١٥.

تخلف الأمة عن روح العصر لن يقتصر على تلك الحياة الدنيا وإنما سيصحبهم إلى القبور والآخرة أيضاً حتى يقول القرآن ﴿**من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً**﴾.

لذلك كله تتحطم كل الجهود مع الكبار المطبوعين وكلهم جميعاً كذبوا الرسل ولو آتيتهم بكل آية ما آمنوا لك ولو أنك جئتهم بقطعة من السماء والملائكة قبيلاً لقالوا إنما سكرت أبصارنا ولهذا أيضاً انصرف القرآن في سورة «لقمان» إلى الصغار والتربية.

٧ ـ لكن القرآن وهو يعلل كيف جعل القرآن لمحمدﷺ شرعاً جديداً يكشف عن الداء الذي يفتت الجهود البشرية إذ كان لبني اسرائيل التوراة والشريعة وكانت فيهم النبوة والرسالة ورزقهم الله من ذلك الطيبات الروحية وفضلهم على العالمين فكانت النتيجة نشوب اختلافاتهم فيما آتاهم الله من العلم وما كان هذا الاختلاف إلا من أجل بغي بعضهم على بعض وفرض سلطان الطوائف والجماعات لنتبين أن وظيفة كل جديد إنما هي الحق وتصحيح المسارات.

كل حزب بما لديهم فرحون فأين الحق إذن؟ ولذلك نزل الإنجيل بعد التوراة ونزل القرآن مهيمناً عليهما ليتبين الحق من الباطل ولتحسم الاختلافات وظهور الجديد سنة وتدافع الناس وجدلهم ونقاشهم وتضافر الأفكار وثراء الثقافة كل ذلك يكون من شأنه إحقاق الحق والفصل بين ما هو صحيح وما هو خطأ.

لكن الغريب في تلك المسألة التي يتحدث فيها القرآن عن الصراع بين الحق والباطل ودور الجديد في الأمر يقول القرآن إن لكل نفس بشرية سلحها الله بالعقل دوراً لا بد أن تقوم به وما يفعله محمدﷺ لحسم اختلافات أهل الكتاب والأديان هو دور فطري طبيعي بل حق كل نفس ﴿**وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِ ولِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتَ وَهُم لَا يُظْلَمُونَ** *

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1] لذلك أصبح كل إنسان من واجبه (إبداء الرأي والديمقراطية حق فطري لأنه بدونها لا يحاسب الإنسان وقد كفلها الخالق نفسه وكل جديد وكل نافع لن يرى النور إلا من خلال هذا الصراع الأبدي بين الحق والباطل وما جرت عليه عادات الناس وتقاليدهم وثقافاتهم وتراثهم وسلفيتهم.

من الممكن أن يكون الإنسان على علم ومعرفة لكنه بالهوى يضل الطريق ويكون ضرر هذا العالم أو الداعية أو الحبر أو الراهب أو الإمام ضرراً كبيراً لأنه منبر للرأي وهذا ما احتاط له القرآن إذ جعل الرأي للعالم وغير العالم ولذلك كان محمدﷺ عامياً أمياً لا علم له بالكتاب ولا بالتوراة ولا بالإنجيل ولكن كانت لديه هداية الفطرة السليمة التي لم يلوثها التعصب ولم تلوثها الأهواء والله هو نفسه الهادي وهو نفسه المضل - ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ - وليس معنى ذلك إهدار قدر العلم ولا العلماء وإنما يفرض القرآن حق إبداء الرأي وحق الفطرة التي هي نفسها التي سيحاسب عنها الإنسان وقد جعل الله لكل نفس عقلاً وإدراكاً ووعياً وبصيرة وإمكاناتهم الروحية هي التي ستصنع قدره عند ربه يوم القيامة.

٨ - الحرية والفطرة والإمكانات والقدرات العقلية والروحية والصدام مع أهل الأديان وأهل الكتاب والسلفية التاريخية ووراثة العلم وطبقة الكاهن والاتجار بالدين كل ذلك في جانب والنفس المهدية بالله وفطرة الإنسان في جانب آخر والمصير المنتظر لكل نفس هو بقدر نضالها في الحق وما من شيء في الأرض ولا في السماء إلا وله دور في نصرة هذا الحق الذي ضمنه الله خلق السماوات والأرض لنتبين أن مسألة الحرية مسألة تذهب مع الإنسان إلى قبره ومن لم يعرف النضال من أجل الحق ومن أجل

---

(٢) سورة الجاثية: الآيتان ٢٢ - ٢٣.

الحرية فقد خسر مصيره عند ربه لنتبين أنه لا يغني الأمة وجود طبقة الكاهن العالم وإنما يرتهن مصيرها بنضال أفرادها من أجل هذا الواجب الذي فرضه خالق السماوات والأرض ومن أجل ذلك جعل القرآن محمداًﷺ على شريعة من أمر الأديان خلافاً لشريعة أهل الأديان والكتاب وليس هناك حرج أن يكون لأمة من الأمم شريعتها المتميزة متى ما كانت تلك الشريعة متمشية مع الروحية والحق الذي ورد في الرسالات السماوية.

٩ - هذه المسألة الخطيرة تفرض قضية ساء فهمها عند أهل الأديان كلهم ألا وهي خلود الشرع عند كل أمة وهو ما يكذبه القرآن إذ تجيء الشرائع الجديدة من خلال الصراع بين الحق والباطل واختلافات الناس ولن يتوقف هذا الأمر إذ هو موضوع أولي أبدي وهو نفسه بطين في خلق السماوات والأرض وبطين في كل نفس حية ومنها نفس الإنسان وما كان محمدﷺ إلا شاهداً على ذلك إذ عاشر اختلافات أهل الكتاب والأديان وتبين القرآن أنهم جميعاً على الباطل فجعل محمداً ﷺ على الشريعة المهيمنة على الشرائع وأباح أن يكون من تلك الشريعة أمة جديدة لا تدين بما يدين به أهل الأديان والكتاب واليهود والنصارى وغيرهم ولذلك ستحاسب كل أمة يوم القيامة بما لديها من الشرع الخاص بها ولن يكون ما لدى اليهود أو ما لدى النصارى أو ما لدى المسلمين ملزماً للناس قبلهم والله هو رب العالمين وهو الذي جعل لكل أمة شرعاً خاصاً بها.

١٠ ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَاس وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوْقِنُونَ﴾ لذلك أوضح القرآن أن مسائل اختلافات الناس لا بد أن تفضي إلى تلك النتيجة واعتبرها رحمة وهدى من الله فإذا اعتبر اليهود ما لديهم ملزماً للعالم فقد أبطله القرآن ومثل ذلك ما عند النصارى وما عند المسلمين لأن سنة الله جارية والصراع محتدم دائماً وأمر الله ممتد إلى يوم القيامة والمسألة ليست صراعاً بين أمة وأمة

وإنما هي مسألة وجود والحق والباطل في السماوات والأرض وكل نفس يتنازعها هذا الناموس وكيف يهيمن الله على حياة الناس والعلماء فيهم يتبعون اهواءهم بغياً وطغياناً واختلافات أهل الأديان وأهل الكتاب والطوائف والملل والنحل والجماعات تكاد تعصف بكل شيء.

كيف نضمن للناس أمر الله فيهم وقد تبين من تجربة اليهود والنصارى وأهل الأديان الروحية ومن آتاهم الله الكتاب والحكمة والنبوة أن ذلك لم يمنع تحريفاً ولم يمنع افتراءاتهم على الله ولم يمنع منقولاتهم ولم يمنع تزييفهم ولم يمنع نفاقهم ولم يمنع إخفاءهم لحقائق الكتب السماوية لنتبين أن الرسالات الجديدة ضرورة بل هي وسيلة من وسائل «الحي المهيمن» وما كان لرسول أو نبي أن يقدم للناس شرعاً جديداً إلا بإذن الله لأن الله يدفع بالناس بعضهم ببعض ليتبين الحق من الباطل وليكون من ذلك أمة جديدة تصلح للناس ما أفسده التقادم والزمن.

لقد اكتشف القرآن في التغيير أن القانون سيكون من حق الإنسان لأنه تبين بالتجربة فساد أمر الشرائع فاليهود كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه والله شدد عليهم حتى جعل من يقتل نفساً واحدة كأنه قتل الناس جميعاً ورغم ذلك لم يستمر فيهم شرع بل أصبحوا لشدة فسقهم وعصيانهم اثنتي عشرة أمة بدلاً من أمة واحدة لنتبين أن اختلافات الناس وهي مسألة تاريخية بل مسألة وجودية تفرض ضرورة الحركة التشريعية وهو ما يعبر به اليوم عن وجود القانون لأنه ما دام الناس في اختلاف دائم وهو ناموس طبيعي وجب لذلك مواكبة الفكر التشريعي لهذه الخاصية.

١١ - المصلحة العامة تفرض الحركة على كل شرع ولا يضير ذلك في أمر الله شيئاً إذ أن طبيعة الناس هي الاختلافات والتغير ويبين القرآن فيما قدمه لأهل الكتاب وهو يمثل في الناس الطبقة المهيمنة على العالم أن هذا الاحتكار عواقبه وخيمة لأنه يكرس الفساد والباطل ولذلك خرج أمر السماء ليجعل من محمدﷺ وهو من خارج تلك الطائفة رسولاً ونبياً

وعالماً ليقول للناس إن أمر الله أرحم من أمر أهل الأديان وأهل الكتاب والله هو المشرع في كل زمان وكل مكان بحسب ظروف الناس واحتياجاتهم وليس لطائفة ولا كاهن أن يفرض على الناس لأنه دائماً يفرض الهوى والبغي والطغيان.

لكن القرآن وهو يدرك حركة التاريخ والمجتمعات ومقدار التغيرات قد أقر الحرية التشريعية لكل أمة شريطة أن لا تكون تلك الشريعة محرفة أو مزيفة أو مغرضة وإلا خضعت لما يمليه القرآن من عناصر المنهج ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ، * وَكَتَبْنَا عَلَيْهِم فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالعَيْنَ بِالعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ * وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾[1]، لذلك كانت

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩.

هيمنة القرآن في الأصول والمبادىء والعقائد وليست في الشرائع إذ تركها لأهل الأديان وكل مختبر فيما بين يديه منها حتى يقول إن ذلك يمثل سباقاً إلى الله وهو وحده الذي يحكم في تلك الاختلافات ونتائج العمل يوم القيامة.

لو كانت هيمنة القرآن هيمنة شرعية لما أقر لأهل التوراة وأهل الإنجيل بحرية الشرع وإنما وردت الهيمنة في بيان ما استحدثوه في الكتاب من تحريف وتزييف وكان ذلك سبباً في كفرهم وعصيانهم وفسوقهم وأن ذلك طبيعة غالبة على الناس كلهم فكيف يدرك القرآن تلك المسألة ثم يؤمن بخلود الشرع وجموده؟.

١٢ - «لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجاً» لنتبين معنى إثارة المسألة الأممية في سورة «الجاثية» وارتباطها بما خلق الله من الآيات في السموات والأرض وفي النفس البشرية واليقين في مشاكل تعدد الكتب السماوية من التوراة والإنجيل والقرآن أن المسألة متعلقة بظهور الآيات في كل كتاب إذ ظهر في التوراة من الآيات ثم ظهر في الإنجيل ثم ظهر في القرآن وهو وهي ما زالت تظهر على أيدي العلماء وما ظهر على يدي ماركس ودارون وفرويد وأرسطو وأفلاطون وآباء وأجناس المعرفة ليبين لنا كيف تنشأ الأمم في التاريخ وأن كل أمة ليست رهناً بما لدى غيرها وإنما هي رهن بما لديها من كتاب وعلم وآية وهداية ومعرفة وهو ما كشفه القرآن لأتباعه لأن أهل الكتاب والأديان أعلنوا في الناس أن محمداً ﷺ ومن اتبعه يحدثون فرية عند الله وسيؤخذون بالتوراة يوم القيامة وهو ما كذبه نسق «الجاثية» وأوضح فيه أن المسلمين يؤخذون بالقرآن واليهود يؤخذون بالتوراة والنصارى يؤخذون بالإنجيل والمعاصرون يؤخذون بالعلم وما تم كشفه من آيات الله في شتى مناحي المعرفة.

١٣ - «المبطلون» تلك هي مشكلة المشاكل كلها إذ لا يقيل أهل الأديان وأهل الكتاب إلا بما لديهم ويبطلون ما عند غيرهم ومن قبل قالت اليهود

ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وقال المسلمون مثل ذلك وأهل كل دين يعتقدون أن ما لديهم هو الحق وهو الصحيح وما لدى الرأسماليين وما لدى الشيوعيين وكل حزب يفرح بما لديه ولكن المعيار بنص نسق «الجاثية» وهو ما كشف الإنسان من الآيات وقد توجد الآية في البزلاء التي أجري عليها «مندل» تجارب الوراثة وقد تكون حفنة من اليورانيوم قامت مدام كوري باستخلاصها ليكون من ذلك فاتحة عصر الذرة والفضاء أو تكون اختراعاً يغير من سلوك الناس فيحتاجون لشرع جديد ومنهاجٍ مختلفٍ ولكن ماذا تقول لأناس يعتقدون في الأدوات والوسائل ولا يعتقدون في خالق الأشياء؟

إن مشكلة المبطلين ترتبط بمسألة الدخول في المعاصرة لأن اليهود وأهل الكتاب لو أنهم آمنوا بآيات الله حقاً لآمنوا بظهور آية القرآن ولأصبح منهج القرآن هو منهج العصر ولكن القضية ترتبط بالسلطان والبغي بغير الحق وما كان اليهود أو النصارى أو المسلمين ليتنازلوا عن مكانتهم في الناس لأنهم يعتقدون أن مركزهم سيتعرض للإنهيار والمسألة عند الله ليست كذلك إذ لا بد أن ينتصر الحق ولو كان في جانب من يرمونهم بالكفر والإلحاد وقد كان ملاعين اليهود يعتقدون أنهم هم وحدهم المؤمنون فما كانت النتائج في جانبهم بل خربوا ديارهم بأيديهم وأيدي المسلمين لنتبين معنى هيمنة الجبار المتكبر وليكون لنا من ذلك عظة وعبرة.

أن يصيب الإنسان الغرور فقد أصابته الآفة من قبل إبليس قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره ولم يكن محمدﷺ إلا رجلاً فقيراً معدماً أمياً ليس لديه من العلم شيء ورغم ذلك كله جاءه الله بالعلم اللدني ومن خلال فطرته السليمة ونصره على أهل الأديان وفطاحل الأحبار والرهبان وجعل من القرآن ملكاً عظيماً لم يبلغه ملك داود الذي تاهت به القصص والروايات ليكون من ذلك بصيرة للذين يعتقدون

أنهم آلهة المعرفة ولو تبينوا الحقيقة لعرفوا أنهم السفهاء ولكن لا يعلمون.

لقد انتصرت «الجاثية» للقرآن وللتقدم وللمعاصرة ولكل رائد في العلم وأوضحت أن الله هو الحي المهيمن رغم أنف أهل الكتاب وأهل الأديان ولو كانوا على الحق لكان منهم رواد العصر وآباء المعرفة والنهضة ولكن بكل الأسف ظهرت تلك المجتمعات وسماتها التخلف والخرافات والأساطير وقد قال لهم القرآن من قبل تلك أمة قد خلت ورغم ذلك والبرهان الرباني تجده في القطارات والسيارات والصواريخ وسفن الفضاء وكل ما يستعملونه في ليلهم ونهارهم وأدوات تلك الحضارة تشهد عليهم بالخزي وتدفعهم بالنفاق وترميهم بالعار ولن تجد فيهم حتى العلماء أنفسهم يخادعون الناس ويعلنون أنهم تقدميون وقلوبهم عامرة بالسلفية التاريخية والجمود والنكران ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ * وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُم وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾[1] لنتبين أن انطلاق كل صاروخ وطيران كل طائرة وجريان كل فلك بما ينفع الناس ويرحمهم سيكون شاهداً على هؤلاء لأن الله هو نفسه الذي أخرج تلك الآيات للناس ولذلك فهم لا يحاربون حضارة العصر والعلم والتقدم وإنما يحاربون الله نفسه ويكفرون بآياته حتى وجدنا التكفير والهجرة واعتزال المجتمعات بحجة أنها مجتمعات كافرة بحسب أفكارهم المتطرفة والمستكبرة أيضاً.

من ضلال أهل الملة وضلال أهل الأديان وضلال الأمة أنهم يرون كل آية ناطقة بالحق والصدق المبين ورغم ذلك لا يرونها لنتبين أنهم لهم عيون لا

---

(١) سورة الجاثية: الآيات ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١.

يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أفئدة لا يفقهون بها وكأنهم سكارى فاقدو الشعور ولذلك يقول القرآن فيهم إنهم كالأنعام بل هم أضل وليكون من ذلك عبرة لكل ذي عقل وكل ذي بصيرة حتى يتعجب القرآن في أمرهم فيقول ماذا بعد الله وآياته حتى يقدمه لهم؟ ﴿فَلِله الحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ العَالَمِينَ * وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1].

١٤- قد يثير الأحداث مسألة جزئية في حياة الدعوة كإثارة اليهود لمسألة الشرع وأنه لا حق لمحمدﷺ والقرآن في التشريع اكتفاءً بما نزل في التوراة وبما عنده منه لكن عظمة الفكر القرآني أنه يقدم تلك القضية من خلال المسألة الوجودية وكيفية خلق الله للسماوات والأرض لنتبين أن هيمنة القرآن إنما تستمد جذورها من المتعاليات ولهذا يقول القرآن في مواضع الحق تعالى الله عما يشركون أو تعالى الله عما يقولون أو يقول سبحان الله عما يشركون أو يكفرون أو يفسقون ليكون من ذلك عموم المسائل لا خصوصيتها وأن التحليل والجدل وكل المتشابه الذي يرد في القضايا إنما يدين لتلك المبادىء العليا التي ترد في خلق السماوات والأرض ليعرف المتشككون أن المسألة تخرج عن متناول الإنسان لأنها تدخل بين يدي رب العالمين وليعرف أهل الأديان وغيرهم أنهم لا ينالون من الله شيئاً وإنما تمضي فيهم آياته وسننه وليستغرب العنصريون واليهود ومن احتكروا سلطان الله في الناس كيف يأتيهم التخلف والخزي وهم ينتسبون إلى أشرف الرسالات وأشرف الأديان وأشرف الكتب.

عندما ترد «خلق السماوات والأرض» أو «رب السماوات والأرض ورب العالم» يجب أن نتبين أنها من سلطان الله وحده وليس لسلطان أحد وما من موضع جاء فيه طغيان الطاغية أو فسوق العصاة أو كفر الكافرين أو شرك المشركين إلا وذكر القرآن بالمبادىء والسنن والنواميس الموجودة في خلق

(١) سورة الجاثية: الآيتان ٣٦ - ٣٧.

السماوات والأرض ليكون منها الآيات التي يبحث عنهـا الإنسان ومتى وجدها استغنى بهـا عما في أيـدي الناس ولا ننسَ أن النملة علمت سليـمان نفسه حتى تبسم ضاحكاً من كلامها وحديثها له.

«سبحـان الذي أنـطق كل شيء وأخـرس ألسنة المبـطلين ممن يحـاولـون فـرض الـسـلطان عـلى عـقـول الـنـاس» ولـو رأى هـؤلاء «الـفـتـوون» وهـو يتحـدث إلى العلماء في الـتجـارب الـذريـة ويبـوح لهم بـالأسرار التي أودعهـا الله في خلقـه لآمنـوا لكن المشكلة هي الاستكبـار والغـرور لدى المتخلفين وفيهم من يعتقد حتى الآن أن الإنسـان لم يذهب إلى القمر ولم يركب الصواريخ وسفن الفضاء. أما أن يكونوا أرباباً للناس من دون الله أو يكون الله هو رب العالمين الذي يرعى العلماء والمخترعين ويهديهم ويرشدهم ويفتح عليهم كما فتح على محمدﷺ رسول العصر وآتاه القرآن آية كبرى من آيات الإبداع والعلم والهداية لنتبين مخـاطر تسلط السلطة الـدينية أو السلطة السياسة أو السلطة الاقتصادية لأنها تفقد الإنسان قدراته الخلاقة وها هو العصر فيـه من المؤلفـين المـلايـين ومن العلماء مثلهم ومن علماء الفلك ومـا يتنبـأون به من كسوف وخسوف وغيره حتى بـين القرآن لمحمـد ﷺ في نسق «يس» من يستحق أن يكون رسولاً للناس وأنه هو ذلك الإنسـان حيث كشف للناس عن الآيات وعن السنن وعن النواميس ولذلك يقول في ذلك النسق وآية لهم...» «وآية لهم...» «وآية لهم...» حتى ألغى القرآن نفسه الرسالة والنبوة ما دام هذا العربي الأمي الذي لم يكن له من ثقافة الأديان معرفة قد أفاض الله عليه ومكنه من قراءة الآيات والسنن في خلق السموات والأرض ذلك ما تفضـل به القـرآن في سورة «الكهف» إذ أوضـح أن العجب وما يمكن أن يعتبـره الناس معجزة مثلما سأله اليهود عن أهل الكهف وغيره ليس معجزة ولا هو عجب وأن تفسيره يمكن أن يكون في متناول العقل ولذلك فليس العجب فيما سألوا عنه وإنما العجب في هذا القرآن وكيف ألقى الله به في قلب محمدﷺ هذا العربي الأمي الذي لم يكن في يوم من الأيام كتابياً ولا حبراً ولا كاهناً ولا راهباً لنتبين

أن العجب الحق إنما هو في قدرات الإنسان وفطرته وإبداعه وأن لله الحمد رب العالمين.

ما كان مجملاً في أنساق «حم» والقرآن المكي فصله الوحي في «الم» والقرآن المدني ولذلك نتبين مشكلة القرآن مع الأديان وأهل الملة فيما نزل في مشكلة أهل الكتاب ولن يستطيع الدارس والباحث فيه أن يتبين لماذا كره القرآن ما كان عليه أهل الأديان السابقة ولماذا قدم للناس الدين الحق والدين القيم والدين الخالص وكأن المواجهة أصبحت بين الله وآياته والأديان وما زيفته من حياة الإنسان.

لا يضير القرآن ما قدمه للناس على أنه دين أيضاً لأن الحالة مشاكلة حتى قال في الجدل إن الله يضل ويضر ويظلم مشاكله لما عندهم ولنتبين أن العصر كان عصر ازدهار الأديان فأتاهم الله فيما يعتقدون وقدم لهم من عقائدهم ودينهم ولكن الطعن في الأديان وأهل الكتاب يملأ القرآن كله لأن اليهود والنصارى وأهل الملة فرضوا ثقافتهم على الناس كما هو الحال في المجتمعات الدينية اليوم التي لا تجد فيها قدماً للثقافات الأخرى خاصة العلمانية والمعاصرة.

لو يفهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل كل ملة معنى الكبرياء لله وحده لتبين لهم أن ما لديهم من العلم والمعرفة ليس هو الكمال أو النهاية أو التمام ولذلك نجد اليوم في العلم نفسه وقد استقرت أركانه أنه ما من نظرية أو حقيقة إلا ولها من الأبعاد ما يظل خافياً عن الناس وقد سادت الضرورة والحتمية في عصر نيوتن ولكنها تراجعت في عصر آينشتين وتبين العلماء أن الحرية والإمكان والفتح وما يمكن أن يكون محلاً للعقل وعمله هو مزمن وقائم ولذلك أيضاً أمكن للأمريكان تفجير الذرة بطريقة مخالفة عما تمت بها لدى الروس وعما تمت بها لدى الصينيين والفرنسيين بل وأمكن تجاوز المقادير والكمية في التفاعلات الكيميائية العادية والكيمياء الحيوية لها قوانينها الخاصة وما أدراك في الكيمياء الفضائية والكيمياء الطاقية والفوقية لنتبين معنى

الآية ﴿وَلَهُ الكِبْرِياءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1]، يقول القرآن في امكانات العلماء وما يمكن أن يقوموا به من الجهد المختلف كل في تخصصه وكل فيما يمكن أن يبدع فيه «كما أبدع الله في ثراء الطبيعة» ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ والدَّوَابِّ والأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مَنْ عِبَادِهِ العُلَماءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[2] لذلك كان القرآن حريصاً كل الحرص أن يوضح في صدر سورة «فاطر» الناموس الفطري الذي جعله الله للنفس البشرية وأن الامكانات الروحية لها لا تتوقف ولا يمكن أن تأتي إلى نهاية وأن عالم السماوات الذي جاء الإنسان منه هو عالم ممتد يزيد زيادة مستمرة وهو ما اكتشفه العالم أن الكون يتمدد ويتسع ويزيد كل لحظة ﴿الحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[3]، لنتبين كذب أهل الكتاب والأديان حيث قالوا كيف يكون لمحمدﷺ من علم اللاهوت وعلم الدين ولم يدركوا فطرة النفس البشرية وأن محمداًﷺ هو النبي الفطري الذي فتح الله له من رحمته وعلمه ما لم يكن يعلم ولا يناقض القرآن نفسه بل يضرب مثل محمدﷺ للناس جميعاً ليتبينوا الناموس الفطري الثاوي في امكاناتهم الروحية وليؤمنوا بربهم العزيز الرحيم. من يعتقد أن التوراة والإنجيل والقرآن هي آخر المطاف فيما يخلق الله من الروحية فقد ضيق على نفسه وحجر على الله سبحانه وتعالى عن ذلك وفي سورة «النور» وقد قرّر القرآن جلد الزواني وهي عقوبة توراتية يبين القرآن لمحمدﷺ أن ذلك ليس مخالفاً للفطرة ولا

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٣٦.
(٢) سورة فاطر: الآيتان ٢٧ ـ ٢٨.
(٣) سورة فاطر: الآيتان ١و٢.

للطبيعة وأن لكل أمة نهجاً خاصاً بها مثلما هي في الطبيعة إذ تمشي بعض الكائنات على رجلين وبعضها على أربع ويخلق الله ما يشاء والديدان تمشي على أربعين رجلاً وهكذا تكون المناهج بحسب ما يناسب والشرائع بحسب ما تقتضيه الحال والقوانين لا يحكمها إلا التطور والمصلحة العامة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الأَبْصَارِ * وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١]، لذلك لم يتوقف البديع الخلاق أن يثري كل بيئة بالنباتات والحيوانات والأناسي التي تناسبها وكم هناك في ثراء الأنواع وثراء الأجناس وكم خلقه الله من الأفراد وألوانه وشكله وأحجامه لنتبين معنى الحرية ومعنى الابداعية ومعنى الدعوة القرآنية.

ثم يقول القرآن في مصدر المعرفة الإلهية ونورها أن هذا المصدر لا يخبو أبداً وهو كالشجرة الدائمة الخضرة والعطاء ولكن الإنسان هو الأعمى الذي يرى ضوء ونور الله سبحانه وتعالى ولذلك فالمشيئة هي مشيئة الإنسان ومصلحته ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢]، لذلك لن يخيب أبداً من يطلب العلم والمعرفة والله يهديه إلى نوره متى ما كان قصده خيراً ونيته سليمة.

---

(١) سورة النور: ٤٣ - ٤٤ - ٤٥.

(٢) سورة النور: الآية ٣٥.

١٥ ـ في مواجهة المعاصرة القرآنية ثارت ثائرة أهل الكتاب والأديان وكل حكم مثل الجلد للزواني وتغيير القبلة ثارت ثائرة اليهود والنصارى وأهل الملة واحتجوا بما لديهم في الكتب الصفراء وتراثهم الفكري واللاهوتي ولكن القرآن قدم لهم آيات الله كما يراها الإنسان في نسق الطبيعة من الشمس والقمر والليل والنهار والدواب والشجر والبحر والجبل وكل ما تقع عليه حواس الإنسان ثم قرأ ذلك كله بعقل التجريد والغائبة ليقر المبادىء العليا للمعرفة والطبيعة في نظره هي المعلم الأول وعالم الحشرات والغريزة والنمل والنحل لنتبين أن القرآن كان سلاحه الوحيد العلم في مواجهة الثقافات التقليدية وأبرزها ثقافة الأديان عند أهل الكتاب والملة لنتبين أن المشكلة كلها قد كانت بسبب الأديان وأصبح ظاهراً أن الله وآياته في جانب وما يقوله أهل الكتاب والأديان في جانب آخر وما نزل من نسق «الجاثية» كان هو الفيصل في هذه القضية إذ لا يمكن أن تكون التوراة أو الإنجيل أو القرآن في مواجهة مع الله وآياته ومتى ما ظهرت كان لزاماً على الناس أن تأخذ بها وأن يكون منها المنهج والقانون.

كيف تقرأ في القرآن أن علم الله لا ينفد وحكمته لا تتخلف وقدراته وابداعاته لا تحصر ثم نتوقف عند الكتب والأمم والتجربة السلفية؟.

وكيف يأخذ الله الناس بعصورهم وما حصلوه من المعرفة والآيات؟ ثم نحاسب أهل التوراة بمعيار الإنجيل أو كيف نحاسب أهل القرآن بمعيار التوراة وكيف نحاسب المعاصرين بما كان منذ آلاف السنين وقد استقرت آيات الله في العلم؟.

لذلك أثار القرآن العديد من الأنساق في كتاب «حم» لنتبين معنى أن يكون الله «حي ـ مهيمن».

الباب التاسع

الفصل الأول

نسق «الأحقاف» وفقه «حي - مهيمن»



القضايا ومحمولات النسق:

١ - عندما يتحدث القرآن عن كتاب من كتبه فإنه يقول إن هذا الكتاب مبين كما في نسق «الدخان» ﴿حم، وَالكِتَابِ المُبِينُ﴾[1] ، ونسق «الزخرف» ﴿حم، وَالكِتَابِ المُبِينُ﴾[2] ، أو أنه من العزيز الحكيم كما في «الشورى» وكما هو في «الأحقاف» أو من الرحمن الرحيم كما في «فصلت» لنتبين القصد من تنزيل مثل تلك الكتب وأن موضوع «الأحقاف» هو مثل موضوع «الشورى» أورده القرآن ليبين كيف يكون المنهج والاعتقاد في العزيز الحكيم حتى لنرى التطابق التام في فواتح تلك الكتب ﴿حم، تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِن اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾[3] ، ومثله ﴿حم، تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِن اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾[4] ، لذلك سنرى في نسق «الأحقاف» تصحيحاً لمفهوم كان في الله خاطئاً ومثلما بين في نسق «الجاثية» أن الهيمنة لله وآياته كذلك سيوضح الوحي أن نزول آيات

(١) سورة الدخان: الآيتان ١ - ٢.
(٢) سورة الزخرف: الآيتان ١ - ٢.
(٣) سورة الجاثية: الآيتان ١ - ٢.
(٤) سورة الأحقاف: الآيتان ١ - ٢.

القرآن على قلب محمد ﷺ لم يكن لمحمد ﷺ دخل في ذلك لا يدري هو ما يفعل به عند عملية الوعي وهي تتم دون شعور منه ليتبين للناس أن العبرة بالله وآياته وليس فلاناً من الناس وقد يحمل آية الله الإنسان الفقير المعدم الأمي اليتيم الذي لا حول له ولا طول ثم يكرمه الله بالرسالة لنتبين أن المعيار في الروحية عند الله مخالف لما بين الناس.

٢ - إن تجربة نزول القرآن وهو كتاب سماوي على قلب محمدﷺ سبقتها تجربة كتاب موسى وكتاب محمدﷺ ليس بدعا في هذا الأمر ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِياً لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلمُحْسِنِينَ﴾[1]، لذلك لا توجد حجة عند الكافرين بمحمدﷺ والقرآن إذ هما آية من آيات العزيز الحكيم ولا شأن لمحمدﷺ في هذا الأمر إذ المرسل هو الله والوحي والإلهام منه أيضاً.

٣ - إن كتاب موسى إمام في الكتب السماوية وهو رحمة من الله إذ تم بمنهجه تحرير بني اسرائيل ودمار الفرعونية ومثل ذلك هذا الكتاب العربي الذي نزل على قلب محمدﷺ ليكون للناس بشيراً ونذيراً فما هو وجه الغرابة حتى يقول الكافرون إن هذا الكتاب افتراه محمدﷺ من عندياته ولو كان الأمر صحيحاً لطعن الناس في التوراة والإنجيل أيضاً وما دامت التجربة الروحية جرت بنزول الكتب من عند الله فلماذا لا يكون القرآن مصدره الله سبحانه وتعالى أيضاً؟.

إن هذا الوحي الباطني لا يتحكم فيه شعور الإنسان وهو يغلب الإنسان على أمره وكذلك عندما تجلى رب موسى على الجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً لنتبين أن القرآن يفرق بين الشعور واللاشعور وأن هذا اللاشعور هو الأنا الفعال في الإنسان والعرب لم يكن لهم تجربة بالكتب السماوية ولا الرسالات ولا النبوات بل كانوا غفلاً من ذلك وثقافتهم كانت محصورة في الشعر ولهذا لم

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ١٢.

يكن مألوفاً أن ينزل فيهم وحي أو إلهام أو توجد فيهم عبقرية ولذلك يقول القرآن إن شهادة نزول القرآن من عند الله هو ما شهد عليه عبد الله بن سلام وأسلم به ومن تبعه من علماء بني اسرائيل الذين آمنوا بالقرآن ومحمدﷺ وليتبين العرب أن محمداًﷺ لا يفتري عليهم والمسألة أنهم يستكبرون أن ينزل مثل هذا القرآن على محمدﷺ بالذات وهو الفقير اليتيم المعدم.

في البيئات المتخلفة والخاملة تصبح القدرات عجباً ولا يصدقها الناس لكن الذين لديهم الخبرة هم الذين يحكمون عليها وهكذا عرف عبد الله بن سلام أن محمداً ﷺ لا يكذب وأن هذا القرآن مثله مثل كتاب موسى ولا غرابة في ذلك إنما الغرابة في استكبار قريش وسادتها وأنهم لا يرون محمداً ﷺ أنه الفقير اليتيم المعدم مع ما قال الفرعون لموسى «أمعه أسورة من ذهب» لنتبين أن الحق في مسألة القدرات أن العباقرة يولدون ولا يصنعون والفطرة هي التي جعلت من موسى ومن محمدﷺ رسولاً وهي نفسها سر التوراة وسر القرآن ولكنهم لا يعلمون.

٤ - يبرهن القرآن أن ما نزل فيه هو من عند الله فيقول إن آية ذلك مصداقيته لما جاء في الكتب السماوية من المبادىء والمثل الروحية ولو كان من عند غير الله لوجد الناس فيه اختلافات العقائد ولكن عقيدته واحدة هي التوحيد والروحية.

في كل موضوع أوضح القرآن أن رب الناس واحد وإلههم واحد وكشف في أعمال الكافرين والمشركين والمنافقين وغيرهم من الفئات أنهم جميعاً لم يعملوا بالروحية سواء كان ذلك في الربوبية أو الألوهية لنتبين معنى أن يكون القرآن من عند الله وليس من عند هوى محمدﷺ إذ هو علم موضوعي قدم للناس كل صحيح في المعرفة.

لذلك كانت المعرفة في القرآن كله محمولة على أسماء الله الحسنى حتى ليقول القرآن في الكتب القرآنية في فواتح السور أن هذا الكتاب كان وحياً

من الرحمن الرحيم أو وحياً من العزيز الحكيم أو وحياً من العزيز العليم أو وحياً من الحكيم العليم لنتبين أن القرآن من الله استمد مقومات آياته وإلى الله صارت كل معارفه وما كشف للناس من أوجه الهداية.

يتعرض القرآن للقضايا ويطبق عليها المنهج العلمي فيتبين له أن تلك القضية هي قضية مادية وعندئذ يقول إن هذا من الشيطان ليعرف الناس ما هو الفرق بين ما عند الله وما عند النفس البشرية والأهواء والشهوات.

٥ - تكذب قريش بوجود الله وربوبيته للناس وهي قضية كل كفر وكل شرك والماديون في كل عصر جعلوا أربابهم وآلهتهم في القوة كأن تكون قوة الطائفية أو تكون قوة الطبقية أو تكون قوة العنصرية أو قد تكون قوة الجاه والسلطان أو قوة المال أو البنين وقد تكون قوة الوالدين وتسلطهما وقد تكون الثقافة الدينية أو التقليدية وقد يكون رب الإنسان خرافة يعتقد فيها أو تميمة يحملها في عنقه أو قد تكون صنماً أو وثناً أو قد تكون شخصاً من الناس أو قد يكون ديناً خاطئاً وعقيدة منحرفة وكل ذلك يتبينه الإنسان بالطبيعة والفطرة متى ما جاوز مرحلة المراهقة العقائدية وبلغ الأربعين وعندئذ يتبين أنه لا يوجد رب للإنسان على الحقيقة إلا هذا الناموس الباطني الذي يرعاه ويهديه وهو نفسه الذي يقدم له القدرات والطاقات الخلاقة وهو ذلك الذي يحدثهم عنه محمدﷺ عندما بلغ الأربعين وأوحى إليه.

٦ - إن الله عندما خلق السماوات والأرض فإنه خلقهن بالحق وأجل مسمى وأن الإنسان مهما أوغل في الباطل فإنه لا بد أن يدرك الحقائق والمسألة مسألة وقت ومراحل البلوغ والنمو العقلي والروحي في النفس البشرية سيتبين الفارق الكبير بين الروحية والمادية ولا بد له أن يعرف في النهاية حقيقة الربوبية وحقيقة الألوهية وأن الله وحده هو الرب المستعان وأن الله وحده الإله الوحيد للناس.

في النهاية لا بد من انتصار الحق مهما علا شأن الباطل واستفحل أمره وما من قضية وما من مسألة وما من مشكلة إلا والزمن يجلـو حقائقها وكثير من المعرفة استمرت آلاف السنين ثم تبين في النهاية أنها باطلة وأنها غير صحيحة ولقد استمر الناس يعتقدون أن الأرض مركز الكـون وأنها مسـطحة وأنهـا محمولـة على قـرون الثيران وخـرافات الإنسـان الأول ثم بعـد آلاف السنين يتبين الحق من الباطل ولذلك سيعرف الناس وستعرف قريش أن القرآن من عند الله وليس من عند محمدﷺ ولو كان لهم برهان فقد لبث فيهم محمدﷺ عمراً طويلاً دون أن تظهر عليه قدرة تـلاوة القرآن وفجـأة وعندمـا بلغ الأربعين جاءتـه تلك القدرة ليتبين الناس أن المسألة ليست من عنديات محمدﷺ وإنما هي خلق من قدرة الله الذي خلق كل شيء؟.

٧ ـ ما هو الحق في شأن محمدﷺ والقرآن؟ هذا كتاب موسى وهـذا كتاب عيسى وهذه هي مزامير داود ولم يقل أحد أن تلك الكتب من عنديـات مـوسى أو عيسى أو داود فلماذا يقـول النـاس إن القـرآن من عنـديـات محمدﷺ؟.

لو نظر الناس إلى ما يكون في الطبيعة من رعاية الأمهات بالصغار ورعاية الأقوياء بالضعفاء والنظام الفطري كما نراه في عـالم الحيوان وعـالم الإنسان وحنان الأمومة ورعاية الأبوة لتبين الناس أن هناك من يرعى تلك الكائنات من باطنها والغريزة في الحشرات تذهل العقول وكل كائن لو بحثنا مراحل حيـاته لتبين لنا أن الرب الذي يحدثنا عنه القرآن موجود مع كل كائن حي ومن أعجب أمور الرعاية الربانية أن بعض فصائل الديـدان تضع بيضهـا على بيض ديدان أخرى حتى إذا فقست وجدت هذا البيض كغذاء سريع للنمو لنتبين قيمة هذا التدبير ولذلك لا يعجز هذا المدبر وهذا الرب أن يوحي بالقرآن إلى محمدﷺ فطرياً ودون أن يستمد معارفه من خارج ومعنى ذلك أن القرآن بالفطرة هو من عند الله وليس من عند معلم ولا من عند محمدﷺ نفسه إنما هـو انبعاث من

الباطن الروحي الذي يرعى الكائنات حتى الدودة في الحجر.

٨ ـ تلك الفطرة والسنة الهادية هي طبيعة السماوات والأرض ولكن **المشكلة** إنما تتمثل في استكبار الناس وعدم التصديق بالقدرات الروحية في الإنسان وأنه مهدي بالسلفية وباطنه مثل باطن أي كائن خلقه الله ثم هدى والمسألة يستشعرها الإنسان متى كبر سنه وبلغ السوية العقلية وأتته الحكمة وفصل الخطاب وقريش لا يعوقها عن التصديق إلا استكبارهم ونظرتهم المادية ومعيارهم الفاسد ولا يعيب محمداًﷺ أنه فقير وأنه يتيم وأنه لا شأن له فيهم وهم لم يكن لهم تجربة روحية مع الله كما كان لأهل الكتاب والملة واليهود والنصارى وبني اسرائيل ولذلك لا يستطيعون أن يفهموا تلك الظاهرة ولا يستطيعون أن يعرفوا إن كان القرآن من الله أو من محمدﷺ ونفسه.

إن إحالة مشكلة القرآن وتكذيب قريش إلى الطبيعة وما يحدث فيها من أعمال الرب مع النبات والحيوان والإنسان وهدايته ورعايته لجميع الكائنات هو الذي جعل القرآن يهتم اهتماماً بالغاً بالفطرة ولبيان أحوالها وسننها حتى أصبحت في القرآن بديلاً للفكر الديني وبديلاً للاهوت بل إن القرآن دمغ بالباطل كل فكر لا يتفق مع الفطرة وقال إن كل تبديل للفطرة هو من عمل الشيطان لنتبين ماذا يمكن أن تحدثه سيطرة المجتمعات وسيطرة الطبقات وسيطرة الطوائف وسيطرة الآباء وسيطرة الثقافات التقليدية وما يمكن أن تحدثه المناهج المفتعلة من تخريب الفطرة للإنسان وما وجدنا في العصر من كثرة المرضى النفسيين والمرضى العصابيين ومرضى العقل إلا كان ذلك نتاجاً لتدمير الفطرة والطبيعة الروحية للناس.

إن الإنسان لا يتعدى الأربعين حتى يعرف بالفطرة فضل الله رب العالمين لأنه يستطيع بعقله أن يتبين هذا الفضل ولكن المشكلة في تشويه خلق الناس بالمادية وسلطانها ويستمر الناس في الضلال حتى يذهبوا إلى القبور

والسبب هـو سلطان الإنسان على أخيـه الإنسان حتى يعتقـد في كل مـظاهـر السطوة والطغيان أنها هي رب الناس والحقيقة بخلاف ذلك.

٩ ـ هذا الصدام بين الصنعة التي يصنعها النظام بفعل المجتمعات الرأسمالية والمادية وبين الفطرة الروحية في الإنسان لا يمكن إدراكه وتلافي مشاكله إلا بالحرية والديمقراطية والمساواة وكفالة تكافؤ الفرص أمام كل الناس ولا يمكن أن نفهم ظاهرة وحي القرآن إلا من خلال فطرة وحريـة محمدﷺ وأن ربه هو الذي أدبه بالفطرة وهـو الذي علمـه وهو الـذي هداه وهـو الذي أوحى إليـه بهـذا القـرآن لنتبين معنى الإلهـام ومعنى العبقـريـة ومعنى العلمانية ومعنى التقدمية ومعنى أن يتحرر الإنسان وأن شاهد هذه الحرية الفطرية هو القرآن نفسـه لكن المجتمع القهـري والمتخلف مثلما كـان المجتمـع القـرشي لا يمكن أن يفهم تلك الآيـة ولـذلـك يقـولـون إن محمداًﷺ قد افترى القرآن والحقيقة أنه كلمة الصدق مع النفس ومع الله ومع الحرية. لكن تلك المسألة التي أثارت المشكلة هي أن الناس في ذلك الوقت لم يكن لديهم ما لدينا اليوم من علوم النفس وأن ما يبدو لنا من الإنسان وتكوينه من الأنا والأنا الأعلى والمثالي وما تبينه آباء المعرفة الفرويدية والتحليل والشخصية وتعقيداتها لم يكن متوافراً في هذا الوقت ولم يكن لدى العرب تجربة روحية ولكن ذلك وما يتحدث عنه القرآن من قدرات الباطن النفسي نجد له آيات فيما يحدث اليوم من تحـول المرأة إلى رجل ومن تحول الرجل إلى امرأة تحولاً بـاطنياً ليس للشخص فيـه إرادة والقرآن يدرك تلك الحوادث الباطنية الروحية الخالصة ولذلك قدم نسق «مـريم» للدلالة على امكـان حدوث المعجـزات انبثاقـاً من باطن النفس البشرية ودون أسباب خارجية وإن كثر على المكذبين أمر القـرآن فـأمر مـريم وربهـا أعجب وأبلغ وأوضـح وفي ذلـك فليتبين النـاس أن نفوسهم هي السر الأعظم وهي محتوى ومخزن الطاقات الروحية الخلاقة

المبدعة وهي نفسها روح الله الخالق الذي أبدع ما في السموات والأرض.

١٠ ـ إن القرآن لا يعدو أن يكون آية من آيات الخلق وليس في ذلك عجب إذ أن عمليات الخلق في الطبيعة تجري على قدم وساق في كل لحظة وكم من ملايين الكائنات تولد بقوة الخلق وكم منها يموت في نفس اللحظة فما هو العجب إذن أن يخلق الله ما يشاء وبوحيه إلى محمدﷺ وهو قد أوحى إلى كل المخلوقات بما يهديها حتى النحل وهو حشرة صغيرة؟.

إن الغريب حقاً ألا ينظر الإنسان إلى ما يعمله الله في الطبيعة من عجائب الخلق وعجائب الربوبية وعجائب الهداية وعجائب الغرائز وعجائب العقل كما يتبدى فيما سخره للإنسان من الشمس والقمر وغيره لنتبين أن إحالة البرهان من الجدل إلى السنن الطبيعية وما يظهر لنا من آيات الكون هو نفسه الشاهد على أن القرآن خلق مما خلقه الله ولا عجب في هذا الأمر.

لكن المشكلة كما يحصرها القرآن هي إنكار الآية وقريش لا تعتبر القرآن آية لأن ثقافتهم لم تكن ثقافة علمية وإنما كانت ثقافة وجدانية شعرية لا تنظر في الطبيعة وآياتها وهو ما يأخذه عليهم القرآن ويقول في مواضع كثيرة إنهم لو قرأوا آيات الله في الطبيعة كما خلقها الله بيديه هو لتبين لهم من الله الربوبية والألوهية والقيومية والتوحيد والحيوية ولعرفوا أن وحي القرآن إلى رجل منهم ليس هو العظيم فيهم ولا هو أغناهم ولا هو أقواهم ولا هو صاحب الأمر والسلطان ولكن كان موضعاً للرعاية الربانية شأنه في ذلك شأن أي كائن يرعاه ويكلؤه بعين رعايته لكن القرآن وهو يقدم تكذيب قريش أفصح عن أن هذا التكذيب سنة في الناس ولم يصدق قوم نوح أو قوم هود أو قوم ابراهيم أو قوم فرعون لأنهم جميعاً لم يعرفوا من أسرار الله ولا من أعماله ولا من ابداعاته ولا من سننه وآياته والمسألة تنقلب بعناصرها إلى مسألة المعرفة والجهل ولا يجلو

تلك المسألة بالحق إلا التقدم العلمي وحده وهو الذي يبعث بالإيمان إلى قلوب العلماء حتى ليروا هذا الناموس الفطري الذي يحدثنا عنه القرآن في كل تجربة حتى أمكن للإنسان أن يسخر البكتيريا في صناعات أصبح في الامكان الاستغناء عن المواد الخام الطبيعية والتي كانت تعتمد على وجود النباتات لنتبين مدى ما أودع الله من الأسرار في خلق السماوات والأرض وأن القرآن من نفس هذا المستودع ومن نفس هذا المعين.

لو تأملوا ملكوت السماوات والأرض لتبينوا أن رب الإنسان كما تبينه ابراهيم هو ربُّ هذا الكون بل أن هذا الرب لم يخلق آية في جلالها وكمالها وتمامها مثلما خلق الإنسان وكل قدرة تنبثق من قدرات النفس البشرية ليست غريبة لأنها هي نفسها قدرة رب العالمين الذي أبدع ملكوت السماوات والأرض ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]. لذلك لا يدرك أحد من الناس أن القرآن من عند الله حتى يدرك أعمال الربوبية في الطبيعة والخلق وأن رب الإنسان أكبر من كل آية يراها في الوجود العيني من الشمس والقمر والنجوم والجبال ومثل ذلك يقدمه القرآن في قصة عزير عندما مر على أورشليم وقد حطمها الرومان وظن أن تلك هي نهاية المدينة إلى الأبد ولم يكن يعرف أسرار عملية الخلق فهداه الله أن يتأمل ما يجري في عروقه وكيف ينشىء الله العظم واللحم ويتم بناء الكائن البشري

---

(١) سورة الأنعام: الآيات ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩.

ويتبين أن العمليات الحيوية التي تجري في جسم الإنسان تتم بسرعة مذهلة واليوم الباطني يساوي مائة يوم مما يحسبه الناس وفي خلال مدة قصيرة عمرت المدينة بالحياة مرة أخرى ومثل ذلك ما حدث لليابانيين والألمان وتحطيم المدن اليابانية والألمانية ورغم ذلك نهض الألمان ونهض اليابانيون وهزموا أمريكا والحلفاء في الإنتاج والعمل والابداع من أجل السلام لنتبين أن العرب لم تقدر الله حق قدره بحيث يفهمون معجزة القرآن وكيف كان وحيه من عند الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[١]، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِم يُحَافِظُونَ﴾[٢] لنتبين أن المسألة لا يكشف عن سرها إلا أعمال الربوبية والألوهية وامكان القدرات الروحية والابداع وأن وحي القرآن هو نفسه الوحي العلمي المعاصر الذي نجده بين أيدي العلماء المبدعين وإلا من أين جاءت تلك القدرات التي فجرت عصر الفحم وعصر البترول وعصر الفضاء وكل الإنجازات التي لو رأتها قريش اليوم لآمنت بأن القرآن آية من آيات الخلق كما تبدو في الطبيعة ويرونها رؤية العين.

إن آيات الخلق كما تبدو في الطبيعة تتضاءل أمام خلق النفس البشرية والكائن البشري به من معجزات الخلق ما يفوق كل وصف والمشكلة هي إيمان الإنسان بنفسه وربه وعندئذ تتضاءل أمامه كل معجزة وإن اعتبرت عند الجهلة غارقة وخارقة وأنها مستحيلة.

١١ - إن الغاية من إثارة مسألة وحي القرآن من المصدر الإلهي والرباني تكمن وراءها دعوة القرآن لتبني ثقافة جديدة قوامها حرية الإنسان

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩١.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩٢.

وقدراته عند ربه وما كان محمدﷺ والقرآن إلا آية لهم ليتبينوا ما يمكن أن تكون عليه حياتهم لو آمنوا بذلك والمشكلة كما قدمها نسق «حم» في سورة «غافر» و «الزخرف» و «الشورى» و «الدخان» و «الجاثية» أن قريشاً لا تؤمن إلا بما لديها من الثقافة التقليدية وعناصرها وانتهاج المعيار المادي وأن الإنسان لن تكون قيمته إلا ما يملك من المال أو الولد أو السلطان أو مركزه الطائفي أو القومي أو العنصري والمسألة عند الله ليست كذلك إذ قيمة الإنسان بقدراته الروحية الخلاقة وما يمكن أن يخرجه للناس عن طريق القدرات والامكانات والعمل المبدع لذلك كان فهم قريش لما عليه محمد ﷺ من ربه مشوشاً ملفوفاً مغلفاً بالشكوك والظنون حتى ادعوا أنه معلم وادعوا أنه مجنون وادعوا أنه مُفْتَرٍ وادعوا أنه أشر الناس وهو في الحقيقة ليس كذلك بل هو الإنسان الفطري الطبيعي السوي الذي يجب أن يكون كل الناس مثله ولكن كيف يؤمنون بهذا المنهج الذي يدعوهم إليه وهم لم يدخلوا تجربة الإبداع والخلق؟.

قد كان لأولي العزم من الرسل مع أربابهم وقفات وها هو نوح يستمر في دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وها هو ابراهيم يتحمل من قومه وها هو هود يتحداهم بمفرده وها هو موسى يواجه طغيان الفرعونية وجهل بني اسرائيل وإسرافهم على أمرهم ورغم ذلك كله كان النصر في جانب الرسل والأنبياء لنتبين أن مسألة اقناع الناس بالمناهج الجديدة والمعاصرة والتقدم هي مسألة غاية في الصعوبة وغاية في التعقيد وكيف تقنع أحداً من الناس بالإبداع والامكانات الخلاقة في الإنسان وهو نفسه لم يكتشف ولم يمارس أي نشاط إبداعي؟.

عن طريق القرآن والإلهام والوحي ذاق محمدﷺ تلك الحلاوة وتلك العذوبة وهذا الجلال الرباني وأصبح بين يديه منهج السوية والفُطرة وأمكن له

القرآن والوحي من علوم الدنيا وعلوم الآخرة أيضاً بل أنه كشف له فيما كشف حتى أطلعه على سدرة المنتهى التي ليس بعدها إلا جنة المأوى وأصبح هيام محمدﷺ بربه لا يعد له هيام ولكن قريشاً في واد آخر وفي منهج غير المنهج ومعرفة غير المعرفة وعقيدة تخالف طبيعة الإنسان وفطرته لنتبين معنى التجربة الروحية ولماذا اهتم القرآن في مجال الجدل مع الكافرين والمشركين والمكذبين بورود آيات الربوبية والألوهية وبيان ما حدث مع الأنبياء وأربابهم والرسل وسلوكهم خاصة سلوك إبراهيم مع ربه.

لقد هم ابراهيم من فرط إيمانه بربه أن يذبح ولده ليعرف الناس قيمة الاعتماد على النفس وأنه لا يغني الإنسان عن ربه حتى وجود هذا الإبن وهو من صلب الإنسان ومن قبل أوضح القرآن في مجال الإيمان بالرب أن ابن نوح كذبه ليبين لنا أن مسألة الإيمان بالنفس هي مسألة ذاتية بحته وأنها معاناة شخصية وتجربة وجدانية ولا يفيد فيها صلة رحم أو صلة مال أو صلة جاه وسلطان لأنها هي نفسها قيمة الوجود الإنساني في فطرته يكون أو لا يكون يعتمد على المال أو لا يعتمد يعتمد على الجاه أو لا يعتمد يعتمد على نفسه أو لا يعتمد حتى يقول القرآن «كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى» - كما رأى محمدﷺ من آيات ربه الكبرى استغنى به عن كل شيء لأنه يصبح حياته التي تغذيه ومثل ذلك يقول القرآن في حماقاتهم وجهلهم وضلالهم ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأى * أَفَتُمارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ المَأْوَى﴾ * إذ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا

طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى * أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾[1] . لذلك نرى الفرق واضحاً بين من جعل الصنم ربه ووليه وهاديه والإله الخائب ومن اعتقد في قوة نفسه وربه وتلك الثقة الفطرية الطبيعية في النفس وهي قدرة روحية لا حدود لها لكن ماذا تصنع مع من يتعلق في أبواب الأضرحة ومن يدعو باسم الوثنية في القرن العشرين من الخرافات والجنون وكل ذلك مرده للتخلف والرجعية.

إن المشكلة عند السلفية التاريخية والثقافة التقليدية وعند الرواة تنحصر في الموضوعات الصماء ولئن سألت أحداً عن الله لم يجد ما يجيبك بالله نفس الكلمة لا زيادة عليها ولا نقصان ومن قبل قدم القرآن «الرحمن» ولأنهم لا يفهمون إلا الكلمات الصماء «وما الرحمن» لنتبين عمق الهوة بين الفقه والثقافة التحررية وبين العموميات والآراء الجامدة والمسألة كما نراها واضحة عند من يعتقد في الصنم والحجر أو يعتقد في المعبود التوتمي والفرق كبير لأن المحسوسات ليست هي المعرفة الإنسانية للعقل ولو أنها جزء هام منه.

لذلك فالمتخلف يميل دائماً إلى تطبيق منهج المحسوسات وهو يكذب بما عدا ذلك ولا يفهم العرب وقريش معنى الربوبية أو الألوهية لأنها فكر وبحث وتأمل والقرآن ليس من جنس المحسوسات وإنما هو الفكر والفقه والبنايات العقلية.

البراهين المستعملة في نسق «الأحقاف» لبيان أن الله «حي ـ مهيمن»:

١ ـ يقول القرآن إن كل مسألة اختلف الناس في حقيقتها لا بد أن يظهر فيها الحق ويتميز ويصير واضحاً لأن الله عندما خلق الكون فإنه خلقه متضمناً الحق ولن تجد الإنسان باطلاً فيما خلقه الله بيديه ومثل ذلك القرآن وما أوحي إلى محمد ﷺ والذين يطعنون في أن محمداً ﷺ افترى على الله

(١) سورة النجم: الآيات ١ ـ ٢٠.

لا يعرفون لماذا يقول محمدﷺ إن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى.

٢ - إن المكذبين لو أنهم نظروا فيما حولهم من المخلوقات لتبينوا أنها تصدر من مصدر واحد هو الطبيعة ولذلك لا تخلق الأصنام أو تخلق الطبقة أو تخلق الطائفية أو العنصرية أو السلطان أو أي جاه وعندما جادل الطاغية ابراهيم في ربه كان بيد الطاغية الملك فكانت حجة ابراهيم أن الله يأتي بالشمس من المشرق فإن كان له سلطان على الحياة أو الخلق فليأت بها من المغرب وهكذا تبين أن الخالق وحده هو الله سبحانه وتعالى وبطل لذلك أن يكون خلق القرآن ووحيه من عنديات محمدﷺ بل هو من خلق الله لا شريك له.

٣ - إن مشكلة المكذبين أنهم ينظرون إلى الوجود نظرة صماء لكن محمدًاﷺ ينظر إلى الوجود والطبيعة ويستقرئهما الآيات فيعرف عن الربوبية وأسرارها ويعرف عن الألوهية وعقائدها ولذلك فهو يعرف أن آية القرآن من الله الخالق وليست من عندياته وكل آية نزلت على الأنبياء والرسل إنما كانت من أربابهم ولو أدرك الناس كل أسرار ربه بهذا الشعور الباطني الذي عند محمدﷺ لتبين له أن القرآن من رب محمدﷺ وليس منه هو.

٤ - من فرط جهل المكذبين واستكبارهم أنهم يعتبرون أنفسهم أساطين في المعرفة وفي الحكمة وفي الحجة ولذلك يقولون إن أمر محمدﷺ ودعوته ومنهجه في التوحيد لو كان خيراً كما يقول محمدﷺ ما سبقنا هو وأتباعه إليه والأمر واضح كل الوضوح وأن تلك الدعوة لا خير فيها على الإطلاق بل هي الشر كله لنتبين أن الصارف لهم عن الإيمان كان الغرور والحماقة والسفه العقلي وهو بكل الأسف صنعة سائدة في الثقافات التقليدية ولن تستطيع أن تصرف عن أبي هريرة مهما فعلت ومهما قدمت من آيات العصر لأن الغرور هو نفسه كان صنعة إبليس

حيث قال محتجاً «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» وهو الذي وسوس للإنسان بأن الملك والخلود في شجرة المادية والخطيئة والقرآن يعرف من الطبائع البشرية ويكشف لنا عن الكبرياء الزائفة التي تهلك أصحابها وتوردهم موارد الهلاك.

٥ ـ يقول القرآن إن ما نزل من الهداية والنور فيه هو قصد لرب العالم وأنها ليست التجربة الأولى التي يبعث الله فيها الرسل بالآيات، فمن قبل أرسل رب العالم نوحاً بآية السفينة وأرسل صالحاً بآية الناقة وأرسل موسى بآية التوراة وأرسل عيسى بآية الإنجيل وها هو يرسل محمداًﷺ بآية القرآن فما الغرابة في هذا الأمر إلا أن يكون العرب جاهلين لذلك.

إن القرآن ومحمداًﷺ ما هما إلا آية لهداية الناس والذي نزل في القرآن هدى ونور لكن المشكلة في استكبار قريش وجهلها بأيام الله مع الناس ولم تنزل فيهم من قبل الرسالات ولا النبوات لأنهم كانوا من الأميين الذين لا ثقافة لاهوتية لديهم وثقافتهم الشعرية ثقافة ليست دينية والصنمية دين مختلف قد كان منذ آلاف السنين عند قوم نوح والمسألة برمتها تعلو عليهم ولا يطيقون لها فهماً.

٦ ـ إن تلك الثقافة التقليدية والديانة السلفية هي أصل البلاء وسبب المصيبة وهي التي توشك بهم على الكارثة إذ أن الفطرة في الإنسان قد جعلت لكل عمر مرحلة من النمو بها يستكمل الإنسان طاقاته الروحية من الوجدان والعقل والفهم ولذلك كان هناك زمنٌ محددٌ للفطام وهو ثلاثون شهراً ومثل ذلك مراحل الشباب والرجولة والشيخوخة حتى إذا بلغ الإنسان أربعين عاماً تمتع بكل طاقاته الروحية من العقل والفهم والإدراك ولذلك يتبين الإنسان في تلك المرحلة أن الرب على الحقيقة هو الله وحده ولهذا كان حمل الأم كرهاً وكل ما فعلته مع الطفل إنما هو من أمر

الخالق ولا دخل لإرادة الأم فيها ويتساءل القرآن إن كان الله قد أوصى بالإحسان إلى الوالدين لقيامهما بما يرضي الله فالأولى بذلك الأبناء ويجب أن يتعلم الإنسان كيف يكون الإحسان وكيف يكون الإنسان مؤمناً بهذا الرب وليس من الإحسان أن يكفر الإنسان بالرب وآياته ولو أن قريشاً كانت سوية الخلق والأخلاق لأحسنوا إلى محمدﷺ كما أحسن إليهم.

إن كان الأبوان آية استوجبت إحساناً لقرآن يقوم بنفس ما يقوم به الوالدان أيضاً حيث يربى ويهذب ويعلم ويهدى وينير طريق الناس فلماذا هذا النكران إلا أن يكون العرب وقريش ليسوا أسوياء وليسوا من الطبيعة في شيء بل إن ديانات الآباء والسلفية التاريخية والتقليدية والصنمية قد أفسدت الفطرة التي فطرهم عليها الله وأن الأولى بهم ليست الصحة العقلية وإنما هو المرض العقلي والتخلف.

قد يبلغ الأشياخ أراذل العمر ورغم ذلك لا ينضجون عقلياً بسبب فساد الفطرة والطبيعة، لأن العوامل الاجتماعية والتقليدية تفسد تلك الفطرة وتؤجل نضوج الإنسان وها هو آزر والد ابراهيم كان شيخاً كبيراً طاعناً في السن ورغم ذلك كان ضالاً وبالعكس كان ابراهيم صغيراً قد هداه الله بالفطرة ولم يتجاوز بعد حد الرجولة وهو ما ينعيه القرآن على قريش وفيهم شيوخ كبار ولكنهم لم يبلغوا الحلم بعد لفساد أمر المجتمع وبالتالي التخلف العقلي.

٧ ـ تلك الظاهرة التي يحدثنا عنها القرآن ويقدم فطام الطفل كحجة لها لا نتبيّن آثارها إلا من خلال منهج التربية في العصر إذ تجد المجتمعات المتقدمة وقد اكتسب الأطفال فيها هذا النمو العقلي بجدارة حتى أصبح يفوق في كثير من الأحيان النمو الجسماني وعلم النفس يرجع المسألة كما أفصح عنها القرآن إلى المجتمع وما يسوده من القيم وما يجري فيه من العقائد والأفكار ولن تجد عند أهل الملة من هذا النمو مثلما تجده في الأمم العلمانية لنتبين أن المشكلة في حقيقتها هي مشكلة التخلف الذي تعاني

منه وهو يلقي ظلاله على الأجيال وربما وجدت شيخاً طاعناً في الدول الدينية ليست لديه الثقافة أو المعرفة التي توجد عند أطفال الدول العلمانية ولذلك يقول القرآن إن الذين لا يدركون ما لقواهم العقلية والروحية من الأثر في حياتهم إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضل ولا مرتبة لهؤلاء إلا مرتبة الحيوان والبهيمة حيث التخلف العقلي وعدم الإحسان.

أن يحسن الإنسان كما أحسن الله إليه هو ذلك المبدأ الذي يدعو القرآن إليه والقدرات الروحية الخلاقة في الإنسان هي الصورة الحقيقية المعبرة عن الربوبية والفطرة وكما كان الإنسان ثمرة لربوبية رب العالمين كذلك كل ما يمكن أن ينتجه العقل والوعي والإدراك والتقدم الحضاري والتكنولوجيا والعلم وإخضاع الموارد للطبيعة هي نفسها صورة للربوبية ،والقرآن نفسه ما هو إلا نتاج مباشر لتلك المسألة وهو ثمرة تربية رب العالمين لمحمدﷺ بالفطرة السليمة وبالنمو السوي حيث أوحى إليه بالقرآن عند الأربعين من عمره.

إن محمداًﷺ آية كبرى للسوية النفسية والعقلية والحريةوالفطرة،والقرآن يؤكد ذلك ولو أن أشياخ قريش المسخ ولو أن منتدياتهم كانت تدين بالفطرة والمنهج الطبيعي لتبينوا أنهم هم المرضى وأنهم هم المجانين وأنهم هم الذين لم يبلغوا ولم يدركوا الرشد بعد لكن المسألة دخلت في الاستكبار والغرور والحماقة وكيف يصغي قوم ابراهيم إليه وهو ما يزال في نظرهم ولداً صغيراً لا حلم له ولا عقل.

٨ ـ في الحجة يقول القرآن إن العيب ليس في محمدﷺ وما قدمه من المعرفة وإنما العيب في استكبار قريش ولذلك ما أن سمع الجن وهم الطائفة الأدنى في الثقافة (اقرأ كتابنا «نظرية علم النفس القرآنية») من الأوس والخزرج حتى آمنوا بما ورد فيه من النور والهداية لأن الطوائف الثقافية كانت تتمثل في الكتابيين والأميين والجنيين الذين كانوا يؤمنون بالخرافات والأساطير ومثل ذلك كانت تلك الطبقة التي سخرها سليمان

لاشباع الفهم والترف المادي وكانوا يقومون ببناء القصور وصناعة التماثيل للزينة وغيرها وما دامت تلك الطبقة الأدنى وضعاً في الثقافة قد آمنت فقد أصبحت حجة على جهل قريش، في سورة «الجن» نتبين أنهم اهتدوا بالفطرة وعرفوا أن قولة أهل الكتاب بأن الله له ولد هي افتراء على الله ومثل ذلك رأى قريش وعقيدتهم فيه إذ جعلوه صنماً ولكن القرآن قد جعل من الله الرحمن الرحيم وهكذا آمنوا رغم أنهم طبقة قليلة الثقافة لنتبين أن المشكلة في المطبوعين وأصحاب الثقافة التقليدية وأصحاب التقليدية والسلفية والاستكبار واعتقادهم بأنهم هم وحدهم أصحاب المعرفة وأهل العلم والأوصياء على الدين وعلى الناس، والمسألة ليست كذلك إذ الفطرة والسوية العقلية وما جعل الله من النور في قلب الإنسان هو الذي يهديه وهو الذي يرشده وما كان محمدﷺ وغيره من الأنبياء والرسل إلا أصحاب الفطرة السليمة التي يحدثنا القرآن عنها وهي التي جعلت الجنيين يؤمنون بالقرآن.

لكي نتبين طبوغرافية مثل تلك المجتمعات البدائية لا بد أن نعرف الطوائف الثقافية التي كانت موجودة في هذا الزمن فهناك طائفة أهل الكتاب والملة وهم الكتابيون وهناك طائفة الأميين ومن لم يكونوا من أهل الكتاب وهناك طائفة الصابئين والمجوس وعباد النار وهناك أهل الجن ومن اعتقدوا في القوى الخفية والتي كانت شبيهة بمن يعتقدون في السحر وما اهتم القرآن بطائفة الجنيين إلا لأنهم الطائفة الدنيا في الثقافة الدينية ولأنهم كانوا أقرب إلى الفطرة والإيمان والتواضع لقلة ما بين أيديهم من الثقافة الدينية.

٩ ـ يقول القرآن في مواجهة كبرياء قريش الزائفة إننا لو احتكمنا إلى من بيدهم علم الكتاب السماوي لوجدنا أن إيمان عبد الله بن سلام وهو كتابي ضليع في علوم التوراة هو الذي يعتد به كمعيار على ما ورد في القرآن من القيم الروحية وعلماء بني اسرائيل يعرفون أن القرآن ليس من

عنديات محمدﷺ لأن محمداًﷺ لم يكن يعرف من تاريخ أهل الكتاب والأديان شيئاً وأن ما قدمه الوحي في شأنهم هو الحق وهو الصدق ولا بد أن يكون ذلك هو الناموس الذي أوحي لموسى بالكتاب والهدى والنور من قبل وإن كانت قريش لم يؤمنوا فهذا يرجع إلى أنهم يعبدون الهوى ويعبدون ما لديهم من الوثنية ويجعلون لله ما ليس فيه ولو كانوا على الفطرة السليمة والطبيعة لآمنوا مثلما آمن الأوس والخزرج الذين يعتبرونهم طائفة من الدرجة الثالثة.

١٠ - إن محمداًﷺ لم يكن بدعاً من الرسل فقد جعل الله بين يديه الآية وهي القرآن الذي لم يكن يدري عنه شيئاً من قبل وهو مثل جميع الأنبياء يدعو للمنهج الربوبي والروحي ويدعو للتوحيد وهو نفسه ما بشرت به جميع الرسالات، وليس غريباً أن يكون القرآن جديداً عليهم فيما يشبه المعجزة التي لا يفهمونها فقد كان لموسى أكبر من ذلك إذ شق البحر بعصاه بل إنه كلم الله نفسه تكليماً، وها هو عيسى يحيي الموتى بإذن ربه فما هي الغرابة في أمر القرآن ولو شاء الله لجعل لمحمد ﷺ تلك المعجزات الحسية الخارقة، والمسألة أن قريشاً لم تكن تعرف معجزات موسى أو عيسى حتى تدرك أن القرآن ليس بدعة ابتدعها محمد ﷺ وإنما قدرات الأنبياء والرسل مع أربابهم عجب وآياتهم التي أتاهم الله كانت في أزمانهم غرائب لنتبين أن المشكلة ليست في القرآن ولا في محمد ﷺ لأنه ليس بدعاً من الرسل وإنما شأنه مع ربه قد جرى بحسب ناموس الربوبية وهي نفسها منهج الأنبياء والرسل والقدرات الروحية للإنسان.

١١ - تنظر قريش إلى عقيدة الآخرة وبعث الناس نظرتها إلى أساطير الأولين وهي لا تؤمن بما ورد في الكتب السماوية، والمشكلة أنها ليس لديها من تجارب الربوبية وتجارب الأنبياء والرسل شيء لأنهم لم يكونوا في يوم

من الأيام كتابيين يبعث فيهم ولو أنهم كانت لديهم العقائد السامية كما لدى أهل الكتاب لتبينوا أن القرآن يقدم أجل المعرفة في ذلك بل يجعل من آيات الله الهيمنة المطلوبة على ما لدى اليهود والنصارى وأهل الملل والنحل لأن الغرض من نزول القرآن لم يكن لقريش وحدهم وإنما كان للناس وللعالم جميعاً والرب فيه ليس رب اليهود ولا رب النصارى ولا رب العرب ولا رب قريش وحدهم وإنما هو رب العالمين ورب كل الناس ومفهوم الرب والله في القرآن يتجاوز خلافات أهل الأديان والدعوة فيه ليست دعوة للعرب والقومية ولا هي دعوة للأممية وإنما هي دعوة السلام العالمي التي دعا بها ابراهيم أبو الأنبياء والرسل من قبل ولذلك فإن الذين آمنوا بأن الله هو ربهم ورب كل نفس واستقاموا على ذلك فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون لنتبين أن مسألة تكذيب قريش وطعنها في محمدﷺ والقرآن إنما جاء من الكبرياء والجهل والتخلف العقلي والثقافة والتقليدية.

١٢ - يقرّر القرآن لقريش والمكذبين بالدعوة أن عادًا رفضت كل إنذار قدمه هود من أجل انقاذهم واعتقدوا أنهم في مأمن من عقاب الله لكن الله قد جاءهم من حيث لا يحتسبون لنتبين أن الاستقرار في مثل مجتمعات الظلم هو أمر بعيد والقرآن يرى أن هلاك سلطان قريش أمر حتمي وهم يدركون تلك المسألة وتجربة هود مع قومه أوضحت أن النذر مهما قدمت لمثل هؤلاء الجهلة فإنها لا تفيد حتى يأخذهم الله كما أخذ من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعاً والمسألة ليست بين قريش ومحمد ﷺ وإنما هي بين قريش واعتقادهم في الله وهم لا يدركون ولا يقدرون قوة الله حق قدرها ولا يعرفون أيام الله مع القوميات والأمم ولو أنهم آمنوا لنجوا من ذلك ولكن القرآن يكشف عن السبب الذي من أجله يكون هذا العناد إذ يجحد الناس بآيات الله التي تظهر بين يدي رسله وهذه طبيعة

غـالبة في الإنسـان حتى أن بني اسرائيـل ومن كـان فضـل الله عليهم جحدوا بآيـات ربهم واستبدلـوا الخبيث بالـطيب وهو مـا تفعله قريش فبدلاً من الإيمان بالقرآن ونعمته وآياته ينصرفون عنه وبدلاً من إحلال السـلام والإخاء الـذي رأوه في آية بيت الله الحـرام إذ هـم يمارسـون الـظلم والبغي على الناس والمسـألة كلهـا ترجـع إلى طبيعـة الجهلاء والسفهاء من الجحود والنكران.

إن ما يفسد قلب الإنسـان وفطرتـه نتبينه في الكبـرياء الـزائفة والجهـل والغرور والحماقة بل نراه واضحاً في هذا الجحود والنكران لنتبين أن السويـة النفسية هي الضمان الوحيد للقلب السليم ولو كانت قريش بيئة علميـة أو بيئة ثقافية وتحررية أو بيئة روحية لتبينوا أن القرآن يدعو إلى الهداية ويدعو إلى طريق مستقيم ولكنهم بكل الأسف أحاطت بهم خطيئتهم وغلبهم إبليس على فطرتهم.

١٣ - من جهل الحمقى أنهم لا يستفيدون من التجربة التاريخية فقد أهلك الله القوميات والقرى من حولهم ودالت دولة أهل الكتاب أيضاً لما فسدوا ورغم ذلك كله وهو من حولهم وفي كل يوم يمرون على آثارهم صباحاً ومساء لم يؤمنوا بالروحية دعوة القرآن لأن من يسلم زمام أمـره للجهل والتخلف فلن يرى النور من حوله ولـو أنهم بحثوا في التـاريخ لعـرفوا لمـاذا أهلك الله عاداً وثـمـودَ وإخوان لـوط بل لتبينـوا لماذا أهلك الله فـرعـون ومعـه قـارون لكن المسألة عندهم ليس فيها علم ولا يوجد لهم إدراك أو وعي وهم يحكمون أهواءهم فيمـا بين يديهم ويعـاندون العقل ويحتقرون الفهم ولا يعجبهم من الثقافة إلا الشعر الذي يـزيف الحقائق ويدعو للنفاق وما شأن القرآن كذلـك إذ القرآن علم التـاريخ وعلم الحضـارة وعلم المجتمعـات وعلم النفس وعلم العقـل والفهم والإدراك.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

ثم يقرر القرآن أن دعوة محمدﷺ إلى الروحية والإيمان بحياة أخرى هي دعوة حق لأن الله أبدع كل شيء والكائنات بالملايين بل لا يستطيع الإنسان أن يحصر أفراد الأنواع والأجناس في كل حقبة وليس لذلك من معنى إلا أن قدرة الله في عملية الخلق هي قدرة مطلقة ومتى ثبت ذلك في العقل أصبح بعث الموتى أمراً ممكناً بل هو بديهية من أعمال الخلق لتتبين قريش أن المسألة ليست جدلاً كلامياً وإنما هو علم واستقراء وبرهان وهم ليس لهم طاقة بذلك.

في سورة «ق» «القلب» يقدم القرآن مسألة الهداية الفطرية لدى كل نفس إذ جعل الله آيات الطبيعة حول الإنسان هادية له لو أنه أخلص قلبه لربه وما كانت نبوة محمدﷺ والقرآن وقوله بالحياة الآخرة إلا نتاجاً لما في قلب محمدﷺ من الفطرة السليمة التي أفاضت عليه هذا القرآن المجيد ولو كان محمدﷺ ملوثاً بالمادية وشرورها وآثامها لانخرط فيما انخرطت فيه قريش ولكنه أخلص قلبه ووجهه لله حتى كشف له ربه سر تلك الحياة الدنيا وأنّ وراء تلك الحياة بعث وقيامة مرة أخرى.

إن مشكلة الناس هي مشكلة التلوث المادي الذي يجلب على الناس مصائب الكفر بربهم بل هو عينه السبب في انصراف الإنسان إلى مشاغل لا تنفعه في ميعاده ومن أجل ذلك ما أن يتخلص الإنسان من تلك الغشاوة في الحياة الآخرة حتى يدرك قيمة ربه وقيمة الروحية التي كان يدعو لها هذا القرآن المجيد.

---

(١) سورة الأحقاف: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

وفي مثل ذلك ما ورد في سورة «القلم» ـ ﴿ن وَالقَلَم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَّا أَنْتَ بِنِعْمَة رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[1] ـ لذلك يبين القرآن لمحمدﷺ أن «ن» يونس كان بينه وبين قومه ما كان بين محمدﷺ وقريش و«حوت» هو الغضب الذي استولى عليه بسبب عنادهم وهو الذي جعله يساهم في تفاقم مشكلة الكفر لدى قومه ولذلك يقول القرآن لمحمد ﷺ إنهم سيدفعونك إلى نفس ما كان يعمله يونس عند فراغ صبره وغضبه وهم يقولون من أين لمحمد ﷺ العلم وهو لم يمسك قلماً ولم يسطر لوحاً وستنتابك حالة الغضب وعلاج هذا الأمر هو الصبر كما فعل أولو العزم من الرسل ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْم رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِن رَبهِ لَنُبِذَ بِالعراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾[2].

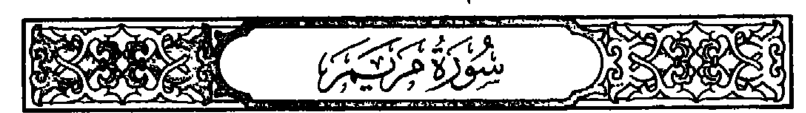
السليم: «هو من أتى الله بقلب سليم» أما أصحاب القلوب الملوثة بالأفكار والعقائد السلفية والماديات والأغراض والأهواء فلن يصدقوا ما ورد في القرآن وهو عمى عليهم وفطرة محمدﷺ وخلقه وقلبه وهدايته قد جاءته من ربه الذي أبدع كل الكائنات ليعرف أن أمر الميعاد واللقاء الروحي هو ما اكتشفه محمد ﷺ ولذلك يحذر قريشًا من طغيانها وماديتها.

---

(١) سورة القلم: الآيتان ١ ـ ٢.
(٢) سورة القلم: الآيتان ٤٨ ـ ٤٩.

الفصل الثاني

نسق «كهيعص» الله «كاف ـ هـاد ـ آيات ـ عليم ـ صمد»



القضايا ومحمولات النسق:

١ ـ لقد نزلت الكتب القرآنية بأغراض العزة وأغراض الحكمة وأغراض العلم وأغراض البيان وأغراض التفصيل وأغراض بيان الحق وبيان الحقيقة ولم يترك القرآن موضوعاً إلا وقدمه في الهيمنة وها هو يقدم نسق «كهيعص» لبيان الرحمة ﴿كَهيعَص، ذِكـرُ رَحْمَـةِ رَبِّـكَ عَبْـدَهُ زَكَرِيَّا﴾[1] ـ وأن تلك الرحمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإخلاص لمبدأ الروحية.

٢ ـ إن ما كان من تلك الرحمة التي شملت أعيان الحوادث مثلما حدث مع زكريا وإنجابه ليحيى على الشيخوخة والكبر وإنجاب مـريم لعيسى دون اتصال ذكري وبلوغ ابراهيم مبلغ الرشد وهو مـا يزال صغيـراً لـم يجاوز الرجولة ومثله ما كان للمخلصين من الأنبياء والرسل إنما هو نتاج مباشر للربوبية وما يمكن أن يقدمه رب كل نفس للإنسان لـو أن هذا الإنسـان

---

(١) سورة مريم: الأيتان ١ ـ ٢.

جعل من ربه غاية سعيه وغاية أمله فلا ينظرون إلى قوة من خارج نفسه حتى لو كان ولداً أو لو كان مالاً أو لو كـان جاهـاً وسلطاناً لأنـه لن يمده بالقدرات التي يستطيع بها أن يبدع شيئاً.

لـذلك كـانت قضية الـرحمة في هـذا النسق مرتبـطة بقضية الـربـوبية، والمخلصون الأحرار هم أولئك الـذين جعلوا من أربابهم وقـدراتهم الروحيـة والذاتية قبلة وعقيدة ولن يستطيع إنسان من الناس أن يعاشر تلك القوة الروحية حتى يخلص روحه من كل إله إلا الله الرحمن الرحيم.

٣ ـ لا يقدم القرآن نسق «كهيعص» ضمن كتاب «الر» وهو الذي قدم مفهوم «الرحمن» مع «يونس» و «هود» و«ابراهيم» و «يوسف» لأن هـذا الكتاب كان يقدم تاريخ «الرحمن» مع رسـل الله وأنبيائـه ولكن نسق «كهيعص» يقدم موضوع الرحمة من خلال المعاشرة الحاضرة بين كل إنسان ونفسه ليبين أن أحداث الربوبية التـي تبدو كأنها أحداث آلهة كما اعتقد الناس في عيسى إنما مردها إلى موضوع الرحمة بين الإنسان وربه وهي نفسها مـوضوع وحي القـرآن بين محمـدﷺ وربـه وإن كبـر على النـاس أمـر محمدﷺ فإن أمر زكريا وأمر مريم أكبر من ذلك وما كان من المخلصين والروحية في دعوة الأنبياء والرسل والصديقين هو الـذي يكشف عن سر محمدﷺ مع ربه ولأنه قد خلص وصدق مع ربه فإنه جاءه بمعجزة القرآن أيضاً.

٤ ـ إن كل مخلص مع نفسـه وربه وقـدراته الـروحية يستـطيع أن ينهـل من المـائدة السمـاوية الروحيـة، والمشكلة كلهـا إنما تكمن في الصـدق مع النفس لأنه سر الروحية منـذ عرفت البشـرية الأنبيـاء وإبداعـات الرسـل ولذلك يقدم نسق «كهيعص» أن الله هو كاف عبده وهو هاد وهو الصمد الذي لا يسأل غيره فيجيب كل داع وكل مضطر إن المستحيلات ليست لهـا وجود في عـالم الرب والـربوبيـة ومن يؤمن بنفسه وبـربه فـإنه يستـطيـع

تحقيق المعجزات الخوارق حتى لو كانت تلك الأمنيات لا تجري على النواميس الطبيعية وها هي مريم ترزق عيسى بغير اتصال ذكري لنتبين ما يهدف إليه هذا النسق وليكون للذين يتخذون من المادية والغرضية والمنفعية آلهة من دون الله إنذار وتحذير.

ماذا يفيد المال في القدرات أو ماذا يفيد الإبن في الإبداع. إن القرآن لا يقدم حادثة مريم إلا ليبين أن تلك القدرات تستطيع حتى صياغة الجسم والسيطرة عليه واليوجا والمذاهب الروحية وما ينتج عن تلك القدرة الروحية في باطن النفس هو الذي يحدثنا القرآن عنه ليوضح أن الثقة والإيمان بتلك القوة الروحية لدى الإنسان لا تقف عند حد والإله ليس خارج نفس الإنسان بل هو بعينه رب الإنسان ومتى أدرك الناس هذا الأمر كفاهم بحثاً عن الآلهة أو عن الأرباب وما يفيد الإله أو الرب الذي لا يقدم للإنسان قدرة أو يدفع عنه مضرة لنتبين أن المسألة لا يثيرها القرآن إلا من خلال مشكلة الإيمان وأن الإنسان لا يغنيه إلا الإيمان بنفسه وربه وطاقاته الروحية وليسقط كل إيمان بعد ذلك.

٥ ـ ليس عجباً أن ينجب زكريا وقد كان طاعناً في السن ولكن الإرادة الروحية في نفس الإنسان أقوى من كل عقبة ولذلك ما أن يريد الإنسان حتى يهديه ربه وها هو رب زكريا يرشده إلى ما يمكن أن يجعله لائقاً للإنجاب ومباشرة الجنس إذ يقول له ما أن تصوم عن الكلام ثلاث ليال حتى تصبح في طاقة جنسية لأن الكلام يستنفذ تلك الطاقة وأثبت علم النفس المعاصر أن الكلام يستخدم ثلاثة وثلاثين عضلة منها عضلات الوجه والحنجرة والصدر وغيره لنتبين قدرة الطاقة المستهلكة في الكلام وتلك المعرفة كانت هداية من رب زكريا ولذلك يبين القرآن أن الإنسان متى ما أخلص مع ربه فإنه لا بد أن يأتيه بالهداية ولا بد أن يعلمه ويرشده حتى لو كان أفقر الناس علماً ومعرفة مثلما كان محمدﷺ قبل وحي القرآن.

من أين تأتي الناس المعرفة والهداية؟ وما هو المصدر الأول لكل معرفة؟

ومن أين جاءت الإنسان تلك القدرات الروحية في العقل والإدراك؟ إنها لم تأتِه من خارج بل هي انبعاث روحي باطني وهي نفسها السر وراء كل معجزة ووراء كل هداية ووراء كل عمل قام به نبي أو رسول.

٦ ـ يقول القرآن إن كل فضل كان من نبي أو رسول قد استمد جذوره من تلك القوة الروحية وما جاء به المخلصون وما قام به الصديقون وما أنجزه المحسنون وما أبدعه الشهداء وما كان من الصالحين وما صنعه المخترعون وما قام ببنائه البناء إنما هو نتاج لتلك الطاقة التي لدى رب الإنسان، ولو نظرنا إلى منجزات العصر من التنكولوجيا لتبين لنا صدق القرآن وأنه يقدم لنا أن تلك المباركات والخيرات وكل ما حققه الإنسان من تلك الأعمال في صناعة الصواريخ أو سفن الفضاء أو الصناعات التقليدية وما أثرى به القانون والسياسة والاقتصاد ومشتملات الحضارة الإنسانية إنما يدين بوجوده كله لرب الإنسان والروح المنبثق من باطنه وأنه هو نفسه عقيدة الربوبية التي يحدثنا عنها القرآن ويقدم مريم كظاهرة لتلك العقيدة.

٧ ـ إن صنعة الحضارة كانت نتاجاً للإنجازات الفردية واعتماد الإنسان على نفسه وطاقاته الذاتية الخلاقة والمغامرات التي قام بها الفرد الإنساني في الغرب الأمريكي وفي أفريقيا ورحلة كولومبس وما جلان وما قام به الرواد المكتشفون ورواد المعرفة وجاليليو وبيكون وما قام به ماركس وداروين وفرويد وما قام به كل عالم وكل مخترع وكل من وهب نفسه لربه وما كان ذلك كله إلا من خلال المغامرة مع النفس ومع الرب ومع القدرة الإلهية الثاوية في تلك النفس البشرية التي لا يعرف أصالتها إلا من ذاق طعم الابداع والوحي مثل محمدﷺ ووجد بين يديه هذا القرآن العجيب.

إن الأعمال الجليلة والنتائج العظيمة التي حققها الربانيون هي التي تشهد للمبدأ والفردية والمغامرة العجيبة التي تكون بين الإنسان وربه متى ما

كان الإنسان عند حسن ظنه لنتبين أن النفاق لا يفيد والكذب والتزوير والتدليس وعشق المادية والهيام بالمال وبالبنين وإنما يفيد الإنسان الصدق مع النفس والإيمان بالرب وهو وحده الذي يمكن أن يحقق للإنسان كل رغبة حتى لو كانت إنجاباً بغير اتصال كما حدث مع مريم.

﴿أليس الله بكاف عبده﴾..

فيا ليت ما بيني وبينك عامر	وما بيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين	وكل الذي فوق التراب تراب

لو لم يتحقق الفعل مادياً لتحقق الفعل نفسياً سيكولوجياً كما حدث مع مريم إذ جاءها الملك في الفعل السيكولوجي بما تريده من المجامعة، وفي عالم الربوبية لا يعتد بالفعل الجسدي إنما القيامة كلها لهذا الفعل الروحي الذي كان للربانيين جميعهم.

٨ - «ذرية بعضها من بعض» و «ذرية إبليس اللعين» و «وناديناه من جانب الطور الأيمن» «والتين والزيتون وطور سينين» «وخلقناكم أطواراً» لنتبين من كل ذلك أن القرآن يدرك معنى التطور وأن هذه الأطوار تظهر في الذرية فيكون من الطور الأيمن هؤلاء الربانيون الروحانيون المبدعون ويكون من الطور الأيسر ذرية إبليس ومن يقعون في براثن المادية والانحطاط ولنتبين أن عروق الروحية تجري في الناس ثم تظهر للعيان في أحد من الموعودين من أمثال موسى وعيسى ومحمدﷺ ولا يقول القرآن بذلك ليجعل من هذا النوع من الناس آلهة يعبدون من دون الله كما عبد المسيحيون والنصارى عيسى ابن مريم وإنما يقوله ليدرك الناس معنى الآية ومعنى الإيمان بها وأنها ذرارى قد تظهر أو لا تظهر فإن ظهرت فإنها أصبحت للناس عامة وأن المراد بها أن يعرفوا ما خلق الله من تلك القدرات في نفوسهم إذ لم تكن مريم هي وابنها إلا آية للعالمين ومثل ذلك موسى وعيسى ومحمدﷺ وأن القرآن يقول بالذرية

ليجعل منها قوانين للوراثة وأن ذرية نوح قد تظهر في أحد من الناس فلا يكذب ولا يفتري ولا يقدم للناس إلا الصدق ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ من النَّبِيين مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّن حَمَلْنَا مَعَ نوحٍ ومِن ذُرِّيَّةِ ابْراهيمَ واسْرَائيلَ وَمِمن هَدَيْنَا واجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ آياتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾[1]، لذلك فلا غرابة أن تظهر آية من آيات رب الإنسان في أحد من الناس كأن تكون قدرة خاصة في اختراع مًّا أو تكون إمكانية العلم مًّا أو تكون معرفة أو برهاناً في مجال ما لنتبين أن الفرد الرباني ما هو إلا حامل لهذه الذرية التي يحدثنا القرآن عنها.

٩ ـ إن قوانين الوراثة في عالم الربوبية والروحية ليست لزيد أوعمرو من الناس وإنما هي لهذا الرب الذي خلع على آدم كمالات العلم وكمالات الهداية وكرمه حتى على الملائكة وجند السماء ولذلك إذا ظهرت ذرية هذا الرب في نوح قام نوح بإبداع الفلك وإذا ظهرت في ابراهيم بلغ رشده وهوايته وهو ما زال شاباً يافعاً وإذا ظهرت في «هود» تحدى الناس جميعهم وإذا ظهرت في «يوسف» مكنته من علم النفس وتفسير الأحلام وإذا ظهرت في موسى جاءته بالتوراة والكتاب السماوي وإذا ظهرت في عيسى أحيا الموتى وإذا ظهرت في محمدﷺ أوحت إليه القرآن فلماذا يكذب الناس بتلك الذرية وهي الذرية الأصل وما عداها فهم ذرية الشيطان وإبليس؟.

وكأن القرآن يقول للناس إن ظهرت الآية الربوبية على أحد من الناس فاعرفوا أنه وريث آدم الذي كرمه ربه واعرفوا أنه وريث نوح ووريث ابراهيم والنبيين والمرسلين من ربهم لكن المشكلة تنحصر في أولئك الماديين الذين لم يعرفوا من ربهم ولم ينهلوا من نبع الربوبية ولم يتذوقوا طعم تلك القدرات الروحية وهل يستوي من خلق في أجواز الفضاء ومن أخلد للأرض وهل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور؟.

(١) سورة مريم: الآية ٥٨.

إذا تتلى على الناس آيات الرحمن سواء كانت في القرآن أم غيره خضعت لها إلهامات وبكى المؤمنون الذين عرفوا أمر ربهم لنتبين أن كل ما أفاء الله على الإنسان من تلك القدرات مرجعه إلى هذا الطور الروحي الذي نادى الله منه موسى وعيسى ومحمدﷺ والمشكلة أن الإنسان يغفل عن وجود مثل هذا الجانب الأشرقي في نفسه ولذلك يقول رب الإنسان لو جاءني عبدي ماشياً لجئته هرولة ولو جاءني هرولة لجئته مسرعاً لنتبين الآية -﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان**﴾- وأن غفلة الإنسان عن نفسه وربه وقدراته الخلاقة المبدعة هي التي ترديه وهي التي تجعله جاهلاً وهي التي تذهب به إلى أسفل سافلين.

١٠ - لكننا لكي نتبين قيمة كتاب «كهيعص» لا بد لنا أن ننظر إلى وحدة النفس ووحدة الشخصية والاستغناء بالإيمان والقدرات الروحية عن كل ما سواهما إذ يقدم القرآن منهج الأنبياء والربوبيين فيما اعتز به محمدﷺ وتنسكه في غار حراء بعيداً عن الناس ومشاغل الحياة اليومية والمناجاة الربانية حتى كلم الله موسى تكليماً ولذلك بلغ ميقات موسى مع ربه أربعين ليلة وكان موسى قد ترك بني إسرائيل مهرولاً إلى قمة الجبل ليخلو مع ربه وليستمتع بتلك الصحبة ومثل ذلك فعل ابراهيم وهاجر وحيداً إلى الله وبنى له البيت الحرام لنتبين عشق الذات والهيام بها ولنعرف أن وحدة النفس ووحدة الشخصية يمكن أن تغني الإنسان عن كل الناس ولنتبين أن مسألة الصحة النفسية إنما تكون في عالم القدرات وعالم الابداع والاستغناء بذلك عن العلاقات الاجتماعية وما قيمة تلك العلاقات وقد وجد المخترعون أنفسهم فيما يخترعونه للناس وما قيمة المال أو الجاه أو أي شيء آخر لا يستطيع أن يقيم وحدة الإنسان واطمئنانها مع ذاتها وما قيمة كل سلطانه على نفسه ليعرف أولئك الجهلة أن أمر محمدﷺ لم يكن إلا في هذا التوحيد العظيم الذي استغنى به عن كل علاقة حتى

شغلته في كثير من الأحيان عما يطلبه الإنسان من حاجته إلى الطعام أو الشراب أو الجنس أو الشهوات ليكون ما بين أيدينا من عجب واعجاز القرآن.

إن كان الطعام يلهي الإنسان عن نفسه فليكن الصيام شافياً وإن كان الناس ومشاغل الحياة فالاعتكاف كافياً وإن كان المال والجاه والولد فليذهب كل ذلك إلى الجحيم لأن الإنسان مع ربه لا يصرفه صارف حتى يقول القرآن إن موسى ترك بني اسرائيل مستعجلاً صاعداً إلى الجبل ليلقى ربه ولينعم بنفسه التي اكتشف فيها كل هداية وكل علم وكل برهان ـ﴿**وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهداء**﴾ ـ لنتبين أن الإنسان ما أن يدرك وحدة النفس حتى يحتقر كل شيء ويستغني عن كل شيء وينال كل شيء بفضل ربه وهدايته وعلمه.

١١ ـ تتجاور في القرآن سورة «الكهف» وهي السورة التي نزلت في العلم اللدني وأن الإنسان ليس في حاجة إلى معلم لأن الله هو المعلم لكل إنسان وهو نفسه الذي يهدي الناس لأن الفطرة للإنسان وطبيعته قد جبلت على العلم والمعرفة. وعند خلقه آدم لأول مرة كرمه الله بالعلم وأفاض على قلبه المعرفة ولذلك فإن محمداً ﷺ ليس في حاجة إلى أن يعلمه حبر أو يعلمه راهب أو يهديه نصراني أو يكشف له يهودي عما عندهم من أمور الأديان ولذلك جاءهم بخبر أهل الكهف وما سألوا عنه من مسائل بل إنه قدم للناس الحق في تلك القصة وأن القصة كما يرويها اليهود قد حرفت وأصبحت خرافة وأسطورة.

هذه السورة تتجاور مع سورة «مريم» ثم تليها سورة «طه» وهي نسق «طاهر ـ هادي» لنتبين مجاري الأنساق وأنها جميعاً توضح لنا أن محمداً ﷺ والقرآن ما هو إلا ظاهرة من ظواهر الربوبية التي كانت لدى مريم ولدى عيسى ولدى موسى ولدى الربيين ولكن الناس لا تفهم المسألة على حقيقتها لأن

التجربة هي التي تهدي الإنسان وهي التي تعلمه وهي التي تكشف له عن الحق وقريش وجهلها بذلك أدعى للتذكيب وأدعى إلى القذف وادعاء أن محمداً ﷺ افترى القرآن والحقيقة بخلاف ذلك.

من كان لا يفهم خبايا النفس البشرية وطاقاتها وروحانياتها فإنه لا يمكن أن يفهم معنى الفطرة التي فطر الله الناس عليها،ولذلك قرَّر القرآن في الفطرة أن الله لا يبدل خلقة الإنسان بحيث يهديه مرة ويخدعه أخرى وإنما الحقيقة في هذا الشأن أن الناس جميعاً بعين وهداية هذا الرب ولكن الجهلة لا يفهمون ذلك ويغفلون عن طاقاتهم وامكاناتهم وهم ذرية آدم وذرية نوح والمشكلة كيف يدرك الإنسان نسبه وأصله وعلاقاته السماوية وكيف يعرف أنه وهو في القرن العشرين ما زال ابن آدم وحفيده وأنه ابن الأكرم الذي جعل الله عند ميلاده سجود كل خلق وسخر له كل شيء حتى قال للملائكة اسجدوا لآدم لأنه هو نفسه قد جعل فيه وحه الخلاقة المبدعة وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

عندما يتحدث القرآن عن الفطرة فإنما يتحدث عن الجميع وعن الناس والعالمين ولذلك جاءت آيات رب العالمين مقارنة مع الفطرة والطبيعة البشرية لنتبين أن القدرات الروحية التي يوردها القرآن في نسق «كهيعص» ومريم ونسق «طه» ونسق «الكهف» إنما وردت لبيان تفصيلات تلك القدرات لهؤلاء الذين أنعم الله عليهم بالهداية وأنعم عليهم بالوحدة النفسية وأنعم عليهم حتى استطاعوا أن يتحكموا في أجسامهم ذاتها لنتبين مدى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان لو أنه آمن بنفسه ولو أنه استعمل تلك الطاقة الروحية من أجل الخير ومن أجل التقدم وهي طاقة هائلة أمام الصعاب أو المشاكل ولا تعرف المستحيلات وهي بعناية هذا الرب قد خلقت من قبل العالم الكوني والعالم الفلكي والعالم الطبيعي وما شمل عليه من الكائنات نباتية كانت أو حيوانية أو إنسية أيضاً.

لذلك ما أن يتحدث القرآن عن فطرة الإنسان والابداع والخلق حتى

شير إلى العالم الطبيعي وما اشتمل عليه من الكائنات والثراء العريض فيه كأنه يقول للناس إن تلك الطاقة الخلاقة فيكم هي نفسها الطاقة التي جعلت ثل تلك الكائنات وما زالت تخلق إلى الآن الأنواع والأجناس وتحسنها وتنوعها نتبين تلك القدرة السحرية التي تثوي في أرواحنا وأعماقها والمشكلة دائماً ي كيف نؤمن وكيف نثق وكيف نبتسم أيضاً.

١٢ - إن الصحة النفسية تترتب على ما يعتقده الإنسان ووحدة الشخصية هي التي تدفع عنه الأمراض سواء كانت نفسية أو جسمانية، والرأسمالية المحمومة تتفشى فيها تلك الأمراض بشكل وبائي لأن إله الإنسان وربه قد تكون في المال أو قد تكون في المركز والطبقة وما يكتنف ذلك من الصراع المدمر أو تكون في الوظيفة أو تكون في الحاجات الاستهلاكية وكلها تمثل ضغوطاً هائلة للقلق المدمر لوحدة الشخصية ولو أن الإنسان انتهج أيديولوجيا مخالفة لذلك لكسب نفسه ولهذا وجدنا كافة الأنبياء والرسل يحتقرون المظاهر المادية للرأسمال حتى قال محمدﷺ «نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» لنتبين معنى الربوبية ومعنى أن يكون الرحمن هو رب الناس بل إن القرآن يتجاوز ذلك ويقول إن الله في الربوبية يتجاوز كل اسم ولا يكفيه «الرحمن» ﴿**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ واصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً**﴾[1] لذلك لا ينال أحد من الناس من مقام الربوبية ووحدة النفس والصدق معها حتى يجاهد لنفسه جهاداً مريراً ليكون من ذلك الخلاص الموعود به هؤلاء الصفوة المخلصون.

١٣ - لا يقدم القرآن نسق «كهيعص» إلا من أجل الروحية والانتصار لها لذلك يحمل على الذي أراد المال والولد والجاه والسلطان في قريش معتقداً أن ذلك هو ما خلق الإنسان من أجله والحقيقة أن الإنسان قد

---

(١) سورة مريم: الآية ٦٤.

خلق من أجل الروحية والابداع والخلق ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۞ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً ۞ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾[1]. لذلك يفصح القرآن في نهاية سورة «مريم» عن فساد اعتقاد قريش وفساد اعتقاد أهل الكتاب الذين اتخذوا لله ولداً لأن تلك العقائد ليست عقائد روحية وإنما هي عقائد مادية يتخفى وراءها حب الأموال وحب البنين وحب العنصرية وحب الطبقية وعشق الطغيان والهيام بالسلطان والقرآن بريء من كل ذلك.

في كل صدام مع الرأسمالية المحمومة أثار القرآن مسألة المادية وعبر عنها بالمال والبنين لأنهما كانتا الظاهرتين الواضحتين لوجهها القبيح ولذلك ما أن يقدم القرآن السلوك المادي للقوميات والأمم حتى يذكرهما مشيراً إلى أن رسالة الله الروحية ليس فيها من تلك العقائد وما آثار نزول نسق «كهيعص» إلا تلك الطبقة الرأسمالية لأغنياء قريش الذين كانت لهم الثروات العريضة من التجارة والرواج الرأسمالي الذي تبع ذلك ليبين القرآن أن نعمة رب محمدﷺ وما أفاض عليه من علم الروحية هو خير مما في أيديهم من تلك الثروات والأبناء والجاه الزائف ولننظرن الآن ماذا يبقى من المادية والرأسمالية المحمومة؟ إن التاريخ الرأسمالي والمادي أطاح بكل الأقوياء وعصف بكل الأمم ودمّر كل القوميات وقد كانت الأمبراطورية البريطانية لا تغيب عنها الشمس وذهبت أيضاً لنتبين أن الوارث الحق هو الله والقيم الروحية وما كان محمدﷺ إلا مبشراً ونذيراً.

---

(١) سورة مريم: الآيات ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١.

البراهين التي استعملها نسق «كهعيص»:

١ - ينظر القرآن في آثار رحمة الله ليبين للناس ولمحمدﷺ كيف كان الله كافياً عباده وها هو زكريا هذا الشيخ الطاعن الذي وهب نفسه للوعظ والإرشاد وأصبح داعياً لله يخطب في الناس ليل نهار ويستنفذ جهده في هذا العمل لكنه أصبح يعاني من الوحدة وعدم الإنجاب وتاقت نفسه أن يكون له ولد يرثه ويرث ما يمكن أن يقدم به في الدعوة أيضاً.

لكن المشكلة والعقبة قد تمثلت في شيخوخته وذهاب رجولته معها وأصبح الواقع يفرض نفسه ويبين القرآن أن زكريا كان ربوبياً من آل يعقوب ولذلك هداه ربه أن يكف عن الكلام الذي يستنفذ طاقته ومن ثم استطاع أن يسترد رجولته وأن يمارس العملية الجنسية التي أثمرت يحيى بعد ذلك حتى يقول إن اسم يحيى نفسه كان تخليداً لهذا الحدث العجيب ليتبين الناس أن الربوبيين من أمثال زكريا ومحمدﷺ هم أناس مهديون بالفطرة حتى لو كان الأمر من شبه المستحيلات.

٢ - يوضح القرآن أن أمر زكريا ولو أنه بدأ صعباً ومستحيلاً إلا أنه عند ربه لم يكن كذلك بل هو أمر هين للغاية حيث سبق في التجربة وخلق الكائنات ما هو أصعب من ذلك وفي الطبيعة تنجب بعض الكائنات دون نكاح وآدم نفسه قد خلقه الله من تراب ثم قال له كن فكان ولذلك فأمر محمدﷺ وما أوحي إليه من القرآن وإن بدا عجباً للناس فهو أمر هين عند رب محمدﷺ لأن الربوبي لا يعجزه شيء وهو برعاية تلك القوة الروحية.

لذلك كان يحيى ثمرة روحية كبرى عن طريقه استمرت رسالة زكريا في الناس ولم يخذله ربه بل كان يحيى قوياً في الحق والكتاب والحكمة وكانت علاقته بوالديه تتسم بالحنان والعطف والرعاية ليتبين الناس أن الروحية لا

تتوقف آثارها ولا يمكن أن تنقطع في الأرض والعمارة والتطور لمبدئها الـذي ينادي به القرآن.

هذا الداعية وولده كانا ثمرة لما يمكن أن يجنيه الإنسان من اعتماده على ربه ونفسه ولو أن زكريا كان يضـع ثقته في مـال أو جاه أو سلطان مـا كان لـه ذلك ليكون من ذكر ذلك رحمة بمحمد ﷺ الذي لم يكن له من جـاه الدنيـا أو سلطانها شيء وإنما كان له ما أفاض عليه ربه من القرآن العظيم.

٣ ـ لكن سؤال زكريا عن الآية هو سؤال محمدﷺ أيضاً إذ ما هي آية الروحية وبرهانها لو كانت صادقة؟ ولذلك يرد القرآن بأن الآية في منتهى البساطة وهي معرفة حدسية باطنية والعلم اليوم هو الذي استطاع أن يكشف مقدار ما يبذله الإنسان من الطاقة والجهد في الكلام إذ يستخدم ٣٣ عضلة ما بين عضـلات الوجـه والصدر والحنجـرة حتى عضلات البـطن والـذين يمارسون التدريس والخطابـة يعانـون من الإرهاق لمـا يبذلـونه من تلك الطاقة لنتبين أن الإنسان بفطرته من غير تعليم هـو بهداية ربه ولو ذهب زكريا إلى فطاحل الأطباء ما استطاعوا أن يصفوا له تلك الوصفة البسيطة التـي أمكنته من مقاومة الشيخوخة والعجز وهو نفسه مـا حدث مـع آية محمدﷺ إذ لم يكن من الكتابيين ولم يكن له دراية بالكتب السماوية ولم يعلمـه أحد من الأحبـار أو الرهبـان ورغم ذلك كله كـانت آية الـرحمن الروحية هذا القرآن الذي بين أيدينا.

لذلك يقص ألواناً من المعرفة الروحية فيقول إن هذا النبي كان مخلصاً وهذا الرسول كان صادقاً ولهذا جعل الله منه آية ولـذلك رفعـه الله مكانـاً علياً وآخر كلمه الله ومحمدﷺ أوحى إليه لنتبين أن الإنسـان متى ما كـان مع ربـه فتحت له أبواب السماء بشتى ألوان الهداية حتى ما كان منها معجزاً للناس.

٤ ـ إن الصمت في التجربة الروحية أبلغ من الكلام لأنه حديث باطني نفسي

وكل الكائنات عدا الإنسان تتخذ من الصمت تسبيحاً لله وما حاجة تلك الكائنات إلى الحديث والكلام وقد استغنت بربها عما سواه ولذلك خرج زكريا على قومه وقد آل ألا يتكلم فقال لهم بدلاً من الحديث فعليهم بالتسبيح والحديث الباطني الذي هو نفسه خلاصة التجربة الروحية لنتبين أن أجمل الكلام والحديث ما كان مناجاة باطنية مع النفس والرب ولذلك أيضاً صارت تلك المناجاة عبادة عند كل المؤمنين ومن أجل ذلك أيضاً أشار زكريا في التسبيح مع العشي والإبكار وكأن الإنسان إذا أراد أن يكون مع ربه فليكن مع الطبيعة وشروق الشمس وغروبها وليندمج فيما حوله من تلك الآيات حتى يعرف معنى التسبيح ومعنى أن يكون فطرياً على الطبيعة التي خلقها الله بيديه وهي نفسها ستهديه كما كان ذلك في كل الكائنات من حوله وهل وجد الإنسان كائناً ما كان ضالاً أو فاسقاً أو كافراً؟.

إن عالم الغريزة في الحشرات والنحل والنمل يفوق ما لدى عقل الإنسان من التنظيم ورب النمل لم يجعل لحياة الشغالة في المستعمرة إلا عبادة العمل والتعاون فيه والاخلاص للجماعة حتى هذا التكيف قد لحق ببيولوجية النمل إذ جعل الملكة خاصة بالبيض والذكور خاصة للدفاع والتلقيح والشغالة متحورة من أجل العمل فقط ولذلك فهي عقيمة ومثل ذلك مملكة النحل وما فيها من جليل الآيات الربانية والفطرة الهادية.

لذلك كانت عبادات الربانيين جميعاً مرتبطة بالطبيعة وعشقها وهو ما فسر لنا لجوء سيدنا يحيى إلى البرية وتحريم دخول الحضر والمدن على نفسه لأنها تفسد طبيعة الإنسان وهو ما ظهر واضحاً لنا اليوم في إفساد الحضارة لفطرة الناس واعتمادهم على المادية ومظاهرها الرأسمالية المعاصرة.

- هذا الصدام بين الحضارة للإنسان وماديته والطبيعة وفطرتها لانتبين إبعاده إلا من خلال المرض النفسي وكثرته والمرض العقلي وشيوعه ولذلك عندما

عرف زكريا من ربه ما عرف صرف الناس عنه وما حاجتهم بالموعظة وما بحثهم عن الهداية وقد أصبح كل ذلك كامناً في فطرتهم ولذلك يحرص القرآن في مواضع ذكر الفطرة أن يبين للناس أن الله وحده هو الذي يمكن أن يهدي الإنسان وأنه هو وحده الذي يعلم الإنسان «ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً» لنتبين أن نسق «كهيعص» ولو أنه نزل في ذكر رحمة الله بالربوبيين إلا أنه يوضح للناس أصل الهداية وأصل المعرفة وأنها معرفة فطرية تنبع من قلب الإنسان وروحه وأن الكائنات كلها وليس الإنسان على تلك الهداية وهذا الناموس الذي يشمل أصغر الكائنات وأكبرها حتى يبين لملاعين اليهود في سورة «البقرة» أن الفطرة الهادية تشمل الذبابة وما فوق الذبابة من الكائنات فلماذا يدعو لمحمدﷺ أنهم لا يفهمون ما يقوله وما يدعوهم إليه ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ﴾[1] لنتبين من الدراسات المعاصرة لممالك الحشرات أن الله لم يترك كائناً إلا وهداه وجعل بين يديه العلم والغريزة الضرورية لاستمرار حياته وهو نفسه أصل الناموس الذي قدمه موسى للفرعون الذي اعتقد في نفسه أنه يمكن أن يحل محل الرب في تعليم الناس وتربيتهم وفرض الطائفية عليهم عليهم إذ قال له موسى أن الرب هو الذي خلق فهدى ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾[2] ولذلك كان إنسان العصر الحجري مهدياً أيضاً بالفطرة وقام بصناعة الأدوات من الحجارة ومثله في ذلك مثل أي كائن يهديه ربه بالفطرة لنتبين قيمة ما أوحى به زكريا للناس وتركهم إلى ربهم واليوم يقوم آلاف الدعاة بل الملايين يعظون الناس ولكن

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦.

(٢) سورة طه: الآيات ٥٠ ـ ٥١ ـ ٥٢.

لا فائدة لأن فطرة الناس قد تعطلت وأفسدتهم الرأسمالية والمادية واعتقد الكافر الذي ناقش محمداًﷺ في ربه وقدراته أن الله سيزيده مالاً وولداً وبذلك يكتب له الكسب وما علم أنه بذلك من الخاسرين.

٦ - «فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً» - لذلك كانت عبادة محمدﷺ وصلاته مع حركة شروق الشمس وغروبها - «أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً» - لأن ربه هو نفسه الذي خلق وصنع تلك الآيات وهو نفسه الذي يهديه ويعلمه الكتاب والحكمة وإن كان من قبل ذلك لفي ضلال مبين - **﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾**[1].

لذلك لم يكن زكريا في حاجة لمن يهديه ولم يكن موسى في حاجة لمن يكشف له عن السنن ومثله لم يكن محمدﷺ في حاجة لمن يعلمه وما حاجة الناس إلى الدعاة والوعاظ والكهنة والأحبار والرهبان بل بعد محمدﷺ وهو بديعة الفطرة وكمالها لم يعد هناك حاجة للأنبياء ولا للرسل لأن الإنسان قد عرف ربه معرفة واضحة بينة.

من يأخذ مكان الله في هداية الناس؟ إن عرف أهل الكتاب والأديان أن الله وحده هو رب العالمين وهو وحده الذي يمكن أن يهدي الناس وتبينوا أن فرض الوصاية على الفكر وعلى العلم وعلى الدين هو الكفر وهو الشرك ولذلك حرص القرآن كل الحرص أن يرفض سلطان رجل الجاه وسلطان الآباء وسلطان الأجداد وسلطان أهل الملة بل أوقف سلطان الأنبياء وسلطان الرسل بعد رسالة محمد ﷺ وأصبح القرآن وحده هو الموجود في الساحة كلها لنتبين عظمة الحقوق الإنسانية في القرآن ولنتبين معنى رب العالمين وهداية الفطرة.

---

(١) سورة النساء: الآية ١١٣.

٧ ـ كل معرفة وردت في الكتاب السماوي وما أوتي النبيون والمرسلون والربانيون ألحقه القرآن بالربوبية لنتبين معنى ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ ليعرف الناس أن منابع المعرفة كلها إنما كانت من الفطرة التي يتمتع بها كل إنسان وما كان بين يدي هؤلاء إنما كان لأنهم أخلصوا أنفسهم لهذا الرب الذي يشمل كل واحد منا برعايته لو كان التوجه إليه وحده ولهذا يقول القرآن إن المهتدين حقاً هم أولئك الذين آمنوا بربهم عندما جاءهم ذكره وتاريخه مع الأنبياء والرسل وهو ما يكشف لنا أن مسألة القدرات الروحية للإنسان هي أصالة كل معرفة وتاريخها مع زكريا ويحيى وغيرهم تاريخ حافل بالمعجزات والمدهشات والأفضال أيضاً.

قلب الكهنة أمر الهداية وحسبوا أن اسألوا أهل الذكر معناه الوصاية وأنهم هم العلماء وباقي الناس جهلة وما كان الأمر كذلك لدى القرآن إذ أن أهل الذكر هم بعينهم الربوبيون الذين خاضوا التجربة الربانية فإن سأل الناس فليسألوا محمداً ﷺ وليسألوا زكريا وليسألوا مريم وليسألوا عيسى وموسى وبالقطع لا يسألون أهل السلفية والتقليدية والكاهن.

٨ ـ لقد نزل نسق «كهيعص» من قبيل الذكر ﴿**ذكر رحمة ربك عبده زكريا**﴾ ولذلك قدم القرآن ذكر الروحية والربوبية في تجربة زكريا فإنه يقدم ذكر تجربة مريم العجيبة مع ربها وقدرتها الروحية ولذلك يشرح القرآن كيف أرسل رب مريم في حلم يقظة هذا الملاك الطاهر ليهب لها ولداً يكون منه قرة عينها حيث حرمت نفسها من الاتصال بالناس محبة في الله وما خاب رجاؤها لكن القرآن وهو يقدم تلك المعجزة إنما يجعل منها آية للناس على قدرة الروحية وما يمكن أن تقدمه للإنسان حتى تجعله في غنى عن أخص العلاقات الضرورية بل إن الروحية تستطيع أن تحطم الناموس والسنة الطبيعية للأجساد وتخضعها لإرادة الإنسان حتى يقول القرآن إن أمثال تلك الحوادث في الروحية هي أمر هين وقد خلق الله

الإنسان ولم يك شيئاً بل كان حفنة من تراب لنتبين أن دعوة الروحية هي نفسها دعوة الابداع والقدرات والإرادة الحديدية التي تحطم حتى السنن والنواميس لأنها هي نفسها روح الله الخالق.

هذا السر العظيم الذي يحدثنا القرآن به قد أدركته مريم بعين بصيرتها وهو في نفس الوقت معاناة التجربة ولن يفهم الناس هذا السر الكبير لأنهم لم يجربوا الربوبية ولا القدرات الروحية ولذلك أشار عليها ربها وهاديها أن لا تكلم الناس وأن تقول لهم إذا سألوها عن تلك المعجزة إنها صائمة لأن الجدل في هذا الأمر سيكون عقيماً ولن ينتهي إلى كشف هذا السر الغامض وهو ما كشف لنا أن التجربة الروحية لا يفهمها إلا صاحبها ولذلك كان القرآن عند الناس عجباً وعند محمدﷺ قدرة روحية من ربه مما جعل القرآن ينطق عيسى فيقول للناس إنه آية من آيات الرب الروحية ومولده بغير اتصال ذكري هو في حد ذاته شاهد لرب الإنسان وقدرته الخارقة والمسألة لا تتضح أبعادها إلا عند المأزق،والكائنات لا تتوقف حياتها ووجدنا النبات يحمل أعضاء التذكير والتأنيث ورب الكنغر جعل له الكيس يقوم بدور الحاضنة عندما تعذر استمرار الجنين في الرحم نظراً لطريقة القفز عند الجري إذ يتعرض للإجهاض بصورة دائمة ومؤكدة ومثل ذلك أشار القرآن إلى النخلة وجعلها آية لمريم إذ لا يعجز الرب أن يرسل الرياح لواقح ومثل ذلك ما يكون من نمو «البظر» عند بعض الأناث نمواً يكفل التلقيح الذاتي ومثل ذلك عندما وقف موسى وبنو اسرائيل أمام البحر والعدو من ورائهم إذ هداه ربه وضرب البحر بعصاه لينقذ الموقف وليكون من ذلك آية حيث لا يتخلى الرب عن الإنسان أبداً.

إن ذلك الروح في الكائنات هو الذي يلبي حاجاتها وهو الذي يهديها المعرفة ويهديها الطريق.

لكن القرآن وهو يقدم آية مريم وإنجابها لعيسى فإنه عرج على مسألة اختلاف أهل الكتاب في شأن ولادته إذ رمى اليهود مريم بالزنى واعتقد

النصارى في ألوهية عيسى والمسألة ليست كذلك إذ هي آية من آيات الربوبية ومثلها ما بين يدي محمدﷺ من آية القرآن ليتبين الناس أن الله هو رب محمدﷺ وهو أيضاً ربهم ولو شاء لجعل من أحدهم آية أخرى ﴿**مَا كَانَ لله أن يتَّخِذَ مِن وَلَد سُبْحَانَهُ إذَا قَضَى أمْراً فَإنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ * وَإنَّ اللّه رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**﴾(١).

٩ - ليس الأمر قاصراً على ما حدث مع زكريا وإنجابه ليحيى وما حدث لمريم وإنجابها لعيسى وإنما حدث مثل ذلك مع ابراهيم عندما اعتزل أباه وقومه فكان نتيجة هذا الإستقلال أنه أمكنه إنجاب اسماعيل واسحاق ويعقوب وجعل في بيته وذريته النبوة لنتبين معنى الصدق مع النفس ومعنى أن يعتمد الإنسان على ربه وهو وحده الذي يكفيه مثلما كان كافياً لزكريا ولمريم ولابراهيم أيضاً.

لكن تجربة موسى مع ربه كانت تتميز بالإخلاص إذا واجه فيما قابله من الصعاب طغيان الفرعونية ثم ضلال وجهل بني إسرائيل حتى أظفره الله عليهما معاً وكان نتيجة ذلك أن الله كلمه تكليماً وأفاض على قلبه التوراة وهي أول الكتب السماوية في التاريخ كله وجعل هارون أخاه نبياً ووزيراً له ليتمكن من إنجاز ما أرسل من أجله لنتبين ما أنعم الله على هؤلاء الربوبيين من بني الإنسان ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إبْرَاهِيمَ وَإسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا**﴾(٢).

لذلك كله فليس غريباً أن يعتقد محمدﷺ في الرحمن وأن يصطبر لعبادته وأن يثق في أنه سيبعثه حياً ﴿**وَيَقُولُ الإنْسَانُ أَئِذَا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُبْعَثُ**

(١) سورة مريم: الآيتان ٣٥ - ٣٦.
(٢) سورة مريم: الآية ٥٨.

حَـيًّـا * أَوَلَا يَذْكُـرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾[1]. لذلك كان هذا الصدام بين القرآن ومن يعتقدون في المادية إذ أن الروحية هي التي يتوقف عليها المصير الإنساني عند ربـه وهو لم يخلقـه في تلك الحياة الـدنيا وهـذا العـالم المادي ليتعـرف على ذاته وأنهـا ذات خالقـة قد تكفلت بشـراء الحيـاة الطبيعية من حوله وهي نفسها ستحييه مرة أخرى بعد الموت ليعرف من ربه أنه كان بعين ورعايـة قوة لا تقف عنـد مأزق ولا تتـوقف أمام مشكلة وإنمـا يغفل الجهلة عن تلك الروح لأنهم لم يكتشفوا من أنفسهم أمر تلك القوة ولا أسرار تلك الروح كما اكتشف محمدﷺ وهو يدعو الناس إلى الإيمان الذي نهل من منابعه.

إن أشد العداوة ما كان مبنياً على الجهل ولذلك يقـول القرآن إن أهـل الكتاب اتخذوا للرحمن ولداً من عيسى وعزيز وأصبحوا بتلك العقيدة المادية ألد أعداء الإيمان لأنه لا يفيد الإنسان أن يتخذ من إنسان آخر رباً وإلهاً حيث جعل الله كل الناس متمتعين بالفطرة وكيف يبحث الإنسان عن إلهه وربه وهـو بين جوانحه وفي قلبه وروحه إلا أن يكون ذلك غفلة عن الطاقات الروحية في النفس التي لم يخلق الله ما خلق من أجلها ورعايتها حتى صارت عقلاً مبدعاً من أصلهـا السماوي التي نـزلت منه لكن المشكلة في المـادية التي تكتسـح الإيمان وتكتسح الدين وتكتسح ثقة الناس في ربهم حتى جعلتهم يتخذون من الأصنام والحجارة أرباباً وآلهة ولو لم تكن المادية والرأسمالية المحمومة بتلك السطوة مـا جعلت في أوراق النقد تلك القوة التي يقف أمامها الإنسان خاشعاً خاضعاً ذليلاً لا حول له ولا قوة وما هو الفرق بين شتى ألوان المادية المعاصرة وما مرت به التجربة في التاريخ؟.

لذلك كان بحث الإنسان عن مصـدر القوة كمـا ظنها في التـوتم أو في الصنم أو في الوثن أو في الحجر أو في الآباء أو في السلفية والأجـداد أو في

(١) سورة مريم: الآيتان ٦٦ ـ ٦٧.

المال أو في الجاه أو السلطان أو الطغيان ولكنهـا في الحقيقة لم تكن في أي منها بل كانت القوة والطاقة في روح الإنسان نفسه وهي الروح التي نفخت في مريم تلك النفخة المباركة المدوية وهي نفسها الروح الذي نزل به القرآن حتى ليقول ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْـكَ رُوحاً مِن أَمْـرِنَا مَـا كُنتَ تَدْرِي مَـا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهـدي بِـهِ مَن نَشَـاءُ مِن عِبَـادِنَا وَإِنَّـكَ لَتَهْدِي إِلَى صِـرَاط مُسْتَقِـيمٍ * صِـرَاطِ اللهِ الَّذِي لَه مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأمُـورُ﴾[1].

(١) سورة الشورى: الآيتان ٥٢ و٥٣.

الباب العاشر

أسماء الله الحسنى

الفصل الأول

التعريف بـ «الرحمن الرحيم»

سنتناول بالبحث التعريف بالرحمن الرحيم كنموذج في الدراسات لبيان علاقات ذلك التعريف بالتاريخ والمعرفة والعقائد وما يمكن أن يقدمه ذلك التعريف للعقل الإنساني في استكشاف السنن والنواميس التي تجري عليها حياة الناس.

«الرحمن الرحيم»:

نزل القرآن بلسان العرب ورغم ذلك لم يفهم العرب الكثير من مراد المعنى القرآني بسبب هذا الفقه الذي كان يعلو على أفهامهم لاحتوائه على الكثير من القضايا الفلسفية من جهة الوجود والطبيعة والأخلاق حيث لم يكن للعرب حضارة علمية أو ثقافية إذ كانت اللغة لا تخدم من الجوانب الثقافية لديهم سوى الشعر وهو لا ينتمي إلى الثقافة العلمية ولذلك نزلت سورة «الشعراء» تندد بتلك الثقافة التقليدية التي ورثها العرب عن الأجداد ونزلت أيضاً سورة «القصص» للتنديد بالثقافة الدينية وقتذاك عند أهل الملة وأهل الكتاب لأنها من وجهة نظر القرآن ثقافة لا علمية وتنتمي إلى الأساطير

والخرافات وهو ما جعل القرآن يقدم للناس بدلاً من القصص فلسفة القصص وهي ثقافة الطور الفكري لتلك الثقافة كما هو الحال في فلسفة العلم التي تعلو بمكانتها فوق كل العلوم.

كان ذلك هو الوضع الثقافي عند نزول القرآن حتى برزت الهوة بين مفهوم القرآن وفقه الوحي وبين العرب وما لديهم ووضح هذا الأمر عندما نزل اسم الرحمن في الآيات فقالت العرب «وما الرحمن» متسائلين عن المعنى الذي لم يقع في أذهانهم:

﴿قَالُوا وَمَا الرحْمـٰن أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾[1].

لكن القرآن أخذ نفسه بالبيان والتفصيل حتى يمكن للناس فهمه فنزلت سورة «الرحمن» لتجيب على تساؤلاتهم.

ثم نزلت «الرحمن الرحيم» في البسملة ليكون منها البشارة في كل سورة حيث ستقدم تلك السور كمالات المعرفة في كل منحى من مناحي الحياة وكأن القرآن بالبسملة يقول لنا إن ما سينزل في تلك السورة أو الأخرى هو من عند الله الرحمن الرحيم. وكأن ما نزل رحمة مهداة من الله إلى البشر. إلا سورة «براءة» لأنها خلت من رحمة الله بالكافرين وغيرهم ولذلك فهي السورة الوحيدة في القرآن التي لا تخص المؤمنين.

قد يشارك الناس في معنى الرب كما في العليم أو الحكيم وغيره وقد يشارك الرسل والأنبياء في معنى الله لدى كل نبي أو رسول بخصيصته لكن الله والرب عند محمد ﷺ لم يشاركه فيه أحد من قبل أبداً لأن الله والرب عنده ليس له من معنى إلا «الرحمن» ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِين﴾[2] ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُو عَلَيْهِم الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرَّحْمَن قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[3].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٦٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

(٣) سورة الرعد: الآية ٣٠.

وكأن القرآن نزل إلى العرب ليتحقق في التاريخ اسم الله لم يكن معروفاً من قبل وأن تلك الأمة ستكون شاهدة على هذا الميلاد الرباني.

عجيبة نكتشفها في القرآن إذ لم ينظر الوحي القرآني إلى الكون كله إلا من خلال عين الرحمة حتى يدرك أن رحمة الرحمن قد وسعت كل شيء ﴿ورَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْء﴾ ولذلك وجدناه يستقرئها في تسخير الشمس والقمر والبحار والأنهار وكافة النعم من حوله.

يقول القرآن لقريش وهو يريد أن يعرفها إلى تبني المنهج القرآني لماذا لا تنظرون إلى الوجود من زاوية الرحمة التي تغيب عن عقولكم وأفكاركم؟ ولذلك راح القرآن في سورة «الرحمن» يعدد ألوان الرحمة ويفصل أشكال النعم حتى يتبين لهم أن الرحمن حق وأن هناك غاية للرحمة في كل خلق وهو منهج الخالق نفسه.

من العمى أن ينظر الإنسان إلى الكون بعين لا ترى إلا الخراب والدمار لكن هذا اليتيم الأمي البدوي أعطى للبشرية كلها حكمة لا تطولها حكمة إذ لم ينظر إلى الكون كله إلا بعين واحدة هي عين الرحمن لنتبين أن ما يريده المجتمع العالمي اليوم من السلام والمحبة وغيرها قد كان ذلك ماثلاً أمام عين وبصيرة محمد ﷺ ولذلك قال القرآن الرحمن الرحيم هو نفسه رب العالمين وليس رب محمد ﷺ وحده ليشمل الانسانية كلها وليضع في قلب كل إنسان تلك اللبنة التي جاءت مع اسم «الرحمن» التي نفرت منه قريش لجهلها وكبريائها.

يقول القرآن لماذا يكفرون بالرحمن وقد فعل كذا وكذا فيما ورد من الآيات في سورة «الرحمن» وهو يقرأ صفحة الكون والوجود فلا يبرز من ذلك كله إلا صورة «الرحمن» مشرقة بالأنوار والبركة والأفضال، والمشكلة حقاً أن عقولهم كليلة وأفهامهم سقيمة وهم يعيشون بين أحضان الكون والطبيعة وهم غافلون عن معاني الآيات ومغزاها حتى يقول في غير موضع **﴿لعلكم تعقلون﴾**

أو ﴿لعلكم تفقهون﴾ إلى غير ذلك من وصمة الجهل وبلادة الإدراك.

عقاب المذنبين لم يتم في القرآن إلا من نفس عين الرحمة والمصيبة الكبرى في الموت وما يظن أنه الهلاك قد كان من رحمة الله أيضاً.

لكن «الرحمن الرحيم» في فاتحة القرآن قد حقق للانسان أعظم ما يتمناه ويفتقده في كل الحضارات وفي كل العصور إذ جعل للناس يوم الدينونة وإقامة العدل الذي افتقدوه في حياتهم الأرضية وهذا هو الانجاز الذي ما بعده إنجاز بل هو انجاز يرحم الله به من قتل مظلوماً ومن سلب ما له منهوباً ومن ومن ومن ليذهل العقل كيف يحقق الرحمن هذا الانجاز المستحيل.

تخيل لو أن الناس ذهبت بما كسبت وليس هناك حساب؟ تخيل ظلم الظالمين واعتداءات المجرمين والفوضى والعبث؟ تخيل الحياة دون نظام ولا سنة؟ لذلك فالرحمن قد وضع السنن والنواميس ووضع الميزان ووضع كل شيء بمقدار وخلق كل شيء بغريزة ولم يترك شيئاً ولا منفذاً للطغيان حتى لتأكل خملة القرش الضعيفة من هذا الوحش وهو لا يستطيع لها دفعاً؟

لو نظرنا في كل الموازين الفلكية والطبيعية والنفسية والعقلية لتبين لنا أن يوم الدينونة والحساب حقيقة واقعة لأن السنن لا تتوقف ولماذا تتوقف بعد جريان ويمضي الطاغية دون عقاب؟

هذا اليوم المشهود قد جعله القرآن من فاتحة الكتاب في التعريف «بالرحمن الرحيم» ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود.

ويقول القرآن فيما أعد الله للمعاقبين أن في هذا اليوم يخصص أبراج لكل طائفة من المجرمين والعصاة ثم يشهد الذين عذبوا عقاب الله لهؤلاء المجرمين ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوج * وَاليَوْمِ المَوعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ * إذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٍ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالمُؤْمِنِينَ شُهُود * وَمَا نقمُوا مِنْهُمْ إلاّ أَنْ

يُؤْمِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيد * الَّـذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شهِيدٌ﴾[1].

وكم في القرآن من آية عذاب وكم في القرآن من آية ثواب لنتبين لماذا جعل القرآن فضل يوم الدينونة إلى الشخصية الالهية «الرحمن الرحيم» وأنها الشخصية تبهج المؤمنين بنفحاتها وتكوي وجوه المجرمين بلواقح لهيب نار يوم القيامة.

لم يفهم أهل الكتاب معنى الرب كما فهمه القرآن إذ جعل اليهود من ربهم «يهوه» رب العنصرية وشعب الله المختار فطغوا على الانسان بعقيدة محرفة وفعل النصارى مثلما فعلوا والقرآن يقول في الفاتحة إن الله غضب على اليهود وأن النصارى ضلوا أيضاً ليبين أن العقيدة الاسلامية كلها قد بنيت على الخوف من الله والاحتراز له وأن قمة التقوى في الأمة هي الخوف من الله لأنه منجي المسلمين من أهوال يوم الدين الذي يحدثنا عنه وبذلك حقق «الرحمن الرحيم» للذين أسلموا نجاتهم وفوزهم.

لذلك كان الايمان بيوم الدينونة في القرآن قرين كل عقيدة ونشر القرآن من شتى ألوان العذاب الذي أعده للعصاة حتى قال إن ذلك اليوم فيه من الهول ما يجعل الولدان شيبا وهو يقول في القرآن المنذر **﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَـٰذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾**[2] لنتبين أهمية ورود يوم الدين في فاتحة الكتاب وكأنه يقول إن ذلك هو المبدأ الأول لكل إيمان.

لكن القيم السائدة الآن في الأمة لما لها من طابع المادية الرأسمالية اللعينة لا تمت بصلة إلى قيم «الرحمن» أبداً ولو تبصرنا في ما ورد في سورة «طه» وهي السورة التي أوضحت للناس معنى أن يكون الله طاهراً ومعنى أن يكون هادياً فإن القرآن يقول لمحمد ﷺ وقد عانى ماعاناه من جراء نزول الوحي عليه

---

(١) سورة البروج: الآيات ١ ـ ٩. (٢) سورة الحشر: الآية ٢١.

حتى اقترب أن يشقى به يقول ـ ﴿طـه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآن لِتَشْقَى * إلاَّ تَذْكرة لِمَنْ يَخْشَى *، تَنْزِيلاً مِمّنْ خَلَقَ الأرْضَ وَالسَّمَوات العلى * الرَّحْمٰن عَلى العَرْشِ اسْتَوَى﴾[1] إذ ليس هناك صفة لله جلس بها على عرش الحياة كلها إلا الرحمة فكيف يشقى بالوحي والقرآن؟

وهذا هو الذي يوضح لنا لماذا كانت البسملة بالرحمن الرحيم ولم تكن مثلاً بالعزيز الحكيم أو حتى الغفور الرحيم لأن البسملة جعلت من الله سبحانه وتعالى رحمة خالصة في كل عصر وفي كل مكان حتى لو نظر الرائي إلى الغابة المحترقة هاله الدمار ولن تنقضي أعوام حتى تنمو مكان الغابة جنات وجنات ومثل ذلك ما هال عزير عندما نظر إلى أورشليم وقد دمرت تماماً حتى قال ﴿أنّى يُحْيِي هذه الله بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ حتى علم أن الله لن يلبث بالمدينة المدمرة حتى يحييها مرة أخرى ومثل ذلك ما حدث للعالم في الحرب العالمية الثانية وإلقاء القنابل الذرية على اليابان وها هي اليابان أغنى بلد في العالم لنتبين أن ظاهر الأحوال القسوة والشرور وباطنها مفعوم بالرحمة والخيرية.

﴿الرّحْمٰن عَلى العَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿الرّحْمٰن فَاسْأل بِهِ خبِيرا﴾ هذه هي الخبرة التي تتجلى في كل خلق بحيث لو رأينا الأحوال تقسو بالكائنات وقع لنا الظن بهلاك الحياة والحقيقة بخلاف ذلك، البطريق القطبي يحتضن بيضته الوحيدة في مهب العواصف الثلجية لمدد تصل إلى ثلاثة أشهر ورغم ذلك الهول تفقس البيضة وينمو الفرخ وتترعرع الحياة والضفادع في الصحراء عندما تبدأ البرك في الجفاف فإنها تغوص في عمق التربة وتتنفس بالخياشيم من الطين المشبع بالماء لتستمر على ذلك ستة أشهر ثم تخرج مرة أخرى لنتبين معنى ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ وهذه هي الرحمة التي أنعم الله بها على كل خلقه.

---

(١) سورة طه: الآيات ١ ـ ٥.

﴿الرَّحْمٰن فاسْأل بِهِ خبِيرا﴾ لن يعجز الله أمام كل العقبات التي تقف أمام الحياة وهو يدعاها بطريق عجيبة وغريبة والتوازن البيئي لو قرأنا سنته الطبيعية لتبينَّ لنا أن الرحمة التي يدعو القرآن لها سند كوني وأن كل شيء قد تمتع برحمة الله وعناية الرب بل وهدايته وفي كل دراسة للكائنات وصراعها مع البيئة نتبين من غرائب الأسلحة وغرائب الوسائل ما يدهش العقول ويخلب الألباب وسمكة الشراع لها منقار طويل يساعدها في زيادة السرعة والتقاط الذبذبات في الماء والمشكلة عندما تريد أن تتوقف فجأة فخلق لها الرحمن فرملة طبيعية غاية في العجب إذ جعل زعنفة الظهر كالشراع لزيادة الاحتكاك بالماء ثم الوقوف عند الحاجة والأمثلة لا تحصى والتطور عند دارون ولا مارك وغيرهم يكشف عن معنى ﴿الرَّحْمٰن فَاسْأل بِهِ خَبِيرا﴾.

كل ذلك لندرك المنهج وأن هذا المنهج الذي نفرضه لا بد له أن يحقق مبدأ الرحمة أم المبادئ جميعاً فلو تبين أن المنهج يشوبه شوائب الطغيان أو الظلم كان هذا المنهج فاسداً.

المتألم يجد له الرحمن مخرجاً من ألمه وتشبع الجهاز العصبي يفقده الحساسية ولولا ذلك لأصبح كل ألم مميتاً قاتلاً وعندما تعقدت أمور الدعوة أوضح الوحي لمحمد ﷺ من قصة موسى أن الرحمن خبير بتلك الحالات إذ جعل من قلب مجلس فرعون نفسه من يقوم ويدفع ويناصر موسى وإيمان السحرة بموسى كان قمة ما قام به الرحمن من معجزة فلماذا اليأس والقنوط؟

﴿الرَّحْمٰن فَاسْأل بِهِ خَبِيرا﴾ في الأعماق السحيقة حيث الظلام الدامس لا يمكن أن تصل الأنثى من سمك الأعماق إلى الذكر بسهولة فماذا يفعل «الرحمن» في تلك المشكلة؟ لقد خلق ذكر هذا النوع من السمك عبارة عن دودة صغيرة ملتصقة بالأنثى بصورة دائمة ليتم التلقيح في الوقت والمكان المناسب وعندما يفقد نوع من السمك كل الذكور تتحول أكبر الاناث حجماً إلى ذكر يقوم بتلقيح البيض لنتبين عظمة وبلاغة حجة موسى أمام سؤال فرعون

عن ربه هو وهارون إذ قال لـه ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ وليكون من ذلك تحقيقاً للآية ﴿حَتّى وَسَعْت كُلّ شَيْء عِلْماً﴾.

إن المشكلة أن أهل الرواية ليس لديهم علم بما يجب أن يقوم به أهل الدراية وما خلق الله من الآية والسنن وما احتوته طبيعة الأفلاك والكائنات لهو خير منتج للمنهج ولكن ماذا يفيـد الصياح في قـوم أصمهم الجهل والسلفيـة التقليدية؟

تبحث الأمة عن المنهج وهي غافلة غايته لاهية ولماذا يقـرر القرآن تلك الصفات وأسماء الله الحسنى؟ ولماذا استحق محمد ﷺ أن يكون رسولاً اللهم إلا من خلال تقديمه الآيات والسنن «يس» وقراءة وجه الفلك ووجـه الطبيعـة النباتية والحيوانية ليقدم للناس المنهج والسبيل القصدي؟ لماذا كانت غرائب الطبيعة مهمة للمنهج؟

تبين الدراسات أن التوازن الطبيعي والبيئي هو السر خلف كل نمو وثراء فإذا كانت المجتمعات البشرية تريد الاستقرار والتطور والحضارة فـلا بد لهـا من المبادئ والمنهج الذي يكفل لها هذا الأمر وبكل الأسف فإن الأمة ليس لها هذا المنهج. في حرباء الشجر التـي تسيطر ببطء شديد فإن الرحمن قد زودها بلسان طويل لاصق ما إن تكون على بعد مناسب حتى تطلقه في اتجاه الحشرة وبذلك ضمن الرحمن لها حق الحيـاة ولا يعجز الله أن يجـد الوسيلة للفقـراء والمطحونين أيضاً.

لكن أجل ما يثير فكر الإنسان في «الرحمن» هو ما تحدث به القرآن في سورة «البقرة» عندما أثار المشكلة اليهوديـة والعنصريـة وشعب الله المختار إذ أوضح القرآن أنه لا يؤمن الانسان بالرحمن حتى ترتفـع عن كـاهل الانسـانية طواغيت الألوهية ويصبح الرحمن وحده هو الإله الوحيد للعالم وبذلـك حقق القرآن في هذا الموضع المساواة والإخاء والعالمية وأوضح لأهل الملة وأهـل الكتاب والعنصريين والطبقيين وكل الطغاة جميعاً أن الرحمن سيقف لطغيانهم

وأنه هو نفسه الذي سيمكن للمسكين من المسلمين وغير المسلمين المؤمنين به من رقابهم ودليل صدق القرآن والرحمن ما حققه الانسان في روح العصر من تلك القيم التي بشر بها ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[1] - ثم يدلل القرآن على ذلك فيقول - ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأرض لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2] - لنتبين معنى التوحيد في شخصية «الرحمن الرحيم»، وأنه هو الاله الوحيد الذي اتصف بكل تلك الرحمة وما يعبده الناس من آلهة العنصريين والطبقيين والرأسماليين ليس له عند الله حجة أو مبدأ.

الرحمن وحده هو الاله الوحيد وهو لا يعني في المنهج إلا رحمة الناس على الكافة فهل فهم المسلمون ذلك؟!

الرحمن يصرف الرياح وينزل الأمطار ويقلب الليل والنهار ويقوم بهذا الجهد لينعم الناس ثم يقوم الرأسماليون والطبقيون والطغاة بالحجر على كل ذلك ليتعذب الانسان؟!

هذا الجرم الذي لا يتحمله إلا الكافرون هو ما يكشفه القرآن أمام مشكلة أهل الكتاب وتحولهم إلى المادية وطغيانها بالرأسمالية وملاعين اليهود في ألمانيا وفي كل مكان طوقوا الشعوب بالحديد والنار وسلطان المال؟

إن مسألة خلق الند ناقشها القرآن فبين أنها كبيرة الجرائم كلها «ومن الناس» أهل الكتاب واليهود والماديين ﴿مَنْ يَتَّخِذ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً للهِ وَلَو يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَونَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ للهِ جمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ العَذَابِ﴾[3] - لذلك هلكت القيصرية وهلكت

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٣.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٤.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٦٥

اليهودية في ألمانيا وهلكت الاستعمارية في بريطانيا وفرنسا وها هي اليوم تهلك في أمريكا بماديتها اللعينة.

إن القوة الحقيقة والثراء إنما يوجد في عنصر ومبدأ الرحمة والرحمن هو الوحيد الاله الحق للانسانية وهي لا بد أن تدرك من الآيات التي خلقها الرحمن قصد الرحمة ومبدأ الرعاية.

إن جميع ألوان القوة إنما هي بيد الله الرحمن الرحيم ولكن لماذا لا يفهم الناس هذا الأمر فيطلبون القوة والسلطان والطغيان؟

تلك هي المشكلة التي يناقشها القرآن في سورة «البقرة» متمثلة في أهل الملة وأهل الكتاب وشعب الله المختار وعنصريتهم وطغيانهم حتى يقدم القرآن في إطار شخصية «الرحمن الرحيم» شخصية أخرى لها من الجلال ما لها وهي شخصية «الحي القيوم».

يا له من خبير؟ يا له من حي مهيمن على الحضارات والتاريخ والأكوان والطبيعة ويا له من قيوم على كل نفس وكل ذرة وكل حشرة وكل ذبابة حتى يقرّر القرآن في ذلك أن الذباب يأكل من غذاء الناس رغم أنفهم فهل استنقذوه منه؟ فالكل ضعيف وليس له قوة من ذاته إنما القوة الحقة ما كانت من أجل الرحمة.

﴿وَعَنَت الـوُجُوه لِلْحَيّ القَيّوم وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظلْماً﴾ كم من أصحاب القوة هلكوا في التاريخ وعاد وثمود وجنود فرعون وهامان وجنود، انجلترا وألمانيا وجنود روما وفارس وكل قوة أريد بها الطغيان لتتبين معنى «الرحمن» وأنه هو نفسه روح الإله وروح التاريخ وأنه لا إله إلا هو ولا تاريخ إلا تاريخه فإن كان للانسان من بصيرة فلينظر إلى «الرحمن» من خلال «الحي القيوم».

في مرحلة القوميات حاولت أكثر من قومية أن تهيمن على التاريخ وتحوز

القوة والسلطان فعاد والفرعونيـة جندت الجنـد لفرض هـذا الأمر ورغم ذلـك ذهب سلطان عاد وثمود والفرعونية والقرآن عندما نرل كان العرب قومية ضعيفة أطلق عليهم اليهـود والكتابيـون الأميين ومعناهـا الجهلة والـلادينيـون وكـانت الأموال والقوة المادية بين أيدي أهل الكتاب والملة وتاريخ الشعب يملأ الآفاق فأوضح القرآن أن هذا السلطان بقوة «الحي القيوم» إلى زوال لأن الله هو الاله الوحيد المتصف بقوة الحياة وقوة القيوميَّة ومثل ذلك ما زالت به الأمبراطوريات الاستعمارية في العصر الحديث ومثل ذلك كل ند وكل قوة تظهر في التـاريخ لنتبين معنى عقيدة السلام الذي يفرضـه القرآن وكفـالته لكـل الأجناس وكـل الأمم.

كل قوة باغية طاغية تحاول أن تفرض نفسها على العالم قام بينها وبين «الحي القيوم» قتال وصراع وأهل الله الجند والجيوش وأغرق فرعون وهزم هتلر وانجلترا وفرنسا والفرس والرومان وغداً بإذن «الحي القيوم» تهزم أمريكا كمـا هزمت في فيتنام.

لا حضارة إلا للسلام ولا إله للناس إلا «الحي القيـوم» الذي لا تـأخذه سنة ولا نوم ـ **﴿الله لَا إِلَهَ إلاّ هُوَ الحَيّ القَيُّوم لَا تَأخُذُهُ سِنَة وَلَا نَوْم لَهُ مَا فِي السَمَواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاّ بِإذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ولَا يحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُـرْسِيُّهُ السَّمَـوات وَالأَرْض وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيم﴾**[1] ـ لذلك لا يعجـز الله أمام كل قوة وأمام كل هيمنة وهو الذي يفرض حركة التاريخ والمعرفة وهو وحده له الولاية الحقة وهو وحـده الذي يعلم أسـرار الحركـات المشبوهـة التي تنادي بالديمقراطية وهي تعمل من أجل الطغيان.

إن «الحي القيوم» هو الذي أرسل محمداً ﷺ ليكشف للناس طغيان أهل الكتاب والذين يعلنون للناس أنهم هم المتدينون بـالله والقيم وما هم كـذلك

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

مثلما تنادي أمريكا أنها بلد الديمقراطية وما هي كذلك ولذلك كان القرآن حريصاً في أن يضع المعايير ويقول لأهل الملة وأهل الأديان ومن يتشدقون اليوم بالانتساب للأديان أن الظالمين والفاسقين والمنافقين وشتى ألوان الطوائف المنحرفة عن القيم هم بعينهم وليس غيرهم الكافرون حقاً حتى إنهم يأتون تلك الأعمال ويمارسون الطغيان باسم الله وباسم الشعب المختار وباسم الدين وكل تلك القيم السامية براء منهم إن ظهر في أية أمة من الأمم الطبقية والعنصرية أو الرأسمالية أو المادية فليأذنوا بحرب من «الحي القيوم».

لكن القرآن يعلن على العالم المبدأ والقانون الدولي ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْد مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكفُرْ بالطَّاغُوتِ وَيُؤمِنْ بِالله فَقَد اسْتَمْسَكَ بِالعُروة الوُثقِى لا انْفِصَام لَهَا والله سمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وهكذا رفع «الحي القيوم» الدين وسلطانه عن رقاب الناس وجعل التوجه كله «للحي القيوم» الذي لا ظلم فيه لأحد ومن الآن وصاعداً لا تفرقة بين الناس بسبب الدين أو الملة أو العقيدة وإنما التفرقة الحقة هي في الايمان بالسلام والمساواة والاخاء بين الشعوب.

هذه اللفتة التاريخية بين العرب وقوميتهم المنحطة وقت ذلك بسبب أنهم أمة بلا دين وبين أهل الكتاب واليهود وغيرهم قد جعل القرآن يلغي كثيراً من الشعارات الدينية التي كانت تستغل ضد الناس مثل الشفاعة حيث كان أهل الكتاب والأحبار والرهبان يتاجرون بالدين وصكوك الغفران مشهورة والولاية التي كانوا يدعونها من دون الله والنبوة التي كانت لا تخلو فيهم من كل لون ولذلك كله حرر القرآن الناس منها فجعل الشفاعة لله ومن يرتضي وجعل الولاية لله وحده وجعل من محمد ﷺ خاتم الأنبياء حتى لا يتاجر أحد أو أمة أو قومية بالدين.

---

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

هذه الرسالة العالمية «للحي القيوم» كانت في سورة «البقرة» من أعظم ما قدم القرآن حيث وضع للعالم كله لأول مرة القوانين الدولية دون تمييز والأكثر من ذلك أن تلك القوانين الدولية التي وردت في العالمية في المشكلة اليهودية في «البقرة» والمشكلة المسيحية في «آل عمران» لم توضع إلا على معيار القيم وما يمكن أن يتحقق حتى انتهى إلى فتح الأبواب أمام كل أمة دون تمييز ـ ﴿وَلِكلٍّ وجهة هُوَ مُولِيهَا فَاستَبِقُوا الخَيْرَات أيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْت بِكُمُ الله جَمِيعاً إنَّ الله عَلَى كلِّ شَيْء قَدِيرٌ﴾[1] لذلك كانت حادثة تغيير القبلة هي التي فجرت المسألة العالمية واستغلال اليهود لتلك الحادثة واقحام الدين في وجه كل تقدم ولذلك جعل القرآن المحك بين الأمم هو ما يمكن أن تسبق به الأمة من أوجه الخير والتقدم وليس بما عندها من دين وعقيدة.

لم يكن محمد ﷺ من الكتابيين ولم يكن من أهل الملل أو أهل الكتاب فهل وقف ذلك أمامه حاجزاً بينه وبين تقديم العلم والمعرفة للناس؟

إن ما قام به القرآن ومحمد ﷺ قد وقع كظاهرة خارج الدين وسلطانه وخارج المتاجرة بالأديان بل بسلطان الخير وسلطان التقدم وسلطان السلام والانسانية.

في كل موقف يرمي به اليهود وأهل الملة وأهل الكتاب محمداً ﷺ وأتباعه بالكفر يرد القرآن فيقول إن من يعمل المظالم ومن يرتكب المتاجرة ومن يريد الطغيان ومن يكنز الأموال ومن يقترف المآثم باسم شعب الله المختار ومن يعتنق العنصرية ومن يعشق الطبقية هؤلاء هم الكافرون حقاً ولو أنهم في كثير من الأحيان يغفلون عن ذلك وربما كان سفهاً وجهلاً وغروراً.

وباسم الدين ارتكبت كل خماقة حتى قال أهل الملة وأهل الكتاب إن لهم الدار الآخرة خالصة من دون العالم؟

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٨.

يا له من افتراء ومثله نراه ونسمعه وأشد غرابة في الأمة؟

هلك اليهـود والنصارى إلا من خـلال تلك المسألـة التي كانت بـدايتها حادثة تغيير القبلة في سورة «البقرة» وحادثة وفد نجـران المسيحي فقد مهَّـدت للمسألة العالمية ومـا نزل من التسـامح الـديني ورفضه في هـذا الفكر قـد كان بسبب استغلال الدين والمتـاجرة بـه حتى رفع القـرآن الأديان البـاطلة وتوعّـد بسببها الأمم والممالك.

في مـواجهة المشكلة الـدينية قـدم القرآن «الحي القيـوم» وأوضـح أن المسـألة لم تعـد شعاراً دينيـاً يرفـع وإنما هـو سباق بين الأمم ـ **﴿فَـاستَبِقُـوا الخَيْـرات أَيْنَمَا تَكُـونُوا يَـأتِ بِكُم الله جَمِيعاً﴾** ـ ومثـل ذلك اقتـران الايمـان بالعمل ـ **﴿وَقُـل اعْمَلُوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُوله وَالمُؤمِنُـون﴾** ـ لنتبين أن السباق لم يعد بين الأديان وإنما السباق بين العمال المنتجين في كل أمة وليس هناك معنى للايمان في القرآن من غير العمل لأن أهل الكتاب واليهود اعتمدوا في دعـواهم وعنصريتهم على مـا يسبغه عليهم الايمـان فزيفـوا في العقـائـد الدينية.

في حـركة التـاريخ يتبـدى معنى المطلق وشخصيتـه فيمـا ورد من آيـة «الكـرسي» حيث نتبين أن «العلي العظيم» قـد أخرج للنـاس من ذاته «الحي القيوم» و«الرحمن الرحيم» الذي واجه أهل الملة وأهل الكتاب والأديان وقتئذ بما زيفوه من العقائد وما حرفوه من النصوص حتى قالوا للنـاس إن لهم الدار الآخرة خالصة من دون الأمم وأن شعب الله المختار وما اخترعـوه كان مـزيفاً على الله وعنصريتهم لم تقف عند حد مما نفهم منه أن محمداً ﷺ الذي أرسل في «الأميين» وهم الأمم الذين خارج أهل الملة والكتاب لم يكن نبياً ولا رسولاً دينياً بمعنى الأمية الدينية وإنما كان رسولاً للانسانية في مواجهة هذا الطغيان بل إن محمداً الأمي الذي لم يكن من الكتابيين هو أول إنسان عالمي وأول رسول للمساواة بين الأجناس والأمم لنعرف معنى كون الله علياً وكون الله عظيماً وكون

الله حيا وكون الله قيوماً فهو الإله الوحيد للناس من خلال «الرحمن الرحيم».

يخرج الله «الرحمن الرحيم» للناس من ذاته العلية العظيمة (الحي القيوم) الذي يقوم على رعاية الناس والعالم فنراه في سورة «البقرة» يتصدى لليهود من أهل الملة ونراه في سورة «آل عمران» يكشف زيف القصص الذي يجعل من عيسى ووالدته إلهين من دون الناس ويقول إن «آل عمران» هؤلاء كانوا أهل تقوى فظهرت فيهم تلك الظواهر الروحية من إنجاب زكريا وولادة مريم لعيسى من غير نكاح لنتبين أن «الرحمن الرحيم» أو «الحي القيوم» لا يغفلان عن مثل تلك الانحرافات وأن الله لكل فساد في الأرض بالمرصاد.

من عجائب القرآن أن نرى تسلسل الذات الإلهية في الأوجة العديدة فقد جاء «الحي القيوم» وجاء العلي العظيم وجاء العزيز الحكيم وغيرها منبثقة من الرحمن الرحيم فنجد في سورة «فصلت» يقول القرآن إن تنزيل «حم» وهي «حي مهيمن» قد كان من خلال «الرحمن الرحيم» - ﴿**حم، تنزيل من الرحمن الرحيم**﴾[1] - لأن العرب كان لهم موقف عجيب من القرآن إذ أن القرآن نزل باللغة العربية ونزل مفصلاً ونزلت به الأمثال ونزلت فيه الآيات البينات ولم يترك القرآن وسيلة للتوضيح حتى استعملها كي لا يكون لديهم حجة بعد ذلك ورغم هذا كله انصرفوا عن القرآن ومحمد ﷺ وكذلك يكشف «الحي المهيمن» سبب انصرافهم للناس ويعري موقفهم أمام العالم فيقول إن العرب قد فهموا القرآن جيداً وإنما المسألة أنهم جعلوا لله أنداداً من الطبقيين أمثال طبقة التجار أبي سفيان والأغنياء فيهم وهذا هو السر الذي يكشف «حم» «الحي المهيمن» ليتبين محمد ﷺ ومن معه أن المسألة لا تتعلق بالقرآن وإنما تتعلق بالأوضاع الطبقية والطغيان.

استخدم القرآن للتعبير عن الذات الالهية الأسماء الرمزية مثل «الم» وغيرها وشرحناها في الأجزاء الخمس الأولى من المعجم واستعمل الأسماء

(١) سورة فصلت: الآيتان ١ - ٢.

الشخصية التي وردت في المثاني مثل «الرحمن الرحيم وغيرها ثم استعمل أسماء الكفية مثل الرحمن ـ العزيز ـ الرحيم وأوردها مفردة في مواضع الاشارة والتقرير لنتبين أن القرآن جعل من الذات الالهية سداه ولحمته حتى صار كله معرفة وعقيدة لمحمد ﷺ تجاه ربه الأعلى لندرك قيمة هذا الانسان وما كشف من أسرار خلقه الكائن البشري.

في العلم يناقش القرآن من شخصية «الرحمن الرحيم» فيقول ليس محمد ﷺ هو الذي اكتشف في ربه تلك الشخصية وإنما اكتشفها من قبل سليمان الحكيم إذ أدرك سليمان أن «الرحمن الرحيم» قد جعل الطبيعة تبوح بأسرارها للانسان من خلال قراءته للظواهر ولذلك عمد سليمان إلى معرفة الأساليب الاجتماعية من خلال مراقبته لسلوك «النمل» وتبين أن الله يخرج خبء أسراء السماوات والأرض في سلوك الكائنات ويمكن للعقل أن يقرأ ذلك وأن يكون العلم بها بين يدي الانسان وهكذا استطاع سليمان تسخير الناس والرياح وسيطر ونظم مملكة عظيمة وأن تلك المملكة التي يحكي عنها التاريخ مدينة لوجودها إلى شخصية الذات الالهية «الرحمن الرحيم» ولذلك افتتح خطابه إلى بلقيس ملكة سبأ باسم «الرحمن الرحيم».

الفصل الثاني

من أسماء الله الحسنى «العزيز الحكيم»

﴿وَعَنَت الوُجُوهُ للْحَيّ القَيُّوم وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾[1].

قدم القرآن من الموضوعات الكثير مما يحسب في الايمان أو العقائد أو العلم أو الشرائع وغيرها لكن من أهم موضوعاته على الاطلاق هو موضوع الهيمنة الذي مارس القرآن من خلاله الهيمنة على التاريخ فقدم فلسفة القوميات عاد وثمود وفرعون وغيرها وقدم فلسفة الأمميات اليهودية والمسيحية وقدم فلسفة الأديان ومقارناتها وقدم مناهج العلم وأصوله وقدم الألوهية وعلاقتها بالألوهية وقدم الطبيعة الفلكية واستخدم آياتها في الاستشهاد وقدم النبات والحيوان والطبيعة الجغرافية واستخدم البرهان والاستقراء وكان ذلك كله من خلال الهيمنة ولا يمكن أن نتوصل إلى حقيقة مراد القرآن ومنهجه إلا من خلال النقد الذي ورد في موضوعات الهيمنة خاصة نقد أهل الملة والكتاب والأديان.

يقول القرآن في سورة «طه» وقد أوشك محمد ﷺ أن يشقى بالوحي كيف يخطر على بالك هذا الخاطر والحي القيوم يترصد كل كائن ويرصد عمل كل إنسان ويراقب كل قومية ولا يحدث في السماء حدث أو في الأرض إلا وهو

---

(١) سورة طه: الآية ١١١.

عليه شاهد حتى أن الوجوه كلها يصيبها العنت لمجرد رؤيته ومن يحمل الظلم هو الذي يخيب ويخسر أعماله وما عليك يا محمد ﷺ إلا أن تمضي في الرسالة وبذلك وضع القرآن «الحي القيوم» في مواجهة دائمة مع الناس لنتبين كيف يمضي الوحي بأسماء الله الحسنى فيكشف لمحمد ﷺ من جوانب الاشراق في تلك الأسماء العجب حتى يقول له في سورة «طه» أما كفاك أن يكون معك «الحي القيوم»؟

لكن القرآن يقدم بعض أسماء الله الحسنى التي قد تبدو لأول مرة كأنها تكرار للهيمنة مثل «الحي القيوم» التي تقابلها «العزيز» ومشتقاتها مثل «العزيز الحكيم» أو «العزيز الرحيم» أو «العزيز العليم» وغيرها.

لكننا لو درسنا ما ورد فيه «الحي القيوم» لوجدناه أنه يخص روح التاريخ من جهة الفكر والاعتقاد ولذلك كثر وروده في نقد أهل الكتاب والملة أما «العزيز» ومشتقاتها فقد وردت في تفاصيل الأحداث والوقائع وكأن القرآن يقول لنا إن الله يواجه القوميات والأمم بسمات «الحي القيوم» ثم يواجه الناس في معشرهم وأعمالهم بسمات مثل «العزيز الحكيم» إن كان الموضوع في الحكمة أو «العزيز العليم» إن كان الموضوع في العلم أو «العزيز الرحيم» إن كان الموضوع يمس الرحمة لنتبين كيف عايش القرآن الذات الالهية وجعل من الله سبحانه وتعالى وجوداً ديناميكياً في كل وجود فلا يوجد غير الله في الوجود على الحقيقة.

«العزيز الحكيم»:

في سورة «البقرة» وقد أخذ القرآن يشرح لمحمد ﷺ كيف تحقق حلم ابراهيم ودعوته أن يجعل الله من ذريته التي أسكنها بجوار بيته أمة يكون لها من عزة الله قدم القرآن تلك الشخصية التي برزت للوجود فبعث محمدًا ﷺ رغم أنف أهل الكتاب والملة الذين اعتقدوا أنه لا يبعث الله إلا فيهم ولا تظهر

الرسالات إلا بينهم فأراد «العزيز الحكيم» بحكمته البالغة أن يكون محمد ﷺ وهو الأمي الذي ينتسب إلى الأميين من خارج أهل الكتاب رسولاً ليس فقط إلى العرب وإنما إلى الناس جميعاً مدعوماً بكتاب سماوي هو أفضل من التوراة وأفضل من الانجيل بل إنه هو الكتاب المهيمن على كل الكتب السابقة وهكذا تحقق أن الله هو «العزيز الحكيم» الذي يدرك مصلحة الناس ومثل ذلك رأيناه في العصر إذ ما كاد الأمريكان يحصلون على أسرار الذرة ويلقون بالقنابل الذرية على هيروشيما حتى مكن «العزيز الحكيم» لروسيا من أسرار اختراع تلك القنابل وكان التوازن العالمي أيضاً.

لقد جعل الله من الأمة الاسلامية نداً لليهود والنصارى وهو «العزيز الحكيم» الذي يعرف أين يضع حكمته وعزته ومن يعتقد في الطغيان فإن «العزيز الحكيم» له بالمرصاد.

يقرِّر القرآن في الآية ٢٠٩ من سورة «البقرة» أيضاً أن البينات التي جاءت من عند الله «العزيز الحكيم» على يدي محمد ﷺ وما نزل في القرآن من العقائد المصححة لما أفسدوه وما حرفوه من النصوص هو كاف لتوبتهم فإذا لم يعتبروا فليتوقعوا عقاب الله لهم لتتبين أنه ما من أمة تخرج عن الصراط المستقيم الذي وضعه الله للناس في السلام والأمن والمساواة والاخاء الانساني إلا وكانت تلك الأمة عرضة لانتقام الله، وقد رأينا كيف فعل «العزيز الحكيم» بانجلترا وفرنسا وغرب أوروبا ثم سلط الحلفاء مرة أخرى على النازية ثم مكن لروسيا وقد كانت دولة من الدرجة الثالثة حتى ظهرت القوتان العالميتان ولولا هذا التوازن لظهر الفساد في البر والبحر ولأصبح الأمريكان جبابرة العصر لنتبين أن البينات التي نزلت في القرآن كشاهد للعزيز الحكيم هي حكمة بالغة لنتفهم كيف تعيش الأمم في رحاب الله والسلام والأمن.

لقد اعتقد اليهود والنصارى وقد كانوا مركز القوة في هذا الوقت أن سلطانهم وما لديهم من علوم الدين هي نهاية المطاف في هذا الأمر فنزل

القرآن على قلب محمد ﷺ ولم يكن من أهل الأديان ولم يكن له معرفة بعلوم الكتب السماوية لنتبين أن «العزيز الحكيم» غالب على أمره وقد يبعث من هو خارج أهل الأديان ليقدم القيم العليا من المساواة والرحمة والعدل الاجتماعي الذي تفتقده المجتمعات الدينية نفسها مثلما حدث مع اليهود والنصارى لما طغوا في الأرض.

إن «العزيز الحكيم» بالمرصاد لكل منحرف ولكل موقف وهو يكشف عورات الأمم وعورات أهل الملل والنحل ومزيفي الايمان والتاريخ وما محمد ﷺ إلاّ مثل حي لما يمكن أن يقوم به «العزيز الحكيم» وقد رأينا الملوك وعروشهم تهوى والأباطرة وتيجانهم تزوي وتذهب ورأينا الطغاة في كل بلد يؤخذون بجرائمهم وقد كانوا في اعتقاد واهم أنهم بمنأى من «العزيز الحكيم».

كيف نفهم من المناسبات التي وضعت فيها الأسماء الحسنى روح التاريخ والحضارة بل روح السلوك الانساني الراشد؟

عندما أثار القرآن سلطان اليهود بيَّن أن «الحي القيوم» يدافع عن الحياة والناس وعندما زيف أهل الملة والكتاب العلم قام «العزيز الحكيم» ليرسل ويوحي إلى محمد ﷺ بعلم أفضل وأبقى مما عندهم لنتبين جلال تلك الشخصيات الالهية وأن الأمة لم تفهم ولذلك فقدت صلتها بالمنهج.

يقول الدكتور زكي محمود كان بودي أن أجد من يبحث في أسرار الأسماء الحسنى في القرآن لأنه يعتقد أن تلك الأسماء هي مقومات السلوك بل هي العناصر الأساسية للتربية في القرآن كله.

لقد فهم محمد ﷺ من أسرار تلك الأسماء ما جعله صاحب الأخلاق العليا التي أشاذ بها القرآن نفسه إذ يقول ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ حتى قالت عائشة رضي الله عنها وقد سألوها «لقد كان خلقه القرآن».

«العزيز الحكيم» يتبدى في روح الرسل وروح الأنبياء ويقدم أعمالهم الهادية للناس بل يقدم للعالم التوراة في روح موسى والانجيل في روح عيسى والقرآن في روح محمد ﷺ وهو يتبدى أيضاً في روح التاريخ فيهلك القوميات ويمحق الأمم وينصر الضعفاء ضد الأقوياء ويقلب الموازين ويقيم المساواة ويحق الحق ويقضي بالعدل ولا يتوقف عند ذلك بل يتبدى في الظاهرة المادية أيضاً فلكية كانت أم نباتية والصراع بين الحيوانات في البيئة يظهر روح «العزيز الحكيم» لنراه في التوازن العجيب للبيئة لنتعلم من ذلك كله الحكمة والعلم والأخلاق وما علينا إلا قراءة الأحداث لنتبين أثره وأعماله العظيمة.

لننظر في أعمال «العزيز الحكيم» فسنرى عجباً إذ يتخذه الطغاة من الجند قوة تحميهم فينقض هؤلاء الجند على سادتهم فيشعلون نار الثورة ومثل ذلك كانت تربية موسى في بطن بيت الطاغية فرعون حتى شب عن الطوق فجعله الله له عدواً وحزناً ومقتلاً لنتبين أن حكمة «العزيز الحكيم» لا تقف عند حد بل أنها لتدهشنا كل الدهشة لغرابتها وصدقها.

﴿قُلْ اللّهُمّ مَالِكَ المُلْك تؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشاء وَتَنْزِعُ المُلْك مِمّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذّلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إنّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾[1].

﴿أَلَمْ تَعْلَم أنّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَوَات وَالأَرْض وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ الله مِنْ وَلِي وَلاَ نَصِير﴾[2].

لذلك كانت مشيئة الله العزيز الحكيم أن يكون ملك الله بين يدي العرب الأميين بعد أن كان مع أهل الملة وأهل الكتاب من اليهود وغيرهم ومثل ذلك ما أراد الله من قبل فمن على المستضعفين من بني إسرائيل ومثل ذلك الانقلابات والثورات وزوال الأمبراطوريات لنتبين حركة التاريخ والحضارة وأن العزيز الحكيم لم يجعل لقومية أو لأمة أو لحضارة السيادة الدائمة على العالم

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٦. (٢) سورة البقرة: الآية ١٠٧.

والأقـوياء يهلكـون والضعفاء والمهـزومون ينتصـرون والروم هـزمت في أدنى الأرض وهم من بعد هزيمتهم سيغلبون في بضع سنين وأن لله الأمـر من قبل ومن بعد لنتبين أن السلام في الأرض تفرضه الحـكمة الإلهية«العزيزالحكيم» الـذي قدم للناس الآية بعد الآية والتجربة بعـد التجربـة وقد كـان أهل الملة والأديان يفرحون ويتعالون بما لديهم من كتاب فنزل القرآن على قلب محمـد ﷺ الأمي من نفس أجناس كتبهم ففاق في مضمـار علومه ومعـارفه وهـا هو القـرآن اليوم الكتاب الخـالد الـوحيد من جنس تلك الكتب لنـدرك أن خزائن الله العلميـة والتاريخية لا ينضب معينها.

مـا إن تتسلط قـوة على العـالم حتى تكـون الـولايـة لله الحق فتتجلى صفـة «العـزيز الحكيم» وتعبـد التوازن وتنتصـر للمغلوبين ولذلـك يقرِّر القـرآن أن ولاية المؤمنين ليست للقوة وليست للسلطان ولا للطغيان وإنما هي لله «العزيـز الحكيم» ليلفت القـرآن النظر أنـه ما من أمـة تؤمن بالسـلام والإخاء العـالمي حتى تكون في جانب الله وهو نفسـه معهم لنتبين معنى الآيات التي وردت في الـولاية في مـواضع كثيرة من سورة «البقرة» وسورة» آل عمران» التي جادت أهـل الملة والكتاب وأهـل الأديان حتى لا يعتقدون في العنصرية والشعب المختار وهي ألد العقائد العنصرية والتعالي والطغيان.

﴿الله وَلِي الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ إذا بدأ القرآن بـالحريـة كمبـدأ فـإنـه جعـل لـلإنسـان فـطرة العـالم وفـطرة الفـاهم وفـطرة المدرك الواعي بالطبيعـة ولذلـك كان نـزول القرآن على شخص محمـد ﷺ الأمي الذي لم يكن لديه علم من الكتاب ولا علم من دين ولا دراية بالحكمة شاهد حق على تلك الفطرة وما حاجة الانسان إلى وصاية المعلم وقد خلقه ربه عـالمـاً وفـاخـر بـه المـلائكـة على تلك الصفـة لنتبين أن الأمم لا تصنـع الوصاية ولا تنهض إلا بأبنائها وقد كان يتندر الغرب المثقف المتقدم علمياً من دولة العمال الجهلة عند قيام دولة السوفييت وهـا هم أبناء العمـال والفلاحين

يديرون أعظم دولة معاصرة ولذلك كان لهم فخر العلم والـوعي الذي مكنهم من ارتيـاد الفضاء لأول مـرة في التاريـخ لنتبين معنى نزول القـرآن على قلب محمد ﷺ ومعنى تلك الآية الكبرى التي بنت أمة كان لها الفخار وقت قيامها.

في كـل موقف تعقـدت فيه الأمـور أمـام المؤمنـين يستنهض القـرآن هِمَم المؤمنين فيتساءل ما لكم تعجزون؟ ما لكم تجزعون؟ أليس الله بـولي الـذين آمنوا ثم يقـول لمحمد ﷺ في كـل مـأزق أن الفـطرة ستكفيـك الأمـر. لـذلـك فضـل محمـد ﷺ شرب اللبن على شـرب الخمـر لنتبين مـدى مـا يمكن أن يصـل إليـه الاعتمـاد على الذات والنفس والإيمـان برب الإنسـان الذي لن يخـذله أبـداً حتى يقـول القرآن في جـلال قدرة الـرب أهنـاك مشكلة أمـام الإنسـان أكبـر من مشكلة الموت؟ فإن رب الإنسان ضمن الانتصار عليهـا وسيبعث مرة أخـرى بين يدي رب كريـم لنتبين معنى المبدأ أو معنى الإيمان ومعنى الاستقلال ومعنى قيمة الذات التي في جناتها تلك الشخصيات الإلهية المعجزة.

﴿هنَالِكَ الوِلاَيَةُ لله الحقّ هو خَيْر ثَواباً وخيْرٌ عُقْباً﴾(١).

عند التحدي تتجلى الذات الالهية في الناس كما تتجلى في الظاهرات الطبيعية وما بين أيدينا من عجائب البحر والنهر والشجر والأفلاك وقد ظن اليهود وأهل الملة أن ما لديهم من الأساطير والخرافات هو الدين فسألوا محمداً ﷺ ما أخبر عنه القرآن في سورة «الكهف» وما كان جواب رب محمد ﷺ على تلك الأسئلة ما قدم له الخبر اليقين في تلك التسـاؤلات كأنـه يرى تلك الأحـداث شهـادة ﴿وَتَرَى الشَّمْس إذَا طَلَعَتْ﴾ لنتبين معنى الحضـور الالهي في فـطرة الانسان وأنها فطرة بما وهبت من نعمة العقل والتصور والإدراك تتجاوز حدود الزمان والمكان والدراسات الحفرية أخبرت عن وجود الديناصورات وصورت لنا الحقب التاريخية كأننا كنا نشهد تلك العصور شهادة بالرؤية والبصر لنفهم

---

(٢) سورة الكهف: الآية ٤٤.

أن الانسان لديه قدرة تتحدي كل شيء ولديه إمكانات فطرية ما زال العلم يقف عندها متأملاً متسائلاً وأغرب ما يمكن أن يكون وهو البعيد المنال حتى اليوم هي الدراسات الروحية الخاصة بكيفية عمل العقل الانساني وليس ما قدمه فرويد هو الكلمة الفاصلة إذ لم يخضع للتجربة إلا ما بدا منها وما خفي من تلك الطاقات الجليلة عظيم كثير لنتبين أن الأمة لم تفهم روح المنهج القرآني ولا استقلاليته.

في التجربة الروحية بالفطرة يتساءل أهل الملة والكافرون والمشركون من أين لمحمد ﷺ بهذا العلم الذي جاء في وحي القرآن؟ ويرد عليهم فيقول إن ما نزل على محمد ﷺ هو الشيء الطبيعي في الانسان الذي خلقه الله بيديه وجعل منه عالماً منذ خلقته ونشأته الأولى أما أنتم فقد غلبتكم شهوات الحيوان في المال والبنين والذهب والفضة وغيرها من متاع الحياة الدنيا وهي في الروحية شيء تافه لا قيمة له ولذلك لم تدخلوا التجربة كما دخلها محمد ﷺ مع ربه لنتبين أن من فسدت طبيعته لا يفهم من ربه شيئاً وهو معزول ومشغول بتلك المشاغل ولا يمكن أن يعرف القدرات الابداعية للانسان الفطري الذي أخرجه لنا «العزيز الحكيم» في شخص محمد ﷺ والذي جعل منه نداً للأحبار والرهبان وأهل الملة.

كم شخصية إلهية تبدت لله في روح التاريخ والأشخاص والرسل والأنبياء والعلماء والمخترعين والمبتكرين والمبدعين وما زالت؟ ولا يفهم تلك الذات المطلقة وطاقاتها إلا من دخل تلك التجربة الروحية العميقة كما دخلها محمد ﷺ حتى أن تلك الروح الخلاقة لم تترك له مجالاً في العلم إلا وأبدعت فيه حتى جاءته بخبر السماء والغيب وما سيحدث للناس يوم القيامة وكأن القرآن كشاهد على تلك التجربة يفتح لنا أبواباً لا تغلق وأفاقاً لا ترد وأملاً لا يتوقف ومن يعتقد أن الأمر رهين أي تجربة فإنه لم يعرف السر القرآني على حقيقته.

هل كان صلب المسيح إلا عملاً من أعمال الارهاب الديني والفكري؟

هل كان وقوف أهل الملة والكتاب والدين في وجه محمد ﷺ إلا امتداداً لتاريخ الاتجار بالأديان؟

يقول القرآن إن أهل الملة يشترون بالدين وهو المبدأ الخالص وجه الشيطان لأن الانسان منذ عرف المادية فإنه قد تاجر بكل شيء من أجل حيازة الأموال والسلطان ولن يتردد في استغلال الدين أيضاً.

لكن التجربة وانتصارها في القرآن تبقى في التاريخ كشاهد على إمكان انتصار الانسانية أمام كل طغيان وبفطرة الانسان ووعيه بنفسه يمكن اقتحام كل العقبات.

يوضح القرآن في فقه «العزيز الحكيم» أن تلك القدرة الالهية التي جعلت من هذا الرجل محمد ﷺ الأمي نبياً ورسولاً إلى العالمين وأوحت إليه بالقرآن رغم أنف أهل الأديان ورغم أنف كل طغيان تلك القدرة قد وضح منها القصد والانتصار لتلك الدعوة ولذلك كان القرآن حرباً على أهل الملة بالفكر والسيف حرباً على طغيان قريش بالقتال، ونصر الله للمؤمنين بتلك الدعوة قد جعل من قدرة «العزيز الحكيم» وجوداً لا ينكر وكما يقول الفيلسوف الألماني «كنت» إن هذا التبدي العملي في التاريخ والانسان هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة الذات الالهية المطلقة معرفة اعتبار ومعرفة حق ويقين ولهذا يقول القرآن لمحمد ﷺ عند النصر ﴿وَمَا قَتَلْتُمُوهُمْ وَلَكِن اللهَ قَتَلَهُمْ﴾ ليبين للناس أنه متى ما حان الوقت لاستواء مثل تلك القدرة .الإلهية انقلب التاريخ وانتصرت الدعوات واشتعلت الثورات وغلبت الفئة القليلة الجيوش الجرارة بإذن الله ولكن الجهلة لا يفهمون تلك السنن ولا هذا الناموس.

عندما أدرك «هود» الناموس وأنه بجانبه تحدى تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون وما كان معه من نصير إلا الله وحده لنتبين معنى تحدي

محمد ﷺ لأهل الملة وقومه حتى قال قولته التي راحت في التاريخ راية لكل داعية في الايمان «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى أهلك دونـه أو يظهـره الله» لذلـك يعدد القرآن مواقف نصر رب محمد ﷺ له في كل شدة ليوضح أن التحدي الحقيقي هو ما كان نابعاً من قلب الانسان وبقوته وبإخلاصـه وعقيدتـه من أجل الخيـر والاصلاح.

في الخيانة والغدر وإهدار القيم كانت الطائفة من بني الانسان والتي لا تعـلو بكيانها عن الحيوان تجهض الدعوات والمسيح لم يصلب إلا من الوشاية والعشـاء الأخير مشهـور وفعلة «يهوذا» راحت مثـلاً في هذا الغـدر حتى قـال يوليوس قيصر «حتى أنت يا بروتس» والقرآن نزل من لدن «حكيم خبير» و«عزيز حكيم» لذلك لا ينفع في مثل هؤلاء إلا القسوة والشدة وهو ما كان باعثاً لقطع يد السارق نكالاً ومثلاً لهؤلاء حتى قال «العزيز الحكيم» أنه سيعذب المرتدين بعذاب لا يعذب به أحد من العالمين لنتبين أن روح الشدة والقسوة التي نزلت في سورة «المائدة» مع ما يخالف ذلك في روح الرحمة التي نزلت في «البقرة» و«آل عمـران» مع المؤمنين لا ينـاقض المفاهيم عنـد تلك الشخصية الالهيـة الحكيمة إذ تأخذ الناس بحسب طبائعهم وهناك من الطبائع ما لا ينفع معه إلا تلك الشِّدة. وهذا التنكيل.

لم يفهم المستشرقون قسوة قطع يد السارق فيما ورد في مناسبة المسيح والحواريين في «المائـدة» لأن النامـوس يجري في الـدعوات بحكمـة واحدة وأمثـال «يهـوذا» لا يصلح لهم إلا التنكيـل وهـم يسـرقـون ويقتلون ويغشـون ويزيفون دون ما حس من ضمير أو إيمان.

لذلك كانت قدرة «العزيز الحكيم» في «المـائدة» وعيـداً بالانتقـام والتنكيل والقسـوة لتحقق للدعوات الجـو الآمن التي تعمـل من خـلالـه والغـدر الـذي راح ضحيته عيسى عليه السـلام لا يمكن أن ينكر روح محمـد ﷺ وهو بين يـدي تلك

القدرة الإلهية.

في كل سورة قـرآنية وردت فيهـا تلك القـدرة الالهيـة ستجد طـابعاً خاصاً فهي تتبدى في «البقرة» بروح العلم وهي في «آل عمران» بـروح الحق والقسط وهي في «المائدة» بروح الشدة والانتقام وفي «الأنعام» بـروح الوعي بالرب لأنهم كانوا يعتقدون في الله اعتقاداً مغلوطاً له أنصبة من الأنعام وهكذا في كل سورة تتبدى تلك الشخصية الصفة الإلهية بمعرفة جديدة وحكمة بالغة.

الفصل الثالث

ومن أسماء الله الحسنى «العزيز العليم»

في الحوادث التاريخية قد يتبدى «العزيز» بوجه الحكمة فيظهر للناس من ذلك (بالعزيز الحكيم) وقد يتبدى بوجه الرحمة فتبرز إلى الوجود صفة «العزيز الرحيم» وقد يكون الموقف يحتاج إلى منقذ فتظهر «العزيز الحميد» وسبحان من أشرقت لوجهه الظلمات وانزاحت عن قلوب الناس بفضله الخطوب والمحن.

لكننا في هذا الكتيب لا نقدم حصر أسماء الله الحسنى التي جاءت في القرآن لأنها كثيرة تشمل القرآن كله ومن ذا الذي يستطيع حصر الصفات الإلهية التي تبدت في تاريخ الإنسانية أو في تاريخ الطبيعة؟ في كل كائن فلكي كالكواكب والشموس وفي كل كائن نباتي أو حيواني أو إنساني تبدت تلك الصفات الإلهية بوجه ما له الجلال والإكرام لكن المشكلة ما يقع منها في عقول الناس وفي إدراكهم وقد رأينا أن الله تبدى في القرآن بكثير من الصفات هو في التوراة لم يتبد إلا بوجه واحد فقط قوام وجوده هو بعينه رب موسى أو رب عيسى أو رب إبراهيم ولكنه في حي وروع ووعي وإدراك القرآن رب العالمين لأنه رب جامع مانع قدم للناس حركة التاريخ منذ الأزل حتى الأبد ولم يترك شيئاً إلا وقدمه موضحاً ومفسراً ومفصلاً.

إذا نظرنا في الصفات «الإلهية» وجدنا أن أكثرها ورواً كانت صفة

«العزيز الحكيم» لـذلك نـزلت بها الآيـة والسورة والكتـاب القرآني لنتبين أن القرآن يجاري اعتبارات الانسان وليس معنى ذلك أن الشخصيات الأخرى أقل ثراء وإنما المسألة بحسب التطور والارتقاء فقد ظهر في العصر الذري شخصية «الحي التكنولوجي» أو شخصية «العزيز الأتومي» لأن الانسان قبل ذلك لم يكن يدري عن عالم الذرة شيئاً ولأن آية الذرة نفسها لم تتكشف أبعادها للعقل إلا في هذا العصر والتوراة والانجيل يخلوان من الأسماء الحسنى ويرد فقط اسم «الرب» لذلك يقول القرآن إن وظيفة الله أنه يخرج خبء السمـاوات والأرض وكأننا نستطيع أن نقول إنه أخرج لنا من التطبيق الاشتراكي الصـفـات الألهـية ولو كان الـرأسماليـون يمارسـون الإنفاق لتبـدت للناس شخصيـة «الغني المنفق» ليتبينْ للعقـل أن الله سبحانـه وتعالى وهـو الـذات المـطلقـة قيمـة تتحقق في روح التاريخ والعصور مع كل تقدم ومع كل خطوة وكل تـطور وفي الطبيعـة نفسها ليست القيم في الجمـاد مثلها في النبـات مثلها في الحيـوان مثلها في الإنسـان لنفهم قول القرآن في تلك الذات أنها معارج وأنها سموات وسموات وعلوات .

لكن القـرآن وهو يقـدم «العزيـز العليم» قـدر الفـارق بين تلك الصفـة التي توحي بالعزة وصفاتٍ أخرى مثل «السميـع العليم» التي توحي بمـا يمن الله به على الإنسان وقدراته ولذلك تنسب مثل تلك الصفات إلى الأنبياء والرسل بل والحكماء أيضاً لنتبين المعرفة التي يعول عليها القرآن فقد تكون من روح التاريخ ودراستـه أو روح الطبيعة واستقرائها أو نبوة نبي أو رسالة رسول أو سنة بدت في فطرة أو آية فلكية أو كونية أو حتى آيـة سلوكية كمـا في غرائـز النمل والحشـرات ليعرف الإنسـان أن الذات الإلهية كما تعطي الوجه والقيمـة بالنسبـة للمطلق فـإنها تحـدد الفرديـة كما تظهر للناس في الآيات الحسية أيضاً .

في الحس يتبـدى المـطلق في الفـرد ولم يكن محمـد ﷺ إلا آيـة الله سبحانه وتعالى وفي العقل تتبدى لنا قيمة هذا المطلق وكأننا بنعم الله ظاهـرة وباطنة نـتبين أن الأسماء الحسنى في القرآن يشارك في تحقيقها كل وجود عيني وكل وجود عقلي وكل وجود فكري وثقافي ومن لم يدرك دوره في هذا الوجود

لم يعـرف معنى «ولله المثل الأعلى» «ولله الأسمـاء الحسنى» وفي ذلك قيمـة أخلاقية كبيرة للقيم وللسلوك.

يُعنى القـرآن بالتقنين والاعتبـار والمعيـار فـلا يتـرك قيمـة إلا بـاعتبـاراتهـا فـإذا كـان الله «عـزيـزاً» فـلا بـد أن يكـون حكيمـاً وعليمـاً ورحيمـاً إلى مـا ورد منسـوبـاً إلى العـزة لنتبين معنى الـذات الشـاملة وأنهـا ذات الكمـال والتمام والتنزه عن النقص الذي يعتري الشخصيات الانسانية ولذلك قد يكون الانسان عليماً خبيراً ولكنه ليس حكيماً وليس رحيماً وليضرب لنا القرآن المثل الأعلى وليبين مقامات التعالي والشوق إلى تلك الذات التي عنت لها الوجوه.

في الآية «٩٦» من سورة «الأنعـام» وقد أخـذ القرآن في التعـريف بالله سبحانه أورد الصـفة العلـميـة للعزيز إذ تقرر أن الطبيعة الفلكية كما نقرأهـا في ظـواهر الشمس والقمـر وما يتجلى منهمـا للعقل قـد أوضحت أن هـاتين الآيتين قـد خلقتا من تقـدير وحسبـان وعلم دقيق ونـظام الأفـلاك والـدورات الشمسيـة والقمريـة وما كشف عنـه علم الفلك برهن لنـا أن الخالق سبحـانه وتعالى يتصف بتلك الصـفـة الإلهيـة التي يحدثنا عنها القـرآن حتى أنه فلق الحبة واشتق جنسه من النوى ومثل ذلك الاصباح وهو شعور الانسان باقتراب الصبـح كـظاهـرة مـاديـة من ظهـور الشمس لنتبين جـلال الله إذ لو يتم فصـل الأجناس ما كان هذا الثراء الذي نلمسه في الطبيعة ونحن الآن نعلم علم اليقين تدرجات النشوء والارتقاء ولولا هذا الفصل بين جنس النبات والحيوان والفصل بين جنس الحيوان والانسان لما تعين وجود الانسـان كجنس راق وكائن سـام وفي ظاهرة الحساب الفلكي وسرعات دوران الكواكب وما يتوقف على ذلك من قـوى الجذب رأينـا أن تلك الحسابـات الـدقيقـة هي التي تتحكم في حجم الأجرام السماوية ولولا الحساب الدقيق لما انتظم فلك ولما وجدت الشموس والكـواكب والأقمار لنتبين أن القـرآن يلفت النظر إلى تلك القيم من العلم أو الحكمة أو الرحمة كما تتبدى في الظواهر ليكون لنا من ذلك معـرفة بصفـات

تلك الذات الالهية المعشوقة والتي يبحث عنها الناس وإلا فما قيمة الاعتقاد في الله والأمة ترسف في أحضان وأغلال الجهل ومعاداة العلم.

إن كان للانسان من عبادة في الله فلا بد أن يتبين كيف تتجلى تلك الذات والقيمة التي يجردها العقل من أعمال تلك الذات هي القيمة العملية التي يتبناها الناس.

في المناسبة التي قدمتها سورة «الأنعام» وجعلهم لله نصيباً حتى تطور الأمر لتقديم القرابين البشرية أوضح القرآن زيف تلك العقائد والخرافات إذ الله كذات خالقة لكل شيء تسمو على كل الأشياء ويظهر أثرها جلياً في عملية الفلق والفصل والابداع كما تتجلى تلك في الأفراد وما يتصف به كل فرد من مميزات وقدرات ليست موجودة عند الآخرين والبصمة لا يمكن أن تتطابق أبداً لذلك يقرِّر القرآن في عمليات الفلق والتمايز ان هناك من الناس من خلقه الله على إمكان تلقي الوحي السماوي وبذلك يصبح فرداً رسولياً أو فرداً نبياً ويتساءل القرآن أمام المنكرين كيف جاء موسى بالكتاب الذي نزل عليه من ربه؟ إلا أن يكون مثل موسى هو الفرد المؤهل بالقدرات للتلقي وكذلك محمد ﷺ وهذا ليس شذوذاً في الطبيعة فقد فلق الله الحب من جنس النوى وأصبح ذلك طعاماً ومثله الاصباح وهو الشعور الانساني الخاص بالصبح والله قد جعل من الليل ظاهرة سكن والشمس والقمر حسباناً لنتبين أن الله يخلق الظواهر ويمحوها ويفصلها ويوضحها لتقوم بوظيفة تخدم الحياة وما محمد ﷺ وما «موسى» إلا آيتان لهذا الناموس الذي نراه في الطبيعة لنتبين أن الصفة الالهية «العزيز العليم» هي في الواقع العصري صفة تكنولوجية بالنسبة للانسان والعلم واختراع الآلة وتوظيفها وكما أبدع الله في الآلات الطبيعية كما تبدو في الكائنات مثل الأفلاك ومثل النبات ومثل الحيوان ومثل الانسان وفرديات الرسل والأنبياء كذلك يتعلم الانسان العصري من تلك الصفة مبدأ العلم والتكنولوجيا والصنعة لنتبين معنى الاعتبار القرآني ومشكلة الانفصام عند

الأمـة وكما يخـرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ليصيـر من هذا العمل حياة سليمة صحيحة تنمو وتتطور كـذلك لا بـد أن نفهم ما تثيـره تلك الصـفة الإلـهيـة وأن العزيز العليم إنما تدعو للعلم والفكر والابـداع وشاهـد ذلك رأينا في شخص موسى الذي جاء بالتـوراة وشخص محمد الـذي أوحى إليه القرآن.

إن الاهتمام بالفرد وقدراته الخلاقة هو عمـل إلهي بل هـو عمل علمي والعـزة الحقيقية في الـذات الإلـهيـة .«العـزيز العليم» قـد رأيناهـا في العلم وتطبيقاته ولذلك لم يكن من الممكن إدراك أن الله «عزيز عليم» إلا من خلال تلك المنتجات كالشمس والقمر والحب والنوى والأحياء والأموات وكل فردية وكل آية تقع في الحس وتقع في العقل وما كان موسى وعيسى ومحمد ﷺ إلا منتجـاً من منتجات تلك الشخصيـة التي يحدثنـا عنها القـرآن وكذلـك يقـول الفيلسـوف الألمـاني «كـانت» إنـه لا يمكن أن يـدرك المـطلق إلا من خـلال التعينات كما تظهر في الحياة والتاريخ حتى استنتج «هيجل» من نفس المنهج روح المطلق وإنصافه بما يحدثنا عنه القرآن عــن الصـفات الالهية كالرحمن الرحيم أو الحي القيوم أو العزيز العليم من ذلك إيمان وعمل وسلوك ولنتبين أن في المثل الأعلى القرآن تعالى الله عن كل ما يمكن أن يكون موضوعاً لحس يشاهده الناس «وليس كمثله شيء».

إن ما بين أيدينا من مسلسل القيم هو الذي يعطينا الدرجة في سلم هذا الروح المطلق والقيم المعاصرة وما بين الأمة وبينها من خصام هو الذي يؤكد لنا أن السلفية والدينية والفهلويـة وادعاءات الثقـافة أصبحت كلهـا كالقـرابين البشرية التي كانوا يقدمونها لله سبحانه وهو الغني عن ذلك.

لقد ربط القرآن آياته كلها بالصفـات الالهية وما من قضية أو موضع إلا وذُيِّل بالمثاني مثل العـزيز الحكيم والعـزيز العليم وغيـرها ليتبين النـاس آثار رحمة الله في الوجود والطبيعة والانسان ولتكـون شهـادة القرآن على المؤمنين

والكافرين على حد سواء وكي لا يكون هناك حجة للناس على الله بعد وضوح أعمال تلك الصفات الالهية وهل يستطيع منكر أن يقول أنه لم يعرف «الرحمن الرحيم» أو «الحي القيوم» أو «العزيز العليم» أو يقول كما قال الجهلة «وما الرحمن» لنتبين أن ذلك حقل يتسع للكثير من الدراسات كما قال الدكتور زكي محمود وليعرف الذين يقفون في وجه التطور والتقدم والعصر أنهم في جانب الشيطان.

في كل صفة من تلك الصفات يتبدى إله لا يدانيه إله آخر فالرحمن إله وحيد للرحمة لا يمكن أن يكون بين الكائنات والناس من هو أرحم منه ومثل ذلك إله العزة الذي يعلو على كل عزيز وإله العلم وإله الحكمة وغير ذلك مما يمكن أن يقع في روع العقول البشرية وإنما المشكلة أن نتبين الغائية خلف تلك القمم وأن نعمل في نفس المجالات بما كشفت عنه تلك الصفات الالهية من هذا الجانب حتى لا نضع العلم في خدمة الشيطان ونقول إن ذلك غاية إلهية ولهذا كذب الفرعون على ربه عندما قال بعزة فرعون ولو أنه قال بعزة الله لكان مؤمناً صادقاً ولقام السلام بينه وبين الناس لنعرف أن المسألة في القرآن ليست إثارة للقيم فقط وإنما لتقرير الغاية الأخلاقية وهي التي جعلت كل الرسل يرفضون الأجر على ما قدموه للانسانية.

في سورة «البقرة» الآية (١١٥) يزيل القرآن مشكلة تغيير القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام في مكة قائلاً إن ما أثاره اليهود وأهل الملة في وجه الدعوة لم يكن إلا سفهاً وجهلاً وغروراً لأن الله لا يوجد في مكان دون آخر حتى يعبد في القدس أو مكة فقط ولذلك يقدم القرآن الصفة الالهية «الواسع العليم» لنتبن تأصيل القرآن لامكانات العلم عند العقلاء وأنها إمكانات واسعة لا تتوقف أمام مشكلة من المشاكل ولو نظرنا إلى حال الأمة اليوم وحال أهل الملة والتمسك بحرفيات النصوص لوجدنا أن القرآن في نقده لأهل الملة ومواقفهم قد أصل في سورة «البقرة» مبدأ تحليل التاريخ والسلوك

وأصل في سورة «الكهف» مبدأ عمل العقل في مواجهة النقل والأساطير والخرافات وأوضح لنا أن عين العقل أكثر بصيرة من المشاهدة الحسية حتى قال القرآن لمحمد ﷺ «وترى الشمس» وكأنه كان موجوداً عند حدوث تلك الحوادث واليوم تنقل لنا العيون العقلية ما بداخل الذرة وأفلاك الكواكب كأننا نشاهدها مشاهدة حضور ورؤية وما قدمه القرآن في فطرة العلم وفطرة العقل فيما سألوه في «الكهف» وقد أصل لنا القدرات العقلية والعلمية لدى الكائن البشري بحيث يتمكن من الفروض المنطقية التي تواجه الوقائع في الطبيعة.

لكن القرآن وهو يقدم الذات، الواسعة العلم لله سبحانه وتعالى في مناسبة تغيير القبلة قد حمل على أهل الملة من اليهود والنصارى على اعتبار السلفية الدينية ومعاداتها لمبدأ الحرية العقلية كان يريد أن يقيم المنهج الاستقلالي للأمة ولذلك دعا إلى أن يكون المسلمون أمة وسطاً ليكون منهم شاهد على العالم والتاريخ ولن نستطيع أن نتبين مقومات تلك الأمة إلا من خلال ما قام به القرآن من نقد أهل الملة والأديان واليهود والنصارى حتى يمكن معرفة المبادىء التي أصلها القرآن في قضية التنوير ودعم العقل والفكر والحرية.

في كل جديد خالف ما عند أهل الملة والأديان قدم القرآن علمانية الذات الالهية في «واسع عليم» أو «سميع عليم» أو «شاكر عليم» لنتبين مصادر العلم وأوجه استعمالاته المختلفة وأن العلماء عليهم مسئولية التطوير حتى ولو كانت العقبة في النصوص الدينية كما وجدنا أهل الملة والكتاب يقفون أمام حرفية النص فيكفرون المسلمين لتلك المسائل.

هذه المسألة التي تثيرها علمانية الذات الالهية قد أصلت في القرآن مبدأ الفطرة وأن الانسان عالم بطبعه وفطرته ومبدأ الحرية العقلية والفكرية وأن الانسان مؤمن بسليقته أيضاً وإنما المشكلة تقع في تقادم الأديان والنصوص والحرفية وما يتبع ذلك من قيام المؤسسات الدينية التي تعادي كل تطور وكل

تقدم حتى كان رجل الدين في الملة وهم طبقة الأحبار والرهبان أشد عداوة لعيسى ومحمد ﷺ مما جعل القرآن يلغي كل سبب من الممكن أن يدعم تلك المؤسسات مثلما فعل مع النبوة ومثلما فعل في نقضه وفقده للشرائع والأديان وإنهاء الرسالات.

لن ندهش إذا عرفنا سياسة القرآن في مواجهة طغيان أهل الملة وحرفية النصوص وأنها كانت سياسة الهدم لأن سلطان الأديان يناقض سلطان الله سبحانه وتعالى وهذا ما جعل القرآن يحرص كل الحرص في تقديمه للشخصيات الالهية أن يطبعها بطابع الحرية وطابع العلمانية وطابع الفكر والتطور الخالق وفي كل نص وفي كل قضية كان الكافرون يفرضون الثبات والجمود واجه القرآن ذلك فقال للناس إن الله يتعالى عما يشركون لنتبين أن أبعاد الحرية في القرآن هي شاهد القرآن على كل عصر.

في قضايا النقل والتراث وما أثاره اليهود وأهل الملة معلنين على الناس أن من لم يكن يهودياً أو نصرانياً فليس مؤمناً وليس له من الهداية نصيب،أوضح القرآن على لسان «السميع البصير» أن ذلك تضليل وتحريف حيث الملة الحق هي ملة ابراهيم وليست ملة اليهود أو ملة النصارى وأن تراث إبراهيم هو التراث الذي يعتد به حيث كان ابراهيم مسلماً ربانياً ولم يكن مثل اليهود أو النصارى عنصرياً متعالياً على الناس وكل ما ينشره أهل الملة من تلك القضايا ليس هو الحق عند «السميع البصير» إذ الح عنده أن الناس أمام الله سواسية وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

لذلك نتبين أن تلك الذات الإلهية هي ذات ناقدة لكل ما يسمع وما يبصر والمقولات التي آثارها أهل الملة لن تمر حتى يقول «السميع البصير» فيها قولته.

لقد وقف «السميع البصير» من قول اليهود وأهل الملة أنهم أهل الايمان

والهداية وأهل الدين الحق وأهل الملة الصادقة وقف من كل ذلك موقف الشك والنقد وأوضح لنا منهجه في الرد على كل ذلك لنتبين معالم تلك الذات في مواجهة التراث والتحريفية وأصحاب الملل والنحل وما ناقضه من قضايا هو شاهد على حرية الأمة في مواجهة كل سلفية حتى ولو كانت باسم الدين وباسم الله نفسه ولنا من نسبة اليهود إلى الله كل تزويراتهم وتحريفاتهم وعقائدهم المدسوسة ما هو أحق بالدراسات لبيان فضل القرآن والحرية العقلية.

في مواجهة مشاكل التراث الديني ظهرت الشخصية الالهية «السميع العليم» وفي مواجهة مشاكل التطور ظهر «الواسع العليم» وفي مواجهة طغيان الملة ظهرت «الحي القيوم» وفي مواجهة عشق القوميات للقوة ظهرت «العزيز الحكيم» لنتبين معنى أن يظهر في روح التاريخ وروح الفكر شخصية إلهية متمثلة في إنسان ملهم رسولي يوحي إليه مثل محمد ﷺ وما كان ذلك إلا من خلال روح التحديث التي تنبثق في شخص من الأشخاص ليجعل من تلك الذات الالهية حياة وحركة وتاريخ. حتى مع المشاكل النفسية وما يجول في باطن النفس ظهرت صفات غاية في الابداع إذ ظهرت صفة «التواب الرحيم» أو «الغفور الرحيم» أو «الرحمن الرحيم» لنتبين أن عالم النفس ذاتها قد كان في متناول الابداع القرآني وأن الله كما يفهم في روح الطبيعة أو روح التاريخ فإنه يفهم أيضاً في الروح البشرية وأن هناك في هذا الجانب الرباني من النفس توجد مثل تلك الشخصيات التي تغفر وإن عزت المغفرة وأن ترحم وإن كانت الرحمة مستحيلة وأن تتوب وإن كانت التوبة لا تليق ولنا في توبة الله على الذين خلفوا مثلاً وشاهداً لنتبين أن المواقف القرآنية مدارس للحرية العقلية والحرية الفكرية والحرية النفسية والنقد الذاتي في القرآن له مواقف مشرفة في هذا الشأن.

لكي نتبين جلال تلك الصفات الإلهية والدخول بها إلى روح العصر وجب علينا تحديد الموضوعات لأن الكثير منها قد جاءت ملونة بلون العقائد

الدينية ومن المقارنة بين صفة «السميع العليم» وموضوعاتها من التراث وصفة «السميع البصير» وموضوعاتها من الواقع الذي يعيشه الناس كانت صفة «السميع البصير» واردة بكثرة في سورة «النساء» ومما كانت تعاني منه المرأة في مثل هذا المجتمع الجاهلي. ومن أعجب الصفات الالهية وماتثيره في الناس التقدير والتقديس ما ورد من صفة «الخبير البصير» إذ كشفت تلك الصفة الخبيرة عن سنة وناموس انهيار الأمم في تجربة انهيار ملك اليهود إذ أوضح القرآن أن عناصر القوة من وفرة الأموال وكثرة البنين لما توفرت لدى بني إسرائيل شنوا الحروب على جيرانهم فكانت هزيمتهم وتدمير الهيكل مرتين وأن القوة يجب أن تخدم أغراض السلام العالمي وانهيار الحضارات بسبب الحروب إنما ينبع من هيام الانسان بالقوة وملكيتها والتعالي والطغيان.

وهكذا كشف «الخبير البصير» عن تلك السنة المهلكة للأمم وهو يكشفها للمسلمين كي لا يتبنّوا الطغيان وليكون السلام هو العقيدة لكل الناس وليأخذوا من أنفسهم وشهواتها كل الحذر وكل الحيطة وليعلموا أن الشيطان يسول لهم في القوة والطغيان والحروب أيضاً.

الفصل الرابع

«العزيز الرحيم»

في الموضوع الواحد قد يورد القرآن عشرات من الصفات الإلهية مثلما جاء في سورة «البقرة» التي قامت بنقد تاريخ بني إسرائيل وأهل الكتاب خاصة اليهود فقدم القرآن «العليم الحكيم» و«التواب الرحيم» و«واسع عليم» و«الحي القيوم» و«السميع العليم» و«العزيز الحكيم» وعشرات غيرها من الشخصيات الالهية ليلقي الضوء على جزئيات تلك القضية و أن كل مسألة فرعية وقد هيمنت عليها صفة من تلك الصفات منتسبة بجذورها إما إلى الطبيعة كما خلقها الله وإما في التاريخ وإما في الانسان والناس لنتبين أن الله قد تبدى في القرآن بالمعايشة وبالفعل حتى نجد صفة مثل صفة «العزيز الحكيم» تمتد في الظاهرة الكونية والظاهرة الطبيعية والظاهرة التاريخية ثم تظهر في الظاهرة النفسية والفردية في أفراد الرسل والأنبياء لنعرف من ذلك أن الذات الالهية تملأ الوجود كله بكافة مستوياته وإنما المشكلة في العقل المجرد الذي يستطيع أن يرى تلك الذات الالهية أو الأخرى ولذلك يقرر القرآن عن علم الرسل والأنبياء إنهم درجات وهم يتفاضلون به عند الله ومثل ذلك في المسألة الالهية كمثل الذرة والعلم إذ منذ الأزل كانت الذرة ولم يتمكن عقل الانسان من اكتشافها على حقيقتها إلا على يدي علماء العصر والله وصفاته

كـان منذ الأزل ولم يـزل وإنما المسـألـة تتعلق بمقـدرة العقـل الانسـاني في اكتشاف تلك الصـفات الالهية.

في سـورة «الشعراء» عـالـج القـرآن قضيـة الثقـافـة التقليـديـة إذ كـان العرب يعتزون بالشعر والشعراء وأبوابه من المدح والهجاء والغزل وغيرها وهي ثقافة لا علمية تقوم على النعرات والتفاخر والقرآن يريد أن يجعل مـن الـعـلـم ثقافة للعرب ولذلك فضح أمر الشعر والشعراء وأوضح للناس في كتاب «طسم» وكتاب «طس» وكتاب «يس» أن الـعـلـم يقـوم على السنن والآيات وما يمكن أن يقرأه عقل الانسان من الطبيعة النباتيـة والحيوانيـة والانسانيـة بل والفلكيـة أيضاً.

لذلك تبـدت الـذات الإلهـيـة «العزيـز الرحيم» فـأوضحت للناس أن هلاك القوميات قوم نوح وغيرهم وهلاك الأمم قد كان لأنهم تمسكوا بالثقافات التقليـدية فـأعمتهم عن قيمة مـا يخلقه الله في الجـديد كـل يوم ولـولا ذلك مـا استمرت الحياة على الأرض.

ولو نظر الانسان إلى فعل الله في الطبيعة لوجد أن الأرض تجود كل يوم بالجديد من النباتات والحيوانات والولادة مستمرة والموت يطوي كل قديم.

لذلك يقول القرآن في سـورة «الشعراء» ﴿أَوَلَمْ يَـرَوا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَـا مِنْ كُـلِّ زَوْجٍ كَـرِيـمٍ * إِنَّ فِـي ذَلِـكَ لآيَـة وَمَـا كَـانَ أَكْثَـرُهُمْ مُؤْمِنِـين * إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1].

لكن القـرآن يـوضـح لنـا في قصص نفس السـورة أن محمـداًﷺ لم يكن هو وحده الذي أدرك هذا الأمر وإنما اكتشفها موسى الذي أرسل إلى الفرعونية وابراهيم الذي قام في وجه أبيه وقومه و«نوح» و«هود» و«صالح» و«لوط» و«الأيكـة» لنتبين أن صفة «العزيز الرحيم» قد ظهرت لكـل هؤلاء عند صـدامهم بما كـان عليه

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٧ ـ ٨ ـ ٩.

أقوامهم من تقليد الآباء والسلفية وأن ثقافة القرآن يجب أن تحل محل ثقافة الشعر والشعراء.

لو تتبعنا تاريخ «العزيز الرحيم» مع تلك الحضارات والقوميات الهالكة لتبينا أنهم جميعاً استبدلوا الرب وعنايته بالكائنات بما كان لديهم من المعرفة الموروثة عن الآباء والأجداد وأن هؤلاء الرسل أمثال نوح وموسى وغيرهم قد اكتشفوا أن الربوبية هي منهج المعرفة الحق لأنها تخرج للناس الجديد من الخلق وهو نفسه ما رآه القرآن وما كان محمد ﷺ من إيمانه بالجديد والرب.

«العزيز الرحيم» يرسل إلى موسى ويرسل إلى نوح وهود وغيرهم ويتوالى هلاك المقلدين والسلفيين ثم يبعث محمد ﷺ من لدن نفس الشخصية الالهية «العزيز الرحيم» لتهلك ثقافة قريش والشعر والشعراء واليوم باسم الأصالة تقوم ثقافة الأمة على السلفية ومواريث المعارف التقليدية.

إن ما يحدث للأمة اليوم من تخلف وانهيار للحضارة التي تدعى الاسلام إنما هو من قبيل فعل «العزيز الرحيم» لنتبين موقفنا الحالي من فعل تلك الصّفات الالهية التي يقدمها القرآن.

لكن الجدير بالنظر أن كل سورة «الشعراء» قد قامت على صفة واحدة هي «العزيز الرحيم» بخلاف ما جاء في «البقرة» مثلاً لأنّ القضية ليس لها إلا وجه واحد هو التقليد الأعمى الذي أهلك القوميات والحضارات الواحدة بعد الأخرى لنتبين أن الأسماء الحسنى هي روح الفكر القرآني بل هي روح الإبداع فيه.

عندما أثار القرآن في «البقرة» مسألة تراث ابراهيم وبنائه لبيت الله الحرام وما كان عليه أهل الكتاب والملة واليهود وانحرافهم بدعوة ابراهيم وإعلانهم على الناس أنهم ورثة ابراهيم قام القرآن ليصحح تلك المقولة وليبين أن ابراهيم كان داعية إلى السلام ولم يكن داعية إلى شعب الله المختار بغرض

العنصرية ومماراساتها ولذلك قدم القرآن شخصية الهية هي «التواب الرحيم» ليقول لأهل الملة إنه قد كان ما كان ومن الآن فعليهم بإتباع دعوة محمد ﷺ لأنها هي الدعوة التي هي أولى بابراهيم وتراثه وأن من دخل من أهل الملة فله التوبة وله الرحمة من الله سبحانه وتعالى .

هل آن الآوان أن يظهر لنا «التواب الرحيم» مما نرتكبه باسم الاسلام والدين وهو ليس منهما في شيء؟ هل آن الأوان أن يكون «التواب الرحيم» هادياً للأمة في عصر أصبح للعلم والعلم وحده الوجود كله؟ إن المسألة لم تعد تحتمل تخلفاً وإنما أصبحت أن تكون الأمة أو لا تكون؟

إن المفاهيم التي وردت في الصفات الإلهية تفتح علينا باباً واسعاً من التساؤلات أين نحن من قيم تلك الصفات؟ وكم صفة منها عطلناها؟ وكم منها حرفناها كم منها أصبح غرماً على الأمة؟ .

لو كانت دعوة «يهود» والعنصرية قد فضحها «التواب الرحيم» ليقيم في مواجهتها عالمية الدعوة والمساواة أمام الله فأين الأمة من عقائد العالمية والإخاء الانساني؟

لو كانت «العزيز الرحيم» من قيمها احترام كل جديد وكل تطور وكل علم باسم الربوبية فأين تقف الأمة في الثقافة والمعاصرة؟ وباسم من تكون الكلمة في عصر الفضاء والذرة؟ .

إن التخلف الذي يحيط بالأمة وآلامها وخيبة الأمل لدى أبنائها إنما هو نتيجة لقيام الكتب الصفراء في ثقافة الأمة بمكان الله فيها وما يعنيه وجوده الالهي والرباني في السيطرة على حركة الخلق والابداع والتاريخ ويتساءل القرآن كيف يكون لأحد أو شيء من الأشياء سلطان على الناس والله وحده يقوم على كل خلق وعلى كل كائن وعلى كل قومية وعلى كل أمة إلا أن يكون مفهوم «الله» نفسه عند الأمة مفهوماً مغلوطاً كما كان عند قوم نوح وهود وغيرهم .

يكفي أن يكون الله «عزيزاً» أو «قيوماً» أو غير ذلك من أسماء «المهيمن» ليسقط كل سلطان وترتفع رايات الحرية والتقدم.

من المواقف القرآنية يظهر لنا عمل تلك الصفات الإلهية إذ نجد في حادثة الثلاثة الذين خلفوا أن القرآن شدد عليهم تشديداً عظيماً وحرم على المؤمنين مخالطتهم واعتبرهم فاسقين بل اعتبر عملهم هذا من أعمال المنافقين والكافرين لكن الصفة الالهية «الغفور الرحيم» و«التواب الرحيم» تتجلى لنا في هذا الحدث بالذات فتقلب الأحكام وتقدم في الحدث رأياً آخر وتطلب لهم التوبة والمغفرة لنتبين أن القرآن لا يقدم تلك الصفات إلا من خلال البصيرة النورانية التي تنبعث فجأة لتنير المواقف المبهمة والمظلمة؟ باعثة الالهام كما رأينا ذلك في حادثة الافك المشهورة وما ترتب عليها من نزول سورة «النور» واستبدال حد الرجم بحد الجلد وهو ما يخالف ما عند اليهود في هذا الشأن.

لذلك نجد في النور صفات متنوعة مثل «التواب الحكيم» و«العليم الحكيم» و«الرؤوف الرحيم» وشرح القرآن لنا كيف تبدت من تلك الحادثة بعينها حالة النور والعلم عند الله سبحانه وتعالى إذ قال القرآن إن مثل نور الله الذي يضيء بعض القلوب بالهداية هو نور لا ينضب له معين وإنما المشكلة في المستقبل لهذا النور وقد يعمي الناس ويوفق الله أحد الأشخاص ويلهمه بالحل - **﴿الله نُورُ السَّمَواتِ والأَرْضِ مثلُ نُوره كَمِشكَاة فِيهَا مِصْبَاحُ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَة الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شرقيّةٍ ولا غربيّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ على نُور يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَنْ يَشَاء وَيَضْرِبُ الله الأمثَال لِلناس والله بِكُلِّ شَيء عَلِيم﴾**[1].

لذلك اعتبر القرآن حادثة الإفك خيراً لأنها فتحت أمام الوحي مجالات

---

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

العلم ومجالات الالهام ومجالات الرحمة والمنافقون والمشركون في الافك كانوا يتوقعون الشر والضرر بالنسبة للرسول والمؤمنين.

إن الروح الالهي تتبدى وقت المشاكل والتحديات ولذلك يقول القرآن إن حد الجلد للزناة ولو أنه خالف القاعدة الشرعية للديانات إلا أنه رحمة بأمة محمد ﷺ جاءت على يدي «الرؤوف الرحيم» و«التواب الحكيم» لذلك فقد أصبح فرضاً منذ تلك الحادثة لنتبين معنى الحكمة ومعنى العلم ومعنى التوبة ومعنى الرحمة في مواجهة المشكلات إذ كان أهل الملة واليهود يتشددون في جريمة الزناة حتى الرجم والعرب يتساهلون فيها حتى الفوضى فجاء القرآن بهذا الحد الذي اعتبره القرآن حكمة بالغة وعلماً كبيراً إذ هو أخف مما لدى اليهود وأهل الملة وأشد بكثير عما كان لدى العرب حتى اعتبرته الآيات قسوة.

لكن أهل الكتاب والملة لم يفهموا من روح الله في الرحمة والمغفرة وغيرها مما ورد في التوراة والانجيل وكان نتيجة ذلك هي طغيان عقائد العامة عندهم حتى أصبحت العقيدة في الله أماني وخرافات وارتكبوا أشد المعاصي والجرائم وأعلنوا على الناس أنهم رغم ذلك سيغفر لهم باسم عقيدة شعب الله المختار وغيرها من التحريفات حتى قالوا إن الله نفسه يأمرهم بالفحشاء ولو فرض أنهم دخلوا النار فلن يلبثوا فيها إلا أياماً معدودات وما قاله اليهود وأهل الملة في المقولات كثير لكن القرآن يرد على كل ذلك فيقرّر أن الله ولو أنه توابٌ في مواقف فلن يكون رحيماً في معاصي بذاتها ولو أنه غفور فلن يكن غفوراً في عقائد بانحرافاتها ولذلك نزلت سورة «غافر» مبينة للناس أن الله لا يغفر أن يشرك به كما فعل اليهود وأهل الملة وأساءوا استعمالات مفاهيم التوبة والرحمة والمغفرة وكانت النتيجة عندهم أن العقائد في اليهودية والنصرانية لم تعد لله سبحانه وتعالى وإنما هي فسوق وكفر وعصيان والحكمة اقتضت الاحتراز والاحتراس من تزوير العقائد والتحريف باسم الله والدين.

لذلك كما أن الله غافر الذنب وقابل التوب هو كذلك شديد العقاب

والطول والأخذ على يدي المجرمين والمزورين والمزيفين والمستغلين للعقائد باسم الأديان وهو ما قامت له صفة «العلي الكبير» لتقويمه وتوضيحه للناس.

إن الله أعلى من تلك التزييفات وتلك التزويرات وتلك الدسائس وهو الكبير الذي لا يقف أمام تلك المشكلات وما كان نزول سورة «غافر» ضمن كتاب الحواميم وهو كتاب الحي المهيمن إلا تصدياً لمثل تلك الممارسات لنتبين كيف كان الله يواجه الظروف والمناسبات والملابسات ومكر ودهاء الناس حتى أصبح له في القرآن تلك الصفات الإلهية الثرية بكل عطاء المبدعة بكل جديد للداعية إلى كل حكمة آخذه بكل علم المرشدة إلى كل هداية وما كان فعل محمد ﷺ إلا شاهد القرآن وما كان القرآن إلا شاهد العقل وقدراته الخلاقة.

للنظر في هذا القرآن والنقد الإلهي إذ يقول «الغفور الرحيم» إن هناك مغفرة وهناك رحمة لكن «العلي الكبير» ينهض ويصحح في المحكمة الإلهية أن ذلك ليس بقاعدة عامة وأن لكل قاعدة شواذها ومفارقاتها ومن يشرك بالله ويخرق باسم الله ويزور باسم الدين فليس له رحمة وليس له مغفرة عند «العلي الكبير» ولذلك حكم القرآن على المزيفين من أصحاب الملة وأهل الأديان وما أعلنوه كذباً وبهتاناً على الله أنهم مشركون لا رحمة ولا مغفرة لهم وإلا كانت عند الله فوضى وهو يتعالى عن ذلك.

لو نظرنا في حال الأمة لما وجدنا لصفة «العلي الكبير» تلك القيمة القرآنية فالتخلف له أصوله العقائدية عند الناس والجهل له مبادئه الايمانية عند العامة والحماقة ترفع لها الرايات وكل ما هو علمي في العصر أصبح له في الايمان إدانة باسم الإيمان ويعتقدون في الله وما هو في الله حتى أصبحت تلك الصفة معطلة عند الأمة وكثير من تلك الجلالات القرآنية بكل الأسف نجد له وجه مشرق عند من يدعون أنهم كافرون وأنهم هم الملحدون حتى قال

الامام محمد عبده قولته المشهورة وجدت في أوروبا إسلاماً ولم أجد مسلمين ووجدت في الأمة مسلمين ولم أجد إسلاماً لنتبين كيف تكون المغالطات عند أئمة الأمة إذ كيف يكون في أوروبا إسلام بغير مسلمين؟

إذا قامت صفة. إلـهية كالعلي الكبير بالنقد فهناك صفات إلـهية قامت بالحكم وصفات قامت بالعلم وصفات قامت بالحكمة وصفات قامت حتى بالايمان والمؤمن يعلمنا في أحكام القرآن وقضاياه كيف يكون الايمان وما زالت الأمة في خلاف بين ما هو الايمان وما هو الاسلام لأن أئمة الأمة شغلوا أنفسهم بالشكليات وأعمال التراث والسلف ولم ينظروا ماذا في تلك الصفات وأعمالها وعقائدها من روائع.

﴿إنَّ الله فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيّ مِنَ المَيّت وَيُخْرِجُ المَيت مِنَ الحيّ ذَلِكُم الله فَأنّى تؤفكُون * فَالِقُ الإصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنا وَالشَّمْس وَالقَمَرَ حسبَانا ذَلِكَ تَقْديرُ العزيزِ العَليمِ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٦.

الفصل الخامس

العلي الكبير - الكبير المتعال

قابل القرآن بين الصفات الإلهية ووظف تلك الصفات كأنها آيات الله بحسب الوظائف التي تتبين منها لعقل الانسان في ظروفه وملابساته، ومثلما فلق وفصل الله بين الحب والنوى وبين الحي وبين الميت ووظف الشمس والقمر في الحسابات الدقيقة، ومثلما جعل من الناس أفراداً رسلاً وأفراداً من العامة كذلك جعل صفة «العلي الكبير» تقوم بوظيفة مخالفة لما تقوم بها صفة «الكبير المتعال» إذ تظهر «الكبير المتعال» في الله العارف بأمور الشهادة وأمور عالم الغيب وهو الذي قدم للناس ما جاء بسورة «الرعد» التي كشفت للناس أن العلاقة بين العقل الانساني والعقل الالهي كما يتبدى في الطبيعة هي علاقة الخوف أو علاقة الرجاء وهما يمكن قراءتهما في ظاهرة كظاهرة «الرعد» إذ تظهر فيها معاني الخوف من الصواعق ومعاني الرجاء والأمل من قرب نزول الأمطار، ولذلك كان الحكيم والمؤمن هو الذي عمل بما ظهر من الآيات الربانية وأطاع واهتدى وخاب من لم يفهم قصد الله سبحانه مما خلق من تلك الآيات في شتى ألوان الطبيعة وأشكالها وكائناتها لأنها الوسيلة الوحيدة التي تطلع العقل الانساني على مراد الله سبحانه وتعالى.

لكن القضية لها تاريخ وجـذور إذ كان أهـل الملة يقضون في حيـاتهم بعلوم الـلاهوت وهي كمـا وضحت الحقيقة عنـدهم أنها خـرافات ومقـولات وتحريفات فأرجع «الكبيـر المتعال» هـذا الأمر إلى الآيـات الطبيعيـة كمصدر للمعرفة وما يمكن أن يقوم به العقل من التجريد هو الذي يكشف لنا من عالم الغيب وغاياتـه ومراد الخـالق سبحانـه وتعالى ،وهكـذا ظهرت تـلـك الصـفـة الالهية مرتبطة بمشكلة المعرفة وقضاياها ومـا يمكن أن تقوم بـه قراءات نسق الآيات الطبيعية التي خلقها الله بيديه لتكون هي نفسها المعلم الأول للانسان وضرب القرآن في ذلك مثلاً بظاهرة الرعد إذ نراها ونسمعها في عالم الشهادة بالصوت والضوء ولكن في عالم الغيب والعقل لها مفهوم آخر هو الخوف وقرب نزول الأمطار ولو أن حيواناً من الحيوانات سمع ظاهرة الرعد لما أمكنه قراءتها مثلما يفعل العقل الانساني.

تـلـك الصـفة. «الكبير المتعال» يدرك أشياء عجيبة إذ يقـول القرآن إن الكافرين يستعجلون محمداً ﷺ بما هددهم به من عقـاب الله وهـم لا يعلمون أحوال الله سبحانه إذ الله أخذ من قبلهم قوميات في هـذا الشأن وجعـل منهم مثلات والمشكلة أنهم لا يدركون الحد الفاصل بين رحمـة الله وشديـد عذابـه لكن محمـداً ﷺ يعرف من أسـرار (الكبيـر المتعـال) ولـذلـك فهـو ينـذرهم ويحذرهم بغية المصير المنتظر ولذلك يقـول لهم إن «الكبير المتعـال» لا تتم عنده الأمور إلا بمقدار من الحسابات والحكمة وشاهد هـذا الأمر مـا نراه في حمل الاناث إذ يتم الحمل والوضع بمقدار معين من الزمن وهي تسعة أشهـر عند إناث الانسان ولو بكر الوضع لنزل الطفل مبتسراً وهو لا يجاوز مدة الحمل التي قدرها الله أبداً ولو كان الأمر ليس له تقديـر لما كـانت قد تمت الـظاهرة محكمـة في الطبيعـة كما تحـدث كل يـوم ومثل ذلـك ما قـدره الله من هلاك القوميات بذنوبهم إذ يهلكون متى حان وقت هلاكهم.

لكننا نتساءل كيف يرى القرآن لله صـفة إلهية في كل ظاهرة من ظواهر

الكون سواء كانت ملكية أو طبيعية نباتية أو حيوانية أو إنسانية أو حتى نفسية إلا أن يكون ذلك من مستويات الادراك وعتباته عند كل نفس بحسب ما وهبها الله منه ولذلك كانت الذات المحمدية مؤهلة بالفطرة لهذا التلقي وهذا الوحي العجيب وكم من عقل وكم من إنسان رأى الاناث تحمل وتضع ولم يقع في إدراكه «الكبير المتعال» كما يفهمه القرآن من تلك الآيات التي تبدو لنا مألوفة في كل يوم لكنه القرآن والوحي وسبحان الله فالق الحب والنوى.

من الأصول القرآنية أنه في تجريد الغائية جعل العقل فوق الطبيعة والآية وهذا ما ورد في كل السور القرآنية التي تداولت علم «الغيب» ولكنه في الكتب القرآنية التي قدمت منهج المعرفة والعلم أمثال كتاب «طسم» و«طس» و«يس» فإنه جعل الآية والسنة فوق العقل لضمان عدم ضلال العقول بالأهواء والعلل وهو ما جعل القرآن يحترز في تقديم الشخصيات الالهية ولذلك نجد «العلي الكبير» و«الكبير المتعال» وغيرها من المتعاليات قد وردت في سورة «الرعد» وسورة «الأعلى» و«البقرة» العلي العظيم و«لقمان» و«الحج» و«سبأ» و«غافر» وهي السور التي عالجت المثل الأعلى في العقيدة الالهية وفي المقابل نجد «العليم الحكيم» و «السميع البصير» و «العزيز الحكيم» وغيرها مما يشابه العقل الانساني في أمور عالم الشهادة حتى نستطيع أن ندرك الفروق بين الشخصيات من موضوعات عالم الشهادة وعالم الغيب.

إذا اشتق القرآن علومه ومعارفه من الطبيعة وآياتها سواء كانت آيات فلكية أو نباتية أو حيوانية أو نفسية فإنه اعتمد على التطور والنشوء والارتقاء بحيث ظهرت تلك الصفات الالهية في مراحل الدعوة المختلفة و«الحي القيوم» كما رأينا مثلاً هو الذي تكفل بمواجهة أهل الملة والكتاب والأديان في سورة «البقرة» و«آل عمران» ومعنى ذلك أن الله في الزمن يكشف للناس عن صفاته بحسب عناصر التقدم والمشكلات التي تواجه الناس ورأينا أن الأحكام في النقد قد تغيرت وتبدلت بل هناك أحكام تناقضت لأن الظروف

والملابسات قد تغيرت وهذا مما يؤصل في المعاصرة اليوم مبدأ الديالكتيك والديناميكية في مواجهة الرجعية والسلفية التقليدية لذلك كانت الصفات الالهية وإن قرأت من شواهد وآيات طبيعية ليس لها في الحس إلا مدلول واحد فإنها قد تباينت أمام الظاهرة الواحدة بحيث نجد في آية مثل الشمس مثلاً قد استعملها «العزيز الحكيم» و«العلي الكبير» و«الكبير المتعال» و«السميع العليم» لأن كل صفة منها قد رأت من الظاهرة والآية ما لم تَرَه الأخرى وهذا هو الفرق بين الانسان والانسان وكم من ملايين البشر قد رأى تفاحة نيوتن تسقط لكنهم جميعاً لم يروا في سقوطها ما رآه نيوتن ومثل ذلك تطورت العقلية المحمدية مع الوحي ورأت ما لا عين رأت وسمعت ما لا أذن سمعت وفهمت من الآيات ما لم يفهمه بشر لنتبين أن الالهام والوحي والوجدان وما يتمتع به الانسان إنما هو صدى لتلك الشخصيات الالهية وقد تبدى «السميع» في شخص موتسارت أو بتهوفن رغم أنه أصم لنعرف من ذواتنا الخصائص الالهية التي هي بعينها مصير الانسان المنتظر.

ليس هناك كان ولم يكن أو وجد ولم يكن موجوداً وإنما المسألة في التجلي وقد تجلى الرب لموسى وحده وكذبه الفرعون وقال له كيف يتجلى لك وحدك الناموس ولم يتجل لدي ومثل ذلك كذب به الرسل والأنبياء والعباقرة والعلماء وما زالت الأمة تكذب بالتقدم والتطور والابداع كأن تلك الصفات الالهية توقفت عن الكشف والعطاء والحقيقة أن الله هو الله منذ الخليقة فلماذا نعادي منهج الرب نفسه باسم الدين والسلفية والتقليد الأعمى؟

كيف نهدر قيمة الوجود الالهي في الانسان ودودة العلق قد ألهمت المعرفة التي تمكنها من التغلب على الجلطة وامتصاص الدماء؟ هل يوحي الله إلى الدود ويوحي إلى النحل والنمل وما هو دون الانسان في المرتبة ثم لا يوحي إلى الناس؟ هل تتجلى شخصية «العليم» في دودة العلق ويحرم الانسان من المعرفة والعلم؟ إن الثقة في الله سبحانه وفرض الحرية العقلية وتأكيد القرآن

لمبدأ الفطرة وأن الانسان قد خلق منذ اللحظة الأولى للميلاد عالماً إنما يفترض أن تـلـك الصـفات الالهية الملهمة لم تتوقف بتوقف الوحي وإنما هي ما زالت عاملة في الناس والمشكلة كيف تشعر أنك مع تـلـك الصـفة أو مـع الأخرى وما يظهر للانسان في وعيه الواضح من الادراك والفهم والتعقل.

يتسـاءل الدكتـور زكي نجيب محمود عن كيفيـة جعـل أسمـاء الله التي وردت في القرآن سلوكاً عمليـاً للأمـة حيث ملأهـا القرآن بـالحسن والجمال والبهاء وقدمها لنا في العلم والحكمة والتوبة والمغفرة والرحمة وكل القيم العليا التي يحلم بها الانسان.

من قيم الأسماء الحسنى عرف القرآن معنى الربـوبية ومعنى أن يكـون الانسان بين يدي رحمان أو رحيم أو عليم أو حكيم أو عزيـز ليبعث ذلك في نفس الانسان إيماناً ما بعده إيمان وثقة ما بعدها ثقة وهكذا كان إيمان محمد ﷺ بربه حتى تبين القرآن من خلال تـلـك الصـفات الالهية التي تبدت له في الربوبية أنه لا يوجد في الكون كله إلا إله واحد قام التوحيد عليه وقرأه في كل صفحة من صفحات الوجود حتى إذا بدت من الظاهرة دلالة يفهمها العقل ظهر للقرآن أنها من الاله الواحد الذي أبدع تلك المعاني الجليلة في ذات الانسان المدركة لنتبين أن التوحيد لم يكن مفهوماً لنا بهذا الجلاء التام إلا عندما قدم القرآن نسق المعرفة في الأسماء الحسنى ومن ذا الذي يستطيع أن يخلق في روح الانسان معنى من تجليات المعاني إلا الرب الاله وحده؟

لقد أرسل الأنبياء والرسل على أقدار الفهم لهذا الناموس وهذا الـروح المتجلي في المعـاني الحسية والجميلة والقيـم العليـا ولم يكن مفهوم مـوسى لهذا الروح إلا في الـرب وجميع الأنبيـاء ولم تعرفـه إلا بتلك الخاصيـة لكن القرآن والقرآن وحده هو الذي جعله سميعاً بصيراً رحماناً رحيماً وعزيزاً حكيماً وغيـرها آلاف من حـاملات الثـراء الادراكي والمعنى الـذي لا تختلف عليـه الناس.

الرب يشترك فيه في القرآن الأبيض والأسود لأنه رب العالمين لكن الإله في القرآن لا يشترك فيه اثنان أبداً لأن الذات التي سمع منها محمد ﷺ والتي أبصر بنورها والتي عن طريقها عرف العزة وعرف الحكمة لم يكن في الامكان أن يشاركه الناس فيها ولذلك أخبر جميع الرسل أن ما آتاهم من أربابهم إنما هو من الاله الواحد الذي لا يتبدى إلا لواحد من الناس بعينه فيكون من ذلك نبياً ورسلاً وهو ما أوضحه القرآن في كثير من المواقف والقضايا لنتبين أن تلك الشخصيات الالهية لا يمكن إدراكها كما أدركها القرآن ووقعت في روعه وإنما قيمتها الحقيقة في تثبيت مبدأ الايمان ومبدأ الثقة ومبدأ الإمكان ومواجهة العصر.

على مبادئ ومفاهيم الأسماء الحسنى قام القرآن كله بقضاياه ومشاكله ولم تخل آية منها وعلى نفس المعاني قامت شواهد أمة عظيمة شيدها محمد ﷺ من قاع الطين لكن المطلب اليوم هو في التطور وملاحقة القيم العصرية التي يتفجر بها العالم اليوم وليس العلم الذي يهرب منه المسلمون موضوعاً غريباً على القرآن و«العليم» يملأ الوحي والتنزيل وهو الدعامة التي قدمها القرآن لكل معرفة «العليم الحكيم» «العليم الخبير» فلماذا يصيب الأمة الخوف وكأنها مغامرة بحجة حصانة الإيمان من شرور المادية؟

هل توقف العليم أمام أية مشكلة؟ هل جاوزته مسألة لم يقدم فيها جديداً؟! هل يقول القرآن إن الله أبدع العالم من لا شيء ونحن نقف مبهورين أمام الحضارة العلمية؟

إن ما كشفه القرآن للناس من الصفات الإلهية إنما كان قصده تعليم الانسان كيف يكون التقدم وكيف يكون الابداع وكيف يكون الخلق حتى يقول لضعيفي الثقة وفاقدي القدرات ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**﴾ لنتعلم كيف يكون الإبداع والعلوم الطبيعية علمتنا كيف تتغلب الطبيعة على المشكلات وكيف تتجاوز العقبات وأن القيم المعاصرة هي بحق

التي تستطيع أن تعطينا من خلال العلوم الصورة الصحيحة لمفاهيم الأسماء الحسنى وأن العليم عليم بدون حد والخبير خبير دون توقف وإلا كيف تثري الحياة الطبيعية كل يوم بالكائنات المتنوعة الأشكال والألوان والأحجام.

يقول القرآن إن الله هو المصور ليبين في الإبداع أن المادة طوع وليس هناك عقبة في عملية الخلق إلا من خلال مشكلة الإبداع وأن الله المبدع للخلائق قد يمكن من عالم الصور لنتبين أن المسألة تتعلق بالعقل وإمكاناته وقدراته فقط وما على الإنسان إلا أن يمارس تلك القدرات فيصور كل شيء بحسب إرادته وقدراته الذاتية واليوم وقد نمت القدرات الإبداعية بالصناعات والتكنولوجيا فأصبحت المادة طوعاً لعقل الإنسان حتى استجابت الذرة نفسها أمام تلك القدرات.

﴿هُوَ الله الَّذي لَا إِلَهَ إلّا هُوَ عَالِم الغَيْب وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم * هُوَ الله الَّذي لا إِلَهَ إلّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوس السَّلَام المُؤْمِنُ المهيْمِن العَزِيز الجبّارُ المُتَكبّر سُبْحَان الله عَمّا يُشْرِكُونَ * هُوَ الله الخَالِقُ البَارِئ المُصوِّرُ لَه الأسماءُ الحُسْنَى يُسبّح لَهُ مَا فِي السَّموَاتِ والأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحكيمُ﴾[1].

فمسألة الخلق والابداع بالنسبة لله هي سهلة هينة ولا تعدو أن تكون صورة لنتبين أن الانسان كل شيء طوع بيديه بقدرة هذا الرب والمشكلة في إيمان الناس وثقتهم بأنفسهم.

يقول الحديث القدسي إن يد الانسان من الممكن أن تكون يد الله متى كان إيمانه بربه قوياً ومثل ذلك في كل القدرات لنتبين قيمة الايمان وقيمة الافصاح عن تلك الأسماء الجليلة وما فائدة الأديان إذا لم تخلف على أهلها الثقة التي يحدثنا عنها القرآن؟

---

(١) سورة الحشر: الآيات ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤.

نزلت سورة «الحشر» قبيل هزيمة اليهود وتخليهم عن حصونهم وقلاعهم المنتشرة حول المدينة وأوضح القرآن أن هذا النصر قد كشف للقرآن أن الله كما وصفته السورة حتى انتهت إلى «العزيز الحكيم» لنتبين معنى الاستبطان وأنه في الإمكان أن يكون الله مستبطناً للعديد من تلك القدرات وتلك الصفات ثم يظهر أثر ذلك كله في صفة «العزيز الحكيم» الذي حقق النصر الذي كان مستحيلاً لنتبين معنى ثراء الباطن النفسي عند الإنسان وأن الإنسان هو نفسه روح الله في الوجود ولو اتصف الله بآلاف وملايين من تلك الصفات والقدرات فللانسان نصيب منها وإلا من أين يأتي الانسان ما يأتيه من العلم والمعرفة؟

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾

تلك هي مبعث الثقة ومرد الصفات والإفادة منها في تثبيت دعائم الايمان بل هي نفسها معنى اعتبار الذات عند العقلاء ولنتخيل مشكلة العقل العربي والاسلامي وعجزه الواضح عن التوصل إلى نسق القيم المعاصرة والتي تتمثل في قوة الابداع والخلق والابتكار واستخدامات التكنولوجيا ورغم أننا نلمس في كل صفة الهية وردت في القرآن صفة مشتركة هي الإبداع فإن الأمة ما زالت تعبد السلفية التقليدية وما زال التراث يسيطر على التفكير وما يفيد البحث في علم الكلام وقد خلا العصر من الكلام ونطقت الآلة بقوتها وجبروتها ولم يعد الأمر موكولاً إلى اللسان بل أصبح يدين بكل مقوماته إلى ما تنتجه يد الإنسان.

خاتمة

طوفنا مع القرآن في «معجم أسماء الله الحسنى» وبلغت أجزاؤه الستة وشرحنا من قبل كيف استخدم القرآن الأسماء والصفات والكفايات للذات الالهية ثم استعمل الأسماء الرمزية كعناوين للكتب القرآنية الجليلة الشأن مثل كتاب «الم» وكتاب «الر» وكتاب «حم» وكتاب «طسم» وغيرها وأوضحنا أن القرآن شفر الأسماء الحسنى على نهج المنطق الرمزي ليحقق أساليب التكثيف من خلال الفكر البنيوي ورأينا كيف اشترك المهيمن «م» في كتب كثيرة مثل «الم» و«المر» و«طسم» و«المص» لوجود الكثير من العلاقات الفكرية البنيوية في نسق تلك المعارف ووصلنا بالمعجم إلى الجزء السادس الذي بين أيدينا وشرحنا فيه كيف استعمل القرآن الصفة الالهية من المثاني أمثال «الرحمن الرحيم» أو «العزيز الحكيم» وغيرها ليجعل من الذات الالهية معاشرة تاريخية وزمانية ووقتية بل وشخصية مع الناس وكأن الله في تلك الأنساق كان واحداً من الناس يعيش بينهم حتى قال في الآيات ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ لنتبين كيف جعل القرآن من الذات الالهية حضوراً غاية في الوضوح.

لكن القرآن لم يستخدم تلك الصفات الالهية بكثافة واحدة فهناك صفات وردت بغزارة ملحوظة مثل «العزيز الحكيم» وهناك صفات إلهية وردت بندرة واضحة من أمثال تلك الصفات «الفتاح العليم» والتي وردت في سورة «سبأ» عند استعراض القرآن لمشكلة أزلية بين الناس هي مشكلة من هو الذي على الحق ومن هو الذي على الضلالة وذلك مرده لاختلافات العقول

بالفطرة فبين القرآن أن الاختلافات لا بد أن تنشأ بين الانسان لكن إقرار الحق وجعله واضحاً بين الناس إنما هو من عمل «الفتاح» كما نلمس فعله في الطبيعة إذ تنشأ الأنواع والأجناس ثم يكتب لبعض الفناء ويكتب للبعض الآخر البقاء ومثل ذلك ما يحدث في عقائد الناس إذ تنشأ عقائد مختلفة ثم يفتح الله بين الناس بالحق فتبقى العقائد النافعة وتذهب الأخرى وهكذا أوضح القرآن أن هذا «الفتاح» مناط به إخراج الحق للناس ولو كانت الأمة على الحق لفتح الله عليها من قوة هذا «الفتاح العليم» لنتبين خصوصية تلك الصفات الجليلة وأننا أمام إعجاز فكري وقدرة قد تخصصت في الهيمنة على شؤون البشر حتى أصبح «الفتاح العليم» متخصصاً في قضايا الحق والباطل.

لقد كانت لسبأ آيتان عن يمين وعن شمال ولم يفهموا منهما شيئاً لكن الله قد خلقهما ليوضح لعقل الانسان أن الاختلافات من أجل ثراء الحياة ولذلك كان هناك جنة في اليمين وكان هناك جنة في الشمال وما خلقت الاختلافات لتمزيق الانسان وإشعال نار الفتنة ومن الممكن أن يكون اليمين واليسار من عناصر التقدم كما نرى اليوم في الديمقراطيات الغربية ومن الممكن أن يكون هناك شعوب شيوعية يسارية وهناك شعوب رأسمالية يمينية ولا يذهب ذلك بالوفاق والسلام العالمي بل هو من عناصر إثراء تجربة الديمقراطية والطبيعة نفسها شاهد على هذا الأمر واختلافات الأقاليم المناخية ووجود الصحراء وغيرها من الظواهر لم يمنع إبداع الخالق بل كان ذلك سبباً في ثراء الكائنات وتنوعها فلماذا الصراع والفرقة يضرب المثل بضياع النعمة لدى أهل سبأ لأنهم لم يفهموا وظيفة الاختلافات فمزقهم الله شر ممزق.

تلك هي دعوة «الفتاح العليم» إلى قريش إذ أوضح للناس من تجربة سبأ أن كلا الفريقين كان في ضلال ولم يكن هناك فريق منهم على الحق والآخر على الباطل ودعوة محمد ﷺ إلى وحدة الصف رغم الاختلافات العقائدية هي دعوة حق من «الفتاح العليم» الذي ما زالت قضيته حية حتى اليوم وما يجري

بين المعسكـر الغربي والمعسكـر الشرقي هي نفسهـا القضية التـاريخية التي أوضح لنا القرآن ضلال الناس فيها.

تلك هي الأسرار القرآنية لأسماء الله الحسنى قد ضربنا ببعض منها الأمثـال وفتحنـا الباب أمـام الدراسـات المعـاصـرة التي من الممكن أن تحـل محـل الدراسات الشكلية والتي تزخـر بها رسـالات الدكتـوراه وغيرهـا مما يعب من معين التراث والسلفية ولن يروي هذا ظمأ الأمة.

فهرس الكتاب

الباب السادس

الباب السابع